رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التعبير القرآني
والدلالة النفسية

تأليف
الدكتور عبد الله محمد الجيوسي

دار الغوثاني للدراسات القرآنية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التعبير القرآني والدلالة النفسية

د . عبد الله محمد الجيوسي

دار الغوثاني للدراسات القرآنية

الموضوع : القرآن وعلومه

العنوان : التعبير القرآني والدلالة النفسية

تأليف د. عبد الله محمد الجيوسي

عدد الصفحات ٦٢٤

قياس الصفحات : ١٧×٢٤

جميع الحقوق محفوظة

دار الغوثاني للدراسات القرآنية

دمشق : حلبوني - ص ب: ٢٥٢٣٧ - فاكس: ٢٤٥٤٠١٣

هاتف: ٢٤٥٣٦٣٨ (٩٦٣١١ +) - جوال: ٣١٤٣٩٠ ٠٩٣

البريد الالكتروني: algawthani@scs-net.org

تطلب جميع منشوراتنا في

لبنان - بيروت - دار البشائر الإسلامية - هاتف : ٧٠٢٨٥٧ (٠٠٩٦١١)

الأردن - عمان - دار النفائس - هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ (٠٠٩٦٢٦)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة الرسائل الجامعية
(١)

هذا الكتاب في أصله رسالة علمية قدمت لنيل دراسة الدكتوراة في التفسير وعلومه في الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماليزيا وقد نوقشت في عام ٢٠٠١م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ملخص البحث
التعبير القرآني والدلالات النفسية

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الجانب النفسي في التعبير القرآني وبيان مكانه من الإعجاز ، ومن أجل الوصول إلى نتائج منسجمة مع هدف الدراسة فقد تكفلت الدراسة بالإجابة عن السؤال الذي تقوم عليه الدراسة ، حيث يمكن تلخيصه بالآتي :

ما هي الضوابط والمعايير التي يجب مراعاتها عند تفسير القرآن من الوجهة النفسية؟ وفي معرض الإجابة عن ذلك كانت قد كشفت الدراسة عن مدى حاجة المسلمين إلى مثل هذا النوع من الدراسة ، وعن دورها في الميادين التطبيقية كالتربية وعلم النفس ، كما كشفت الدراسة عن مدى إمكانية القيام بتحليل الشخصية الإنسانية في ضوء الهدي القرآني .

قامت هذه الدراسة على منهج الاستقراء لآيات القرآن الكريم ، ثم تصنيفها بما يتناسب وأغراض الدراسة ، آخذة بعين الاعتبار جهود أسلاف المسلمين في ميادين الدراسة ، وحريصة في الوقت ذاته على توظيف أصدق وأدق ما توصلت إليه العلوم الحديثة في هذا المجال .

ومن أجل الوصول إلى نتائج تنسجم مع ما أهداف الدراسة فقد تمّ تقسيم الدراسة إلى أربعة أبواب : كان الباب الأول بمثابة المدخل للدراسة ، حيث تركزت فيه الدراسة على كل ما من شأنه أن يكون معينا على فهم متعلقات الدراسة ، مجيبا في الوقت ذاته عن التساؤلات التي ترد في الذهن والتي تعدّ ضرورية لفهم هذه الدراسة ، أما الباب الثاني من الدراسة فقد حاول الكشف الجوانب النفسية التي تتمثل في البنية الخارجية للتعبير القرآني سواء منها ما كان ناشئا عن جرس الألفاظ وظلها أم ما كان له تعلق بالترتيب الذي عليه المصحف ، أما الباب الثالث من الدراسة فيمكن وصفه بالجانب التطبيقي لما كشفت عنه الدراسة ، فقد تناول البنية الداخلية للتعبير القرآني : (الحرف والكلمة والجملة ثم النظم) ، مع إيراد أمثلة لكل نوع ، كل ذلك مع مراعاة

الضوابط والمعايير التي كشفت عنها الدراسة ، أما الباب الرابع والأخير في هذه الدراسة فقد كان مرحلة من مراحل الكشف عن جوانب الشخصية الإنسانية كما عرضت لها القصة القرآنية وبرزت معالمها من أسلوب الحوار تارة ، والمثل تارة أخرى أو من خلال القصة ، كل ذلك من أجل الوصول إلى بعض الخطوط العريضة للشخصية الإنسانية من جهة ثم من أجل وضع الحروف الأولى على معالم التحليل النفسي القرآني للشخصية الإنسانية ، ختمت الدراسة بفصل كان عنوانه : منهج التفسير النفسي معالم وضوابط ، حيث كان محاولة لوضع قواعد وضوابط لمنهج جديد في دراسة التعبير القرآني ، حاول في الوقت ذاته أن يكشف عن مدى صلة هذه الدراسة بجانب الإعجاز البياني الذي يعدّ الرافد الرئيس والأساس لوجه الإعجاز القرآني .

توصلت الدراسة في خاتمتها إلى مجموعة من النتائج ، حيث تمّ الإشارة إليها في الخاتمة ، كان من أهمها :

أن الجانب النفسي في تفسير القرآن هو الجانب الذي يناسب البشرية جميعاً ، إذ لغة النفس يفهمها كل مخلوق بغض النظر عن لغته ، حتى إن الإشارات تقوم مقام اللغة أحياناً .

أبرزت هذه الدراسة ما يمكن أن يطلق عليه بالإعجاز النفسي ، مبينة في الوقت ذاته على أنه لا يمكن أن يعتبر وجهاً مستقلاً ، وإنما هو إعجاز يسير جنباً إلى جنب مع الإعجاز البياني ، وبالتالي فإن الدراسة قد كشفت عن الوسيلة التي يتجدد فيها وجه الإعجاز الرئيسي وهو الإعجاز البياني .

النماذج التي قدمها القرآن كانت كافية لدراسة جوانب النفس الإنسانية في أحوالها جميعاً .

كشفت عن واقعية المنهج القرآني في معالجة أحوال النفس الإنسانية سواء منها ما اتصل بالتشريعات والتكاليف ، أم ما اتصل ببيان الأحوال .

كما خرجت الدراسة بتوصيات لطلبة العلم حيث تحاول توجيه جهود الباحثين إلى جوانب متصلة بمجال هذه الدراسة .

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

THESIS ABSTRACT

The Quranic Expression and its Psychological Significance

The objective of this study is to highlight the psychological aspects of Quranic expression, and to clarify its position with regard to the miraculous nature of the holly Quran. To achieve this aim, the following question has been addressed.

What are the criteria and regulations that should be taken into consideration while interpreting the holly Quran from a psychological perspective.

The related Quranic ayat to the research concern have been collected & then categorized according to the purpose of the study. The effort of the Muslim scholars in this field were also consulted. Meanwhile the valid & reliable findings of the concern modern sciences have been utilized.

The study pinpointed the necessity of such kind of studies for Muslims. Furthermore, it showed the roles they could play in practical fields such as education and psychology. It also elaborated on the possibility of analyzing human personality based upon Quranic guiedes.The study also was keen to utilize the valid and reliable findings of modern sciences in this field.

The study was divided into four chapters. The first chapter was an introduction which addressed related issues to the main subject of the study. Second chapter, on the other hand, tried to reveal the psychological aspects related to the external structure of the Quranic expression, whether they are related to phonetics or the sequence of the Mushaf.

i.e.,)The third chapter addressed the internal structure of the Quranic expression supported by examples for each category.(letters, words, sentences or composition

The fourth chapter studied the human personality as addressed by Quranic stories, through dialogue, proverbs, or narration. The objective was to reach some guidelines analysis for_for human personality and to lay the foundation of Quranic psycho personality.

The concluding chapter attempted to lay some foundations and standards for a new approach in studying Quranic expression. It also clarified the relationship between this study and linguistic miraculousness, which is the main aspect of Quranic miraculousness.

Finally, the study come up with several findings and offered many suggestions and recommendations for students and researchers in the field.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مفتاح الرموز

فيما يأتي توضيح للرموز التي تم استخدامها في الدراسة :

تح :	تحقيق
ع :	العدد
س :	السنة
هـ :	التقويم الهجري
م :	التقويم الميلادي
مج :	مجلد
د . ن :	دون ناشر
د . م :	دون مكان النشر
د . ط :	دون طبعة
د . ت :	دون تاريخ الطبعة
ت :	تاريخ الوفاة

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما ، اللهم فقهنا في الدين وارزقنا حسن التأويل ، اللهم جنّبنا زلات اللسان والقلم ووفقنا لصواب القول ، . . آمين يا رب العالمين ، وبعد .

فالقرآن الكريم كتاب الله الخالد ، صالح لكل زمان ومكان ، ونصوصه تعطي توجيهاتها لكل بني الإنسان ، ولأنّه خطاب للإنسان فإنّه يصوغ الإنسان شخصيّة متكاملة ، وينشىء مجتمعاً قرآنياً منشوداً ، وهذه هي المهمة التربوية للقرآن ، لكن الأعداء المتربصين بهذا القرآن في كل زمان حينما أدركوا عجزهم عن تحريف ألفاظ القرآن ، وجّهوا كيدهم إلى معانيه ، بهدف تحريفها وتفريغها من روحها ، بحيث تبقى ألفاظاً لا حياة فيها ، ففرّغوا الألفاظ من المعاني ، ونجحوا إلى حدّ كبير في هذا ، حيث سادت النظرة القاصرة هذه ، وشاعت عند كثير من أبناء المسلمين ، فعلى حين يراه بعضهم مجرد كتاب مقدّس ، يراه بعضهم الآخر مجردّ كلام فصيح ، وهذا له من الخطورة ما لا يخفى ، فنحن بحاجة إلى من يعيد النظر في فهم القرآن ، وإدراك وظيفته ودوره في الحياة ، فالقرآن ليس مجرد ألفاظ تتلى ، وإنما هو حياة تسري في شتى مجالات الإنسانية .

والمؤمّل في هذه الدراسة التي أطلق عليها الباحث عنوان : « التعبير القرآني والدلالة النفسية » أن تسهم في هذه المهمة ، حيث تنطلق من ملاحظة البعد الواقعي للآيات ، وتحرير النصوص القرآنية من قيود الزمان والمكان ، وإدراك المعاني والأبعاد التي جاءت بها الألفاظ القرآنية ، فهي تركّز على الجانب النفسي للألفاظ القرآنية ،

وتسلّط الضوء على الأبعاد النفسية من خلال الخطاب القرآني الذي يشخّص الأحداث ، ويصوِّرها للقارىء أيمّا تصوير ، فكل لفظة تعبّر عن مدلول نفسي .

كما حاولت الدراسة أن تقدم أنموذجاً حقيقياً للكشف عن حقيقة النفس الإنسانية من خلال هذه الألفاظ القرآنية فقد كان للنفس الإنسانية حظ كبير من الحديث برز بشكل واضح في أحداث القصص القرآني الذي شهد حضوراً أكبر في آيات القرآن الكريم ، ولمّا كانت النماذج التي يقدمها القرآن لا يحدها زمان أو مكان ، تعددت الشخصيات وتنوعت المواقف واختلفت الأزمنة والعصور ، وكانت النتيجة أن أتى القرآن بمَثَل لكل نفسيّة ، فما من نفس كائنة أو تكون إلا ولها في القرآن مَثَل ونظير ، كل ذلك بعيداً عن إسقاطات علم النفس المعاصر ؛ حيث حرص على الإبقاء على جعل النصوص القرآنية هي المنطلق والمرتكز للدراسة ، ولا يعني الباحث أنه لن يفيد أو يوظِّف ما توصلت إليه العلوم الحديثة في هذا الميدان لخدمة الدراسة ، وبعيداً عن الحديث النظري الذي كان سمةً غالبةً على الدراسات في هذا الميدان ، فإن الباحث حرص على أن يغلب على هذه الدراسة الصبغة الميدانية والتطبيقية والنماذج الحيّة .

تمّ تقسيم الدراسة إلى أربعة أبواب ، يعد الباب الأول منها بمثابة المدخل ، حيث تركزت فيه على كل ما من شأنه أن يكون معينا على فهم مصطلحات الدراسة ومتعلقاتها ، مجيبا في الوقت ذاته عن التساؤلات التي ترد في الذهن ، والتي تعدّ ضرورية لفهمها ، ومن أجل تحقيق ذلك فقد تم تقسيم الباب إلى فصل تمهيدي وفصلين آخرين ، على النحو الآتي : تحدث الفصل التمهيدي من الباب عن إشكالية البحث ، محاولا تحديد الأسئلة التي انطلقت منها الدراسة ، كما تحدث عن الأهداف التي ترمي إليها ، مبينا في الوقت ذاته وجه الأهمية الذي تكشف عنه ، ثم كان استعراض أهم الجهود التي بذلها الأسلاف في الميادين التي لها تعلق بأبواب الدراسة ، أما الفصل الأول فقد كان حديثا عن «دلالة الألفاظ» وتقسيماتها عند أهل الاختصاص، أما الدلالة النفسية فقد كانت عنوانا للفصل الثاني : المقصود بـ«الدلالة النفسية» ، ثم بيان موقعها من دلالة الألفاظ ، ثم بيان حدودها ، مع الإشارة إلى العوامل المؤثرة فيها ، ثم كان الحديث عن دور اللفظ في الكشف عن الجوانب النفسية ، مع بيان الوسائل الأخرى التي يستخدمها المرء في العادة للتعبير عما في النفوس .

أما الباب الثاني فقد تناول جوانب عدة متعلقة بالبنية الخارجية للتعبير القرآني التي تشمل كل أثر نفسي أحدثه القرآن الكريم في النفوس كجرس الألفاظ وظلها ، ومكانة هذا المتلو من النفوس وموقعه من القلوب ، وقد يكون بسبب من ترتيب الآيات والسور فيه أو تقسيماتها أو غير ذلك مما ليست له صلة مباشرة باللفظ ، حيث تم الحديث عن ذلك في ثلاثة فصول ، على النحو الآتي : الفصل الأول بعنوان تأثير القرآن في النفس الإنسانية ، استعرض الباحث فيه جوانب من التاريخ تشير إلى تأثير القرآن في النفوس ، ومكانه منها ، محاولا الإجابة عن السر الذي يكمن وراء هذا التأثير ، أما الفصل الثاني فقد تناول أبرز جوانب التأثير في القرآن وهي الناحية الصوتية ، أو بعبارة أخرى تكمن في الأثر الصوتي للألفاظ القرآنية ، محاولا الكشف عن جوانبها ، وأما الفصل الثالث والأخير فقد تحدث عن الأسرار النفسية التي تكمن وراء ترتيب الآيات والسور بالشكل الذي عليه القرآن ، ثم محاولة الكشف عن الجوانب النفسية التي لها تعلق بظروف نزول القرآن وأحوال المنزل عليهم .

والباب الثالث سلّط الضوء على بعض الجوانب النفسية التي تتشكل منها كلمات القرآن وجمله ، في ضوء الأساليب المعروفة عند أهل اللغة العربية ، وأبرز جهود الأسلاف الأوائل ميدان البلاغة ، كما حاول أن يضع القواعد والضوابط لها ، إذ هي التي يتشكل منها إعجاز القرآن البياني ، هذا الباب ركّز على بعض المباحث التي تندرج تحت هذه الأقسام مبرزاً جوانبها النفسية بإذن الله تعالى مبتدئا بـ : الحرف ، ثم الكلمة ، ثم الجملة .

أما الباب الرابع فقد كان عنوانه : مواقف وملامح نفسية في القرآن ، حيث تم استعراض بعض النماذج التي عرض لها القرآن الكريم ، تكفّل بالحديث عنها مسلّطا الضوء على تلك الجوانب النفسية التي تنطوي عليها هذه المواقف ، سواء أكانت هذه النماذج المشتملة على المواقف التي برزت من خلال أسلوب الحوار ، أم من أسلوب العرض السريع ، أم من خلال المثل القرآني ، أم حتى من خلال القصة ، لكن كان هذا التقسيم الفني للفصول والمباحث في هذا الباب تمّ لاعتبارات تتعلق بحجم المتحدث عنه الذي كان ناشئا عن حجم وروده في كتاب الله تعالى ، فكان الحديث في الفصل الأول عن المواقف القرآنية باعتبارها أعم من القصة ، وفي الوقت ذاته يدخل

فيها المشاهد التي عرضت لها الآيات المتحدثة عن اليوم الآخر ، كما تناول الفصل جانب المثل القرآني من الوجهة النفسية ، ثم كان الحديث عن الحوار باعتباره أبرز الوسائل التي تكشف عن أسرار النفس الإنسانية من جهة ، ثم باعتباره أصدق صورة لرسم ملامح الشخصية الإنسانية . وتناول الفصل الثاني منه القصة القرآنية من الجانب النفسي ، ثم كان الحديث عن بعض ملامح الشخصية الإنسانية بوجه عام ، ومحاولة إلقاء الضوء على الخطوط العريضة للنفس الإنسانية . وتحدّث المبحث الثاني من الفصل عن المرأة كنموذج للنفسية الإنسانية ، مع محاولة للكشف عن بعض الجوانب النفسية لدى المرأة كما هي في أحداث القصة القرآنية . أما الفصل الثالث والأخير من الباب الأخير فقد حاول الباحث فيه الكشف عن مدى الحاجة إلى مثل هذا اللون من الدراسة ، ثم بيان ما إذا كان بالإمكان توضيح الملامح العامة ورسم الخطوط العريضة لوجهة في التفسير هي الوجهة النفسية ، من أجل الوصول إلى نتائج منضبطة ومنسجمة مع المنهجية العلمية من جهة ، ثم من أجل أن تبقى الدراسة في مأمن من الانحراف أو سوء التأويل كان لا بد من بيان الضوابط التي ينبغي أن تراعى في دراسة من هذه الوجهة .

ولما كان مثل هذا العمل الشاق يحتاج إلى جهود مضاعفة وتدبر عميق لنصوص كتاب الله فإن الباحث يتوجه إلى الله العلي القدير ليطلب منه العون والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الأول

مدخل إلى الدراسة

ويتضمن الفصول الآتية :

الفصل التمهيدي : مقدمات البحث

الفصل الأول : دلالة الألفاظ

الفصل الثاني : الدلالة النفسية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل التمهيدي

مقدمات البحث

المبحث الأول
محددات الدراسة

إشكالية البحث

تكمن الإشكالية الأساسية للبحث في الإجابة عن السؤال التالي :

ما الضوابط التي تجب مراعاتها عند تفسير القرآن الكريم من الوجهة النفسية ؟

والإجابة عن هذه الإشكالية تتم من خلال الإجابة عن الأسئلة الفرعية الآتية :

* ما مدى قيمة الاعتماد على اللفظ القرآني وجعله منطلقاً لدراسةٍ من هذا النوع ؟

* ما مدى حاجة المسلمين إلى مثل هذا اللون من ألوان الدراسة ؟

* ما دور علم البلاغة في إبراز ما في النفوس ؟

* ما مدى توظيف هذه الدراسة في الميادين التطبيقية كالتربية وعلم النفس ؟

أسباب اختيار الموضوع

لعل أهم الأسباب التي دعت الباحث إلى اختيار هذا الموضوع هو : عدم وجود دراسة مستوفاة في هذا الميدان تقدم منهجاً متكاملاً ، ومفاهيم كلّية ، وتطبيقات عملية كافية في هذا الجانب ، مستوحاة من القرآن الكريم ، عرض لها من خلال نصوصه الموزّعة على القرآن كله ، وهناك أسباب أُخرى عديدة ، منها :

* حاجة الأمة الإسلامية إلى إضفاء الروح الإسلامية على العلوم الحديثة التي تنسب للغرب من جهة ، وتقرن بشيء من تحدي هذه الأمة في مصادر ثقافتها وتصورها .

* كثرة الإشارات التي حوتها نصوص القرآن في هذا الجانب ، فالذي يمعن النظر في آيات الكتاب يجد أن المدلولات النفسية لهذه الألفاظ لها حضور في كل مشهد ، بل في كل آية ، فهذا التوزيع للمدلولات النفسية على نصوص القرآن يشير إلى أنه موضوع جدير بالدراسة .

* يقين الباحث أن هذه الدراسة سوف تُسفِر عن نتائج دقيقة ، يمكن توظيفها في دراسة سلوك الأفراد والجماعات ، كما يمكن الاستفادة منها في ميادين كثيرة ، من أهمها : ميدان التربية ، وسرّ هذه الدقة يكمن في أن مصدر المعرفة في هذا الجانب هو خالق هذه النفس ، وبالتالي فهو حديث خالٍ من أي أثر بشري .

* هذه الدراسة تطلعنا على لون جديد من ألوان الإعجاز القرآني ذلكم هو : الإعجاز النفسي .

أهداف البحث

يصبو الباحث من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية :

١) تحديد الضوابط والمعايير التي يمكن أن تسلك لدراسة وتحليل السلوك الإنساني كما عرض له القرآن الكريم .

٢) محاولة استخراج مقدمات المنهج الذي يجب اتباعه لمن أراد دراسة القرآن من الوجهة النفسية .

٣) استثمار نتائج هذه الدراسة والاعتماد عليها لدراسة سلوك الأفراد والجماعات على ضوء سنن الله تعالى في النفس والمجتمع ، وبالتالي تحديد النقاط التي يمكن أن تكون منطلقاً للتغيير .

٤) الرد على شبهات المغرضين فيما يتعلق بتنزيل القرآن وتوزيع آياته من جهة ، ثم فيما يتعلق بوصفه بالقصور عن الوفاء بحاجات البشر من جهة أخرى .

٥) الوقوف على سرّ المشكلات التي تواجه البشرية في هذا الزمان وأسبابها ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها ، فما الأزمات التي نواجهها الآن ويواجهها العالم بأسره إلّا صور لأزمات قديمة في التاريخ .

أهمية الموضوع

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من طبيعة موضوعها ، والظاهرة التي تعالجها ، ومنهج تناولها ، حيث يمكن إجمال جوانب أهمية الدراسة في الآتي :

* حاجة المكتبة الإسلامية والدراسات القرآنية إلى مثل هذا اللون من ألوان الدراسة الذي لا يزال في بعض جوانبه مجاهيل ، خاصّة فيما يتعلّق بالنواحي الوجدانيّة ، فالموضوع يحتاج إلى مزيد من الجهود والعناية والاهتمام والدراسة .

* الارتباط المزدوج لموضوع الدراسة بالعلوم الأخرى ، ففي الوقت الذي يرتبط فيه من جهة بعلم النفس ، نجده يرتبط من جهة أخرى بعلم البلاغة ، لكنّه بعلم النفس ألصق لدخوله تحت أحد أنواع هذا العلم ، وهو ما يطلق عليه اسم علم اللغة النفسي (Psycho linguistic) ، وفائدته تبرز في أنّه يطلع روّاد هذا الميدان على وجهة النظر القرآنيّة في ذلك .

فالدراسة تهم المشتغلين في ميادين علم النفس ، وعلم التربية ، ويظهر ذلك من جانبين : الجانب الأوّل : أنّها تسهم في تفسير السلوك الإنساني وتحليله من خلال النماذج القرآنيّة التي عرض لها ، كما تمكنهم من التنبؤ بسلوك بعض الأفراد والجماعات ، وبالتالي وضع الأسس التي في ضوئها يتم التعامل معهم ، فالقرآن يعتبر أحداث التاريخ مختبراً يُستقرأ فيه نتائج السلوك الإنساني ، ولهذا كثُر في توجيهاته : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾[1] ، الجانب الثاني : أنّها تمكّن علماء التربية من الاستفادة في ميدان التربية الوقائيّة في ضوء المنهج القرآني كتحديد معايير النفس السويّة وغير السويّة .

والمؤمّل أن تسهم هذه الدراسة في تبصير الإنسان بنفسه ، كما تحقّق له نوعاً من الحماية من كثير من الأمراض النفسيّة ، وذلك بما تحويه هذه الدراسة من التركيز على الجانب الإيمانيّ وأثره على النواحي النفسيّة .

---

(١) انظر : سورة يوسف ، الآية ١٠٩ ، سورة غافر ، الآية ٨٢ ، وسورة محمد ، الآية ١٠ ، وانظر : سورة الروم ، الآية ٩ ، سورة فاطر ، الآية ٤٤ ، سورة غافر ، الآية ٢١ ، حيث كانت بالواو بدلا من الفاء : ﴿أَوَلَمْ﴾ .

وهذه الدراسة تُعدُّ نوعاً من التدبُّر في النصّ القرآنيّ ، فكما هو مطلوب من المسلم التفكُّر في هذا الكون ، مطلوبٌ منه التفكُّر ـ أيضا ـ في النّفس الإنسانيّة ، كما يأمل الباحث أن تسهم في حلِّ كثيرٍ من المشكلات التفسيريّة .

منهجية البحث

انسجاماً مع طبيعة الموضوع وأهدافه ، فإن الباحث سوف يركز على الجانب التطبيقي في هذا الميدان ، متجاوزاً منهج السرد والنقل ، إلّا فيما يخدم الموضوع من ناحية التوظيف .

* فالمنهج قائم أولاً على استقراء الآيات القرآنية التي لها صلة بموضوع الدراسة ، ثم تصنيفها بما يتناسب وأبواب الدراسة .

* الاستفادة من كتابات المتقدمين في تجلية هذه الجوانب والأبعاد .

* تنزيل ما توصلت إليه العلوم الحديثة على أرض الواقع في حالة موافقتها لما توصلت إليه الدراسة وذلك من أجل الاستفادة منها في ميادين التربية .

* استخدام منهج تحليل المضمون لاستخراج الأبعاد النفسية من نصوص القرآن الكريم .

الدراسات السابقة

لم يغِب عن أذهان كثير من المفسرين وعلماء البلاغة وجود إشاراتٍ غير مباشرة إلى الجانب الذي تتولى هذه الدراسة الحديث عنه ، وهو : الكشف عن حقائق النفس الإنسانية من خلال الألفاظ القرآنية ، وقد كانت هذه الإشارات متناثرة في بطون كتب التفسير وعلوم البلاغة هنا وهناك ، ولم يعثر الباحث ـ حسب المعلومات المتوفرة لديه ـ على من سلّط الضوء على هذه الدراسة ، أو ذكرها بصريح العبارة في كتابات المتقدمين ، ولا عجب فالكشف عن هذه العلوم النفسيّة جاء متأخراً ، أما حينما ينتقل الحديث من الألفاظ إلى الإطار العام للنصوص ، نجد أن الأمور تبدو أكثر وضوحاً في كتاباتهم ، فقد تكلّم علماؤنا عن الجوانب النفسية هذه في ثنايا حديثهم عن القضايا الكبرى المتعلقة بعلوم القرآن من مثل : (أسرار تنجيم القرآن ، الناسخ والمنسوخ ،

أسباب النزول ، عموم اللفظ وخصوص السبب ، التناسب بين السور . . وغير ذلك مما له صلة بالقرآن وعلومه) .

وإذا ما انتقل الحديث إلى ما يحدِثه القرآن من تأثير في النفوس ـ وهو جزء من هذه الدراسة ـ فإن الأمر يصبح أكثر وضوحا في كتابات المتقدمين ، بدأً بصحيفة بشر بن المعتمر ت (٢١٠هـ) التي نقلها إلينا الجاحظ ت (٢٥٥هـ) وتوسّع فيها(١) ، ومرورا بالرمّاني ت (٣٨٦هـ) الذي بدا واضحاً لديه هذا الجانب من خلال تعريفه للبلاغة بأنها : « إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ »(٢) ، إلا أن الذي ذكر ذلك صراحة واعتبره أحد وجوه الإعجاز القرآني إمام السنة المعروف : أبو سليمان الخطابي ت (٣٨٨هـ) حيث قال : « وجه آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس . إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ، ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس ، وتنشرح به الصدور »(٣) .

ثم أشار الباقلاني ت (٤٠٣هـ) إلى بعض الجوانب المتعلقة بأثره في النفوس(٤) ، ثم حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي ت (٥٠٥هـ) حيث أشار إلى أعمال الباطن في التلاوة ، وهي عشرة ، كان أحدها (التأثّر) قال : « ينبغي لتالي القرآن أن يتأثّر قلبه بآثار مختلفة ، فيكون له بحسب كل فهمٍ حالٌ ووجدٌ ، يتصّف به قلبه من الحزن

---

(١) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : البيان والتبيين ، (بيروت : دار صعب ، ط ١ ، ١٩٦٨م) ، ١/ ١٣٥ .

(٢) الرمّاني ، أبو الحسن علي بن عيسى ت (٣٨٦هـ) : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت في إعجاز القرآن) ، تح : محمد أحمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، (القاهرة : دار المعارف ، د . ط . ت) ، ص ٦٩ .

(٣) الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم : ثلاث رسائل في الإعجاز (البيان في إعجاز القرآن) ، تح : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٤ ، د . ت) ، ص ٧٠ .

(٤) الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم : إعجاز القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، (القاهرة : دار المعارف ، د . ط . ت) ، ص ٢٧ وما بعدها ، وانظر : ص ٢٤٤ وما بعدها .

والخوف والرجاء وغيره من وجوه الإعجاز »[١] .

وبمجيء الجرجاني[٢] ت (٤٧١هـ) صار الحديث يتخذ لونا آخر ، فقد كان تصريحا بوجود دلالات أُخرى لهذه الألفاظ ترتبط بالمعاني ، مع التأكيد على وجود علاقة بين الألفاظ ومقتضى حال المخاطب ، حيث استند في نظرية النظم إلى عنصر القارىء وعملية التأثير فيه ، كما عوّل كثيرا على الذوق وتنبيه الحس اللغوي لزنة الأساليب ودرك خصائصها ، وقد وجدناه يستند في كتابه أسرار البلاغة إلى هذا الجانب عند حديثه عن الصياغة والتصوير والجمال[٣] ، وتسلّم الزمخشريّ[٤] ت (٥٣٨هـ) هذا الجهد الجرجاني ، وأخذ يطبق نظرية الإمام الجرجاني في ثنايا تفسيره ، والذي يعنينا من ذلك تلك اللمحات السريعة إلى هذا الجانب التي نجدها في تفسيره ، والتي جاءت في ثنايا الحديث بالأصالة عن البلاغة وإبراز نواحي الإعجاز في القرآن الكريم من خلال الأساليب البيانية .

ظل الأمر كذلك ، فلم يزد من جاء بعد الجرجاني على ما قعّده شيئا يذكر ، فكل من خاض غمار هذا الميدان كان أسيرا لما قعّده الجرجاني[٥] حتى وقت متأخر من هذا العصر .

---

(١) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد : إحياء علوم الدين ، (بيروت ، دار المعرفة ، د . ط . ت) ، ١/ ٢٨١ .

(٢) إمام البلاغة المعروف : عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم ، من مؤلفاته : دلائل الإعجاز ، الرسالة الشافية ، أسرار البلاغة .

(٣) للمزيد انظر : الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد : دلائل الإعجاز ، تح : محمد التنجي ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٩٩٥م) ، ص ٤٦ ، ١٩٨ . وانظر : الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، (القاهرة : مكتبة القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩م) ، ص ٣ .

(٤) أبو القاسم جار الله الزمخشري المفسّر المعتزلي المعروف في تفسيره المشهور بـ (الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) .

(٥) لا بد من الإشارة هنا إلى أن المعنيّ بالحديث هو الجانب النفسي الذي يكمن وراء الميدان البلاغي ، وأما إذا ما انتقلنا إلى الحديث عن جهود علمائنا في ميدان النفس الإنسانية فهو بلا شك ميدان فسيح ، خاض غماره ثلة من علمائنا الأفذاذ من أمثال حجة الإسلام : الإمام الغزالي وابن سينا وابن رشد والفارابي والرازي وغيرهم ممن سيأتي الإشارة إليهم في ثنايا هذه الدراسة إن شاء الله ، وللمزيد انظر : ربيع ، محمد شحاته : التراث النفسي عند علماء المسلمين ، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، ١٩٩٣م) . =

ومع ظهور مدرسة التفسير الحديثة على يد (محمد عبده ورشيد رضا) التي تمثلت في تفسير المنار ، تجددت الدعوة للفكرة ، وأخذت الفكرة تتسع شيئاً فشيئاً ، حتى بدت أكثر وضوحاً وصراحةً في الدراسات الأدبية الحديثة ، التي كانت بدورها تتخذ أكثر من وِجهة كالوِجهة البلاغية ، وكان من بين هذه الوجهات : الوجهة النفسية التي تعني عند من يتكلّم عنها : تحليل نفسية الكاتب من خلال النص ، أو من خلال نفسية المتحدث عنه .

فقد نادى الرافعي[١] ت (١٣٥٦هـ) من جانبه باستخدام هذا المنهج في دراسة البلاغة ، وأخذ على البلاغيين تقصيرهم في استخدام هذا المنهج ، ولا شك في أنه قد أضاف لوناً جديداً للفكرة في جانبها النفسي ، وتكرّرت الدعوة في كتاباته عن البلاغة وعن إعجاز القرآن ، إلى أن تكاملت وتبلورت هذه الفكرة على شكل دعوة صريحة في كتابات أمين الخولي[٢] ت (١٣٨٥هـ) حين ذكر أن أهم قواعد التفسير : (دراسة شخصية صاحب النص)[٣] ، ثم تتابعت كتاباته في هذا الشأن حتى تكاملت فيما بعد

---

(١) مصطفى صادق الرافعي ، عالم بالأدب ، شاعر ، من كبار كتاب العربية المعاصرين ، له ديوان شعر ، ومن كتبه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، وتحت راية القرآن ، ووحي القلم ، والمعركة التي قامت رداً على كتاب طه حسين : « في الشعر الجاهلي » ، وغير ذلك كثير .

(٢) أديب مصري معروف ، شخصية جمعت بين الاتصال بالحضارة الغربية ومناهجها في الدراسة وبين الدراسة العربية والدينية ، فقد تخرّج من مدرسة القضاء الشرعي ، وارتحل إلى أوربا فأتقن الإيطالية والألمانية ، وقرأ كثيرا من آدابهما ، وألمّ بالحركة الاستشراقية ومناهج أصحابها في الدراسة ، كان شديد الإعجاب بمحمد عبده ، فتأثر به وسلك سبيله في الدعوة إلى تجديد حياة التفسير القرآني ، من مؤلّفاته : مدخل لدرس التفسير ، دراسات لبعض موضوعات القرآن ، البلاغة العربيّة ، مشكلات حياتنا اللغويّة ، ت (١٣٨٥هـ ـ١٩٦٦م) ، تقلّد عدة مناصب في الحكومة المصريّة ، وشارك في عدّة مؤتمرات . انظر : الزركلي ، خير الدين : الأعلام (قاموس تراجم) ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٦ ، ١٩٨٦م) ، ٢/ ١٦ . وانظر : خليل ، السيد أحمد : دراسات في القرآن ، (القاهرة : دار النهضة المصرية ، د . ط ، ١٩٦٩م) ، ص ١٤٧ .

(٣) انظر : الخولي ، أمين : مادة « تفسير » ، دائرة المعارف الإسلامية ، إعداد وتحرير : إبراهيم زكي خورشيد ورفاقه ، (القاهرة : دار الشعب ، ط ٢ ، ١٩٦٩م) ، ٩/ ٤٢٥ .

إلى مناداته بلون جديد من ألوان التفسير ، وهو التفسير النفسي ، وأشار إلى ضرورة الاستعانة بأُصول علم النفس في دراسة البلاغة ، حيث يرى أن استخدام المنهج النفسي في الأبحاث البلاغية يزيل ما وصلت إليه البلاغة من جفاف وجمود[١] .

لكن دعوة الرافعي وأمين الخوليّ هذه لم تُصحب بأمثلة كافية للولوج بهذه الفكرة إلى النص ، كما حمل الفكرة نفسها السيّد خليل في كتاباته[٢] ، وأكد على أنّ النص القرآني يقف فريدا بين هذه النصوص ، فهو تنزّل من السماء على الرسول ﷺ ، وهو المبلِّغ له والمفسِّر لنصوصه ، كما أنّ هذا النص يمثِّل شخصيته تمثيلا دقيقا في سلوكها مع الناس وفي نظرتها إلى المجتمع ، ثم إلى البشرية كلها ، ثم إلى الكتب الدينية التي دانت بها ، ثم إلى التجربة الدينية التي عاشتها ، كما يمثلها في رضاها وغضبها ، وفي كل ما يعتري النفس البشرية من سأم أو اضطراب ، وهو في كل هذا يؤكد بشرية الرسول ويتخذها أساسا للتقديس ، وقد أشار إلى القصص القرآني وكيف أنه يكشف عن الخطى التي مرت بها حياة الإنسان منذ اتصلت الأرض بالسماء عن طريق الوحي ، كما أنه يعقد المقارنات الكاشفة عن الفكر الديني بين التجربة الإنسانية الواقفة عند حدود الحس وبين تلك التجربة التي تنزلت أصولها من السماء[٣] .

وأما بالنسبة لما يسمى بعلم دلالة الألفاظ[٤] (Semantics) ، فعلى الرغم من أنّ ارتقاءه وظهوره بشكل مستقل بين العلوم كان بشكل بارز في العصر الحديث ، إلا أنّه فنّ قديم الظهور ، تحدّث عنه علماؤنا وتناولوا أبرز جوانبه ، فقد كان محطّ عناية علماء الأصول[٥] والمتكلمين وعلماء اللغة .

---

(١) الخولي ، أمين : البلاغة وعلم النفس ، (القاهرة : مجلة كلية الآداب ، مج ٤ ، ج ٢ ، د . ت) ، ص ١٣٥ـ١٦٧ .

(٢) من أهمّها : دراسات في القرآن ، المدخل إلى دراسات البلاغة الحديثة ، تقويم اللسان والتعليم بالقرآن .

(٣) خليل : المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ، (بيروت : دار النهضة العربية ، د . ط ، ١٩٦٨م) ، ص ١٤٠ـ١٥٧ .

(٤) حيث يعدّ هذا العلم جزءاً لا يتجزأ من هذه الدراسة ، إذ من خلال هذا العلم استطاع العلماء الوقوف على المعاني النفسية التي تنطوي عليها الألفاظ .

(٥) سيأتي الحديث عن دور علماء الأصول في ميدان دلالة الألفاظ ، إذ كان مبحث دلالات الألفاظ=

فأول ما يصادف الدارس في هذا المجال مجموعة من الرسائل اللغوية التي شكّلت فيما بعد غريزة لمعاجم المعاني ، فالجانب المعجمي من أقدم المباحث الدلالية لدى علمائنا القدامى[١] ، ثم إن في كتب الأقدمين مباحث متفرقة هي في الصميم من مباحث دلالة الألفاظ ومعانيها كالمترادف والمشترك والأضداد والخاص والعام والألفاظ الإسلامية ، ولعل من ألصق تلك الكتب بعلم الدلالة وتطور الألفاظ كتاب الزينة[٢] وهو كتاب في تطور معاني الألفاظ من الناحية التاريخية كما تتبع معانيها من العصر الجاهلي حتى العهد الإسلامي ، وقد برزت عناية الكتاب بشكل خاص في الألفاظ الإسلامية ، ومن هذا الباب أيضاً كتاب الفروق اللغوية[٣] .

أما في العصر الحديث فقد ارتقت مباحث معاني الألفاظ بشكل بارز ، ساعد في ذلك ظهور ما يسمى بعلم الصوتيات (Acoustics) ، واللسانيات (Linguistics) ، وعلم تمثيل الأصوات (Phonetics) ، وعلم اللغة النفسي (Psycholinguistics) الذي أوضح الصلة بين التفكير والشعور من جهة ، واللغة من جهة أخرى ، كل ذلك انتهى إلى نشوء علم خاص تحت اسم علم دلالة الألفاظ (Semantics) ، وكان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر ، في مقال كتبه ميشيل بريال (M... Breal) عام (١٨٨٣م) بعنوان: (Essai de Semantique) ، عني فيه ببحث الدلالة في بعض ألفاظ اللغات القديمة التي تنتمي إلى الفصيلة الهندية الأوروبية كاليونانية واللاتينية والسنسكريتية ، وخلص من بحثه إلى نتائج هامة ، وقواعد عامة في حدود الدلالة وتطورها[٤] ، ثم ظهر كتاب

= من أهم مباحث علم الأصول ، كما ستأتي الإشارة إلى أن علماء الأصول هم أفضل من درس الدلالة ، انظر : الفصل الأول من هذه الدراسة .

(١) انظر : مثلا الراغب ، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني ت (٥٠٢هـ) : المفردات في غريب القرآن ، تح : محمد سيد كيلاني ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط . ت) ، وابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن زكريا ت (٣٩٥هـ) : معجم مقاييس اللغة ، تح : عبد السلام محمد هارون ، (بيروت : دار الجيل ، ط ١ ، ١٩٩١م) .

(٢) أبو حاتم ، أحمد بن حمدان الرازي ت (٣٢٢هـ) طبع الكتاب في جزأين في القاهرة ، ثم طبع طبعات عديدة .

(٣) انظر : العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ت (٣٩٥هـ) : الفروق اللغوية ، تح : أحمد سليم الحمصي ، (بيروت : جروس برس ، ط ١ ، ١٩٩٤م) .

(٤) انظر : أنيس ، إبراهيم : دلالة الألفاظ ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٦ ، =

ذاعت شهرته بعنوان : حياة الألفاظ لدارمستتر (Darmesteter) عام (١٨٨٧م) ، لكن الملاحظ على هذه الكتابات أنها كانت تقتصر على الناحية التاريخية الاشتقاقية للألفاظ ، ثم تطورت دراسة دلالة الألفاظ (Semantics) فيما بعد ، وأصبح الدارسون لها يتجهون إلى العوامل الخارجية ذات الأثر في الألفاظ من إنسانية واجتماعية وغير ذلك ، كان ذلك بظهور كتاب نيروب (Nyrop) عام (١٩١٣م) بعنوان : نحو اللغة التاريخي (Grammaire Historique) ، ولعل ما يعنينا من ذلك كله هو وجود فريق من الدارسين المحدثين الذين كانت لهم عناية خاصة بالنفس الإنسانية وبالعاطفة ، ورأوا أن العاطفة يمكن إدراكها من خلال الوقوف على اللفظ ، وأن ذلك يختلف باختلاف الناس وتجاربهم في الحياة ، ولعل أبرز المحاولات في هذا الميدان تلك التي قام بها الأستاذ أولمان(١) (Ulmann) ، حيث استخلص فيها معاني الألفاظ من مختلف آراء من سبقه في الحديث عن هذا الميدان . ويبقى أمامنا تلك الدراسة التي تعدّ من أجمع الدراسات في هذا الميدان التي اشترك فيها كل من (Osged وrichard) بعنوان (The Meaning of Meaning) ، عالجا فيه مشاكل الدلالة من نواحيها المتعددة في ضوء النظم الاجتماعية ، وفي ضوء علم النفس من شعور وعاطفة ، مما جعل لكتابهما قيمة علمية جليلة بين الدارسين لدلالة الألفاظ(٢) ، فالمعنى عندهم يعود إلى أربعة أمور : ١ـ القصد ٢ـ القيمة ٣ـ المدلول عليه ٤ـ الانفعال العاطفي(٣) . ثم تتابعت الكتابات في هذا الميدان حتى أصبحت من الكثرة بحيث تلفت الأنظار . تجدر الإشارة إلى وجود

= ١٩٩١م) ، المقدمة . وانظر : المبارك ، محمد : فقه اللغة وخصائص العربية ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) ، ص ١٥٦ وما بعدها .

(١) كتاب بعنوان : المبادىء الأساسية في دلالة الألفاظ ، أخرجه باللغة الإنكليزية عام (١٩٥١م): Principles of Semanrtics ثم قام باختصاره في كتابه الآخر الذي كتبه بالفرنسية بعنوان: (Precis de semantique Francaise) موجز في دلالة الألفاظ باللغة الفرنسية صدر عام ١٩٥٢م.

(٢) انظر : أنيس : دلالة الألفاظ ، المقدمة .

(٣) للمزيد انظر : حماد ، أحمد عبد الرحمن : العلاقة بين اللغة والفكر ، (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، ١٩٨٥م) ، ص ٦١ .

كتابٍ قيم في هذا الميدان بعنوان (Linguistic Semantics:)[(١)] ، تناول فيه الكاتب الحديث عن معنى المعنى وأشكال التعبير (Speech and Utterance) ، ثم الكلمة بين الشكل والمضمون ، كما تعرض لأنواع المعاني ، وأشار إلى النظريات في هذا الميدان (Theories of meaning and kinds of meaning)[(٢)] ، انتقل بعدها من الحديث عن الكلمة إلى الحديث عن الجملة كوحدة متكاملة ، والمعاني التي تؤديها الجملة بجوانبها المختلفة ، ومن بينها المعاني النفسية ، مبرزاً أهمية السياق في ذلك كله ، والشيء الأكثر وضوحاً في هذه الدراسة ، هو محاولة الكاتب أن يلقي الضوء على تطور المعنى اللغوي وتاريخه ، مع إبراز العلاقة فيه بين الماضي والحاضر وأصل المعنى اللغوي[(٣)] .

لكنّ هاهنا ملحوظة لا بد من الإشارة إليها ، وهي أن الذي يطالع في الكتب يلمس أنّ أكثر هذه الجوانب اللغوية أخذت لدى الغربيين صورة النظريات المبتكرة التي أقاموا عليها مدارسهم ، واتجاهاتهم النظرية والتطبيقية ، وعلى الرغم من الحذر المنهجي في ادّعاء الأسبقية ، فالمؤكّد أنّ علماء المسلمين أسبق في هذا الميدان ، مع ملاحظة أنّ علم اللغة الحديث أضفى على هذه المباحث الصفة المنهجية القائمة على تصور كلي للنشاط اللغوي[(٤)] ، ومما يذكر في هذا المقام أنّ أول الكتب ظهوراً في اللغة العربية ، ويحمل هذا العنوان : « دلالة الألفاظ » هو كتاب إبراهيم أنيس عام (١٩٥٨م) ، حيث جمع فيه ما كتب قديما في اللغة العربية ، وما كتب حديثا في اللغات الأجنبية وخاصة في الإنجليزية ، يهمنا من هذا الكتاب أنه ألمح عند حديثه عن أنواع الدلالات إلى العمليات النفسية التي تسبق النطق وتمهّد للفهم ، وما يترتب على ذلك من أعمال

---

(١) انظر:
Lyons/ John/ Linguistic Semantics Cambridge University Press First published 1995 .

(٢) Lyons: Linguistic Semantics P40 .

(٣) انظر أيضاً للمزيد:
Carnop/ Rudolf/Meaning and necessity (A Study in and Modal Logic/The University of Chicago Press/Ltd/ London 8891. Semantics .

(٤) للمزيد انظر : قدور ، أحمد محمد : مقدمة لدراسة التطور الدلالة في العربية الفصحى في العصر الحديث ، (الكويت : مجلة عالم الفكر ، مج ١٦ ، ع ٣ ، ١٩٨٥م) ، ص ٣٣ .

أو تصرفات[1] ، ثم تتابعت من بعد هذا الكتاب تلك الكتب التي تحمل العنوان نفسه أو الفكرة نفسها[2] .

فيما يأتي ذكر لبعض الدراسات وثيقة الصلة بموضوع البحث وتستحق التسجيل :

الأولى : كتابات سيد قطب : بدأ بمقالاته التي كان ينشرها في مجال النقد الأدبي[3] حيث كان الملاحظ أنه كان يشير فيها إلى دور النقد الأدبي في الكشف عن أبعاد النفس الإنسانية ، مؤكداً في الوقت ذاته على أن المنهج الفني بحاجة إلى المنهج النفسي ليقوم بوظيفته على الوجه الأكمل ، وانتهاء بتفسير الظلال الذي كان ميدانا عمليا لتسجيل أفكاره في هذا الخصوص .

١ـ في ظلال القرآن[4] : من يقرأ في الظلال يلحظ أنه لم تغب هذه الفكرة عن ذهن صاحب الكتاب ، بل قد لا نعدو الحقيقة إن قلنا بأنه أول من استطاع الولوج بالفكرة وتنزيلها على النصوص ، مبرزاً جوانبها النفسية من بين بقية الجوانب ـ ولا عجب ـ

---

(١) انظر : أنيس : دلالة الألفاظ ، ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) من هذه الكتب : مختار عمر ، أحمد : علم الدلالة ، الفاخوري ، عادل : علم الدلالة عند العرب ، أبو شريفة ، عبد القادر : علم الدلالة والمعجم العربي ، السيد ، صبري إبراهيم ، علم الدلالة (إطار جديد) ، غيو ، بيار : علم الدلالة ، الكراعين ، أحمد نعيم : علم الدلالة بين النظرية والتطبيق ، والداية ، فايز : علم الدلالة بين النظرية والتطبيق ، وغير ذلك كثير .

(٣) من هذه المقالات ما كان ينشر في مجلة الثقافة ، ومنها ما كان ينشر في مجلة الرسالة ، ومنها ما كان ينشر في صحيفة دار العلوم ، فيما يأتي سوف يذكر الباحث أهم تلك المقالات التي لها علاقة بهذا الشأن :
ـ دلالة الألفاظ على المعاني ، (مصر : مجلة الثقافة ، ع ٧٨و ٧٩ ، نوفمبر ـ يوليو/ ١٩٤٠م) .
ـ الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية ، (مصر : صحيفة دار العلوم ، ع ٣ و٤ ، يناير/١٩٣٨م) ، ص ٢٣و ١٠٢ .
ـ المعاني والظلال ، (مصر : مجلة الرسالة ، ع ٥٨١ـ٥٨٣ ، أغسطس/ ١٩٤٤م) .
ـ النماذج البشرية المهموسة ، (مصر : مجلة الرسالة ، يوليو/١٩٤٣م) ، ص ٥٢٩ـ٥٣١ .
ـ الصور والمعاني (الحس والذهن في الشعر العربي) ، (مصر : مجلة الكتاب ، السنة الأولى ، ١٩٤٥م) ، ص ٨٥٠ .

(٤) طبع أكثر من ثمان طبعات (طبعته دار الشروق) ، انظر : قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، (القاهرة : دار الشروق ، ط ١١ ، ١٩٨٥م) .

فهي تشكل طرفاً من نظريته المعروفة بالتصوير الفني في القرآن ، فعند تفسيره لآية تتعلق بمجال علم النفس نجده يسلط الضوء على تلك المعاني التي يمكن التماسها من معاني تلك الآية ، ولعل أبرز هذه الميادين وضوحاً وأخصبها مجالاً للحديث عن هذه المعاني تلك الآيات التي تتحدث عن القصص القرآني .

لكن كانت الوجهة الأدبية هي السمة الغالبة على تفسير الظلال ـ كما هو معلوم ـ إذ يعدُّ هذا التفسير أحد ألوان الاتجاه الأدبي في التفسير ، وبالتالي كان حديثه عن الجوانب النفسية يأتي في ثنايا الحديث عن الجوانب الأُخرى الرئيسة ، وقد جاء ذلك منسجما مع منهج سيد قطب الذي كان يؤكد على خطورة الأخذ بمالم يستقر من العلوم ، وبهذا تتأكد ضرورة وجود دراسة مستقلة تلّم بالموضوع من جميع جوانبه ، وتكون الوجهة النفسية هي المحور الأساسي للدراسة .

٢ـ التصوير الفني في القرآن[١] : تحدّث في بدايته عن سحر القرآن وأثره في النفوس ، وذكر نماذج من السيرة كان لها تأثر كبير في هذا القرآن ، مشيرا إلى أن هذا الأمر مما أقر به العدو قبل الصديق ولا ينكره أحد ، ومشيراً أيضا إلى بعض تلك الجوانب التي يؤثّر فيها ، من ذلك : أنه يلمس الوجدان ، ويحرِّك المشاعر ، ويفيض الدموع ، ويزيد الخشوع ، كما أشار إلى أن منبع السحر في القرآن قبل التشريع كان في صميم النسق القرآني ، كما تناول فيه عناصر التصوير وألوانه ، وأن التصوير هو الأداة المفضلة في التعبير القرآني ، مبيناً في الوقت ذاته دور ذلك الأسلوب في الوقوف على مشاعر النفس الإنسانية ، وكشف حقائقها ومكنوناتها ، كما أودع فيه كمّا هائلا من الأمثلة الحية والنماذج البشرية ، وأبرز جانب التشخيص والتخييل والتجسيم ، وكل ذلك مما له صلة بالدراسة .

٣ـ مشاهد القيامة في القرآن[٢] : تناول فيه طرفا من هذه الدراسة ، مركِّزا على المشاهد التي تعرض لنا حال الإنسان يوم القيامة ، ملقياً الضوء أحيانا على ما لهذه المشاهد من ظلال نفسية وأبعاد وجدانية ، فموضوع هذا الكتاب واضح من عنوانه ، إذ استعرض فيه الآيات القرآنية التي عرضت لمشاهد الناس ومصائرهم يوم القيامة ،

---

(١) قطب ، سيد : التصوير الفني في القرآن ، (القاهرة : دار المعارف بمصر ، د . ط . ت) .
(٢) قطب ، سيد : مشاهد القيامة في القرآن (بيروت : دار الشروق ، د . ط . ت) .

ولا يخفى ما في هذا الميدان من معان نفسية ، كشف غطاءها التعبير القرآني .

الثانية : الحوار ورسم الشخصيات[1] : تناول الكاتب فيه مجموعة من النماذج البشرية ، ووقف على سماتها النفسية ، كما حاول استنباط بعض سمات الشخصية من خلال الحوار الذي كان محور الكتاب ، كما سلّط الضوء على أنماط الشخصية ، مستعينا في ذلك بإبراز أبعادها النفسية أحياناً ، وهذا يتعلق بجزء من جوانب هذه الدراسة ، وهو ما يتعلق بالقصص الذي هو أحد أجزاء هذا البحث ، كما نجده قد أشار في الخاتمة إلى أن الحوار له أثره النفسي العميق بين المتحاورين ، فالحوار يشير إلى انفعالات النفس الإنسانية المتنوعة التي توجه سلوك الإنسان نحو الخير والفضيلة ، وتبعده عن الشر والرذيلة ، كما تحدث عن اللفظ القرآني ناقلاً لنا مقولاتهم فتركت نماذج إنسانية في كل زمان ومكان ، كما بيّن دور الأحداث في القصة القرآنية ، وضرب أمثلة للنموذج بين الرجل والمرأة في القصة القرآنية ، ونموذج الخير والشر في القرآن الكريم ، وبعد فمن فضول القول أن نشير إلى أن هذه الدراسة لم تتعرض لبقية ألفاظ القرآن التي تثري ميدان هذه الدراسة ، كما أنها كانت منحصرة في الجانب المتعلق بالقصة وما يتصل بها ، وهذا يؤكد الحاجة إلى هذا النوع من الدراسة .

الثالثة : النماذج الإنسانية في القرآن الكريم[2] : هذا الكتاب قريب إلى حد كبير من موضوع الكتاب سابق الذكر ، إذ تعرّض فيه الكاتب لمعنى النموذج في الدراسات الأدبية ، ثم الإنسان في القرآن ، كما سلّط الضوء على الملامح الإنسانية ، وحاول أن يبرز من خلال هذه النماذج المتنوعة تلك الطبيعة البشرية ، كما تعرّض لبعض هذه النماذج في علاقاتها الإنسانية بحسب موقعها من الأسرة والمجتمع ، مثل : الأبوة ، الأمومة ، البنوة ، الأخوة ، الزوجية ، وغير ذلك ، لكنه في نهاية الأمر لا يعدو شذرات وإضاءات سريعة في هذا الميدان ، قد يكون حجم الكتاب مؤشرا إلى هذا .

---

(١) زكريا ، عبد المرضي : الحوار ورسم الشخصيات ، (القاهرة : مكتبة زهراء الشرق ، د . ط ، ١٩٩٧م) ، يقع في ٢٦٤ صفحة .

(٢) فارس ، أحمد محمد : النماذج الإنسانية في القرآن الكريم ، (بيروت : دار الفكر العربي ، ط ٢ ، ١٩٨٩م) ، يقع في ١٤٠ صفحة .

الرابعة : التفسير البياني للقرآن الكريم[1] : حيث تشكّل هذه الدراسة نموذجاً تطبيقياً للمنهج الأدبي في التفسير ، فالشأن فيها شأن المدرسة الأدبية ، لم يكن التركيز فيها على الجوانب النفسية ، إلا أنها حدثتنا فيه عما في القرآن من آيات تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى منافذ شتى من الحواس ، لكنّه مع ذلك كله كان حديثاً موجزاً ، لم يزد على ومضات تناثرت هنا وهناك .

الخامسة : لمحات نفسية في القرآن الكريم[2] : أشار فيه الكاتب إلى أن النصوص القرآنية لا ينبغي أن تقارن بالمبادىء النفسية أو العلمية ، ذلك لأنها لا تكون ثابتة ، كما ذكر بعض الحقائق النفسية التي اشتمل عليها القرآن ، وعرض للتكوين النفسي للإنسان في القرآن ، وتحدث عن طبيعة النفس الإنسانية وخصائصها كما عرض لها القرآن الكريم ، وقد تعرّض لبيان دوافع النفس الإنسانية وضوابطها ، ثم تناول في الفصل الأخير من الكتاب مجموعة من المواقف النفسية في القرآن الكريم ، مشيرا إلى أن الموقف في الدراسات النفسية يشمل ثلاثة عوامل : النمط السلوكي ، الإنسان في أبعاده التكوينية ، المحيط البيئي ، سيما المجال النفسي ، وقد أبرز أهمية الموقف القرآني ودوره في الوقوف على حقائق النفس الإنسانية ، ثم فرّق بين الموقف والقصة القرآنية ، وضرب نماذج سلوكية وأخرى نفسية ، فجاء الكتاب مشتملاً على مجموعة متنوعة من النماذج البشرية في القرآن الكريم .

ومن ذلك كتاب الظاهرة القرآنية : لمالك بن نبي حيث تحدث عن بعض الجوانب النفسية التي ترك القرآن أثرها على صاحب الرسالة ، وقام بتحليل النصوص الأولى من التنزيل في ضوء المفهوم النفسي ، مشيرا إلى دور الوحي في ذلك .

كما لا يفوت الباحث أن يشير إلى بعض الكتب التي تناولت القصة القرآنية من الجانب النفسي ، ككتاب سيكولوجية القصة في القرآن[3] ، وهو عمل وجهد قيّم في

---

(١) بنت الشاطى ، عائشة عبد الرحمن : التفسير البياني للقرآن الكريم ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٧ ، ١٩٩٠م) ، تبنت فيه أفكار أستاذها وزوجها أمين الخولي .

(٢) الهاشمي ، عبد الحميد محمد : لمحات نفسية في القرآن الكريم ، (الرباط : إصدارات مجلة دعوة الحق ، س ٢ ، ع ١١ ، صفر / ١٤٠٢هـ) .

(٣) رسالة دكتوراه قدّمت لجامعة الجزائر ، نقرة ، التهامي : سيكولوجية القصة في القرآن ، =

ميدانه ، حيث أبرز الكثير من الجوانب النفسية ، فهو بلا شك يرتبط بجانب من هذه الدراسة ، وله قيمته العلمية .

ولا بُد في هذا المقام من الإشارة إلى المحاولات الكثيرة من الكتّاب المعاصرين لضرب أمثلة واضحة تدل على وجود نوع من الإعجاز في الحديث عن النفس ، وقد لا نتجاوز الحقيقة إن قلنا بأن أغلب الكتب الحديثة التي تحدثت عن إعجاز القرآن كانت تشير إلى هذا اللون من ألوان الإعجاز(١) ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : محمد فريد وجدي(٢) جعل هذا الوجه : (الإعجاز النفسي) أهم وجوه الإعجاز ، وأشار إلى أنّ كل ما عداه من الوجوه يقصر عنه ، حيث نجده بعد أنه يشير إلى أن النفس بطبعها تملّ الشيء إذا قرىء أكثر من مرة إلا أن الشأن مع القرآن غير ذلك ، فتكرار تلاوته تزيد تأثيرا في النفوس ، والعلة أن القرآن روح من أمر الله ، كما قال عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾(٣) ، كما يستدل لذلك بأنه يدركه الطفل والعاميّ والجاهل باللغة (كتأثر الأعاجم) فضلا عن الكبير والمتعلم والعارف .

أما بالنسبة للكتابات باللغة الإنجليزية التي اهتمت بجانب من الدراسة :

فمن بينها تفسير أبي الأعلى المودودي : (تفهيم القرآن) The meaning of the Qura'n)(٤) .

حيث أشار في مقدمة تفسيره إلى أثر القرآن الكريم هذا ، كما ذكر في ثنايا تفسيره مجموعة من اللطائف النفسية المتعلقة بآيات القرآن العزيز مستفيدا مما توصلت إليه العلوم الحديثة في هذا الميدان ، مؤكدا في الوقت ذاته على سيادة اللفظ القرآني

= (تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٧م) .

(١) انظر مثلا : شعراوي ، محمد متولي : معجزة القرآن ، وأبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى ، عباس ، فضل حسن : إعجاز القرآن ، الخالدي ، صلاح : البيان في إعجاز القرآن ، وغيرها كثير .

(٢) وجدي ، محمد فريد : دائرة معارف القرن العشرين ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٣ ، ١٩٧١م) ، ٧/ ٦٧٥ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٥٢ .

(٤) Maududi S. Abul A'la/ The Meaning of Qura'n/ Pakistan: islamic Publication (PVT) /0002/ 2nd Edition .

واعتباره المرجع الأول في هذا الميدان ، وقد بدا ذلك واضحا من خلال تأكيده على ضرورة استثمار ذلك في ميدان الدعوة والاستفادة منه عند التعامل مع الآخرين .

ومن ذلك أيضا تفسير محمد مرمديوك بيكتولThe Meaning of the Glorious : Qur'an [١]: حيث أشار إلى أثر القرآن النفسي ودوره في معالجة هموم النفس ، كما تحدث عن ذلك الخواء الروحي عند الغرب وكون القرآن هو المنقذ الوحيد من أمراض البشرية ، وقد برز حديثه عن الموسيقى القرآنية وإعجابه بذلك في أكثر من موضع .

ومن بين تلك الكتب القيمة في هذا البابMajor Theames of the Qur'n [٢] ، حيث تعرّض فيه لبعض ملامح النفس الإنسانية ، كما تحدّث عن بعض النماذج السلوكية عند الإنسان ، وقد ذكر بعض المشاعر التي تحدث عنها القرآن ، كما تحدث عن دوافع الإنسان ، كما تحدّث عن ظلم النفس ومعانيه ، ثم أشار إلى ما يعتري النفس الإنسانية من حالتي القوة والضعف ، وأشار إلى وسائل حماية النفس من الذنوب والمعاصي ، وأثر القرآن في النفس الإنسانية[٣] .

أما فيما يتعلق بعلم النفس من الوجهة الإسلامية ، فإنّ الكتابات الحديثة فيه كثرت في هذا الزمان ، إذ لا نعدو الحقيقة إن قلنا بأن عشرات من الكتب صدرت تحمل في عناوينها هذه الفكرة ، خاصة بعد تلك الدعوة التي تبناها المعهد العالمي للفكر الإسلامي فيما يتعلّق بفكرة أسلمة علم النفس ، فأصبح القارىء في المكتبة الإسلامية يجد حضوراً لمثل هذا اللون من الدراسة ، وقد تراوحت الفكرة ما بين مندفع لها ، وما بين رافض لها ، محذِّرا من خطورة ما تؤول إليه مثل هذه الدعوة ، على أنّ الأمانة العلمية تتطلّب منا أن نشير إلى أنّ بعض هذه الكتابات كانت تتسم بالإنصاف والاتزان ، فهي وسط بين الموقفين المشار إليهما آنفاً[٤] .

---

(١) The Meaning of the Glorious Qur'an Pickthall Muhammd Marmaduke William

(٢) Fazlur Rahman/ Bibliotheca Islamica/ Minneapolis/ 9891/2nd Edition

(٣) انظر : ص١٩-٢٩ من الكتاب المذكور .

(٤) قد يكون أول وأهم هذه المحاولات ما كتبه محمد عثمان نجاتي من بين تلك الكتابات : كتاب سبع ، توفيق محمد : نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني ، قطب ، محمد : دراسات في النفس الإنسانيّة ، وكتابات متعددة لبعض الكتّاب المعاصرين ، من أمثال مالك البدري ، =

في ضوء ما تقدم فإن الباحث يرى أن الموضوع ما زال في أمسّ الحاجَة إلى دراسة تتناوله ضمن إطار كلي :

تجمع شتات ما كتبه الأقدمون والمحدثون في هذا الميدان .

تركز على الجانب التطبيقي فيه .

تبرز غناء النصوص القرآنية في إبراز الأبعاد النفسية .

تلقي الضوء على أهم الضوابط التي يجب أن تراعى في مثل هذه الدراسة .

ترد على شبهات المغرضين في هذا الميدان .

تضع هذا الموضوع في مكانه الصحيح بين علوم النفس الحديثة .

تقف بالقارىء على ضوابط ومنهجية السير بالتفسير في هذا الجانب .

المبحث الثاني
مصطلحات ومفاهيم عنوان الدراسة

عنوان الدراسة : التعبير القرآني والدلالة النفسية من العناوين المركبة ، شأنه شأن سائر المركبات اللفظية ، لا يمكن الوقوف على معناه وتحديد المقصود منه ، إلاّ بالوقوف على معاني مفردات هذا التعريف ، وهي : « التعبير » « القرآني » « الدلالة » « النفسية » ثم الوقوف على معناه باعتباره عنوانا لهذه الرسالة .

التعبير(Expression :) لغة واصطلاحاً : في اللغة : من الثلاثي (ع بَ ر) ، وهو أصل صحيح واحد يدل على النفوذ والمضي في الشيء[١] . وأصل العبر تجاوز من حال إلى حال[٢] .

الملاحظ أن الاشتقاق الأكبر[٣] لمادة (عَبَرَ) : يفيد الانتقال والتحول ، إذ كيفما

= وحسن الشرقاوي ، وعبد الوهاب حمّودة ، وفؤاد أبو حطب ، وظفر آفاق أنصاري ، وغيرهم .

(١) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ٤/٣٠٧ .

(٢) الراغب : المفردات ، ص ١٧١ .

(٣) الاشتقاق الأكبر للمادة يشمل : (ع ب ر ، رع ب ، ب رع ، ب ع ر ، ر ب ع ، ع ر ب) .

تقلبت اللفظة فإن معنى الانتقال يبقى واضحاً .

يقال : عبرت النهر عبوراً . وعبر النهر : شطه ، ورجل عابر سبيل : مار ، وعبرة الدمع : جريه . وفي الأساس[1] : « وعبرت الكتاب عبرا : قرأته في نفسي ، ولم أرفع به صوتي » .

ومن الباب : عَبَرَ الرؤيا يعبرها عَبْراً وعِبارة ، ويعبِّرها تعبيراً ، إذا فسّرها فلفظة التعبير اختصت بالرؤيا[2] اختصاصا عرفيا ، وهو العابر من ظاهرها إلى باطنها ، نحو قوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[3] . وسميت الألفاظ الدالة على المعاني : عبارات ، لأنها تفسّر ما في الضمير الذي هو مستور ، كما أن المعبِّر يفسِّر ما هو مستور ، ولأنها تكلم عما في الضمير[4] ، وفي معنى العبارة : تفسير ما في نفس المتكلِّم وإظهاره والإعراب عنه ، نخلص مما تقدم إلى أن لفظة التعبير تستعمل للإفصاح عن أمر ما ، ومعنى الانتقال واضح فيه .

وفي الاصطلاح : التعبير مصطلح اشتهر عند كل من (اللغويين والفلاسفة وعلماء النفس) ، وهو عند جميعهم في نهاية الأمر يؤدي إلى معنى واحد ، ولهذا يمكن الاقتصار على ما ذكره الجرجاني[5] : « هو إظهار الشيء والإفصاح عنه بعبارة تبرز الأفكار والمشاعر »[6] ، وتطلق عبارة النص على : النظم المعنوي المسوق له

---

(١) الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد : أساس البلاغة ، تح : محمد باسل عيون السود ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٩٨م) ، ١/ ٦٣١ .

(٢) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، (بيروت : دار صادر ، ط ١ ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م) ، ٤/ ٥٢٩ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٤٣ .

(٤) البخاري ، عبد العزيز : كشف الأسرار على أصول البزدوي ، (القاهرة : مطبعة الصنايع ، د . ط ، ١٣٠٧هـ) ١/ ٦٧ .

(٥) الجرجاني ، السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين أبي الحسن الحسيني ت (٨١٦هـ) : التعريفات ، تح : عبد الرحمن عميرة ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ١ ، ١٩٨٧م) .

(٦) هذا التعريف يتفق إلى حد كبير مع ما يعني به علماء النفس ، وهو : كل ما يصدر عن الكائن الحي من سلوك بهدف الإفصاح عن رغبة أو إشباع حاجة ، أو تحقيق غاية ، آخذين بعين الاعتبار أن سلوك كل كائن يرتبط عادة بطبيعته ويتحدد بخصائصه ، وعند بعضهم يعني : الجزء=

الكلام ، وسميت العبارة « عبارة » لأن المستدل يعبرُ من النظم إلى المعنى ، والمتكلم من المعنى إلى النظم ، فكانت هي موضع العبور ، فإذا عمل بموجب الكلام من الأمر والنهي يسمى ممتثلا لما دلت عليه عبارة النص .

ومما يجدر ذكره أن مصطلح « التعبيرية » (Expressionism) المشهور في العصر الحديث[١] أخذ من هذا المعنى ، وهو غير مصطلح « التعبير الذاتي »[٢] (Self-Expression) ، والجدير بالذكر أن المشتغلين بالدراسات اللغوية فرّقوا بين التعبير عند الإنسان وبينه عند الحيوان ، بأن اللغة عند الإنسان ذات مقاطع صالحة للدخول في تراكيب تدل دلالة واضحة على معان كلية ، أما لغة الحيوان فهي لغة انفعالية غريزية[٣] ، وقد نبه كل فريق على أن الكلام لا يختص باللفظ فقد تقوم الإشارة مقامه ، وبهذا يتبين أن مصطلح التعبير يشير إلى :

* الدلالة على ما في النفس بالكلام أو بأي وسيلة أخرى ، وإظهار الأفكار .

* تمثيل المعاني والحالات النفسية المعينة تمثيلا .

= من الاستجابة الذي يمكن أن نستدل منه على السلوك الكلي للكائن الحي . انظر : قنديل ، شاكر ، ومجموعة من المؤلفين : معجم علم النفس والتحليل النفسي ، (بيروت : دار النهضة ، ط ١ ، ١٩٩٤م) ، ص ١٢٤ .

(١) « هو مذهب في الفن ، يهدف أولا إلى التعبير عن المشاعر والعواطف والحالات الذهنية التي تثيرها الأشياء ، أو الأحداث في نفس الفنان ، ظهر هذا المصطلح في القرن العشرين (قبيل الحرب العالمية الأولى في ألمانيا وازدهر فيها) ، يركِّز بالدرجة الأولى على الشكل ، ويقدِّم الشخصي على الاجتماعي ، واللاعقلي على المنطقي ، ولهذا يتم تحريف صور العالم الواقعي ، بحيث تتلاءم مع مشاعر أصحاب هذا المذهب » . انظر : روزينال ويودين : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة : سمير كرم ، (بيروت : دار الطليعة ، ط ٦ ، ١٩٨٧م) ، ص ١٣٣ ، والبعلبكي ، منير : موسوعة المورد ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١ ، ١٩٨١م) ، ١/ ٩٢ .

(٢) الذي يعني عند أهل اللغة : الإعراب عن المعاني بطريقة لا تتمشى مع قواعد اللغة والأدب ، وذلك كالتعبير عن (أن المقدمات لا تبشِّر بنتيجة حسنة) ، انظر : وهبة ، مجدي ، والمهندس ، كامل : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، (بيروت : مكتبة لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٤م) ، ص ١٠٩-١١٠ بتصرف .

(٣) انظر : المطعني ، عبد العظيم إبراهيم محمد : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٩٩٢م) ، ١/ ٢٥ .

يمكن الخلوص مما تقدم إلى تعريف جامع لمصطلح التعبير كما يقصده الباحث في ثنايا هذا البحث : إظهار ما في النفس والإفصاح عنه بشتى الوسائل التي يستخدمها الإنسان عند تواصله مع الآخرين بما في ذلك الكلام والإشارة وملامح الوجه ، وتصويره للأذهان تصويراً بارزاً لا غموض فيه .

وبهذا نستطيع أن ندرك صلة هذا المعنى الاصطلاحي بمعناه اللغوي ، فمعنى الانتقال فيه بارز ، ومعنى التحول من حال إلى حال فيه لا يخفى .

لفظ « القرآني » : منسوب إلى (القرآن) ، والقرآن في اللغة : مصدر على وزن فُعلان[1] بالضم ، يقال قرأته قراءة وقرآنا : تلوته تلاوة ، ثم جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴾[2] ، أي قراءته . ثم صار علماً شخصياً لهذا الكتاب الكريم .

في الاصطلاح : « هو كلام الله ، المعجز ، المتعبد بتلاوته ، المنزل على سيدنا محمد ﷺ ، المنقول إلينا بالتواتر ، المبدوء بسورة الفاتحة ، والمختوم بسورة الناس ، والمجموع بين دفتي المصحف »[3] .

---

(١) اختلف أهل العلم في لفظ القرآن : جامد هو أو مشتق . فالذين قالوا بأنه مشتق اختلفوا في مصدر اشتقاقه : فمنهم من جعله مهموزا ، وجعلوا اشتقاقه من القرء : بمعنى الضم والجمع . ومنهم من قال بأنه غير مهموز مشتق قرن بمعنى الجمع أيضا . والألف واللام يدل على أصل الاشتقاق عند أصحاب هذا القول ، وأما الذين قالوا بأنه جامد فالألف واللام عندهم للتعريف ، أما لفظ القرآن عندهم فيعني : علم مرتجل خاص بكتاب الله تعالى . وليس من غرض الباحث في هذا المقام أن يرجح أحد القولين على الآخر ، ويكتفي بالإحالة على كتب علوم القرآن التي بسطت القول في هذا ، مثل الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ١٣٩١هـ) ، ١٦/١ وما بعدها ، والسيوطي ، جلال الدين : الإتقان في علوم القرآن ، (بيروت : المكتبة الثقافية ، د . ط ، ١٩٧٣م) ، ٥١/١ ، الزرقاني ، عبد العظيم : مناهل العرفان في علوم القرآن ، (القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، د . ط ، ١٩٨٠م) ، ١١/١ . وانظر : العاني ، عبد القهار داود : دراسات في علوم القرآن ، (كوالا لامبور : الجامعة الإسلامية العالمية ، ط ٢ ، د . ت) ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٢) سورة القيامة ، الآية ١٧ .

(٣) اقتصر بعض المتأخرين في تعريف القرآن على قولهم : « هو كلام الله المنزّل على محمد ﷺ=

بعد بيان معنى كل من لفظة « التعبير » ولفظة « القرآني » تجدر الإشارة إلى المعنى الاصطلاحي الذي يفيده اقترانهما معاً .

التعبير القرآني : هو الطريق الذي سلكه القرآن الكريم في بيان معانيه والكشف عن مراده من خلال النسق الذي ينتظم حروف القرآن وكلماته وجمله حيث تشكلت منه الآيات والسور ويشمل التراكيب اللغوية ، والأسلوب ، والسياق (متلوا ومقروءا) .

الدلالة :

في اللغة : مصدر الدليل ، تلفظ (بالفتح والكسر)[١] . من (د ل ل) وهو أصل يدل على طول وتهدُّل في سواد ، وفيه معنى الانبساط ، يقال : دل يدل ، إذا هدى . ودله على الشيء يدله دلالة : سدده إليه . قال الراغب : « الدلالة : ما يتوصل به إلى معرفة الشيء ، كدلالة الألفاظ على المعنى ، ودلالة الإشارات والرموز في الكتابة ، والعقود في الحساب ، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة أم لم يكن بقصد ، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حيّ ، قال تعالى : ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾[٢] ، وأصل الدلالة مصدر كالكناية ، والإمارة ، . . ويسمى الدالّ والدليل : دلالة ، كتسمية الشيء بمصدره »[٣] ، فالدلالة تستعمل في اللغة لمعان عدة ، يمكن أخذها من تعريف أبي هلال العسكري[٤] حين حصرها في أربعة أوجه ، على النحو الآتي :

= المتعبد بتلاوته » فلفظة الكلام : جنس شامل لكل كلام ، وإضافته إلى الله تميّزه ، والمنزل : يخرج بها كلام الله تعالى الذي استأثر به في نفسه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به ، وقوله على محمد : لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبل ، وقوله المتعبد بتلاوته : يخرج مالم نؤمر بتلاوته كالقراءات المنقولة بطريق الآحاد والأحاديث القدسية . انظر : دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، (الكويت : دار القلم ، ط ٦ ، ١٩٩٣م) ، ص ١٢-١٤ بتصرف ، اختير هذا التعريف الجامع المانع رغبة في عدم الدخول في التفاصيل .

(١) قاله الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : العين ، تح : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، (العراق : وزارة الثقافة والإعلام ، د . ط ، ١٩٨٥م) ، ٨/٨ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ١٤ .

(٣) الراغب : المفردات في غريب القرآن ، ص ٣٢٠ بتصرف .

(٤) العسكري ، أبو هلال : الفروق اللغوية ، ص ٧٣-٧٤ بتصرف .

* ما يمكن أن يستدل به .

* العبارة ، يقال : أعد دلالتك ، أي عبارتك .

* الشبهة ، يقال : دلالة المخالف كذا ، أي شبهته .

* الأمارة ، يقول الفقهاء : الدلالة من القياس كذا .

ثم أشار فيما بعد إلى أن الأمارة تستعمل فيما يؤدي النظر فيه إلى غلبة الظن بخلاف الدلالة التي يؤدي النظر فيها إلى العلم .

في الاصطلاح : مصطلح « الدلالة » من المصطلحات التي حظيت بمكانة كبيرة في كل من علم أصول الفقه ، وعلم البيان وعلم المنطق ، ولهذا وجدنا أن أهل كل فن من الفنون الآنفة الذكر قد أولوا عناية خاصة بهذا المصطلح ، وذلك أنهم يتعاملون به مباشرة مع النص ، « فكان ضرورة أن يعنى الأصولي بتحقيق دلالة الألفاظ في النصوص التشريعية ، وكان لزاماً - أيضاً - أن تغايرها حركة وزاد البلاغي نحو غايته »[(١)] ، ويمكن القول بصفة عامة بأن هذا المصطلح يعني عند القدماء :

« كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو الدال ، والثاني هو المدلول »[(٢)] ، والجدير بالذكر أن العلاقة بين الدال والمدلول هذه قد تكون طبيعية ، وقد تكون عقلية (منطقية) ، وقد تكون عرفية (وضعية) ، وبهذا نلحظ أن ارتباط لفظ « الدلالة » في الاصطلاح بدلالته في اللغة واضحة « حيث انتقلت اللفظة من معنى الدلالة على الطريق وهو معنى حسي إلى معنى الدلالة على معاني الألفاظ وهو معنى عقلي مجرد »[(٣)] .

يتضح مما تقدم أن الدلالة : هي ما يمكن أن يستدل بها على معنى من المعاني قد

---

(١) سعد ، محمود توفيق : دلالة الألفاظ عند الأصوليين (دراسة بيانية ناقدة) ، (مصر : الأمانة ، ط ١ ، ١٩٨٧م) ، ص ٧ .

(٢) وهو تعريف الجرجاني ، انظر : الجرجاني ، السيد الشريف : التعريفات ، ص ١٣٩-١٤٠ .

(٣) انظر : حيدر ، فريد عوض : علم الدلالة (دراسة نظرية وتطبيقية) ، (القاهرة : مكتبة النهضة ، د . ط ، ١٩٩٨م) ، ص ١٢ ، حرصاً من الباحث على المنهجية فأنه يؤثر أن يترك الحديث عن تفصيلات الأصوليين والبلاغيين وعلماء الكلام وتقسيماتهم للدلالات ، وأنواعها إلى الفصل المخصص له من هذه الدراسة .

يفهم صريحاً من النص أو الكلام ، وهو بهذا يقابل مصطلح دلالة النص عند الأصوليين أو دلالة العبارة[1] ، وقد توجد قرائن تدل عليه ، وهو بهذا يقابل مصطلح دلالة الإشارة عندهم .

النفسي : نسبة إلى النفس ، والنفس : من الألفاظ المشتركة التي لا يفهم معناها بمعزل عن السياق الذي وردت فيه ، إذ تأتي في اللغة على ذات الإنسان ، ولها معان عدّة ، كلها وردت في المعاجم ، فالنفس تطلق ويراد بها : الروح ، الجسد ، الدم[2] : وسُمي الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه . العقل ، العين ، النية والقصد . ولا تعارض بين المعاني المتقدمة ، حيث يجمعها شيء واحد : « كل ما له صلة بذات الإنسان » ، فالنفس « يعبّر بها عن الإنسان جميعه » . فالدم جزء من هذه النفس ، والجسد وعاؤها ، والروح علة الحركة والحياة فيه ، وبمجموع ذلك تتكون ذات الإنسان ، ويطلق عليها نفس .

في الاصطلاح : مفهوم النفس من المفاهيم التي عرض لها الفلاسفة منذ أقدم العصور ، فمنذ الفلاسفة الإغريقيين نجد تعريف (النفس) بدأ بسقراط ، فمروراً بتلميذه أفلاطون ثم أرسطو[3] ، والجدير بالذكر أن مفهوم الفلاسفة لهذه النفس يختلف في بعض الجوانب عنه عند المسلمين[4] ، وخلاصة الأمر أن النفس عند الفلاسفة عبارة

---

(١) الجدير بالذكر أن : كيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص : ووجه ضبطه : أن الحكم المستفاد من النظم إما أن يكون ثابتاً بالنظم نفسه أو لا . والأول : إن كان النظم مسوقاً إليه فهو العبارة وإلاّ فالإشارة . والثاني : إن كان الحكم مفهوماً من اللفظ لغة فهو الدلالة ، أو شرعاً فهو الأقتضاء ـ كما سيأتي تفصيل ذلك ـ .
انظر : الجرجاني ، السيد الشريف : التعريفات ، ص ١٣٩ـ١٤٠ بتصرف .

(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٦/ ٢٣٣ـ٢٤٠ .

(٣) العاني ، نزار : الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي ، (عمان : دار الفرقان ، د . ط ، ١٩٨٨م) ، ص ٩ـ١١ .

(٤) لو استعرضنا المسيرة التاريخية لمفهوم النفس عند علمائنا المسلمين لوجدنا أن الذين تعرضوا له فريقان : الفلاسفة والمتصوفة ، تعريف الفلاسفة من المسلمين للنفس لم يخرج كثيراً عما ذهب إليه أرسطو من اليونان (أول من حدد تعريفاً للنفس) ، وساعد في ذلك أن القرآن لم يلزمهم بتعريف محدد لها ، انظر : العثمان ، عبد الكريم : الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي=

عن مزيج من العقل والقلب والبدن ، حيث يقسّمونها إلى : جزء علوي : مكانه العقل وتنتج عنه فضيلة الحكمة ، جزء أوسط : مكانه القلب ومنه العواطف النبيلة وتنتج عنه فضيلة الشجاعة ، جزء سفلي : يتعلق بالشهوات وتنتج عنه فضيلة العفة ، أما النفس في الإسلام فتطلق على : (ذات الإنسان) وهي تشمل روح الإنسان وجسده .

يذكر أن مفهوم النفس في الإسلام قد تجاوز الثنائية (النفس ـ الجسد) ، وأضاف لها عنصراً جديداً هو (مفهوم الروح) ، وبذلك تشمل النفس الإنسانية : (قلب الإنسان وعقله وروحه) ، لو تتبعنا تطور مفهوم النفس لوجدنا أنه :

تأثّرت تعريفات المسلمين بالفلسفة اليونانية خاصة فيما لا يتعارض مع العقيدة .

أضاف علماء المسلمين مفاهيم جديدة للفكر النفسي وهي (القلب ، الفؤاد ، العقل ، الروح) ، وأحياناً (اللب ، البصيرة) .

فالنفس بالمفهوم الذي نريده لهذا البحث تعني : ذلك الجوهر[١] ، أو « النظام في جسم الإنسان الذي يميِّزه عن غيره ، فيجعله يعقل ويفكر ويدبر ، ويتخذ القرارات ، ويصدر الأحكام ، ثم يختار طريقه بإرادته الحرة »[٢] .

النفسية : نسبة إلى النفس[٣] ، تعني : كل ما ينسب إلى النفس من قول أو فعل أو

= بوجه خاص ، (عابدين : مكتبة وهبه ، ط ٢ ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، ص ٤٧ ، والعاني ، نزار : الشخصية الإنسانية ، ص ١٣ . ومما يجدر ذكره أن اختلاف فلاسفة اليونان في تعريف النفس كان قد تدخل فيه إلى جانب العوامل الفلسفية عوامل دينية وشرعية ، ومذهبية أحياناً ، هذا عند الفلاسفة أما عند المتصوفة ، فنجدهم قد ميزوا بين النفس والروح ، فالنفس عندهم محل الأخلاق المذمومة (شر محض) ، والروح : متحررة من سلطان النفس وهي محل الأخلاق المحمودة (مبدأ الحياة) . انظر : العثمان : الدراسات النفسية ، ص ٤٧ ـ٦٠ ، والعاني : الشخصية الإنسانية ، ص ١٣و١٢٠ .

(١) أغلب الذين عرّفوا النفس ذكروا هذه اللفظة ، فمثلا : الجرجاني عرّفها على النحو الآتي : « هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحسّ والحركة الإرادية » ، الجرجاني ، السيد الشريف : التعريفات ، ص ٢٩٨ .

(٢) انظر : القذافي ، محمد رمضان : علم النفس الإسلامي ، (طرابلس : صحيفة الدعوة الإسلامية ، ط ١ ، ١٩٩٠م) ، ص ٧ .

(٣) هاهنا مسألة جديرة بالملاحظة ، وهي : أنه من الملاحظ في كتابات المتأخرين استخدام كلمة « نفسي » تارة و« نفساني » تارة أخرى ، فأي المصطلحين أصح في الإطلاق ؟ وهل بين =

عمل ، سواء أكان إرادياً أم غير إرادي ، ظاهراً أم باطناً ، وهو بهذا المفهوم يقابل مفهوم السلوك عند علماء النفس حيث يصفونه بأنه : « كل ما يصدر عن الإنسان من سلوك حركي أو لفظي أو نشاط عقلي (كالإدراك والتفكير) وكل ما يشعر به الإنسان من وجدانات »[١] .

الدلالة النفسية : يقصد الباحث بالدلالة النفسية : تلك الملامح والإشارات التي تنعكس على النفس الإنسانية ، فتحدث فيها استجابة معينة ، سواء أكانت لفظية أم حركية ، إرادية أم غير إرادية ، وبهذا نجد أن التعريف يدخل فيه :

أفكار الإنسان ومشاعره ، وأحاسيسه وميوله ، ورغباته وذكرياته وانفعالاته على النحو الآتي : سلوك حركي ، سلوك انفعالي ، وجدانات ، عمليات نفسية[٢] .

= المصطلحين فرق ؟ أما (نفسي) فنسبة على القياس ، وأما (نفساني)فنسبة شاذة لا تخضع لقاعدة ، وهي مخالفة للقياس ولكنها موافقة للاستعمال فصحيحة ، ولعل أول من لفت الأنظار إلى الفرق بين هذين المصطلحين من المحدثين هو سيد قطب في كتابه : النقد الأدبي ، حيث أشار في معرض الحديث عن استخدام الناقد للألفاظ ، قائلا بأن الناقد يستخدم لفظ « نفسي » وليس « نفساني » عمداً لأنه يقف على آفاق النفس ، ويتخطى علم النفس دون التفكر له ، أما نفساني فإنه يقف عند استخدام نتائج علم النفس الحديث فقط » ، انظر : قطب ،سيد : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، (القاهرة : دار الشروق ، ط ٧ ، ١٩٩٣م) ، ص ١٨٤ـ٢٠٠ ، يتضح من كلام سيد أن ما كان معتمداً على نتائج علم النفس التجريبي يطلق عليه نفساني ، وأشار إلى أن يكون استخدام نتائج علم النفس الحديث في حدود معقولة حتى لا تهمل القيم الفنية وبالتالي لا تكون هذه الأعمال أدبية بقدر ما تكون وثائق نفسانية . وانظر : العدناني ، محمد : معجم الأغلاط اللغوية المعاصر ، (بيروت : مكتبة لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٩م) ، ص ٦٧٦ ، حيث قال : « ويسمون الطبيب الذي يعالج الأمراض النفسية نفسانياً معتمدين على الذي يقول : إن النسبة إلى النفس هي نفسي ونفساني ، وبعضهم يقول روح نفسي وكلام نفساني ، ثم يقول : ولم أعثر في المعجمات على من يقول إن النسبة إلى النفس هي نفساني ، لأن الصواب حسب القاعدة هو نفسي ، أما النفساني فهو العَيُون الحسود المتعيّن لأموال الناس ليصيبها ، أي الذي يصيب الآخرين بعين فيؤذيهم » .

(١) الجدير بالذكر أن الظاهرة النفسية عند الغزالي تعني : « كل تغيير يطرأ على أحوال النفس ، ويكون معبّراً عن نشاطها وحيويتها ، سواء أكان موضوع هذا التغيير دينياً أم دنيوياً » ، انظر : العثمان : الدراسات النفسية ، ص١٧ .

(٢) العمليات النفسية عند علماء النفس تشمل : الحركة ، الكلام ، العمليات العقلية ، الانفعالية ، الفسيولوجية كارتفاع ضغط الدم واحمرار الوجه . =

التعبير القرآني والدلالة النفسية :

كل « أثر »[(١)] نفسي نتج عن تعبير القرآن وقع أثره على المتلقي أو القارىء أو المستمع أو من تحدثت عنه الآيات .

* * *

(١) يقصد بالأثر : (كل استجابة نفسية ظهرت أو فهمت من التركيب القرآني بطريق مباشر أو غير مباشر ، هذا من جهة ، وكل أثر يحدثه التعبير القرآني على نفسية المتلقي والقارىء والمستمع ، وكل ما يحدثه القرآن من أثر يقع على النفس الإنسانية فهم بطريق دلالة أم صراحة من تعبير القرآن المتمثل بـ(حروفه ، كلماته ، وجمله ، وجرسه ، وأسلوبه وموضوعاته ، وسياقه وطريقة ترتيبه وسماعه ، والنظر إليه) ، كما يشمل الآتي : كل ملمح قصد القرآن إبرازه على لسان الشخصيات التي تحدث عنها القرآن الكريم .
كل ملمح نفسي انطوى على تعبير القرآن ، وقع على لسان المتحدث أو أحدث أثراً في النفس .
تفصيل العنوان :
استجابة نفسية : (استعدادات) وتشمل : حركة الجسم الإرادية ، الكلام ، العمليات العقلية (نشاط عقلي إدراك تفكير . .) ، العمليات الانفعالية (وجدانات حب ، كره ، عواطف ، انفعالات ، دوافع ، ضوابط ، ميول) ، الفسيولوجية (رفع ضغط الدم) .
التركيب القرآني : يشمل القالب اللغوي والبلاغي الذي أتت به ألفاظ القرآن الكريم وأسلوبه .
مباشر : ما كان من اللفظ صريحاً . غير مباشر : ما أحدث أثراً أو أشار إليه (كأن يترك ما يدل على تلك الاستجابة كتقليب الكفين في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ، سورة الكهف ، الآية ٤٢ ، ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ ، سورة محمد ، الآية ٢٠ . المتلقي : ويشمل شخص الرسول ﷺ ولهذا ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ، سورة المزمّل ، الآية ، ٥ ، ويشمل كل حامل للرسالة : ما الأثر النفسي الذي يشعر به . القارى : الأثر النفسي الذي يشعر به عند تلاوته . المستمع : الأثر الذي يحدث للمستمع إليه ويشمل « العلاج النفسي ، الأمن ، الطمأنينة » .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

دلالة الألفاظ

تمهيد

كثيراً ما نستخدم في حديثنا اليومي لفظة الدلالة ، وما توارد منها من اشتقاقات ، وقد نستخدم أحياناً كلمات تؤدي الدور نفسه في التعبير ، فنقول في درج حديثنا ـ على سبيل المثال ـ : « أَعني » و« أقصد » على الرغم من أن الألفاظ يشترك في فهمها المتكلم والسامع ، فما تفسيرنا لهذه الظاهرة في الحديث اليومي ؟

إنها تشير إلى حقيقة واضحة لا يمكن إخفاؤها ، وهي أن الكلام له ظلال أو معان ثانوية لزمته من خلال التعبير ، ولما كانت هذه المعاني الثانوية يتفاوت الناس في إدراكها والوقوف عليها[١] لعوامل كثيرة يأتي تفصيلها ، فإن المتكلم يستخدم هذا التعبير أحياناً « أعني كذا » و« أقصد كذا » و« مفهوم كلامي كذا » ويقول أحياناً : « ولا يُفهم من كلامي كذا » .

هذا الفصل يسلط الضوء على المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بعنوان الدراسة ، ويطلعنا على أهمية البحث في هذا الميدان من خلال استعراض الجهود التي بذلها العلماء في هذا الشأن ، وسرّ الاهتمام بهذا الجانب عند العلماء .

دلالات الألفاظ وتقسيماتها عند أهل الاختصاص

حين نقول (دلالة الألفاظ) نعني بها أن الكلمات التي نسمعها ونقرأها مشتملة على معان أولية وهي المتبادرة إلى الأذهان[٢] ، وهو المعنى الذي يتبادر إلى الأذهان من

---

(١) وهذا ما به يمكن أن يعلل سرّ تذوق الكلام والتفاعل مع الشعر ، فمثلاً نجد الشاعر يلقي أبياتاً من الشعر على ملأ من الناس ، فيتفاوت تفاعل ذلك القوم ما بين متحمس مشدود وآخر أقل منه تحمساً ، وثالث لا يكاد يدرك دلالات النص .

(٢) أشار الذين كتبوا في علوم القرآن إلى هذه المسألة عند حديثهم عن معاني ألفاظ القرآن : =

خلال النص ويشترك في فهم تلك المعاني الناس جميعاً ، ومعنى ثانويا ، وهو ما لا نستطيع أن نجرّد أي قول أو كلام من حدوده وظلاله التي أنشأها التعبير ، هذا المعنى الثانوي هو ما يمكن أن يطلق عليه لفظ (دلالة) ، وتحديد هذه الدلالة مرتبط بعوامل كثيرة ، بعضها متعلق بشخص المتكلم وطبيعة صوته وطريقة أدائه وسياق حديثه ، وبعضها متعلق بالظروف المحيطة به والبيئة التي قيل فيها ، وبعضها متعلق بشخص السامع وتفاوت ثقافته. . إلى غير ذلك من العوامل التي لابد من الإحاطة بها للوقوف على دلالة اللفظ ، فدلالات الألفاظ هذه يستدل بها على معان ، بعضها قد يُفهم صراحة من النص ، وبعضها الآخر قد توجد قرائن[1] تدل عليه .

وغرض الباحث من سبر غور هذا المبحث هو تحديد موقع الدلالة النفسية من مبحث دلالة الألفاظ الذي حظي بمكانة عظيمة عند كثير من أهل الفن والاختصاص .

لعل سرّ هذه الحفاوة والاهتمام بعلم الدلالة : هو أن هؤلاء العلماء يتعاملون مع النصوص مباشرة ، وحتى يتمكنوا من إدراك معانيها واستخراج ما ترمي إليه ، جعلوها من أوليات اهتمامهم .

= « القرآن الكريم كأي كلام بليغ ، لابد أن يحتوي على ضربين من المعاني ، هما المعاني الأولية ، والمعاني الثانوية أو (المعاني الأصلية والمعاني التابعة) فالمعنى الأولي لأي كلام بليغ هو ما يستفاد من هذا الكلام ومن أي صيغة تؤديه سواه ، وسُميّ معنى أولياً لأنه أول ما يفهم من اللفظ ، وسمي أصلياً لأنه ثابت ثبات الأصول ، ولا يختلف باختلاف المتكلمين ولا المخاطبين ولا لغات التخاطب ، بل هو مما يستوي فيه العربي والعجمي الذكي والغبي. .
أما المعنى الثانوي فهو ما يستفاد من الكلام زائداً على معناه الأولي ، وسمي ثانويا لأنه متأخر في فهمه عن ذلك وهو يتغير بتغير التوابع ، فيختلف باختلاف أحوال المخاطبين وباختلاف مقدرة المتكلمين وباختلاف الألسنة واللغات » ، انظر : الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ، ١/ ١٢٠-١٢٣ بتصرف .

(١) جمع قرينة ، وهي ما يمنع من إرادة المعنى الأصلي ، وتختلف هذه القرائن ، فهي إما حالية أو معنوية أو لفظية ، للمزيد انظر : الجرجاني ، السيد الشريف : التعريفات ، ص ٢٢٣ ، والتهانوني ، محمد علي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تح : علي دحروج ، وترجمة : جورج زيناتي وعبد الله الخالدي ، (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون ، ط ١ ، ١٩٩٦م) ، ١/ ١٣١٥ .

فعلماء الأصول ، والفلاسفة[1] ، وعلماء اللغة (النحويون منهم والبلاغيون) ، يجمعهم قاسم مشترك هو التعامل مع النصوص ، ولا سبيل للوقوف على مراد النصوص وإدراك معانيها إلاّ بالوقوف على مفردات هذه النصوص : « الألفاظ التي تتشكل منها النصوص »[2] ، وهم بعد هذا معنيون بتقعيد القواعد التي تستنبط من تلك النصوص .

---

(١) يذكر أن الفلاسفة عندهم تياران من التيارات التي أخرجت اللفظ عن معناه الأول يهتم بترجمة المعاني العقلية إلى رموز قصصية أو هندسية أو رياضية(أي تلك التي يعبر عنها بالمسائل والمعادلات الرياضية كما هو متبع في المناهج الحديثة لتدريس مبادىء الاقتصاد والكيمياء والفيزياء والعلوم الأخرى) ، والثاني يعتبر النصوص الدينية رموزا تخضع للتأويل العقلي ، انظر : أبو ريان ، محمد علي : أصول الفلسفة الاستشراقية عند شهاب الدين السهروردي ، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ط ٢ ، ١٩٨٧م) ، ص ٩٢ـ٩٣ .

(٢) مما يذكر أن المتصوفة كانت لهم عناية خاصة بدلالات النص ، لكن لما كانت عنايتهم تلك غير منضبطة بقواعد علمية في الغالب ـ كما هو الشأن عند المتكلمين وعلماء الأصول واللغويين ـ فإن الباحث يكتفي بالإشارة إلى ما له صلة بموضوع الدلالة عموما في هذا المقام ، وقد ظهر أسلوب لتفسير القرآن الكريم على أيدي المتصوفة ، عرف فيما بعد باسم : التفسير الإشاري ، ويعني عندهم : « تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر » ، انظر : الزرقاني : مناهل العرفان ، ٢/ ٥٦ . لكن والأمر هنا متعلق بدلالة اللفظ فإنه ينبغي التمييز بين المعنى الإشاري عند الصوفية والمعنى الإشاري عند الباطنية ، فالمعتدلون من الصوفية لا يمنعون المعنى الظاهر ، بخلاف الباطنية فهم يقولون بأن المعنى الظاهر غير مراد أصلا ، ولعل الدلالات هذه هي التي كانت وراء تسمية الملاحدة بالباطنية ، فهم يدّعون أن نصوص القرآن ليست على ظاهرها ، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم ، وعُرف التفسير الصادر عنهم بالتفسير الباطني ، فأصحاب هذا اللون من التفسير لم يتقيدوا بتكاليف الشريعة فضلا عن أن يحترموا قوانين اللغة في فهم النصوص ، وأما التفسير الإشاري ، فهو في حقيقة الأمر ـ كما قال الزركشي ـ : « ليس بتفسير وإنما معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة » . الزركشي : البرهان ، ٢/ ١٧٠ ، هذا الصنيع والذي تقدمه تظهر خطورته من كونه يفقد الثقة بالألفاظ ، لكن ما كان من اللون الإشاري ولم يخرج على قواعد وأصول اللغة ، بل كان امتدادا للمعنى اللغوي ، فهذا من اللون المعتدل والمقبول إذا لم يعارض بقية النصوص أو قواعد التفسير ، وبهذا يتضح أن الإشارة عند المتصوفة تختلف عنها عند الأصوليين .

هناك ما يعرف بـ الدلالة الرمزية عند المتصوفة ، وهي أقرب شيء إلى ما هو معروف بالدلالة السياقية ، والمعنى اللغوي للرمز يشير إلى وجود علاقة بينه وبين الإشارة ، إذ كل منهما يمكن أن يقوم مقام التعبير والنطق ، فقد قال الراغب في تعريف الرمز : « إشارة بالشفة والصوت=

أما المتكلمون فقد تحدثوا عن الدلالة ضمن مباحث أو طرق استنباط القواعد اللغوية أو ما يسمى حديثاً بـ« قواعد تفسير النصوص » ، ويعود اهتمام علماء الكلام بها لما لها من أثر بالغ في استنباط الأحكام من النصوص ، ولا يتأتى ذلك إلاّ بمعرفة القوانين والضوابط المستمدة من اللغة العربية ، ولعل أدق من تناول هذا المبحث من المتكلمين هما : حجة الإسلام الغزالي ت (٥٠٥هـ) ، والآمدي ت (٦٣١هـ)(١) .

وأما اهتمام علماء الأصول ، فلأن اعتمادهم أولاً وآخرا على النصوص ، « ولما كان النص قد يدل على أكثر من معنى بطرق مختلفة ، فقد أضحى ضرورياً بحث طرق

= الخفي . . وعبَّر عن كل كلام كإشارة بالرمز » ، الراغب : المفردات ، ص ٣٠٣ . كما ذكر المناوي في تعريف الرمز أنه : « تلطف في الإفهام بإشارة تحرك طرف » ، المناوي ، محمد عبد الرءوف ت (١٠٣١م) : التوقيف على مهمات التعاريف ، تح :محمد رضوان الداية ، (بيروت : دار الفكر المعاصر ، ط ١ ، ١٤١٠هـ ـ١٩٩٠م) ، ص٣٧٤ ، وبهذا يتبين أن الرمز نوع من الدلالة إذ فيه معان ليست في ظاهر اللفظ ، والمتصوفة يعنون بهذا اللون من الدلالة ، شيئاً آخر له علاقة بالدلالات عند المتصوفة وهو الصمت ، ولا يخفى ما للصمت من دلالات ـ سيأتي الحديث عنها ـ ، في التعاليم الصوفية يعدّ الصمت هو الأصل ، بل من أهم آدابهم السلوكية ، كما يعتبر علامة على صدق المتصوِّف وليس الكلام ، ولأن الصمت يبقى في سر الصامت فإن هذا يقف عقبة أمام المتصوفة إذ كيف يعبرون عما في نفوسهم ، ولذلك كان اهتمامهم بالرمز ، بقي أمر أخير عند المتصوفة يمكن إلحاقه بالدلالات من باب التجوّز وهو ما يطلق عليه بالشطح : « أحد ألوان التعبير عن الوجدان عند المتصوفة » ، ويقصد به صنفان من الكلام ذكرهما الزرقاني ، يهمنا منهما الصنف الثاني : « كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة » ، الزرقاني : مناهل العرفان ، ٢/ ٦٦ ، للمزيد حول التفسير الإشاري انظر : عاصي ، حسن : التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا ، (الحمراء : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م) ، وانظر الذهبي : محمد حسين : التفسير والمفسرون ، (عابدين : مكتبة وهبة ، ط ٣ ، ١٤٠٥هـ ـ١٩٩٠م) ، ٢/ ٣٢٤ـ٣٩٧ .

(١) بابكر الحسن ، خليفة : مناهج الأصوليين في طرق دلالات الألفاظ على الأحكام ، (القاهرة : مكتبة وهبه ، ط ١ ، ١٩٨٩م) ، ص ٢٧ .

دلالة النصوص على معانيها التي تعتبر قواعد أصولية لغوية ترسم منهج الاجتهاد »[1] .

لهذا كان مبحث دلالات الألفاظ من أهم مباحث علم الأصول ، ويذكر هنا أن علماء الأصول هم أفضل من درس الدلالة ، وكل من يحاول بعدهم الحديث عن الدلالة فهو مدين لما كتبه علماء الأصول . . ويعلل بعض المحدثين[2] ذلك بأنه عائد إلى أنهم أكثر تنبهاً ، وأنفذ إدراكاً لمشكلة المعنى وأثرها في فهم المضمون وتحديد المستوى الفكري الذي يدل عليه .

وأما علماء اللغة : فقد بحثوا في دلالة الألفاظ لأنها طريق إلى كشف بعض الحقائق المتعلقة باللغة وصلتها بأهلها (بعقليتهم ، وبيئتهم ، وعاداتهم) ، كما أنها طريق إلى معرفة قوانين اللغات من تطور معاني الألفاظ وأسباب تبدلها ، وهي طريق إلى معرفة أسرار تلك اللغة وطرائقها الخاصة في تسمية الأشياء[3] .

ولا يخفى أن هذا العلم أصبح في العصر الحديث غاية الدراسات الصوتية والفونولوجية والنحوية والقاموسية[4] ، ومما يذكر أنه قد اختلفت طريقة تناول كل فريق من هؤلاء لموضوع الدلالات ، وتعددت مناهجهم في تناول هذا المبحث ، ولا يخفى أنه نتج عن ذلك اختلاف في تقسيم الدلالات وأنواعها ، كل حسبما يخدم فيه غرضه (فهو ناتج عن اختلاف تصورهم ونظرتهم إليها) ، لهذا فإن مجال الحديث في علم الدلالة مجال واسع فسيح ، وعند الرجوع إلى قواميس اللغة والمصطلحات نجدهم يتعرضون بالتعريف لأنواع كثيرة من هذه الدلالات .

لكن أداة الدلالة في الغالب الأعم هي : « اللفظة »[5] ، فالمتكلم والأصولي وعالم

---

(١) الدريني ، فتحي : المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي ، (د . م : الشركة المتحدة للتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٥م) ، ص٢٦٧ .

(٢) خليل : دراسات في القرآن ، ص ٤٧ . وانظر : حمودة ، طاهر سليمان : دراسة المعنى عند الأصوليين ، (الإسكندرية : الدار الجامعية للطباعة والنشر ، د . ط ، ١٩٨٣م) ، ص ١١ .

(٣) المبارك : فقه اللغة ، ص ١٦١ـ١٦٤ .

(٤) للمزيد انظر : السعران ، محمود : علم اللغة (مقدمة للقارىء العربي) ، (بيروت : دار النهضة العربية ، د . ط . ١٩٨٠م) ، ص ٢٦١ .

(٥) اقتضى التنبيه إلى أن الغالب الأعم هو الاعتماد على اللفظ ، وذلك للإشارة إلى أن أنواع التعبير كثيرة ومتنوعة ، إذ يمكن التعبير بغير اللفظ ، ويمكن استنباط الدلالة من غير اللفظ ، وهذا=

اللغة ، وعالم النفس ، وغيرهم ممن يهتمون بالدلالة حين يريدون الوقوف على المعاني ، هم في حقيقة الأمر يعتمدون على اللفظة الصادرة عن المتكلم ، فالألفاظ هي القوالب التي تستخدم في ميدان الدلالة ، وهذه الألفاظ في معظم لغات البشرية تتذبذب دلالتها من أقصى العموم ـ كما في الكليات ـ إلى أقصى الخصوصكما في الأعلام[١] .

ولا يعني ذلك أن الجُمَل لا دور لها في ميدان الدلالة ، فالجُمَل أولاً وآخراً مكوّنة من الألفاظ ، والمعنى لا يتأتى إلا من مجموعها ، كما أن للنظم دوره الأكبر في تحديد هذه الدلالات .

أصبح من الواضح أن الوقوف حقيقة على الدلالة لا يمكن أن يتأتى إلا بالوقوف على اللفظ ومعناه ، ثم النظم الذي سيق لأجله هذا اللفظ .

مما يذكر في هذا المقام أن علماء النفس في العصر الحديث كانت لهم عناية خاصة في هذا الميدان ، ولعل أشهر من عالج هذا الموضوع بأساليب عدّة « موريس »[٢](Chariles Morris) ، كما أسهم في هذا الميدان علماء الاجتماع وعلماء السياسة والاقتصاد وجماعة من الفنّانين والأدباء والصحفيين .

أقسام الدلالات

تتعدد أنواع الدلالات ، وتختلف تقسيماتها باختلاف الجهة التي ينظر إليها ، فالدلالات باعتبار اللفظ تارة ، وباعتبار المعنى تارة أخرى[٣] :

= ما سيأتي بسطه في موضعه ـ إن شاء الله ـ فالحركات أحيانا قد تعبِّر عن الشيء وتكون لها مدلولاتها ، ولما كان تعامل أغلب المذكورين مع النصوص ، والنصوص مكتوبة فهي غالبا تبقى في إطار الألفاظ .

(١) أنيس : دلالة الألفاظ ، ص ١٥٣ .

(٢) كان ذلك في كتابه(Behavior Signs and Languge) نشر عام (١٩٦٤م) ، للمزيد انظر : بالمر ، ف . ر . : علم الدلالة (إطار جديد) ، ترجمة : صبري ابراهيم السيد ، (الدوحة : دار قطري بن الفجاءة ، د . ط ، ١٩٨٦م) ، ص ٣٣ .

(٣) يفرِّق قوم بين قولنا « دلالة الألفاظ » وبين قولنا « الدلالة بالألفاظ » : فدلالة الألفاظ محلها القلب ، وهي أنواع ثلاثة : ١ـ المطابقة ٢ـ التضمن ٣ـ الالتزام ، أما الدلالة بالألفاظ فمحلها=

تقسّم الدلالات من حيث القرائن إلى لفظية وغير لفظية[1] .

يقسّم اللفظ من حيث الاستعمال (باعتبار ما استعمل له) إلى : حقيقة ومجاز ، حقيقة : إذا أريد باللفظ المعنى الموضوع له لغة أو عرفا أو اصطلاحا ، ومجاز : إن لم يقصد باللفظ المعنى الموضوع له سواء أكان ذلك من قبيل التشبيه أو المجاز المرسل ، وهناك كناية : إن جاز باللفظ إرادة المعنى الموضوع له .

يقسّم اللفظ باعتبار وضع المعنى (باعتبار العلاقة بين الدال والمدلول) إلى : عام ، خاص ، مشترك .

يقسّم اللفظ باعتبار دلالته على المعنى إلى :

١ـ واضح ، حيث يشمل : الظاهر ، النص ، المفسر ، المحكم .

٢ـ غير واضح ، حيث يشمل : الخفي ، المشكل ، المجمل ، المتشابه .

يقسّم اللفظ باعتبار الوقوف على المعنى الذي أراده المتكلم ، وطرق دلالته إلى : دلالة ، إشارة ، اقتضاء .

أما بالنسبة للعلاقة بين الدال والمدلول فهي على النحو الآتي[2] :

أـ طبيعية ب ـ منطقية(عقلية) ج ـ عرفية(وضعية) . ثم يقسّمون كلا منها إلى لفظية وغير لفظية ، وأما من حيث العلاقات التركيبية فهناك قسمان لعلم الدلالة[3] :

= اللسان ، والباء سببية وليست للاستعانة ، وهي نوعان : ١ـ الحقيقة ٢ـالمجاز ، وعلى هذا تكون الدلالة بالألفاظ سببا في دلالة الألفاظ ، وحيثما توجد دلالة الألفاظ فثمّ الدلالة بالألفاظ ، انظر : سعد : دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ١٨ـ١٩ .

(١) كل من اللفظية وغير اللفظية يشمل : (العقلية ، والوضعية ، والطبيعية) ، وإن كان بعضهم أخرج النوع الثالث : « الطبيعية » إلا أنه مرجوح ، للمزيد انظر : التهانوني : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، ١/ ٧٨٨ .

(٢) هناك أربعة أمور ينبغي التمييز بينها فيما يتعلق بعلم الدلالة : « اللفظ ، المعنى ، الوضع (جعل اللفظ بإزاء المعنى) ، الدلالة » ، فإذا نسبت الدلالة إلى اللفظ قيل : إنه دال ، وإذا نسبت إلى المعنى قيل : إنه مدلول ، بمعنى كون المعنى منفهما عند إطلاقه » ، انظر : التهانوني : كشاف اصطلاحات الفنون ، ص ٧٩٠ .

(٣) حيدر : علم الدلالة ، ص ١١٧ .

علم الدلالة المصغّر (يركز على الكلمات المفردة) .

علم الدلالة الموسع (يركز على العلاقات الدلالية بين الكلمات) .

ونتيجة لاختلاف الجهات في تقسيمات الأدلة كان هنالك تباين واختلاف في تقسيمات المهتمين بالدلالة ، على النحو الآتي :

فالمتكلمون ـ على سبيل المثال ـ كانوا يتعلقون في مصطلحاتهم باللفظ لا بالنص ، وعليه فإنهم يقسّمون الدلالات إلى : منطوق ومفهوم . بخلاف علماء الأصول الذين ينطلقون من النصوص ويعتبرونها الأصل في التقسيم .

والأصوليون[١] : تعدّ الألفاظ في تصورهم : دلائل الحكم على صحة الفكر أو خطئه ، بخلاف الكلاميين : فاللغة في نظرهم تحاول تقريب المعاني المجردة في صورة أدنى إلى التصور البشري حتى يتمكن من فهم المراد من الألفاظ الدالة عليه ، والذين يقومون منهم بتفسير النصوص إنما يحاولون بسط شخصيتهم على هذه النصوص بما حصّلوه من المعارف ، وبالتالي فالكلمة عندهم رمز للمعنى ، والمعنى الذي يمكن الوصول إليه ينبغي أن يساير هذا التطور[٢] .

ومما يجدر ذكره أنّ الأصوليين والبلاغيين لا يعتدّون بكل من الدلالة غير اللفظية بأقسامها المعروفة ولا بالدلالة اللفظية الطبيعية والعقلية ، بل يقصدون بها الدلالة اللفظية الوضعية[٣] ، ولهذا كانت عناية الأصوليين والبلاغيين متجهة إلى هذا النوع ،

---

(١) حرصاً من الباحث على عدم الخوض في التفصيلات المبسوطة في كتب الأصول ، فإنه يكتفي بما تشير إليه ملاحق الدراسة (١+٢+٣) ، ويحيل القارىء للمزيد من التفصيلات إلى الكتب الآتية : الدريني : المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي ، ص ٢٦٧ـ٤٠٣ . وانظر : حسنين ، حسنين محمود : تفسير النصوص ، (دبي : دار العلم ، ط ١ ، ١٩٨٦م) ، ص ٥ـ٧ . الصالح ، محمد أديب : تفسير النصوص ، (بيروت : مكتبة الإسلام ، ط ٣ ، ١٩٨٤م) ، حمودة : دراسة المعنى عند الأصوليين ، ص ١١ وما بعدها . وانظر : زيدان ، عبد الكريم : الوجيز في أصول الفقه ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٦ ، ١٩٩٧م) ، ص ٣٢٦ـ٣٥٧ . حماد ، أحمد عبد الرحمن : علم الدلالة في الكتب العربية ، (د . م . ن . ط ، ١٩٨٦م) ، ص ١١ـ٣٧ . إضافة إلى الكتب التي سبقت الإشارة إليها .

(٢) انظر : خليل : دراسات في القرآن ، ص ٥٠ وما بعدها .

(٣) الدلالة اللفظية الوضعية تعني : كون اللفظ بحيث إذا أرسل علم منه المعنى للعلم بوضع ذلك=

فسعوا إلى تحرير مفهومها تحريرا دقيقا ، ويؤكد الأصوليون على أن الغرض من الألفاظ المفردة (الدلالة الوضعية) : إفادة المعاني المركبة بتركيب هذه المفردات باعتبارها من عناصر التركيب ، وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني فالعناية بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم(١) .

يمكن تلخيص نظرة كل فريق من الذين تقدم ذكرهم في التعامل مع النص إلى فئتين :

أولاً : منهم من يتجه إلى النصوص وفي عقله أصول وقواعد يحاول الالتزام بها ، وهؤلاء هم المتكلمون والفقهاء ، وبالتالي فإن عملهم يقتصر على استنباط الحكم لتطبيقه على ظاهر السلوك الإنساني (سواء كان باللسان أم بالجوارح أم بالقلب) ، وهذا ما يفسّر ارتباط عملهم باللفظ ، فهو الوسيلة الدقيقة في نظرهم للتعبير عن النية(٢) ، واللفظ عند المتكلمين أساس المسؤولية الظاهرة ، وللنية دور في الحكم على سلامة الغاية ، والخلاصة : لغة النص عند كل من (المتكلمين والفقهاء) ترتبط بأمرين : أحدهما غيبي ، ثانيهما متلقي هذا النص : الرسول ﷺ ولهذا كان يمزج ما بين هذين الأمرين في أحكام القرآن « اقتران الأحكام بالعقيدة » .

يشير بعض الباحثين(٣) إلى أن أساس المشكلة في بيئة الفقهاء يعتمد على أصلين ، أحدهما : النص بما هو ألفاظ تروى ، ثانيهما : إدراك مضمون النص ، يذكر أن القاعدة عند أغلب الفقهاء أنه إذا لم يكن في اللغة تحديد لمدلول اللفظ لجأوا إلى الشرع ، ثم إلى العرف ، وهنا تظهر فكرة تطور الدلالات .

بعد الإشارة إلى جهود كل من الأصوليين والمتكلمين في ميدان الدلالات أصبح من الواضح أنّ الدلالة النفسية التي يرمي البحث إلى إلقاء الضوء عليها تبدو واضحة في تقسيمات الأصوليين والمتكلمين على حدّ سواء ، إذ يمكن الاستفادة من تقسيماتهم في

= اللفظ لهذا المعنى ، انظر : بادشاه ، أمير ، تيسير التحرير ، (مصر : مطبعة الحلبي ، د . ط ، ١٣٥٠هـ) ، ١/ ٨٠ .

(١) انظر : سعد : دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص١١ـ١٦ بتصرف .

(٢) انظر : خليل : دراسات في القرآن ، ص ٥١ .

(٣) خليل : دراسات في القرآن ، ص ٥٤ـ٦٥ .

إبراز المعاني النفسية ، فعلى سبيل المثال : (الإشارة ، والإيماء) لا يخفى دورهما في إبراز المعاني النفسية ، وهما من أنواع الدلالات عند الأصوليين ، هذا بالإضافة إلى أن الدلالة النفسية قد تكون صريحة ، وقد تكون غير ذلك ، وقد بدت هذه الأنواع في تقسيمات الأصوليين كذلك .

ثانياً : اللغويون[١] (الأدباء منهم) : يستعملون الألفاظ استعمال العربي لها ، ولا يخرجون عن إطارها إلى المعنى الاصطلاحي أو الفقهي ، « لأن هذا الانتقال يذهب بالفكرة الأدبية بعيدا ، وعليه فاللغة يختلف تصورها في المجالين الأدبي والديني ، وبالتالي على مفسِّر النصوص أن يلتفت إلى الفروق الدقيقة بين التصورين ، إذا ما أراد الوقوف على مقاصد النص ومراميه »[٢]

تعد الدراسة الدلالية من أوائل فروع علم اللغة التي عرفها العرب بعد مجيء كتاب الله الذي تحداهم في لغتهم ، وقد تحدث الجاحظ عن أصناف الدلالات على المعاني ، وحصرها في خمسة أشياء ، لا تنقص ولا تزيد :

* اللفظ (فالدلالة اللفظية هي نفسها دلالة المطابقة) ، وهي تعني : « دلالة الألفاظ على معانيها الموضوعة إزاءها ، البيان باللفظ أداته اللسان »[٣] .

* الإشارة ، وأداتها أعضاء الجسم مثل : الحواجب ، الشفاه ، الأعناق ، الأيدي ، قسمات الوجه ، وكل ما يعبِّر بالحركة عن حاجة النفس ومكنوناتها .

* العقد ، وهو البيان بالحساب الذي يتم بواسطة أصابع اليدين .

* الخط ، وهو التدوين بالكتابة .

---

(١) نظرا لكون تقسيمات الدلالة عند اللغويين لها تعلق مباشر بموضوع الدراسة فإنه سيعرضها بشيء من التفصيل ، ثم يشير بعدها إلى ما يعنيه من تقسيماتهم ، علما أن ملاحق الدراسة توضح هذه التقسيمات .

(٢) يقسمهم إلى قسمين : الحرفيون (الظاهرية) الذين يتمسكون بالمعنى اللغوي الأول للألفاظ ، حتى كان منهم رد القياس ، ثم عامة الفقهاء ، حيث يقولون بالتطور على ثلاثة أصول : (المعنى الأول للفظ ، العرف ، الشرع) . خليل : دراسات في القرآن ، ص ٥٤ـ٦٥ بتصرف .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ، ص ٥٤ـ٦١ .

* الحال التي تسمى نصبة ، هي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ، فهي حال الأشياء فيما توحيه إلى عقل الناظر ، وذهن المتبصِّر[1] .

هذا من حيث اختلاف الأساليب في وضوح الدلالة على المعنى المراد ،كما نجد علماء البيان ـ أيضاً ـ قد تكلموا في الدلالة اللفظية فقسموها إلى أقسامها الثلاثة المعروفة : « المطابقة ، التضمن ، الالتزام » ، وهذا يشير إلى اهتمام البلاغيين في دراسة الحقيقة والمجاز ، ودراسة كثير من الأساليب ، ولذلك ظهرت في نظرية النظم[2] .

ولا يمكن فصل علم الدلالة عن غيره من فروع اللغة ، فحتى يحدد الشخص معنى الحدث الكلامي لا بد أن يقوم بملاحظات تشمل الجوانب الآتية :

ملاحظة الجانب الصوتي الذي قد يؤثر على المعنى (التنغيم والنبر وغير ذلك) .

دراسة التركيب الصرفي للكلمة ، وبيان المعنى الذي تؤديه صيغتها .

مراعاة الجانب النحوي أو الوظيفة النحوية لكل كلمة داخل الجملة .

بيان المعاني المفردة للكلمات ، وهو ما يعرف باسم المعنى المعجمي .

دراسة التعبيرات التي لا يكشف معناها بمجرد تفسير كل كلمة من كلماتها ، والتي لا يمكن ترجمتها .

والدلالة عند النحاة تقسم إلى ثلاثة أقسام : لفظية ، صناعية ، معنوية ، قال ابن جني : « اعلم أن كل واحد من هذه الدلائل معتد ، مراعى ، مؤثر ، إلا أنها في القوة والضعف على ثلاث مراتب ، أقواهن : الدلالة اللفظية ، تليها الصناعية ، ثم المعنوية »[3] .

---

(١) يعقوب ، أميل بديع وميشال عاصي : المعجم المفصل في اللغة والأدب ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١ ، ١٩٨٧م) ، ١/ ٦٣٤ . وانظر : طبانة ، بدوي : معجم البلاغة العربية ، (الرياض : دار العلوم ، د . ط ، ١٩٨٢م) ، مج١/ ٢٧٦ـ٢٧٧ ، وانظر : مطلوب ، أحمد : معجم المصطلحات البلاغية ، (بغداد : مطبعة المجمع العلمي العراقي ، د . ط ، ١٩٨٦م) ، ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) مختار عمر ، أحمد : علم الدلالة ، (القاهرة : عالم الكتب ، ط ٤ ، ١٩٩٣م) ، ص ٢١ .

(٣) انظر : ابن جني ، أبو الفتح عثمان بن جني النحوي : الخصائص ، تح : محمد علي النجار ، =

تجدر الإشارة إلى أنّ علماء اللغة قد التفتوا إلى غالبية أنواع الدلالات والنظريات الدلالية التي عرفت في العصر الحديث . فقد تحدثوا عن نظرية السياق ، وأشاروا إلى دوره في تحديد الدلالة ، كما تحدثوا عن دلالة التركيب ، وقد برز ذلك في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ، كما تناولوا الدلالة الوضعية والعرفية والشرعية في كلامهم عن الحقيقة والمجاز ، وأشاروا إلى الدلالة النحوية والصرفية والمعجمية[1] .

وقد قسّم علماء اللغة الدلالات إلى الأنواع الآتية :

١) الدلالة الصوتية وتشمل : أ . الصوتية الطبيعية[2] ، يسميها ابن جني[3] (الدلالة اللفظية) .

ب . الصوتية التحليلية[4] .

٢) الدلالة الصرفية : « فالتصريف ضروري لمعرفة أصل الكلمة الثابتة ، والنحو ضروري لمعرفة أحوالها المتنقلة ، وبهذا يظهر أنه من الضروري على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف »[5] .

٣) الدلالة النحوية : « علم اللغة التركيبي »[6] (Grammatical Meaning) .

= (القاهرة : دار الكتب ، د . ط ، ١٩٥٢م) ، ٣/ ٩٨ ، وانظر : الآمدي ، علي بن محمد أبو الحسن : الإحكام في أصول الأحكام ، تح : السيد الجميلي ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ) ، ١/ ٣٦ .

(١) الكراعين ، أحمد نعيم : علم الدلالة بين النظرية والتطبيق ، (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٣م) ، ص ٨١ـ٨٨ .

(٢) هي الدلالة التي ترتبط بإحدى نظريات أصل اللغة ، وهي وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومعناه ، انظر : الكراعين : علم الدلالة ، ص٩٦ .

(٣) انظر : ابن جني : الخصائص ، ٣/ ٩٨ .

(٤) هي التي ترتبط بتغير الوحدات الصوتية(Phonemes) في اللفظ فيتغير المعنى تبعا لتغيرها ، بالإضافة إلى النبر(Stress) ، والتنغيم(Intonation) . الكراعين : علم الدلالة ، ص ٩٦ .

(٥) للمزيد انظر : ابن جني : المنصف لشرح التصريف (الإمام أبو عثمان بن المازني) ، تح : إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، (مصر : مطبعة البابي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٥٤م) ، ١/ ٤ . وانظر : الزركشي : البرهان ، ١/ ٢٩٧ . وانظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ١٧٩ـ١٨٠ .

(٦) هي النسب أو العلاقات القائمة بين مواقع الكلمات في الجملة . انظر : الكراعين : علم الدلالة ، ص ٩٨ .

٤) الدلالة الاجتماعية أو السياقية[١](Context of Situation) .

٥) الدلالة المعجمية[٢](Lexical Meaning) .

أما المعاني التي يمكن تلمّسها من الجملة فهي كالآتي : أساسي ، إضافي ، نفسي ، أسلوبي ، إيحائي ، ويشمل : تأثير صوتي ، تارة مباشر مثل : (صليل السيوف) ، وغير مباشر (الكسرة في الكلمة للدلالة على الصغر) ، وتأثير صرفي ، تأثير دلالي (الكلمة أو المجاز) .

وأما القرائن الدالة على الكلام (ما يمكن أن يستدل به على معنى من المعاني) ، فتنقسم إلى : ذهنية ، عرفية ، وضعية ، شرعية ، سياقية ، وأما أبعاد الدلالة فيمكن توضيحها كالتالي : نغم ، قصد ، مدلول ، وجدان . توضيح تقسيمات الدلالة كما هي عند أهل اللغة في الملحق رقم (٣)[٣] .

الملاحظ بعد التقسيمات المتقدمة أن الذي يعنينا هو الآتي :

١ـ « الدلالة الصوتية » : حيث لا يخفى دورها في الوقوف على المعاني النفسية .

٢ـ « الدلالة السياقية » : إذ لها الدور الأكبر في مجال الدلالة النفسية ، وربما يعد من أبرزها على الإطلاق « السياق العاطفي » ، هذا ويؤكد الباحث على عدم استغناء بحثه عن بقية أنواع الدلالة المتقدم ذكرها عند أهل اللغة ، فالصرفية مثلا لها دور في بيان الدلالة النفسية ، وفي أبعاد الدلالة المتقدمة ما يتصل بالمعاني النفسية (نغم ، قصد ، مدلول ، وجدان) ، وبالتالي فالمعنى النفسي أحد أهم المعاني التي يمكن التماسها من الجملة كما سيظهره البحث بإذن الله تعالى .

---

(١) هي تلك الدلالة التي يقصدها المتكلم ويفهمها السامع من خلال الحدث الكلامي تبعا للظروف المحيطة . انظر : الكراعين : علم الدلالة ، ص١٠٠ . وانظر : حمودة : دراسة المعنى ، ص ٢١١ـ٢٢٥ . وانظر : مجاهد ، عبد الكريم : الدلالة اللغوية عند العرب ، (عمان : دار الضياء ، د . ط ، ١٩٨٥م) ، ص١٥٧ وما بعدها .

(٢) الدلالة أو المعاني التي يوردها المعجم للألفاظ المفردة مرتبة ترتيبا معينا في لغة واحدة أو أكثر . للمزيد انظر : حماد : علم الدلالة ، ص ٥٢ وما بعدها .

(٣) انظر : ملحق رقم (٣) في آخر الدراسة ، الأشكال (أ+ب) .

اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما

شغلت مسألة اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما الدارسين قديماً وحديثاً ، وقد اختلف تناول العلماء لهذه المسألة تبعاً لاختلاف تصوراتهم ، ويهدف الباحث من ذكر هذه المسألة الإشارة إلى أن كلاً من اللفظ والمعنى له دور في إبراز المعاني النفسية ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، ولا يخفى أن العلماء قد انقسموا إلى ثلاث فئات تجاه هذه المسألة ، على النحو الآتي :

١ـ فئة تقدّم المعنى على اللفظ ، وتنسب للمعنى كل فضل في صناعة الأدب ونقده .

٢ـ فئة تقدّم اللفظ على المعنى ، وتركّز على جمال الألفاظ وجودة السبك ، وتهمل ما سواه .

٣ـ فئة معتدلة حيث كانت نظرتها وسطا بين النظرتين المفرطتين ـ السابق ذكرهما ـ فلا هي ركزت على اللفظ دون المعنى ، ولا هي اعتبرت المعنى دون اللفظ ، بل هدفت إلى المساواة بينهما ، وأشارت إلى مزايا ومعايير كل من اللفظ والمعنى ، وبيان وظيفة كل منهما .

وكان من نتاج هذه النظرة : التركيز على النظم الذي لا يتحقق إلاّ بهما معاً ، ولا يخفى أن رائد هذه النظرية بلا منازع هو إمام البلاغة المشهور : « عبد القاهر الجرجاني » ، وفي هذا المقام يقول بعد أن ذكر أدلته : « فقد اتضح اتضاحا لا يدع مجالاً للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلمة مفردة . . وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظ للمعنى التي تليه أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ »[1] .

ولا يخفى أنهم بهذا قد تابعوا ما كشف عنه الجرجاني فهو أصحّ وأحدث مما وصل إليه علماء اللغة الغربيون ، فقد أخذ بهذا المذهب العالم السويسري الشهير (فردنان دي سوسير) ت (١٩١٣م) ، كما أخذ بهذه النظرية العالم والناقد الإيطالي (بندتو

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ١/ ٥٤ .

كروتشيه) ، ورغم كل ذلك نجد أن أغلب المحدثين من علماء الغرب يحاولون أن ينسبوا هذه الفكرة إلى علمائهم وتحديداً إلى أولمان(Ullmann)[(1)] ، مشيرين إلى أنّ الأخير هو أول من استطاع تحديد العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وأن العلاقة تمكن كل واحد منها من استدعاء الآخر ، إلاّ أن تراث المسلمين يرد عليهم[(2)] . كان القصد من طرح المسألة في هذا المقام لفت الأنظار إلى أهمية كل من اللفظ والمعنى ودور النظم في ذلك .

* * *

---

(١) للمزيد انظر : خليل : المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ، ص ٣٦ .

(٢) نظرا لصعوبة الإحاطة به في هذا المقام فإن الباحث يكتفي بالإشارة إلى بعض المصادر التي تناولت المسألة ، انظر : الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص٦٣ وما بعدها ، وانظر : حمودة : دراسة المعنى ، ص ١٦٩ـ١٨٥ . وانظر : حماد : علم الدلالة ، ص٧٧ـ٩١ . خليل : المدخل إلى دراسة البلاغة العربية ، ص ٣٧ و٨٩ وما بعدها ، وانظر : مجاهد : الدلالة اللغوية عند العرب ، ٥٧ـ٩١ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

الدلالة النفسية

تمهيد

بعد الذي تقرر من كون الدلالة النفسية أحد أهم المعاني التي تصحب عملية الكلام(١) ، كان لا بد من إلقاءِ الضوء على هذه الدلالة النفسية ، وبيان حدودها وموقعها من الكلام والعوامل المؤثرة ، فيها ثم بيان علاقة اللغة بما في النفوس ، ثم إبراز أهم الشبهات التي قد تورد عليها ومحاولة الرد عليها ، وهذا الفصل يتكفل ببيان ذلك من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول

محددات الدلالة النفسية

أولا : حدود الدلالة النفسية

تقدم الحديث عن المقصود بالدلالة النفسية عند تعريفها(٢) ، وتبين أن الدلالة النفسية تشمل العمليات العقلية التي تقوم على استدعاء الأفكار والتخيل لها ، إضافة إلى المشاعر الانفعالية المختلفة التي يراد نقلها إلى ذهن السامع ، وتبين أن هذه الدراسة لا تختص بتلك العمليات النفسية التي تصحب الكلام وتعبر عن المتكلم فحسب ، بل تشمل تلك العمليات النفسية التي تصحب الطرف الآخر من عملية الكلام

---

(١) أشار الذين تحدثوا عن أنواع المعاني إلى وجود خمسة أنواع ، على النحو الآتي : ١ـ المعنى الأساسي (المركزي) ٢ـ المعنى الإضافي ٣ـ المعنى الأسلوبي ٤ـ المعنى النفسي ٥ـ المعنى الإيحائي . انظر : مختار ، عمر : علم الدلالة ، ص٣٦ـ٣٩ .

(٢) تسهيلا على القارىء يذكر الباحث تعريف الدلالة هنا : تلك الملامح والإشارات التي تنعكس على النفس الإنسانية ، فتحدث فيها استجابة معينة ، سواء أكانت لفظية أم حركية ، إرادية أم غير إرادية .

أيضاً ، فالمعروف أن اللغة عبارة عن علاقة بين المتحدث والسامع ، وهذه العلاقة لا بد وأن يصحبها مثيرات تصدر عن كل من المتكلم والسامع .

إن الدلالات النفسية في اللغة لا تنطلق فقط من الأرضية النفسية التي انبنى عليها النص ، وإنما من تأثير النص على نفسية المتلقي من ناحية اختيار الألفاظ وبناء الكلمات أو العلاقة القائمة بين الكلمة والمضمون(١) ، وكان الجرجاني قد أشار بألمعيته إلى هذا من قبل ، حيث قال : « إن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس ، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء . . »(٢) .

ثانيا : موقعها

العمليات الذهنية والانفعالية تتفاوت ظهوراً وخفاءً ، فتارة تأتي صريحة في الخطاب كقول القائل مثلاً : « أغضبني حديثك » ، أي حرّك فيَّ مشاعر الغضب ، وهذه دلالة نفسية صريحة . وتارة تأتي بطريق الإشارة وهو ما يمكن التماسه من ملامح الوجه أو حركات أعضاء الجسم كاحمرار الوجه أو الامتعاض . . وتارة تكون أكثر خفاء بحيث لا يدركها إلاّ الحاذق بناءًا على صياغة الجملة(٣) ، وهذا النوع بلا شك أدق هذه الأنواع وأصعبها التماساً . وبهذا تبين أن هذه الدلالة النفسية تتفاوت وضوحاً وخفاءاً بحسب ما تقدم ، والبحث يعنى بالأنواع المذكورة جميعها .

ثالثا : العوامل التي تؤثر في فهم الدلالة النفسية

إدراك الدلالة النفسية شيء ، والتفاعل معها أو التأثر بها شيء آخر ، هذا ما ينبغي التنبه إليه في هذا المقام ، لكن هناك حد مشترك لدى جميع العقلاء في تحديد وجود هذه الدلالة أو لا ، ولو عدنا إلى المثال المتقدم وهو أكثر أنواع الدلالة صراحة كقول

---

(١) هذا ما أشار إليه : بن نبي ، مالك : الظاهرة القرآنية ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، (دمشق : دار الفكر ، ط ٤ ، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م) ، ص ١٥٦ وما بعدها .

(٢) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ١/ ٦٠ .

(٣) فمن المسلّم به أن الكلام يترتب في النفس أولاً ثم يأتي الترتيب اللفظي على وفق ذلك الترتيب النفسي ، وهو ما قرره عبد القاهر الجرجاني وبنى عليه نظريته .

القائل « أغضبني كلامك » سوف نجد أنه بالرغم من الاتفاق على دلالة هذا اللفظ على نفسية المتكلم ، إلاّ أن تفاعل المستمع مع هذه الدلالة أو استجابته لها متفاوتة ، وهذا التفاوت الناشيء عن الطرف الآخر لا يؤثر سلباً على وجود هذه الدلالة أو اختلاف الناس في إدراكها كأذواقهم المتفاوتة في الطعام ، فبينما يحكم بعضهم بلذة طعام ما ، يحكم بعضهم الآخر بغير ذلك . هذا التفاوت في إدراك المعاني النفسية يمكن إرجاعه إلى عوامل عدّة ، على النحو الآتي : عوامل تتعلق بالمتكلم ، عوامل تتصل بالمتلقي ، عوامل تتعلق بالظروف المحيطة .

١) العوامل التي تحيط بالمتكلم ، على النحو الآتي :

عوامل صوتية : تتعلق بصوت المتكلم ، حيث يمكن الاستعانة بهذه العوامل على إخراج الدلالة النفسية ، والذي يؤدي هذا الدور هو النبر[(١)] والتنغيم[(٢)] وطريقة أدائه للجملة ، فالكلمات التي تعبّر عن الرضا والحب يكون النبر فيها غير كلمات السخط والغضب .

كما أن قولنا ـ على سبيل المثال ـ : « ما أضله » تأتي للتعبير عن ثلاثة أحوال : النفي ، التعجب ، الاستفهام ، فابرز ما يحدد المقصود هو اختلاف النبر عند النطق بالجملة المذكورة ، ويمكن الاستشهاد بالمثال الآتي من القرآن على اختلاف النبر ودوره في تغيير المعنى ، قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ . . ﴾[(٣)] ، فـ جزاؤه في الأولى وقع مستفهما عنه ، وفي الثانية وقع جوابا عنه[(٤)] . وقوله تعالى : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾[(٥)] ، كلمة ذق اشتملت على أعلى المستويات في النبر (إذ درجة الصوت فيها عالية) ولذلك فهي متلوه بوقفة قصيرة ، فاللفظ ينبغي أن يؤدى أداءً مختلفاً عمّا بعدها[(٦)] .

---

(١) النبر : وضوح نسبي لصوت أو مقطع يفرق بين معنى وآخر .

(٢) إعطاء الكلمات نغمات معينة تنتج من اختلاف درجة الصوت ، انظر : قدور ، أحمد محمد : مبادىء اللسانيات ، (بيروت : دار الفكر المعاصر ، ط ١ ، ١٩٩٦م) ، ص ١١٧ـ١٢٠ .

(٣) سورة يوسف ، الآيتان ٧٤ـ٧٥ .

(٤) انظر : مختار عمر : علم الدلالة ، ص ١٣ .

(٥) سورة الدخان ، الآية ٤٩ .

(٦) العبد ، محمد : المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة) ، (بيروت : دار الفكر العربي ، =

عوامل صرفية ونحوية : فاختيار المتكلم لكلمات فيها صيغة مبالغة على سبيل المثال يشير إلى مؤكدات نفسية ، فمثلا لا بد من ملاحظة التركيب الصرفي « استفعل » ، ثم مراعاة الجانب النحوي : « الوظيفة النحوية لكل كلمة[1] ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[2] ، يشير إلى هذه المعاني النفسية وراء هذا التصريف ، كما أن استعمال الفعل المبني للمجهول يدل أحيانا على هذه الجوانب النفسية ، فقد يكون للإهمال والاحتقار ، ومنه الصيغة المستعملة للدلالة على التكثير مثل : جمّع ، قطّع ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾[3] ، وكذلك استخدام لفظة التصغير ، قد تكون أيضا للاحتقار والتقليل من شأن المتحدث عنه .

عوامل بيانية متعلقة بنظم الكلام : وهذا يدل عليه تراكيب الجمل ، وهو ما يتولى البحث إبرازه بإذن الله تعالى في الباب المخصص لذلك ، فمقولة إخوة يوسفعليه السلام له : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ . . ﴾[4] ، واضحة من خلال تقديم الضمير أنه يدل على ما في نفوسهم من الدهشة والحيرة .

وحينما يكون كلام المتكلم مبعثراً من حيث التركيب أو على الأقل فيه اضطراب فإن هذا يكون ناشئا عن حالة نفسية ، انظر مثلاً إلى قوله تعالى عن الكفار : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾[5] ، كيف جاء هذا الكلام مشتملاً على الحرف الذي يدل على الإضراب عن المعنى الذي يسبقه!! مما يدل على نفسية أولئك واضطرابها الناشىء عن عدم قناعتهم بما يتفوهون به .

٢) عوامل تتعلق بأسلوب الحديث :

استخدام اللفظ على سبيل الحقيقة يختلف عما لو كان على سبيل المجاز ، فالكلام

= د . ط ، ١٩٩٤م) ، ص ٥٧ـ٥٨ .

(١) مختار عمر : علم الدلالة ، ص ١٤ .

(٢) سورة هود ، الآية ٥ .

(٣) سورة الهمزة ، الآية ٢ .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٩٠ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٥ .

الذي يحمل في طياته أغراضاً أخرى كالسخرية أو التعجب أو غير ذلك يختلف عما لو كان خرج مخرج الحقيقة ، وهو مما تم تفصيله في الفصل الثالث من الباب الثالث .

٣) أما العوامل التي تتعلق بالمتلقي :

يتفاوت المتلقي في إدراكه للدلالات النفسية ، حيث يمكن إجمال هذا التفاوت في الأسباب الآتية :

التفاوت الثقافي والخبرة الحياتية : وهو أمر لا يختلف عليه اثنان ، وفي هذا يقول سيد قطب : « ليس الناس سواء في تجاربهم الحسية والنفسية في الحياة ، فبعضهم ولا شك أغنى من بعض في رصيد هذه التجارب ، وأسباب الغنى والفقر في هذا الرصيد كثيرة ومتنوعة ، فقد ترجع إلى سعة الطبيعة النفسية أو وظيفتها وقوتها أو ضعفها وتعمقها أو سطحيتها ، وقد ترجع إلى اللون الذي تصطبغ به هذه الطبيعة »[١] ، ويقول في موقع آخر : « إن النفوس تختلف غنى وفقرا في رصيد الصور النفسية المختزن ، وتبعا لهذا تكثر أو تقل الصور التي يشعها اللفظ أو التعبير عند القارى ، ويقوى أو يضعف استعداده لتلقي نماذج الحالات النفسية وأنماط الشخصيات الفنية ، ويتسع أو يضيق إدراكه لأطياف الجمال التي تموج بها الفنون كما تموج بها الحياة»[٢] .

صفاء العلاقة بين المتلقي والمتكلم : حيث يتناسب طردياً إدراك المعاني مع العلاقة بينهما ، فكلما كانت طبيعة العلاقة إيجابية كان القبول النفسي لمعاني المتكلم أكثر ، والعكس في حالة العلاقة السلبية ، وقديماً قيل :

فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا[٣]

---

(١) قطب ، سيد : دلالة الألفاظ على المعاني ، (مصر : مجلة الثقافة ، ع ٧٨ ، ١٩٤٠م) ، ص ٣٢ .

(٢) قطب ، سيد : مجلة الثقافة ، ص ١٨ . وهناك مجموعة لا بأس بها من العبارات التي نجدها هنا وهناك في ثنايا كتابات سيد قطب ، والتي تدعم هذا المعنى : فهو يشير تارة إلى أن العيب لا يكمن في النص ، وإنما في الناقد ، وحينها يحق للناقد أن يقول : إن هذا لا يعجبني ، ولكن ليس من حقه أن يقول : إن هذا خطأ أو شذوذ . قطب ، سيد : مجلة الثقافة ، ص ١٩ .

(٣) البيت منسوب للشافعي ، ذكره الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح : المستطرف في كل فن مستظرف ، تح : محمد مفيد قميحة ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، ١٩٨٦م) ، ١/ ٤٥٥ ، وفي المعنى : =

٤) **عوامل مشتركة بين المتكلم والمتلقي :**

الظروف المحيطة بكلام المتكلم : حيث للسياق دور كبير في إبراز تلك الدلالة النفسية ، أما بالنسبة للمتلقي فإن اختلاف الجو المكاني والزماني يؤثر سلباً أو إيجاباً في إدراك هذه المعاني النفسية ، وقد تنبه الأوائل إلى مسألة اختلاف الطبائع وتباين الأمزجة ، وأشاروا إلى أن ثمة ارتباطا بين طبع المتكلم وبالذات بين « الشاعر » وبين حالته المزاجية ، وهذا الاختلاف يتدخل في تحديد صفات الألفاظ التي يستعملها الشعراء في صياغة القصائد ، ويظهر ذلك في رقة ألفاظ بعضها وسهولة وقعها على السمع وفي النفس ، كما يظهر في صلابة ألفاظ بعضها الآخر ، ذلك أن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة[1] ، وقد ذكر بعض النقاد أن أربعة عوامل تؤثر في القالب اللغوي ، وهي :

أـ البيئة : فالبيئة عامل مثير لنفس المتكلم والشاعر[2] بشكل خاص ، ويلحق بالبيئة

= وعين البغض تبرز كل عيب   وعين الحب لا تجد العيوبا

(١) انظر : البنداري ، حسن : تكوين الخطاب النفسي في النقد العربي القديم ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٩٩٢م) ، ص ٥٦ . وانظر للمزيد : الجرجاني ، علي بن عبد العزيز : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، (بيروت : المكتبة العصرية ، د . ط ، ١٣٨٦هـ ـ١٩٦٦م) ، ص ١٨ .

(٢) هناك قصة مشهورة في كتب الأدب تنسب لعليّ بن الجهم مع الخليفة المتوكل ، لكن في ثبوتها كلام ، وخلاصة هذه القصة كالآتي : أن ابن الجهم كان بدويا جافيا ، فلما قدم على المتوكل أنشده القصيدة التي فيها :

أنت كالكلب في حفاظك للودِّ   وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو لا عدمناك دلوا   من كبار الدلاء كثير الذنوب

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه . . فأمر له بدار حسنة على شاطىء دجلة ، فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذي الأرواح ، وأمر له بالغداء اللطيف أن يتعاهد به ، فأقام ستة أشهر على ذلك والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته ، فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده فحضر وأنشد :

عيون المها بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فقال المتوكل : « خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة » ، انظر : الحموي ، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله ابن حجة ت (٨٣٧هـ) : خزانة الأدب ، تح : عصام شعيتو ، (بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ط ١ ، ١٩٨٧م) ، ١/ ٤٠٩ .

عناصرها « كالغذاء السيىء الذي يكون سببا في رغبة النفس عن القول ، وهروب المعاني وتعصِّي الألفاظ ، كما أن حرارة الجو أو برودته ، وجفاف الزرع كله يؤثر على المتكلم »[١] .

ب ـ **التنوع الزمني** : « إذ لا يخفى أنّ الزمن عامل كبير في تغيّر نفسية المرء واختلافها فمثلا تكون النفس أكثر صفاء عند الاستيقاظ من النوم ، وأكثر انشغالا وتشويشا في فترة النهار ، ولعل مراعاة مثل هذا الأمر كان وراء الحكمة من جعل صلاة الليل جهرية بخلاف صلاتي الظهر والعصر ، كما أن الذهن ينشط ويزداد التفكير عمقا في فترة السجن ، وهذا الذي يفسر حال كثير من العلماء في التأليف في السجن» .

كما أن هناك بعض العوامل التي تؤثر على النفسية منها ما هو متعلق بالهيئة الجسمية والمظهر الخارجي ، كما هو الحال مع ذوي الحاجات الخاصة ، إذ لا شك أنهم يشعرون بنقص ولذلك فإن نفسيتهم تتغير ، ومن ذلك ما يطلق عليه التحول الحضاري ، وانتقال الحضارة من أمة إلى أمة يؤثر ـ بلا شك ـ في نفسية الأفراد .

طريقة الكلام : فالمستمع حينما يلمس صعوبة في إدراك معاني الألفاظ التي يختارها المتكلم ، فإنها ستكون عاملاً يصرف المتلقي عن إدراك تلك المعاني ، والتعبير اللغوي يختلف اختلافا صوتيا ودلاليا من تعبير لآخر تبعا لاختلاف المواقف الاجتماعية والإنسانية واليومية ، وقد يقال تعبير في موقف ليعطي معنى ، ثم يقال التعبير نفسه في موقف آخر ليعطي معنى مخالفا ومغايرا تمام المغايرة ، فالاختلاف في التعبيرات تبعا لمقتضى الموقف نفسه ، وتبعا لطبيعة ما عليه المخاطب من حالات نفسية وغيرها[٢] .

هذا من حيث المعجمية ، أما من حيث الصياغة النحوية : فحينما يدرك المتلقي ركاكة في صياغة اللفظ واستعمال الكلمات ولحنا في استعمال الكلام ، فإنّ ذلك يؤثر سلباً على تلمس المعاني النفسية أو تميل نفسه إلى الزهد في سماع حديثه فضلا عن تأمل معانيه وما تحتويه من معاني نفسية .

---

(١) انظر : البنداري : تكوين الخطاب النفسي ، ص٥٦ـ٦٣ .
(٢) أبو السعد ، عبد الرءوف : الأداء النفسي واللغة العربية ، (القاهرة : دار النمر للطباعة ، د . ط ، ١٩٨٥م) ، ص٧٢ .

لكن بعد الذي تقدم كله لا بد من التنبه إلى الحقيقة الآتية والتأكيد عليها مرة أخرى لأهميتها ، وهي أن هذه المعاني النفسية ـ لكلام البشر ـ لها حد أدنى يشترك فيه الناس جميعا ، ولا يتوقف على ما تقدم من العوامل ، ومن هنا تبرز أهمية البحث في استخراج الدلالات النفسية من الألفاظ القرآنية ، أما بالنسبة لنصوص القرآن فهي سالمة من العيوب المتقدمة والتي تؤثر سلباً على إدراك المعاني النفسية ، اللهم إلاّ ما كان قصوراً من المتلقي أو ناتجا عن فقره في الرصيد النفسي ، وهنا يصدق قول سيد قطب في أن صعوبة الفهم وسهولته ليست راجعه في الحقيقة إلى غرابة اللفظ ووعورة التركيب ، وإنما بسبب نقص الرصيد النفسي من التجارب الحسية والذهنية والروحية وخواء الطبيعة ، وفي معرض مناقشته لأولئك الذين لا يتذوقون النص الأدبي يشير إلى عجز بعض الناس عن تملّي الحالة النفسية التي يرمز إليها النص ، فالمدى بعيد بين أن نعرف مدلول الألفاظ في النص الأدبي وبين أن نستحضر الصورة النفسية التي يشعها ، وهذا وذاك ضروريان كلاهما للفهم والإدراك[١] . كما يقول : « إن ازدحام الصور النفسية والحالات الوجدانية في الألفاظ يحتاج في فهمه إلى طبائع خاصة ذات رصيد فني كبير يؤهلها لاستيعاب ما ترمز إليه النصوص السهلة التركيب »[٢] .

المبحث الثاني
وسائل التعبير

أولا : وسائل التعبير اللفظية

تتعدد الوسائل التي يستخدمها الإنسان في التعبير عن مراده ، وتبقى اللفظة أهم هذه الوسائل التي يستخدمها الإنسان ، وقد تحدث علماء اللغة عن هذه الوسائل ، حيث قسموها إلى تقسيمات عدة ، كل وسيلة منها تعتبر أداة من أدوات اتصال الإنسان بغيره[٣] ، فالإنسان منذ وجد على هذه الأرض شعر بحاجته إلى التعبير ، في ضوء هذا

---

(١) انظر : قطب ، سيد : دلالة الألفاظ على المعاني ، (مصر : مجلة الثقافة ، ع ٧٩ ، ١٩٤٠م) ، ص ١٩ .
(٢) قطب ، مجلة الثقافة ، ع ٧٩ ، ص ١٩ .
(٣) يقسّم علماء الاتصال لغة الاتصال إلى : ١ـ لفظية ٢ـ غير لفظية ٣ـ كتابية . أما غير اللفظية =

نفهم سرّ تعليم الله لآدم الأسماء كلها ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1] .

هذه الوسائل التعبيرية منها ما هو فطري (لا إرادي) ، ومنها ما هو وضعي (إرادي) ، والحاسة التي تستخدم لنقل هذا التعبير تتراوح ما بين السمع والبصر[2] ، فهي إما أن تكون عن طريق السمع ، أو تكون عن طريق البصر[3] . يمكن توضيحها بالشكل رقم (٤)[4] .

اللفظة هذه التي هي أبرز وسائل التعبير تمتاز على غيرها بالآتي :

مكتسبة ، لا فطرية .

إرادية وليست آلية .

تتمثل في أصوات مركبة ذات مقاطع .

تعبِّر عن معان تجول في الذهن ، أو عن انفعالات تتلبّس بها النفس[5] .

= فتشمل : (الحركات الجسمية ، الصراخ ، المسافة ، الزمن ، الصمت) . للمزيد انظر:
Samovar/ L. A. Porter/ Richard E. & Stefani/ Lisa A. 1998. Communication Between Cultures. Wadsworth publishing company. U.S.A. p.t73 & Beebe/ S. J.and Remond/ M. V. . Interpersonal Communication/ (London: Allyn and Bacon/ 1999)/ p 213
وانظر : إسماعيل ، سيوين علي : لغة الحركة الجسمية في القرآن الكريم ، (ماليزيا : رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية العالمية ، مايو/ ٢٠٠٠م) ، ص ٢٢ .

(١) سورة البقرة ، الآية ٣١ .

(٢) للمزيد انظر : مطر ، عبد العزيز : علم اللغة وفقه اللغة (تحديد وتوضيح) ، (قطر : دار قطر بن الفجاءة ، د . ط ، ١٩٨٥م) ، ص ٤٧ . وانظر : وافي ، علي عبد الواحد : علم اللغة ، (القاهرة : دار نهضة مصر ، ط ٩ ، د . ت) ، ص ٨١-٨٧ .

(٣) كحركات أعضاء الجسم ، وملامح الوجه الإرادية (تقطيب الحاجبين ، غمز العين ، . .) وغير الإرادية كـ (حمرة الوجه وصفرته الناتجة عن انفعالات الإنسان) .

(٤) انظر : ملحق رقم (٤) ، في نهاية الدراسة .

(٥) انظر مطر : علم اللغة وفقه اللغة (تحديد وتوضيح) ، ص٤٧ . ووافي : علم اللغة ، ص ٨١-٨٧ .

ثانيا : وسائل التعبير غير اللفظية

التعبير بغير اللفظ لا يقل أهمية عنه باللفظ ، فبينما نجده أحيانا يفسّر المراد باللفظ نجده أحيانا أخرى يستقل دون اللفظ . وكثيرا ما نواجه في حياتنا اليومية مواقف لأناس يكون التعبير فيها بغير اللفظ أبلغ من التعبير باللفظ(١) ، بل أحيانا يكون الصمت أبلغ من الحديث ، وقد يؤدي رسالة كاملة من التعبير ، ولهذا نجد أن كثيرا من العلماء تحدثوا عن الصمت وأبرزوا أهميته ، ويذكر أن للعرب أمثالا وأقوالا كثيرة تتعلق بالصمت وفوائده(٢) ، ولعل في تجربة الصوفية ما يؤكد دور الصمت ـ كما سبقت

---

(١) وفي واقعنا المعاصر ما يشهد لذلك ، حيث أصبح الرمز يعبر أحيانا أبرز مما يعبر عنه الكلام ، ولا يخفى دور ما يعرف بـ « الكاريكاتور » في التعبير عن الواقع وعن قصص وأحداث برمتها .

(٢) منه قولهم : « ومن جهل بالصمت عيّ بالنطق » أبو حاتم ، محمد بن حبان البستي : روضة العقلاء ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، د . ت) ، ١/ ٤٢ . ومنه قولهم : « عيّ الصمت أحسن من عيّ المنطق » . الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري : مجمع الأمثال ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٨٨م) ، ٢/ ٢٥ . ومنه ما ورد في وصية عبد الملك للشعبي : « فإن الصمت ربما كان أبلغ من النطق في موضعه وعند إصابته وفرصته » ، انظر صفوت ، أحمد زكي : جمهرة خطب العرب ، (بيروت : المكتبة العلمية ، د . ط . ت) ، ١/ ٥٦ . ومنه ما ورد في ديوان الحماسة :

وأسمعنا بالصمت رجع كلامه ... فأبلغ به من ناطق لم يحاور

أبو حاتم : ديوان الحماسة ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٧٧م) ، ١/ ٣٦٤ . ومنه القول المشهور : « الصمت حكم وقليل فاعل » . الميداني : مجمع الأمثال ، ١/ ٤٠٢ ، وهو قول منسوب للنبي ﷺ ، وذكره ابن الأثير في النهاية ، انظر : ابن الأثير ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري : النهاية في غريب الحديث والأثر ، تح : محمود محمد الطناجي وطاهر الزاوي ، (بيروت : دار الفكر ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ ـ١٩٧٩م) ، ٢/ ٢٣٢ . ولم أعثر على من ذكر درجة الحديث ، لكن قريبا منه ما رواه الحاكم في المستدرك : قال لقمان : « الصمت من الحكمة وقليل فاعله ، كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتني . . » ، قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . النيسابوري ، أبو عبد الله الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، تح : مصطفى عبد القادر عطا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١١هـ) ، ٢/ ٤٥٨ . وفي خطبة للأكثم بن صيفي قال فيها : « حسبك من شر سماعه الصمت حكم » ، انظر : صفوت : جمهرة خطب العرب ، ١/ ٥٦ . ويقول الجاحظ : « وإنما حثوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول أسرع منهم إلى معرفة خطأ=

الإشارة ـ إذ الصمت هو الأصل عندهم لا النطق والتعبير[١] .

والصمت بوصفه وسيلة للتعبير غير لفظية يؤدي دوره في نقل الدلالة النفسية ، وقد تحدث عن الصمت من المعاصرين ، كل من « ديفيتو » و« ساموفر » في بعض كتاباتهم وأفردوا له فصلاً مستقلاً في بعض بحوثهم[٢] ، وهذا ليس بجديد فقد نلمس بعض هذه الدلالات النفسية من خلال بعض النصوص القرآنية ، فانظر مثلاً إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٣] ، فما معنى البهت إلاّ السكوت والانقطاع عن الحديث وهو ما قاله أهل اللغة في معناه[٤] ، وهو يعبر عن حالة نفسية من الدهشة والغلبة ، وتوجد وسائل أخرى للتعبير عن مراد الإنسان تتمثل في حركات الإنسان والإشارات الصادرة منه ، وهي ما يطلق عليها اللغة البدنية ، وقد لوحظ حضور وسائل التعبير هذه في الكثير من نصوص القرآن ، تفصيله في الآتي .

ثالثا : إضاءات على معاني الحركات والحالات الجسمية الطارئة (اللغة البدنية) في نصوص القرآن

نظراً للدور الذي تؤديه الحركات وملامح الوجه في التعبير عمّا في النفوس ، فإننا نجد لهذا النوع حضوراً كبيراً في آيات الله تعالى ، فقد نقلت لنا الآيات تعبيرات كثيرة

= الصمت ، ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله » ، الجاحظ : البيان والتبيين ، ١/ ٧٥ . وفي صبح الأعشى : « فألسن آثارها مع الصمت أفصح من لسانه ، وبيانها مع الجحود أبلغ من بيانه » ، القلقشندي ، أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، تح : يوسف علي الطويل ، (دمشق : دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٧٨م) ، ٨/ ١٣٨ .

(١) انظر : القشيري ، عبد الكريم : الرسالة القشيرية في علم التصوّف ، تح : معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي ، (بيروت : دار الجيل ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م) ، ص ١١٩-١٢٤ .

(٢) Devito. J. A. 1992 The Interpersonal Communication Book. 6th Ed. Harper Collins. New York. P.p 151-1169, 198-217 .& Samovar. Communication Between Culture pp147-174 .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

(٤) قال ابن منظور : « البهت » الانقطاع والحيرة ، وفي التنزيل : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ ، انقطع وسكت متحيراً عنها . ابن منظور : لسان العرب ، ٣/ ١٢ .

من خلال هذه الحركات ، كل حركة تؤدي دورها في التعبير ، ولها مدلول نفسي يختلف عن سابقها ، ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن أغلب هذه الحركات المعبّرة كانت متركزة في منطقة الرأس وهي فيما يتعلق بحركة العين وما يحيط بها أكثر ، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على دور العين في التعبير عمّا في النفوس(١) .

الحركات الإرادية

تعبيرات العين : مرة يحدثنا عن استراق النظر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾(٢) ، وتارة مدّ العين(٣) كناية عن الطمع فيما عند الغير ، وتوصف العين بالخيانة ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾(٤) .

ومرة تصف الآيات نظرات الإنسان : تارة من طرف خفي(٥) ، وتارة تصف زوغان البصر(٦) ، وأخرى شخوص البصر ، وتارة تقلب البصر(٧) ، ومرة خشوع البصر .

---

(١) ولا عجب فعلماء النفس يشيرون إلى وجود قرابة سبعة آلاف تعبير وجهي يمكن تقدير الحالة الانفعالية التي تصحبها ، للمزيد انظر : إبراهيم ، عبد الستار : أسس علم النفس ، (الرياض : دار المريخ ، د . ط ، ١٩٨٧م) ، ص ٤١٧ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٥ .

(٣) ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . . ﴾ ، سورة الحجر ، الآية ٨٨ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ، سورة طه ، الآية ١٣١ .

(٤) سورة غافر ، الآية ١٩ .

(٥) قوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ، سورة الشورى ، الآية ٤٥ . وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ ، سورة القصص ، الآية ١١ .

(٦) ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، سورة الأحزاب ، الآية ١٠ .

(٧) ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . ﴾ ، سورة الأنبياء ، الآية ٩٧ . وانظر قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، سورة إبراهيم ، الآية ٤٢ . ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ﴾ ، سورة الأنعام ، الآية ١١٠ . وقوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ . . ﴾ ، سورة النور ، الآية ٣٧ . ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ ، سورة القمر ، الآية ٧ . ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ ، سورة المعارج ، الآية ٤٤ . ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾ ، سورة النازعات، الآية . وانظر : سورة القلم ، الآية ٤٣ .

وللعين حركات لاإرادية كما في المثال التالي في وصف المنافقين : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾[1] ، وفيض الدمع[2] .

تعبيرات الوجه لوحظ أن الآيات التي تنقل لنا تعبيرات الوجه كانت تتركز في منطقة العين وما حولها ، فاللمز حركة تؤديها العين وما يجاورها : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾[3] و﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾[4] ، و﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾[5] ، و﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾[6] .

وصفة العبوس أكثر ما يرسمها على الوجه تقطيب الحاجبين ، قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ ﴾[7] ، وقال : ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾[8] .

وأما حركات الرأس فقد كان لها حضور كبير في الآيات القرآنية ولها مدلولاتها النفسية المختلفة ، فتارة يصف القرآن حركة الرأس ، ولأن الوجه فيه هو العمدة فأغلب التعبير كان متركزا على الوجه : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾[9] ، وقوله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾[10] ، وقوله : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[11] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ١٩ . فهي ترسم صورة الجبن والفزع وهي حالة نفسية يعيشها المنفق الذي قعد عن الجهاد ، انظر : قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ٥/ ٢٨٤٠ .

(٢) قوله تعالى : ﴿ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ ، سورة المائدة ، الآية ٨٣ . وقوله تعالى : ﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ . . ﴾ ، سورة التوبة ، الآية ٩٢ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٥٨ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٧٩ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية ١١ .

(٦) سورة الهمزة ، الآية ١ .

(٧) سورة عبس ، الآية ١ .

(٨) سورة المدثر ، الآية ٢٢ .

(٩) سورة لقمان ، الآية ١٨ .

(١٠) سورة البقرة ، الآية ١٤٤ .

(١١) سورة المنافقون ، الآية ٥ .

رَبِّهِمْ﴾[١] ، وقوله : ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[٢] ، وقوله : ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[٣] .

أما حركات بقية أعضاء الجسم ، فبعضها من قبيل الاستعانة به كالأيدي حيث أغلبها كان لاشتراك ما بينها وبين أجزاء الوجه[٤] . وتارة تشترك اليد مع الفم في التعبير ومنه عض الأصابع : ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[٦] ، وقوله : ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾[٧] ، تعبيراً عن السخرية والإعراض عن الحق .

وتارة تؤدي هذا المشهد بالاشتراك مع الأذن : تعبيراً عن حالة الفزع ، قال عز وجل : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[٨] ، وتارة أخرى تعبيراً عن الإعراض وعدم الرغبة في سماع الحديث كقوم نوح : كما في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[٩] ، ومرة استعانة بالأيدي لتغطية الرأس تعبيراً عن عدم الرغبة في سماع الكلام : ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[١٠] .

---

(١) سورة السجدة ، الآية ١٢ .
(٢) سورة ابراهيم ، الآية ٤٣ .
(٣) سورة الذاريات ، الآية ٢٩ .
(٤) ذكر بعض الباحثين المعاصرين أن الكتفين والذراعين والمعصمين تؤدي حوالي :(٧٠٠ ،٠٠٠) إشارة مستقلة ، متميزة ، وإن اليد وحدها تتفوق بعدد إشاراتها وظائف الفم اللفظية بحوالي : (٢٠٠ ،٠٠٠) مرة ، وهي نتيجة قام بها R. Baget : ، أحد علماء النفس الاجتماع وسجلها في كتابه : « لغة الإشارت مثل الكلام » ، للمزيد انظر : البسطامي ، محمد مراد : اللغة بين اللفظ والإشارة ، (د . م : مجلة الأدب ، ع ٩ ، السنة ٤ ، فبراير/ ١٩٦٠م) ، ص ٥٤٠ .
(٥) سورة آل عمرن ، الآية ١١٩ .
(٦) سورة الفرقان ، الآية ٢٧ .
(٧) سورة ابراهيم ، الآية ٩ .
(٨) سورة البقرة ، الآية ١٩ .
(٩) سورة نوح ، الآية ٧ .
(١٠) سورة نوح ، الآية ٧ .

بعض الآيات تنفرد فيها الأيدي للتعبير عن الخسارة والندامة ، قال عز وجل : ﴿ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾[1] ، ولا يخفى ما لليد من دور في التعبير عن الأمور بطريق الإشارة ، من ذلك قوله تعالى عن مريم : ﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾[2] ، فمريم نذرت لربها صوماً ولهذا لم يصحب هذه الإشارة حديث ، وإنما كانت تعبيراً قام مقام الحديث ، ومن ذلك قوله تعالى عن زكريا عليه السلام : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾[3] ، وقد ذكر أغلب المفسرين على أن المقصود بالإيحاء هنا الإشارة ، إذ اعتبر صومه عن الكلام آية فهو لا يتكلم ، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ﴾[4] ، فهذا الرمز وهذه الإشارة هي في حقيقة الأمر كلام وهو ما يفيده الاستثناء في الآية : ﴿ إِلَّا رَمۡزٗاۗ ﴾ .

وأحياناً تنفرد الأرجل بالتعبير عن الحالة النفسية ، لكنها مع هذا لا تستغني عن تعبيرات الوجه ، وقد وصف القرآن مشي الإنسان في حالاته ، فهي إما :

مشية تكبر : ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴾[5] ، وواضح دور الرأس في التعبير عن التكبر فهو يرتفع إلى الأعلى .

مشية تواضع : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾[6] .

مشية استحياء : قال تعالى في وصف إحدى ابنتي شيخ مدين : ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾[7] .

وأحياناً **مشية التمايل والإغراء** ولهذا كان النهي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ ﴾[8] ، فتعبيرات الوجه هي التي تميز الأنواع المتقدمة .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٤٢ .
(٢) سورة مريم ، الآية ٢٩ .
(٣) سورة مريم ، الآية ١١ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٤١ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية ٣٧ .
(٦) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .
(٧) سورة القصص ، الآية ٢٥ .
(٨) سورة النور ، الآية ٣١ .

والكتف يؤدي دوره في التعبير لكنه بالاشتراك مع الرأس أيضاً ، ومنه : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] ، وهذا للتعبير عن التكبر .

وتارة حركة الجسم كلها تعطي دورها في التعبير : الإدبار : مرة للتعبير عن التكبر : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾[2] ، ومرة للتعبير عن الفزع والخوف : ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . ﴾[3] ، ومنه التولي في المعركة : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾[5] ، الركض والهرولة : ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾[7] ، هذه كلها حركات إرادية وقد يكون الركض والهرولة لإراديا كما قد يفهم من قوله تعالى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[8] كان لها نصيب كبير في آيات الله .

الحركات اللاإرادية

كما نجد حضوراً لتلك التعبيرات من الحركات اللاإرادية التي تصدر عن الإنسان كالصراخ ، والبكاء ، والضحك[9] ، وتغيير ملامح الوجه وبروز الانفعالات فيها :

---

(١) سورة الحج ، الآية ٩ .
(٢) سورة المدثر ، الآية ٢٣ .
(٣) سورة القصص ، الآية ٣١ .
(٤) سورة القمر ، الآية ٤٥ .
(٥) سورة الأنفال ، الآية ١٥ .
(٦) سورة الأنبياء ، الآية ١٢ .
(٧) سورة هود ، الآية ٧٨ .
(٨) سورة الكهف ، الآية ١٨ .
(٩) على الرغم من أن علماء اللغة قد صنفوا هذه الأنواع ضمن الحركات اللاإرادية إلا أن الواضح أنها تارة تكون إرادية ، وتارة تكون لاإرادية ، وهذه تفهم من السياق ، فالصراخ قد يكون إراديا كما هو الحال في الآية : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ ، سورة القصص ، الآية ١٨ ، وكذا الأمر بالنسبة للضحك والبكاء إذ قد يكون إراديا ، فتباكي إخوة يوسف كان بإرادتهم ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ ، سورة يوسف ، الآية ١٦ ، وكذا الأمر بالنسبة لضحك الكفار من آيات الله ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ ، سورة الزخرف ، الآية ٤٧ ، وقد يكون لاإراديا ، فاقتضى التنويه لذلك .

اسوداد الوجه في حالة الهلع والفزع : قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾[1] ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ﴾[2] ، ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[3] ، والمجرم يُعرف بملامح وجهه اللاإرادية : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾[4] ، ومن ذلك : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[5] ، والهلع أكثر ما يصيب القلوب : ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾[6] ، ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[7] ، وأحيانا تعبّر حركات الوجه هذه عن حالة الإنسان الاجتماعية ، كما قال عز وجل في وصف المساكين : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[8] ، وعن المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾[9] .

نضرة الوجه واستبشاره : قال عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾[10] ، وقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾[11] ، ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾[12] ، فحركات الوجه علامات على الحالات النفسية[13] ، وفي القرآن مواضع عدة من هذا الباب .

---

(١) سورة آل عمرن ، الآية ١٠٦ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ ، سورة النحل ، الآية ٥٨ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٧ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٢٧ .

(٤) سورة الرحمن ، الآية ٤١ .

(٥) سورة الملك ، الآية ٢٧ .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية ١٠ .

(٧) سورة إبراهيم ، الآية ٤٣ .

(٨) سورة البقرة ، الآية ٢٧٣ .

(٩) سورة محمد ، الآية ٣٠ .

(١٠) سورة عبس ، الآيتان ٣٨ ـ ٣٩ .

(١١) سورة القيامة ، الآية ٢٢ .

(١٢) سورة المطففين ، الآية ٢٤ .

(١٣) ومما يذكر هنا أنه يلاحظ في الآيات التي تتكلم عن الحشر أنها تركز على الوجه بشكل واضح ، من ذلك : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، سورة إبراهيم ، الآية ٥٠ ، ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ، سورة الإسراء ، الآية ٩٧ ، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، سورة المؤمنون ، الآية ١٠٤ ، ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ، سورة الفرقان ، الآية ٣٤ ، ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ، سورة الأحزاب ، الآية ٦٦ ، ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ، سورة القمر ، الآية ٤٨ . =

المبحث الثالث
علاقة اللغة بما في النفوس

ربما يعد من فضول القول أن الكلمات التي تصدر عنا وتظهر على ألسنتنا إنما هي وسائل للتعبير عما في نفوسنا ومشاعرنا ، إذ الأصل في وضع الألفاظ أن تكون كذلك ، فالعلاقة صوتية دالة على معقول أو متصور[١] ، وهذا المعنى المتصور يشترك فيه المتكلم والمخاطب ، إذ هو ضروري ، وإلاّ لما أمكن التفاهم بين الناس ، وعلى الرغم من أن هذا الأمر من البدهيات التي يسلّم بها ، إلاّ أن جمهرة من علماء الغرب المحدثين[٢] تناولوه بالتفصيل في كتاباتهم ، وساقوا له من الأدلة التي تؤكد الصلة بين التفكير والكلام .

يشار هنا إلى أن الذين اهتموا بالعلاقة بين اللغة والفكر ليس فقط علماء النفس في العصر الحديث ـ كما هو شائع ـ فقد تحدث عنها الفلاسفة القدماء ، كما تحدث عنها علماء اللغة العرب ، ويؤكد هذا كونهم اشتقوا لفظ (المنطق) الذي يعني قوانين الفكر من (النطق) ، وفي هذا إشارة إلى ما بين اللفظ والفكر من صلات ، كما أننا نجد إشارات متناثرة بين كلام العلماء تشير إلى وعيهم بهذه المسألة ، وكون اللغة مكتسبة ولها تعلق بتفكير الإنسان ، فابن فارس يقول : « تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع من أبويه وغيرهما ، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الأوقات ، وتؤخذ تلقنا من ملقِّن ، وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات . . »[٣] ، كما نجد أن ابن جني قد أشار إلى

---

(١) ظاظا ، حسن ، اللسان والإنسان ، (دمشق : دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٩٠م) ، ص ٦٨ .

(٢) من هؤلاء عالم اللغة الروسي الشهير ليف مينوفيتش فيجوتسكي(Lev Semenovich. V) . في كتاب الفكر واللغة(Thought and Languge) : ترجم إلى الإنجليزية عام (١٩٦٢م) ، ومن هؤلاء : اللغوي الأمريكي بنيامين لي وورف(Whorf) Benyamn L) . بعنوان اللغة والفكر (Langugo Thougnt and Realiky) ، ومنهم اللغوي فردينان برينو(Brunot. Ferdinand) مقال ، وعنوانه بالفرنسية(Hitoire de la Langue Francaise) . ومنهم الفيلسوف البريطاني برتراند راسل ، كتاب(Bertrand Rusell) : بعنوان : دراسة في المعنى والحق(An Inquiry into Meaning and truth) ، وغيره ، للمزيد انظر : ظاظا : اللسان والإنسان ، ص ٦٩ـ٧١ .

(٣) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تح : السيد أحمد صقر ، =

هذه المسألة في أكثر من موضع فهو يعرّف اللغة بأنها : « أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم »[(١)] ، وهكذا نجد أن موضوع علاقة اللغة بالفكر موضوع شغل الدارسين قديما وحديثا[(٢)] ، وليس فقط علماء النفس في العصر الحديث ، أما السبب في عناية علماء النفس بهذا الموضوع فعائد إلى أن اللغة في نظرهم تعدّ أحد مظاهر السلوك الإنساني ، ولا يخفى أن السلوك اللغوي هذا هو أحد أهم جوانب الالتقاء بين علم النفس وعلم اللغة[(٣)] .

فاللغة وسيلة للتعبير عن المشاعر والأحاسيس الإنسانية المختلفة ، ويكون استعمال اللغة في أغلب الحالات عبارة عن التنفيس عمّا في داخل الإنسان بغض النظر عمّا إذا كان هناك من يسمع ذلك الكلام أم لا ، وربما كان من طريف ما يذكر هنا أن اللغة كما أنها تستخدم لإبراز ما في النفوس والتعبير عن الأفكار فهي كذلك تستخدم

= (القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، د . ط ، ١٩٧٧م) ، ص ٤٨ .

(١) ابن جني : الخصائص ، ١/ ٣٨٣ وما بعدها .

(٢) للمزيد انظر : الراجحي ، عبده : فقه اللغة في الكتب العربية ، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، ١٩٩٠م) ، ص ٧٢ـ٧٦ . وانظر : أمين ، عثمان : في اللغة والفكر ، (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، د . ط ، ١٩٦٧م) ، ص٢٠ وما بعدها . وانظر : قنديل ، شاكر عطية : العلاقة بين اللغة والفكر ، (مكة المكرمة : مجلة معهد اللغة العربية جامعة أم القرى ، ع١ ، ١٩٨٢م/ ١٩٨٣م) ، ص ١٤٩ وما بعدها .

(٣) يطلق على العلم الذي يهتم بالجوانب النفسية في اللغة :

١ـ علم اللغة النفسي (Psycholinguistics) .

٢ـ علم نفس اللغة (Psychology of Language) .

٣ـ علم النفس اللغوي (Linguistics Psychology) . للمزيد انظر : منصور ، عبد المجيد سيد أحمد : علم اللغة ، (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، ط ١ ، ١٩٨٢م) ، ص ١٥ وما بعدها . وانظر : خرما ، نايف : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، (الكويت : عالم المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٧٩م) ، ص ٢٠٩ . وعلم النفس اللغوي يهدف إلى تفسير بعض الظواهر النفسية في ضوء الدراسات اللغوية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما حاوله دي سوسير بالنسبة للغة الكبار ، وبياجيه بالنسبة للغة الأطفال ، وليفي بريل بالنسبة للجماعات البدائية . انظر : مدكور ، إبراهيم : الفكر واللغة ، (القاهرة : مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، مج ٩ ، ١٩٥٧م) ، ص ١١ .

لإخفاء الفكر وإخفاء المشاعر في بعض الأحيان[1] .

وفي معرض التمييز بين اللغة والكلام[2] ، يشار إلى أن علماء النفس انقسموا في الإجابة على هذا التساؤل إلى ثلاث طوائف :

طائفة تقول بأنّ اللغة والفكر شيء واحد . وهم أتباع المدرسة السلوكية ويمثلهم (Skinner) و(Watson. John) .

وأخرى تقول بأنّ اللغة سابقة ، هي التي تحدد مسار الفكر وتؤثر عليه وتحجم

---

(١) كما في لغة السياسيين أو من يخرجون على القانون . . أو غير ذلك ، للمزيد انظر : خرما ، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ص ٢١٥ . وانظر : البكر ، عبد الله بن تركي : اللغة وعلاقتها بالفكر والوجدان ، (د . م : مجلة رؤى ، د . ن ، ع ٦ ، د . ت) ، حيث يقول : « إن الإنسان رجراج القوالب ، غموضه في لغته أكثر من وضوحه » ، ويقول أيضا : « وقصور اللغة في التعبير امتداد لقصور الفكر في الإدراك . فلو كان القصور في التعبير نتاجا عن اللغة لجاء الصمت خير حل لهذا الصراع المؤلم بين قوة الوجدان وفعل اللغة ، ولكنه ما من أحد يسلم بأن الصمت يحل المفصلة ، ولولا اللغة لبقيت اللطيفة الإنسانية كامنة محجوبة يستولي الخفاء على قاصيها ودانيها . اللغة ليست شيئا جامداً ، إنها المستودع الأكبر . . وقد تصبح قيداً لأفكاره لا فضاء حراً يسهل عليه اختراقه ، وقد تصبح سبب وجود عقد نفسية مخربه لكيانه المعنوي » ، كما نجده أشار إلى بعض من ينسبون كل قصور إلى اللغة ، حيث قال : « وقد تطرّق المتذرعون بأزمة اللغة إلى أنها عاجزة أصلاً عن أن تلتقط متناهيات الوجدان ، والغريب في هذا الأمر أن كثيراً من أدباء الغرب الذين انهالوا على اللغة باللائمة : حجتهم أنها لا تظهر مكنونات الفكر إظهاراً كاملاً ، ثبت هذا في سن كل قلم من أقلام أدبائهم ، يعنون بذلك أن الإنسان عاجز باللغة عن إخراج حبات قلبه : فالكلمات خداعه . . . هي آنية فارغه . . . والنفس حشو ملى . هذه الفئة من كتابهم لم تر في اللغة غير تخريب لكيان الوجدان (والمقصود بالوجدان ليس العادي لكل إنسان) بل الوجدان الطافح بالأخيلة والأفكار المفعمة بأعلى درجات الثقافة » .

(٢) فاللغة هي أقدر الوسائل التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل للتعبير عن الأفكار والانفعالات والعواطف ، في حين أن الكلام وسيلة تفاهم خاصة بالإنسان وغير غريزية ، تمكنه من تبادل الأفكار والوجدانات ، أما اللفظ فهو يشير إلى الناحية الصوتية من الكلمة ، والكلمة تشير إلى اللفظ وإلى المفهوم المعنوي للفظ معا ، ولهذا عرّف علماء النحو الكلمة بأنها : « لفظ مفيد لمعنى » ، للمزيد انظر : المبارك : فقه اللغة ، ص ١٦٧ ، وفي ألفية ابن مالك : « كلامنا لفظ مفيد كاستقم . . » ، فكلمة مفيد لا تفهم إلا إذا عبرت عن معنى له حضور في النفس الإنسانية .

حدوده ، مثل : سابير وتلميذه وورفWhorf)) .

وثالثة تقول بأنّ الفكر أسبق ، وعليه فقد يوجد فكر مجرد لا يعتمد على اللغة[١] .

لكن ودون خوض في تفصيلات المسألة التي هي مبسوطة في كتب علم النفس وعلم اللغة ، يمكن الإحالة إليها[٢] ، يكتفى هنا بالرد على أصحاب وجهة النظر الأولى (الذين يسوون بين اللغة والفكر) بأن العلم الحديث أثبت أنّ من تعطلت أجهزة النطق كاملة لديه ، فإن هذا لا يؤثر على قدرته المتعلقة بالتفكير ، لكن يبقى الحق للقائلين بأن اللغة والفكر شيء واحد بأن يعترضوا على ما تقدم مستدلين بأن من تعطلت لديه القدرة على الكلام قد يستخدم الإشارات ، وهي جزء من اللغة .

كما أن أصحاب النظرية الثانية (اللغة سابقة على الفكر) لم يثبت رأيهم أمام النقد والتجربة ، إذ من الواضح وجود فكر بلا لغة ، وبهذا يمكن تعليل وفرة الإنتاج الفني (من رسم ونحت وتصوير وغير ذلك) ، فضلاً عن أن بعض العلوم كالرياضيات والمنطق الرمزي يقوم في حقيقة الأمر على رموز لا كبير علاقة لها باللغة .

وما يمكن أن يُطمأن إليه هو أن لكلٍّ منهما (اللغة والفكر) تأثيرا على الآخر ، ولا يمكن تحديد أيهما أسبق على الآخر بوضوح ، فكل منهما يعتمد على الآخر ، وقد أشار إلى هذا غير واحد[٣] .

لكن يمكن القول بأن العاطفة أسبق في الوجود من اللغة ومن الفكر ، وهي مع ذلك لا تنفصل عن اللغة[٤] ، إذ اللغة تبدأ أولاً في الوجدان ، ثم تمرّ على اللسان ، ثم

---

(١) للمزيد انظر : خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ٢١٦ـ٢١٨ .

(٢) انظر : كمال ، يوسف الحاج : في فلسفة اللغة ، (بيروت : دار النهار ، د . ط ، ١٩٦٧م) ، ص ٢٣ وما بعدها .

(٣) انظر مثلاً : خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ص٢١٥ . وانظر البكر : مجلة رؤى ، ع ٦ ، حيث قال : « ومن العسير التوصل إلى جواب موضوعي عن منشأ اللغة » .

(٤) فالقوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي » . للمزيد انظر : المبارك : فقه اللغة ، ص ٢٣٢ . ومما يستأنس به في هذا المقام ما أكّده عالم النفس سشهيSchagaye)) ت (١٩٠٨م) ، من أن اللغة الانفعالية أسبق في ظهورها عند الطفل من اللغة النحوية ، للمزيد انظر : أبو السعد : الأداء النفسي ،ص ٧٦ . =

تستقر في الخط ـ كما أشار بعضهم ـ[١] .

وهكذا ندرك أهمية اللغة ودورها في التفكير ، فاللغة بمثابة الجسر الذي ينقل إلينا عبره كل ما في الذهن من خواطر ومشاعر وأفكار ، لكن تبقى هذه اللغة محدودة فهي تعجز عن أن تنقل المشاعر والأحاسيس كلها ، وهي إن نقلت بعضها كان نقلاً على وجه العموم ، إذ لا تنقل إلينا كل هذه الأبعاد النفسية ، وربما هذا الذي دعا الكاتب الفرنسي الشهير فولتير إلى القول : « تعجز اللغة أي لغة عن التعبير الكامل عن آرائنا ومشاعرنا ، فالفروق بينها كثيرة لا تكاد تلمس فتضطرنا اللغة مثلاً أن نعبّر بلفظة الحب والبغض عن آلاف من ضروب الحب والبغض كلها مختلفة »[٢] .

بل أبعد من هذا فقد ذهب بعضهم إلى وصف اللغة بأنها « تحجم من الفكر فهي تعبّر عن جزء بسيط من مشاعره[٣] ، ولهذا نجد في بعض الكتابات دعوة مفادها القيام بدراسة تمهيدية لإنشاء معجم يضم المعاني النفسية على شاكلة المعاجم الدلالية الصرفية الاصطلاحية ودراسة لغة الفرد وعاطفته ، صحب ذلك تساؤل عن مدى إمكانية إيجاد لغة عالمية إنسانية في المستقبل تذوب دونه حواجز النفس[٤] .

= انظر : ظاظا : اللسان والإنسان ، ص٨٠ ، والجدير بالذكر أن الكتابة محاولة لنقل اللغة من بعدها الزماني إلى بعدها المكاني ، انظر : المبارك : فقه اللغة ، ص ١١ .

(١) انظر : ظاظا : اللسان والإنسان ، ص٨٠ ، والجدير بالذكر أن الكتابة محاولة لنقل اللغة من بعدها الزماني إلى بعدها المكاني ، انظر : المبارك : فقه اللغة ، ص ١١ .

(٢) المبارك : فقه اللغة ، ص ٢٠٤ .

(٣) ظاظا : اللسان والإنسان ، ص ٨٠ .

(٤) تكررت هذه الدعوة في أكثر من موضع في كتاب أبو السعد : الأداء النفسي ، انظر مثلاً : ص ٧٤ـ٧٥ . مما يذكر أن أول من أثار فكرة اللغة العالمية هو : « ليبنتز » حيث كان عالمي النزعة ، إذ في هذه اللغة المنشودة ما يقرب من المسافة بين بني الإنسان ، وتحول دون أخطاء كثيرة ، وقد عادت فكرة اللغة العالمية إلى الظهور مرة أخرى متحفزة في أوائل القرن العشرين وكان من أكبر مناصريها رياضي وفيلسوف فرنسي بارع يدعى : « كوتورا » وقد وضع في ذلك معجما خاصا ، حيث كانوا يقيسون هذه اللغة العالمية على اللغة الرياضية ، ثم أخذ يبحث عن أصول عامة يمكن أن تتخذ أساسا للغة الدولية ، إلا أن دعوته هذه أثارت ثائرة علماء الاجتماع الفرنسيين : « دوركايم » وأتباعه بحجة أن هناك أسرا لغوية بقدر ما هنالك من مجتمعات إنسانية ، ويذكر أن هذه الدعوة ازدادت وضوحا في الآونة الأخيرة ، حتى إن بعضهم يأمل في=

وعلى الرغم من اعتبار اللغة أداة من أدوات الاتصال إلاّ أن بعضهم لفت الأنظار إلى أن اللغة أحياناً قد تكون أداة انفصال ، أي تصبح عائقاً للفكر بقدر ما هي ضرورية له ، والدلالة هي « الحالة النفسية التي تثيرها العلاقة بين الكلمة والاستجابة لها »[1] ، لكن ينبغي التأكيد على أن وظيفة اللغة لا تقتصر على ما تقدم ذكره ، فقد توصل مالينوفسكي[2] ت (١٩٤٢م) إلى أن « اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو التوصيل ، بل هي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم ، وهي جزء من السلوك الإنساني ، كما أنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر »[3] ، ومع ذلك تبقى وظيفة الاتصال أهم وظائف اللغة على الإطلاق ، لكن موضوع الاتصالات أوسع بكثير من اللغة البشرية وإن كان يشملها طبعاً[4] .

مما تقدم يتضح لنا أن كلاً من الأفكار التي مصدرها العقل ، والمشاعر التي مصدرها الوجدان تفتقران إلى اللغة ، يذكر أن الفكر والوجدان مصدرهما الدماغ ، إذ الصورة اللغوية يصحبها أداء نفسي ، تقف خلفه عوامل عقلية وعناصر وجدانية تتآلف وتتجاذب بحكم ما بينها من علامات لتكون الصورة اللغوية تعبيراً للصورة العقلية والنفسية دون أن يشعر المتكلم أو المتحاور بشيء من هذا[5] ، ومن هنا نجد فردينان بريتو يذهب إلى « أهمية اللغة وضرورتها للفكر حتى في الحالات التي يفكر فيها الإنسان تفكيراً شخصياً ، إذ هناك ارتباط بين الأفكار التي مصدرها العقل والانفعال الذي مصدره الوجدان »[6] ، وإن كان علم النفس الحديث يعتقد بأن الأفكار المنطقية

= أن تكون وسائل الاتصالات الحديثة مساعدة لذلك . للمزيد انظر : مدكور : مجلة مجمع اللغة العربية ، ١٢ .

(١) راغب ، نبيل : شرف الكلمة ، (د . م : مكتبة المحبة ـ سلسلة آفاق مضيئة ، د . ط ، ١٩٨٩م) ، ص ٢٢ .

(٢) عالم اجتماع بريطاني ، انثروبيولوجي شهير ، كما اشتهر بإسهاماته في نظريات الثقافة الإنسانية (١٨٨٤م ـ١٩٤٢م) . انظر : مؤسسة أعمال الموسوعة : الموسوعة العربية الميسرة ، (الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٦م) ، ٢٢/ ١٥٥ .

(٣) السعران : علم اللغة ، ص ١٧ وما بعدها .

(٤) انظر : خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٥) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص٢٦ .

(٦) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص٢١ .

تأتي من الفص الأيسر من الدماغ ، بينما تأتي المشاعر والأحاسيس والانفعالات من الفص الأيمن ، لكن هذا الفهم المادي للفكر والانفعال هو في حقيقة الأمر إنكار لوجود الروح ودورها في تفسير السلوك العقلي والانفعالي لحياة الإنسان ، ونحن المسلمين لا ننكر دور القلب والعقل في هذا الإطار .

وغاية ما نريد الوصول إليه في هذا المقام التأكيد على أن اللغة في حقيقة الأمر تعكس صورة نفسية لدى المتكلم بها ، قبل أن تكون صورة صوتية ، ودليل ذلك ما نجده في لغات الدنيا من وجود كلمات ومفردات تحمل دلالات تحقق المطلب النفسي ، فالذي يساعد على إيجاد اللغة بمفرداتها : الحالات النفسية والمطالب الحيوية(١) .

وما الألفاظ إلاّ رموز تعبر عن المعاني الكامنة في النفس ، إذ هي ضرورية للتقدم العقلي ، لأنها هي التي تثبت كل خطوة يخطوها الذهن البشري(٢) ، كما أن اللغة ليست مجموعة الألفاظ والكلمات بقدر ما هي مجموعة الأفكار والأحاسيس والمشاعر التي يعبر عنها باللغة لتصبح صالحة لتلقى الغير بها كما أن الكلام بحروفه ورموزه مجرد قوالب مملوءة بالحيوية النفسية ، وإن حروف تلك الكلمات تجري بها أحاسيس النفس التي تتحدث إلينا من خلال تلك الكلمات والأساليب(٣) .

ولا يمكن الفصل بين اللغة وبين قائلها لأن اللغة تحكي تجارب هذا القائل وتترجم لنا ما يدور بداخله « فالعلاقة قوية بين هذه اللغة وبين من ينطق بها ، وقوة العلاقة منشؤها أن صاحب الموقف اللغوي هو نفسه صاحب البعد النفسي الذي يؤثر بفاعليته في طبيعة وترتيب وأثر الموقف اللغوي »(٤) .

كما أن الإنسان وهو يصنع لغته إنما يشتقها من ذات نفسه ويصوغها من خواطره

---

(١) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص٢١ .

(٢) عبد التواب ، رمضان : المدخل إلى علم اللغة العربية ومناهج البحث اللغوي ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، ص ١٣٧ .

(٣) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ١٧١ وانظر : ص ٢٠٨ .

(٤) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ١٩ .

ويلونها بدقائق حالاته الوجدانية ، حتى أن بحة صوته والتنغيم الصادر عن تجاويف مخارجه تلعب هي الأخرى دوراً بارزاً في تلوين ودلالات تلك اللغة[1] .

ويبقى بعد هذا لنا الحق في أن نتساءل عن الآلية التي تتم فيها عملية الكلام أو بمعنى آخر المراحل التي تمر فيها عملية التعبير عن الشعور ؟ كيف يصدر الكلام عن المتكلم ؟ وكيف يفهمه السامع ؟ موضوع شغل كلاً من علماء (النفس ، واللغة ، والتربية) ، ويهدف الباحث من ذكره مجملا هنا إلى التنبيه على بديع صنع الله فيما يخص آلية النطق .

ذكر العلماء أن الإنسان حين يريد إيصال رسالة كلامية لغيره فإنه يمر بمراحل ثلاث[2] :

١) **المرحلة الأولى** : تكوين الرسالة وإطلاقها أصواتاً ، وهذه تختص بالمتكلم ، وهذه المرحلة تتم بخطوات ثلاث :

أ ـ اختيار القوالب الصوتية المناسبة لبث الرسالة ، ويطلق على هذه الوحدات الصوتية المورفيمات وتعني : « أصغر وحدة لغوية ذات معنى »[3] .

ب ـ قيام الدماغ بإصدار الأوامر إلى أجهزة النطق المختلفة لكي تؤدي الحركات المعنية اللازمة لنطق هذه الجملة .

ج ـ قيام أجهزة النطق بالفعل بإصدار الأصوات المطلوبة ، وهنا يكون دور المتكلم قد انتهى .

---

(١) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص٢٠ .

(٢) يذكر أنه كان لسلفنا الصالح عناية ببيان بعض الجوانب المتعلقة بكيفية النطق ووصف آلاته ، كالغزالي وابن القيم ، للمزيد انظر : ابن قيم الجوزية ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي : بدائع الفوائد ، تح هشام عبد العزيز عطا ، وآخرون ، (مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، ط ١ ، ١٩٩٦م) ، ٣٨/١ . ابن قيم الجوزية : جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنام ، تح : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، (الكويت : دار العروبة ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م) ١٤٩/١ ، ابن قيم الجوزية : التبيان في أقسام القرآن ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) ، ١٩٣/١ .

(٣) خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ص ٨٢ .

٢) **المرحلة الثانية** : انتقال الأمواج الصوتية الصادرة من المتكلم عبر الهواء لتصل إلى أذن السامع .

٣) **المرحلة الثالثة** : قيام السامع بحلّ رموز تلك الرسالة الصوتية واستخلاص المعنى الذي يقصده المتكلم ، وهذه من أصعب المراحل ، إذ يتحكم فيها عدة أمور : بعضها متعلق بقواعد اللغة وبعضها الآخر متعلق بعملية الاستماع والفهم[1] ، أما عن رد فعل المستمع تجاه هذه الرسالة فهو مالا يمكن التكهن به لأنه يختلف من شخص لآخر ، وبهذا يتضح لدينا أن عملية الكلام هذه تمرّ بمراحل ، فالمتكلم على هذا يمرّ بمرحلتين من التخطيط للكلام :

أولاهما : التخطيط الإجمالي والذي يبدأ مع النطق بالجملة .

ثانيتهما : التخطيط التفصيلي حيث يبدأ مع النطق بالجملة المخطط لها .

يخلص الباحث مما تقدم إلى تقرير الحقائق الآتية :

١ـ إن أبرز ما يمكن أن يعتمد عليه في نقل مراد الإنسان وإيصاله إلى الآخرين هو اللفظ ، لكن توجد وسائل أخرى للتعبير عن المراد .

٢ـ يتفاوت الناس في فهمهم لهذه الدلالة ، وتتأثر هذه الدلالة بعوامل عدة .

٣ـ تعتبر الدلالة النفسية أحد أهم أنواع الدلالات المستنبطة من الكلام .

---

(١) ما هو متعلق مباشرة بعملية الفهم ، إذ بعضها يعود إلى طبيعة الصوت ، وبعضها يختلف باختلاف الإنسان الذي يصدر الأصوات (رجل أو امرأة) وبعضها يختلف بالنسبة للغة ونوعية الأصوات ، كما إن بعضها يختلف باختلاف الحالة النفسية للمتكلم (سرور ، غض. .) وبعضها متعلق بالظروف المحيطة بالحديث من حيث القرب والبعد ، والتشويش والصفاء. . وبعضها متعلق بالأجهزة المستخدمة لعملية الفهم والنطق من جهة المتكلم وأعضاء السمع بالنسبة للطرف الآخر ، للمزيد انظر : خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، ص ٨٤ـ٨٨ . كما نجد أن الزمن يلعب دورا بارزا في حياتنا النفسية ، وترتبط الحالات النفسية بالزمن ووقعه ارتباطا طردياً ، ولهذا فإنه لا بد من لغة الفن والأساليب لتحكي لنا الأداء النفسي . انظر : أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ١٠٢ .

المبحث الرابع

شبهات حول الدلالة النفسية المستنبطة من القرآن وردود عليها

في هذا المبحث سيورد الباحث مجموعة من الشبهات التي تصورها ، وأحس بضرورة الإجابة عنها ، إذ هي في حقيقة الأمر لم ترد على أي لسان ، وإنما صاغها بأسلوب يشير إلى وجود فئات من الناس ينكرون هذا النوع من الدلالات ، ليتولى الإجابة عنها فيكون مدخلا لدراسة مطمئنة من حيث النتائج والوجهة ، نسأل الله تعالى أن نكون ممن وفّق لصواب القول .

الشبهة الأولى

إن هذا القرآن جاء بلسان عربي مبين ، وإن أغلب الشخصيات الواردة في قصصه لم يكن لسانها عربيا ، إلا أننا نجد القرآن ينقل لنا على لسان أولئك الأشخاص ويخبرنا بأقوالهم ،كل ذلك باللسان العربي المبين ، وظاهر هذا يناقض ما صرّح به القرآن في موضع آخر ، فضلا عما يحكم به العقل ، ويصدقه التاريخ ، فقد قال القرآن : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾[1] ، ولسان كل قوم يختلف ، كما ذكر في القرآن في موضع آخر أن اختلاف الألسنة آية من آيات الله : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ ﴾[2] ، والعقل يحكم باستحالة أن تكون لغة الناس من لدن آدم إلى وقت نزول القرآن واحدة ، وإلا فما سر هذا الاختلاف في اللغات ؟ وما تعليل وجود مئات اللغات ؟ هذا. . والوقائع التاريخية تؤكد هذا الاختلاف ، فكيف يصح بعد هذا المذكور استنباط المعاني النفسية من هذا الكلام ؟

الرد على هذه الشبهة :

هذه الشبهة كما لا يخفى تثير أكثر من تساؤل ، والجواب عليها لن يتأتى إلاّ بالإحاطة بشقيها الآتيين :

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٢٢ .

١ـ هل ما نجده في القرآن على لسان الشخصيات هو عين ما قالوه ؟

إن كان هو عين ما قالوه فمردود ، وإن لم يكن عين ما قالوه فكيف ينسب إليهم؟!

٢ـ ما مدى صحة الاعتماد على ما ذكر على لسان المذكورين في القرآن لاستنباط دلالاتها النفسية ؟

جواب الشق الأول :

إن ما ذكر على لسان الشخصيات لا يعدو ـ ضمن التقسيمات العقلية ـ أن يكون أحد الاحتمالات الآتية :

الأول : أن هذا الكلام هو عين ما قالوه بلفظه ومعناه .

الثاني : هذا الكلام هو ترجمة لمعنى ما قالوه بألسنتهم على اختلاف لغاتهم .

الثالث : هذا الكلام هو حكاية الله عنهم وبيان لمقال أولئك القوم ، بياناً لا بلفظه وإنما بمقاصد الكلام ومراميه .

أما جواب الباحث عن الاحتمال الأول : وهو« أن يكون ما ورد على ألسنتهم عين ما قالوه[١] فعلى هذا القول تكون مقولة فرعون مثلاً : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[٢] ، هي عين ما قاله فرعون بهذا اللسان العربي المبين[٣] . فهذا

---

(١) يشار هنا إلى أن الذين خاضوا في مسألة (كلام الله) من المتكلمين وأصحاب الفرق والمذاهب ذكروا في هذا المقام أن الله عز وجلّ خلق عين هذا الكلام فأنطق به الأقوام بهذه الألفاظ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٢٩ .

(٣) كما يود الباحث أن يلفت الأنظار إلى أن الشخصيات الواردة في القرآن بعضها تتكلم بالعربية وهو أصل لسانها ، وبعضها بغير العربية ، فاليقين في شأن أولئك الذين لا يتكلمون بالعربية أن لا يكون هذا المنقول عنهم هو عين لفظهم ـ كما سيأتي ـ وأما الذين يتكلمون بالعربية (كالمشركين وبعض المنافقين) فلا يخفى أن يكون بعضٍ ما ورد عنهم هو عين ما قالوه كمقولة عبد الله بن أبي بن سلول : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ ، سورة المنافقون ، الآية ٨ ، أو مقولة الوليد بن المغيرة : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ، سورة المدثر ، الآية ٢٤ ، لكن كما هو ملاحظ ما فيه بيان لمرادهم وإن لم ينطقوا به ، ويلحق بذلك ما كان ينزل من الألفاظ على وفق ما جاء على ألسنة الصحابة ـ كما هو الحال في الموافقات التي اشتهرت على لسان الفاروق عمر بن الخطاب ـ كقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ، سورة المؤمنون ، الآية ١٤ ، وقوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ، سورة التحريم ، الآية ٥ .

أمر يمكن رده أولاً بـ« المفهوم » من نصوص القرآن نفسها ، ثم ثانياً بالعقل ، ثم ثالثاً : بالوقائع التاريخية .

أولاً : بالمفهوم من نصوص القرآن ، من ذلك :

١ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[١] ، فاختلاف لسانهم حقيقة تؤكد تعدد اللغات .

٢ـ وجود عدد كبير من الآيات تجمع كلام الأنبياء في تبليغهم رسالة ربهم لأقوامهم مع توحّد النص ، مع اليقين باختلاف لغاتهم ـ كما صرّحت به الآية الآنفة الذكر ـ من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[٢] ، وقوله عز وجل على لسان مجموعة من الأنبياء : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[٣] ، حيث ورد على لسان سيدنا نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط وشعيب . .[٤] .

يشار إلى أن السياق القرآني يوحّد أحيانا الألفاظ التي عبّر بها الرسل جميعهم مع اختلاف لغاتهم ، ويوحّد حكاية ما قالوه ويوحد ترجمته في نص واحد ، حتى تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد ﷺ ، وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة لتقرير وحدة العقيدة والرسالة حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها[٥] .

فما جاء في القرآن مما وافق الواقع لفظاً فهو نقل له بلفظه ، مطابق لما جاء في نفس المتكلم ، وما غاية القرآن إلاّ الوقوف بنا على حقائق ما قاله أولئك القوم ، « فالقرآن حين يُنطق شخصية من الشخصيات ، فإنما يحمل على لسانها ما يدور في خاطرها ، إن كانت بين الشخصيات التي تلتزم الصدق ، وأما إن كانت من تلك الشخصيات التي

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٥٩ .

(٤) انظر : سورة الأعراف ، الآيات (٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) ، وسورة هود ، الآيات (٥٠ ، ٦١ ، ٨٤) .

(٥) انظر : قطب ، سيد : الظلال ، ٤/ ١٨٧١ .

تراوغ وتخادع فإنه لا يدعها تنطق بما نطقت به دون أن يفضحها ويكشف أمرها ويعلن عما أخفته وأضمرته »[1] .

٣ـ اشتمال بعض هذا المحكي عنهم على جزء من الكلام لا يرغب القوم في إظهاره وإبرازه ، كأقوال المنافقين الواردة في سورة التوبة حيث تولت كشف أمرهم وفضحت نواياهم وهو ما سيأتي بسطه ـ بإذن الله ـ .

٤ـ بعض هذا المحكي مما يحكم العقل يقينا بأنه ليس هو عين ما قالوه ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾[2] ، فالعقل يرفض أن تكون هذه المقولة وردت على لسان كل فريق ، إذ هي ـ على ما قاله سيد قطب ـ[3] حكاية قولهم مزدوجة فقد كانت اليهود تقول : لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً ، وكانت النصارى تقول : لن يدخل الجنة إلاّ من كان من النصارى .

٥ـ ما ورد في القرآن من حديث عن الموقف الواحد في الحادثة ذاتها ، مع اختلاف في الكلام المحكي على لسان المنقول عنهم ، فمن ذلك مثلاً قوله تعالى على لسان فرعون : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ حيث وردت في مواضع ثلاثة من القرآن الكريم ، وقد كانت تختلف في كل موضع عن الأخرى ، ففي الأعراف : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾[4] ، وفي طه : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾[5] ، وفي الشعراء : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[6] ، كما هو ملاحظ أن الوارد فيه بعض الاختلاف : مرة ﴿ بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ ، ومرة ﴿ لَهُۥ قَبْلَ ﴾ ، ومرة ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ

---

(١) الخطيب ، عبد الكريم : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط . ت) ، ص١٢١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١١١ .
(٣) قطب ، سيد : الظلال ١/ ١٠٣ .
(٤) الآية ١٢٣ .
(٥) الآية ٧١ .
(٦) الآية ٤٩ .

ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ ، ومرة ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

مثل هذا في القصص الوارد في القرآن كثير جداً[1] ، كالمحكي على لسان إبليس ـ عليه لعنة الله ـ ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾[2] ، وقوله : ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾[3] .

ثانياً : بالمعقول :

على الرغم من أن بعض ما تقدّم يصلح جواباً هنا ، إلا أنه يمكن أن يجاب عنه بالآتي :

١ـ العقل يحكم باستحالة أن تكون لغة الناس من لدن آدم إلى وقت نزول القرآن ، واحدة[4] ، فوجود المئات بل الآلاف من اللغات واختلافها يرد على القول بأن اللغات واحدة ، حيث يرده العقل فضلاً عن الأحداث التاريخية .

٢ـ المنطق يحكم باستحالة أن يكون أولئك القوم على تلك الدرجة من الفصاحة والبلاغة التي تظهر في نظم الكلام المحكي عنهم ، فهو بإجماع أهل الفصاحة والبيان في أعلى مراتب الفصاحة والبيان ولا تفاوت في الكلام ، فكيف يكون الناس سواء في الحجة والبيان؟!

وقد أشار إلى هذا المعنى بعض المفسرين في ثنايا تفسيرهم ، من ذلك ما قاله ابن عاشور عند تفسير الآية ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[5] ، هذه الجملة من

---

(١) يجيب بعض الذين تحدثوا عن القصص القرآني عن مثل ذلك الاختلاف بأنه عائد إلى اختلاف الحادثة أو تكرارها في التاريخ ولهذا اختلف التعبير ، إلاّ أن هذا القول وإن كان ينسجم مع بعض المواقع ، ومع تقدير الباحث لقائله وموافقته له في بعضه إلاّ أنه يصعب اطراده أو قبوله من غير تكلف في بعض المواطن ، انظر مثلاً : الخطيب : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص ٦٩ . إذ كيف تقول في قصة سجود الملائكة لآدم واختلاف المحكي على لسان إبليس ، والجواب على ذلك ـ سيأتي في موضعه إن شاء الله ـ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٣٩ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٦ .

(٤) علما أن هذا الدليل جزء مما يستدل به من يورد هذه الشبهة ـ كما هو ملاحظ ـ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية ٧٥ ، ابن عاشور ، محمد الطاهر : تحرير المعنى السديد وتنوير العقل=

حكاية القرآن ، لا من المحكي من كلامهم ، إذ لا يظن أن كلامهم بلغ من البلاغة هذا المبلغ ، فوجه الصواب في هذا أن يقال بأن ما يثبته القرآن هو حقيقة ما قالوه بأسلوب القرآن المعجز ، فهو قول الحق عز وجل المعجز .

ثالثاً : الوقائع التاريخية :

الواقع التاريخي يؤكد اختلاف اللغات هذا ، بل يثبت أصول اللغات المختلفة ، فضلاً عن أن بعضاً من نصوص الكتب السماوية ذكرت بعض الأحداث التي ذكرها القرآن بغير اللغة العربية ، فأغلب قصص الأنبياء نجده في التوراة والإنجيل وهو بغير العربية .

الجواب عن الاحتمال الثاني : « هذا الكلام هو ترجمة لمعنى ما قالوه بألسنتهم على اختلاف لغاتهم » .

توضيحه أن هذا الكلام المحكي عنهم هو ترجمة حرفية لما قالوه بلغتهم ، ومقتضى هذا القول أن يكون في اللغة العربية ما يطابق ألفاظ تلك اللغات تماما دون أي تصرف فيها .

١ـ وهذا القول وإن كان أصلح من القول الأول إلاّ أنه غير مقبول ، إذ ليس من المعقول أن نجد عين الأساليب والألفاظ والمرادفات وحروف المعاني وغيرها مما يتكون منه الكلام عند اللغات جميعها ، فبعض اللغات يقصر عن بعض ، وبعضها لا تجد سوى لفظة واحدة تقوم مقام ألفاظ .

وعلماء اللغات أنفسهم يقرون بهذا التفاوت بين اللغات ، كما يقرّون ويعترفون بكفاية اللغة العربية في التعبير وتميزها على غيرها من اللغات ، إذ ليس في لغات العالم ما يشبه اللغة العربية من حيث ثراء المعاني ، ووفرة الألفاظ ، وتنوع الأساليب ، وكثرة الألفاظ المشتركة للتعبير عن اللفظة الواحدة[1] ، حتى إن المستشرقين اعترفوا بذلك ،

= الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (تونس : الدار التونسية للنشر ، د . ط ، ١٩٨٤م) ، ٢٢٣/٨ .

(١) فعلى سبيل المثال لا الحصر الكلمات التي تعبر عن الخوف نجد من الألفاظ العربية الكثير الذي يندرج تحتها : الخشية ، الفزع ، الهلع ، الذعر ، الرعب ، الرهبة ، الوجل ، الوجس ، =

فقد قال « نولدكه »[1] : « إنّا ليمتلكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم ، إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها ، وتوحد مناظر بلادهم ، واطرادها اطراداً يدعو إلى السآمة والملل ، ويستتبع حتما ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة ، وضعوا لكل تعبير ـ وإن قل ـ كلمة تدل عليه ، ويجب أن نقرّ بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيرا بكلمات استعملها الشعراء وصفا لأشياء ، فذكرها اللغويون على أنها أسماء تلك الأشياء ، ولكن رغماً عن هذا كله يجب أن نعترف بأن معجم اللغة العربية غنيّ غنى رائعاً ، وسيبقى دائماً مرجعاً عاماً لتوضيح ما غمض من التعبيرات في جميع اللغات الساميّة الأخرى »[2] .

٢ـ كما أن اللغة العربية تتميز من بين جميع اللغات بأنها تحوي أكثر من مليون كلمة ، خلافا للغات الأخرى التي لا يتجاوز أغلبها عشرات الآلاف ، ويذكر أن أكثر من مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) جذر في لسان العرب ، فكيف بالاشتقاقات! ويعزو بعضهم ذلك إلى انسجامها مع الطبيعة التي نشأت منها اللغة العربية وتشعبت مفرداتها وهي البيئة الصحراوية الممتدة بين البحر الأحمر والخليج العربي[3] .

٣ـ ولا يخفى افتقار اللغات الأخرى إلى العربية واستعارتها من اللغة العربية ، فقد ذكر بعض المحدثين أن قرابة نصف ألفاظ الفارسية مستعار من العربية ، ونصف ألفاظ

= وغيرها . . وكل واحدة لها معناها الذي لا تفيد كلمة أخرى ، وهذا ما نجده في كتب فقه اللغة وكتب الفروق ، إذ في ذلك مصنفات كثيرة منها ، العسكري ، أبو هلال : الفروق اللغوية ، ومنها كتاب الثعالبي : فقه اللغة ، وغيرهما .

(١) تيودور نولدكه ت (١٩٣٠م) ، من أكابر المستشرقين الألمانيين ، ولد في هاربورج بألمانيا ، انصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامي ، له كتب كثيرة بالألمانية عن العرب وتاريخهم ، منها : تاريخ القرآن ، حياة محمد ، وغيرهما . انظر : الزركلي ، الأعلام ، ٩٦/٢ .

(٢) انظر أمين ، أحمد : فجر الإسلام ، (بيروت : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٧ ، ١٩٥٩م) ، ص ٥٤ . وانظر : السلامي ، عمر : الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، (تونس : مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، د . ط ، ١٩٨٠م) ، ص ٣٨ .

(٣) انظر : عبد الرحمن ، عبد الهادي : سلطة النص ، (بيروت : المركز الثقافي العربي ، ط ١ ، ١٩٩٣م) ، ص ٥٣ .

التركية من الفارسية والعربية ، أما بالنسبة لألفاظ اللغة الإنجليزية فالذي يعد أصيلاً منها قرابة الثلث فقط[١] .

٤ـ إن الذين تحدثوا عن الترجمة من لغة إلى أخرى أشاروا إلى قضايا تعدّ من المشكلات التي تواجه المترجم ، ولعل أول من نبّه إلى ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني[٢] ـ فارسي الأصل وعلى علم باللغتين العربية والفارسية ـ حيث أشار إلى أن المشكلات التي تواجه المترجم :

أ . هندسة الجمل . ب . الجمال اللفظي . ج . دلالات الكلمات وحدود معانيها .

إذ كيف له أن ينقل كل هذه الأمور ويراعيها حين يترجمها ، ويمكن أن يزاد عليها من المشكلات التي تواجه المترجم : (الإيحاء والجرس الصوتي . .) فالكلمة ليست فقط لفظية ، وإنما هي مسموعة ، وهنا ندرك أنه لا يمكن ترجمة النغم والإيحاء الصوتي للكلمة ، ولا يمكن أن نجد في اللغات الأخرى ما يوافق جرسه جرس اللفظة المراد ترجمتها[٣] .

هذا مع العلم أنه يصحب كل لفظة معان أخرى غير المعنى الأصلي والأساسي ، فهناك ـ كما تقدمت الإشارة ـ : المعنى النفسي ، المعنى الثانوي ، المعنى الإيحائي ، فمن غير المعقول أن نجد في اللغات الأخرى كلمة تجمع هذه المعاني ، وتقابل كلمة في اللغة العربية بمعانيها المختلفة أيضاً ، فلغة كل أمة محملة بعواطف لا تدركها

---

(١) أنيس : دلالة الألفاظ ، ص ١٤٨ .

(٢) للمزيد انظر : أنيس : دلالة الألفاظ ، ص ١٧١ . الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تح : محمد الفاضلي ، (بيروت المكتبة العصرية ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ ـ١٩٩٩م) ، ص ٣١ وما بعدها .

(٣) يشار هنا إلى أن من المشكلات التي تواجه عملية الترجمة خاصة في شأن الدلالة إضافة لما تقدم :

١ـ اختلاف المجال الدلالي للفظين يبدوان مترادفين في اللغتين .

٢ـ اختلاف التوزيع السياقي .

٣ـ الاستخدامات المجازية .

٤ـ التلطف في التعبير واللامساس .

٥ـ اختلاف المألوفات الثقافية والاجتماعية . انظر : مختار عمر : علم الدلالة ، ص٢٥١ .

الألفاظ ولا تحيط بها ، وبعض هذه الألفاظ يحمل ظلال ودلالات لا نجد لها مثيلاً في اللغات الأخرى .

٥ـ ما نلمسه في واقعنا من ثراء المعاني في بعض اللغات دون بعض ، وعجز بعض اللغات عن الوفاء بالمعنى ، فهو خير شاهد على تفاوت هذه اللغات ، وعدم اشتمالها على مرادفات اللغة العربية .

٦ـ إن ما ينقله القرآن أحياناً على لسانهم يبدو واضحاً فيه أنه خلاصة مواقف وخطب وحوارات ، يلخصه القرآن بعبارة موجزة جامعة ، وبالتالي لا يمكن قبول القول بأنه عين ما قاله المنقول عنه ، مثاله قوله تعالى عن المشركين : ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1] .

الجواب عن الاحتمال الثالث : وهو حكاية الله عنهم بيان لمقالهم لا بلغتهم ، وإنما بإبراز مقاصدهم ومراميهم بمعنى : أن الله عز وجل ينقل لنا مضمون كلام أولئك القوم مشاعرهم وأحاسيسهم ، ودوافع ما يتكلمون به ، وما يضمرونه ، ولا يكتفي بما تلفظوا به ، فالله تعالى واهب اللغات عالم بأسرارها وأساليبها ومراد المتحدثين بها فحينما يحكي عنهم القرآن إنما ينقل لنا حقيقة ما جرى بكل دقائقه باللغة العربية ناقلاً معها كل ما يحيط بها من معان نفسية ، وسياقية ، وما يحتاج إليه في العادة لفهم المراد .

هذا هو القول الذي تميل إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب ، وتدعمه الأدلة ، وتسانده الحجج والبراهين ، فالقرآن جاء معبراً عما نطق به الناطقون وما نطقت به دلائل أحوالهم وملابسات حديثهم .

أما أدلة الباحث[2] على أن هذا الكلام المنقول عنهم لا يقتصر على ما تلفظوا به ، بل ينقل معه مشاعرهم :

(١) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ـ٩٣ .
(٢) يذكر أن بعض هذه الأدلة تتولى الرد على القولين المذكورين آنفا .

١ـ تارة يخبرنا الله عز وجل في القرآن بما يشعر عدم رغبة المحكي عنهم في إظهار ما نقل عنهم ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾[١] ، إذ الواضح من صريح الآية أنهم يسرّونه ولا يظهرونه ، وأن القرآن نقله إلينا ، ومما يدل على صدق ما ذكره القرآن أنهم سمعوا هذا التنزيل وأقروا به ، ولو أنهم لم يقولوا به لهرعوا إلى تكذيبه .

ومنه أيضاً قوله عنهم : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[٢] ، ومن ذلك قوله عن بني إسرائيل : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾[٣] إذ هم قالوا سمعنا ، ولم ينطقوا بلفظة عصينا ، ولكن لما كانوا يضمرون العصيان ، وكذا كان واقعهم نطق به القرآن[٤] ، ومن ذلك ما كان على لسان إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[٥] ، حيث جزموا ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾[٦] ، فهذا الجزم والتأكيد منهم على ذلك يشير إلى إحساسهم بأن أباهم لن يصدقهم ، وقد استدل بعض الكتّاب بهذا على أن القرآن في هذا سبق علم النفس الحديث الذي يقول بأن المجرم يحوم حول مسرح الجريمة فهؤلاء يحومون حول مسرح الجريمة قبل أن تقع[٧] .

٢ـ بعض هذا المنقول لم يخرج عن كونه مناجاة بين المرء ونفسه ، إلاّ أن القرآن نقله إلينا ، من ذلك : ما قاله عن يوسف عليه السلام : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾[٨] . ومنه قول سيدنا إبراهيم

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٩٣ .

(٤) قال سيد : « أنهم قالوا سمعنا ولم يقولوا عصينا ، ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا ، إنه التصوير الحي للواقع الصامت ، كأنه واقع ناطق ، لقد قالوا بأفواههم سمعنا ، وقالوا بأعمالهم عصينا ، والواقع العملي هو الذي تبع القول الشفوي دلالة » . الظلال ، ١/ ٩١ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ١١ .

(٦) سورة يوسف ، الآية ١١ .

(٧) انظر : الخطيب : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ص١٢٣ .

(٨) سورة يوسف ، الآية ٧٧ .

عليه السلام : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[١] ، إذ الواضح أنها لم تكن أمام الملأ ، وتمام القصة يشير إلى أنه كان إضمارا في نفسه[٢] ،

٣ـ عدم الفصل ـ أحياناً ـ بين المحكي عن الأقوام وبين كلام الله أو التعقيب عليه ، حيث من الصعب أحياناً الجزم بأنه من بقية كلامهم أو من كلام الله أو من كلام رسول الله ﷺ كما في الآيات الآتية التي وردت على لسان ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[٣] .

كما ورد على لسان امرأة العزيز : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾[٤] ، وكقوله : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[٥] .

٤ـ كما أن اختلاف التعبير القرآني لإيراد الحادثة يؤكد أنها محكية عنهم ، وأمثلة ذلك كثيرة ، وقد تقدّم ما فيه غناء عن الإعادة .

٥ـ كيف للعربي أن يفهم ما نطقت به الأقوام لو جاء على لسانها ، فغاية ما يمكن أن ينظر إليه في هذه الأقوال هو الصدق في الرواية والأمانة في النقل والدقة في التصوير والتعبير[٦] .

هذه بعض الشواهد والأدلة التي يرى الباحث أنها تدعم صحة ما ذهب إليه في شأن المحكي عنهم والمنقول إلينا على ألسنتهم عبر آيات القرآن الكريم ، ويمكن تلخيصه بالآتي : إن هذا الكلام الذي يحكيه الله لنا إنما هو نقل دقيق لما كان عليه القوم ، وما كانت تنطوي عليه ضمائرهم ونفوسهم وما تحمله من معان نفسية .

وغاية ما يمكن أن يقال في هذا بأن المعيار الأول والأخير الذي يمكن أن يعتمد

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٥٧ .

(٢) يرى بعض المفسرين أن هذا الكلام كان مما صرّح به إبراهيم عليه السلام مستدلين بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ، سورة الأنبياء ، الآية ٦٠ .

(٣) سورة النمل ، الآية ٣٤ .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٣٨ . يقول سيد : « صدر الآية من كلام الله التقريري ، أما باقيها فهو من كلام المؤمنين » ، ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ ، يلحقه السياق بلا فاصل بكلام الباري تشريفا » ، انظر : قطب ، سيد : الظلال ، ١/ ١١٨ .

(٦) الخطيب : القصص القرآني مفهومه ومنطوقه ، ص ٧٢ .

عليه هو الاطمئنان إلى صدق الرواية واليقين في أمانة المنقول والإقرار بدقة النقل والتعبير ، وهو ما لا يمكن أن نتلمسه إلاّ في كلام الله ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[2] . فهل بعد هذا (يبقى مجال للشك) في احتواء القرآن على المعاني والأبعاد النفسية ؟

الشبهة الثانية

إن الدلالات النفسية التي يعنى بها هذا البحث لا ترقى إلى كونها المقصد الأول من الكلام ، فهي هامشية فضلاً عن أنها غير مسلّم بها ، (بمعنى آخر ما موقع الدلالة النفسية من هذا الكلام هل هي مركزية أم ثانوبه ؟) وكيف يمكن الاطمئنان إلى نتائجها؟!

الرد على الشبهة

للإجابة عن هذه الشبهة لا بد من الإشارة أولاً إلى أن علماء اللغة المحدثين قد قسّموا الدلالة من حيث الأهمية إلى قسمين : الدلالة المركزية والدلالة الهامشية ، فالمركزية تعني : قدراً مشتركاً من الدلالة يصل بالناس إلى نوع من الفهم التقريبي ، وهي دلالة واضحة في أذهانهم ، أما الهامشية : فهي تلك الظلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم[3] ، في ضوء التقسيم المتقدم لنا أن نتساءل عن موقع الدلالة النفسية هذه من الكلام « أثانوية هي أم رئيسية » ؟

في حقيقة الأمر لا ينتظر الباحث من القارىء أن يتوقع كون الجواب بأحد الاحتمالين المذكورين : « رئيسية » أو « ثانوية » ، إذ لا يمكن اعتماد أي من

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٢٢ .

(٣) للمزيد انظر : أنيس : دلالة الألفاظ ، ص ١ـ٣ . وانظر : أبو عودة ، عودة : التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ، (الزرقاء : مكتبة المنار ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م) ، ص ٦٩ . وانظر : عبد الغفار ، السيد أحمد : ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط . ت) ، ص١٦٤ـ١٦٥ .

الاحتمالين جواباً على إطلاقه يطّرد في آيات القرآن الكريم كله ، إذ الدلالة النفسية ـ كما تقدّم ـ ليست سواء من حيث الوضوح والخفاء ، فعلى حين تكون هي المقصود الأول من الكلام أو من الموقف ، تكون تارة أخرى ثانوية فهمت بطريق العرض من السياق ، وغاية ما ينبّه إليه في هذا المقام أن يسلّم بحضور المعاني النفسية هذه في نصوص القرآن الكريم لأنها جزء من الكلام ، ولا يمكن فصل تلك المعاني النفسية عن قائلها ، وهو ما تقدّم تقريره من أن اللغة بألفاظها ترجمان لدخائل نفوسنا ، وليس بوسع أحد أن ينكر ما لهذه الألفاظ الصادرة عنا من صلة بما في نفوسنا ، وقدم تقدم الحديث عنه بما يغني عن الإعادة .

بقي أن يشار هنا إلى أن حضور المعاني النفسية هذه يزداد[١] بحضور أشخاص الحوار أو الموقف أو القصة التي تعرض لها الآيات ، وعليه فمن الصعب أن نتعامل مع نصوص القرآن بمنأى عن دلالاتها النفسية ، فالمعاني النفسية تصحب نصوص القرآن لكن قد يدقّ الوقوف عليها أحياناً ، في حين نجده من الوضوح بحيث لا يخفى على أحد من الناس .

الشبهة الثالثة

تنطلق هذه الدراسة من اعتماد الألفاظ مقياساً لما تنطوي عليه النفوس ، مع أن الألفاظ وحدها قد لا تكفي للدلالة على ما في النفوس ، فضلاً عن أنها أحياناً لا تعتبر مرآة صادقة لما عليه النفوس ، فكيف يصح اعتمادها في حين أنها ليست المعبّر الوحيد والحقيقي عما تنطوي عليه النفوس ، بل إنها يستعان بها (الألفاظ) أحياناً لإخفاء ما في النفوس .

الرد على هذه الشبهة

إن الباحث لا ينكر كون هذه الألفاظ لا تكفي وحدها للتعبير عما في النفوس ، بل هذا ما توصلت إليه الدراسة ، وأشارت إليه في أكثر من موضع ، وذلك لأن أعضاء

---

(١) هذا يعني أن المعاني النفسية قد تكون مصاحبة للنص القرآني حتى في الآيات التي ليست حديثاً عن أشخاص أو نفسيات ، وتوضيح ذلك أن بعض الآيات التي تكون تشريعاً وأحكاماً على سبيل المثال روعي في تشريعها ما ترتبت عليه النفوس ، وسيأتي مزيد تفصيل له .

الجسم تترك في أحايين كثيرة للتعبير عن هذه الدلالة النفسية ، كما أن الباحث يؤكد ما ذكر في أصل هذه الشبهة من أن الألفاظ قد لا تكون هي المعبّر الحقيقي لما تنطوي عليه النفوس ، بل قد تستخدم أحيانا لإخفاء حقيقة ما في النفوس ـ كما هو الحال في شأن المنافق والكاذب وشاهد الزور وغيرهم ـ . في ضوء ما تقدم تبدو الشبهة أكثر وضوحاً وجلاءً ، إذ كيف يعتمد على الألفاظ وحدها لاستخراج المدلولات النفسية ؟ وإنها لشبهة حقا من أخطر الشبهات التي يمكن إيرادها على أصل هذه الدراسة ، وصيد ثمين لمن هو مغرم بالجدل والمراء .

واضح أن بعض هذه الشبهات مبني على بعض ، يمكن توضيح هذه الشبهة بالصورة الآتية : لو سلّمنا جدلاً بأن هذا المحكي عنهم هو ترجمة لما قالوه ، فما الذي يطمئننا إلى صدق ما قيل عنهم وموافقته لما قاله المحكي عنهم ؟ ثم إنّه ما دام القرآن يحكي لنا بعضاً من أقوالهم فهو إذن يتصرف في أقوالهم! وربما يفهم منه أنه يحكي ما لم يقولوه بأفواههم ، ثم ثالثاً : ما الذي يضمن أن تكون هذه الألفاظ اختيارية لما يخدم غرض القرآن وأهدافه فينقل لنا ما يدعم فكرته ، ويترك ما ليس كذلك[1] .

واضح من خلال استعراض هذه الشبهات أن الذين يوردونها هم في الأغلب من غير المسلمين ، لذلك سيكون رد الباحث عليهم بخلاف ما لو صدر هذا الكلام من أبناء المسلمين ، لكن لا يخلو الأمر من وجود بعض من انتسب إلى الإسلام وردد مثل هذه الشبهات ، وقد كان ـ مع كل أسف ـ[2] .

خلاصة الرد ، كانت الدراسة قد توصلت إلى :

١ـ أن ما ورد في القرآن على ألسنة الشخصيات التي قصها الله علينا ، إنما هو

---

(١) يشار هنا إلى أن أغلب الوارد في أصل هذه الشبهة ، كان قد عرض له الكاتب الإسلامي عبد الكريم الخطيب في كتابه : القصص القرآني وأطال في الرد بما فيه غناء عن التكرار والزيادة ، حيث يحيل الباحث القارىء إلى ذلك الكتاب لمن أراد زيادة على ما ذكر هنا .

(٢) فمقولة من أطلق عليه عميد الأدب العربي ـ طه حسين ـ في هذا شهيرة ، حيث قال : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهم أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة » ، حسين ، طه : في الشعر الجاهلي ، (الدقي : دار النهر ، ط ٣ ، ١٩٩٦م) ، ص ٢٦ .

حكاية حالهم ومقالهم وليس بالضرورة أن يكون المحكي عين ألفاظهم ، ويكتفي الباحث بأن يحيل القارىء إليه ، وهذا يعني أن الألفاظ التي يعتمدها الباحث للدراسة ، ليست هي عين ما قالوه .

٢ـ أن هذا الكلام المحكي عنهم والمترجم عن لسانهم لم يكن مقتصراً على ألفاظهم التي نطقوا بها ، بل كان يصّور لنا حركات نفوسهم ويبرز لنا ما صاحبها من عمليات نفسية وشعورية ، وبالتالي فلم تبق الألفاظ وحدها هي وسيلة الدراسة .

٣ـ أن الذي ينقل لنا كلامهم هو الذي خلقهم وهو الأعلم بما في نفوسهم فالمصدر واحد ، وهذا يطمئننا إلى صدق ما جاء على ألسنتهم ، ويصدقه قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١] .

٤ـ كثرة النصوص القرآنية التي تؤكد هذه الحقيقة وصدق القرآن في النقل[٢] ، فالقرآن يخبرنا بما هو صدق : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٣] .

٥ـ شهود أهل الكتاب من اليهود والنصارى لتنزل القرآن الكريم واشتماله على كثير مما نجده في التوراة والإنجيل ، وتأكيد القرآن الكريم على أنهم شاهد صدق على ما يحويه القرآن من أخبار وأحاديث ، ولو كان فيه غير ما في كتبهم وغير ما يعرفون لكانوا أوّل من يتمسك به ويبادر إلى الطعن فيه ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾[٤] .

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(٢) هذا الدليل يسوقه الباحث لما ردّده أبناء المسلمين ممن يؤمنون بنصوص القرآن .

(٣) سورة يوسف ، الآية ١١١ . ومنه قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية ٣ ، وقال : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ ، سورة الكهف ، الآية ١٣ ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ، سورة فصلت ، الآية ٤٢ .

(٤) سورة يونس ، الآية ٩٤ . وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ، سورة البقرة ، الآيتان ١٤٦ ـ١٤٧ ، وقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ، سورة الأنعام ، الآية ١١٤ ، =

٦ـ إن هذه الفرية اتهام وشكّ في قدرة الله تعالى ، إذ فيها ما ينسب إلى البشر من العجز والقصور واللجوء إلى الخيال ، وهذا ـ بلا شك ـ جهل بالخالق وصفاته عز وجل ، تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا ، أما فيما يخص مسألة أن القرآن يعرض من الأمور ومن المواقف ما يحدث في النفوس أثرا ، وما يشتمل على عبرة ، فهو يدور مع العبرة حيث تدور ، وما يقتطعه القصص القرآني من الأحداث هو الصدق الخالص قال تعالى : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[١] ، وقال : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[٢] .

٨ـ إذا كان الناس في هذا الزمان يتمكنون من نقل كلام الآخرين وترجمته من لغة إلى لغة مع نقل ما يحيك في صدورهم ، وترجمة مشاعرهم ، أفيعجز مثل هذا الأمر من خلقهم وهو بهم أعلم . قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[٥] .

٩ـ لم يتقوّل القرآن على هؤلاء الأقوام وهذه الشخصيات التي ورد ذكرها في القرآن ، وإنما في حقيقة الأمر نطق بما نطقت به هذه الأقوام ، فهو المضمون الحق والمحتوى الصادق الأمين لما تكنّه صدورهم ، وإذا كان الله قد أنطق الجمادات والسماوات والأرض والجبال . أفيعجزه نقل ما كان مراداً لهم ومضموناً كاملاً لما نطقوا به باللغة العربية ، فالمنقول إلينا إنما هو في حقيقة الأمر نقل دقيق يطابق تماماً روحاً ومضموناً لما نطق به الناطقون .

١٠ـ ماذا ينتظر هؤلاء وأمثالهم ممن يردد هذه الشبهات؟! هل ينتظرون أن يبعث الله

= وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، سورة يونس ، الآية ٣٧ ، وقوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ ، سورة الأحقاف ، الآية١٠ .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٠٥ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ١٦ .

(٣) سورة الملك ، الآية ١٤ .

(٤) سورة النساء ، الآية ١٢٢ .

(٥) سورة النساء ، الآية ٨٧ .

هذه الأشخاص من مرقدها ويحركها من جديد لتنطق بما نطقت به من قبل أو تشير إلى صدقه[1] .

١١ـ احتواء القرآن على كثير من المواقف التي كشف بها سرائر نفوس كانت تشهد التنزيل ، فلو كان ما نقل عنهم غير ما قالوا لتمسكوا به في تكذيب الرسالة مع حرصهم على ذلك وسيأتي بسط هذه النقطة وذكر شواهدها .

أما الشق الآخر من الشبهة المتعلق بحال المنافقين والكاذبين وشاهدي الزور مع الألفاظ ، وكونهم يستخدمونها لإخفاء ما في نفوسهم ، فهذا في حقيقة الأمر لا يعارض ما تعتمده الدراسة من كون الألفاظ هي التي تدل على ما في النفوس ، بل منسجم تماما مع ما أشارت إليه الدراسة من أن اللغة أحيانا تستخدم لإخفاء ما في النفوس ، لكن لا بد من التنبه إلى الأصل في هذه الألفاظ ، وكونها تدل على ما في النفوس[2] ، « فالله عز وجل وضع هذه الألفاظ بين عباده تعريفا ودلالة على ما في نفوسهم ، فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئا عرّفه بمراده وما في نفسه بلفظه ، ورتّب على تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ ، ولم يرتب تلك الأحكام على مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول ، فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم »[3] .

لكن لا بد من التنبه على أن أكثر وسيلة يتذرع بها المنافق لإخفاء نفاقه ، وكذا الكاذب وشاهد الزور لإخفاء كذبه وتزويره هي اللفظة ، لكن تبرز قيمة ما في القرآن من كونه أغنانا عن البحث في هذا الجانب ، وتولى إبراز وكشف كل ما يقصد صاحب القول من إخفائه ، ونقله إلينا في وقت كان فيه هذا الذي حكى القرآن على لسانه حيا

---

(١) الدالي ، محمد : الوحدة الفنية في القصة القرآنية ، (د . م : آمون للطباعة والنشر ، د . ط ، ١٩٩٣م) ، ص ١٥٤ .

(٢) كان قد تحدث علماء الأصول عن هذا الجانب ، وبينوا كون الأحكام ومقاصدها مترتبة على هذه الألفاظ .

(٣) ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تح : طه عبد الرءوف سعد ، (بيروت : دار الجيل ، د . ط ، ١٩٧٣م) ، ٣/ ١٠٥ ، كما أشار بعدها ابن القيم إلى أن « المعنى مع اللفظ لا يعدو احتمالات ثلاثة : أحدهما : فوق ما يشير إليه اللفظ ، ثانيهما : دون اللفظ بكثير ، ثالثها : المعنى في الذهن أولا فينطق لفظا » .

يرزق ، يسمع التنزيل ، ولا يزداد به إلا ذلا وصغارا ، ولو أن هذا المقول كان على غير ما نقل على لسانه ، أو حدثته به نفسه ، أو أضمره في سرِّه ، لهرع هذا المنافق أو الكاذب إلى تكذيب التنزيل ، ولكان أحرص الناس في التمسك به دليلاً على نقض حقائق ما جاء فيه .

شاهد ذلك في نصوص القرآن كثيرة ، فعلى حين نجد سورة بتمامها تولت كشف نوايا المنافقين وإبراز ما يخفونه وفضح ما يكتمونه ، وهي سورة التوبة ، حتى كان من أسمائها « الفاضحة »[١] ، كما نجد في القرآن سورة بتمامها سميت باسم « المنافقون » ، حيث أبرزت وسائلهم وكشفت عن خفايا نفوسهم ، كما نجد الحديث عن المنافقين وبيان حيلهم في أغلب السور المدنية .

من الأمثلة التي كشفت عن حقائق تخفيها النفوس قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[٢] ، في هذه الآية نجد أن النص ينقل لنا عين ما قاله المنافقون وتلفظوا به ، لكنه في الوقت ذاته ينقل لنا معه ما تنطوي عليه نفوسهم ، فالمنافقون وإن كانوا قد قالوا : إنك لرسول الله ، فهي كلمة يستخدمونها ليخفوا من خلالها حقيقة ما عليه نفوسهم ، قالوها غير مؤمنين بها فكانوا كاذبين ، وهذا ما نطقت به الآية الكريمة .

ومثل ذلك استبدال لفظ (راعنا) بلفظ (انظرنا) في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣] ، فالآية تنهى المؤمنين عند استعمال كلمة ﴿ رَٰعِنَا ﴾ عند الحديث مع رسول الله ﷺ ، وتطلب منهم استبدالها بكلمة ﴿ ٱنظُرْنَا ﴾ مع أن علماء اللغة يؤكدون أنهما بمعنى واحد ، ففي

---

(١) فقد أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : « سورة التوبة ؟ قال : التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدا منهم إلا ذكر فيها » ، البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح المسند المتصل من أحاديث الرسول ، (بيروت : دار ابن كثير ، ط ٣ ، ١٩٨٧م) ، ٤/ ١٨٥٢ . كما أن السيوطي ذكر من أسماء سورة التوبة اسم : الفاضحة ، السيوطي : الإتقان ، ١/ ٥٤ .

(٢) سورة المنافقون ، الآية ١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٠٤ .

الآية توجيه للمؤمنين إلى استبدال كلمة بأخرى تساويها في الحقيقة والمجاز . وحقيقة الأمر أن لفظة ﴿ رَٰعِنَا ﴾ تكشف حقيقة ما تنطوي عليها نفوس اليهود الذين كانوا يستعملونها في حق الرسول ﷺ ، فاليهود حين كانوا يستخدمونها في خطاب الرسول كانوا يقصدون بها معاني أخرى ، إما بمعنى الرعونة ، أو بمعنى يشير إلى رعي الغنم ، وهو هنا استخدام في مقام الهزء والسخرية ، ومع أن المؤمنين كانوا يستخدمون اللفظة نفسها ، إلا أنها كانت تستخدم من قبل اليهود ولها أبعاد نفسية يخفونها في حين يكشفها الله لنا .

وكثيرا ما يحدثنا القرآن عن أشياء يكتمها أهل الكتاب ، ويظهرها الله فتكون قرآنا يتلى ، يسمعونه ولا ينكرونه ، ولو كان الذي قيل عنهم غير الذي كانوا يضمرونه لكانوا أشد تمسكا به لتكذيب التنزيل ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ ﴾[2] ، وغير ذلك كثير[3] .

كما نجد في القرآن نصوصاً أخرى حدثتنا عما سيقوم به بعض خصوم الدين في المستقبل ، وكان على ما أخبر به القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ ﴾[5] ، وغيرها من النصوص المشابهة[6] ، ولم يسجّل لنا التاريخ ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .

(٣) من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية ١١٨ ، وقوله : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ ﴾ ، سورة المائدة ، الآية ٤١ ، وقوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾ ، سورة الأنعام ، الآية ٩١ ، وقوله : ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ، سورة التوبة ، الآية ٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٤٢ .

(٥) سورة التوبة ، الآية ٩٥ .

(٦) منها ما ورد في سورة الفتح : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾ ، الآية ١١ ، وقوله : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ =

ولا كتب السيرة ، أحدا ممن طعن في صدق التنزيل .

بل نجد في القرآن ما يشير إلى أن الله عز وجل جعل في لسان المنافقين علامة تدل على كذبهم ، وأخبر رسوله بأنه سيتمكن من تمييز المنافق من خلال لحنه في القول ، قال عز وجل : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) ﴾[1] .

* * *

= لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، الآية ١٥ .

(١) سورة محمد ، الآية ٣٠ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثاني

البنية الخارجية للتعبير القرآني والجوانب النفسية

ويتضمن الفصول الآتية :

الفصل الأول : تأثير القرآن في النفس الإنسانية

الفصل الثاني : إيقاع القرآن وأثره النفسي

الفصل الثالث : آيات وسور القرآن من المنظور النفسي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

تأثير القرآن في النفس الإنسانية

المبحث الأول

ماهية الأثر النفسي ومكانه من الإعجاز

حدثنا القرآن الكريم عن الأثر الذي تتركه آيات القرآن في نفوس مستمعيه ، وحفظت لنا السيرة نماذج كثيرة لأثر القرآن الكريم النفسي هذا ، ونقلت لنا الأحداث التاريخية أخباراً غير يسيرة ونماذج غير قليلة لأناس تأثروا بالقرآن حين سماعه ، فمن حديث القرآن عن دور السماع لألفاظ القرآن النفسي ، قوله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ﴾[1] ، وقوله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾[2] .

وحدثنا عن أولئك النفر الذين تفيض أعينهم من الدمع : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ ﴾[3] ، وقد كان الكفار على علم بخاصية القرآن هذه ، ولهذا كانوا يتواصون بعدم السماع إليه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾[4] ، من هنا ندرك حكمة تكليف المسلم بأن يمكِّن المشركين من سماع كلام الله : ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ﴾[5] ، ولم يكلَّف المسلم بما بعد الإسماع ، فالإسماع هو الأداة

(١) سورة مريم ، الآية ٥٨ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٢٣ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .
(٤) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .
(٥) سورة التوبة ، الآية ٦ .

الأولى والمباشرة لنقل كلام الله إلى الآخرين ، وهو الوسيلة الأنسب لفتح القلوب إلى هدى الله ، قال تعالى على لسان المؤمنين من الجن : ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[1] ، وقد كان الوسيلة الوحيدة التي بها وصلت الرسالة الجديدة إلى المدينة المنورة على لسان مصعب بن عمير ، حيث مكث يقرأ آيات الله على أهلها ، فآمنوا ودعوا الرسول ﷺ إلى الهجرة ، حتى قيل : « فتحت الأمصار بالسيوف ، وفتحت المدينة بالقرآن »[2] .

والسيرة مليئة بالأحداث التاريخية التي تؤكد لنا أثر القرآن الكريم في نفوس مستمعيه ، فهي من الكثرة بحيث يصعب الإحاطة بها ، بعض منها حدث في عصر التنزيل وبعضها الآخر حدث بعد التنزيل ، إذ في كل زمان تنقل لنا أحداث التاريخ طرفاً من قصص أولئك الذين تأثروا بالقرآن ، بل إنّ أثر القرآن هذا لم يكن مقتصراً على من آمن به ، وإنما نجد أثره في غير المؤمنين ـ أيضا ـ .

ولعل هذا هو السبب الذي يكمن وراء إشارة كثير من العلماء إلى اعتبار إعجاز القرآن الكريم يكمن في هذا الجانب ، وكان أول من نبّه إلى هذا اللون من ألوان الإعجاز الذي يشتمل عليه القرآن الكريم هو الإمام الخطابي حيث قال : « قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلاّ الشاذ من آحادهم ، وذلك هو صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع غير القرآن منظوماً ولا منثوراً ، إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ، ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ، وغشاها الخوف والفرق ، وتقشعر منه الجلود وترتعد له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه ، وصارت

(١) سورة الجن ، الآية ١٣ .
(٢) الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٦٥ .

عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا »[١] .

وقد قلّل بعضهم من بقية جوانب إعجاز القرآن ، وكاد يقصره على هذا الوجه[٢] ، وأطلق عليه « الإعجاز الروحي » مستشهداً بقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾[٣] ، مشيراً إلى أن القرآن يؤثّر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها ، فالآية المتقدمة الذكر تكفي في إرشادنا إلى جهة إعجازه وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة .

ومع أن الباحث لا يرى قصر إعجاز القرآن على هذا اللون من ألوان الإعجاز ، إذ لا يمكن حصر إعجاز القرآن في وجه ، فهو معجز من نواحي عديدة كشف العلماء عن بعضها ، وكلما ازدادوا علما ازدادت جوانبه ، وهذا لا يعني التقليل من قيمة الوجه المتحدث عنه ، بل إنه يأنس بهذا القول الذي لا تنقصه الأدلة ، ولا تعوزه الشواهد والأمثلة ليؤكد وجود سرّ يكمن وراء هذا الأثر الذي يحدثه القرآن في نفوس مستمعيه .

ماهيته : عندما نتساءل عن ماهية التأثير الذي يحدثه القرآن في النفوس ، ما المقصود به ؟ وما علاماته ؟ وكيف ؟ نقول إن التأثير الذي يحدثه القرآن في النفوس يمكن ترجمته في الأمور الآتية :

---

(١) الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٦٤ ، وقد وافق مفهوم الخطابي لهذا الوجه النفسي مفهوم أبي حيّان التوحيدي ت (٤٠٣هـ) ، وتابعهما الجرجاني فقال : « إن العلماء قد وقفوا عند بيان الإعجاز في النظم والبلاغة ، ولم ينفذوا إلى ما وراء ذلك ، وهو أن جمال الكلام يرجع إلى مبلغ تأثيره في النفوس » . ويضيف السكاكي ت (٦٢٦هـ) : « أن الإعجاز يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة » . انظر : العمري ، أحمد جمال : مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس هجري ، (القاهرة : دار المعارف ، د . ط . ت) ، ص ٢٦١ .

(٢) وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، ٧/ ٦٧٧ . وقال : « لما كان القرآن روحا من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة هي عندنا جهة إعجازه ، والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة قصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائس الصناديد والجبابرة عند سماعه » .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٥٢ .

٤) بث الطمأنينة والاستقرار النفسي والهدوء وزوال القلق ، وشعور النفس السامعة براحة نفسية تسيطر على أعضاء الجسم .

٥) شفاء وعلاج من أمراض تصيب الإنسان ، بعضها معنوي « نفسي » ، وبعضها مادي « محسوس » ، وقد صحّت الآثار في ذلك ، ناهيك عن تصريح القرآن بذلك في أكثر من موضع كقوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾[2] .

٦) شعور النفس بالمتعة ، وهي متعة ناشئة من ذلك النغم الذي يلبي رغبات النفس ويمتعها .

٧) إقبال الناس وانكبابهم على القرآن سواء بالبحث أو بتدعيم أبحاثهم ، دليل وإشارة إلى أثر القرآن هذا ، فلو قمنا بعملية إحصاء لما كتب حول القرآن والدراسات المتعلقة بعلومه لما خالجنا شك في أن هذا الميدان هو أكثر ميادين العلوم التي كتب فيها على الإطلاق ، وما ذلك إلاّ شهادة من النفس ـ سواء أكانت مؤمنة بالقرآن أم لا ـ بأن له سرّا وأثرا في النفس . ولقد لمسنا جهوداً تبذل في التأليف حول هذا الميدان عند أعداء المسلمين ، فضلا عنها عند المسلمين .

٨) اقشعرار الجلود ، وفيضان الدمع ، وخوف الكفار من الإيمان به ، كل هذا مما يؤكد أثر القرآن في النفوس .

أسرار التأثير

ما هو السرّ الذي يكمن وراء تأثير القرآن الكريم في نفوس البشر ؟ أين يكمن السرّ في هذا التأثير ؟ أفي معانيه ، أم في شيء فوق ذلك ؟ إن كانت معانيه ؛ فبم يمكن تعليل أثره في الطفل الصغير ، والجاهل غير العارف بالله وغير الناطق باللغة ؟

كل هذا يُطرح ليشار إلى أن أثره كامن في شيء فوق معانيه ، وأن سره في الروحانية التي حدثنا عنها القرآن ، وتحدّث عنها أصحاب القول بهذا الوجه من أوجه الإعجاز

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٢ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٥٧ .

كقولهم : « إن للقرآن فوق البلاغة والعذوبة والحكمة والبيان روحانية يدركها من لا حظّ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة ، ألا ترى إلى الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيّب عند تلاوته ولو بصوت حسن ، حتى إنهما ليكادان يفرّقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن ، فيما لو أراد التالي أن يغشهما . . روحانية تظهر للعارف باللغة وللجاهل بها »[1] ، إنه صنيع الوحي الإلهي في نفوس البشر وذلك ما لا يتوفر لأي كتاب سوى القرآن الكريم ونظمه الفريد .

ويمكن أن يقال إن في القرآن طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان ، فهو يهزّ وجدانه ، ويرهف أحاسيسه ومشاعره ، ويصقل روحه ، ويوقظ إدراكه وتفكيره . . وهذه الخاصية هي التي جعلت العرب يخشون سماعه لضعفهم وقوته[2] .

والحقيقة التي لا يمكن أن تنكر : أن هذا القرآن له سلطان على الفطرة الإنسانية وسرّه الخاص في التأثير عليها بمجرد تلاوته أو حتى بمجرد سماعه ، ما من تال للقرآن إلا وهو يشعر أن شيئا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير ، فهو : « سرّ مودع في كل نصّ قرآني يشعر به من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً . . ثم تأتي وراء الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله »[3] .

دلائل تأثيره في الآخرين

تأثير القرآن في الآخرين أمر لا يعوزه دليل ، أو تنقصه حجة أو برهان ، وسوف يسوق الباحث طرفا مما صح من الأخبار في أثر القرآن الكريم في النفوس بمجرد سماعه ، وهذا يعني أن خاصيته تكمن في هذا الكتاب الكريم تلامس الوجدان ، وتؤثر في النفوس .

النفس بطبعها ميالة إلى الصوت الحسن والكلام الموزون الذي له رنين وإيقاع ، تستريح إليه النفس وتشعر بالهدوء ، وكل هذا متوفر في كتاب الله ، ولعل هذا هو الذي

---

(١) وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، ٧/ ٦٧٩ .
(٢) العمري : مفهوم الإعجاز القرآني ، ص ٢٦٢ .
(٣) انظر : قطب ، سيد : الظلال ، ٦/ ٣٣٩٩ .

يفسّر لنا : سرَّ حفاوة الناس منذ قديم الزمان بحسني الصوت ، واهتمام الأمراء بهم وتقريبهم إياهم[1] ، ومن ذلك تفضيل بعضهم الذهاب إلى أماكن ولو كانت بعيدة طلبا لحسن الصوت ، على أن هذا لا يعني كون السر يكمن في الصوت الحسن وإنما بوجوده تزداد النفس ميلا إلى سماعه والتفكر في معانيه .

يؤكد الحقائق المتقدمة أمور كثيرة يمكن حصرها في النقاط الآتية :

حقائق وأحداث تاريخية ثبت صحتها وتناقلتها الأجيال :

لقد بلغ من تأثير القرآن في نفوس مستمعيه أن أحال عداوتها للرسول إلى موالاة ، وأضحى كفرهم به إيمانا ، فهذه قصة إسلام عمر بن الخطاب[2] شاهد على ذلك ،

---

(١) للوقوف على مزيد من سيرة السلف في ذلك ، وتتبعهم لذوي الأصوات الحسنة ، انظر : السعيد : الجمع الصوتي الأول للقرآن ، ص ٢٤٦ وما بعدها ، ولعل الباحث يكتفي هنا بحادثة واحدة وهي : أنه في سنة ٣٩٤هـ عزم أمير الحج العراقي على أن لا يسير إلى المدينة خوفاً من الأعراب ، فشق ذلك على الناس ، فوقف منهم « أبو الحسن الرفاء وأبو عبد الله الدجاجي » قارئان (من أحسن الناس صوتا) فوقفا على جادة الطريق المؤدية إلى المدينة وقرآ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، فضجّ الناس بالبكاء وأمالت النوق أعناقها نحو القارئين ، فمال الناس بأجمعهم والأمير إلى المدينة وعادوا سالمين إلى بلادهم « ذكرها ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم : الكامل في التاريخ ، (بيروت : دار صادر ، د . ط ، ١٣٩٩هـ ـ١٩٧٩م) ، ١٨٢/٩ .

(٢) حيث كان سبب إسلامه آيات من مطلع سورة طه ، والقصة مذكورة في كتب السيرة بتمامها ، يورد الباحث هنا المقطع المتعلق بالموضوع : ».. فقام عمر واغتسل فأعطته الصحيفة وفيها طه فلما قرأ منها صدرا ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » ، فالله الله يا عمر ، فقال له : فدلني يا خباب على محمد آتيه » ،الحديث رواه الحاكم ، النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ، ٦٥/٤ ، والدارقطني ، علي بن عمر أبو الحسن البغدادي : سنن الدارقطني ، تح : عبد الله هاشم يماني ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ١٣٨٦هـ ـ١٩٦٦م) ، ١٢٣/١ ، وصححه ورواه البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى : السنن الكبرى ، تح : محمد عبد القادر عطا ، (مكة : مكتبة دار الباز ، د . ط ، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٤م) ، ٨٨/١ ، وقال عنه البيهقي : ولهذا الحديث شواهد كثيرة ، وذكره=

وقصة إسلام أبي ذر الغفاري وأخيه أنيس[1] ، كل هؤلاء وغيرهم ممن حفظت لنا السيرة بعضا من أخبارهم تشير إلى ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوسهم ، ومن ذلك إسلام الأنصار فقد كان بسبب سماعهم آيات من كتاب الله تتلى عليهم ، فالقرآن يضيء ظلمات القلوب ما لم يكن أصحابها ممن ختم الله على قلوبهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[3] ، وقال : ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[4] .

كما نقلت لنا كتب التاريخ والتفسير والسيرة نماذج كثيرة من تأثير القرآن في نفوس

= الزيلعي ، عبد الله بن يوسف أبو محمد الحنفي : نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ، تح : محمد يوسف البنوري ، (مصر : دار الحديث ، د . ط ، ١٣٥٧هـ) ، ١/ ١٩٩ ، وانظر : القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر : الجامع لأحكام القرآن ، تح : أحمد عبد العليم البردوني ، (القاهرة ، دار الشعب ، ط ٢ ، ١٣٧٢هـ) ، ١١/ ١٦٤ .

(١) القصة مذكورة بتمامها في مسلم ، أبو الحسين القشيري النيسابوري : صحيح مسلم ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) ، ٤/ ١٩١٩ ، نقل الشاهد : ٤٥٢٠ « قَالَ أَبُو ذَرٍّ : خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ ، وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا ، فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا ، فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا : إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ ، فَجَاءَ خَالُنَا فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ ، فَقُلْتُ : أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ وَلَا جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِي ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ فَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا فَأَتَيَا الْكَاهِنَ فَخَيَّرَ أُنَيْسًا فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا ، قَالَ : وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِثَلَاثِ سِنِينَ قُلْتُ : لِمَنْ ؟ قَالَ : للهِ ، قُلْتُ : فَأَيْنَ تَوَجَّهُ ؟ قَالَ : أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي أُصَلِّي عِشَاءً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ ، فَقَالَ أُنَيْسٌ : إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي ، فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَرَاثَ عَلَيَّ ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ : مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ ، يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ ، قُلْتُ : فَمَا يَقُولُ النَّاسُ ؟ قَالَ : يَقُولُونَ شَاعِرٌ كَاهِنٌ سَاحِرٌ - وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ - قَالَ أُنَيْسٌ : لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ ؛ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ ، وَاللهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . . » الحديث .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٢٥ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٢ .

الكافرين ، ومن ذلك ما اشتهر عن صناديد قريش « أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق »[1] ، حين كانوا يستمعون ليلا لقراءة الرسول ﷺ ، ولم يتمكنوا من السيطرة على أنفسهم التواقة للاستماع إليه ، فعادوا رغم تعاهدهم على عدم العودة إلى سماعه ، مع أنها تسيطر على نفوسهم ويقرون بذلك الأثر . ومنه ما حصل لعتبة بن ربيعة[2] ، عندما انتدبته قريش للحديث والتفاوض مع الرسول ﷺ ، إلا أنهم استحبوا

---

(١) القصة ذكرها ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، في كتابه : السيرة النبوية ، تح : طه عبد الرءوف سعد ، (بيروت : دار الجيل ، ط ١ ، ١٤١١هـ) ، ٥٦ص ـ ١٥٧ ، ونصها : « أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحلمنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحازينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه » ، وذكره البيهقي في السنن الكبرى ، ١/ ٨٨ ، وابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي : تفسير القرآن العظيم ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط ، ١٤٠٤هـ) ، ٣/ ٤٥ .

(٢) الشاهد في القصة : « فقال رسول الله ﷺ : فرغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم* حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . .﴾ ، حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ، فقال له عتبة : حسبك حسبك . . » ، الحديث رواه الحاكم : المستدرك ، ٢/ ٢٧٨ ، وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وذكره الهيثمي وقال : فيه الأجلح وثقه بن معين وضعفه النسائي وغيره . =

العمى على الهدى ، وقد كان يكفيهم نزول القرآن يتلى عليهم ، قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[(١)] ، وقد سجّل القرآن قساوة القلوب رغم علمهم بكونه الحق ، وحرصهم على الهروب من سماعه : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾[(٢)] ، هذا التأثير ـ إذن ـ هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة بكلمته العالية فيه لأبي جهل بأنه « الحق الذي يعلو ولا يعلى »[(٣)] ، هذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق من الصلاة والتلاوة في المسجد بفناء داره ليلا لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب للإسلام ، وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم[(٤)] .

= انظر : الهيثمي ، علي بن حجر بن أبي بكر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، د . ط ، ١٤٠٧هـ) ، ٦/ ٢٠ ، ورواه ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد : المصنف ، تح : كمال يوسف الحوت ، (الرياض : مكتبة الرشيد ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ) ، ٧/ ٣٣١ ، وذكره البغوي ، الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد : معالم التنزيل ، تح : خالد العك ومروان سوار ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م) ، ٢/ ٩٣ . وابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٤/ ٩١ .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٤٦ .

(٣) رضا ، محمد رشيد : تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٣٩٣هـ ـ١٩٧٣م) ، ١١/ ٢٠٤ .

(٤) القصة في صحيح البخاري ، باب الهجرة ، انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ٢/ ١٠٤ ، والشاهد فيها : ». . فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه بن الدغنة ـ هو سيد القارة ـ فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال : أبو بكر : أخرجني قومي ، فأنا أريد أن أسيح في الأرض ، فأعبد ربي . قال بن الدغنة : إن مثلك لا يخرج ولا يخرج ، فإنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلادك ، فارتحل ابن الدغنة فرجع مع أبي بكر ، فطاف في أشراف كفار قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق؟! فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وآمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به ، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فطفق أبو بكر يعبد ربه في =

وكذلك قصة إسلام جبير بن مطعم[1] : « سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[2] ، كاد قلبي أن يطير فرحا للإسلام . وفي رواية : « وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي »[3] ، وقد أشار القرآن إلى أثر هذا القرآن في نفوس بعض رهبان النصارى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[4] ، وهكذا نجد القرآن شفاًء وبلسماً للنفوس ينزل عليها فتعلوها السكينة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[5] ، وفي كل زمان نجد قصصا مماثلة تشير إلى هذا الأثر للقرآن[6] .

أما في العصور المتأخرة فالأمثلة والشواهد على ذلك لا حصر لها ولا عدّ ، إذ كثيراً ما نسمع الصحف والمجلات تتناقل أخباراً تؤكد هذه الحقيقة ، فقد سمعنا عن أثر

= داره ، ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز ، فكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن ، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكّاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم فقالوا له : إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره ، وإنه جاوز ذلك ، فابتنى مسجدا بفناء داره ، وأعلن الصلاة والقراءة ، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا . . » .

(١) وما قصة إسلام زعيمي الأوس « سعد بن معاذ وأسيد بن خضير » عن هذا السبب ببعيد .

(٢) سورة الطور ، الآية ٣٥ .

(٣) القصة بتمامها كما يرويها البخاري :رقم الحديث(٤٥٧٣) : « عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ ، كاد قلبي أن يطير » ، انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٨٣٩ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .

(٥) سورة الرعد ، الآية ٢٨ .

(٦) الفضيل بن عياض كان مسلما ، لكنه كان قاطع طريق ، يسلب المال ، ويسفك الدماء ، استمع ذات ليلة إلى قارىء يتلو : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ، سورة الحديد ، الآية ١٦ ، فتاب وحسنت توبته ، حتى أصبح من كبار العلماء الصالحين المقتدى بهم . انظر ترجمته : الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء ، تح : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٩ ، ١٤١٣هـ) ، ٨/ ٤٢١ وما بعدها .

القرآن في نفوس غير المسلمين بمجرد سماعهم لترانيمه ، دون وقوف على ألفاظه ، فضلاً عن فهم معانيه ، فدويّ قارىء القرآن يترك هذا الأثر في النفوس ، وقد أشار الشيخ دراز إلى هذا الوجه قائلاً : « دع القارىء المجوِّد يقرأ القرآن ، يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن ، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ منه مكاناً قصيّاً لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومدّاتها وغنّائها واتصالاتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريداً وأرسلت ساذجة في الهواء ، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التجريد وجوّد هذا التجويد ، ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من معك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا الشعر . . أنت في القرآن أبداً في لحن متنوع متجدد ، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل . . هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن سمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لغة العرب »[1] . والشواهد على ذلك كثيرة يكتفي الباحث بذكر مثالين منها ـ في الحاشية بسبب طولها ـ علّها تشير إلى أمثالها من النماذج المتكررة[2] .

---

(١) دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، اعتنى به وخرّج أحاديثه عبد الحميد الدخانيني ، (الرياض : دار طيبة للنشر ، ط ١ ، ١٩٩٧م) ، ص ١٢٩ـ١٣١ .

(٢) **الحادثة الأولى :**

حادثة أوردها لنا سيد قطب مما وقع له وكان معه شهود ستة على تلك الحادثة ، أوردها مطولة في تفسيره ، نورد الشاهد في القصة : ». . وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح « القدّاس »؟!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيدة من هذا الحشد ـ عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم « تيتو » وشيوعيته! ـ كانت شديدة التأثر والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ وتقول : ـ في إنجليزية ضعيفة ـ إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح؟ . . وليس هذا موضع الشاهد في القصة ، ولكن ذلك كان في قولها : أي لغة هذه التي كان يتحدث بها « قسيسكم »؟! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم « الصلاة » إلا قسيس أو رجل دين ـ كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة! ـ وقد صححنا لها هذا الفهم! . . وأجبناها ، فقالت : إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب ، وإن كنت لم أفهم منها حرفا . . ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن=

فروعة القرآن هذه ، وأثره هذا كامن في تلك الترنيمات والأنغام المتساوقة التي تلقي بالسكينة والطمأنينة على نفس مستمعيها ، ظل الرسول ﷺ يقرءوه على أصحابه طيلة فترة نزول القرآن فما سئموا له صوتا ، ولا كرهوا له جرساً ، ولا ملّوا له نظماً ، ولا استثقلوا له كلمة .

= أسأل عنه . . إن الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن « الإمام » كانت ترد في أثناء كلامه ـ بهذه اللغة الموسيقية ـ فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعا . هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فيَّ رعشة وقشعريرة! إنها شيء آخر! كما لو كان ـ الإمام ـ مملوءا من الروح القدس! ـ حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها ! ـ وتفكرنا قليلا . ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة! وكانت ـ مع ذلك ـ مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئا! » ، انظر : قطب ، سيد : الظلال ، ٣/ ١٧٨٦ .

حادثة أخرى يرويها لنا أحد الكتاب الإسلاميين عندما التقى بأحد المشاركين في دورة متقدمة في علم البرمجة العصبية اللغوية وهو من الجنسية الأمريكية ودار حوار طويل بينهما حول الإسلام والقرآن ،وكان مما دار بينهما : حيث إنك لم تسمع تلاوة القرآن ، هل تمانع أن أقرأ عليك من الآيات القرآنية ، فنحن المسلمون نؤمن أن للقرآن أثرا في النفس عند تلاوته ، فالقرآن عندنا معاني وكلمات وصوت مؤثر! ، فقال : إنني متحمس لهذه التجربة . . ليس لدي مانع ! . . بدأت بقراءة آيه الكرسي وآيه بعدها بما لدي من مهارات في التجويد والترتيل تعلمتها من شيخ في مسجد الهاجري الشيخ عبد السلام حبوس ـ حفظه الله ـ وأثناء التلاوة لاحظت التالي : بدأ هذا الإنسان الذي كان جالسا باستقامة على الكرسي بالانحناء قليلا . . قليلا . . بعد لحظات أغمض عينيه . . تغيرت ملامح وجهة إلى الهدوء والخشوع والخضوع أحسست وأنا أقرأ القرآن على هذا الإنسان وكأني أقرؤه على مسلم من حيث تأثره السريع بالقراءة مما أعطاني راحة نفسية كبيرة وسعادة لا توصف ، وبعد أن انتهيت من القراءة . . جلسنا في صمت ثم فتح عينيه . . وإذا العينان حمراوتان وبدأت الدموع تترقق والانشراح باد على وجهه وهو يقول : لقد عزلتني بتلاوتك الجميلة عن هذا العالم الذي نعيشه ، إن لهذه الكلمات تأثيرا غريبا على نفسي . . وبعد حديث طويل طلبت منه أن يدوّن المعاني التي شعر بها فكتب بخط يده : « إن مقدمتك من القرآن ، كانت ولا زالت ذات أثر عظيم في نفسي ، ولسوف أحمل تعابيرك الجميلة معي دائماً ، سأحاول أن أعبر بكلماتي عن تجربتي لكلمات الرب ، كانت البداية تقريباً حزينة أو كئيبة ، لقد شعرت وكأني منفصل عن جزء هام من نفسي . . ومن الحياة » . انظر : الرفاعي ، نجيب : أثر القرآن على قلوب الأمريكان ، (الكويت : مجلة المجتمع ، ع ١٢٠٦ ، صفر/١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) ، ص ٥٨ .

حقائق وتجارب علمية :

القرآن علاج للنفوس وطب للقلوب ، ودواء للأسقام : تحدث القرآن عن نفسه بأنه شفاء : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾[1] ، وشفاء القرآن الكريم هذا ليس معنوياً ، فحسب ، وإنما شفاء من العلل والأسقام المادية أيضاً ، والجدير بالذكر أن أثر القرآن هذا أثّر في غير العرب وممن لا يفهمون اللغة ، بل أثر القرآن هذا لم يقتصر على الإنس ، وإنما تعداهم إلى الملائكة والجن ، والبهائم[2] ، بل والنباتات[3] ، وقد حدثنا القرآن عن الجبال التي تتصدع هيبة من نزول القرآن . .

القرآن شفاء :

كثيرة هي النصوص الواردة من القرآن والسنة الدالة على أن القرآن شفاء ، من

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٢ .

(٢) ففي صحيح مسلم ، ٥٤٨/١ ، حديث رقم ٧٩٥ : « البراء يقول : ثم قرأ رجل الكهف ، وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، قال : فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « اقرأ فلان فإنها السكينة تنزلت ثم القرآن أو تنزلت للقرآن » ، كما روى حديثا آخر برقم ٧٩٦ : « أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده ، إذ جالت فرسه ، فقرأ ، ثم جالت أخرى فقرأ ، ثم جالت أيضا ، قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى ، فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي ، فيها أمثال السرج ، عرجت في الجو حتى ما أراها ، قال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي ، إذ جالت فرسي فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ ابن حضير » ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ ابن حضير » ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ بن حضير » ، قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة ، فيها أمثال السرج ، عرجت في الجو حتى ما أراها ، فقال رسول الله : « تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم » ، وانظر : البخاري : صحيح البخاري ، ١٩١٦/٤ .

(٣) يذكر أن بعض التجارب الحديثة أثبتت أن قراءة القرآن تؤثر على النباتات فتزيد في إنتاجها ، ففي مقال علمي عن بحث علمي منشور نقلته لنا مجلة المجتمع بعنوان : « تلاوة القرآن الكريم عند النباتات تضاعف إنتاجه » ، حيث قام به باحث من الأردن وهو المهندس « عدنان محمد دين » ، توصل إلى نتيجة « أن قراءة القرآن عند النباتات يضاعف غلة الزرع ومستويات إنتاجه » ، انظر : (مجلة المجتمع ، ع ١٣٤٨ ، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) ، ص ٦٢ .

ذلك : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1] ، وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] ، وقوله : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾[3] ، وقوله : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾[4] .

والشفاء هذا ليس مقتصراً على الجوانب المعنوية ـ كما سبقت الإشارة ـ إذ هو مصدر علاج لأمراض النفوس والقلوب معاً ، ثم هو علاج من الأسقام ، أما الجوانب المعنوية فواضح إذ هو طب القلوب ودواؤها ، به تتحقق تزكية النفس فهو بمثابة الروح : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾[5] . والقرآن فيه شفاء من أمراض الأبدان : حيث ثبت أن الرسول ﷺ عولج بالرقية ، وأرشد أصحابه إلى المعالجة به . فالأحاديث الواردة في مشروعية الرقى بلغت حدّ التواتر المعنوي[6] : ففي الصحيحين : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : كان ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث »[7] ، ومنه حديث أبي سعيد الخدري (في الرقية بسورة الفاتحة[8] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٤ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٥٧ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٨٢ .
(٤) سورة فصلت ، الآية ٤٤ .
(٥) سورة الشورى ، الآية ٥٢ .
(٦) الأشقر ، عمر سليمان : كيف كان القرآن شفاء لأمراض الإنسان وقاية وعلاجاً ، (ليدز : مجلة الحكمة ، ع ١٥ ، ١٩١٩م) ، ص ٢١٨ .
(٧) انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٩١٦ ، ومسلم : صحيح مسلم ، ٤/ ١٧٢٣ .
(٨) القصة مشهورة والحديث متفق عليه ، انظر : مسلم : صحيح مسلم ، ٤/١٧٢٨ ، والبخاري: صحيح البخاري ، ٤/ ١٩١٣ ، وابن حبان ، محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي : صحيح ابن حبان ، تح : شعيب الأرناؤوط ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٣م) ، ١٣/ ٤٨٠ ، عن أبي سعيد الخدري قال : ثم نزلنا منزلا فأتتنا امرأة ، فقالت : إن سيد الحي سليم لدغ ، من راق ، فقال : فقام معها رجل منا كنا نظنه يحسن رقية ، فرقى بفاتحة الكتاب ، فبرأ فأعطوه غنما وسقوه لبنا ، قال : فقلت : لا تحركوه حتى نأتي رسول الله ﷺ ، فأتينا النبي ﷺ ، فذكرنا ذلك له فقال : « ما كان يدريه أنها رقية ، اقسموا واضربوا إلي بسهم معكم » . =

ما يلمس من أدلة ووقائع حقيقية في كل عصر بما لا مجال فيه للشك ، ولا ينكره إلاّ مكابر أو جاحد أو جاهل .

كثرة العيادات النفسية في الغرب ليس لها تفسير إلاّ هذا الخواء الروحي إذ النفس تفتقر إلى الجانب الروحي ، فعلى الرغم من تقدمهم الهائل في شتى الفنون إلاّ أن الأمراض النفسية والاجتماعية تحيط بهم من كل جانب . وعلى الرغم من كثرة العيادات النفسية والمعالجين النفسيين فإن الأمراض النفسية في ازدياد مثل الكآبة والقلق والحيرة والشكوك ومختلف أنواع الأسقام التي تدخل في عموم معنى الآية : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[١] .

ويذكر أن المسلمين سبقوا الغربيين بقرون متطاولة في مسألة تشخيص الأمراض النفسية وعلاجاتها مهتدين بالهدي النبوي ﷺ ، كما نجد اهتمامهم طال ليشمل الطب النفسي الوقائي ، مما جعل هذا النوع من الأمراض نادر الحدوث ، فالأذكار والعبادات عبارة عن « طب وقائي يمنع تراكم الأمراض النفسية من خواطر شيطانية ووساوس وكروب »[٢] ، أيّا ما كان الأمر فليس ينقص هذه الحقيقة أدلة وتجارب شخصية تؤيدها خاصة ، إذا ما جمعنا إليها تلك الرقى التي تم بها معالجة المصابين بالصرع ومسّ الجن ، والتي تتم بتلاوة آيات من القرآن الكريم ، إذ هي من الكثرة بحيث لا تخفى على الجاهل من أبناء المسلمين فضلاً عن العالم منهم .

شهادة غير المسلمين بهذه الحقائق وتسليمهم بها :

تعددت التجارب التي قام بها بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين في محاولة لإثبات أثر القرآن الكريم هذا في قياس مسألتي التوتر العصبي والهدوء النفسي لدى المسلمين وغير المسلمين على حدّ سواء ، مستخدمين في ذلك أجهزة إلكترونية دقيقة ، وقد كانت النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسات مذهلة بشكل واضح .

---

(١) سورة طه ، الآية ١٢٤ .

(٢) للمزيد انظر : الخراشي ، ناهد عبد العال : أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي ، (القاهرة : مطابع الأهرام ، ط ١ ، ١٩٨٧م) ، ص ٣١ .

قام الدكتور أحمد القاضي(١) في الولايات المتحدة الأمريكية بإجراء تجربة هدفت إلى قياس التوتر العصبي بين صفوف المسلمين وغير المسلمين على حد سواء وأثر تلاوة القرآن في علاجه ، مستخدما جهازاً يقيس سرعة التيار الكهربائي في الجلد والعضلات ، ويقيس في الوقت نفسه درجة الحرارة في الجلد مستخدما جهاز

---

(١) القاضي ، أحمد : « تأثير القرآن على وظائف الجسم البشري وقياسه بواسطة أجهزة المراقبة الإلكترونية » ، (بناما سيتي فلوريدا : عيادات أكبر ، ١٩٨٤م) ، خطوات العملية :

١ـ جاء بمجموعة أنفار من المسلمين الذين يشعرون بالضيق النفسي والتوتر العصبي ، ويعانون من قلق واضطرابات ، وأدخلهم في غرفة فيها صمت كامل ، فلم يتغير شيء في قراءة المؤشر .

٢ـ أدخل المجموعة نفسها في غرفة أخرى كان يتلى فيها آيات من القرآن الكريم ، لوحظ أن المؤشر بدأ ينخفض إلى درجة تشير إلى أن التوتر العصبي بدأ بالتناقص مع قراءة القرآن الكريم .

٣ـ لقياس ما إذا كان التأثير هذا بسبب اللغة العربية نفسها وليس بسبب القرآن ، قام بإدخال المجموعة نفسها في غرفة أخرى تم فيه قراءة أبيات من الشعر بصوت جميل وأداء حسن ، حيث لوحظ أن المؤشر كان يتحرك حركة لا تكاد تذكر .

٤ـ لقياس ما إذا كان التجويد وما فيه من إيقاع موسيقي ودوره في هذا الأثر ، قام بإدخال المجموعة نفسها إلى غرفة تقرأ فيها مقطوعات شعرية وأخرى نثرية بمراعاة أحكام التجويد ، لوحظ أن المؤشر يتحرك حركة أكثر من التي لم يصحبها التجويد ، لكنها كانت دون تلاوة القرآن الكريم بكثير .

٥ـ لقياس أثر القرآن على غير المسلمين الذين لا يفهمون العربية ولا معاني الآيات ، أدخلوا أولاً في غرفة يخيم عليها الصمت ، فلم تتغير قراءة المؤشر ، ثم دخلوا في غرفة يتلى فيها القرآن ، لوحظ أن المؤشر نزل نزولاً واضحاً ، إلاّ أن نسبة التوتر العصبي عند هؤلاء بقيت أعلى بكثير من نسبة أولئك الذين يفهمون لغة القرآن الكريم من المسلمين .

أثبت الدكتور القاضي بعد سلسلة من التجارب الدقيقة التي أجراها في (عيادات أكبر) في فلوريدا في الولايات المتحدة الأمريكية : « أن مجرد استماع المسلم لآيات من القرآن الكريم سواء من المتحدثين بالعربية أو بغيرها . يأتي بجميع التغيرات الفسيولوجية الدالة على خفض التوتر والقلق ونزول السكينة وزيادة المناعة ضد الأمراض وغيرها من التغيرات . كما أثبت باستخدام أحدث أجهزة المراقبة الإلكترونية لضغط الدم وسرعة ضربات القلب وشدة العضلات ومقاومة الجلد للتيار الكهربائي ، وأن لتلاوة القرآن أثراً مهدئاً واضحاً في ٩٧٪ من الحالات » . انظر : البدري ، مالك : التفكر من المشاهدة إلى الشهود ، (هيرندن : مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨١م) ، ص ٥٩ـ٦٠ .

الحاسوب في تغذيته بالمعلومات التي تخدم هذه الدارسة ، فكان دور الشاشة أن يعرض قياس حدّة التوتر العصبي في الإنسان وذلك عن طريق دور مؤشر(Indicator) يتراوح صعوداً ونزولاً[١] .

تجربة أخرى قام بها أحد المفكرين المسلمين[٢] ، يحسن بالباحث أن ينقلها كما يرويها صاحب التجربة : « اكتشف العلماء أن للمخ أربع موجات ، ولكل موجة سرعة في الثانية ، ففي حالة اليقظة يتحرك المخ بسرعة ١٣ـ٢٥ موجة / ثانية ، وفي حالة الهدوء النفسي والتفكير العميق والإبداع يتحرك بسرعة ٨ـ١٢ موجة / ثانية ، وفي حالة الهدوء العميق داخل النفس ومرحلة الخلود إلى النوم يتحرك بسرعة موجة/ ثانية ، وفي النوم العميق بسرعة نصف إلى ٣موجات / ثانية .

يقول كاتب هذه القصة : « كانت هذه المعلومات واضحة في ذهني ، وأنا أتنقل في جناح أحد مؤتمرات التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية هذا العام ، وبالتحديد في شهر يناير (١٩٩٦م) لفت نظري جهاز كمبيوتر يقيس الموجات الدماغية الأربعة بكل دقة ، واستأذنت في أن أضع القبعة على رأسي لأرى أثر تلاوة القرآن الكريم على موجات دماغي ، حيث قرأت آية الكرسي وشاهدت على شاشة الكمبيوتر انتقال المؤشر من سرعة ٢٥موجة/ ثانية إلى ما يقارب منطقة التأمل والتفكير العميق ، والراحة النفسية ٨ـ١٢ موجة/ ثانية .

استغرب صاحب الجهاز من هذه النتيجة ، وطلبت منه أن أقرأ القرآن على أحد رواد المعرض الذي رحّب بالفكرة ، وكانت النتيجة ، وأنا أقرأ عليه آية الكرسي ، أكثر من مذهلة ، فقد رأيت ـ كما رأى الحاضرون ـ معي انخفاض موجاته الدماغية بشكل سريع إلى منطقة ٨ـ١٢ موجة/ ثانية ، وحينما انتهيت من القراءة ، قال لي : قراءة جميلة ولو لم أفهم منها شيئا ، ولكنها ذات نغمات مريحة . . لقد أدخلت السرور على قلبي بكلام غريب لم أفهم منه حرفاً واحداً . . والحقيقة وأنا مغمض عيني ، وأستمع إلى كلمات القرآن ، حاولت أن أقلد هذه الكلمات داخل قلبي ، ولكنني لم أستطع . . كلام جميل

---

(١) للمزيد انظر : الزنداني ، عبد المجيد : آيات الله في الآفاق ، إعداد : محمد إبراهيم سليم ، ص ١٠ـ١٢ .

(٢) الرفاعي ، نجيب : أثر القرآن على قلوب الأمريكان ، مجلة المجتمع ، ص ٥٨ .

ومريح!!والموقف نفسه يتكرر مرات أخرى »[1] .

أيا كانت مدى مطابقة مثل هذه التجارب وأمثالها لأوصاف البحث العلمي ومقاربتها لمنهجيته ، فإن هذا في نهاية الأمر يشير إلى أن هذه المسألة تجاوزت مرحلة إثبات أثر القرآن أو عدمه ، فقد أصبح الحديث في تحديد النسب التي يحدثها أثر القرآن الكريم هذا .

وليس غرض الباحث في هذا الموضع استقصاء أمثال هذه التجارب ، فهي من الكثرة بحيث تصعب الإحاطة بها ، وتبقى الحقيقة التي لا يملك أحد من المسلمين إنكارها ، وهي أن هذا القرآن له أثره العظيم في نفوس مستمعيه حتى ولو كانوا من الحاقدين ، ففي الفقرة الآتية ما يثبت طرفا من هذا ، والباحث على يقين من أن لكل قارىء رصيده من الشواهد والتجارب التي مرت به أو وصلت إلى سمعه وتدل على هذا .

مطاعن المغرضين على القرآن مبعثها الإعجاب وسيطرة القرآن على نفوسهم[2] :

العرب الذين لم يستجيبوا لدعوة القرآن كانت مطاعنهم في القرآن الكريم مبعثها الإعجاب إذ هم « تلمسوا وجود الطعن فيه ، لم يخرجوا عن وصفه بأنه أساطير الأولين ، وسحر يؤثر ، أو شعر . . . وهذه النسب ـ كما زعموا ـ إنما صاروا إليها لأنهم وجدوا في القرآن عزة وغرابة ، فهو إحساس بسموٍّ القرآن وبلوغه حدّاً في الإعجاز جفّت دونه الأقلام »[3] .

من ذلك : كثرة الدراسات التي قام بها خصوم الإسلام حول القرآن الكريم ، والتي غصّت بها مكتبات المسلمين ، تشير إلى أثر هذا القرآن الكريم فيهم مما جعلهم يصرفون أغلب جهودهم في التأليف إلى القرآن الكريم بشكل عام ، ثم إلى أثر القرآن الكريم ودوره في التأثير على النفوس ، ولعل هذا يمكن أن نتلمس إذا ما عرفنا أن

---

(١) انظر : الرفاعي ، نجيب : أثر القرآن على قلوب الأمريكان ، مجلة المجتمع ، ص٥٨ .

(٢) أبو زهرة ، محمد : معجزة القرآن الكبرى ، (بيروت : دار الفكر العربي ، د . ط ، ١٩٧٠م) ، ص ٦٦ـ٦٨ .

(٣) دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص٨٢ـ٨٤ .

عشرات الرسائل قامت بهذا الخصوص ، وقد وقعت بين يدي رسالة من هذا اللون كان عنوانها : « الجوانب الموسيقية في القرآن من خلال قراءة عبد الباسط عبد الصمد »[١] ، ورسالة أخرى بعنوان : « الجوانب الفنية في تلاوة القرآن »[٢] . وما قام به المستشرق الشهير Arberry)) من محاولات التعرف على الجوانب الموسيقية للقرآن ، وأن السر في إعجازه يكمن فيها[٣] ، وقد انتقد من تقدمه من المستشرقين الذين قاموا بترجمة القرآن بأنهم غفلوا صفة القرآن الوجدانية وسرّه الذي يكمن في سماعه[٤] .

كل هذا وغيره مما يصعب الإحاطة به يقود إلى التساؤل الذي يعتبر نتيجة طبيعية لما تقدم ، وهو : ما سبب هذا التأثير ؟ أين يكمن سرّ هذا التأثير ؟

١ـ إنّ هذا الأثر يلامس الوجدان بمجرد سماع الآيات من القرآن الكريم ، السرّ كامن في التلاوة ، وقد كانت إحدى وظائف الرسول ﷺ : قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ . . ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ

---

(١) رسالة قدمت لجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس لنيل درجة الدكتوراه في الموسيقى ، تقدم بها الباحث :
جوزيف مارسين Jozef Marcin Pacholczyk)) .

(٢) Nelson/ K 5891. The Art of Recitating the Qur'an First Edition. University of Texas press.U.S.A .
وهناك رسالة قدمتها الباحثة لويس الفاروقي (اعتنقت الإسلام) ،بعنوان : « الموسيقي للحضارة الإسلامية» جامعة سيركوس/ نيويورك ، عام (١٩٧٦م):
Faruqi/ L. I 1976. The Nature of the Musical art of Islam/ theoretical and Al Arabian Music. Doctoral Dissertation. Syracuse University .

(٣) انظر:
Arberry L. 1953. The Holy Quran. An Introduction with Selection b First Publishiraby. Geerg Allen & Unwin LTD. London. p 11-34 .

(٤) هذا بالإضافة إلى الحادثة التي أوردتها مجلة المجتمع في المقال السابق الذكر ، والتي تم فيها تلاوة القرآن على غير المسلم . كما أن فيما أورده الجاحظ عن الطبيب ماسرجويه الذي استمع إلى تلاوة وهو يهودي « حيث بكى من قراءة أبي الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تؤمن به ؟ قال : إنما أبكاني الشجى » . دلالة على ذلك . انظر : السعيد ، لبيب : الجمع الصوتي الأول للقرآن ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٧٨م) ، ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٥) سورة الجمعة ، الآية ٢ .

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[١] . وقد كان الصحابة أمروا بتلاوته كذلك في صلواتهم : ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[٢] ، وقد ورد في صفة بعض الصحابة أن الذي كان يمرّ ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دويّ النحل من تلاوة القرآن الكريم[٣] .

٢ـ تكرار تلاوته لا يزيد النفس إلاّ طلبا له ، وهذه خاصية تكمن فيه ، وتدل على تأثيره في الآخرين ، فعلى الرغم من تلاوته وتكرار تلاوته إلاّ أن الملاحظ أن هذه النفس لا تمله ، بل تطلب المزيد منه ، ولعلنا ندرك هذه الحقيقة حينما نعلم أن سورة المزمل التي كانت من أوائل ما نزل من القرآن حيث كانت الآيات التي نزلت قبلها ذوات عدد[٤] ، وقد نزل فيها الأمر بقيام الليل : ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾[٥] ، لنتخيل كم عدد الآيات التي كانت نازلة وقتئذ ، إلا أن الليل أغلبه كان ينقضي بتلاوتها وترتيلها ، كل ليلة ، فهل كانت النفوس تملّ أو تشعر بالسآمة ، كلاّ بل إن هذا هو الذي صنع تلك الفئة التي كان على عاتقها حمل أعباء الرسالة الجديدة ، وانظر ـ أيضاً ـ في حال المسلمين جميعاً في صلاتهم إذ يقرؤون الفاتحة في كل ركعة من صلاتهم ، ولكن هل نجد النفوس تمل تلاوتها أو سماع آياتها ؟ كلا بل إن النفوس لتهفو أحياناً لسماعها ، وكم بكى مسلم لمجرد سماعها!

هذا ولم يقتصر أثر القرآن الكريم على ما تقدم ذكره ، بل إنه قد حدثتنا كتب التاريخ وكتب الرجال ـ على حدٍّ سواء ـ عن قوم ممن كانوا يستمعون للقرآن فيحدث لهم الصعق والغشي[٦] ، وقد ذكر أنه كان في الخائفين من خرّ مغشيا عليه عند آيات

---

(١) سورة النمل ، الآية ٩٢ .

(٢) سورة المزمل ، الآية ٢٠ .

(٣) رواه ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني : سنن ابن ماجه ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) ، والدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي : سنن الدارمي ، تح : فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي ، (بيروت : دار الكتاب العربي، ط ١ ، ١٤٠٧هـ)، ١/ ١٦ ، والحاكم : المستدرك ، ١/ ١٨٣ وصححه.

(٤) سورة الفاتحة ، العلق ، المدثر ، القلم ، فهي في مجموعها بضع آيات تتلى .

(٥) سورة المزمل ، الآية ٣ .

(٦) للمزيد انظر : السعيد : الجمع الصوتي الأول للقرآن ، ص ٢٥٢ـ٢٥٣ .

الوعيد ، ولذلك أسبابه[1] ومنهم من مات في سماع الآيات[2] ، قال السيوطي : « قد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف »[3] ، كيف لا! وقد حدثنا القرآن عن نفسه بأن له من القوة في النفوس وفي الوجود بحيث يمكن أن تسيّر به الجبال ، أو تكلّم به الموتى أو تقطع به الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[4] ، إذ للقرآن في النفس كمال التأثير وفي الآذان جمال التعبير »[5] .

المبحث الثاني
أسباب تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية

تكمن وراء تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية أسباب كثيرة ، يمكن إجمال أبرزها في المطالب الآتية :

المطلب الأول : قدسية ألفاظ القرآن

أول ما يسترعي انتباه تالي القرآن مهابة وجلال وقدسية يشعر بها مرتل القرآن ومستمعه على حدّ سواء ، حيث تنقل الإنسان إلى جو من الهيبة والرهبة والقدسية ،

---

(١) قال ابن القيم : الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب : أحدهما : أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها فتحدث له الشهقة ، فهذه شهقة شوق ، ثانيهما : أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفاً وحزناً على نفسه وهذه شهقة خشية ، ثالثها : أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه فيحدث له ذلك حزنا فيشهق شهقة حزن ، رابعها : أن يلوح له كمال محبوبه ويرى الطريق إليه مسدودة عنه فيحدث ذلك شهقة أسف وحزن ، خامسها : أن يكون توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره فذكّره السماع محبوبه فلاح له ماله ورأى الباب مفتوحاً والطريق ظاهرة فشهق فرحاً وسروراً بما لاح له . . وبكل حال فسبب الشهقة قوة الوارد وضعف المحل عند الاحتمال والقوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلاً ولا يظهر عليه ، وذلك أقوى له وأدوم ، فإنه إذا أظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعه » ، ابن قيم الجوزية : الفوائد ، تح : سعيد اللحام ، (بيروت : دار الفكر اللبناني ، ط ١ ، ١٩٩٢م) ، ص ١٧٣ .

(٢) انظر مثلاً : الغزالي ، أبو حامد : إحياء علوم الدين ، ١/ ٢٨٦ .

(٣) السيوطي : الإتقان ، ١/ ١٠٢ وما بعدها .

(٤) سورة الرعد ، الآية ٣١ .

(٥) أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٥٣٦ .

فهو يدرك أنه ليس كلام بشر ، وأن له سلطاناً على النفوس فوق الإرادة ، بل فوق الشعور ، « إن في هذا القرآن سرّاً خاصّاً يشعر به كل من يواجه نصوص القرآن ابتداءً قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه ، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن ، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير ، وأن هنالك عنصراً ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن ، يدركه بعض الناس واضحاً ، ويدركه بعض الناس غامضاً ، ولكنه على كل حال موجود ، هذا العنصر الذي ينسكب في الحسّ ، يصعب تحديد مصدره ، أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها تشمل ما تقدم وشيئاً آخر وراءها غير محدود! ذلك سر مودع في كل نص قرآني يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله »(١) .

فالقرآن له سلطان الجلال والمهابة يستولي على قلوب المخاطبين استيلاءً « كالقهر وما هو بالقهر ، له فعل في القلوب كالسحر وما هو بالسحر ، لا يختص ذلك بالأنصار دون الخصوم ولا بمحالفيه دون مخالفيه ، بل يغزو القلب من حيث لا يمكن لصاحبه رد ، ويؤثر فيه من حيث لا يمكن دفع ، أثّر في الأعداء كما أثّر في الأتباع »(٢) . وبهذا

---

(١) قطب ، سيد : الظلال ، ٦/ ٣٣٩٩ . ومع هذا الكلام الذي قاله سيد نجد البوطي يقول ـ حين تحدث عن مظهر جلال الربوبية ـ : « لم أجد من فصّل القول في هذا الجانب من الإعجاز القرآني ، على الرغم من مشابهة كلامه لما قال سيد فهو يقول : « ومما لا ريب فيه أن أكثر الناس الذين يقرؤون كتاب الله تعالى وقد وقر في أنفسهم أن هذا الكلام لا يمكن أن ينطق به بشر من الناس دون أن يعلموا البرهان الواضح على يقينهم هذا ، إنما يستشعرون في الحقيقة هذا النوع « مظهر جلال الربوبية في القرآن » ، ثم نجده يشير إلى أن هذا الجانب من الإعجاز لا يتوقف إدراكه والشعور به على سعة علم أو ثقافة أو بلاغة ، بل لا بد أن ينتبه إليه كل متدبر لتلاوة القرآن متأمل فيما يقرأ ، مهما كانت ثقافته ودريته ، غير أنه قد لا يحسن التعبير عما يشعر به ولا يقدر على تحليله وشرح سببه ، وإذا رأيت من إذا تلا القرآن تأثر به فاعلم أنه متفاعل مع هذا الوجه » ، البوطي ، محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن ، (دمشق : مكتبة الفارابي ، د . ط . ١٩٦٨م) ، ص ١٥٦ـ ص١٦٠ .

(٢) انظر : الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان : خصائص القرآن الكريم ، (الرياض : =

يمكن تفسير مقولة جبير بن مطعم حين استمع لآيات من سورة الطور : « كاد قلبي أن يطير »[1] ، وبهذا يفسّر استيلاء القرآن على مشاعر صناديد قريش[2] ، حين خرجوا في جنح الليل المظلم طلبا لسماعه .

هذا هو السلطان الذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، قال عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[3] .

هذه المهابة سرها في منزل القرآن : « حين نتأمل خطاب القرآن نجد ملكا ، له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمّة الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، ومردّها إليه ، مستويا على سرير ملكه ، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته ، عالما بما في نفوس عبيده ، مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم ، منفرداً بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ، ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق . . فتأمل كيف تجده يثني على نفسه ، ويمجّد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه . . ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه . . فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلا ، هذا شأنه فكيف لا تحبه ، وتنافس في القرب منه ، وتنفق أنفاسها في التودد إليه ، ويكون أحبّ إليها من كل ما سواه؟! . . وكيف لا تلج بذكره ، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها؟! بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها »[4] .

نعم للقرآن هيبة وجلال : ». . قد تجلى الله فيه لعباده وصفاته ، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال ، فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء ، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال . .

= المديرية العامة للمطبوعات ، ط ٥ ، ١٤١٠هـ) ، ص ١٠١ .

(١) تقدم تخريجه .

(٢) من أمثال : الأخنس بن شريق ، أبو سفيان ، أبو جهل ، وقد تقدم ذكر القصة .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٢٣ .

(٤) ابن القيم ، الفوائد ، ص ٢٩ .

فيستنفد حبه من قلب العبد ، قوة الحب كلها . . فهو عز وجل يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة ، وبصفات ربوبيته تارة ، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة ، الشوق إلى لقائه والأنس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه والتودد بطاعته واللهج بذكره والفرار من الخلق إليه ويصير هو وحده همّه دون سواه ، ويوجب له شهود الربوبية والتوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له ، وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته ، وإلهيته في ربوبيته وحمده في ملكه وعزّه في عفوه ، وحكمته في قضائه وقدره . . . وأنت إذا تدبرت القرآن ، وأجرته من التحريف ، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين ، أشهدك ملكاً قيوماً فوق سماواته على عرشه يدبّر أمر عباده ، يأمر وينهى ، ويرسل الرسل وينزل الكتب ، ويرضى ويغضب ، ويثيب ويعاقب ، ويعطي ويمنع ، ويعز ويذل ، ويخفض ويرفع ، يرى من فوق سبع ويسمع ، ويعلم السر والعلانية ، فعّال لما يريد ، موصوف بكل كمال ، منزّه عن كل عيب ، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلاّ بعلمه ، ولا يشفع أحد عنده إلاّ بإذنه ، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع »[1] .

فالمقبل على قراءة القرآن يلمس أن الخلائق جميعها في قبضته عز وجل وتحت قهره وسلطانه ، يقرأ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2] ، لا يخرج شيء من خلقه عن أمره ، وقوله : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾[4] ، و﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[5] ، و﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[6] ، يعطي ويمنع . . فالهيبة والقدسية يكمن وراءهما سرّ هذا التأثير ، ولهذا وجدنا الإمام الغزالي ذكر من أعمال الباطن في التلاوة : « التعظيم للمتكلم : مشيراً إلى أن القارىء يجب أن يستحضر عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر وأن في تلاوة

(١) ابن القيم ، الفوائد ، ص ٦٣ـ٦٤ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٨ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٥٤ .
(٤) سورة الحج ، الآية ١٨ .
(٥) سورة الروم ، الآية ١٦ .
(٦) سورة الأنبياء ، الآية ٢٣ .

كلام الله ـ عز وجل ـ غاية الخطر فإنه عز وجل قال : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[1] ، ولا يتأتى ذلك إلاّ بالتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله »[2] ، هذه القدسية والمهابة لا يشعر بها من يفهم لغة القرآن فحسب بل كل من يسمع له ، ولعل ما تقدم ذكره من بعض الحوادث يشير إلى هذا ، وقد تجسّدت هذه المهابة في صريح بعض الآيات كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[3] ، وانظر جمعاً من الآيات أشارت إلى تلك القدسية : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[4] ، و﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[5] ، ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[6] ، كيف لا تشعر النفس بتلك المهابة وهي تقرأ أن كل شيء في الوجود يسبح بحمده : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[7] ، حيث تشعر النفس بضآلة وجوده أمام هذه المخلوقات فالقرآن يجعل تاليه ومستمعيه في جو نفسي مهيب ، تلك هي خاصية الكتاب المبين ، إن أقبل على قراءته أدرك أنه يناجي ربه . . تجده يسمع قول الحق عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[8] . وذلك أحد وجوه إعجازه .

المطلب الثاني : تناغم ألفاظ القرآن وجرسه الموسيقي

هذه الخاصية ـ في نظر الباحث ـ تعد من أكثر الخصائص وأقوى الأسباب في التأثير ، ذلك أنه يستطيع إدراكها أكثر الناس بغض النظر عن لسانهم ولغتهم ، فهذه الخاصية شيء فوق معانيه ، ونظراً لأهمية التناغم الذي يعني انسجام أصوات حروفه واتساقها وعذوبة جرسها ، فإن الباحث أفرد له مبحثاً كاملاً يبين فيه ألوان التناسب وأسبابه وجوانبه ، وعليه فإن الباحث يرجىء الحديث عنه هنا إلى موضعه من

---

(١) سورة الواقعة ، الآية ٧٩ .
(٢) الغزالي ، أبو حامد : إحياء علوم الدين ، ١/ ٢٨١ .
(٣) سورة المزمل ، الآية ٥ .
(٤) سورة الجاثية ، الآية ٢ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية ١٩٦ .
(٦) سورة الواقعة ، الآية ٧٩ .
(٧) سورة الإسراء ، الآية ٤٤ .
(٨) سورة ق ، الآية ١٦ .

الدراسة ، إذ من طبيعة الإنسان طربه للنغم وتأثره بالكلام الموزون ، بل ربما يوحي إليه النغم والإيقاع بما لا يستطيع القول أن يفسره أو يشرحه ، يشترك في هذا التوازن كل حرف من كتاب الله ، بل كل حكم من أحكام التجويد ، حتى رسم الكلمة يوحي بظلاله على هذا الاتزان والانسجام ، والفواصل أبرز هذه الجوانب ، وكل هذا سيأتي بسطه في موضعه ـ إن شاء الله .

المطلب الثالث : مسايرة القرآن للنفس البشرية

يلمس تالي القرآن تلك الخاصية في كل آية من آياته ، فالقرآن يخاطب عباده بخطاب يلمس إنسانيتهم ، ويقف على طبيعتهم ، ويستخرج كنائز فطرهم ومكنون أسرارهم فهو واقعي ، انظر الأسلوب الغالب على آياته تجدها تجمع بين الضمير العائد إلى عظمته عز وجل ، وفي الوقت نفسه تجد الضمير العائد إلى المخاطبين ، كقوله : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] .

هذا المزج بين كلام رب العالمين وكلام العباد يبقي الإنسان موصولاً مشدودا إليه ، يشعره بأنه خطاب له بعينه ، لا حديثاً لأقوام سلفت ، بل هو المعنيّ بألفاظه ، وكيف لا يتأثر المرء وهو يسمع قوله عز وجل يستثير فيه عاطفة إيمانه ، ويقف به على حقيقته : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[3] ، ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[4] ، فهي صفة غالبة على آيات القرآن تلمس الوجدان ، ولعل ما يزيد المرء من الإقبال على كلام رب العالمين ، تلك النزعة الإنسانية التي يلمسها القارىء في آياته ، حيث لا يشعر القارىء لكتاب الله أو المستمع لآياته أنه بعيد عنه .

فالذي يقرأ القرآن يلحظ تدرج القرآن وانسجامه مع فطرة الإنسان ، يلمس مسايرة القرآن لشؤون النفس الإنسانية ، ويدرك أنه يتغلغل في شعابها وجوانبها مما لم يهتد إليه

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

(٣) سورة الحديد ، الآية ١٦ .

(٤) سورة القيامة ، الآية ٣٦ .

العلم إلاّ حديثاً ، فتجد أن ما يقدمه القرآن من حلول لمشاكل النفس الإنسانية ، تتجاوب إليه النفوس ، وتستريح له الأفئدة ، وتطمئن له القلوب ، إن من أسرار القرآن الكريم أنه يمسك بأحوال النفس الإنسانية كلها ، ويجيء إليه بما يناسب كل حال منها في مواجهته للأحداث ، وفي تصورها لها وإحساسها بها)[1] .

(والقرآن في كل ما يصدر فيه من أوامر ونواه وعقيدة وأخلاق ، وتشريع وعظات إنما يقدم من ذلك كله ثوبا قد فصّل على قدر الحقيقة الإنسانية كلها أينما وجدت ، وكيفما تنوعت)[2] ، ففي موضوعاته تتجلى تلك النزعة الإنسانية ، حيث تجدها تخاطب الإنسان ، وتحل مشكلاته ، وتعرض لحاجاته وتلبي متطلباته ، وفي أسلوبه الذي عم الخطاب فيه يشمل الإنسان ، كل بني الإنسان .

وهو في خطابه وتشريعاته يراعي ميول النفس الإنسانية ، ويساير طبيعتها ، ويتدرج في علاجها ، وهذه سمة غالبة في التشريعات التي تم التدرج فيها ، كتحريم الخمر في جانب النواهي ، أو تشريع الجهاد في جانب الأوامر ، ولعل المثال يفي بالمقال في هذا المقام :

إننا لو تأملنا الآيات الآمرة بالقتال سوف نلمس تلك المسيرة القرآنية لطبيعة النفس الإنسانية بشكل واضح جداً ، فالله عز وجل يقول :
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3] ، فقد احتاجت معالجة الطبيعة الإنسانية في هذا المقام إلى عدة أمور :

* بيان أن القتال فريضة مكتوبة .

* أن القتال أمر تكرهه النفس الإنسانية ، « وهذا الاعتراف فيه فائدة تمهيدية لعلاج النفوس من هذه الكراهية ، فالنفس تأنس بالحديث الذي فيه اعتراف بالحقيقة حتى ولو

---

(١) الخطيب : إعجاز القرآن ، (بيروت : دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٩٦٤م) ، ٢/ ٢٩٤ . تحت عنوان : مقتضى الحال وداعية المقام .
(٢) البوطي : من روائع القرآن ، ص ٢١٦ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .

كان شاقاً على النفس ، وبهذا تكون طريقة تربوية قائمة على الصراحة وعدم الهروب من مواجهة الواقع »[1] .

* بيان أنه ليس كل ما تكرهه النفس شرّاً دائماً ، ولا ما تحبه النفس خيراً دائماً ، وهذه حقيقة تلمسها النفس بالتجربة ، وهذا يشير إلى أن الآيات تتدرج مع النفس الإنسانية واقفة على حقائقها ، ولا يخفى أن القرآن بعد هذا لا ينسى في تشريعه للجهاد بيان ما تميل إليه النفس وتحبه وهو : النصر والفوز على الأعداء ، ويكون فيه شفاء للغليل :

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[2] ، يذكر هنا أن ميادين علم النفس تشير إلى وجود علاقة بين الشعور بالانتصار والسلوك الشخصي لدى الأفراد (كالغبطة والفرح والرضا والسرور) ، وهذا يطلق عليه « شفاء النفوس »[3] .

والنفس بطبيعتها ميالة إلى الحصول على منافع مادية ملموسة ، ولهذا نجد الآيات تساير النفس الإنسانية في هذا الجانب ، وتشرع لها بالأخذ من الغنائم ، وتبيح لهم التصرف فيه ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[4] ، و﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[5] .

هذا كله يجعل نفس القارىء تطمئن إلى دقة قائله ، وتستجيب لأوامره وتتأثر به ، وتدرك أن هذا كلام رب العالمين ، وبهذا ندرك أن هذا الجانب هو أحد مظاهر التأثر بالقرآن الكريم .

وأخيراً يمكننا أن نردد مع القائلين بأنه « ما من امرىء سليم الفكر والضمير يتلو

---

(١) المدني ، محمد محمد : مسايرة القرآن للطبيعة الإنسانية ، (القاهرة : مجلة الأزهر ، س ٣٠ ، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م) ، ص ٥٩٩ وما بعدها .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١٤ .
(٣) انظر : زلط ، عبد الرحيم محمود : العدة النفسية والمادية في شعر الحروب الجاهلية ، (دار المعارف : القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٩م) ، ص ١١١ .
(٤) سورة الأنفال ، الآية ٤١ .
(٥) سورة الأنفال ، الآية ٦٩ .

القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم بعدها أنه لم يتأثر به ، أما سرّ ذلك فهو كامن في أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض له القرآن بالهداية وسداد التوجيه »[1] .

المطلب الرابع : مخاطبة العقل وإمتاع العاطفة والوجدان[2]

على الرغم من أن هذه النقطة تشترك مع النقطة السابقة ، وتتداخل معها في بعض جوانبها ، إلا أن الباحث يرى أن هذه وحدها جديرة بأن تفرد على أنها أحد أسباب التأثير القرآني .

فالقرآن يخاطب العقل بمنطق قوي وحجة ظاهرة ودليل قاطع ، وتراه في الوقت نفسه يخاطب الشعور والوجدان خطاباً يستدر به العطف ويوقظ الإحساس ، فلا نجده يغذي جانبا ويهمل جانبا ، اقرأ قوله تعالى ، مثلا : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[3] ، تجد أنه خاطب القوتين معا ، إذ في النفس الإنسانية قوتان ـ كما هو معروف ـ قوة تفكير وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، ومع هذا تجد أن القرآن يجمع بين هاتين « كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، وكما يسري الروح في الجسد ، والماء في العود الأخضر . . »[4] ، والحقيقة هذه لا ينقصها دليل أو برهان فالقارىء لكتاب الله يلمسها في أسلوب القرآن ، إذ هي سمة بارزة فيه ، تارة تخاطب العقل وتسوق له الأدلة والبرهان ، وتارة تلهب المشاعر وتخاطب الوجدان . فيشعر المرء بأنه أمام كلام يصل إلى شغاف قلبه ويلامس حاجته ، فيترك ذلك فيه أثرا لا يفارقه ما دام يتلو آيات الله ،

---

(١) الغزالي ، محمد : نظرات في القرآن ، (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط ٥ ، د . ت) ، ص ١٢٣ .

(٢) انظر : دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص ١٣٨ ، حيث أشار إلى هذا اللون ، وعدّه من أبرز خصائص الأسلوب القرآني .

(٣) سورة يونس ، الآيتان ٣١ـ٣٢ .

(٤) دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص ١٤٥ .

ولعل هذا التوازن بين تغذية القوتين سابقتي الذكر هو السبب في ذلك الأثر الذي يحدثه في نفس القارى .

ولا يغيب عن الذهن أن القرآن لا يتجه إلى إثارة العواطف والمشاعر لذات الإثارة ، بل لما وراءها من يقظة وانتباه ونظر في جوانب النفس الإنسانية .

يستتبع ذلك صحوة العقل الخامد الكسول ، فتلتهب شرارة الفكر ، وتتوقد جذوة الحماس العقلي ، ويجد الإنسان نفسه في تيه من القلق والشك يملك عليه لبّه ، ولا يلبث أن يزداد هذا الشعور بالضيق حينما يجد أن هذا الإحساس قد أطبق على أنفاس الجماعة من حوله ، وسدّ عليهم كل طريق ، وبدا بَعْضَهم يراود داخله ، ويستغرق في تفكيره حتى يهتدي إلى الله .

فالقرآن يثير عواطف البشر ، ويوقظ عقولهم في وقت واحد ، وبعد الاقتناع يطمئن العقل ويهدأ الإحساس ، ويشعر الإنسان بنشوة الفرح والارتياح[1] ، وبهذا يمكننا أن ندرك أن القرآن له تأثيره في نفوس مستمعيه ، يستوي في ذلك مؤمنهم وكافرهم ومعاندهم ، لكن مصدر التأثير هذا يختلف فيما بينهم .

فعلى حين نجد تأثيره في المؤمنين تأثير روعة بلاغته ، ودهشة نظمه وأسلوبه . . وفي الكفار والمشركين يملك منهم الأفئدة ، ويستولي على القلوب ، وفي المعاندين المستكبرين عن الحق دهشتهم وحيرتهم حتى يصفوه بالسحر المبين ، فهو مؤثر فيهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

المطلب الخامس : محاربته الملل وخروجه من إلف النفس

حين نقبل على كتاب الله ، ونتلو بعضاً من آياته ، نجد أن شيئاً ما يجذبنا إليه ، على الرغم من أننا قد نقرأ الآيات نفسها مرات ومرات ، إلا أننا نجد جديداً في كل مرة نقرؤها ، فعلى الرغم من أن طبيعة النفس الإنسانية إذا أَلِفت الشيء خفِي عليها أسراره ، وصرفها هذا الإِلف عن التفكر فيه ثم اكتشاف ما فيه ، إذ النفس مجبولة على هذا ، إلاّ أن شأن النفس مع القرآن غير هذا ، فهي إن أقبلت عليه تلاوة أو انصاتاً تجد أن شيئاً ما يجذبها إلى سماعه ، فالطبيعة القرآنية تقهر برودة الإلف وطول المعرفة ،

(١) بدوي ، أحمد أحمد : من بلاغة القرآن ، (الفجالة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، د . ط ، ١٩٧٨م) ، ص ٤٢ .

فهو على ما قيل : « تغلب على مشاعر الملل فيه واحدة بنشاط لا ينفد »[١] .

الملاحظ على آيات القرآن الكريم وألفاظه أنها على الرغم من كون الكلمات من جنس ما نعرف إلا أننا لا نعرف الأسرار التي تكمن وراء تأثيرها في نفوسنا ، فالشيء قد يكون في إحدى حالاته مألوفا لا يثير انتباها ، فإذا أظهر هذا الشيء نفسه في أوضاع أخرى اكتنفته معان شتى ، ألا ترى الزخرفة في فن الرسم تتكون من وحدة معينة ، لو رأيت صورتها مفردة ما لفتت نظرك ، فإذا كررها الرسام بطرق مختلفة برزت معالم الجمال في أنواع من الزخارف تسحر الألباب ، ثم إن إلف الشيء قد يخفي ما فيه من أسرار ، ويصرف عن اكتشافها ، كثيرا ما نتلو آيات القرآن مثلما تتصفح آلاف الوجوه في الطريق ، ملامح تراها قد تكون دميمة وقد تكون وسيمة ، تمر أشكالها بالعين ، فما تثبت على أحدها إلا قليلا ، وفي ذهول يحجبنا أحيانا عن إدراك إعجازه إنه من جنس ما نعرف ، وحروف من جنس ما ننطق ، إلا أن طبيعة هذا القرآن ـ كما ذكر ـ لا تلبث أن تقهر برودة الإلف ، وطول المعرفة ، فإذا كتاب تتعرى أمامه النفوس ، وتنسلخ من تكلفها وتصنعها ، ونجد القرآن كما قهر نوازع الجدل في الإنسان وسكن لجاجته فقد تغلّب على مشاعر الملل فيه ، وأمده بنشاط لا ينفد .

والقرآن في حديثه للنفس الإنسانية حارب هذا الملل (الركود العاطفي) ، وعمل على تجديد حياتها بين الحين والآخر ، حتى أنه ليمكن هذا الإنسان ليستقبل يوما جديدا . فأسلوب القرآن يجعل القارىء في يقظة كاملة ، وهذا الأمر بلا شك يكمن وراءه أحد أسرار تأثيره في نفوس الناس ، إذ ليس لتالي القرآن بعده إلاّ التسليم بأنه تنزيل من حكيم حميد ، ولعل في إشارة القرآن المتكررة إلى مسألة التصريف ما يفيد هذه الفائدة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[٢] . وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾[٣] .

* * *

---

(١) الغزالي ، محمد : نظرات في القرآن ، ص ١٢٧ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٩ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ٥٤ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

إيقاع القرآن وأثره النفسي

تمهيد

تردد الباحث كثيرا قبل تحرير عنوان هذا الفصل ، فقد كان الذهن ينصرف إلى أن لفظ الموسيقى القرآنية ربما يكون أنسب ، من لفظ الإيقاع ، لكن سرعان ما تنصرف النفس عن كلمة الموسيقى ، ذاك ـ بالطبع ـ كان ناشئاً عن الاستخدام الشائع لمصطلح « الموسيقى » ، إلاّ أن الباحث آثر (المنهجية العلمية ما دام بالإمكان معرفة جذور كل من المصطلحين وما يقصد بكل منهما) كما أنه من الممكن استخدام الأسماء بحرّية إذا ما تم وضع تعريفات دقيقة لها ، فأي الإطلاقين أدق في هذا الإطار ؟

مصطلح الإيقاع وصحة الإطلاق

إن أول ما ينبغي النظر إليه عند بحثنا عن مصطلح ما هو : مدى إمكانية وفاء المصطلح المراد إطلاقه بالكفاية الذاتية (الاصطلاحية) ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان المصطلح المراد إطلاقه يفي بالعناصر المكونة للخطاب ، وهي : (العنصر الذاتي ، وعنصر ملقي الخطاب ، وعنصر متلقي الخطاب) ، هذا بالإضافة إلى كون المصطلح يجب أن تكون له تلك الخيوط التي تصله بجذوره اللغوية ، وعلى هذا فمصطلح الموسيقى[1] الذي ليس له جذور عربية يجب أن يستبعد من هذا المقام ، صحيح أنه

---

(١) والحق أن هذه الكلمة ليس لها أصل عربي ، وإنما هي من الألفاظ اليونانية ، وقد قيل في أصلها الاشتقاقي : إنها مؤلفة من المقطعين الآتيين : « موسى » و« قي » ، فلفظة (موسى) في اللغة اليونانية تعني : « النغمات » ، ولفظة (قي) : بمعنى الموزون الملذ ، ومنه قيل إن معناها : « العلم بكيفية تأليف المعنى اللغوي لهذا اللفظ » ، وقيل : سميت باسم الفلك الأعظم الذي هو في اليونانية « موسيقانيا » ، وذلك لتناسبهما في الشرف ، فحذف بعض الحروف طلبا للخفة فصار موسيقى ، انظر : اللاذقي ، محمد بن عبد الحميد ت (٨٨٨هـ) : الرسالة =

أصبح مفهوما واسع الدلالة ، فهو يشمل كل صوت متوازن سواء أكان كلاماً مؤلفاً من حروف أم كان صدى أم غير ذلك[1] ، فقد أصبح هذا المصطلح يطلق ليشمل الشعر ، ويشمل قراءة القرآن ، ويشمل الأذان ، ويشمل حلقات الذكر » ، وغير ذلك مما يطلق عليه تجوّزا « الموسيقى الدينية » ، لكن ماذا عن لفظ (الإيقاع) ، وهل فيه تلك الكفاية الاصطلاحية ؟

لدى العودة إلى جذر المصطلح لوحظ أنه من الثلاثي (وقع) ، يقال : وقع الشيء يقع وقوعا : سقط ، ووقع الحق : ثبت ، ووقع الشيء : موقعه ، والوقعة : صدمة الحرب ، والوقيعة : الغيبة ، والوقع : وقعة الضرب بالشيء ، ومواقع الغيث مساقطه[2] ، ووقوع الحق : ثبوته ، ووقوع القول حصول متضمنه[3] ، والإيقاع : يقال في الإسقاط وفي شن الحرب ، يهمنا مما تقدم لفظ الإيقاع : إيقاع ألحان الغناء ، وهو أن يوقع الألحان ويبينها[4] .

نكتفي بما تقدم لنخلص إلى أن أبرز ما في الإيقاع هو ثبوت الشيء وبقاء أثره ، فهل لهذا المصطلح ارتباط بما يطلق عليه في المفهوم الحديث ، وهل هو محققا لما يسمى

= الفتحية في الموسيقى ، شرح وتحقيق : هاشم محمد الرجب ، (الكويت : د . ن ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ، ص ٤١ .

(١) حتى في اللغة الإنجليزية نجد هذا المصطلح (Music) لا يقتصر على الصوت الخارج من الآلات ، وإنما يشمل ما تقدم ذكره من المعاني ، فالملاحظ من خلال كتابات أهل الاختصاص في هذا الفن أن إطلاق هذا اللفظ لا يقتصر على آلات الطرب ـ كما هو المتبادر للأذهان في الاستخدام المعاصر ـ وإنما يشمل الأصوات وما تشكل منها ، وعليه فالفنون التي تدخل في معنى هذا المصطلح قسمان : ١ـ فنون الصناعة اللحنية ٢ـ فنون الصناعة العملية أو الآلية ، أما القسم الأول فيشمل : الأصوات والنغم الطبيعي ومناسبات التأليف والاتفاقات وأجناس الإيقاع ومحاسن الألحان وما يتبعها أو يلزمها ، وأما القسم الثاني : فيشمل أنواع الرياضة العملية من أصناف الآلات . انظر : الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان ت (٣٣٩هـ) : الموسيقى الكبير ، تح : غطاس عبد الملك خشبة ، (القاهرة : دار الكاتب العربي ، د . ط ، ١٩٦٧م) ، مقدمة المحقق ص٢١-٢٣ .

(٢) الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر : مختار الصحاح ، تح : محمود خاطر ، (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون ، د . ط ، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م) ، ٣٠٥ .

(٣) الراغب : المفردات ، ٥٣٠ .

(٤) قاله الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، ٩٩٨/١ .

بالكفاية الذاتية للمصطلح إذا ما أطلقناه مع القرآن ، لنحاول تطبيقه في الآتي :

١ . العنصر الذاتي : يحقق معنى إيقاع النص في ذاته .

٢ . عنصر ملقي الخطاب : الذي يوقع في الخطاب ما به يكون مؤثرا في النفوس .

٣ . عنصر متلقي الخطاب ، حيث يشمل جانبين :

ـ التأثير : فكلمة إيقاع مشتقة من وقع ، يقال : وقع في نفسه .

ـ التوقع : وهو ما يعرف في نظرية التلقي المعاصر بـ(أفق الانتظار)[١] .

بهذا نلمس أن مصطلح الإيقاع يفي بالعناصر المكونة للخطاب والمتفاعلة معه ، فجمالية النص لا تقتصر على الجمالية الذاتية ، بل إنها تكتنز قيما يتوقعها المتلقي فيجدها فيه وهذا ـ بلا شك ـ لا يتوافر في مصطلح الموسيقى[٢] .

ومن هنا فإن الباحث يؤكد على ضرورة استخدام مصطلح الإيقاع في ثنايا الدراسة بدلا من الاصطلاح الشائع على ألسنة الكثير من الكتاب (موسيقى الألفاظ القرآنية) ، وأيا ما كانت التسمية وهذا الاختلاف في صحة إطلاق المصطلح في جناب القرآن الكريم ، فإنه ليس بمقدور أحد من البشر أن ينكر ما لهذا القرآن من خاصية الجذب ،

---

(١) تحدث عنه ياوث (Gaayss. H. R.) العالم الألماني وطوره في كتابه الذي كتبه باللغة الفرنسية بعنوان : « نحو نظرية في جمال التلقي » ، طبع في باريس (Gallimard) عام ١٩٧٧م ، وله كتاب آخر بعنوان : نحو نظرية في التأويل الأدبي .

(٢) يذكر أن لفظ الإيقاع من الألفاظ التي كثر ورودها في هذا المقام ، والذي يعنينا بالدرجة الأولى من استخدام هذا المصطلح هو المعنى النفسي أو الأثر النفسي ، إذ تتمثل الوظيفة الأساسية للإيقاع في : استنفاد الطاقة الشعورية . أقول : ولعل العلاقة بين أصل هذه الكلمة وبين أثرها النفسي تتمثل في أن الإيقاع هو ما يجعلنا نتوقعه فيما يأتي من الكلام أو الصوت ، إذ النفس تستريح للصوت المنظم وتتوقعه وتنتظره ، فإذا ما اختل النظم ولم يأت وفق ما تتوقعه النفس حصل نوعٌ من القلق في النفس ، وهذا أثر نفسي واضح ، وربما هذا هو الذي يعنيه سيد قطب بوظيفة الإيقاع حين قال : « استنفاد الطاقة الشعورية » ، قطب ، سيد : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، ص ٦٤ . ويطلق بعض الأدباء على بعض درجات التأثر النفسي لفظة الترقب ، حيث يرجعون الإيقاع إلى عاملين ، وهما : « التكرار والترقب » ، حيث إن الوجدان يسير وراء هذا التنغيم متتبعاً ذلك التنقل من حال إلى حال ، خاضعاً لما يرسمه الإيقاع من فترات . . كما أن الانتباه ينظم فتراته تبعاً للنظام الذي يسير عليه الإيقاع انظر : حسن ، عبد الحميد : الأصول الفنية للأدب ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٦٤م) ، ص ٢٨ـ٢٩ .

يذكر أن أعداء الإسلام وخصومه ممن يؤكدون حضور هذا المعيار الإيقاعي لألفاظ القرآن فضلاً عما يشهد به المسلمون أنفسهم ، والحق ما شهدت بها الأعداء ، وهو الذي يفسّر لنا احتفاءهم بهذا الموضوع في كثير من كتاباتهم ، وقد لوحظ تركيزهم على هذا الأمر في أكثر من رسالة علمية[١] .

اللغة والإيقاع والجوانب النفسية

شاع استخدام مصطلح الموسيقى عند الأدباء والشعراء ، ويعنون به لغة العواطف والوجدان[٢] ، إذ هي تؤثر في العواطف لما في نفحاتها وإيقاعها من جمال ، وما ينشأ عنها من أثر في النفوس ، ويرجع استخدام الأدباء لهذه اللفظة لما بين الأدب والموسيقى من قدر مشترك ، فالموسيقى « تستعمل أصواتا لا معنى لها كمادة أولية ، والأدب يستعمل أصواتا مليئة بالمعاني هي الألفاظ »[٣] .

ويتضح معنى الموسيقية في استخدام الأدباء أكثر لأن اللغة أداتها ، فتارة تظهر في مخارج الحروف ، وتارة في صفات الحروف ، وأخرى في نغماتها . . وغير ذلك من المعاني الموسيقية التي يبرزها هذا المبحث بإذن الله تعالى ، وهكذا نلحظ أن هذه الموسيقى تتمشى جنبا إلى جنب مع الجوانب النفسية ، « فمادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وهذا الانفعال بطبيعته هو السبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه . . وبما يهيىء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب

---

(١) انظر:
Marcin/ J. 1970. Regulative Principles in the Qûran Chant of Shaikh Abdul_Abdus basit_Pacholczyk /Samad .

ومن ذلك أيضا Arberry L: The Holy Quran. p 11-34 : . . حيث تحدث في المقدمة عن موسيقية القرآن ، وأطال الحديث عن ذلك ، ومن ذلك كتاب (نيلسون كريستينا) التالي الذكر حيث استعرضت الباحثة فيها تلك الجوانب الموسيقية في قراءة القرآن:
Faruqi: Th_Nelson/ K 1985. The Art of Recitating the Qur'an p:157. & Al Nature of the Musicsl art of Islam p 261-264 .

(٢) حسن : الأصول الفنية ، ص ٢٣ .

(٣) عتيق ، عبد العزيز : في النقد الأدبي ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ط ٢ ، ١٩٧٢م) ، ص ٥٤ . وانظر : الخالدي ، صلاح عبد الفتاح : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) ، ص ٩٤ .

ما في النفس من أصولها. . وما تحدثه العبارة من جَرْس في الأسماع لم يلبث أن يتعمق بالوجدان ويمتزج بالمشاعر والأحاسيس. . فيستجيب العقل والوجدان لداعيها ، ثم لم يلبث أن تصحبها مواقف نفسية متأثرة بها منفعلة لها. . والقرآن يخاطب النفوس البشرية ، ولكي يصل إلى هذه النفوس المختلفة في ميولها وأمزجتها ، فقد اعتمد على عنصر الصوت ـ الذي هو مظهر الانفعال النفسي »[١] .

وقد أشار قدماء الفلاسفة إلى أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق ، فيصفو له الدم ، وتنمو له النفس ، ويرتاح له القلب ، وتهتز له الجوارح ، وتخف له الحركات ، وقديما نقل على لسان أفلاطون : « لا ينبغي أن نمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا ، ألا ترى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان »[٢] .

وقد أدرك علماء اللغة العربية ما في لغتهم من الخصائص الإيقاعية وأشاروا إليها ، حيث يظهر ذلك من التقابل الصوتي ، كما يحصل من التوافق في الجرس ، فالعربية تتميز بزخامة إيقاعها إذ حروفها ـ على ما قيل ـ : « كاملة في مدرجها الصوتي ، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج ، متميزة المخرج والصفات. . »[٣] ، « ولو أنك حاولت نقل أي كلام عربي أو صفحة من كتاب إلى رموز موسيقية وأوزان لوجدته يتركب من وحدات تتشابه وتختلف وتتكرر وتتناظر ، ويتألف من مجموعها قطعة موسيقية ، ولعل هذا هو الذي دعا بعض المستشرقين أمثال « وليم مارسي » من القول بأن « التركيب العربي غني بالواقع الموسيقي »[٤] .

يعلل بعض الباحثين السرّ في غنى العربية بهذه الوقع الصوتي إلى تلك الأمية حين

---

(١) عبد التواب ، صلاح الدين محمد : الصورة الأدبية في القرآن الكريم ، (القاهرة : دار نوبار للطباعة ، ط ١ ، ١٩٩٥م) ، ص ٧٤ـ٨١ .

(٢) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، ٢/ ٣١٦ . وانظر : الأندلسي ، أحمد بن محمد ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تح : محمد سعيد العريان ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) ، ٣/ ١٧٧ .

(٣) المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ، ص٢٤ـ٢٥ .

(٤) انظر: أنيس : موسيقى الشعر : (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٦ ، ١٩٨٨م) ، ص ٢٣ وما بعدها .

كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين ، فحين اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص اللغوي ، اكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة[1] .

وهذا هو الذي حدا بالرافعي أن يبالغ فيعد موسيقى (إيقاع) القرآن هي التي تمثل إعجازه[2] ، والحديث عن القرآن بلا شك أكثر عمقاً ووضوحاً منه عن الكلام العربي عامة في هذا الجانب ، فيما يأتي سيكون الحديث عن مصادر الإيقاع القرآني وأدواره النفسية .

المبحث الأول
التناغم والتناسق القرآني إسهام في الأداء النفسي

ألفاظ القرآن الكريم بترابطها وتناغمها وانسجامها كفيلة بأن تنقل القارىء إلى الجو النفسي الذي قيلت فيه تلك الألفاظ على الرغم من تباعد الزمان واختلاف الظروف والأحوال ، ولا يشعر القارىء بفجوة نفسية ، بل إنه يشعر بأنه يعيش تلك الأجواء بالعواطف والانفعالات التي عاشها من عاصر الحدث ، هذا إلى جانب الانسجام الصوتي الذي ينبعث من الألفاظ وأثره النفسي فعلى حين نجده يبعث على السرور والارتياح والإعجاب تارة ، نجده يثير أحياناً أخرى أنغاماً مختلفة ، فالقرآن حين نسمعه متلواً نشعر أنه وحدة موسيقية متوازنة تطرب لها الآذان وترتاح لها النفوس ، والذي يسمع القرآن « إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً ونبرة نبرة »[3] .

يشارك في هذا الأداء تناسق تلك النسب التي تصحب الألفاظ مثل : نسب صفات الحروف ، وجرسها ، والحركات ، وجرس الألفاظ وظلها ، بحيث تكون نسبا منتظمة تخلق ذلك الجو البديع من الانسجام ، فأوزان الكلمات وأجراس الحروف هذا هو

---

(١) أنيس : موسيقى الشعر : ص ١٠ وما بعدها .

(٢) الرافعي ، مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، (القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ط ٧ ، ١٩٦١) ، ص ٢٤٤ . وتاريخ آداب العرب ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، د . ط . ت) ، ٢/ ٢٥٥ .

(٣) الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ٢/ ٢٢٢ .

الذي أحدث الصدمة النفسية ـ على حد تعبير الرافعي ـ لأولئك النفر الذين سمعوا القرآن أول مرة ، وراحوا يتخبطون في وصفه : « فلما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله ، ألحاناً لغوية رائعة ، كأنما لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هي توقيعها. . حتى إن من عارضه كمسيلمة جنح في خرافاته إلى حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن إلى الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها. . تسمع اللفظ القرآني فيجتمع لديك موسيقى الطبيعة ، وموسيقى النفس ، وموسيقى الحرف والكلمة والجملة »(١) ، كما يشارك في خاصية الموسيقى القرآنية كل من تناسق المعاني والنغمات ، والفكرة ، والجرس .

هذا التناسق الفني العجيب والإيقاع الرائع الذي تحويه ألفاظ القرآن تميل إليه كل أذن تسمعه ، ويزيد من طلب الآذان له كونه مرتلاً بأصوات حسنة ، ينتاب الجسد قشعريرة ، ويعتري الجلود لين ، وتشنف له الآذان ، وتخشع له القلوب ، حتى يتحرك اللسان معبراً عن هذا العجب مردداً مع العوام ـ الله الله ـ وليس في ذلك من تعليل إلا هذا التناسق الفني العجيب والإيقاع المتوازن الذي امتاز به نغم القرآن ، تلك المجانسة الصوتية التي تستريح لها النفس ، ويأتي هذا تمشيا والإيقاع ما لا يتمكن من فهمه عن طريق الشرح والتفصيل(٢) ، مع ما تميل إليه النفس الإنسانية من استعذاب الحديث المتوازن ، إذ قد يفهم الإنسان من النغم .

هذا التركيز على التجانس الصوتي في أسلوب القرآن أمر مقصود إلى جانب التجانس التركيبي ، لكن مع كل هذا لم يأت هذا التجانس جافياً أو متكلفا ، بل جاء على أوفق ما تميل إليه النفس ، مع التأكيد أنه ليس هو المقصود الأول من الكلام(٣) .

---

(١) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٤٣ ، وانظر : تاريخ آداب العرب ، ٢/ ٢٢٤ـ٢٢٥ .

(٢) فالكلام المنسجم يستمتع به الصغار والكبار ، حيث يعزو بعض رجال علم النفس الموسيقى هذه الظاهرة إلى أن الطفل جزء من نظام الكون العام الذي تبدو كل مظاهره الطبيعية منتظمة منسجمة. . كما أن الكلام المنسجم المنتظم أقل عبئاً على الذاكرة السمعية وأيسر في إعادته وترديده ، انظر : أنيس : موسيقى الشعر ، ص ٩ .

(٣) كما ذهب إليه صاحب الفن القصصي في القرآن حين أشار إلى أن القرآن يجعل الإحساس في=

إن مما لا شك فيه أن هذا الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فهو يخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية ، كما نجده يعرض الغرض الديني من الحدث عن طريق الجمال الفني الذي يجعل ورودها إلى النفس أيسر ، ووقعها في الوجدان أعمق وأولى(١) .

كما أن وجود هذا التلاؤم والانسجام في التعبير القرآني طريق إلى ربط النفوس وجعلها مشدودة إلى المقصود من الكلام ، إذ من شأن الكلام الموزون أن يحدث أثرا في جعل النفس مشدودة إلى الحديث وتوجد لديه رغبة في التفكير فيه ، وقد أدرك أعداء الإسلام هذا الجانب ، وكانت محاولاتهم للكتابة في هذا الميدان من المراحل المبكرة في ميدان الاستشراق ، يصف « بيار كرابون دوكابرونا »(٢) السور القرآنية من حيث بنيتها الموسيقية بأنها « نظام إيقاعي خاص ، حيث رأى أن بعض السور ، خاصة المكية تقوم على الترنيم (Intonation) ، وأن بعضها يقوم على مؤلفات موسيقية غير معهودة » ، كما يشير أدونيس(٣) إلى « أن البنية العميقة في الموسيقى القرآنية لا تكمن في التأليف بين حروف اللفظ المفرد وتناغمه وحسب ، بل تتمثل البنية الداخلية العميقة للنص القرآني في موسيقى لغته ، فالنص القرآني « نغم » ، كما سبق أن أشير إلى جهود المستشرق (Arberry) في ترجمته للقرآن حين خصص فصلا كاملا للحديث عن موسيقية القرآن(٤) .

= اختياره للمواد الأدبية من صور ألفاظ القدرة على التأثير ، وكان أن بنى عليه تلك النتيجة التي أثارت حفيظة العلماء وهي أنه ليس بالضرورة أن تكون الأحداث التاريخية التي يتحدث عنها القرآن أحداث واقعية . خلف الله ، محمد أحمد : الفن القصصي في القرآن ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٥م) ، ص ٢٥٢-٢٥٣ ، وص ٢٦٠

(١) عامر ، فتحي أحمد : بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ، (الإسكندرية : دار المعارف ، د . ط ، ١٩٨٠م) ، ص ٣٨٩ .

(٢) أحد المستشرقين الفرنسيين . في كتابه:
Pierre Cropon de Caprona Le Coran Aux Sources de la parole Oraculaire. Paris

(٣) هو : علي أحمد سعيد ، نال الدكتوراه في الأدب العربي ، غيّر اسمه إلى أدونيس وهو اسم لآلهة الفنيقيين ، أحد أكبر الذين دعوا إلى الحداثة خاصة في الشعر العربي ، انظر : أدونيس ، علي أحمد سعيد : النص القرآني وآفاق الكتابة ، (بيروت : دار الآداب ، د . ط ، ١٩٩٣م) ، ص ٢٤ .

(٤) انظر : Arberry. The Holy Quran و Marcin 1970. Regulative Principles in the Quran
=

هذا التناسق الذي نلمسه في التعبير القرآني ليس فقط في حروفه ، بل في كلماته وجمله وفي إحكام السبك والنسق ، وفي متانة الأجزاء ، جمعت إلى حسن التوزيع ، دقة الترتيب ، وسلامة الإخراج عند النطق ، إلى أي شيء يرجع هذا التلاؤم[١] والانسجام في اللفظ القرآني ؟

القاضي الباقلاني كان ممن تحدث عن هذا الجانب ، فقد أرجع علو التلاؤم في أسلوب القرآن إلى : « التعديل بين الحروف ، وذلك بأن تكون الحروف متلاقية في النطق ، إذ ليس فيها تباعد المخارج شديداً بحيث يصعب الانتقال من مخرج إلى مخرج ، ولا التقارب الشديد الذي يجعل بعض الحروف يدغم في بعض . . وهذا التلاؤم في ألفاظ القرآن ليس مقتصراً على المخارج فحسب ، بل هو موجود في نغم الألفاظ وجرس القول ، إذ لا نجد حرفاً ينشز في موسيقاه عن أخيه ، ولا الكلمة عن أختها ، ولا الجملة عن لاحقتها »[٢] .

معروف أن بنية الكلمات التي تتشكل منها آيات القرآن هي الحروف ـ كما هو الشأن في أي كلام ـ إلا أنك تجد موقع الحروف في القرآن لدى سامعها كموقع الألوان المتناسقة لدى مبصرها ، فقد جمعت هذه الحروف بين رصف التعبير وجمال الترتيب والانسجام[٣] . وهنا يجد الباحث نفسه ملزماً بأن يشير إلى جهود الرافعي التي نجدها مبثوثة في كتبه حول هذه الفكرة والتي بمجموعها شكلت نظرية يطلق عليها « نظرية

= ومن ذلك أيضا / Nelson/ The Art of Recitating the Qur'an p 157, 85 ، حيث استعرضت الباحثة فيها تلك الجوانب الموسيقية في قراءة القرآن ، انظر : ص ١٥٧ وما بعدها .

(١) يشار هنا إلى أن أول من أشار إليه من المتقدمين : الجاحظ ، ثم الرماني يعدّه أحد وجوه الإعجاز القرآني ، كما يشير إليه القاضي عبد الجبار بقوله : « وتآخي النغم في الألفاظ والحروف هو من حلاوة الكلام ومحاسنه » ، وأشهر من فصّل الكلام في هذا الجانب على أنه من الإعجاز من المحدثين هو الرافعي وأكد على أنه وجه من وجوه الإعجاز ، على أنه لا بد من التنويه إلى أن أكثر من ألمح إلى هذا الجانب من الناحية التطبيقية والعملية هو سيد قطب .

(٢) انظر : الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٨٧ .

(٣) انظر : أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ١٤٢ وما بعدها بتصرف .

المناسبة » ، والجدير بالذكر أنه لم يعن بها أحد قبله ، وهي تعد أحد أسرار النظام اللغوي ، فالنظم الإيقاعي في القرآن يشترك فيه « ترتيب حروفه باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها ، ومناسبته بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشي والتكرير »(١) .

ولعل من أسباب التلاؤم ، تلك المناسبة بين الألفاظ ومدلولاتها ، أي البحث في العلاقة بين الأصوات ومدلولاتها ، هذا التلاؤم والانسجام يشد النفس إلى معانيه ، وهو ليس موجوداً بين حروف الكلمات فحسب ، بل هو موجود في الجمل ، بديع التأليف لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر وقصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف(٢) ، والرماني لا يرى أن الإحساس بجمال التلاؤم اللفظي يتحقق بمجرد الإحساس بالتلاؤم « بمنأى عن حسن البيان بل لا بد وأن ينضاف إليه حسن البيان في صحة البرهان »(٣) ، فالتلاؤم أحد الأسباب التي تؤثر في تالي القرآن الكريم من جهة ، كما أنه أحد مظاهر هذا الإيقاع القرآني من جهة أخرى .

وخلاصة الأمر أن البلاغيين قبل الرافعي قد تعرضوا للحديث عن أحوال الحروف وصفاتها ، إلا أن الرافعي تجلت براعته وتألقت مهارته عند تعرضه لبيان صفات الحروف وفلسفة الصوتيات مبينا أثر الحروف في البلاغة القرآنية في هذا الانسجام الناشىء عن وضع كل حرف في مكانه المناسب ، وتلك الموسيقى التي يهتز لها غير العربي ويدرك من خلالها علوّ الأسلوب القرآني ، وهو الذي كان وراء سهولة حفظه

---

(١) انظر : الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ٥/ ٢٢٥ .

(٢) الباقلاني : إعجاز القرآن ، ص ٥٤ . قال الرماني : « والمتلائم في الطبقة العليا « القرآن كله » ، وذلك بيّن لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتلائم والمتنافر في الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض. . والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة. . والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد . وذلك يظهر بسهولة على اللسان وحسنه في الأسماع وتقبله في الطباع » ، الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٨٨ .

(٣) الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٨٧ـ٨٨ .

بالنسبة للصبية والعوام ، لا يملون سماعه ولا يسأمون من ترداده[١] ، إضافة لذلك فإنا نجد الرافعي قد كتب عن الانسجام بين الكلمات وحروفها ، فمن وجوه انسجام الكلم القرآني ـ عند الرافعي ـ : استقرار هذه الكلمات في أماكنها ، وعدم الاضطراب في حروفها ، فلا توجد كلمة واحدة قلقلة أو نافرة ، ولا يوجد حرف قد أزيل عن موضعه ، أو يصلح غيره ليحل محله[٢] ، يذكّرنا هذا بفطنة مفسرينا القدماء حين قال بعضهم عن القرآن : « لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد »[٣] .

كما نجد الرافعي تارة يشير إلى ألفاظ القرآن « وأنها كيفما أدرتها وكيفما تأملتها ، ومن أي جهة وافقتها فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة والانسجام العذب ، وتراها تتسابق إلى نهاية واحدة ، تختلف ولا تراها إلا متفقة ، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة وتذهب في طبقات البيان ، ومنازل البلاغة ، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلك بالطرب وتنزع من نفسك حسن الاختلاف الذي طالما وقفت عليه. . »[٤] ، ونجده تارة يتحدث عن روح التركيب التي جعلت القرآن كأنه جملة واحدة ، وهذا الذي يكمن فيه الإعجاز ، وأقول إنه السر الذي يكمن وراء التأثير ، ويبين سرَّ ذلك قائلا : « ذلك أنك حين تنظر في تركيبه لا ترى ـ كيفما أخذت عينك منه ـ إلا وصفاً غريباً في تأليف الكلمات ، وفي مساق العبارة ، بما يقطع أن هذا الوضع وهذا التركيب ليس في طبع الإنسان ، ولا يمكن أن يتهيأ له. . بل إنك لتجد إلى جانب غرابة الألفاظ القرآنية في تركيبها غرابة المعاني الإلهية التي ضمنتها تلك الألفاظ ، وهذا شيء يحس به الطبع الإنساني ، ويعتريه الروعة ما يعتري من الفرق بين شيء إلهي وشيء إنساني »[٥] .

---

(١) فريد ، فتحي عبد القادر : بلاغة القرآن في أدب الرافعي ، (القاهرة : دار المنار ، د . ط ، ١٩٨٥م) ، ص ٢٥ .

(٢) فريد : بلاغة القرآن في أدب الرافعي ، ص ٢١٤ .

(٣) قاله ابن عطية ، صاحب التفسير المعروف : المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز ، نقله عنه السيوطي ، انظر : الإتقان ، ٢/ ١٢٠ ، وانظر : الزرقاني : مناهل العرفان ، ٢/ ٢٣٤ .

(٤) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٤١ـ٢٤٢ وانظر : بركه ، عبد الغني محمد سعد : الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره ، (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٩٨٩م) ، ص ٢٥٢ .

(٥) للمزيد انظر : بركة : الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره ، ص ٢٥٤ .

مثل هذا الذي أشار إليه الرافعي هو الذي يعتري سامعه من شعور فهو كلام فوق كلام البشر ، وبهذا ندرك أن الرافعي هو الذي تابع جهود السابقين وفصّل القول في هذا الانسجام الصوتي والتوافق العجيب بين نظمه ومعانيه وعدم تفاوتها في البلاغة ، « على ما به من تنوع في الأغراض والمعاني حتى كأنه قد أفرغ في قالب واحد لا تفاوت فيه ولا يمكن أن يبدل حرف واحد منه بما يقوم بدوره في المعنى أو انسجام النغم أو الإيحاء بما يناسب المقام »[١] ، أخيراً لا بد من الإشارة إلى أن الرافعي كتب تحت الطريقة النفسية في الطريقة اللسانية ما يشير إلى « أن القرآن الكريم جعل من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية ، وأدار المعاني على سنن ووجوه تجعل الألفاظ كأنها مذهب هذه المعاني في النفس[٢] .

المبحث الثاني

النبر والتنغيم دورهما في الأداء الصوتي للقرآن وأثرهما النفسي

من المعروف أن للكلام أغراضاً متعددة يتعدد في ضوئها طرق الأداء للجمل والعبارات ، وقد تقدمت الإشارة إلى لفظتي : « النبر » (Accent) أو(Stress) و« التنغيم » (Intonation) ، وهما عمليتان معروفتان عند علماء الأصوات ، ولهما دور كبير في الوقوف على المعاني ، إذ هما من الحديث بمثابة علامات الترقيم من الكلام المكتوب عونا للمستمع في فهم المراد ، كما أن علامات الترقيم تعتبر عونا للقارىء في الوقوف على المعنى المراد ، فالأداء الصوتي للاستفهام يختلف عن الأداء الصوتي للتعبير عن التعجب ، وهما للتعبير عن الأداء الصوتي غير التعبير عن النداء ، وكذا الأمر بالنسبة لبقية أغراض الكلام من دعاء وثناء ، ونقل أخبار ، وغير ذلك[٣] .

---

(١) بركة : الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره ، ص ٢٦١ .

(٢) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٦٢ .
يذكر هنا أن الرافعي يقسّم الأصوات إلى ثلاثة أقسام : ١ـ صوت النفس : « كموسيقى ونغم الحروف » ٢ـ صوت العقل(معنوي) ٣ـ صوت الحس (دقة التصوير المعنوي) ، وكلها متوفرة في القرآن .

(٣) النبر (Stress) و(Accent) يذكر أن النبر ثلاثة أنواع: نبرة الكلمة ، نبرة الجملة ، النبرة التقابلية، والنبر في السياق يختلف عن النبر في الأفراد حيث تحكمه مطالب الإيقاع في السياق المتصل . =

الذين تحدثوا عن النبر كانت أمثلتهم ـ في الغالب ـ من غير اللغة العربية[1] ، إلاّ أنه كان حريّاً أن يضربوا أمثلتهم من العربية على أن اختلاف النبر يؤدي إلى اختلاف المعنى ، يمثّل بعضهم بكلمة : (نعم) : حيث يستخدمها المرء فتكون تارة : جوابا لسؤال ، وتارة : استفهاما ، وتارة : تعجبا ، في حين تكون بمعنى : أنا مستمع

---

(١) كما تحدث علماء الصوتيات عن دور التنغيم في العربية ، وأشاروا إلى أن له وظائف نحوية ، وذلك أن النغم له دوره في التفريق بين أسلوب وآخر من أساليب التركيب ، والباحث يحيل في هذا المجال إلى كلام أحد المعاصرين ممن فصّل القول في ذلك ، لما لهذا الكلام من حاجة في التفريق بين أنواع النغمات ، حيث أشار بداية إلى ضرورة تحديد مصطلحات عدة متعلقة بالنغم ، على النحو الآتي :
١ـ شكل النغم : إما صاعد ، وإما هابط ، وإما ثابت ٢ـ المدى : المسافة بين أعلى نغمة وأخفضها سعة وضيقاً ٣ـ اللحن : هو مجموع النغمات في المجموعة الكلامية على الصعيد الأفقي ٤ـ الميزان : هو النموذج التنغيمي الذي يشمل المدى واللحن ، كما قام بتقسيم المدى إلى ثلاثة أقسام :
١ـ المدى الإيجابي : هو الذي تصحبه إثارة قوية في الوترين الصوتيين ونشاط في حركة الحجاب الحاجز وإخراج لكمية زائدة من الهواء (يستعمل في الكلام الذي تصحبه عاطفة مثيرة) .
٢ـ المدى السلبي : لا يرافقه النشاط ، ويستعمل في الحزن وما أشبهه من عاطفة هابطة .
٣ـ المدى النسبي المتوسط : يتوسط المَدين السابقين ، ويستعمل في الكلام غير العاطفي .
أما الموازين فقد حددها تمام حسّان بـ (ستة) موازين للتنغيم في العربية ، على النحو الآتي :
١ـ الإيجابي الهابط : ويستعمل في تأكيد الإثبات وتأكيد الاستفهام ، وأدواته : (كيف ، أين ، متى . . .) وبقية الأدوات عدا الهمزة وهل .
٢ـ الإيجابي الصاعد : يستعمل في تأكيد الاستفهام بـ (هل والهمزة) .
٣ـ النسبي الهابط : يستعمل في الإثبات غير المؤكد ، كالكلام الجاري في التحية والنداء وتفصيل المعدودات .
٤ـ النسبي الصاعد : يستعمل في الاستفهام بلا أداة أو بـ (هل والهمزة) .
٥ـ السلبي الهابط : يستعمل في الكلام الجاري في الأسف والتحسر والتسليم مع خفض الصوت ، أقول ومثاله قوله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ، سورة غافر ، الآية ٤٤ .
٦ـ السلبي الصاعد : يستعمل في التمني والعتاب مع نغمة ثابتة أعلى مما قبلها » ، حسان ، تمام : مناهج البحث في اللغة ، (الدار البيضاء : دار الثقافة ، د . ط ، ١٩٧٩م) ، ص ١٩٨ـ٢٠٠ .

منصت ، وأحيانا بمعنى : احتمال أو من الممكن ، أو نعم (بكل تأكيد)[١] .

أما الحديث عن دور النبر في أداء المعنى القرآني فهو الذي يهمنا في هذا المبحث ، إذ يرجع كثير من الكتّاب السر في عدم التفاعل مع آيات القرآن إلى عدم الالتفات إلى هذا الأمر ، فأسلوب الأداء الرتيب الممل الذي نسمعه من بعض الناس يقرؤون السورة من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح . . ، نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتتسطح فيها العبارات[٢] .

ولهذا فإن من معاني الترتيل المطلوب أداؤه هو مراعاة أغراض الكلام الذي في ضوئه تتفاوت نبرات الصوت انخفاضاً وارتفاعاً وتغيراً في سياق الكلام ، إذ لا يمكن إعطاء الترتيل حقه ذلك أن هذا التنغيم الحاصل من ارتفاع الصوت وانخفاضه ينتقل بالأذهان إلى المعاني المرادة من الكلام ، ويكون له دور كبير في التوازن الصوتي للآذان ، إذ الطبيعة الإنسانية تأنف الكلام الذي يكون على وتيرة واحدة ونبرة ثابتة مستقرة ، فهي مجبولة على حب التنوع ، واختلاف النبر هذا عدا أنه يعطي لونا متوازناً من الإيقاع الصوتي تترنم به الآذان ، فهو ـ في الوقت نفسه ـ يشد نفس القارىء والسامع معاً للحديث ، وينبه الأذهان إلى المراد ، وبالتالي فإنه يترك أثراً في نفس المستمع والقارىء ـ على حد سواء ـ يمكن أن يوصف بأنه « الراحة النفسية » .

هذه صفة بارزة في كل آية من كتاب الله ، فما من آية إلا ونجدها حوت أكثر من غرض في الحديث ، فإن أتقن الترتيل كانت النفس مشدودة إلى سماعه ، متأملة في معانيه ، فكم هو مهم وضروري لقارىء القرآن أن يكون ملماً بطريقة الأداء الصوتي (Sound changE) ، فهي فنٌ لا يجيده إلا من كان عالماً باللغة فاهماً مدركاً للمعاني ، خبيراً بمواقف ومواطن الوقف والابتداء عالماً بالقراءة وأصولها ، وما أحوجنا إلى هذا الصنف من القرّاء! إذ بعض من نسمع لهم ممن جمعوا هذه الصفات يوصلون إلى أذهان السامعين معاني الآيات ويفسّرونها بمجرد الأداء المتقن فتكون قراءتهم بمثابة القيام

---

(١) انظر مثلا : مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ، (القاهرة : عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٩٨١م) ، ص ١٨٨ .

(٢) محمود ، مصطفى : القرآن محاولة لفهم عصري ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٧ ، د . ت) ، ص ١٣ .

بتفسير الآيات ، وكم من آيات نمرّ عليها ونقرؤها مئات المرات ولا ندرك من معانيها مثل ما ندركه حين نسمعها من متقن عارف بتلك المواضع وفقيه بطريقة الأداء ، وليسمح القارىء للباحث بأن يضرب مثلا لذلك بما حدث معه ، ربما يبدو ساذجاً فقد حدث في وقت الطفولة : « اعتدت منذ الصغر على قراءة الآية التالية : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1] ، هكذا مقطعاً واحداً بلا توقف. . . حتى سمعتها ذات يوم من قارىء يقف عند لفظ الجلالة من قوله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ ، ويبتدىء بما بعده : ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ، فأضافت لي معنى جديداً لم أكن أعرفه من قبل ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] ، على صيغة الاستفهام في قوله : ﴿ تَمُنُّهَا عَلَىَّ ﴾ ؟ ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[3] ، هكذا مقطعاً واحداً حتى سمعتها مرة من متقن للقراءة يقف عند قوله : ﴿ إِلَيْكُمَا ۚ ﴾ ، ثم يستأنف بقوله : ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ ، فأضافت إلي معنى جديداً .

ومثل ذلك من الآيات كثير لم أفقه معانيها إلا بعد سماعها من متقن لقراءة القرآن ، وأنا على يقين من أن تجارب مماثلة تمرّ بالقارىء ربما يستحضرها لحظة القراءة ، وهذا يؤكد الدور الذي يتركه الأداء الصوتي المطلوب أثناء التلاوة ، أو ما يمكن أن نطلق عليه : (التنغيم Intonation) الذي يمكن القول عنه بأنه « موسيقى الكلام »[4] (Musical Sound) أو يمكن أن يقال عنه « الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق »[5] ، فهذا التنغيم يعتمده المتحدث في حديثه مع الآخرين وهو معروف لدى جميع اللغات ، إذ يحتاج إليه كل إنسان يتحدث مع الآخرين ولولاه لما استطاع المرء الوقوف على مراد المتكلم ، هذا النبر هو الذي يترجم لنا المواقف الانفعالية التي

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢٢ .
(٣) سورة القصص ، الآية ٣٥ .
(٤) أنيس : الأصوات اللغوية ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٤ ، ١٩٨٤م) ، ص ١٧٥ .
(٥) حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٣ ، ١٩٨٥م) ، ص ٢٢٦ .

تنطوي عليها نفسه ، فقد قيل في تعريفه : « ارتفاع الصوت وانخفاضه مراعاة للظروف المؤدى فيها »[١] .

وبهذا يمكن إدراك الدور الذي يؤديه هذا الأداء الصوتي ، إذ لكل مقام مقال ، وعليه يمكننا أن نفهم الوظيفة الدلالية لهذا الأداء وهي : « التفريق بين المعاني أولاً ، ثم إبراز المعاني النفسية ثانياً ، إذ الكلمة تنطق بقالب نغمي معين فيكون لها معنى ، وإذا ما تم نطقها بقالب نغمي آخر كان لها معنىً آخر ، وهذا هو النظام الشائع في اللغات النغمية »[٢] ، يشار إلى أن علماء اللِّسانيات يذكرون أنواعاً للنغم[٣] .

أما القيمة الصوتية لهذا الأداء فمنشؤها : التغير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين « نتيجة هذا الارتفاع والانخفاض في الصوت حيث تحدث هذه الحركات « نغمة موسيقية » ، وعليه فالتنغيم يدل على العنصر الموسيقي في الكلام »[٤] .

وقد كان لعلماء المسلمين اهتمام بالتنغيم في جانب القرآن الكريم ، ويدل على

---

(١) انظر : الفيومي ، أحمد عبد التواب : أبحاث في علم أصوات اللغة العربية ، (مصر : دار السعادة ، ط ١ ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م) ، ص ١٨٦ وما بعدها ، كما عرّفه بعضهم بأنه : « عبارة عن جملة من العادات الأدائية المناسبة للمواقف المختلفة من تعجب وسخرية واستفهام وتأكيد وتحذير وغير ذلك من المواقف الانفعالية » ، برتيل مالميرج : علم الأصوات ، تعريب : عبد الصبور شاهين ، (القاهرة : مكتبة الشباب ، د . ط ، ت) ، ص ٢٠٩ .

(٢) الغريب ، أحمد أبو اليزيد علي : التنغيم في إطار النظام النحوي ، (السعودية : مجلة جامعة أم القرى ، س ١٠ ، ع ١٤ ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) ، ص ٢٨٦ .

(٣) ـ النغمة المستوية ، إذا كانت ثابتة ورمزها في الكتابة التنغيمية (   )
ـ النغمة الصاعدة ، إذا اتجهت صعداً ورمزها هو (   )
ـ النغمة الهابطة ، إذا اتجهت نزولاً (   )
ـ الصاعدة الهابطة ، إذا صعدت ثم هبطت ورمزها (( ) الهابطة الصاعدة ، إذا هبطت ثم صعدت ورمزها (   ) .
يقول علماء اللسانيات : « إذا نظرنا إلى النغمة من حيث الثبات أو التغير في صعودها وهبوطها فلها الأنواع السابقة ، فالنغمة (Tone)، هي الأثر الناتج من ازدياد عدد الذبذبات أو انخفاضها على صعيد الكلمة ، أما التنغيم (Intonation) ، فهو اجتماع نغمات ضمن مجموعة من الكلمات على صعيد الجملة ، انظر : قدور : مبادىء اللسانيات ، ص ١٢٠ .

(٤) انظر : الغريب : التنغيم في إطار النظام النحوي ، مجلة جامعة أم القرى ، ص ٢٨٧ .

ذلك وجود بعض المصنفات التي تتعلق بهذا »[1] ، كما يدل عليه إشارات الذين تحدثوا عن التجويد وقواعده ، كمقولة ابن الجزري : « ولقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن صوت ، ولا معرفة بالألحان ، إلاّ أنه كان جيد الأداء قيما باللفظ ، فكان إذا قرأ أطرب السامع ، وأخذ من القلوب بالمجامع ، وكان الخلق يزدحمون عليه ، ويجتمعون على الاستماع إليه »[2] .

كما نجد أن علماء اللغة[3] قد أشاروا إلى أهمية هذا التنغيم مبينين دوره في الكلام ، إذ يمكن به أن يستغنى عن الصفة ، وأحياناً عن أدوات التعجب وأدوات الاستفهام ، فيكون الاعتماد أولاً وآخراً على طريقة الكلام ، كما أشار علماء اللغة إلى أهمية التنغيم ودوره الإيقاعي ، حيث قالوا بتنوع وتعدد معاني الجمل ما بين إثبات ونفي ، وتأكيد ، وتعجب ، واستفهام. . . تتنوع وتعدد القوالب التنغيمية والأدائية ، إذ لكل جملة من هذه الجمل قالب تنغيمي ونمط أدائي خاص لا تشاركها جملة أخرى فيه ، وهذا النمط يجب اتباعه ومراعاته في النطق بكل جملة وإلاّ عُدّ المتكلم لاحناً ، وكان شأنه شأن من رفع المفعول ونصب الفاعل ، فالخروج بالجملة عن قالبها التنغيمي كالخروج على قواعد النحو ، ومن هنا فالتنغيم يمثل خاصية من خصائص هذه اللغة العربية وسمة من سماتها ومسلكاً من مسالكها[4] .

والعرب كانوا يعتمدون على الأداء في إفادة المعنى وإبانة الغرض ، وقد فطن لهذا ابن جني في شرحه على تصريف أبي عثمان المازني حيث قال : « أهل هذه اللغة قد يصلون إلى إبانة أغراضهم بما يصحبونه في الكلام فيما تقدم مثله أو يتأخر بعده وبما تدل عليه الحال فإن لها في إفادة المعنى تأثيراً كبيراً »[5] ، ومن طريف ما روي من

---

(١) مثل كتاب : « قراءة القرآن على طريقة المخاطبة/ أبو عبد الله الأصفهاني ت (٢٤٢هـ) .

(٢) ابن الجزري ، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي ت (٨٣٣هـ) : النشر في القراءات العشر ، تصحيح ومراجعة : علي محمد الضباع ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط . ت) ، ١/ ٢١٢ .

(٣) ابن جني : الخصائص ، ٢/ ٣٧٠ـ٣٧١ ، كما نجد إشارات في كلام سيبويه والأشموني وغيرهم .

(٤) الفيومي ، أحمد : أبحاث في علم أصوات اللغة العربية ، ص ١٨٦ .

(٥) ابن جني : المنصف لشرح التصريف ، ١/ ٢ـ٤ و١٥٤ .

الحوادث التي تؤكد دور التنغيم هذا في الوقوف على المعنى ما روي[1] ، أن : « اليزيدي سأل الكسائي بحضرة الرشيد ، فقال : انظر! في الشعر عيب ؟ وأنشده :

لا يكـــون العيـــر مهـــراً　　لا يكـــون المهـــرُ مهـــرُ

فقال الكسائي : قد أقوى الشاعر ، فقال له اليزيدي : انظر فيه . فقال : أقوى ، لا بد أن ينصب المهر الثاني على أنه خبر كان ، فضرب اليزيدي بقلنسوته على الأرض ، وقال : أنا أبو محمد : الشعر صواب ، إنما ابتدأ فقال : المهر المهر ، فقال له : يحيي بن خالد : أتتكنى بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك ، والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك ، فقال : لذة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن إليك » . فانظر هذه الحادثة تجد أن التنغيم وحده هو الحكم ، وهو الفيصل في الوقوف على صواب المعنى ، فحمل الوقوف على « لا يكون » . أما الابتداء فبلفظ « المهر مهر » .

تبين بهذا أن المتكلم يمكنه بهذا النبر أن يجسّد معانيه النفسية التي يريد إيصالها إلى غيره فيلجأ إلى تكثيف الصوت على الكلمة التي هي موضع إسقاط الصوت ، وقد يصبح النبر نداءً نفسياً يجمل كل معاني الكلام[2] ، ويحسب الباحث بعد هذا أن الأمثلة تجلّي الأمر وتقف بالقارىء على أهمية ودور هذا التنغيم في الأداء الإيقاعي ، وبالتالي الوقوف على صواب المعاني .

أمثلة ونماذج قرآنية يبرز فيها دور التنغيم

فيما يخص الاستفهام : قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[3] ، في هذه الآية واضح تماماً أن النبر له دور كبير في بيان المعنى ، إذ لا بد من قارىء الآية الكريمة أن يخرج صوته على صيغة الاستفهام وأن يكون وقوفه على رأس كلمة : ﴿ فَاسِقًاۚ﴾ ، ثم يبتدىء بقوله : ﴿ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ ، والقراءة بغير هذا لا تقف

(١) انظر : الأصفهاني ، أبو الفرج : الأغاني ، تح : سمير جابر ، (بيروت ، دار الفكر ، ط ٢ ، د . ت) ، ٢٠/٢٤٢ .

(٢) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٤٢٧ .

(٣) سورة السجدة ، الآية ١٨ .

بالمستمع على المعنى كما لو قرأ بالوجه الذي أشير إليه آنفاً . وهنا يلاحظ ارتفاع الصوت وانخفاضه الذي يؤدي وظيفة التعجب والإنكار المستفادة من الاستفهام ، ويأتي قوله : ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ بمثابة الجواب السريع .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾(١) ، ومثلها قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٢) .

انظر كيف يكون الصوت إلى ما قبل الاستفهام ﴿مَنْ﴾ ثم كيف أنه لا بد من ارتفاع الصوت وتغير النغم الذي يشعر بالاستفهام ، وغير ذلك كثير(٣) .

وهناك مجموعة من الآيات ذكر فيها استفهام(٤) ، ولعل في الآيات التي حذفت منها أدوات الاستفهام ما يكون أقوى دلالة على أهمية النغم ، إذ النغم وحده هو الحكم ، حيث يطلق عليه : نبر انفعالي(Emotional Stress) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٥) ، كأنما قال : « أوتلك نعمة ؟ »(٦) .

ومنه قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة القصص ، الآيتان ٧١ـ٧٢ .

(٣) من ذلك قوله تعالى : ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ ، سورة الأنعام ، الآية ٨٩ ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ، سورة الإسراء ، الآية ٨ ، وقوله تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ، سورة الزمر ، الآية ٤٣ .

(٤) كقوله تعالى : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٦ ، وقوله تعالى : ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ، سورة الأعراف ، الآية ٥٣ ، وقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ، سورة إبراهيم ، الآية ٤٤ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية ٢٢ .

(٦) قال به الأخفش الأوسط ت (٢١٠هـ) وأيده ابن مالك فيما ذهب إليه . انظر : إستيتيه ، سمير شريف : الشرط والاستفهام في الأساليب العربية ، (دبي : دار القلم ، ط ١ ، ١٤١٦هـ ـ١٩٩٥م) ، ص ٩٩ .

طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾[1] أي أمثل الجنة التي وعد المتقون . . كمن هو خالد ؟ وهذا المعنى لا يتأتى إلاّ بالنغم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2] ، حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الجملة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ ﴾ ، هي استفهامية ، وتقدير الكلام : أتبتغي ؟ ، ولا يخفى ما للتنغيم من دور في فهمه[3] ، ومثل ذلك قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾[4] ، على صيغة الاستفهام .

وخلاصة ما يريده الباحث أن النغمة وحدها في بعض المواقع هي التي تكون الحكم ، وهي التي تطلعنا على المعنى إن كان استفهاماً أو شرطاً أو شيئاً محذوفاً أو غير ذلك .

والنغم تارة يكون نغماً أفقياً وهو النغم الذي يتبعه سكتة خفيفة ، وهنالك نغم هابط ، وهو الذي يدل على انتهاء الكلام .

ومن باب التنغيم : النداء ، كما في الآية : ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ ﴾[5] ، فكم هو دور النغم في الآية ليعطي المعنى ؟ إذ المقطع الأول خطاب لرجل والثاني لامرأة ، فالنغم وحده هو الذي يفصل بين الخطابين ، وانظر كيف خلا المقطع الأول من أداة النداء والذي يدل عليه فقط هو النغم .

يذكر هنا أن إطالة النطق بالأصوات في باب الندبة هو من التنغيم ـ أيضا ـ وهو ما أشار إليه ابن جني حيث قال ممثلاً بقوله : ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ . . ﴾ ، من قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ . . ﴾[6] : « إنما هو لإعلام السامع

---

(١) سورة محمد ، الآية ١٥ .

(٢) سورة التحريم ، الآية ١ .

(٣) البحر المحيط ، ٨/ ٢٩٠ ، وانظر : الغريب : التنغيم في إطار النظام النحوي ، مجلة جامعة أم القرى ، ص ٣٠٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٧٦ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ٢٩ .

(٦) سورة يوسف ، الآية ٨٤ .

وإيقافه على مدى التفجع والتحسر على المندوب »[1] . كما يعدّ من باب التنغيم : الإطالة في باب الإنكار لغرض الاستنكار والتعجب ، من ذلك قول قوم إبراهيم لإبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾[2] ، فالهمز يقرأ عند بعض القراء بالمد[3] .

هنالك الكثير من الشواهد التي يتغير المعنى فيها لمجرد عدم مراعاة النغم الصحيح الذي يناسب الكلمة ويبرز فيها دور النبر في أداء المعنى غير ما تقدم ، على سبيل المثال :

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[4] ، انظر كيف يمكن للنبر أن يغيِّر المعنى من كون لفظة الحق مصدرا إلى كونها فعل أمر من اللحاق : « وقل ءالحق » .

وقوله تعالى : ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾[5] ، لا يفهم المعنى إلاّ إذا كان النطق معبِّرا عن صيغة الاستفهام ، وعليه فالنبر يكون متغيراً ، ولا يستقيم بحال أن ينطق بالعبارة كما تنطق الجملة الخبرية ، وكذا الأمر بالنسبة لبقية مواضع الاستفهام ، وبقية أغراض الكلام إذ لا بد من مراعاتها .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت ﴾[6] ، يجب أن يكون النبر على المقطع الثاني من الكلمة « وترى » ، وتكون النغمة صاعدة عند نهاية الكلمة ، لكن القراءة بغير هذه النغمة تغير المعنى ، ويفهم السامع أن « وترى » كلها كلمة واحدة (فإذا كان النغم على الواو تغير المعنى بتمامه ، إذ يصبح الألف حرفا أولا للكلمة ، فتكون من وتر الشيء ، وهذا التغير يدل على أهمية النبر الذي يصعد عند النطق بالتاء) .

---

(١) انظر : الفيومي ، أحمد : أبحاث في علم أصوات اللغة العربية ، ص ١٩٧ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٦٢ .

(٣) فهي على قراءة نافع على تفصيل فعلى حين يقرؤها ورش في أحد وجهي القراءة بالمد مع تسهيل الهمزة الثانية ، يقرؤها قالون بإدخال ألف بينهما مع تسهيل الثانية . انظر : شكري ، أحمد خالد : قراءة الإمام نافع من روايتي قالون وورش ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤١٧هـ ـ١٩٩٦م) ، ص ٤٢ـ٤٣ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .

(٥) سورة النمل ، الآية ٦٠ .

(٦) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾[1] ، فلفظة « المفر » هذه ، موضع النبر فيها يغير المعنى كاملاً ، فإذا كانت النغمة هابطة عند النطق بالكلمة (مفر) بحيث تنتهي بحرف الراء ، فإن المعنى ينقلب تماماً مفرْ ، وبالتالي لا بد لقارىء القرآن أن ينتبه إلى أن يكون النبر صاعداً عند النطق بالفاء وينتهي بالراء : م ف ر[2] .

قد يكون رسم الكلمة واحدا ، إلا أن النطق يختلف ، مثل : « ألم » و« ألف لام ميم » الأحرف المقطعة . و« ألم » على اعتبار الهمزة للاستفهام و« الألم » من الإيلام ، فالنبر وحده هو الذي يحل الإشكال ، وقد يعبر النبر عن المحذوف من الكلام ، كقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[3] ، و﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾[4] ، ومنه : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[5] .

من الأمثلة التي تظهر دور التنغيم : ضمير الشأن عند الوقوف عليه ، انظر قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾[6] ، لو أردنا الوقوف على الهاء من كلمة « به » لا بد من أن تكون النغمة صاعدة عند النطق بالباء لتظهر الهاء ، وإلاّ لتغير المعنى واختل النظم خاصة ، وأن تمام الآية يقتضي هذا التوازن الإيقاعي : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[7] .

---

(١) سورة القيامة ، الآية ١٠ .

(٢) ومن ذلك قوله : ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، سورة الحجر ، الآية ٢٩ ، وسورة ص ، الآية ٧٢ . و﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ ، سورة الحاقة ، الآية ١٠ . و﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ، وردت في سورة النساء ، الآيات ٨١ ، ١٣٢ ، ١٧١ ، وسورة الأحزاب ، الآية ٣ و٤٨ . على اعتبار الواو عطفا فيكون النبر على الكاف ، أو من (وكف) ، وغيرها كثير . ومنه أبدا على اعتبار الهمزة للاستفهام أي هل بدا أو أبدا بمعنى إلى الأبد .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

(٤) سورة النور ، الآية ٣٧ .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .

(٦) سورة يوسف ، الآية ٢٤ .

(٧) سورة يوسف ، الآية ٢٤ .

وهكذا نجد أن للنبر دورا كبيرا في تحديد المعنى ، فهو ضروري يؤكد عليه القراء عند النطق به لأن النبر يقف عند بعض الأحرف التي ربما لو لم يحسن النطق لذهبت نطقاً فلم يدركها السامع .

مما تقدم ندرك أن تحديد المعنى وتوضيحه أحياناً يتوقف على خواص صوتية لهذا الكلام المنطوق ، من أهم هذه الخواص ما يعرف بـ« موسيقى الكلام » ، تلك الموسيقى التي تلون النطق وتمنحه معاني متنوعة بحسب السياق والمقام »(1) .

هذا ، وتجدر الإشارة إلى أن تغيُّر النبر (الصوت) وتحويله ليناسب أغراض الكلام هو الرسالة التي توصل المعنى إلى المستمع ، وقد نص بعض العلماء على ضرورة خفض الصوت في بعض المواطن ، من ذلك قراءة : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾(2) ، وقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(3) ، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾(4) ، وقوله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾(5) ، وقوله : ﴿هَذَا رَبِّي﴾(6) ، إن خرج على صيغة الاستفهام في المثال الأخير أدى إلى معنى جديد ، وأمثالها في القرآن كثير ، فخفض الصوت عند النطق بها يؤدي للمستمع رسالة صوتية ونغمة موسيقية ، وهي أن هذا الكلام إنما خرج ادعاءً وليس له أصل أو حقيقة . فانظر كيف كان لهذا التنغيم أكبر الأثر في بيان تلك المعاني ، والله أعلم بالصواب ، فعلماء التجويد كانوا على علم وتنبه لهذا ، فقد كانوا حريصين على ضرورة أن يكون الأداء سليماً عند التلقي والأداء حتى لا يتغير المعنى .

من هنا ندرك الأثر النفسي الذي يتركه الأداء السليم للنبر في ألفاظ القرآن الكريم ، فالنبر عدا عن كونه يقف على صواب المعاني ، نجده ينقل القارىء نفسه إلى اليقظة

---

(1) الغريب : التنغيم في إطار النظام النحوي ، مجلة جامعة أم القرى ، ص ٣١٩ .
(2) وردت في سورة البقرة ، الآية ١١٦ ، وسورة يونس ، الآية ٦٨ بدون الواو : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ .
(3) سورة المائدة ، الآية ٦٤ .
(4) سورة المائدة ، الآية ٧٣ .
(5) سورة التوبة ، الآية ٣٠ .
(6) وردت في سورة الأنعام ، الآيات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ .

والتنبه المستمرين والناشئين عن ارتفاع الصوت وانخفاضه والتراوح بينهما ، والذي يعطي بدوره حياة للنفوس وتجدداً ، ويزيل عنها أثر الملل والسآمة .

يذكر أنّ بعض الذين تحدثوا عن المفارقة اللغوية[1] أشاروا إلى وجود ثلاثة أنواع للمفارقة وهي : ١ـ مفارقة النغمة ٢ـ المفارقة اللفظية ٣ـ المفارقة البنائية .

والذي يعنينا في هذا النوع الأول ، ويسمون هذه النغمة بالنغمة التهكمة (Sarcasm) وهو « مفارقة النغمة » ، ويمثلون لهذا النوع بقوله تعالى : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾[2] ، وتوضيح ذلك : أن الآية مكونة من جملتين الأولى فعلية : ﴿ ذُقۡ ﴾ ، والثانية اسمية : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ .

أما الأولى : ﴿ ذُقۡ ﴾ ، فهي متلوة بوقفة قصيرة ، ويلحظ أنها اشتملت على أعلى المستويات في النبرات . (أي درجة الصوت فيها عالية) .

وأما الثانية وهي الاسمية فتبدأ فيها النبرة عالية إلى أن تصبح منخفضة جداً في آخر الجملة .

وهكذا نجد أن نغمة الأمر في ﴿ ذُقۡ ﴾ ، ينبغي أن تؤدى أداءً مختلفاً إذا ما قورنت بكلمة أخرى ورد فيها الأمر ، كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[3] ، إذ الأمر في الآية السابقة منفصل عن الجملة التي تلي ، بخلاف الآية الأخيرة التي هي جزء من الخطاب[4] .

يشار إلى أن التنغيم هو أكثر ما يستخدم في اللغات للدلالة على المعاني الإضافية (كالتهكم والتأكيد والدهشة والغضب . .) ، وهكذا يتلائم التنغيم ليعبّر عن المقام وتمنح تموجاته النغمية دلالات نفسية وتجسّد حالات عاطفية لا تستطيع اللغة الهجائية التعبير عنها[5] .

---

(١) المقصود بالمفارقة : « صيغة من التعبير تفترض من المخاطب ازدواجية الاستماع بحيث يدرك المخاطب أن المعنى المتبادر من السياق لا ينبغي أن يؤخذ على سطحيته » . انظر : محمد العبد : المفارقة القرآنية ، ص ١٥ .

(٢) سورة الدخان ، الآية ٤٩ .

(٣) سورة الدخان ، الآية ٤٧ .

(٤) محمد العبد : المفارقة القرآنية ، ص ٥٦ـ٦٠ ، بتصرف .

(٥) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٤٣١ـ٤٣٢ .

كما يلاحظ أن عنصر المفاجأة يلعب دوراً رئيسياً في التمييز بين الحركات النغمية ، فلفظة « ذق » ليس فيها حرف مد ، فهي تلعب عنصر المفاجأة ، وهو بدوره له ملحظ نفسي إذ النفس تفاجأ بهذا الأمر الغريب ، خاصة وأن هذا الفعل في العادة يستعمل لما طاب من الطعام ، وهو هنا خرج مخرج السخرية . وبعض الآيات التي يكون فيها النبر عالياً تقوم النبرة فيها في حقيقة الأمر بتصوير الحالة النفسية من تصوير لحدة الطبع وتعكير المزاج ، وانتفاخ الأوداج ، ويمكن أن يمثل له بقوله تعالى على لسان قوم شعيب : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[1] ، لو دققنا في المقطع الأخير ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ ، سنجد أن مقاطع النبر فيه عالية ، ويمكن وصفها بالآتي : حيث زيادة الحروف تعبر عن طول النطق (إنك لأنت الحليم الرشيد) ، وهذا ـ كما يفسّره علماء الطبيعة (الفسيولوجيون) ـ سلوك حركي عضوي ، ذلك أن المقطع المنبور نبراً عالياً ينطق مصحوباً بشد عضلي في مناطق أخرى ، مثل : « عضلات الفم والقفص الصدري . . » ، هذه النبرة تزيد المفارقة سخرية ، ويلحظ في هذا أنهم صوبوا نقيض ما وصفوه به إلى أنفسهم في الوقت الذي رغبوا رميه بنقيض هذه الصفات[2] .

لو سألنا علماء الصوتيات عن وصف الفم أثناء النطق بمقطع منبور ؟ لكان الجواب كالآتي :

* تنشط جميع أعضاء النطق المشتركة في نطق ذلك المقطع .

* تنشط عضلات الرئتين بشكل مميز لدفع الهواء بنشاط أكبر .

* تقوي حركات الوترين الصوتيين وتتسع الذبذبات ويتقارب الوتران أكثر في حالة الأصوات المجهورة .

* يزداد نشاط الشفتين إذا اشتركتا في النطق .

* تصبح حركة اللسان دقيقة محكمة حتى يضمن وضوح مخارج الأصوات وعدم التباسها مع غيرها .

---

(١) سورة هود ، الآية ٨٧ .

(٢) انظر : محمد العبد : المفارقة القرآنية ، ص ١٤٤ـ١٤٥ .

* يزداد الجهد العضلي لأعضاء الكلام عامة[(١)] .

وهذا أسلوب قرآني رائق ، إذ النص القرآني يجعل هذا التهكم بهم معلوماً ومدركاً لدى المستمع أو قارىء النص ، في حين أنه يخفى على المتكلم نفسه ، ويلاحظ هنا دور النغمة التهكمية في إبراز المعنى . ومثل هذا في كتاب الله كثير[(٢)] .

نخلص من هذا كله إلى أن كلا من النبر والتنغيم لهما دور كبير في إبراز تلك الموسيقية التي بدورها تترك أثراً عظيماً في نفس المستمع ، وينتهز الباحث مثل هذه الفرصة ليسجل أمنيته وتوصيته لأصحاب الاختصاص ممن لهم علم باللغة والأصوات أن يشتركوا مع أهل الاختصاص من المفسرين ومعهم القراء المتقنون ، ليتمكنوا من الإشراف على إخراج نموذج لقراءة من هذا النوع ، فيفيد منها المسلمون ، خاصة وأن الوسائل الحديثة تعين على إصدار مثل هذا النوع . فتكون صوتية يراعى فيها حسن الأداء وقواعد النغم .

أقول وبهذا يتبين لنا أهمية ودور التنغيم في كتاب الله والذي يمكن إجماله بالآتي :

* لا يتأتى النطق الصحيح إلا بمراعاة النغم وتمثله ، وبه يتضح المعنى ويفهم الغرض من الكلام .

* يعتمد عليه في توجيه الإعراب فيما ورد فيه أكثر من وجه إعرابي .

* يجيء به الكلام مسبوقاً وفق مقتضيات الأحوال فلكل مقام مقال وقالب تنغيمي خاص[(٣)] .

بهذا ندرك السر في قول بعضهم : « وإنك لتخشع لسماع الآية بجرسها وموسيقاها حتى قبل أن تعيها وتفهم معناها ، ومن ثم كان ترجمتها ضربا من المحال »[(٤)] .

---

(١) الخولي ، محمد علي : الأصوات اللغوية ، (الرياض : مكتبة الخريجي ، ط ١ ، ١٩٨٧م) ، ص ١٦٠ .

(٢) يمكن للمزيد الرجوع إلى كتاب : حفني ، عبد الحليم : التصوير الساخر في القرآن الكريم ، (القاهرة : الهيئة العامة المصرية ، د . ط ، ١٩٩٢م) وكتاب أسلوب السخرية في القرآن للمؤلف نفسه .

(٣) للمزيد انظر : الفيومي ، أحمد : أبحاث في علم أصوات اللغة ، ص ١٨٧ .

(٤) محمود : القرآن محاولة لفهم عصري ، ص ٩ . ويسميها بـ« الموسيقى الباطنة » ، ويعني بها=

المبحث الثالث
أحكام التجويد وقواعد الإلقاء إسهام في الإيقاع القرآني

القرآن الكريم كتاب.. لا كأي كتاب ، فهو يتلى بطريقة مرتبة ، على أصول منظمة ، يجب أن تراعى فيه قواعد القراءة وأصول الأداء ، وهذا مما اختص به القرآن الكريم على سائر الكتب ، وورود الأمر بذلك في الآيات الأولى من مرحلة نزول القرآن ، قال تعالى : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[(١)] ، منذ أن نزلت آياته نغمت تنغيماً ورتلت ترتيلاً ، « إذ كان من طبيعة نسقه الجميل أنه يتواءم مع النغمة ويتساوق مع اللحن »[(٢)] .

ولا شك أن هناك قواعد تتصل بالأداء القرآني لا بد من مراعاتها كأحكام التجويد ، وإتقان مخارج الحروف ، وتطبيق قواعد الوقف والابتداء ، كل هذا يعد من هندسة اللفظ القرآني ، ويزيد من تأثيره في النفس إذا اجتمع إلى جانب ذلك صوت حسن[(٣)] ، فالتجويد هو (التحسين) .

هذه الأحكام التي ينبغي لقارىء القرآن أن يراعيها هي في حقيقة الأمر أحد أسرار ذلك التوازن والانسجام ، وأحد أسرار ذلك الإيقاع الذي يشدّ الأسماع إليه ، لا تكاد تخلو آية من حكم ما بين غنة تارة أو مدّ أو إخفاء أو غير ذلك من الأحكام التي تفرض على السامع لوناً معيناً لا يعهد في الكلام الاعتيادي ، وإذا ما علمنا أن قراءة القرآن لا تجوز بحال دون مراعاة لهذه الأحكام ، أدركنا أن ذلك سرّ كامن في كتاب الله ، هذا

= تلك الأنغام التي تصل إلى السمع دون أن يعرف معناها ، يكون لها موسيقى معينة ، أما ما كانت موسيقاه تصل إلى السمع من خارج العبارة كانت موسيقاه خارجية ، ويعتبرها بعضهم سراً من أسرار المعمار القرآني . ثم يقول : « كل عبارة بنيان موسيقي قائم بذاته تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة محيرة لا تدري كيف تتم ، وليست الموسيقى وحدها هي التي انفردت بها العبارة القرآنية وإنما مع الموسيقى صفة أخرى هي الجلال » .

(١) سورة المزمل ، الآية ٤ .

(٢) البغدادي ، جلال الدين حنفي : قواعد التجويد والإلقاء الصوتي ، (العراق : لجنة إحياء التراث الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨٧م) ، ص ٣٦٩ . وانظر أيضاً :

- Faruqi: The Nature of the Musical art of Islam p 261-264 .

(٣) Faruqi/ The Nature of the Musical art of Islam/ p 265 .

الذي يجعل النفس تنجذب إليه ، حتى لو كان السامع له لا يفهم لغة القرآن ، نجده ينجذب لهذا الكلام المنغم ، بل إن بعض الحوادث تشير إلى أن هذا الذي يسمع له من غير الذين يفهمون لغة القرآن يميزون بين لفظ القرآن وبين غيره من بقية الكلام ، ـ كما قد أشير إليه في مواضع من الدراسة ـ ولا يمنع هذا كون المتأثر به كان بسبب قدسية ألفاظه .

قواعد التجويد هذه هي قواعد اللغة العربية إلا أن لها وظيفة التزيين والتوضيح ودقة التصوير ، والسرّ في ذلك أن هذه الغنن والمدود صالحة للتطبيق النغمي والتمويج الصوتي ، هذا التنغيم وهذا التمويج الصوتي الناشىء من تطبيق هذه الأحكام في حقيقة الأمر يعدّ لونا من ألوان الوقع الصوتي للقرآن . . ومما يؤكد على أن هذه الأحكام تعدّ سراً من أسرار هذا القرآن الكريم ، أن هذه القواعد غير متكلفة ولا جافية بل هي منقادة لألفاظ القرآن ، فالقارىء لا يجد عنتا ومشقة في تطبيقها ، ولا يبذل جهداً كبيراً في تعلم أصولها وقواعدها . ولعل هذا هو السرّ الذي يكمن في أن الأطفال وصغار السن يتقنون هذه الأحكام دون معرفة لتلك القواعد ، فهي قواعد تتلقفها الآذان وتستقر في الأذهان ، هذا إذا ما علمنا أن قواعد التجويد هذه لم تكن معروفة من الناحية النظرية لدى عصر التنزيل ، وإنما كانت هكذا تؤخذ مشافهة ، ولم تقعّد لها قواعد وتثبت لها أصول إلا بعد عصور متأخرة(١) ، وذلك بسبب العجمة التي دخلت على اللغة الناشئة من اختلاط المسلمين بالأعاجم الذين دخلو في الإسلام ولا يعرفون تلك القواعد ، كل هذا يؤكد على أن هذه القواعد جاءت منسجمة تماماً مع ألفاظ القرآن .

والباحث على يقين بأن مبحثاً كهذا يحتاج في بسطه وشرحه إلى رسالة مستقلة ، وذلك تبعاً للجوانب الموسيقية في أحكام التجويد ، فما من قاعدة ولا حكم إلا وفيه إيماءة إلى هذا الجانب(٢) ، يستوي في ذلك ما كان تابعاً لأحكام النون الساكنة

---

(١) أقول : كان النبي ﷺ يقرأ القرآن كما أقرأه إياه جبريل عن رب العزة ، وكذا كان يقرؤه أصحابه ، وظل القرآن يرتل اعتماداً على سليقة العربية واستقامة اللهجة وفصاحة اللسان ، إلى أن دخل اللحن على اللغة العربية وعجمة الألسنة ، فكانت الحاجة إلى وضع قواعد علم التجويد ، كما هو الحال بالنسبة لوضع قواعد النحو .

(٢) Nelson/ K 1985. The Art of Recitating the Qur'an First Edition. University of هذه الرسالة كانت حوالي ٢٤١ ص باللغة الإنجليزية ، =

والتنوين ، أو ما كان تابعاً لأحكام الميم الساكنة ، أو ما كان تابعاً إلى المدود بأنواعها ، أو مخارج الحروف وصفاتها ، والتفخيم والترقيق وغير ذلك من الأحكام التي يسهم كل حكم منها في جانب من جوانب الموسيقية التي يحتوي عليها القرآن الكريم .

والأمثلة التي تدعم هذه الفكرة ماثلة في كل آية من كتاب الله ، فما من آية إلا ولها هذه السمة ، والباحث يجد نفسه في حيرة أمام هذا الحشد الهائل من الشواهد القرآنية ، أي منها يضرب به المثل ، ولا يظن بأنه سيسلم من نقد القارىء في المثال الذي يضربه . . خاصة وأن ظهور هذه الفكرة يختلف بروزاً ووضوحاً ودقة وخفاء من نص لآخر ، لكن يكتفي الباحث بضرب بعض الأمثلة والشواهد على وجود تلك الموسيقية ، وذلك التناغم في أحكام التجويد هذه محيلاً ، القارىء بعدها إلى تفسير الظلال الذي يغظ بالأمثلة والشواهد .

وكثيراً ما تعبّر هذه الأحكام عن الجوانب النفسية إضافة إلى وظيفتها الجمالية في الكلام وهذا ما سيبسط القول فيه ، لكن لا بد أولا من التنبيه إلى مسألة تتعلق بهذا الوجه ، وهي أنه على الرغم مما تشمل عليه أحكام التجويد من توازن في الإيقاع ،

= واستعرضت الجوانب النفسية لأحكام التلاوة . خاصة بعد ص ١٥٧ استعرضت الجوانب الموسيقية ، يشار هنا إلى أن تلاوة القرآن الكريم لها أثر كبير في جلاء الصوت وتحسينه ، والملاحظ أن أغلب من يطلق عليهم (الفنانين) من العرب بدءوا حياتهم بتلاوة القرآن الكريم ، فالإحصائيات تشير إلى أن أغلب الناجحين في هذا الميدان هم من قراء وحفظة القرآن الكريم في بداية حياتهم ، ويعللون ذلك بأن أحكام التجويد تعطي للقارىء خبرة ومرونة في الأداء الصوتي ووضوح النبرات والحروف ، تذكر بعض الكتب أسماء كثيرة لمن كان لهم بروز في هذا الميدان ، وهم مشهورون بتلاوة القرآن وحسن الصوت فيه في العصر الحديث ، غالبيتهم من جمهورية مصر العربية من أمثال : الشيخ سلامة حجازي وأبو العلاء محمد والشيخ يوسف المنيلاوي والشيخ سيد درويش والشيخ زكريا أحمد(شيخ الملحنين) ومحمد بن عبد الوهاب وأم كلثوم ، علما أنه ليس كل من ذكر هو من الفنانين ، ومن القراء المعاصرين : محمد رفعت ، الذي قيل فيه : « قيثارة السماء » ، ومصطفى إسماعيل . للمزيد انظر : عبد الخالق ، عطيات وناهد أحمد حافظ : فن تربية الصوت وعلم التجويد ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ ، ١٩٨٤) ، ص ١٦٢ـ١٦٩ . حيث ذكرت مجموعة من هؤلاء ، وطرفاً من حياتهم ، والذي يشير إلى حفظهم القرآن منذ الصغر ودراستهم في الكتاب .

وتناغم بين الألفاظ بما يشبه الموسيقى ، إلا أنه ظهرت بعض الأفكار التي تدعو إلى قراءة القرآن بالألحان الموسيقية ، وهذه مسألة تجر للحديث عن جوانب كثيرة تتعلق بها .

وقد وردت نصوص كثيرة تدعو إلى تحسين الصوت في القراءة ، فقد نوه الرسول ﷺ بصوت عبد الله بن مسعود في القراءة قائلاً : « من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد »(١) ، وفي هذا من الإشارة إلى ما كان عليه ابن مسعود من حسن الأداء ، ويتحدث ابن مسعود عن نفسه وهو يصف بعض قراءته : « إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن »(٢) ، وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال لأبي موسى الأشعري : « لقد استمعت إليك البارحة ، ولقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » ، فقال : لو كنت أعلم أنك تسمع إلي لحبرّته لك تحبيرا . . »(٣) ، وفي الباب أحاديث كثيرة(٤) .

---

(١) رواه ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، ١/ ٤٩ . وأحمد : أبو عبد الله الشيباني : مسند الإمام أحمد ، (مصر : مؤسسة قرطبة ، د . ط . ت) ، ١/ ٧ . وورواه النسائي والبيهقي والحاكم والهيثمي والطبراني والبزار وغيرهم ، قال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط الصحيحين ، المستدرك ، ٢/ ٢٤٧ ، وقال الهيثمي : فيه عاصم بن أبي النجود وهو على ضعفه حسن ، مجمع الزوائد ، ٩/ ٢٨٧ ، وذكره الذهبي في : سير أعلام النبلاء ، ١/ ٤٧٦ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، الحديث رقم (٣٠٢٨٥) ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة : مصنف أبي شيبة ، تح : كمال يوسف الحوت ، (الرياض : مكتبة الرشيد ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ) ، ٦/ ١٥٣ . ، وانظر : المناوي : فيض القدير ، (مصر : المكتبة التجارية ، د . ط ، ١٣٥٦هـ) ، ٣/ ٤٢٢ .

(٣) رواه الشيخان والترمذي والدارمي والحاكم والبيهقي وابن حبان والهيثمي . للمزيد انظر : ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ومحبّ الدين الخطيب ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ١٣٧٩هـ) ، ٩/ ٩٣ . وانظر : الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى : سنن الترمذي ، تح : أحمد محمد شاكر وآخرون ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) ، ٥/ ٦٩٣ .

(٤) مثل : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » ، رواه البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٩١٨ ، و« زيّنوا أصواتكم بالقرآن » ، حديث مشهور رواه ابن حبان والدارمي ، وورواه البزار بلفظ : حسّنوا ، ومنه : ما روي عن حذيفة أنه قال : اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم=

والمقصود بالتغني في القرآن الوارد في الحديث : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[1] ـ كما أشار إليه بعض العلماء ـ هو تحسين الصوت بقراءة القرآن ، بخلاف الغناء المعروف في زماننا ، فالقصد من الأخير أن يطرَب ويُطرِب غيره لا ليتعظ ويعتبر ، فالتغني بالقرآن إذاً هو : « استمتاع المتكلم مما يتكلم به مترنما بالنطق ، مستحبا له ، مستملحاً مستطيباً للكلمات ، ذواقاً لها ولمعانيها »[2] ، وإنما المقصود تذوقه لما يقرأ ، وإحساسه بأن الله عز وجل يخاطبه .

وفي القرآن ما يشير إلى فعل التلاوة في النفوس في وفد نجران : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[3] إضافة إلى معانيها .

إذ ما من شك في دور النغم من أداء المعنى في هذا الجانب ، يشار هنا إلى أن القراء وعلماء التجويد نوهوا ببعض طرق القراءة التي لا تنسجم وقواعد القراءة ، والتي ينبغي أن ينزه ويجل القرآن عنها مثل : التحزين[4] ، الترعيد[5] ، التطريب[6] ،

= ولحون أهل الفسق ولحن أهل الكتاب ، وسيجيء بعدي قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبون شأنهم » ، ذكره الهيثمي في : مجمع الزوائد ، ٧/ ١٦٩ ، وقال : فيه راو لم يسمّ ، ورواه الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمدبن أيوب : المعجم الأوسط ، تح : طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني ، (القاهرة : دار الحرمين ، د . ط ، ١٤١٥هـ) ، ٧/ ١٨٣ . وانظر المناوي : فيض القدير ، ٢/ ٦٥ ومنه حديث : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغن بالقرآن » ، متفق عليه ، انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ٦/ ٢٧٤٣ ومسلم : صحيح مسلم ، ١/ ٥٤٥ .

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص٥٤٠ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .

(٤) القراءة بالتحزين : وهو أن يأتي القارىء بتلاوة على وجه فيه حزن وتباكٍ متكلفان هما مظنة الرياء .

(٥) وهو أن يرعّد القارىء صوته كأن يرعد من برد أو ألم أو إصابة . التهانوني : كشاف اصطلاحات الفنون ، م ٢ ص ٥٥٢ . وانظر : السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ١/ ١٠١ـ١٠٢ .

(٦) القراءة بالتطريب : وهو أن يترنم القارىء بالقرآن ، ويتنغم به على نحو من شأنه أن يمد في غير مواضع المد ، ويزيد على المد ما لا ينبغي .

الترقيص[1] ، التحريف[2] ، وغير ذلك من وجوه القراءة المنهي عنها كثير ، حيث ذكر بعضهم قرابة خمسة وعشرين نوعاً من أنواع المبتدعات الصوتية التي تنافي جلال القرآن وتخرج به عن قواعد أدائه[3] .

وقد ألّفت كتب كثيرة في آداب تلاوة القرآن ونوهت بذلك ، كما ألّفت جموع من الكتب نوهت بخطورة أن يصحب قراءة القرآن الألحان ، وقد أشار القرطبي في زمانه إلى أن « بدعة قراءة القرآن بألحان الأعاجم ظهرت على أيدي القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز »[4] . وهذه الدعوات التي ظهرت داعية إلى أن يصحب القرآن آلات موسيقية أو معازف ، في مجموعها ناشئة عن الجهل بطبيعة اللفظ القرآني[5] ، ظهرت مثل هذه الدعوات حديثا في مصر ـ أيضا ـ ، وقد انتشر الحديث عنها في الصحف العراقية ، حتى أصبحت معروفة أن فلاناً من القراء يقرأ بمقام كذا وفلان بمقام كذا . . فمن أراد أن يسمع مقام سبأ فليسمع قراءة الشيخ علي حجاج السوسي ، ومقام نوى (NAWA) من الشيخ مصطفى إسماعيل . ومقام كرد (KURD) من الشيخ رمضان وهكذا[6] .

---

(١) القراءة بالترقيص : أن يرقص القارىء صوته بالقرآن ، فيزيد في حروف المد حركات .

(٢) القراءة بالتحريف : وهو ما يفعله الذين يجتمعون ويقرءون بصوت واحد فيقطعون القراءةن ويأتي بعضهم ببعض الكلمة ، والآخر ببعضها الآخر ، ويحافظون على مراعاة الأصوات .

(٣) للمزيد انظر : السعيد : الجمع الصوتي الأول ، ص ٢٦٦ـ٢٧١ . وانظر : الضباع ، علي : مبتدعات القراء في قراءة القرآن ، (د . م : مجلة كنوز الفرقان ، ربيع الأول/ ١٣٦٨هـ) .

(٤) أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٥٤٤ ، ويشير الشيخ محمد أبو زهرة إلى « أن العدوى قد انتقلت من مصر إلى البلاد العربية ، وما زالت العدوى تسري » ، أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٥٤٥ .

(٥) انظر : البغدادي : قواعد التجويد ، ص ٣٨٧ ، حيث عرض للمقامات وأشار إليها .
يذكر الدكتور لبيب السعيد « أن المطرب محمد فوزي صاحب مصنع الشرق الأوسط للأسطوانات ، والذي اتفق معه على التسجيل الصوتي ، عرض عليه مرة ـ وبحسن نية ـ أن يسبق التسجيل القرآني صوت موسيقي قريب من صوت صدى ، وقال : إن ذلك سيزيد القراءة تأثيراً وشجى » . السعيد : الجمع الصوتي الأول للقرآن ، ص ٢٧٣ .

(٦) انظر Nelson: The Art of Recitating the Quran// p 169-171 : .

وكما قيل « الحنجرة هي التخت الموسيقي الأول الذي صنعه الله ، وعليه تتجسد أروع النغمات والألحان ، وإن الحناجر السليمة التي وهبها الله الرخامة والبحة ، لتستغني عن كل تخت موسيقي كل استغناء » . وقد قيل : « من الحقائق المعروفة عند رجال الموسيقى أن حنجرة الإنسان هي أكمل آلات الطرب »[(١)] .

ومع علم الباحث بأن هذه الدعوات منشؤها الإعجاب بألفاظ القرآن وغرضها في الغالب مزيد خدمة للقرآن ، فقد وجد الباحث فتوى وردت للشيخ مصطفى الزرقا من سائل كان أحد أشهر الموسيقيين الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام ، فهو لمزيد إعجابه بتلاوة القرآن العظيم وتأثره بترتيله أراد أن يصوغ بعض سوره في مقطوعات من الموسيقى المجردة الصامتة على طريق (السمفونيات) بحيث تكون القطعة الموسيقية الواحدة معبرة بألحانها عن السورة الفلانية وتخلِّدها في لحن فنّي ، وذلك لأن الرجل من الموسيقيين البارعين فهو يريد أن يخدم القرآن من ناحية اختصاصه الفني ، ونظرا لطول الفتوى فسوف يقتصر الباحث على ما له صلة مباشرة في الموضوع ، فقد كان جواب الشيخ مصطفى الزرقا ـ رحمه الله ـ في هذا شافيا حيث سدّ كل ما من شأنه أن يكون مدخلاً لذي هوى مشيراً ـ في الوقت نفسه ـ إلى غنى القرآن عن هذا الصنيع وقال : « إن الموسيقى التي تتجلى في ترتيل القرآن هي التوقيع الطبيعي الذي يتجلى في حسن القراءة وجودة النطق الصحيح والأداء المحكم ، فهي كالجمال الطبيعي والنظافة وحسن التجمل بالحدود الطبيعية ، فكل كلام حسن الأداء توجد فيه موسيقى طبيعية ذاتية ، وهذا غير الموسيقى الخارجية الصناعية التي هي عمل فني مستقل . . وعلى هذا الأساس لا يقبل الإسلام أن تصاغ سور من القرآن قِطَعا موسيقية ، كما لا يقبل أن تصحب العبادة موسيقى خارجية لأن العمل العقلي في العبادة عندئذ يغيب تحت رداء النشوة الفنية . . والإسلام ميّز بين الأحاسيس الفنية التي هي مشاعر نفسية غريزية لا صلة لها بالعقل والتفكير وبين العبادة المزكية للأنفس البشرية ويجب أن تكون تأملا وتفكيرا »[(٢)] ، وبهذا ندرك أن مثل هذه الدعوات « منشؤها عدم استيعاب موسيقية

---

(١) قاله رؤوف يكتابك في مطالعاته حول مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد في القاهرة ١٩٣٢م . انظر : البغدادي : قواعد التجويد ، ص٣٧٦ .

(٢) الزرقا ، مصطفى : العبادة في الإسلام لا يجوز أن تصحبها موسيقى ،(مصر : مجلة الأزهر ،=

القرآن ، فالقرآن يستقل بإيقاعه وموسيقاه ، ولا معنى بعدها للموسيقى إذا صاحبته »[1] .

ومن هنا ندرك السرّ وراء أمر الله رسوله ﷺ بأن يرتل القرآن ترتيلا ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[2] ، ولقد نسب الله عز وجل ـ الترتيل ـ إلى ذاته العلية فقال : ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[3] ، ولهذا فقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التي تميز الترتيل المطلوب في تلاوة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الأمر فرطاً ، بل وضعوا ميزانا يميِّز الترتيل المطلوب عن القراءات البعيدة عن الترتيل ، وهو علم التجويد وعلم القراءات .

وهذا العلم يتلقى بالمشافهة ، فقد تناوله الصحابة مشافهة ، ثم من بعدهم التابعون بالترتيل الذي قرأ به الصحابة ، وبقى السند متصلاً إلى يومنا هذا ، فهو مع اتصال السند يجمع تواتر القراءة ، وهذا أمر معروف في جميع بلدان العالم الإسلامي ، حيث يوجد من يقرىء بسند متصل إلى رسول الله ﷺ[4] ، وما على الذي يرغب بالانضمام إلى هذا السند فيكون في سلك هذا السند المتصل برسول الله إلا أن يبحث عن هؤلاء في بلده[5] ، ولعل الفكرة التي قام بها الدكتور لبيب سعيد[6] ، وهي فكرة الجمع الصوتي

= ج ١ ، السنة ٣٢ ، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م) ، ص ٩٠ .

(١) انظر : Nelson: The Art of Resitating the Quran/ p 178 .

(٢) سورة المزمل ، الآية ٤ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ .

(٤) يقول السيوطي : « ولا شك أن الأمة ـ كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده ـ هم متعبدون بتصحيح ألفاظه وكافة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراء المتصلة بالحضرة النبوية » . السيوطي : الإتقان ، ١/ ١٠٢ـ١٠٣ .

(٥) من اللحظة الأولى لتلقي القرآن ، والقاعدة المتبعة بالنسبة لطالب القرآن أن يتلقاه من أفواه المشايخ الضابطين المتقنين ، وأن لايعتد أبداً بالأخذ من المصاحف المكتوبة بلا معلم ، والعبارة مشهورة لدى العلماء : « لا تحملوا العلم من صحفي ، ولا القرآن من مصحفي » ، انظر : العسكري ، الحسين بن عبد الله ت (٣٨٢هـ) : أخبار المصحفين ، تح : صبحي البدري السامرائي ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ) ، ١/ ٣٢ . وانظر كتابه الآخر : العسكري ، الحسين : تصحيفات المحدثين ، تح : محمود أحمد ميرة ، (القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ) ، ١/ ٧ .

(٦) انظر : السعيد : الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم ، حيث قدم بمشروعه إلى الأوقاف . =

الأول للقرآن الكريم ، ليست بعيدة عن هذا الإطار ؛ إذ انطلقت من فكرة هذا التواتر الذي توافرت شروطه في كل مرحلة من لحظة نزول القرآن إلى يومنا هذا ، وهذا في حقيقة الأمر داخل في معنى الحفظ الذي تكفل به الله تعالى لكتابه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] .

والرسول ﷺ تلقى القرآن مشافهة من جبريل عليه السلام وفي السنة الأخيرة لحياته ﷺ عرضه عليه مرتين يدارسه القرآن ، وهكذا ظل التلقي مشافهة هو السائد ، والواضح من بعض أحكام التجويد أنه لا يمكن تعلمها إلا مشافهة مثل : « الروم والإشمام والتفخيم والترقيق. . » ، هذا التلقي مبنيّ على أصول وقواعد مرسومة ، فهي كما قال الزركشي : « وللمسلمين في التلقي الشفوي مناهج دقيقة ، وكأنما كانوا يعدّون أفواه الرجال أهم مستودعات العلم الحقيقية ، ويرون أن النقل السليم الذي يظهر كل زيف يعتريه . روي عن يحيى بن معاذ قوله : « أفواه الرجال حوانيتها ، وأسنانها صنائعها ، فإذا فتح الرجل باب حانوته تبين العطار من البيطار والتمّار من الزمّار »[2] .

فالتجويد وأحكامه في حقيقة الأمر قواعد موسيقية ، ويشير بعض الذين تحدثوا عن هذا إلى أن قواعد التجويد هي قواعد الغناء العربي نفسها من الناحية الأدائية[3] ، غير أن المجوِّدين كانوا أمناء على هذه القواعد بسبب قدسية النص والحرص على الالتزام بالتطبيق الأدائي ، ولهذا فإن قواعد القراءة دقيقة والجهل بها خطير ، وللنغم دور كبير في النفوس وأثر كبير في الواقع ـ كما تقدم بسطه ـ لهذا فإنّ تجويد القرآن لا يتم إلا وفق قواعده وأصوله السليمة ، « ولا يجوز الخروج به من أطره الأدائية إلى الحالة التي

= يعني بالجمع الصوتي الأول : أن القرآن كما تواتر كتابة في كل جيل إلى يومنا فهو تواتر قراءة في كل جيل ، وعليه فإن سعيه تركز في أن تقوم لجنة متقنة . فتجعل هذا مسجلا على إسطوانات بحيث يسمعها كل إنسان ـ كان هذا بلا شك قبل انتشار طرق التسجيل الحديثة ـ ، والفكرة أخذت أبعادا أخرى مع التقدم العلمي الحديث ، فبإمكان أي مسلم على وجه الأرض الآن أن يسمع ما شاء من القرآن من عدد لا يحصى من القراء المتقنين .

(١) سورة الحجر ، الآية ٩ .

(٢) الزركشي : البرهان ، ٢/١٥٣ .

(٣) البغدادي : قواعد التجويد ، ص ٣٩٤ .

يختل فيها النصاب الأدائي ، ويشيع فيها جو من الترفيه الذي لم يعدّ ولن يعدّ يوماً من المطالب الإقرائية المطلوبة »[١] .

بعد هذا نخلص إلى أن « قواعد التجويد هذه هي التي يكمن فيها هذا الأثر المتوازن والإيقاع الموسيقي الذي يشتمل عليه القرآن الكريم »[٢] ، ولا يخفى أن كل حكم من أحكام التجويد وقواعده ينطوي على هذه المعاني المتناسقة ويسهم في هذه الموسيقية فما من حكم إلا وينظم خيطا في هذه الموسيقية القرآنية ، إذ أحكامه تعدّ ينبوعاً من الموسيقى لا ينضب[٣] ، وحتى لا يطول البحث فإن الباحث يحيل القارىء إلى بعض الكتابات التي تناولت طرفاً من هذا الجانب بشيء من التفصيل[٤] .

نماذج من إيقاع أحكام التجويد وأبعادها النفسية :

المدّ :

يعتبر المد من أغنى تلك الظواهر بالموسيقى لأنه امتداد اللفظ بالصوت لعِلَّةٍ في الصيغة[٥] ، إذ المد إطالة في النطق ، وهذه الإطالة هي المهمة في قيمة العبارة القرآنية

---

(١) البغدادي : قواعد التجويد ، ص ٣٩٤ .

(٢) تحدث عن هذا كلون من ألوان الموسيقية القرآنية الأديب الكبير الرافعي في كتابيه : تاريخ آداب العرب ، ٢/ ٢٣٠-٢٣١ . إعجاز القرآن ، ص ٢٤٩-٢٥٠ ، منبها إلى ما تتركه هذه الأحكام من أثر في النفوس ، مشيراً إلى أن خصائصه الموسيقية وتساوق حروفه على أصول طبيعية مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة .

(٣) يقول دراز : « إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منّوعاً يجدّد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيح الصوت به ، وتهاوي النفس فيه آنا بعد آن ، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى » ، دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص ١٣١ .

(٤) رمضان ، محي الدين : وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م) ، من ص ٧٦ وحتى نهاية الكتاب . وانظر الباقوري ، أحمد : فن التجويد هو موسيقى القرآن ، (الكويت : مجلة الوعي الإسلامي ، ع ٧٣ ، السنة الثالثة والسبعون ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م) ، ص٢٩-٣١ . وانظر الكتاب المتحدث عن قراءة عبد الباسط عبد الصمد فقد أشير إليه أكثر من مرة في الدراسة .

(٥) رمضان : وجوه من الإعجاز الموسيقي ، ص ٧٦ و :

=. .Nelson/: The Art of Recitating

موسيقياً ، والمد إلى جانب هذا يقف بالقارىء على الأثر النفسي وراء هذه العبارة أو الكلمة التي فيها مدّ ، وهو الذي يعنينا أكثر في هذا المبحث ، إذ الغرض الأساسي الأول لطرحه في هذا المقام الوقوف على تلك المعاني والآثار النفسية التي يحركها هذا المد ، والأمثلة التي تبين ذلك كثيرة جداً ، لكن يكتفي الباحث بإشارات موجزة وضرب الأمثلة الآتية :

مثال : مقولة ابن سيدنا نوح لأبيه عليه السلام : ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾[1] ، تأمل في الآية الكريمة ، كيف شارك المد في التعبير عما في نفس (ابن نوح) ، إذ المد هنا يلقي بظلاله على مدى البعد المكاني وعلو الجبل ، الذي ينشده المتكلم ليفر وينجو به من الطوفان ، وهو تعبير عما في النفس .

مثال آخر : قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي﴾ ، من قوله : ﴿قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾[2] ، انظر المد اللازم الكلمي المثقل في موضعين من الكلمة ، وانظر كيف توسطهما حرف الغنة المشدد ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي﴾ ، فطول المدة التي ينطق اللسان بها تعبير عن حالته النفسية في التعجب والدهشة من حالهم . والله أعلم .

مثال آخر : قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾[3] ، انظر إلى هذه الآية التي تلهج بالدعاء ، كيف يشترك المد في التعبير عما في النفس ، إضافة إلى هذه الموسيقية التي تشتمل عليها ، إذ لا يزال اللسان مُتَمَوِّجاً لاهجاً بهذا المقطع الذي تدل حركة الفم فيه ، المترددة ما بين الانفتاح والانغلاق على عدم الاستقرار ، وهو معنى نفسي لهذا الداعي الذي يشعر أنه لا يقوى على السكون أو الاستقرار ، فلا يزال اللسان لاهجاً ، ولا تزال الأيدي مرتفعة وتتحرك متفاعلة مع هذا الدعاء ، فهي ترسم للذهن صورة رجل واقف ينظر إلى السماء يرفع يديه المتموجتين مع حركة كل عضو من جسمه تفاعلاً مع هذه الصيغة ، ولا مبالغة إن قيل : بأنه لو رمنا

(١) سورة هود ، الآية ٤٣ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩٣ .

أن نقوم بتصوير ذبذبات الصوت عند ترداداها وأردنا رسمها بيانياً لرأينا كيف يكون هذا الخط متردداً بين أعلى نقطة وأسفلها .

ثمة ملحظ آخر في الآية ، هو تردد الأصوات الأنفية في الآية ، والأصوات الأنفية أصوات رنانة حسبما يقول به علماء اللسانيات[١] ، مما يجعل تناسبا بين النطق بهذه الأصوات وبين جو هذا الدعاء الذي قد يصاحبه أنين وندم .

ولعله من المناسب في المثال السابق أن ينوه إلى دور بقية أحكام التجويد في رسم الجو النفسي للدعاء ، فالنون والميم هما أطول الحبيسات العربية من حيث الاستغراق الزمني للنطق بها ـ كما يقول علماء اللغة[٢] ، ولا ريب أن طول مدتها الزمنية من حيث السمع يتناسب وطبيعة الدعاء ، كما يلاحظ أن حظ النون فيه أكثر من حظ الميم فالميم مرتان ، والنون تسع مرات ، علما أنّ النون أشد الحروف غنة كما يقول الخليل بن أحمد ت (١٧٥هـ)[٣] ، وهي أمكن من التطريب[٤] ، وهذا بدوره يخلق جواً نفسياً مشحوناً بالصدق ، ومشعراً بتفاعل أجزاء البدن جميعها في أدائه ، والله أعلم بالصواب .

ويلاحظ أيضاً كيفية تماوج النغمة هذه حتى تصبح مستقرة في نهاية الآية إلا أن ختامها يكون حرف الراء الذي من أبرز خصائصه التكرار والتردد ، وهذا منسجم ـ كما يبدو ـ تماماً مع هذا التموج ، وكأنّ سكون الدعاء الذي انتهى برائين توسطهما الألف

---

(١) انظر : قدور : مبادىء اللسانيات ، ١٢٩ ، والسعران : علم اللغة ، ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) الأنطاكي ، محمد : الوجيز في فقه اللغة ، (حلب : مكتبة الشهباء ، د . ط ، ١٩٦٩م) ، ص ٢٣٢ـ٢٣٣ . وانظر : العبد : المفارقة اللغوية ، ص ٢١٦ .

(٣) الأزهري ، أبو منصور محمد : المستدرك على الأجزاء السابع والثامن والتاسع من التهذيب ، تح : رشيد عبد الرحمن العبيدي ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ط ، ١٩٧٥م) ، ص ١٠٢ . وانظر : محمد العبد : المفارقة القرآنية ، ص ٢١٦ .

(٤) يشار هنا إلى أن اللام والنون من الأصوات التي شغلت حيزاً في الدراسات الصوتية العربية عند علماء العربية وعلماء القراءة والتجويد . وقد أفردت فيها مصنفات ، منها « اختلاف القراء في اللام والنون » ، من هؤلاء : أبو الحسن السعيدي ت (٤١٠) . بين فيها مذاهب العرب وقراء القرآن في النطق بها مع التعليل الصوتي لتلك المذاهب ، للمزيد انظر تحقيق الرسالة : الحمد ، غانم قدوري : كتاب اختلاف القراء في اللام والنون لأبي الحسن علي بن جعفر الرازي السعيدي ، (ليدز : مجلة الحكمة ، ع ٨) ، ص ٢٤١ـ٢٥٣ .

يشير هذا إلى الاستقرار الذي جاء عقب رحلة طويلة من حركة اللسان ، أشبه بكرة ساقطة من مكان مرتفع ، ثم ارتطمت بالأرض ، فكان يمثلها حرف الراء الأول ، ثم ارتفعت ويمثلها الألف ، ثم استقرت ويمثلها الراء الذي يناسب حركة من هذا النوع . هذا إذا ما أضفنا إلى ذلك كله أن كلمة الأبرار نفسها فيها قلقلة ، وهي تناسب هذا التموج في الحركة والاضطراب الناشئين من الحركة اللسانية .

وهكذا نجد أن أحكام التجويد إلى جانب كونها تعطي نغماً موسيقياً رائعاً متوازناً ، فهي تعبّر عن حالة نفسية يصعب تصورها إلا بإدراك دور هذه الأحكام ، وهكذا يمكن أن يقال في أغلب المواطن ، ومثل حكم المد يمكن أن يقال في بقية أحكام التجويد .

صفات الحروف ومخارجها :

صفات الحروف ومخارجها تؤدي دورا بالغ الأهمية في ذلك التوازن البديع ، كما لها الدور الأكبر في تجدد النشاط النفسي ، حيث تدع القارىء في انجذاب مستمر ومتعة لا توصف لما لهذا التنوع من أثر ، يحدثنا صاحب النبأ العظيم عن ذلك قائلا : « فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً ، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة ، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف وصيغها وترتيب أوضاعها فيما بينها ، هذا ينقر وذاك يصفر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس ، . . وهلّم جرّا ، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة : لا كركره[١]، ولا ثرثرة[٢]، ولا رخاوة[٣]، ولا معاظلة[٤]، ولا تناكر ، ولا تنافر[٥]، وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر ، ولا بالبدوي الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقّة الحاضرة وسلاستها ، وقدّر فيه الأمر تقديراً أن لا يبغي بعضها على بعض ، فإذا مزيج منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما ، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها

(١) إعادة الشيء مرة بعد أخرى من الكر .

(٢) كثرة الكلام في ترديد وتخليط .

(٣) لين ومباعدة .

(٤) تعقيد الكلام وموالاته بعضه فوق بعض .

(٥) عدم الانسجام بين الحروف .

تلتقي أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم »[1] ، مثال هذا حاضر في أغلب آيات القرآن الكريم ، إذ المتأمل في آي القرآن يلمس هذا التنوع في مخارج الحروف وصفاتها ، وحتى لا يعدم المبحث من الأمثلة فإن الباحث يدعو القارىء إلى التأمل في المقطع الآتي : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[2] . انظر إلى هذا التنوع في صفات الحروف ، السين تهمس والصاد تصفر ، والخاء من أحرف التفخيم وانظر (الشين) وكيف هي صفة التفشي عند النطق بالمقطع : ﴿ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، وهكذا . .

الغنة والإدغام :

أصل الغنة : صوت يشبه صوت الغزال إذا ضاع ولدها[3] ، لا شك أنّ الغنّة تمثل تناسقاً إيقاعياً في التلاوة . خاصة وأنها تتصل بأكثر أصوات اللغة ، وباب الإدغام واسع عند علماء التجويد والقراءات ، يشمل أنواعاً كثيرة ، وهو في عمومه يضفي جمالاً طبيعياً على الصوت ، وذلك أن صوتاً يخرج من الخيشوم ، يشترك مع الفم في أداء هذا الحكم ، وهذا الصوت في حد ذاته هو صوت موسيقي يشترك في إبراز النغمة التي تستريح إليها النفس ، وتجعل القارىء يتمهل عند النطق بها ، فهي أشبه بالكوابح للمركبة .

مثال : من ذلك قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4] .

تأمل هذه الآية الكريمة ، وتأمل موقع (الميم والنون) ، والدور الذي يؤديه هذان

---

(١) دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص ١٣٢ـ١٣٣ .

(٢) سورة الروم ، الآيات ١٧ـ٢٠ .

(٣) قال ابن منظور : لسان العرب ، ١٣/ ١٤٢ ، قال : والغنة كالخنة ، كأن الكلام يرجع إلى الخياشيم ، وقال : ظبي أغن : يخرج صوته من خيشومه ، انظر : عبد الخالق : فن تربية الصوت ، ص ١٢٦ .

(٤) سورة هود ، الآية ٤٨ .

الحرفان في هذا المقطع الكريم ، لا يستطيع القارئ مهما كان حاذقاً في قراءة الحدر أن يتجاوز هذا المقطع دون أن يقف مضطراً على أحكامه ، ولا يخفى الجمال الموسيقي وإيقاع هذا المقطع على الأسماع ، إذ النفس تسترخي ، وكأنها تأخذ قسطاً من الراحة لتستمع إلى هذا المقطع ، وهو - بلا شك - متناسق مع طبيعة المتحدث عنه ، فبعد رحلة الطوفان هذه ، وما تعرضت له السفينة من أمواج متلاطمة يأتي الأمر بهذا الاستقرار ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ ، وكأنّ الصورة ماثلة أمام الأعين لسفينة لا نتصور سرعتها بين الطوفان ستستقر وتثبت وتستوي ، وهي صورة لرسم آخر ومشهد كانت حركته ماثلة في معمعة تلك الأمواج المتلاطمة التي حالت بين نوح وابنه ، هل أدركت السرّ الإيقاعي الذي ترسمه الأحكام في هذا المقطع؟!

هذا وبعد أن دوّن الباحث ما تقدم وقع على كلام للشيخ محمد عضيمة[1] حول اجتماع الميمات في الآية حيث قال : ولم يعرض أحد من المفسرين لتعليل اجتماع هذه الميمات ، وإنما الذي عرض له حواشي مغني اللبيب (الشمني)[2] والأمير .

---

(١) مقال في مجلة كلية اللغة العربية ، الرياض ، ع ٩ ، ١٣٩٩هـ . ففي الشمني « قال ابن المنير : وهذا من الغريب أن تتكرر أمثال ولا يفطن لذلك ، ولا يحُس اللسان بثقل ، ولا السمع بنبو » ، يعلل الشيخ الأمير ذلك قائلا : « وعدم مجّ السمع لمثل هذا من العجائب المختصة بالقرآن » فهذه ثماني ميمات ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ ، وتوضيح ذلك أن « أمم » قلبت التنوين فيها ميما فصارت ثلاث ميمات ، ثم قلبت نون « مِنْ » ميماً ، فهذه خمس ميمات ، ثم قلبت نون « من » ميما ، فهذه سبع ميمات ، والميم الثامنة هي ميم « معك » ، وفي بقية الآية ثماني ميمات ، فاجتمع في الآية ست عشرة ميماً . انظر : لاشين ، عبد الفتاح : من أسرار التعبير في القرآني ، (الرياض : دار عكاظ للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ، ص ٣٤ .

(٢) الشمني (بضم الشين) : هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن محمد القسطنطيني الأصل ، الإسكندري المولد ، القاهري المنشأ ، المالكي ثم الحنفي ، ت (٨٧٢هـ) ، له شرح على مغني اللبيب لابن هشام أسماه : « المصنف من الكلام على مغني ابن هشام » . انظر : الكتاني ، محمد بن جعفر ت(١٣٤٥هـ) : الرسالة المستطرفة ، تح : محمد المنتصر محمد الزمزمي ، (بيروت : دار البشائر الإسلامية ، ط ٤ ، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م) ، ٢١٧/١ ، وانظر : خليفة ، حاجي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني : كشف الظنون ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط ، ١٤٠٢هـ -١٩٩٢م) ، ١٩٣٥/٢ و١٧٥٢ ، ولم أتمكن من الوقوف على ترجمة الأمير لكثرة من تسموا بذلك .

أما الملحظ النفسي في هذه الآية فيتمثل في : أن الميم حرف ثقيل مضغوط ، يشدّ عضلات الفم كلها حتى يؤدى على هيئة صوت فكيف به إذا كرر ؟ ثم كيف يكون ميزانه من الثقل حتى يتكرر بهذه الكثرة المتلاحقة؟! وليس من هذا النغم المجلجل المتتابع من هذه الميمات إلا أداءً لما يقتضيه المقام من دواعي القوة التي تحيط بالموقف وتظاهره[١].

فنوح عليه السلام قد طوفت به وبمن معه السفينة في مجاهل هذا الطوفان المروع العاتي ، الذي أتى على كل شيء ، حتى أذن الله لهذه الغيمة أن تنجلي ، وتصل السفينة إلى شاطىء الأمان والسلام. . هذا الموقف الصعب ، وتلك المشاعر المتغيرة ، والأهوال المتعددة كانت تشابه في شدتها تتابع هذه الميمات وتظاهرها في مكان واحد ، فما كانت هذه الميمات إلا مراعاة لما يقتضيه الحال من دواعي القوة التي تحيط بهذا الموقف »[٢] .

كما أنّ في المقطع الذي سبقه ملحظا نفسيا يبرزه الإدغام : انظر الإدغام في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام مخاطباً ابنه عند الطوفان : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[٣] ، إدغام الباء مع الميم مع الغنة المشددة بمقدار حركتين ، وما يناسب ذلك من إطباق الشفتين ليشير إلى حالة نفسية. . نداء الحنان والعطف من الأب لابنه نداء الضم إلى أحضان الإيمان .

الهمز : له قيمته الصوتية في نسق الأصوات الأخرى ، والهمز يختلف عن سائر الحروف ، فهو حرف بعيد المخرج ، صعب على اللافظ به[٤] .

---

(١) الخطيب : إعجاز القرآن ، ٢/ ٢٧٤ .

(٢) لاشين : من أسرار التعبير ، ٣٥ .

(٣) سورة هود ، الآية ٤٢ .

(٤) السيوطي : الإتقان : ١/ ٩٧ ، أقول : ولعل هذا هو السرّ في أن العرب استعملت معه ما لم تستعمله في بقية الحروف ، فللقراء فيه (التحقيق ، والتخفيف ، والإبدال ، والنقل ، والحذف ، والتسهيل. .) ، والقراء مختلفون في ذلك ، كل حسب قاعدته ، ومما يذكر أنّ علماء اللغة يسمون « الهمزة » بـ« الحرف الجرسي » ، وذلك لأن الصوت يعلو بالهمزة عند النطق بها ، القيسي ، مكي بن أبي طالب : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ، تح : أحمد فرحات ، (عمان : دار عمار ، ط ٢ ، ١٩٨٤م) ، ص ١٣٣ ، ويذكر أن الخليل قد=

فلما كان في الصوت بها زيادة على الصوت في سائر الحروف نسبت إلى تلك الزيادة ، فقيل لها « الحرف الجرسي »[١] .

والأحرف الحلقية ، وهو أحدها تؤدي دوراً نغمياً موسيقياً ، إذ تتصف الحروف الحلقية بصفة الاتساع ، وتشترك معها الفتحة في صفة الاتساع ، إذ كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقي تحتاج إلى اتساع في مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم ، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعاً ، وتلك هي الفتحة ـ كما يصرح به علماء اللغة ـ »[٢] . وربما يناسب هذا قوله تعالى : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[٣] ، أو قوله : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾[٤] ، فمع أن الذين تحدثوا عن الصوتيات في اللغة العربية أشاروا إلى ندرة تلاقي أصوات الحلق بعضها مع بعض ، مشيرين إلى أنه لا يكاد يلتقي منها إلا العين والهاء[٥] ، إلا أننا نجد هذه الكثرة في الآية وذلك لملحظ نفسي ، يذكر هنا أن علماء الصوتيات أشاروا إلى أن الأحرف المهموسة[٦] ، تحتاج للنطق بها إلى قدر أكبر من هواء الرئتين فهي مجهزة للتنفس[٧] وهذه الآيات فيها أحرف مهموسة[٨] .

= قال في الهمزة : « إنها كالتهوع » . وقال مرة أخرى : « كالسعلة » ، القيسي : الرعاية لتجويد القراءة ، ص ١٣٤ .

(١) « فالهمز من أشق الحروف وأعسرها حين النطق به لأن مخرجها فتحة المزمار ، ويحس المرء حين ينطق بها كأنه يختنق » ، انظر : أنيس : موسيقى الشعر ، ص ٢٨ .

(٢) أنيس : في اللهجات العربية ، (القاهرة : مكتبة الإنجلو المصرية ، ط ٤ ، ١٩٧٣م) ، ص ١٧٠ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٥٣ .

(٤) سورة الطور ، الآية ١٣ .

(٥) أنيس : موسيقى الشعر ، ص ٣٠ .

(٦) هي الأحرف المجموعة في العبارة التالية : (فحثه شخص سكت) .

(٧) أنيس : موسيقى الشعر ، ص ٣٢ .

(٨) حاول إبراهيم أنيس في إحصائية لطيفة أن يقدم لنا تحليلاً لطيفاً في نسب ورود الأحرف في القرآن الكريم وهي نسب تقريبية ، حيث قال : « في كل ألف(١٠٠٠) حرف من الحروف : ترد اللام (١٢٧) مرة ، الميم (١٢٤) مرة ، النون (١١٢) مرة ، الهمزة (٧٢) مرة ، الهاء (٥٦) مرة ، الواو (٥٢) مرة ، التاء (٥٠) مرة ، الياء (٤٥) مرة ، الباء (٤٣) مرة ، =

الوقف والابتداء (Univalent and Polyvalent Utterances) :

وهو كما أثر شطر التجويد فقد أثر عن عليّ (في معنى الترتيل من قوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾(١) ، « هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف »(٢) .

فهو فن جليل ، له أكبر الأثر في رسم الإيقاع الموسيقي لمقاطع الآيات ، الوقف يعدّه علماء اللغة من الأصوات غير الأبجدية ، ويطلق عليه الفصل ، فعلى حين يكون الوقف ضروريا عند بعض الكلمات نجده خطيراً عند بعضها الآخر ، وقد قال بعضهم : « إن دلالة الوقف تشبه إلى حد بعيد دلالة النبر »(٣) ، حيث تبرز كتلة المقطع الكلامي الموقوف عليه فقد قال فيه الزركشي : « هو فن جليل وبه يعرف كيفية أداء القرآن . . »(٤) ، وانظر جمال الوقف في المقاطع الآتية(٥) :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ . . ﴾(٦) ، ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . ﴾(٧) ، ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . ﴾(٨) ، ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ . . ﴾(٩) ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ

= الكاف (٤١) مرة ، الراء والفاء (٣٨) مرة ، العين (٣٧) مرة ، القاف (٢٣) مرة ، السين والدال (٢٠) مرة ، الذال (١٨) مرة ، الجيم (١٦) مرة ، الحاء (١٥) مرة ، الخاء (١٠) مرات ، الصاد (٨) مرات ، الشين (٧) مرات ، الضاد (٦) مرات ، الغين والثاء (٥) مرات ، الزاء والطاء (٤) مرات ، الظاء (٣) مرات » ، انظر : أنيس : موسيقى الشعر ، ص ٣٦ .

(١) سورة المزمل ، الآية ٤ .

(٢) انظر : السيوطي : الإتقان ، ١/ ٨٣ ،

(٣) الحسناوي ، محمد : الفاصلة في القرآن ، (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٨٦م) ، ص ١٩٤ ، للمزيد حول أهمية الوقف وصلته بالنبر وقواعده انظر : محيسن محمد سالم : الكشف عن أحكام الوقف والوصل في العربية ، (بيروت : دار الجيل ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ-١٩٩٢) ، ص ١٨٥-١٩٠ .

(٤) الزركشي : البرهان ، ١/ ٣٤٢ .

(٥) عثمان ، حسني شيخ : حق التلاوة ، (الزرقاء : مكتبة المنار ، ط ٩ ، ١٩٩٠م) ، ص ٥٢ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ٧ .

(٧) سورة النساء ، الآية ١٧١ .

(٨) سورة يونس ، الآية ٦٥ .

(٩) سورة يوسف ، الآية ٩٢ .

﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ . . ﴾[1] ، ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[2] ، ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[3] ، ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ . . ﴾[4] ، ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾[5] ، ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾[6] ، ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ . . ﴾[7] ، ففي الآية الأخيرة نلحظ أنه يقبح الابتداء بلفظ وإياكم ، أما الآية التالية فيحسن الوقوف عند لفظ الجلالة الأول منهما ليبتدأ بلفظ الجلالة الثاني من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ . . ﴾[8] ، وذلك للإبقاء على لفظ الجلالة مفخماً .

أما مثال قبح الابتداء فيوضحه ما بعد العلامة (   ) في مثل الآية التالية : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ . . ﴾[9] ، وغاية القول أن الوقف والابتداء يعرفان من جهة المعنى إضافة إلى ما أثر عن الرسول ﷺ .

السكت[10] :

كما في قوله تعالى : ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[11] ، والدور الذي يؤديه

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .
(٢) سورة يس ، الآية ٧٦ .
(٣) سورة الصافات ، الآيتان ١٣٧ـ١٣٨ .
(٤) سورة الزخرف ، الآيتان ٣٤ـ٣٥ .
(٥) سورة القمر ، الآية ٦ .
(٦) سورة النازعات ، الآيتان ٢٢ـ٢٣ .
(٧) سورة الممتحنة ، الآية ١ .
(٨) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .
(٩) سورة الأنعام ، الآية ١٥١ ، ومثلها : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ . . ﴾ ، سورة الممتحنة ، الآية ١ ، وغيرها كثير .
(١٠) السكت : عبارة عن قطع الصوت زمنا هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفس ، السيوطي : الإتقان ، ١/ ٨٨ . يجدر بالذكر أن مواضع السكت ضابطها السماع والنقل ، وهي عند حفص عن عاصم في أربعة مواضع .
(١١) سورة المطففين ، الآية ١٤ ، والمواضع الأخرى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ . . ﴾ ، سورة الكهف ، الآيتان ١ـ٢ ، ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ=

السكت وكيف يكون النغم ، فالسكتة أحياناً توحي بالقطع في موقف انفعالي لإنسان أحس إحساساً بالغاً بالظلم ، فلم يعد باستطاعته أن يرتب جملته دفعة واحدة ، بل قسمها لا شعورياً التقسيم الذي يوحي بتردده وانقسامه هو[1]، وقد يكون المعنى النفسي في المثال التالي أوضح ، قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[2] فالسكت ينبىء عن الدهشة الناشئة من هول الموقف الذي هم فيه والله أعلم .

التفخيم والترقيق[3] :

لهما أثر كبير في الأداء النفسي ، فالملاحظ أن حرف (الراء) يأتي مرققا تارة ، ومفخما تارة أخرى ، وذلك ضمن قواعد مبسوطة عند علماء التجويد ، والنطق بالراء مرققة له دلالة نغمية تختلف عنها مفخمة ، فالراء في قولنا (فرعون) ، غيرها في قولنا (قارون) .

ومن هذا الباب تغليظ اللام في لفظ الجلالة[4] : فلفظ الجلالة حين يأتي مفخماً يشير إلى عظمة ، ويدل على مهابة وجلال في السياق ، ويمثل بعضهم لها بقوله : ﴿ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ ، من قوله تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[5] ، ولنا أن نتخيل الأثر الذي يؤيده هذا الحكم ، بناءا على ما تقدم فإن قارىء القرآن له أكبر الأثر في الوقوف على هذه المعاني جميعاً .

= بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، سورة يس ، الآية ٥٢ ، ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ ، سورة القيامة ، الآية ٢٧ .

(١) الغريب : التنغيم في إطار النظام النحوي ، مجلة جامعة أم القرى ، ص ٣١٤ .

(٢) سورة يس ، الآية ٥٢ .

(٣) يفرّق قوم بين لفظي : (التفحيم) و(التغليظ) ، إذ التفخيم يستعمل مع الراءات ، والتغليظ يستعمل مع اللامات . انظر : شكري : قراءة الإمام نافع ، ص ٢١ .

(٤) أقول وبعض القراء يغلظون اللام في غير لفظ الجلالة لكن بشروط وهي أن تأتي بعد الأحرف الثلاثة الآتية : ص ، ظ ، ط . وأن تكون مفتوحة ، وهو المعتمد في قراءة ورش . ومثالها : « أفطال ، يوصل ، مصلى ، ظلموا » .

(٥) سورة الفتح ، الآية ١٠ .

التنوع في القراءات :

كثيرة هي القواعد التي تتعلق بأحكام قراءة القرآن والقراءات ، والتي يكون التصرف فيها يؤدي غرضاً نفسياً ، فالقراءات في مجموعها تشكل تكاملاً في المعاني المقصودة من أكثر من جهة ، فتارة نجدها تؤدي تكاملاً في الأداء البياني ، وتارة في الأداء الفني ، وتارة في الجانب الفكري ، وتارة في الجانب النفسي وهكذا ، في حين نجد تخفيف الهمزة له غرض نفسي كما أن تحقيقه عند بعضهم له غرض نفسي ـ أيضاً ـ .

فالهمزة على سبيل المثال في الكلمة ﴿هُزُوًا﴾ من قوله تعالى : ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1] ، نجد أن بعض القرّاء[2] يقرؤها بالهمز ﴿هزؤا﴾[3] ، خلافاً لحفص ، حيث قرأها بالإبدال ﴿هُزُوًا﴾[4] ، وهذا التنوع فيه مراعاة للناطقين أنفسهم ، إذ بعض الألسنة يصعب عليها النطق بالهمزة فيأتي الحذف تسهيلاً ، وتبقى الهمزة على الأصل .

يهدف الباحث من ذلك لفت الأنظار إلى أنّ اختلاف التنوع ـ لا التضاد ـ في القراءات قد يساعد أحياناً في اطلاعنا على جوانب نفسية ، فقد تدل قراءة من القراءات على جانب نفسي ، ثم تكون القراءة الثانية دالة على جانب نفسي آخر لم يفهم من القراءة السابقة ، على سبيل المثال كلمة ﴿ثَمُودُ﴾ ، من قوله تعالى : ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[5] قرأها بعضهم[6] بالتنوين خلافا لبقية

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٦٧ .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي هزؤا وكفؤا بضم الزاي والفاء وبالهمز ، انظر : البغدادي ، أبو بكر أحمد بن موسى بن عباس ت (٣٢٤) : السبعة في القراءات العشرة ، تح : شوقي ضيف ، (القاهرة : دار المعارف ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ) ، ١/ ١٥٨ .

(٣) وقرأ حمزة بالهمز لكن مع تسكين الزاي . البغدادي : السبعة في القراءات العشرة ، ١/ ١٥٩ .

(٤) انظر : البغدادي : السبعة في القراءات العشرة ، ١/ ١٦٠ .

(٥) سورة هود ، الآية ٦٨ .

(٦) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالتنوين في أربعة مواضع : في هود : ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ، الآية ٦٨ ، وفي الفرقان : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ ، الآية ٣٨ ، وفي العنكبوت : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ ، الآية ٣٨ ، وفي النجم : ﴿وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾ ، الآية ٥١ ، ولم يصرفوا إلاّ ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ، سورة هود ، الآية ٦٨ ، وقرأ حمزة=

المواضع ، كأن قراءة التنوين ترشدنا إلى معنى نفسي ، وهو أنهم وصلوا في الكفر إلى درجة زادت ، فكان في ثبوت النون إشارة إلى تلك الزيادة في الكفر ، وتركه بقاءً على أصلها[1] . والله أعلم .

المبحث الرابع
الفاصلة القرآنية

تعد الفاصلة القرآنية[2] أحد أكبر وأهم دعائم النغم القرآني ، إذ تحافظ على جو التناسق والانسجام ، وقد كان غرض الباحث من تأخير الحديث عنها هو الحاجة إلى بسط القول فيها بما يتصل بموضوع البحث .

إذ الفاصلة القرآنية عدا عن كونها إسهاما بارزا في تحقيق التوازن الصوتي ، هي ـ في الوقت نفسه ـ مشتملة على كثير من الجوانب النفسية ، يجدر بالذكر أنه على الرغم من كثرة الكتابات الحديثة حول هذا الموضوع « الفاصلة » ، إلا أنه ما زال بحاجة ماسة إلى التأمل والتفكير ، الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن أشاروا إلى الفاصلة كأحد أهم دعائم الإعجاز ، وهي كذلك كانت أحد أهم ما استدل به الذين كتبوا عن الإعجاز في الرد على منكري الإعجاز ، مقارنين ذلك بفنون الكلام والحديث التي عرفها العرب ، مقارنين بين السجع والقافية تارة ، وبين السجع والفاصلة القرآنية تارة أخرى[3] .

= بترك صرف هذه الأحرف الخمسة ، وقرأ الكسائي بصرفهن جمع ، واختلف عن عاصم في التي في سورة النجم ، للمزيد انظر : البغدادي : السبعة في القراءات العشرة ، ١/ ٣٣٧ .

(١) أكثر ما يكون هذا النوع في القراءات التي فيها الألتفات مثل : « تعملون » ، « يعلمون » و« وضعتُ » « وضعَتْ » على ضوئها يتغير المعنى .
ومن ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ ، سورة الأعراف ، الآية ١٧٠ ، وفي قراءة « يُمْسِكون » . الأولى فيها معنى التكثير إشارة إلى زيادة الاستمساك بكتاب الله ، وهو مدح وثناء « يمسِكون » وهي قراءة شعبة من الفعل (أمسك) ، فهي من الفعل الثلاثي المزيد بالهمزة كقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ ، سورة الحج ، الآية ٦٥ .

(٢) هي اللفظة التي تنتهي بها الآية ، وسميت بالفاصلة لكونها تفصل بين الآية وأختها ، يعرّفها الرماني على أنها : « حروف متشابهه في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني » ، انظر : الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٨٩ .

(٣) قال به الرماني ووافقه الباقلاني فيما ذهب إليه مشيرين إلى أن الفاصلة بلاغة والسجع عيب ، =

والباحث على يقين من أن موضوعا كهذا يحتاج في بسطة إلى بحث مستفيض ليقف بنا على جوانب الجمال الفني الذي اشتملت عليه الفاصلة ، والذي كان بدوره له أكبر الأثر في نفوس مستمعيه ، وليبين ما اشتمل عليه من جوانب نفسية أخرى .

إن جمال التوازن الذي تشتمل عليه الفواصل يكمن في الواقع النفسي ، بجانب الإيقاع اللفظي حيث يقوم على الاعتدال في مقاطع الكلام ، والطبع يميل إلى الاعتدال ، والذي ينبغي التنبه إليه في هذا المقام هو أن تحقيق الانسجام الصوتي في الفاصلة لم يكن على حساب المعنى[1]، وهذا ما يفسر مخالفة بعض الفواصل مع إمكانية مجيئها على النسق نفسه ، كما هو الحال في سورة البروج (محفوظ) بلا قلقلة خلافا لبقية فواصل السورة .

يلاحظ أن الغالب الأعم في الفواصل تشترك في الآتي :

١ـ تقارب مخارج الحروف في المقاطع .

٢ـ وجود حرف مد قبل الحرف الأخير من كل مقطع في الغالب .

= يذكر هنا أن بعض العلماء خالفوا الرماني فيما ذهب إليه من نفي السجع عن القرآن وذلك مثل : أبي هلال العسكري والخفاجي وابن الأثير : أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد : المثل السائر ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : المكتبة العصرية ، د . ط ، ١٩٩٥م) ، ١/ ١٩٥ وما بعدها ، حيث لا يرون بأسا بوجود السجع في القرآن ، إلا أنه سجع أعلى من كلام البشر ، فليس على شاكلة مثله في كلام الناس ، لكن بمزيد إنعام نظر نجد أن افتراقا بين الباقلاني وبين مثبتي السجع في القرآن في تعريف السجع ، إذ يقصد الباقلاني وبقية الأشاعرة أن السجع ما كان اللفظ فيه مقدما على المعنى بخلاف ما ذهب القوم إليه ، ومع ذلك فالباحث لا يرى أن يقارن بينهما ، فالسجع إن صح إطلاقه في كلام الله فهو يختلف عنه في كلام البشر الذي يكون المعنى تابعا له مع وجود تكلف وصنعة . للمزيد انظر : أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٢٧٧ .

(١) يقول الرافعي : « كان العرب يترسلون في منطقهم كما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكييف الصوت ، دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت ، إلى أن يتفق من هذا قطع في كلامهم تفي بطبيعة الغرض الذي تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقي ، إن لم يكن في الغاية ففيه قرب من هذه الغاية » ، انظر : الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٢٤٣ وما بعدها .

٣ـ اتحاد النغم والإيقاع في جميع المقاطع ، فهي كلها مؤتلفة في حروفها وألفاظها[١] .

٤ـ انسجام الفاصلة مع الموضوع المتحدث عنه من حيث المعنى ، ومن حيث الجرس ، إذ يختلف سمت هذه الفاصلة عند الحديث عن الأحكام والتشريعات ، فقد تكون طويلة ، أما الفواصل القصيرة فهي في الغالب مكية تخاطب قريشاً ، وتلفت أنظارهم إلى هذا الإعجاز ، وقد كان التحدي فيها بارزا بخلاف آيات الأحكام التي هي مدنية ، فهي في غالبها خطاب للمؤمنين ، وهذا خطاب يمتاز بالإرسال والهدوء ، وهو ما يتناسب والتشريعات التي اشتملت عليها الآيات والله أعلم .

ومن أغراض الفاصلة :

* تحقيق التوازن الصوتي والتناغم الإيقاعي .

* إفهام المعاني وإبراز المقصود ، فهي تعين على إدراك المعاني .

* تبعيتها للمعاني غير متكلفة .

* تعين في الكشف عن بعض الجوانب النفسية التي مرت في الآية ، فهي تجسيد نفسي .

* إعانة القارىء حيث يتمكن من الراحة عند هذه المقاطع .

وفواصل القرآن هذه عدا كونها أبرز مصادر ودعائم الموسيقى القرآنية فهي التي زادت من لفت أنظار المشركين وفصحاء العرب ، إذ هم على علم بالشعر وقوافيه والنثر وأسجاعه لكن القرآن الكريم قد جمع بين محاسن هذه الفنون وزاد عليها ، من غير أن يكون ذلك متكلفا أو مقاماً على حساب المعنى ، كما كان يحصل مع من ينظم الشعر أو ينسج النثر .

« فالنظم القرآني في تأليفه كله له رنين الموسيقى ، فقد جرى العرب كتّابا وشعراء وخطباء على أن يجددوا النظم في فاصلة سجع ، أو قافية شعر ، لكن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وأسلوبه »[٢] ، فالفواصل التي تنتهي إليها آيات القرآن ؟ ما هي

---

(١) انظر : أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٢٧٢ .

(٢) أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٢٦٥ .

إلا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً ، يلائم الصوت والوجه ، الذي يساق إليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ، « وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها ، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن »(١) قال بعض العلماء : كثير في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين ، والياء والنون ، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيبويه : « أنهم « العرب » إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء ذلك في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع . . »(٢) .

الذي يهمنا مما تقدم أن يشار إلى أن هذا النظام الذي نجده في الفواصل جاء منسجماً مع ما تميل إليه النفس الإنسانية ـ كما يقول ذلك من كتب عن علم النفس الموسيقي ـ إذ يقول بعضهم : « إن هناك ميلاً غريزياً في كل كتلة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار أو العبارات الصغيرة . . فإذا ترددت في أواخر الكتل الصوتية مقاطع بعينها شعرنا بسهولة ترديدها . . والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباها عجيبا، وذلك لما فيه من توقّع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع به من مقاطع . . »(٣).

وقد لفت أنظارنا أحد الكتاب المعاصرين إلى لطيفة حريّة بالتسجيل وهي : « أن القرآن نزل في أمة أمية ، تسمع أكثر مما تكتب ، فلم يكن غريباً أن يهتم نص كتابها بالصورة الصوتية المسموعة ، فيأتي وفيه من « الأسجاع » ذلك القدر الكثير الذي يتلى عليهم ويرتل ترتيلاً ، يسمعون فيه ذلك النمط من الموسيقى التي لا عهد لهم بها ، وهم أمة الشعر والموسيقى »(٤) ، ومع ذلك فالقرآن خطاب للبشرية كلها على مرّ العصور .

---

(١) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٤٦ .

(٢) انظر : سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : الكتاب ، تح : عبد السلام هارون ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ٣ ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، ٤/ ٢٠٤ .

(٣) أنيس : موسيقى الشعر ، ص ١١ـ١٤ .

(٤) مخلوف ، عبد الرءوف : السجع والقرآن والباقلاني ، (مصر : مجلة الأزهر ، ع ٥ ، س ٣٩ ، أكتوبر/ ١٩٦٧م) ، ص ٤٣٨ .

ولهذا لا عجب أن نجد الفاصلة القرآنية تؤدي دوراً أكبر في الإيقاع الموسيقي وفي النظام الجمالي ، ويبدو مظاهر النظام في الفاصلة[1] من أكثر من جانب ، منها : اطراد الفاصلة في القرآن كله ، ومنها التزامها الوقف على معظم فواصل القرآن .

ولا شك أن هذا النظام هو الذي يكون له الأثر في النفوس ، إذ النظام في العمل الفني هو الذي يثير التوقعات أولاً ، ثم يشبعها ثانياً ، فحين تلتزم فاصلة أو أكثر « الواو والنون » يتوقع المرتل تكرر هذه الفاصلة من جديد ، وحين يتحقق توقعه يحدث لديه الإشباع ، فيتطلع مرة ثانية ، وهكذا دواليك[2] ، وهو ما سبقت الإشارة إليه بـ « الترقب » الذي كان أبرز الملاحظ النفسية للإيقاع ، فالفاصلة القرآنية إيقاع موسيقي يترك أثره في نفوس مستمعيه ، هذا الإيقاع الموسيقي له أشكال متعددة ينشأ عنها هذا التناغم الإيقاعي ، وقد بسط الحديث عنها من كَتَب في الفاصلة القرآنية[3] ، نشير إليها بإيجاز :

ليست فواصل القرآن على نمط واحد ـ كما هو معلوم ـ إذ بعضها ينتهي بالياء والنون ، وبعضها بالواو والنون ، وبعضها بالياء المشددة. . إلى غير ذلك من أنماط الفاصلة ، والذي يعنينا من هذا كله أن الفواصل في السورة الواحدة تشمل ألوانا من الإيقاع الفني هذا ، فتارة نجد :

١ـ سورة كاملة على رويّ واحد لا يتخلف منها آية ، مثال ذلك : « سورة المنافقون » إذ كل فواصلها إما « ي ، ن » أو « و ، ن » ، وهذا النوع من الفواصل أكثر ما نجده في الآيات المدنية[4] .

---

(١) الحسناوي : الفاصلة في القرآن ، ص ١٩١ .

(٢) انظر : أ .أ . ريتشاردز : مبادىء النقد الأدبي ت (١٨٨٣م) مقدمة مترجم الكتاب ص٣ ، وانظر : الحسناوي : الفاصلة في القرآن ، ص١٩٠ .

(٣) انظر مثلاً : الخطيب : إعجاز القرآن ، ٢/٢١٦ وما بعدها . والحسناوي : الفاصلة في القرآن ، ص ١٩٤ـ٢٥٩ . عكام ، فهد : نحو تأويل تكاملي للنص القرآني ، (دمشق : مجلة التراث العربي ، ع ٧٠ ، س ١٨ ، كانون الثاني ، ١٤١٨هـ ـ١٩٩٨م) ، ص ٦٦ وما بعدها . وانظر : حسان : البيان في روائع القرآن « دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني » ، (القاهرة : عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤١٣هـ ـ١٩٩٣م) ، ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٤) يذكر أن هذه الصيغة ، إما أن تكون « جمع مذكر سالم أو من الأفعال الخمسة » « يفعلون » =

٢ـ على حين نجد بعض الآيات تتوسط نمطاً معيناً سارت عليه السورة ، فتخالف ذلك النمط ـ وهو كثير ـ ، فبينما تنتهي الآيات برويّ معين نجد أن آية أو آيتين أو أكثر خرجت عن هذه القاعدة ، وهذا إضافة إلى كونه يضيف معنى جديدا فهو في الوقت نفسه له مقصود إيقاعي ، إذ فيه من إثارة التوقع ما فيه ، وفيه إحداث صدمة للتوقع عن طريق المفاجأة ، ويمكن أن يطلق عليه « الإيقاع المفاجىء أو دلالة التغير » .

أمثلة هذا النمط في القرآن كثيرة ، وهذا النمط نجده في أغلب السور الطويلة ، ولعل من وظائفها : الخروج بالنفس عن الرتابة التي قد تحدث الملل أحياناً ، فتثير فيه الانتباه ، وتوقظ التفكير ، وتجدّد النشاط الذهني ، علاوة على ما تقدم فإن هذا يشير إلى حريّة الفاصلة في القرآن ، وأنها لم تلتزم نمطاً معيناً ـ كما هو الحال في الشعر ـ ، فليس اللفظ هو الأساس بل هو تابع للمعنى ، وبهذا نلاحظ أن لهذا النمط من التغيير أثراً نفسياً يلقيه على أذن السامع .

٣ـ وهناك نمط آخر من فواصل السور القرآنية وهو التساوي ، إذ نجد في القرآن نمطاً تتساوى فيه الأوزان في جمع من الآيات المتتالية تساوياً لا تجد فيه خللاً ، ولعل أبرز هذا التساوي يمكن التماسه في الربع الأخير من القرآن الكريم ، كما في سورة النجم .

هذا التساوي يخلق جواً نفسياً معيناً ، وقد نجد في السورة الواحدة أكثر من نمط أي « كل مجموعة من الآيات على رويّ معين ، وهذا في الغالب يكون تبعاً للموضوع المتحدث عنه ، إذ الفاصلة من هذا النوع تخلق جواً نفسياً معيناً ، وإذا ما تغير موضوع الحديث لاحظنا نمطاً آخر من التساوي انسجم مع الموضوع ، ولعل أوضح هذا النوع ما نلمسه في سورة العاديات[1] ، ومثلها سورة مريم .

= « تفعلون » ، وهذا خطاب للجموع ، ومعلوم أن الآيات تخاطب في الغالب الأعم الجموع « مؤمنون ، مشركون ، منافقون » ، ومن السور التي غلب على فاصلتها نمط من هذا النوع سورة الرحمن ، فهي على رويّ واحد « نون » قبلها « ألف » ، وهذا يدخل تحت إيقاع الوقف (دلالة الوقف) . انظر : الحسناوي : الفاصلة في القرآن ، ص ١٩٤ .

(١) التي اشتملت على أنماط ثلاثة (الأول : « ضَبْحًا ، قَدْحًا ، صُبْحًا ، نَقْعًا ، جَمْعًا » ، الثاني : « لَكَنُودٌ ، لَشَهِيدٌ ، لَشَدِيدٌ » ، الثالث : « الْقُبُورِ ، الصُّدُورِ ، لَخَبِيرٌ » . هذه السورة كان لها =

٤ـ كما نجد أحياناً عدم انتظام الفواصل الأولى من السورة ، ثم انتظامها فيما بعد وذلك في مثل سورتي (ص) و(الذاريات) انظر الأولى : ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ﴿وَشِقَاقٍ﴾ ﴿مَنَاصٍ﴾ ﴿كَذَّابٌ﴾ ﴿عُجَابٌ﴾ ، ثم تنتظم الفاصلة ، والسورة الثانية : الذاريات بعد روي غير منتظم قصير هو المقطع الآتي : ﴿لَصَادِقٌ﴾ ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ ﴿مُّخْتَلِفٍ﴾ ﴿أُفِكَ﴾ ، ثم يأخذ الانتظام على روي « الواو والنون » أو « الياء والنون » إلى نهاية السورة ، بمزيد تأمل نلحظ أن هذا النمط من الروي يأتي ليقرع الآذان فهو مقصود ، إذ فيه لفت أنظار السامعين إلى ذلك الاختلاف والشقاق ، فالمقطع الأول يشير إلى شقاق واختلاف الكفار ، فكأنّ الفاصلة جاءت لتصور لنا طرفاً من هذا الاختلاف ، كما هو الحال في اختلاف رويّها ، وكذا الحال في المقطع التالي من سورة الذاريات : ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾[1] ، فكأنّ هذا النمط من الفواصل يعبّر عن ذلك الاختلاف .

وهكذا نجد أن الفاصلة تهدف في الغالب الأعم إلى نقل القارىء والمستمع إلى جو الحديث ، فهي إسهام في تهيئة جو الموضوع المتحدث عنه ، وهذا نمط من أنماط الأثر النفسي للفواصل القرآنية[2] .

ثمة جوانب نفسية أخرى تنطوي عليها الفواصل القرآنية غير المظاهر النفسية التي منشؤها الشكل والإيقاع ، فالفواصل القرآنية تأتي في كثير من الأحيان معبّرة عن جوانب نفسية أخرى ، إذ المعروف أن الفاصلة القرآنية لها صلة وثيقة بموضوع ومعنى

= حظ كبير من الحديث لدى أحد الكتّاب الذي تناولها من الناحية الفنية والجمالية ، انظر : المبارك : دراسة أدبية لنصوص من القرآن ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٤ ، ١٣٩٢هـ ـ١٩٧٣م) ، ص ١٨ ، فقال : المقطع الأول من السورة يرسم جو المعركة ، وتأتي الفاصلة فيه من كلمة ثلاثية لا مدّ إلا في آخرها ، تمثّل بقلة مدودها وتوالي حروفها المتحركة حركة الخيل في عدوها ووقع حوافرها ثم ارتفاعها ، الثاني جو الهدوء النفسي متناسب مع التأمل الطويل وطول النفس ، (لكنود . . شهيد . . شديد) . الثالث : قبور . . صدور ، متناسب مع جو القيامة والحساب وتقرير المصير . . » .

(١) الآية ٨ .

(٢) يرجو الباحث أن يبسط فيه القول في بحث مستقل مفصل بعون الله .

الآية التي جاءت فيها ، بل أحياناً لا يمكننا الوقوف على الجوانب النفسية للآية المتحدث عنها إلا من خلال النظر في فاصلتها ، فكم من فاصلة كانت هادية وكاشفة لنا عن جوانب نفسية يصعب علينا تحصيلها لو صرفنا النظر عن فاصلتها حتى وإن طال النظر فيها ـ كما هو الحال في نمط التكرار في الفاصلة ـ .

لو نظرنا في فواصل القرآن الكريم سوف نجد أن الحظ الأوفى فيها لأسماء الله الحسنى ، إذ كثيراً ما نجد الآية تنتهي بأسماء الله الحسنى ، وهذه الآيات موزعة على سور القرآن وآياته بصورة محكمة وملفتة للنظر ، والذي يهمنا من ذلك أن نبحث عن الجوانب النفسية لهذا الختم المحكم والدقيق ، إنه جو مشحون بالمهابة والجلال يشعر بأن إلها حيا قيوماً يأمر وينهى . .

وهو إلى جانب هذا كله يكشف عن معان نفسية كثيرة ، إذ كثيراً ما نجد تشابها في الموضوعات التي تتحدث عنها بعض الآيات ، إلا أن الفاصلة تكون مختلفة ، فعلى سبيل المثال :

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] ، نلحظ كيف خولف هنا في التعقيب ، فكانت فاصلة الأولى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، بينما الثانية : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، هذا بلا شك يهدينا إلى الجانب الدقيق الذي تتحدث عنه الآية الكريمة ، فالآية الأولى : فيها حديث عما يلزم المرأة المتوفى عنها زوجها أثناء عدتها وهي في بيتها ، ويشير إلى أنهن إن أضمرن أو كتمن شيئاً في أنفسهن ولم يظهرنه لأحد (فالله عز وجل محيط به وخبير به) ، وهذا أمر لا يعلمه إلا الخبير ، كما يلاحظ أن الأمر الذي ترغب المرأة في كتمانه في غالب الأمر هو رغبتها في الزواج ، وهو أمر ربما سابق لأوانه بالنسبة للمعتدة فإن بقى سرّاً فالله عز وجل عليم به .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٤٠ .

أما الآية الثانية فيلاحظ فيها أنها أشارت إلى مسألة الخروج ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ ويأتي رفع الجناح وتكون الفاصلة : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وسرُّ ذلك ـ والله أعلم ـ ما فيه من احتمال خروجهن غير طائعات ، فيكون منهن الاعتداء أو الاستعجال كأنّ هذا الختم مناسب لحالهن ، منسجم مع ما يكتمنه في أنفسهن ، ويكون بمثابة التهديد والتحذير ، فانظر كيف غاير بين الحالين لمغايرة الحالة النفسية التي عليها من التزمت بالعدة ، لكنها تكتم شيئا في سرها ، وبين من أخرج المكتوم فلم يعد سراً . والله أعلم .

وقد يكون التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية تابعا لجوانب نفسية وكاشفا لأسرار نفسية ، وللتقديم والتأخير عموماً حديث سيأتي في مكانه ، لكن نشير إلى بعض الأمثلة : فإذا عهد في أسلوب القرآن صيغة معينة ثم وجدنا موضعا واحدا خرج عن هذا المعهود ، فإنه قد يكون لغرض نفسي ، من ذلك : « تقديم موسى على هارون » ـ عليهما السلام ـ في الآيات التي قرنت بينهما عشر مرات ، خمس مرات منها في الفاصلة[1] ، إلا في موضع واحد تقدم فيه هارون على موسى ـ عليهما السلام ـ وهو : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[2] ، فهل هذا التقديم والتأخير كان غرضه ـ كما يقول بعضهم ـ فقط رعاية الفاصلة[3]؟! ثم هل الفاصلة غاية في كتاب الله تعالى؟! ، لدى التأمل نجد أنّ هذا التقديم والتأخير جاء منسجما مع الجوانب النفسية التي تحدثت عنها الآيات ، فقد كان من الطبيعي أن يقدم موسى ، وهو صاحب الرسالة ، على أخيه هارون وهو مساعده في حملها ، إلا أن آية سورة طه كانت قد حدثتنا من قبل عن خوف

---

(١) كما في المواقع الآتية : سورة الأعراف ، الآية ١٢٢ ، سورة يونس ، الآية ٧٥ ، سورة الأنبياء ، الآية ٤٨ ، سورة الشعراء ، الآية ٤٨ ، سورة الصافات ، الآية ١١٤ و١٢٠ ، وهناك مواقع ورد فيها ذكرهما معا لكن ليس تتاليا ، كما في المواقع الآتية : سورة البقرة ، الآية ٢٤٨ ، سورة المؤمنون ، الآية ٤٥ ، سورة الفرقان ، الآية ٣٥ .

(٢) سورة طه ، الآية ٧٠ .

(٣) يذكر أن الإمام الزركشي كان متنبها لهذه المسألة ، فهو لم يرتض أن يكون التقديم والتأخير في الفاصلة لأجل السجع ، وقد تكلم على هذه الآية لكن قال في توجيهه لها : أن الفائدة فيه إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا ، وذلك من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتقوى البلاغة « الزركشي : البرهان ، ١/ ٥٦ .

موسى عليه السلام ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[1] ، فكأنّ هذا الخوف في حضرة الخالق ما كان ينبغي ، فكان في تقديم ذكر أخيه هارون إشارة إلى هذا المعنى النفسي والله أعلم[2] ، فيكون التقديم هنا للاهتمام بالمقدم والعناية به لاعتبارات معينة اقتضاها السياق[3] ، فموسى عليه السلام كان قد مرّ بتجربة العصا التي تنقلب حية ومرت به تجربة الخوف منها حيث ولّى مدبراً ، وبيّن الله له أن هذه ستكون آيته إلى فرعون ، ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾[4] ، لكن لما كان يوم اللقاء بالسحرة وكان منهم أن ألقوا ، عاد الوجس إلى نفس موسى عليه السلام كأنه كان حديث نفس وما كان ينبغي له هذا الخاطر ، فجاء الترتيب على هذا الأساس ليعبر لنا عن هاجس النفس هذا .

---

(١) الآية ٦٧ .

(٢) للمزيد انظر : عباس : القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٩٨٧م) ، ص ٢٤٧ . أشار بعضهم إلى ملحظ نفسي آخر غير الذي ذكر ، أورده هنا لتمام الفائدة « وهو أنه يصور الحال النفسية التي كان عليها السحرة ، لما ظهرت معجزة « موسى » ، فألقوا سجدا يتلعثمون بالشهادة ، كحال العبد الذي فرح بلقاء راحلته بعد ضياعها . الحسناوي : الفاصلة في القرآن ، ص ١٢٠ .

(٣) كما ذكر آخرون توجيهات أخرى للمغايرة في هذه الفاصلة ، فمثلا عبد الكريم الخطيب قال بأن الآيات تحكي إختلاف مقولات السحرة في تلك الحال ، فبعضهم قال : برب هارون وموسى ، وبعضهم قال : رب موسى وهارون ، كما في الأعراف ، وقال بعضهم : برب العالمين ، كما في الشعراء ، أي قالوا جميعا مقولات تدلهم على كلام الله . انظر : الخطيب : إعجاز القرآن ، ٢/٢١٨ـ٢٢٠ ، وبعضهم ذكر توجيها آخر : أن بدء السحرة الذين آمنوا بمن ليس أفضل أدلّ على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها ، فالآية لم تظهر على يد هارون ، ولم يكن هو الغالب . فتقديم هارون أمر لافت للنظر ، إذ كان يقينهم الغلبة ، فلما جاء الأمر على خلاف ما أيقنوا به وانقلب ما كانوا يعتقدونه . كان من المناسب أن يقلبوا القضية ، فيقدموا الفاضل على من هو أكثر منه فضلاً ، وبالتالي يكون في التقديم فائدتان : تأكيد إيمانهم بموسى (صاحب المعجزة) ، وذلك أنهم اهتموا بإبراز إيمانهم بمن هو دونه ، دلالة على هول المفاجأة وقلب النظر إلى هزيمة فكأن قلب الحقيقة في التعبير للدلالة على قلب الحقيقة في الاعتقاد ، وبذلك تناسب هذا التقديم شكلاً وموضوعاً مع حالتهم النفسية ، وقد أسهم التقديم في إبراز هذه الحالة ، انظر : طبق ، عبد الجواد محمد : دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية ، (القاهرة : دار الأرقم ، ط ١ ، ١٤١٣هـ ـ١٩٩٣م) ، ص ١٨٢ .

(٤) سورة طه ، الآية ٢١ .

ومثل التوجيه الذي قيل في الآية المذكورة يمكن أن يقال في الآية : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ، حيث تقدم ذكر هارون على موسى ـ عليهما السلام ـ بخلاف بقية المواضع التي ورد فيها ذكرهما معا .

كما أن التعبير الوارد على ألسنة سحرة فرعون حين آمنوا يحكي لنا ما في نفوسهم ، كأنهم لهول الموقف نطقوا بالكلمات غير مرتبة ، فهي تكشف عن دهشتهم ، فيكون التعبير كاشفا عن هول المفاجأة ، وهي المواقف التي ينطق فيها المرء كلاما غير الذي يصدر من المرء في الحالات العادية[1] ، ويمكن أن يقال من وجه آخر : كأنهم يدلّلون على عمق إيمانهم ، سواء أكان الإيمان جاء على لسان هارون ، أم على لسان موسى فهو لديهم راسخ ، وقد يقال في ذلك غير الذي تقدم ، وكله إن لم يخالف أصول التفسير وضوابطه يمكن أن يكون من مفسرات النظم ، والله أعلم .

أما أنواع الفواصل التي اشتملت عليها آيات القرآن الكريم فهي كثيرة جداً ، وسيحاول الباحث استقصاء خطوط عامة للفواصل ، ثم يشير إلى مدلول هذه الفواصل لأن بين هذه الفواصل خيوطا نفسية يمكن تلمسها ، والفواصل أنواع متعددة ، تفصيلها كالآتي :

* الفاصلة المتوازنة : حيث تتفق فيها الكلمتان وزنا ، كقوله تعالى : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[2] .

* الفواصل المتساوية في القرائن[3] : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[4] .

---

(١) ومثله ما جاء في الحديث الصحيح المروي عن رسول الله ﷺ : (للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ ، كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللهمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ) الحديث رواه التسعة إلا ابن ماجه ، انظر : صحيح مسلم ، ٤/ ٢١٠٤ ، رقم الحديث : ٢٧٤٧ .

(٢) سورة الغاشية ، الآيتان ١٥ـ١٦ .

(٣) أي الآية التي تليها .

(٤) سورة الواقعة ، الآيات ٢٨ـ٣٠ .

* الفاصلة التي تطول قرينتها الثانية : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1] .

* الفاصلة التي تطول قرينتها الثالثة : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[2] .

* فواصل قصيرة : ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾[3] .

* فواصل طويلة قياسا على بقية آيات السورة : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾[4] .

* فواصل متوسطة : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ . . ﴾[5] .

نماذج مختارة لبعض الفواصل من حيث إيقاعها وبعدها النفسي :

الياء المشددة بعدها ألف : تحدث إيقاعاً هادئاً وموسيقى تصويرية منسجمة مع الجو العام[6] .

السين المهموسة الخفية : التي تتناسب وجو السورة ، فمثلاً نجد هذا النموذج في سورتي التكوير والناس ، أما في سورة التكوير كما في المقطع الآتي : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[7] ، نلحظ أن هذا الهمس يتناسب وسريان الليل الذي يغشي النهار[8] .

بينما السين في سورة الناس : تكراره يحدث في النفس وسوسة كاملة تناسب جو

---

(١) سورة النجم ، الآيتان ١ـ٢ .
(٢) سورة الحاقة ، الآيات ٣٠ـ٣٢ .
(٣) سورة المرسلات ، الآيات ١ـ٦ .
(٤) سورة العاديات ، الآيات ٩ـ١١ .
(٥) سورة القمر ، الآيات ١ـ وما بعدها .
(٦) كما في سورة مريم ، للمزيد انظر : الدالي : الوحدة الفنية ، ص ٢٣٣ .
(٧) سورة التكوير ، الآيات ١٥ـ١٨ .
(٨) قطب ، سيد : التصوير الفني ، ص ٩٤ . .

وسوسة الوسواس الخناس ، وهذا هو الجو الموسيقي[1] ، يقول الرافعي : « وكيف لا ترى في فواصلها إلا هذا الحرف « السين« الذي هو أشد الحروف صفيراً ، وأطربها موقعاً من سمع الطفل الصغير ، وأبعثها لنشاطه واجتماعه »[2] .

الفواصل التي تنتهي بأحد أحرف القلقلة ، وقبله حرف مد ، كما في السور : « ق » و« البروج » ، بعض المقاطع من سورة غافر كما في : ﴿الأَلْبَابِ ، الحساب ، العقاب ، كذاب ، الفساد ، تباب ، رشاد ، مرتاب . .﴾ ، هذا النوع من الفاصلة ينبىء عن الرهبة في الصدر ، ويدبُّ الخوف في النفس ، ويصور النفس لاهثة من إنذار صوت هذا الحرف المقلقل المشبع والمشدد والمسبوق بالمد .

أما الفواصل المنتهية بأحرف مشدّدة لم يسبقها حرف مد ، وتبعها الألف اللينة ، مثل أواخر سورة مريم : ﴿أَزًّا ، إِدًّا ، هَدًّا . .﴾ ، هذا الجرس وظله يصور تلك الحركة المتحدث عنها من الضخامة والفظاعة .

بعض الفواصل التي تكون على وزن فاعله مثل : ﴿الوَاقِعَةُ ، عَاتِيَةٍ ، الغَاشِيَةِ ، القَارِعَةُ ، خَاطِئَةٍ ، نَادِيَه ، الزَّبَانِيَةَ . .﴾ ، فيها تنشيف للآذان وتناسب مع الصيحات الراعدة ، والنداءات المتكررة ، والإيقاعات المزلزلة ، فالدقات أشبه ما تكون بالرعد ، والإيقاع أشبه ما يكون بالقصف[3] ، هذا النمط من الفواصل نجده في الغالب عند الحديث عن أهوال يوم القيامة ، لما فيه من تصوير للفزع ، والرعب والكرب .

الحرف المشدد الذي يليه ألف مثل : ﴿دَعًّا ، دَكًّا ، صَفًّا . .﴾ ، أشبه ما يكون بالعرض العسكري ، كالموسيقى العسكرية المنتظمة الدقات ، . . وغير ذلك مما يدخل تحت هذا النوع كثير .

وهكذا نجد أن الفواصل القرآنية تتنوع وتختلف ، وهذا بدوره يحدث تنوعا في الإيقاع وتنوعاً من التناسق الفني ، ثم هو يعبّر عن معان نفسية قد لا تكون بارزة بشكل مباشر ، وما أبدع ما قاله سيد قطب : « يتنوع نظام الفواصل والقوافي ، كما تتعدد

---

(١) قطب ، سيد : التصوير الفني ، ص ٩٤ .
(٢) الرافعي : تاريخ آداب العرب ، ٢/٢٠٦ .
(٣) للمزيد انظر : الدالي : الوحدة الفنية ، ٢٣١ .

ألوان الإيقاع الموسيقي ، أما نظام الفواصل والقوافي فقد لاحظنا أنه يتنوع في السور المختلفة ، وقد يتنوع في السورة الواحدة ، فأما تنوعه في السور فيختلف بالقياس إلى الفواصل بين الطول والتوسط والقصر ، وهو أشبه باختلاف بحور الشعر في الديوان الواحد ، وقصارى ما يقال فيه : أن الفواصل تقصر غالباً في السور القصار ، وأنها تتوسط أو تطول في السور المتوسطة والطوال . وبالقياس إلى حرف القافية ، يشتد التماثل والتشابه في السور القصيرة ، ويقل غالبا في السور الطويلة ، وتغلب قافية النون والميم وقبلهما ياء أو واو على جميع القوافي في سور القرآن ، وذلك مع تعدد الموسيقية ولو تشابهت القوافي في السور المختلفة »[1] ، وقد لوحظ أنّ صاحب هذه النظرية لا يتكلف أو يتمحل في هذا التأويل ، فما لم يظهر لم يفصّل القول فيه ، فهو يقول : « وأما تنوع هذا النظام في السورة الواحدة فقد لاحظنا في مرات كثيرة أن الفاصلة والقافية لا تتغيران لمجرد التنويع ، وقد تبين لنا في بعض المواضع سر هذا التغير ، وخفي علينا السر في مواضع أخرى ، فلم نرد أن نتمحل له لنثبت أنه ظاهرة عامة . . »[2] .

لكن الأمر الذي يهمنا في هذا كله هو أن هذه الفواصل تتناسب والجو النفسي الذي تتحدث عنه الآيات ، والباحث على يقين من هذا ، يحتاج إلى مزيد تمعّن ، وذلك لاكتساب الجو النفسي لكل مقطع من المقاطع التي يشترك في رويٍّ واحد ، ولعل هذا هو الذي جعل سيد قطب يجزم بأن هذا التنوع يتبع نظاماً خاصاً ، وينسجم مع الجو العام باطراد ولا يستثني[3] .

يخلص الباحث مما تقدّم إلى أن موضوع الآيات هو الذي يتحكم بالأسلوب المعروض وبالإيقاع المناسب ، وبعد الذي تقدم يمكن أن نشير إلى أن الفاصلة القرآنية :

* تعتبر ضربا من الإثارة للنفس الإنسانية ، وأداة من أدوات التنبيه والمفاجأة[4] .

---

(١) قطب ، سيد ، التصوير الفني ، ص ١٠٧ .
(٢) قطب ، سيد ، التصوير الفني ، ص ١٠٨ .
(٣) قطب ، سيد ، التصوير الفني ، ص ١١٠ .
(٤) انظر : المبارك : دراسة أدبية لنصوص من القرآن ، ص ١٥١ـ١٥٢ .

* الفاصلة تصوير صوتي موازي ومقارن للتصوير التعبيري .

* النغمات في الفواصل متناسبة مع موضوعها وفكرتها شدّة ولينا وسرعة وبطأً .

* تتنوع النغمات في الفواصل طولا ووزنا .

* يبدو التناسق الموسيقي والنفسي والفكري للفواصل .

* إن ما يقال له التكرار في بعض فواصل القرآن لوحظ حضوره في السور المكية الأولى : العهد القريب بالرسالة ، إذ الحاجة إلى اليقين النفسي أقوى وأمسّ ، فيأتي التكرار اللفظي في الوقت الذي لا مجال للإطالة أو الإعادة ليؤكد أهميته القصوى بإعادة اللفظ[1] .

* أهم ملحوظة أن أي تصرف في الفاصلة القرآنية لم تكن الغاية منه المحافظة على النغمة الموسيقية أولا ، بل كان لمعنى ربما ظهر أو خفي علينا أحيانا .

يحدثنا من كتب في علم النفس الموسيقي عن كيفية شعور المرء بنغم الكلام فيقولون : « إن هناك ميلاً غريزياً في كل كتلة مكونة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار أو العبارات الصغيرة ، فقد نسمع في عشر من الثواني مما يكاد يبلغ خمسين مقطعا صوتيا ، فإذا ترددت في آواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع بعينها شعرنا بسهولة ترديدها ، وأحسسنا بغبطة وسرور حين سماعها ، وبعث هذا فينا الرضا والاطمئنان إليها . . والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباها عجيباً ، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع لتتكون منها جميعا تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس الأخرى . . فإذا سيطر النغم على السامع وجد له انفعالاً في صورة الحزن حينا ، والبهجة حيناً آخر ، وصحب هذا الانفعال النفسي هزات جسمانية معبرة . . . »[2] .

* * *

---

(١) للمزيد انظر : بنت الشاطىء : التفسير البياني ، ١/ ٥٧ـ٥٨ .

(٢) أنيس : موسيقى الشعر ، ص ١١ـ١٤ . بتصرف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

آيات وسور القرآن من المنظور النفسي

تمهيد

ظل القرآن الكريم يتنزل على قلب الرسول الأمين ﷺ قرابة ثلاث وعشرين سنة ، وقد صيغت آيات القرآن بأسلوب يخاطب الإنسانية كلها ، فالعنصر الإنساني والجانب النفسي هو الذي انتظمت في ضوئه آيات القرآن الكريم ، فقد كان أول مقطع تنزل على الرسول الكريم تحدّث عن الإنسان ، قال عز وجل : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾[1] و﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[2] ، فلم يأت القرآن الكريم إلا ليكون منهجاً ودليلاً يتخذه الإنسان في مسيرة هذه الحياة ، والمتأمل في نصوص القرآن الكريم يجد أن هذه الفكرة تصحبه حتى آخر آية من كتاب الله ، بل حتى آخر لفظة من القرآن الكريم ، انظر كيف أنّ آخر كلمة منه حسب الترتيب هي الناس : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾[3] .

فالقرآن منهج واقعي نزل موجها لهذا الإنسان : واقعيّ في خطابه ، واقعيّ في أسلوبه ، واقعيّ في أوامره ونواهيه ، واقعيّ في تراكيبه ، ولهذا لا يمكن أن يدرس القرآن الكريم بمنأى عن البيئة التي تنزل فيها النص الكريم ، إذ هذه البيئة شملت أدوار الزمان وأحوال الإنسان والأماكن المحيطة بالإنسان .

الذين تحدثوا عن العلوم التي تتعلق بالقرآن ، وأطلقوا عليها اسم علوم القرآن ، لا يمكنهم الوقوف على حقائق هذه العلوم ، إلا إذا أدركوا فيها هذا البعد النفسي ، فالبعد النفسي صحب علوما أحاطت بنزول القرآن كلها ، هذا الفصل سوف يلقي الضوء

---

(١) سورة العلق ، الآية ٢ .

(٢) سورة العلق ، الآية ٥ .

(٣) سورة الناس ، الآية ٦ .

على بعض هذه الأبعاد النفسية التي صحبت تلك العلوم ، إلا أن الحديث عن هذه المعاني النفسية سيكون حديثاً موجزاً .

المبحث الأول
قضايا علوم القرآن من الوجهة النفسية

المطلب الأول : تنجيم القرآن

ابتدأ نزول القرآن من مبعثه ﷺ ، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة ، وقد أشار القرآن إلى هذا : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[2] ، فقد عاب المشركون على النبي نزول القرآن مفرقا .

وقد كان وراء نزوله بهذه الصفة أبعاد نفسية ، منها :

أولا : أبعاد نفسية متعلقة بشخص المرسل إليه ، وهو ما صرحت به آية الفرقان .

أـ إذ كانت الآية تهدف إلى تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، وهي غاية نفسية ، ففي تجدد الوحي وتكرار نزوله على رسول الله ﷺ استمرار هذا السرور الذي يملأ قلب النبي ﷺ ، لما يشعر به من العناية الإلهية .

ب ـ من ناحية أخرى فيه تقويه لنفسه الشريفة[3] ، وذلك بإعانته على ضبطه ، وهذا يقوي الجانب اليقيني والراحة النفسية في الدعوة ، إذ في كل تنزل تقويه لجانب المعجزة ، وبالتالي تحدي ومواجهة قومه الذي ينتج عنه قوة القلب والفؤاد وشجاعة النفس ، وهو ثمرة .

ج ـ تسلية قلب النبي ﷺ ، وذلك بتعهد الله إياه عند اشتداد الخصام ، إذ كلما أحرجه خصمه سلاه ربه إما بذكر قصص ، أو بوعدٍ بالنصر ، أو بغيره . وهكذا

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ .

(٣) للمزيد انظر : الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ٥٣ . يشار هنا إلى أن صاحب مناهل العرفان ذكر خمسة أوجه لتثبيت النبي ﷺ ، لدى التأمل نجد أنها أوجه نفسية ، وقد حاولت أن أجملها في النقاط المذكورة أعلاه ، انظر : ص ٥٢ ـ ٥٥ .

ما انفك القرآن يتجدد نزوله مهوّنا على الرسول ما يجده من قوة مصبّراً إياه : ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[1] .

د ـ دفع الأسى بالأسى من مقتضى الطبع البشري وهذا ما يؤكده علم النفس الحديث ، فلما يقرأ الرسول ﷺ في صلاته قصص الأنبياء قبله يعيش ذلك الجو النفسي المسلّي له على أنه ليس هو الوحيد على هذا الخط الإيماني .

ثانيا : أبعاد نفسية للمؤمنين الذين يتنزل فيهم القرآن .

* لو نزل القرآن جملة واحدة لشقّ على المسلمين حفظه ، خاصة وأن أدوات الكتابة لم تكن متوفرة ، وبالتالي تضيق النفوس . فكان من حكَم نزوله بالتدريج تيسيره للحفظ ، كما أن فيه تسهيلا لفهمه ، إذ المعروف أن كثرة التعاليم والأوامر المعطاة للشخص تحدث له نوعا من الارباك ، أو ربما العجز عن الطاعة .

* التدرج بالمسلمين في مسألة الأوامر والنواهي ، وهي مسألة نفسية تدخل ضمن المنهج التربوي الذي ينشده القرآن الكريم .

إذ في هذا التنزل إعطاء فرصة كافية لهم ليتخلصوا من عقائدهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة التي اعتادوا عليها ، والنفس يشق عليها الانتقال مرة واحدة من حال اعتادت عليه إلى حال جديدة لا عهد لها به ، فكان هذا التدرّج مراعاة للنفوس ، وبعداً بها عن الحرج والعنت الذي صرحت به نصوص القرآن فـ « رفع الحرج أحد أغراض ومقاصد هذه النصوص » ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[2] ، و﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[3] .

وقد كان هذا التدرج أحد مزايا التشريع الذي تنزل به القرآن الكريم ، فانظر هذا التدرج في تحريم الخمرة التي اعتادت النفوس عليها ، وقد كانت متأصلة فيهم ، ولم يكن التدرج في جانب التحريم فحسب ، بل كان ملحوظا في جانب الأوامر ، إذ

---

(١) سورة المزمل ، الآية ١٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية١٨٥ . وانظر : بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص١٧٩ وما بعدها .

(٣) سورة الحج ، الآية ٧٨ .

الجهاد لم يفرض على النفوس مرة واحدة ، بل بعد أن تربّت النفوس ، واستعدت وتهيأت لحمل لواء هذه الرسالة .

وبهذا نجد أن القرآن الكريم قد فرّق بين الأعماق والسطحيات في أنفس الأفراد والمجتمعات ، فكل قضية عميقة الجذور في نفس الفرد اتخذت شكل عادة شعورية ، وكل قضية عميقة الجذور في نفس المجتمع اتخذت شكل تقليد اجتماعي أو عرف دولي ، فللإسلام فيها موقف المتمهل المتريث[(١)] .

بعد نفسي آخر يتعلق بالمسلمين ، وهو تسليتهم وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ، وذلك بما كان يتنزل عليهم من قصص الأمم السابقة ، فكان بمثابة التسلية للنفوس ، والانتقال بها إلى الاطمئنان النفسي ، انظر قوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[(٢)] ، فالناس مقصودون من هذا التدرج وهذا التنغيم . هذا فضلاً عن المعاني النفسية التي تنطوي على الترتيل الذي يحتاج إلى تمهل ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[(٣)] .

معنى نفسي آخر ، وهو الطمأنينة ، وذلك من خلال معرفتهم أن القرآن يتنزل مجيباً عن تساؤلاتهم التي كانت ترفع لرسول الله على فترات متعددة .

حكمة أخرى متصلة بأعداء القرآن وهي فائدة للمؤمنين ، هي أن هذه الآيات كانت تتنزل كاشفة لأسرار الكفار والمنافقين ، وهاتكة لأستارهم ، وفاضحة لنواياهم ، ومبينة لما تنطوي عليه نفوسهم .

المطلب الثاني : أسباب النزول (Occasions Revelations)

المعروف عند العلماء الذين تحدثوا عن علوم القرآن ، أن قسماً من القرآن نزل مرتبطاً بسبب ، وأطلقوا عليه « سبب النزول » ، ولا تخفى أهمية هذا العلم وضرورة الإلمام به ، إذ هذه الأسباب تقف بالقارىء على الجو النفسي الذي تنزلت فيه الآيات الكريمة ، ولذا لا يمكن لنا أن نتذوقه تذوقاً سليماً إلا إذا وقفنا على الظروف النفسية

---

(١) للمزيد انظر : الصالح ، صبحي : مباحث في علوم القرآن ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١٧ ، ١٩٩٠م) ، ص ٥٧ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ .

والاجتماعية التي أحاطت به ، وأعني بالظروف النفسية تلك المتعلقة بمن تنزلت فيهم الآيات ، وكذلك الأمر في مجريات الأحداث ، ولا يخفى على الدارس أهمية وضرورة الإلمام بهذا العلم لمن رام فهم القرآن الكريم ، خاصة من أراد الوقوف على الجوانب النفسية[(١)] ، ولذلك فإن الباحث اعتبر هذا العلم أحد أهم الضوابط التي تعين على فهم الجوانب النفسية في القرآن الكريم ـ كما سيأتي الحديث عنها في الضوابط ـ إن شاء الله .

سبب النزول ـ في حقيقة الأمر ـ بمثابة « قصة تستمد من الواقع عرضها وحلها وعقدتها وحبكتها وأشخاصها وأحداثها »[(٢)] ، ولعل هذا يعين تالي القرآن على إدراك الجوانب النفسية لهذه القصة من جهة ، ثم إن هذه الأحداث لها وظيفة نفسية أخرى تعمل في تالي القرآن نفسه ، وذلك أنها تعين على طرد السآمة والملل من النفوس ، حين تطّلع على أحداث تحكي لهم كثيراً من سلوكهم الذي يمارسونه .

إذ هذه الأسباب تجعل تالي القرآن يعيش الأجواء النفسية لهذه الأحداث التي تنزلت في ضوئها الآيات ، كيف لنا أن نعيش تلك الأجواء النفسية التي عاشها على سبيل المثال « كعب بن مالك وأصحابه . . « عندما تخلفوا عن غزوة تبوك ، عندما نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾[(٣)] ، وهذه الأسباب معينة في الوقوف على تلك الجوانب النفسية ، وكيف نعيش في تلك الأجواء النفسية التي مرت بها أم المؤمنين عائشة في حادثة الإفك لو لم نقف على أحداث هذه القصة ، وهكذا الأمر في بقية الآيات التي وردت بأسباب متعلقة بالنزول .

ورداً على سؤال قد يخطر في أذهان بعض المغرضين من أنه « أي فائدة يحققها القارىء عندما يقرأ أحداثا مرت وانتهت ؟ وما وجه الفائدة في بقائها آيات تتلى وقد انتهت أحداثها ، فمثل هذا يجاب عليه بمسألة الشعور النفسي ، إذ كيف لهذا الإنسان

---

(١) يذكر أن مالك بن نبي كان قد فصّل القول في هذا من خلال محاولته تحليل نفسية الرسول ﷺ من خلال الوحي ، وقد جاء هذا الكلام مبسوطا في كتابه المشهور : الظاهرة القرآنية ، ص ١٢٣ وما بعدها ، وانظر : ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) الصالح ، صبحي : مباحث في علوم القرآن ، ص ١٣٠ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ١١٨ .

أن تتحرك مشاعره وتثار تجاه مسألة من المسائل إذا لم يقف على أبعادها وظروفها ، فالنفس مجبولة على أنها تشارك غيرها في الشعور ، وبالتالي يتحقق التفاعل مع الأحداث .

كما أن معرفة سبب النزول يسهم في إبراز دقة وضع اللفظ بصورة أوسع ، إضافة إلى ما تحمله اللفظة من دقة في حد ذاته ، بحيث تنقل نفس القارىء إلى حالة وجدانية تناسب الحالة التي تتحدث عنها الآية الكريمة ، فيكون لسبب النزول دور بارز في تصور تلك المشاعر التي كان يعيشها أصحاب الحدث المذكور ، أما النصوص الدالة على هذه الحقيقة فكثيرة جدا ، يكفي إيراد مثال واحد ليوضح الدور النفسي الكبير الذي يعين الإلمام بسبب النزول على كشفه ، فضلا عن كونه يعطي مفردات الآية غزارة في المعنى ، قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾[1] ، في النص المتقدم لكل لفظة من الألفاظ ظلال لا يوضحها إلا الوقوف على سبب النزول ، فمثلا : (حمية الجاهلية ، سكينتة ، ألزمهم ، كلمة التقوى) ، كيف نفهم معنى الحمية وأبعادها النفسية بغير الوقوف على ما كان من المشركين في تلك اللحظة ؟ فالآية تحدثنا عما حدث يوم الحديبية ، ثم كيف نفهم ظلال لفظة السكينة النازلة على المؤمنين وأثرها فيهم بغير الوقوف على سبب النزول ؟ ثم كيف ندرك معنى ألزمهم كلمة التقوى بغير ذلك ؟[2] ، حين نعرف سبب النزول وأن المشركين أخذتهم الحمية والعصبية لآلهتهم يوم الحديبية ، ومنعوا المسلمين من زيارة

---

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٦ .

(٢) نقل القرطبي في معنى الآية : قال ابن بحر : حميتهم عصبيتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها ، وقيل حمية الجاهلية أنهم قالوا : قتلوا أبناءنا وإخواننا ، ثم يدخلون علينا في منازلنا ، واللات والعزى لا يدخلها أبدا ، فأنزل الله سكينته أي الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين ، وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ، وألزمهم كلمة التقوى ، انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٦/ ٢٨٩ . قيل في كلمة التقوى : هي بسم الله الرحمن الرحيم ، استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله ﷺعلى قضية المدة ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١٥/ ٧٦ .

البيت الحرام[1] ، كما أن سبب النزول هو الذي يطلعنا على أثر هذا المنع وما أحدثه في النفوس ، التي ضاقت حتى جعلت عليا رضي الله عنه ـ وهو كاتب الوثيقة ـ آنذاك يرفض أن يمحو (بسم الله الرحمن الرحيم) ، على الرغم من أن الرسول ﷺ هو الذي أمره بذلك ، وهذا الذي جعل عمر رضي الله عنه يقول : علام نعطي الدنيّة في ديننا ؟ ويذهب إلى أبي بكر يراجعه في الأمر ، حتى علم فيما بعد أنه فتح ، فقال : أو فتح هو ؟ قال ﷺ نعم ، فطابت نفسه ورجع[2] ، بهذه المعاني يمكن أن نفهم الظلال النفسية للألفاظ المذكورة في نص الآية ، وهكذا الشأن في كثير من الألفاظ .

ثمة أمر آخر له صلة بأسباب النزول ، وهو أنه حتى القواعد التي وضعها العلماء فيما يتعلق بأسباب النزول كانت تراعي هذا الجانب ، فما معنى قولهم : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » ؟

إذ الآيات حين تسرد لنا حدثاً وقع في عهد الرسول ﷺ لا تريد منا فقط أن نتسلى بالاطلاع على هذا الحدث فحسب ، بل إن لها بعداً نفسياً آخر غير تلك المشاركة الشعورية ، وهي أنها أحداث قابلة للوقوع في كل زمان ، وعليه فهي تعم ما يشبهه من

---

(١) نقل الآلوسي عن الرازي قوله : « في هذه الآية لطائف معنوية ، وهي أنه تعالى أبان غاية البون بين المؤمنين والكافرين ، حيث باين بين الفاعلين ، إذ فاعل جعل هو الكفار ، وفاعل أنزل هو الله تعالى ، وبين المفعولين إذ تلك حمية وهذه سكينة ، وبين الإضافتين إضافة الحمية إلى الجاهلية ، وإضافة السكينة إليه تعالى ، وبين الفعلين جعل وأنزل ، فالحمية مجعولة في الحال كالعرض الذي لا يبقى ، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فإنزالها ، والحمية قبيحة مذمومة في نفسها ، وازدادت قبحا بالإضافة إلى الجاهلية ، والسكينة حسنة في نفسها ، وازدادت حسنا بإضافتها إلى الله عز وجل » ، الآلوسي ، شهاب الدين أبو الفضل محمود بن شكري : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) ، ٢٦/١١٨ .

(٢) القصة بتمامها موجودة في البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٨٣٢ . نورد الشاهد : « فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي والمشركين ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ، فجاء عمر فقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطي الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا ! ! فقال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا ، فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : يا بن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا ، فنزلت سورة الفتح » .

أحداث . فإن كان تشريعاً فإنه يشمل كل من يمرّ بظروف تشبه ظروف الحادثة المروية ، وإن كان وصفاً شمل الحديث كل توازن فيه صفات المذكورين ، إذ القرآن يذكر هذه الأحداث ليذكّر المسلمين ، ويأخذوا العبر والدروس منها .

والقرآن حين يصور لنا حدثا فإنه يريد أن يلفت به أنظارنا إلى نمط ونموذج معين من البشرية هذا حاله ، وكونه مشهدٌ يتكرر في كل زمان ومكان ، فهذه أنماط متشابهة من البشرية ، ونماذج متكررة في كل جيل ، وإن الأنماط الإنسانية المتكررة لتتعدد بتعدد الزوايا النفسية ففيها : الطيب والخبيث ، والمؤمن والكافر . . وغير ذلك .

ثمة بعد نفسي آخر لهذا العلم ، وهو أن العلم به يعين على تيسير الحفظ وتسهيل الفهم ، إذ الذهن يكون أوعى لتذكر الأحداث التي يذكر قصتها ، فكلما قرأ تلك الأحداث تذكر قصتها ، وعلماء النفس في العصر الحديث يشيرون إلى هذا ، وهو ما يطلق عليه (قانون تداعي المعاني)[1] إذ النفس تستذكر الكلام عندما تستذكر مقارناته من أحداث .

علوم أخرى متصلة بالنزول

هنالك علوم أخرى بحثها الذين تحدثوا عن علوم القرآن ، متصلة بالنزول ، وهي كلها في حقيقة الأمر تنطوي على أبعاد نفسية ، ولما لم يكن غرضنا في هذا : الاستقصاء وإنما الاكتفاء بالإشارة إلى وجود هذه الأبعاد النفسية ، فإن الباحث سيوجز في حديثه عن تلك العلوم مكتفيا بالإحالة إلى الأصل الذي يلمسه القارىء دون أدنى تكلف .

من هذه العلوم المتعلقة بالنزول « نزول القرآن على سبعة أحرف » ، إذ في صريح النصوص التي وردت بهذا الشأن ما يشير إلى ملاحظة الأبعاد النفسية لمن تنزلت لهم النصوص ، فعبارة الرسول ﷺ : « فيهم الشيخ والعجوز وذا الحاجة »[2] أو « وإن

---

(١) إحدى العمليات الذهنية التي يتم بها استدعاء سلسلة من الأشياء ، أو الأفكار التي ترد إلى العقل ، للمزيد انظر : منصور ، طلعت ، وأنور الشرقاوي وعادل عز الدين وفاروق أبو عوف : أسس علم النفس العام ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٩٨٩م) ، ص٤٦١ .

(٢) الأحاديث الواردة في كون القرآن نزل على سبعة أحرف ، متواترة ، انظر : صحيح البخاري=

أمتي لا تطيق ذلك» ضمن حكمة تشريعه تسهيل النطق به ومراعاة لاختلاف الألسنة ، وتصريح بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ كان يطلب هذا التخفيف لأمته[1] .

وهذا أمر وتشريع فيه ، مراعاة للفروق الفردية ، وهو مبدأ من أهم المبادىء التربوية في العصر الحديث ، التي تناولها علماء النفس ، هذا فيما يتعلق بالجانب التشريعي له ، أما الجانب النفسي المتعلق بالمضمون فالمعروف أنه نشأ من هذا التعدد اختلاف في بعض الأحكام ، ولا يخفى ما في هذا الاختلاف من تيسير على المكلفين الذين يجدون سعة ومرونة في نصوص القرآن الكريم ، وربما لا نبالغ إن قلنا بأن هنالك بعداً نفسياً آخر يخص المسلمين الذين تنزل فيهم القرآن ، وهو أن هذا التنوع مصدر دعم لنفسية المسلمين ، إذ القرآن يكون معجزاً إذا قرىء بهذه القراءة ويكون معجزاً ـ أيضاً ـ إذا قرىء بالقراءة الثانية وهلم جرا . . ، وبالتالي تتعدد المعجزات بتعدد وجوه القراءة .

ومن هذه العلوم المتعلقة بالنزول « أول ما نزل من القرآن ، وآخر ما نزل » ، من الملاحظ أن أول الآيات نزولا كان قد روعي فيها البعد النفسي ، فالذين كتبوا في علوم القرآن حين تحدثوا عن هذا المبحث فرقوا بين أول ما نزول على الإطلاق وبين أول ما نزل فيما يخص الموضوعات والأحكام الشرعية ، فأول الآيات نزولا كانت مراعية

= ٢/ ٨٥١ ، وصحيح مسلم ، ١١١١/٣٨ ، ٥٣٤ ، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد وغيرهم ، وفي أغلب الروايات كانت الإشارة إلى المراعاة لظروف وأحوال المسلمين ، ومن ذلك : عن زر عن أبي قال : « لقي رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عند أحجار المراء ، فقال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام : إني بعثت إلى أمة أميين ، فيهم الشيخ العاصي ، والعجوزة الكبيرة ، والغلام ، قال : فمرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف » ، رواه أحمد .

(١) نص الحديث في مسلم : صحيح مسلم ١/ ٥٦٢ : « فأتاه جبريل عليه السلامفقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا » ، وانظر ابو داود ، ٢/ ٥٦٢ ، والنسائي ، ٢ ، ١٥٢ .

لتلك الأبعاد النفسية . وهذه الآيات التي نزلت تصف الرسول ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾[1] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾[2] ، هل تراهما تفهمان بعيدا عن الأجواء النفسية التي كان يعيشها الرسول ﷺ .

وانظر سورة المزمل ، التي تصف تلك الحالة النفسية[3] للذي تتنزل عليه الوحي ، تصفه وهو متلفف في ثيابه رهبة من الوحي في حالة الخوف النفسية ، والملاحظ أن الألفاظ التي اشتملت عليها الآيات تحمل حالة « أزمة »[4] ، أو بركان على وشك الانفجار ﴿الْمُزَّمِّلُ ، ثَقِيلاً ، أَشَدُّ وَطْئًا ، وَكِيلاً ، اصْبِرْ ، اهْجُرْهُمْ ، وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ، أَنكَالاً وَجَحِيمًا ، طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ، عَذَابًا أَلِيمًا ، يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ ، الْجِبَالُ ، كَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ، وَبِيلاً ، شِيبًا ، السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ ، ويأتي العلاج النفسي الذي يهدىء ثورة هذا الانفجار : ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[5] ، ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[6] ، ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾[7] ، ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾[8] ، ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[9] .

حتى أول آية نزلت من القرآن كان فيها هذا الحديث عن التكوين النفسي للإنسان ، إذ فيها الأمر بالقراءة باسم الله ، ثم تكرار للأمر بالقراءة مع استعداد للتعليم ، ويكفي الإنسان فخراً أن الله عز وجل الذي خلقه بيديه كان المعلم الأول له بما وهبه من قدرات فطرية تساعده على استيعاب العلم[10] .

أما ما يتعلق بأول ما نزل من الأحكام والتشريعات فهو ـ بلا شك ـ كان منسجما مع الأحوال والظروف النفسية وهذه من أبرز مزايا أسلوب القرآن التشريعي .

---

(١) سورة المزمل ، الآية ١ .
(٢) سورة المدثر ، الآية ١ .
(٣) للمزيد انظر : بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص ١٩٠ وما بعدها .
(٤) انظر : عبد الهادي : سلطة النص ، ص ٧٦ .
(٥) الآية ، ٢ .
(٦) الآية ٤ .
(٧) الآية ٧ .
(٨) الآية ٨ .
(٩) الآية ١٠ .
(١٠) الهاشمي : لمحات نفسية في القرآن الكريم ، ص ٣٢ .

وأما بالنسبة لآخر ما نزل فانظر مثلاً : سورة النصر« وهي آخر سورة نزلت بتمامها ، كيف صيغت على الأبعاد النفسية التي كان عليها صاحب الرسالة[1] .

المطلب الثالث : الناسخ والمنسوخ (Abrogation)

أما الناسخ والمنسوخ فالجوانب النفسية التي نلمسها في مشروعيته فبائنة من أكثر من وجه ، فقد علمنا أن من أغراض نزول القرآن منجماً ذلك التدرج ، وعلم الناسخ والمنسوخ يعدّ ضرباً من ضروب التدرج في نزول الوحي[2] ، والتدرج هذا كان الغرض الأول منه مراعاة الجوانب النفسية والفروق الفردية والحالات التي عليها النفس الإنسانية ، ثم إن بعض النصوص التي فيها تصريح برفع التكليف[3] في بعض الأمور التي سبقها أمر به تصرح بهذه الحكمة .

فانظر مثلاً إلى التخفيف ـ عند من يرى النسخ في قوله تعالى ـ : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[4] ، الذي نزل بعد أن شق على النفوس ما ورد في قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[5] ، هل تجد ذلك خارجاً عن الحديث عن أمر متعلق بالنفوس ؟

---

(١) يجسّد هذا الفهم ما روي عن ابن عباس (قال : « ثم كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم : لم تدخل هذا ولنا أبناء مثله ، فقال : إنه ممن قد علمتم ، قال : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، قال : وما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني ، فقال : ما تقولون في : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . . « حتى ختم السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وقال بعضهم : لا ندري . أو لم يقل بعضهم شيئا ، فقال لي : يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت : لا ، قال : فما تقول؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله ، والفتح فتح مكة ، فذاك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ، قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم » ، انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٥٦٣ .

(٢) الصالح ، صبحي : مباحث في علوم القرآن ، ص ٢٥٩ .

(٣) عند من يقولون بنسخ الآية بغض النظر عن التسمية ، إذ يطلق عليه بعضهم تخصيصا وليس نسخا ، أيا كان فغرض الباحث من هذا فقط إلقاء الضوء على الجوانب النفسية التي تكمن وراء هذا النوع .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٨٤ .

وانظر مثلاً قوله تعالى عند من يعتبر النسخ في الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ ﴾[1] ، انظر كيف جاء رفع الحرج والتصريح به فيما بعد ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ . . ﴾[2] ، وهكذا نعلم أن هذا الأمر فيه جوانب نفسية كثيرة ، حتى في تلك الأحكام التي عمل المسلمون بمقتضاها ، ثم جاء التخفيف ، فيها روعيت تلك الجوانب النفسية .

حوى القرآن الكريم في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية الكثير من الأوامر والنواهي الموجهة للفئة المؤمنة ، والذي يدقق النظر في هذه الأوامر والنواهي يجد أنها صيغت لتطابق نفوس الذين تنزلت فيهم الآيات ، وهذا يظهر على السواء في جانب الأوامر وفي جانب النواهي ، ففي جانب الأوامر مثلاً نجد أن الآيات الأولى جاءت آمرة رسول الله ﷺ ومن معه بالتسلُّح بالطاعات ، فقيام الليل إلا القليل كان أمراً تكليفيا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[3] ، وبقي الأمر كذلك حتى مضى قرابة العام ، ثم نزلت الآية التي فيها التخفيف[4] ، هكذا أراد الله لهذه اللبنة الأولى أن تبنى على أساس قوي ومتين ، وتتحمل من التكاليف أضعافها ، ليصغر بعده أي تكليف يناط بها ، والآثار تدلنا على أن الرسول ﷺ والطائفة التي معه قاموا حتى انتفخت أقدامهم ، فنزل التخفيف في الشطر الثاني بعد اثني عشر شهراً[5] ، ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ١٢ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية ١٣ .

(٣) سورة المزمل ، الآيتان ، ١ـ٢ .

(٤) قد يقول قائل : « إن هذا المثال لا ينسجم مع العنوان ، فالتكاليف تسير عكس المتوقع ، إذ المتوقع أن يكون الأمر التكليفي في بدايته خفيفاً ثم يتدرج إلى الشاق » ، وعمداً بدأ الباحث بهذا المثال لأن المتبادر إلى الأذهان ، أن التدرج يكون من التكليف الخفيف إلى ما هو أشق ، لكن وحتى لا ينطبع في الأذهان هذا ، نجد المثال المذكور يتدرج من الأشق إلى ما هو أخف ، وهذا تبعا للأبعاد النفسية التي تتلاءم مع المرحلة التي تنزلت فيها الآيات .

(٥) الحديث أخرجه مسلم ، رقم ٧٤٦ ، وأخرجه أبو داود في السنن ، واللفظ المستشهد به لابن خزيمة . انظر : ابن خزيمة : محمد بن إسحاق أبو بكر السلمي : صحيح ابن خزيمة ، تح : محمد مصطفى الأعظمي ، (بيروت : المكتب الإسلامي ، د . ط ، ١٣٩٠هـ ـ١٩٧٠م) ، ٢/ ١٧١ ، « . . افترض الله القيام في أول هذه السورة ، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولا ، حتى=

وفق علمه وحكمته بأعبائهم : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾[1] .

والبعد النفسي في هذا أن مشقّة التكليف هذه ناسبت نفسية المكلّفين بها ، فهم الذين سارعوا إلى الاستجابة بهذه الرسالة ، رغم كل ما كانوا يواجهونه من أقوامهم من صدود وإعراض وإيذاء ، هؤلاء بلا شك سيكونون أقدر على التحمُّل ، هم الذين قامت على كواهلهم ركائز الرسالة ، فلا عجب إذن مشقة التكاليف ، ولمّا كثر عدد الذين آمنوا بهذه الرسالة ، وتوزع الحمل المنوط بتلك العصبة ، جاء التخفيف ليناسب النفوس وأبعادها ، لأنّ منْ بادر إلى الإيمان بهذه الرسالة في ظل ظروف هي الأشق والأقسى ، لا شك في أن قدرته على التحمل للأعباء والتكاليف أكثر ممن آمن بها بعد .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2] ، فكان على العشرين من المسلمين أن يقاتلوا المائتين ، من أعدائهم لا يفرّوا من أمامهم ، فإذا كان العدد أكثر من ذلك جاز لهم التحيز إلى فئة ، ثم جاء التخفيف في الآية التالية ، الواحد مقابل اثنين بدل العشرة . روي عن ابن عباس (أنه قال : « كتب عليهم ألا يفرّ واحد من عشرة »[3] ، وهذا التخفيف ناسب ضعف النفوس الوارد في منطوق الآية : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ

= انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء ، ثم أنزل التخفيف في آخرها ، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة وأقيموا الصلاة » ، للمزيد انظر : الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، (بيروت : دار الفكر ، د. ط ، ١٤٠٥هـ) ، ١٤١/٢٩ .

(١) سورة المزمل ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآيتان ٦٥ ـ ٦٦ .

(٣) أخرجه البخاري : صحيح البخاري ، ١٧٠٦/٤ ، وأبو داود في السنن ، ٤٦/٣ ، رقم : =

﴿ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

ما تقدم كان فيما يتعلق بالأوامر ، أما فيما يتعلق بالنواهي واجتنابها ، فالأمثلة التي يستدل بها على التدرج المتناسب مع الأبعاد النفسية كثيرة ، فقد جاءت هذه النواهي بما يتناسب وطبيعة النفس الإنسانية ، فالطبيعة الإنسانية إذا اعتادت أمراً ، وشكّل هذا الأمر جزءاً من كيانها ، صعب عليها التخلص منه جملة واحدة ، لهذا نجد مراعاة النفسية أكثر ما تبرز في الجوانب التشريعية والأحكام ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :(شرب الخمر) ، انظر كيف تدرجت النصوص في استئصال هذه العادة من نفوس أصحابها ، إذ لو كان الأمر الأول ورد بتحريمها لما كانت استجابة كما ورد على لسان أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ(١) ، فكان أن جاء التحريم ، على مراحل وفي آيات نتلوها من كتاب الله(٢) .

وكذا الأمر في مسألة الربا ، حيث تدرّجت النصوص في تحريمها ، وجاء التدرُّج كذلك في مسألة تحرير الرقيق ، والجهاد كان قد فرض على مراحل ، كل هذا كان يُراعى فيه البعد النفسي .

ولو عدنا إلى الذين تحدثوا عن الحِكَم التي كانت وراء النسخ ، لوجدنا أن حكمة النسخ مرتبطة بالجوانب النفسية ، إذ الذين توسعوا في النسخ ، وجعلوه يشمل

= ٢٦٤٦ ، والبيهقي في : السنن الكبرى ، ٩/ ٧٦ ، والطبراني في : الكبير ١١/ ١١٢ .

(١) من حديثها الطويل الوارد في البخاري : «.. إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر ، لقالوا لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا أبداً » ، انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٩١٠ .

(٢) الآيات هي : قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٢١٩ ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، سورة النساء ، الآية ٤٣ ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، سورة المائدة ، الآية ٩٠ . قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ، سورة النحل ، الآية ٦٧ .

الأديان ، ذكروا جوانب نفسية ، فنجدهم يقولون ـ مثلاً ـ : « إن الله عز وجل نسخ بالإسلام الأديان كلها ، ويرجعون الحكمة في ذلك إلى أن تشريعه أكمل تشريع ، يفي بحاجات الإنسانية في مرحلتها التي انتهت إليها ، بعد أن بلغت أشدها واستوت.. وبيان ذلك أن النوع الإنساني تقلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة ، ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه ، غير الحال التي تناسب دوراً غيره ، فالبشر أول عهدهم بالوجود ، كالوليد أول عهده بالوجود سذاجة وبساطة ، وضعفا وجهالة ، ثم أخذوا يتحولون من هذا العهد رويداً رويداً.. حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه.. جاء هذا الدين الحنيف ختاماً للأديان.. موفقا بين مطالب الروح والجسد »[1] .

وأما بالنسبة لنسخ بعض أحكام الإسلام ببعض ، فتظهر الحكمة المتعلقة بالجانب النفسي من كون هذه الشريعة تنتهز فرصة الإلف والمران ، والأحداث الجادة عليهم لتسير بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب[2] ، وهذا غاية ما يهمنا في هذا البحث فيما يتصل بحديثنا عن الجوانب النفسية .

المطلب الرابع : المكي والمدني

إن العلم بالمكي والمدني ربما يعدّ من أهم الأمور التي يجب على من يروم فهم القرآن الكريم ، إذ لا يتأتى له الفهم الصحيح لهذا الكتاب الكريم ، إلا إذا أحاط المرء علماً بالمكي والمدني ، ذلك أنه مرتبط بآيات القرآن سوره كلها ، فهي إما مكية وإما مدنية .

والعمل به يمكن الدارسين من الوقوف على مراحل التشريع الإسلامي ومراحل الدعوة الإسلامية ، وتمكنه من إدراك الخطوات الحكيمة المتدرجة والمتزامنة مع الأحداث والظروف ، خاصة إذا ما أخذ بعين الاعتبار ذلك الأسلوب المختلف في مخاطبة المسلمين والمشركين وأهل الكتاب .

كما تكمن أهميته في أنه يشمل في آن واحد الترتيب الزماني للآيات والسور

(١) الزرقاني : مناهل العرفان : ٢/ ١٩٤ .
(٢) الزرقاني : مناهل العرفان ، ٢/ ١٩٥ .

والتحديد المكاني بل والتعيين الشخصي ، ولعل هذا هو المعوّل الذي استند إليه الذين اختلفوا في تحديد مفهوم المكي والمدني ، فمن ناظر إلى التحديد المكاني ، ومن ناظر إلى الترتيب الزماني ، ومن ناظر إلى التعيين الشخصي (أي ما وقع خطاباً لأهل مكة فهو مكي ، وما وقع خطاباً لأهل المدينة فهو مدني)[١] ، وذلك بمراعاة أشخاص المخاطبين .

وإن الدراسة النفسية لا غنى لها عن أي من العناصر المذكورة السابقة ، وبهذا يمكننا إدراك الأهمية التي تنطوي عليه معرفة هذه المباحث ، وقد نبه علماؤنا الأعلام إلى أهمية العلم بالمكي والمدني وضرورته لمن تصدى لتفسير كتاب الله . فقد ورد عن أبي القاسم النيسابوري بعد أن ذكر خمسةً وعشرين وجها تتعلق بالمكي والمدني ، ثم قال : « من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله »[٢] .

كيف لا يكون هذا العلم مهماً ، وعليه يتوقف معرفة كثير من العلوم المتصلة بعلوم القرآن التي سبق الحديث عن بعضها ، مثل : تميز الناسخ والمنسوخ ، معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم ، التعرف على أسلوب القرآن وطريقته في الخطاب ، ومعرفة أحداث السيرة وأساليب الدعوة .

خلاصة الأمر : أن القرآن كله قائم على رعاية حال المخاطبين ، فتارة يكون فيه شدة ، وتارة يكون فيه لي ،ن وذلك حسب ما يقتضيه حالهم ، ولوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدة والعنف ، فذلك لما مردوا عليه من أذى الرسول وأصحابه والكيد لهم[٣] .

بمثل ما تقدم من مراعاة الأحوال يمكن الرد على أولئك الطاعنين في الأسلوب القرآن ، الذي قالوا عنه بأنه متغاير في الأسلوب بين المكي والمدني ، وعابوا ذلك في أسلوب القرآن[٤] ، وإن هذا القرآن تأثر بالوسط والبيئة ، بل هم في حقيقة الأمر لم

---

(١) انظر : الصالح ، صبحي : مباحث في علوم القرآن ، ص ١٦٧ . والزرقاني : مناهل العرفان ، ١/ ١٩٣ .

(٢) الزركشي : البرهان ، ١/ ١٩٢ .

(٣) الزرقاني : مناهل العرفان ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٤) Safra J. E. 1998.The new Encyclopdia Britannica. 15th Edition. Chief operating =Officer Chicago , V.11, p:405c-406, & V. 17,p:420.

يدركوا واقعية القرآن الكريم ، فالقصر والإيجاز الموجود في الآيات المكية مظهر رقي المخاطب وآية فهمه وذكائه ، بحيث يكفيه من الكلام موجزه ، ومن الخطاب أقصره[1] ، إذ البلاغة متحققة في كل منهما على درجة واحدة .

تغاير الأسلوبين المكي والمدني والأبعادِ النفسية

القارىء لكتاب الله يلمس بشكل واضح أن الآيات المكية تختلف اختلافاً كبيراً عن الآيات المدنية ، حيث يمكن حصر هذا الاختلاف في نقطتين :

١ـ اختلاف في الموضوعات .

٢ـ اختلاف في الأسلوب ، حيث يمكن إيجاز هذا الاختلاف ، وبيان جوانبه النفسية كالآتي :

الآيات المكية تخاطب المشركين من قريش ، الذين تغلغلت فيهم الوثنية والجهالة ، في الوقت الذي يتمتع فيه هؤلاء بفصاحة اللسان وقوة البيان ، لذا نجد الآيات المكية قد ركزّت على نزع عقائد الشرك وغرس عقيدة التوحيد ، فأغلب حديثها كان في أمور العقيدة وما يتعلق بها كالخالق ، الرسالة ، الرسول ، اليوم الآخر ، ونظراً لأن الاختلاف في الموضوع يقتضي الاختلاف في الأسلوب ، فإنا نجد أسلوب الآيات المكية امتاز بما ينسجم مع هذه الموضوعات ، ونجملها في الآتي :

كثرة ذكر الحجج والبراهين ، وكثرة ذكر أدوات الزجر والقسم ، ولا يخفى ما فيه من انسجام مع طبيعة الموضوع الذي يحتاج إلى عنف وشدة من جهة ، وطبيعة المخاطبين الذين رسخت هذه العقائد الفاسدة في نفوسهم من جهة أخرى ، وكثرة ذكر القصص والأمم الماضية وذلك للاعتبار والتذكر ، وقد لوحظ غياب تشريع الأحكام والتفصيلات الشرعية في هذه المرحلة ، إلا ما كان منها متصلاً اتصالاً مباشراً بالعقيدة « كالصلاة » ، أو ما كان ضروريا .

وامتازت الآيات بالقصر ، وهذا له بعد نفسي منسجم مع طبيعة المخاطب ، إذ المشرك لا رغبة لديه بسماع الحديث الطويل ، فتأتي الآيات لتؤدي وظيفتها بإيجاز

---

(١) الزرقاني : مناهل العرفان ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

شديد ، ومع هذا الإيجاز برزت نواحي الإعجاز ، لأنهم هم أهل الفصاحة عجزوا عن الإتيان بمثله .

أما الآيات المدنية فقد لوحظ أنها تناولت موضوعات جديدة ، لم يكن لها ذكر في الآيات المكية من ذلك : المنافقون ، الجهاد ، أهل الكتاب ، تفصيلات تشريعية وأحكام معاملات ، وهذا ناتج بطبيعة الحال عن أن ظهور الحاجة إليها كان في هذه الفترة ، فالمنافقون : لم يكن لهم ظهور إلا بعد الهجرة ، فمن الطبيعي تناول الحديث عنهم ، والجهاد : لا يقوى على رفعه إلا من مَلَك قوتي السلاح والساعد ، ولا وجود لهما في مكة ، أما في المدينة فقيام الدولة الإسلامية عنوان القوة ، وأهل الكتاب : لم يكن للمسلمين ـ في مكة ـ أي احتكاك بهم ، أما عندما قدموا المدينة جاوروهم ، فاقتضى ذلك نزول تفصيلات بشأن التعامل معهم .

وكذا الأمر بالنسبة لأحكام المعاملات والتفصيلات التشريعية ، فكثرة عدد الداخلين في الإسلام ، وتشابك العلاقات والمصالح ، يقتضي مزيد تفصيل ، وقد ناسب هذه الموضوعات تغيّر في الأسلوب في الآيات المدنية ، حيث لاحظنا طول الآيات ، وهذا يتناسب مع ذكر التفصيلات التشريعية .

كما لوحظ غياب ألفاظ الزجر والعنف والقسم ، وميل الآيات المدنية إلى أسلوب الهدوء والاسترسال ليتناسب وينسجم مع الموضوعات المطروحة ، إلى غير ذلك من الاختلافات التي نجد تفصيلها في كتب علوم القرآن[1] ، والذي يهمنا من هذا كله أن هذا التغاير في الأسلوب له أبعاد نفسية ، إذ هو منسجم مع من يخاطبهم النص القرآني ، والله تعالى أعلم .

والتشريعات التفصيلية والأحكام المتنوعة ، تشمل جوانب الحياة التي نلمسها في الآيات المدنية ، تشكل في مجموعها دستوراً للأمة المسلمة ، وهذا الدستور القرآني عرض بأسلوب يخاطب كل الملكات الإنسانية . فالقرآن الكريم ليس كتاباً على الطراز الكتابي ، مرتباً على أبواب وفصول ، بل هو كتاب سماوي منظم على الدقائق النفسية

---

(١) انظر مثلاً : الزركشي : البرهان ، والسيوطي : الإتقان ، ١/٦ وما بعدها ، والزرقاني : مناهل العرفان ، وكتب أخرى كثيرة .

والحقائق الأخلاقية والحوائج الفطرية في الحياة الإنسانية ، فهو دستور موافق للطبع الإنساني ، فدعائمه قائمة على الغرائز النفسية[١] .

المطلب الخامس : أسلوب القرآن والجوانب النفسية

المقصود بالأسلوب : طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه[٢] ، وبهذا يكون الأسلوب غير المفردات والتراكيب ، أصل الأسلوب : « السطر من النخيل »[٣] ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب » ، والناظر في أسلوب القرآن يجده قد جمع بين أساليب الكلام المعروفة عند العرب كلها ، فتارة يستخدم الأسلوب الخطابي[٤] ، وتارة الأسلوب العلمي[٥] ، وتارة الأسلوب الأدبي[٦] .

ولسنا في هذا المقام بصدد تتبع أنماط التعبير التي استخدمها القرآن الكريم ، إذ تكفي الإشارة إلى أنه ما من أسلوب من الأساليب الكلامية المعروفة والمشهورة عند العرب إلا ونجد له نظيراً في كتاب الله[٧] ، والذي يهمنا من هذا كله أن نشير إلى أن البعد النفسي هو الأساس في تنوع الأساليب هذه ، وتعددها في الخطاب القرآني ، ولعل الباب الثالث من هذه الدراسة يلقي بعض الضوء على تلك الجوانب النفسية التي

---

(١) للمزيد انظر : الأميني ، محمد تقي الدين : الأسس الفكرية الإيمانية للدستور القرآني ، (مصر : دار الصحوة للنشر ، د . ط ، ١٩٨٥م) ، ص ٩ .

(٢) الزرقاني مناهل العرفان ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

(٣) الزبيدي ، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي : تاج العروس ، (جمالية مصر : المطبعة الخيرية ، ط ١ ، ١٣٠٦هـ) ، ٣/ ٧١ .

(٤) « الذي يعتمد على العبارات الجزلة القومية ، والجمل الرصينة ، والنبرة المؤثرة » .

(٥) هو الأسلوب الذي يقوم على الحجة والبراعة في الإقناع ، وترتيب الأدلة ، والقوة في دفع الشبهات .

(٦) هو الأسلوب الذي تقدَّم فيه العبارة السلسلة وجمال التصوير ودقة التعبير وإيقاظ المشاعر . عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، (عمان : دار الفرقان ، ط ٣ ، ١٩٩٢م) ، ص ٦٧ .

(٧) بل إن بعض الذين تحدثوا عن الإعجاز ذهبوا إلى أن القرآن أتى بأساليب جديدة لا عهد للعرب بها ، وهي من أساليب حديثهم ، لمزيد اطلاع على هذه الألوان يحيل الباحث القارىء إلى كتاب : أبو زهرة : المعجزة الكبرى .

تكمن وراء هذه الأساليب البيانية التي صيغت في ضوئها آيات القرآن الكريم .

إن الأسلوب القرآني في عرضه لمضمونه وموضوعاته أسلوب فذّ فريد ، لا يضاهيه أسلوب ، والباحث يتناول منه ـ بإيجاز شديد ـ ما يتعلق بالجانب النفسي .

فالأسلوب القرآني استغرق كافة الأحوال ، وراعى المقامات جميعها ، إذ لكل مقام مقال ، وقد أشير إلى طرف من هذا عند الحديث عن المكي والمدني ، وكيف أن تغاير الأسلوب هذا كان لمراعاة أحوال المخاطبين وظروفهم . فما يجمل في موطن يقبح في موطن ، وقد تميز الأسلوب القرآني بالإعجاز ، فهو معجز في لغته ، ومعجز في بلاغته ، وإن الخصائص التي انفرد بها الأسلوب القرآني ، والتي تتعلق بالجوانب النفسية هذه ، كثيرة مثل :

مسحة القرآن اللفظية « نظام القرآن الصوتي» الذي له دور في استرقاق الأسماع واستهواء النفوس ، وفيما تقدم غناء عن المزيد .

إرضاء العامة والخاصة وقد تقدم ذلك ، وفي هذا استيعاب لجميع النفوس واستجلاب لها .

إرضاء العقل وإمتاع العاطفة ، فنجده لا ينسى حظ العاطفة من الحديث ، وهو في خضم الجدال وسوق الأدلة والبراهين .

التصريف في القول ، وذلك أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ متعددة وطرق مختلفة ـ وقد تقدم ـ ويجدر الإشارة إلى أن أسلوب القرآن من الناحية البلاغية كان في ذروته ، ولم يتغير أو يتفاوت ، وإنما الذي نلمسه في هذا الأسلوب هو أن الأسلوب يراعي الموضوعات التي يتحدث عنها ، إذ أسلوب آيات التشريع يختلف بلا شك عن أسلوب القصة ، وهو كذلك يختلف عن أسلوب الوعد والجزاء والوعيد .

نجد القرآن عندما يتحدث لنا عن الجوانب التشريعية يطيل في التفصيل ، وهذا ـ بلا شك ـ منسجم مع الموضوع الذي يعرضه ، والذي يهمنا من هذا هو أن هذه الإطالة في الجانب التشريعي وهذا الإرسال وهذا الهدوء في الجرس ، أشد تأثيراً في النفوس ، ويحسن هنا أن نشير إلى نكتة لطيفة نبّه إليها صاحب الظلال فيما يتعلق بالأسلوب القرآني ، وكونه أحيانا يطيل في بيان حكم في الآيات التي تتحدث عن التشريع « لإطالة

مكثه في الأعصاب ، وتعميق أثره في النفوس »[1] .

ولا شك أن للتعبير الأسلوبي والتصوير البلاغي أثرهما في التأثير النفسي والعاطفي ، ونحن نتلمس هذا التأثير القرآني على الطريقة الواقعية في نفوسنا وفي أعماقنا ، عندما نسمع آية من آيات الله تساق مساق التحذير أو مساق التعبير عن موقف من مواقف الآخرة ، أو مواقف البعث والحساب ، حينها نحس أثرها في جلودنا وفي نفوسنا ، كما أشار عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[2] .

والذي يدقق في الأسلوب القرآني يجد أنه جاء منسجماً مع الطبيعة الإنسانية ـ تقدمت الإشارة لذلك ـ إذ النفس الإنسانية تحبّ مثل هذا التنوع ، في حين تأنف وتملّ الأسلوب الذي يسير على رتابة واحدة ، ولو تتبعنا مظاهر هذا التنوع في الأسلوب القرآني فإننا سوف نجدها ليس فقط في القالب اللغوي الذي يعرض فيه موضوعاته ، وإنما في التقسيم القرآني : (في السورة القرآنية ، في الآية القرآنية ، في الجملة الواحدة ، في المقطع ، في القصة الواحدة ، في الموضوعات المتعددة التي تتضمنها السورة) .

المبحث الثاني
تقسيم وترتيب الآيات والسور والجوانب النفسية

المطلب الأول : تقسيم الآيات والسور والجوانب النفسية

على الرغم من تباعد الفترة الزمنية الذي ظل القرآن فيها يتنزل على قلب الرسول ﷺ ، وعلى الرغم من أن الترتيب الذي نجده في المصاحف على غير الترتيب الزمني ، فإننا لا نجد أي تفاوت أو فجوة في السورة القرآنية ، وهذا الترتيب الذي عليه المصحف كان بتوقيف من النبي ﷺ ، ولم يكن فيه مجال للرأي والاجتهاد[3] ، انظر

(١) قطب ، سيد : الظلال ، ٦/ ٣٦٠٥ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٢٣ .
(٣) ففي الحديث : ».. إذا نزل عليه الشيء يعني من القرآن ، دعا بعض من كان يكتب ـ أي الوحي ـ كزيد بن ثابت ومعاوية وغيرهما ، فإذا نزلت عليه الآية ، فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة=

هذا الكتاب الحكيم ، كيف هو مكوّن من آيات وسور ، تلك السور التي فيها الحصن والحمى[1] ، وقد جعل الله من وراء ذلك حكماً كثيرة يهمنا منها ما يتصل بالجوانب النفسية ، وهي :

١ . التيسير على الناس ، وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وحفظه[2] .

٢ . إن القارىء حين يتم سوره وينتقل إلى سورة أخرى ، فإن في ذلك تجديدا لنشاطه وباعث على البقاء مشدودا إليه .

أما أسماء السور فهي توقيفية ـ أيضاً ـ ، ويوجد أكثر من اسم لبعض السور ، ونحن لو أنعمنا النظر لوجدنا أن هذه السور كاللبنات في البناء المحكم »[3] .

= التي يذكر فيها كذا وكذا ، قال المباركفوري : هذا زيادة جواب تبرع به رضي الله تعالى عنه للدلالة على أن ترتيب الآيات توقيفي وعليه الإجماع والنصوص المترادفة » ، المباركفوري : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم : تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط . ت) ، ٨/ ٣٨٠ ، وانظر : الترمذي ، سنن الترمذي : ٥/ ٢٧٢ ، رقم : ٣٠٨٦ ، وقال حسن صحيح . ونقل السيوطي عن القاضي عياض إجماع الأمة على ذلك : « قال القاضي عياض ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة بتوقيف من الله على ما هي الآن في المصحف وهكذا تلقته الأمة عن نبيها ﷺ ، انظر : السيوطي : الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج ، تح : أبو إسحاق الأثري ، (الخبر : دار ابن عفان ، د . ط ، هـ ١٤١٦ـ١٩٩٦م) ، ٢/ ٣٨١ ، وفي الباب نصوص كثيرة تدل على ذلك ، منها : « عن عثمان بن أبي العاص قال :كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي » ، أحمد : المسند ، ٢١٨/٤ ،وهو ضعيف لأن فيه ليث بن ابي سليم وحوشب وكلاهما ضعيف .

ومنها ما أخرجه البخاري صحيح البخاري ، ٤/ ١٦٤٦ـ١٦٤٩ : « عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ ، نسختها الآية الأخرى ،فلم تكتبها أو تدعها ؟ والمعنى لماذا تكتبها ؟ أو قال : لماذا تتركها مكتوبة مع أنها منسوخة ؟ قال : يا ابن أخي لا أغير شيئا من مكانه » ، للمزيد حول المسألة انظر : السيوطي : الإتقان ، ١/ ٦٠ ، والزرقاني : مناهل العرفان ، ١/ ٢٤٠ .

(١) أصل المعنى اللغوي للسورة مأخوذ من السور الذي يتخذ حصناً وحماية .

(٢) الزرقاني : مناهل العرفان ، ١/ ٣٥١ .

(٣) يوجد له فسطاط : « سورة البقرة » انظر : السيوطي : الإتقان ، ١/ ٥١ـ٥٢ ، وقد قيل في =

إن هذا التقسيم الذي نجده في القرآن يجعل القارىء يتنقل من جوّ إلى جوّ ومن طريقة تفكير إلى طريقة تفكير أخرى ، ومن مشاعر إلى مشاعر أخرى ، إن من يقرأ في القرآن يجد نفسه يتعامل مع كائن حي يتحرك وينطق : له مشاعر ، يفرح ويحزن ، يخاف ويرتعد ، يرضى ويغضب ، يشعر أنه جزء من هذا الكون المترامي الأطراف ينظمه خيط واحد ، ينتقل بين سور القرآن فتتحرك بها مشاعره ، هذه سورة تثير فيه مشاعر الثقة والاعتزاز ، وتلك سورة تثير فيه مشاعر الغيرة ، وأخرى تثير فيه مشاعر الغضب ، وأخرى تثير فيه مشاعر الأحزان ، وهكذا. . حتى لكأنّ هذه الآيات أشبه بمذراة ، وظيفتها تحريك الخيوط التي تنظم في ضوئها تلك المشاعر الإنسانية ، أو أشبه بعود كأن تتحرك فيه الأوتار ، ليعطي كل وتر لحنا يختلف عن الوتر الذي يجاوره ، فكل سورة من سور القرآن لها جوّها الخاص. . مفرداتها الخاصة. . أسلوبها

= سبب التسمية : سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ، ولهذا سميت في الأثر فسطاط القرآن ، الذي هو المدينة الجامعة ، فناسب تقديمها على جميع سوره ، سماها خالد بن معدان ، وانظر : السيوطي : أسرار ترتيب القرآن ، تح : عبد القادر عطا ، (القاهرة : دار الاعتصام ، د . ط . ت) ، ١/ ٨٢ . وسميت بعض السور بالعتاق الأول في الحديث المروي عن عبد الرحمن بن يزيد قال : سمعت ابن مسعود يقول : في بني إسرائيل - الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء « إنهن من العتاق الأول » ، البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٧٤١ ، ١٧٦٥ ، ١٩١٠ . وهناك مجموعة من الأحاديث لكنها ضعيفة يوردها الباحث ذكرا فقط ، قلب القرآن : « سورة يس » عن أنس مرفوعا : « إن لكل يء قلبا ، وإن قلب القرآن يس. . » ، أخرجه الترمذي : ٥/ ١٦٢ ، رقم : ٢٨٨٧ ، وقال حديث غريب ، وحكم عليه الألباني بالضعف ، انظر : الألباني ، محمد ناصر : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء في الأمة ، (مكتبة المعارف للنشر والتوزيع) ، ١/ ٢٠٢ ، رقم ١٦٩ . انظر السيوطي : الإتقان ، ١/ ٥٣ . من حديث رواه أحمد : المسند ، ١/ ٢٦ ، الدارمي : سنن الدارمي ، ٢/ ٥٤٨ ، والبيهقي : السنن الكبرى ، ٦/ ٢٦٥ ، الحاكم : المستدرك ، ١/ ٧٥٣ . عروس القرآن : « سورة الرحمن » عن علي مرفوعا : « لكل شيء عروس ، وعروس القرآن الرحمن » رواه البيهقي : شعب الإيمان ، تح : محمد السعيد بسيوني زغلول ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٠هـ) ، ٢/ ٤٩٠ ، وفيه أحمد بن الحسن دبيس المقرى : عده الذهبي في الضعفاء والمنكرين ، وقال الدارقطني : ليس بثقة ، انظر الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ٣/ ٥٢٦ ، رقم١٣٥٠ ، وانظر المناوي : فيض القدير ، ٥/ ٢٨٦ .

الخاص . . فكرتها الرئيسية الخاصة بها . . مشاعر تنسجم معها .

وقد لا يكون ضربا من المبالغة أن يمثّل حال السور بالآتي : « كل سورة بمثابة لوحة فنّية ، لها ألوانها الخاصة ، ومسرحها الخاص من المكان والزمان و . . ومفرداتها ومعجمها الخاص من الألفاظ . . وأسلوبها الخاص من التعبير . . وجرسها الخاص . . ونغمها . . وإيقاعها الخاص . . ليتشكل فيما بعد شخصية مستقلة لهذه السورة ، لا يشاركها غيرها في هذه اللوحة الفنية .

وهكذا نجد سور القرآن أشبه بحجرات القلب المتنوعة تأتي هذه الآيات لتملأها بتلك المشاعر ، وهذا ما يفسر تنوع الموضوعات التي تتحدث عنها الآيات وينظمها خيط واحد .

لعل في تجربة صاحب الظلال ما يقف بنا على طرف من هذه المعاني ، ولهذا يرجو الباحث أن ينقل في الآتي مقتطفات من كلامه ، فهي على طولها جديرة بالتسجيل : « لكل سورة شخصيتها وملامحها ومحورها وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ، والصور والظلال والجو الذي يظلها ، والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها . . فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة ، ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها[1] . . إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة ، وذات ملامح متميزة ، وذات منهج خاص . . إن الشأن في سور القرآن من هذه الوجهة ـ كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة ـ . . كلهم إنسان . . وكلهم له خصائص الإنسانية ، وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني . . ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع ، نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح ، وفيها الأغيار التي لا يجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة » . . « هكذا عدت أتصور سور القرآن ، وهكذا عدت أحس بها ، وهكذا عدت أتعامل معها ، بعد طول صحبة ، وطول ألفة ، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته ، وملامحه وسماته! وأنا أجد في سور القرآن ـ تبعاً لهذا ـ وفرة بسبب تنوع النماذج . . إنها أصدقاء . . كلها صديق . . وكلها أليف . . وكلها حبيب . . وكلها ممتع . . وكلها

---

(١) انظر : قطب ، سيد : الظلال ، ٢/ ١٠١٥ .

يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات الطريفة ، وألواناً من المتاع جديدة وألواناً من الإيقاعات ، وألواناً من المؤثرات تجعل لها مذاقاً خاصاً وجواً متفرداً »[1] .

وكأني بنفس القارىء تصدر نوعاً من الاستعداد ، يختلف من سورة لأخرى ، فكل سورة تحتاج إلى رصيد من المشاعر والمدركات والتجارب ، ينسجم تماماً مع المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزول القرآن بشتى أنواعها ، ويشارك في ذلك ، الأسلوب الذي صيغت عليه آيات القرآن الكريم ، فتجعله يتنقل بين أنواع المعاني ، يصحبها ألوان من المشاعر تشبه تلك التي صاحبت أولئك الذين تنزل فيهم القرآن .

فيشعر القارىء أنه يعيش حياة نابضة في عالم آخر ، غير الذي يعيش ، يدرك أن روحاً تسري به ، وبهذا ندرك أن نصوص القرآن لا يمكننا إدراكها ، والوقوف على حقائقها من خلال مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب ، بل بالحياة في جوها التاريخي الحركي ، ولا يمكن تذوق النصوص إلا إذا عشنا تلك اللحظات التي كان يعيشها الذين كانت تتنزل فيهم القرآن ، هكذا يعيش القارىء مع آيات كتاب الله ، مستصحباً معها تلك الأحوال والملابسات والظروف والأبعاد النفسية التي صاحبت نزول النص القرآني ، نصوصه تواجه أحياء يتحركون مع منهج الله أو ضده . هكذا تنقله نصوص القرآن إلى جو آخر مشحون بالحياة ، كل شيء فيه ينبض ، كل شيء فيه يتحرك ، وهكذا نحرر نصوص القرآن من قيود الزمان والمكان[2] ، يحس من يقرأ في القرآن ، متنقلا بين آياته وسوره ، أنه يعيش في قرية صغيرة ، يجمعها مكان واحد ، هي هذه المعمورة رغم اتساعها ، ويكتنفها زمان واحد من لدن آدم إلى قيام الساعة ، نصوص مفتوحة أمامها الطريق ، لا يحدّها زمان ولا يقيدها مكان ، تلقي تعاليمها لهذا الإنسان الذي لا تتغير مشاعره وجوانبه النفسية وميوله على اختلاف الزمان .

هكذا يجد كل إنسان فيه بغيته ، يقبل عليه المهموم ليجد فيه بلسمه ، ويقبل عليه المحزون ليجد فيه سلوته ، ويقبل عليه العالم ليجد فيه طلبته ، ويقبل عليه الهارب من قيود الحياة الرتيبة ليجد فيه خلوته ، يقبل عليه الضال التائه الحائر الضال ليجد ضالته ،

---

(١) قطب ، سيد : الظلال . تفسير سورة الأعراف ، ٣/ ١٣٤٣ .

(٢) لكن لا كما أشار إليه صاحب الفن القصصي في القرآن ، حين اتهم القرآن بأنه لا يؤخذ منه حقائق التاريخ .

فهو ـ كما ورد في وصفه ـ مأدبة الله[1] ، كل إنسان يأخذ منه حاجته ، ويجد فيه قناعته .

انظر كيف أن آيات السورة الواحدة تنتقل بك من موضوع إلى آخر ، ومن وصف إلى قصص ، إلى وعد ووعيد ، إلى تشريع ، إلى جدل ، ثم إلى ضروب شتى ، أشبه بحافلة تنتقل بك في شوارع المدينة وأسواقها ، وتريك ضروباً من عادات أهلها ، وأصناف مطعوماتها ، وجمال تربتها .

لا يتطلب منك جهداً إلا أن تحرك لسانك لتجد بعدها كل مفصل من مفاصل جسمك يؤدي دوره في الحركة ، بل كل لون من المشاعر يتحرك ، عيناك تتمتعان بالنظر إلى تلك الصور التي ترسمها ألفاظ القرآن ، وذهنك يسبح في محيط تلك المعاني التي تخلدها هذه الألفاظ ، وآذانك تشنف طرباً لسماع جرس الألفاظ واتزان ذاك الحديث العذب ، كل ذلك يجعلك تعيش لحظات تعجز الألسنة عن وصفها ، وإنها تلك المشاعر التي قال سلفنا : نحن في نعمة لو تعلمها ملوكنا لقاتلونا عليها[2] .

---

(١) روى الحاكم في مستدركه عن النبي قوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم. . » انظر : ١/ ٥٥٥ ، صححه الحاكم ، لكن تعقبه الذهبي بأن فيه إبراهيم بن مسلم وهو ضعيف ، وقال ابن الجوزي : يشبه أن يكون من كلام ابن مسعود ، وقد روي من طرق أخرى صحيحة من قول ابن مسعود ، رواه ابن المبارك في الزهد ، انظر : ابن المبارك ، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي : الزهد ، تح : حبيب الرحمن الأعظمي ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط . ت) ، ص ٢٧٩ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٢٦ . انظر : الرازي ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد ، ت (١٠٦٢هـ) : فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاوته وحملته ، تح : عامر حسين صبري ، (بيروت : دار البشائر الإسلامية ، د . ط ، ١٩٩٤م) ، ص ٧٣ـ٧٤ ، كما رواه من قول ابن مسعود كل من : الدارمي : السنن ، ٢/ ٤٣١ وعبد الرزاق ، أبو بكر بن همام الصنعاني : المصنف ، تح : حبيب الرحمن الأعظمي ، (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ) ، ٣/ ٣٧٥ ، والطبراني : المعجم الكبير ، تح : حمدي عبد المجيد ، (الموصل : مكتبة العلوم والحكم ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٣م) ، ٩/ ١٢٩ ، ١٣٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان ، ٤/ ٥٤٩ ، وابن حجر رجّح كلام ابن الجوزي حين قال في الحديث : الصحيح أنه موقوف وليس بضعيف ، انظر : ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (بيروت : دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م) ، ١/ ١٦٦ .

(٢) ينقل لنا ابن تيمية عن بعض السلف قولهم : ». . . لقد كنت في حال أقول فيها : إن كان أهل=

من وظائف هذا التقسيم للسور القرآنية :

١ . أنها تزوّد القارىء برصيد ضخم من المشاعر والجوانب النفسية .

٢ . تنتقل بخياله وأحاسيسه ومشاعره إلى الجو الذي نزل فيه القرآن .

هذا ، وإن في تنوع سور القرآن ، طولاً وقصراً ، انسجاماً مع هذه النفس الإنسانية التي تملّ الرتابة ، كل سورة من سور القرآن تضيف لبنة نفسية إلى ذلك الكيان الإنساني ، حتى تجده مع آخر سورة قد اكتمل بناؤه النفسي ، وتكاملت مشاعره وأحاسيسه ، تجد كل سورة تبرز مشاعر من لون معين ، وهكذا تنتقل فتظهر ألوان هذه المشاعر .

ومن هنا ندرك الحكمة من كثرة النصوص الواردة في حث المسلم على الإقبال على هذا القرآن[1] ، وإشارة النصوص إلى ضرورة أن يكون لهذا الإنسان ورد يومي وزاد يتقوت به في يومه ، ولعلنا ندرك كذلك حكمة النصوص التي تشكل نوعاً من التهديد لمن يمرّ عليه الشهر ولا يكون قد قرأ[2] ، والشهر وحدة زمنية ليست بالقصيرة ، ولهذا فإن حاجة النفس إلى صيانة دائمة ومستمرة ، ينبغي أن يكون ضمن هذه المدة .

أقول تكمن أهمية قراءة القرآن في كل شهر على الأقل في أنها تمكّن المرء من استثارة كامل مشاعره التي تنطوي عليها نفسه ، وتكون هذه القراءة بمثابة الفاحص الذي يقوم بالتأكد من صلاحية هذه المشاعر ، وبالتالي التنبه إلى ما كان منها في حاجة إلى صيانة ، فلعل بعض هذه المشاعر قد مات ، أو أصبح في عداد الموت ، بسبب من طول الأمد وقسوة القلب وإلف العادة ، فتكون هذه القراءة كاشفة لتلك المشاعر ، إذ

= الجنة في الجنة في مثل هذا الحال ، إنهم لفي عيش طيب ، وقال آخر : « إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً » ، وقال الآخر : « لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم » ابن تيمية ، تقي الدين أحمد : مجموع فتاوي ابن تيمية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي ، (الرياض : الإدارة العامة للبحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ط ١ ، ١٣٩٨هـ) ، ١٠/٦٤٧ .

(١) انظر مثلا : النووي ، أبو زكريا يحي بن شرف الدين : التبيان في آداب حملة القرآن ، (دمشق : الوكالة العامة للتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) ، ص١١ وما بعدها .

(٢) النووي : التبيان ، ص ٣٥ وما بعدها .

حين يمرّ المرء بموقف ما على مثله ينبغي له أن تتحرك فيه مشاعر الحزن مثلاً ، ثم لا يجدها مستجيبة ، فإن هذا مؤشر على أن خللاً ما أصاب مكمن تلك المشاعر ، وراناً قد غلّف تلك القلوب التي تحوي تلك المشاعر ، فيعرف المرء هذا الداء فيسارع في علاجه ، وهكذا . .

كما أن التنقل يخرج بالنفس عن المألوف الذي يشكّل خطراً كبيراً على النفس الإنسانية ، وهو الملل الذي تصبح فيه المشاعر عادة مألوفة ، أشبه بآلة تتحرك بحركة رتيبة لا روح فيها ، كما هو حال الإنسانية المادية في هذا الزمان ، والتي أصبح فيها الإنسان آلة ميكانيكية .

ولعلنا لو تأملنا أكثر في النصوص التي تحث على قراءة سور بعينها في مناسبات معينة ، أو في أوقات مخصوصة ، ندرك ألواناً من المعاني النفسية التي تكمن فيها(1) ، فلنا أن نتساءل ـ مثلاً ـ : لماذا نقرأ سورة الكهف(2) كل جمعة ؟ لماذا نبتدىء صلاتنا في يومنا بسورة الكافرون ونوتر بها ، ونختم يومنا بها(3) ؟

لماذا نقرأ سورة الغاشية والأعلى في الأعياد؟ ، لماذا نقرأ سورة (كذا) في النوازل؟

---

(1) قال النووي في التبيان ، ص ٩١ : « باب في الآيات والسور المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة » : « اعلم أن هذا الباب واسع جدا لا يمكن حصره لكثرة ما جاء فيه ، ولكن نشير إلى أكثره أو كثير منه بعبارات وجيزة ، فإن أكثر الذي نذكره فيه معروف للخاصة العامة » .

(2) دليل هذا ما رواه أبو محمد الدارمي بإسناده عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق » ، الدارمي : سنن الدارمي ، ٢/ ٥٤٦ ، وانظر البيهقي : السنن الكبرى ،٣/ ٢٤٩ ، صححه الألباني ، انظر : الألباني : صحيح الترغيب والترهيب للمنذري ، (د . م ، مكتبة المعارف ، ط١ ، ١٤٢١هـ) ، رقم : ٧٣٦ .

(3) انظر : النووي : التبيان ، ص ٩٢ وما بعدها ، ومثلها أسئلة كثيرة سورة الفاتحة إنها أعظم السور ، سورة البقرة وإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه وإنها سنام القرآن ، وسور (آل حميم) ديباج القرآن وروض من رياض الجنة ، وعن سورة الفتح قال ﷺ نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها : « إنا فتحنا . . » ، تبارك « وددت لو أنها في قلب كل مؤمن » ، أخرجه الحاكم عن ابن عباس ، وقال : هذا إسناده عند اليمانيين صحيح ، وذكره المنذري : الترغيب والترهيب ، ٢/ ٢٤٧ ، وسورة العصر لماذا تقرأ عند الفراق ؟ لماذا السجدة والدهر صباح كل جمعة ؟ لماذا الواقعة تغني من الفقر ؟ لماذا الكهف تعصم من الدجال وفتنته ؟ وغير ذلك كثير جدا .

ما سرّ الاعتناء بتلاوة القرآن في شهر رمضان ، وفي العشر الأول من ذي الحجة ، ويوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وبعد الصبح ، وفي الليل قراءة يس والواقعة وتبارك الملك ، إن الباحث يرى أن في ذلك سرّاً نفسياً ، فقد تكون هذه السور لها ارتباطات متعلقة بتلك الأزمنة .

كما لنا الحق في أن نتساءل أيضاً عن سرّ قراءة سور أو آيات معينة في بعض الأماكن ، والتساؤل نفسه يمكن أن نسأله عن الآيات التي ينبغي أن تتلى إذا مررنا بأحوال معينة « سورة يس« على من حضره الموت[1] ، لماذا نتلو سورة الملك كل ليلة ؟ ،« لأنها تمنع صاحبها من عذاب القبر »[2] : وهكذا جمّ هائل من الأسئلة ترد في أذهاننا ، وغير ذلك كثير .

وهكذا نجد أن القرآن كله ينبغي أن يقرأ كل شهر ، والكهف كل أسبوع ، وتبارك كل يوم ، والفاتحة كل بضع ساعات ، والبسملة بداية كل عمل ، فهل هذا الأمر يفهم بعيدا عن الجانب النفسي للمؤمن ؟ قد يكون لمثل هذه السور ارتباط بأمهات المعاني النفسية التي يكمن وراءها كمّ هائل من المعاني النفسية ، فالحقيقة التي ينبغي الالتفات إليها هي كونها مرتبطة بجوانب نفسية إما تهدف الآيات إلى تحريكها ، أو تساعد في

---

(١) في الحديث : « اقرءوها على موتاكم » ، الحديث رواه أبو داود في السنن ،٣/ ١٩١ ، رقم٣١٢١ وابن ماجه : سنن ابن ماجه ، ١/ ٤٦٦ ، رقم ١٤٤٨ ، والبيهقي : شعب الإيمان ، ٦/ ٥٤٥ ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ٥٨١ ، رقم ١٠٧٤والحاكم : المستدرك ، ١/ ٧٥٣ ، وقال عنه : وقفه يحيى بن سعيد وغيره عن سليمان التيمي والقول فيه قول بن المبارك إذ الزيادة من الثقة مقبولة ، وانظر المناوي : فيض القدير ، ٢/ ٦٧ . ضعفه الألباني ، انظر : الألباني : ضعيف الجامع الصغير وزياداته ، (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ) ، رقم ١٠٧٢ .

(٢) عن ابن مسعود أنه قال : سورة الملك هي المانعة ، تمنع من عذاب القبر » ، إسناده حسن رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٧١١) ، عبد الرزاق في المصنف ، ٣/ ٣٧٩ والطبراني في الكبير ، ٩/ ١٤١ ، الحاكم : المستدرك ، ٢/ ٤٩٧ وصححه ، والترمذي : سنن الترمذي : ٥/ ١٦٤ وحسنه ، والبيهقي : شعب الإيمان ، ٥/ ٤٤٧ـ٤٤٨ ، انظر : الرازي ، عبد الرحمن : فضائل القرآن ، ص ١٥١ ، وفي الباب أحاديث كثيرة ، جمعها ابن كثير في تفسيره : ٤/ ٣٩٦ ، ومنها : « إن رجلا ممن كان قبلكم مات وليس معه شيء من كتاب الله إلا تبارك فلما وضع في حفرته أتاه الملك فثارت السورة في وجهه . . » ، انظر الحديث بطوله .

توفير أجواء نفسية تصاحب تلك الأحوال التي مرت بها أقوام تحدثت عنها الآيات الكريمة ، والله تعالى أعلم .

المطلب الثاني : ترتيب الآيات والسور والجوانب النفسية

إن هذا الترتيب الذي صيغت عليه آيات القرآن وسوره ترتيب مقصود ، وقد حاول علماؤنا تلمس بعض جوانب الحكمة في ذلك ، وكان ثمرته أن ظهر علم مستقل قائم بذاته عرف بعلم المناسبات بين الآيات والسور(١) ، الباحث على يقين من أن هذا الميدان ما زال فسيحاً لذي تأمل ، فما أطلعنا عليه علماؤنا في هذا الجانب غيض من فيض من المعاني والحكم التي لأجلها كان هذا الترتيب القرآني ، والباحث يأمل أن تكون هناك جهود جادة في هذا الميدان ، يكون منطلقها ملاحظة الجوانب النفسية ، فلعلها تكشف لنا عن جوانب من الإعجاز القرآني في هذا الميدان .

يشترك رسم المعاني النفسية في السورة الواحدة :

الأحرف والألفاظ من جهة ، الأسلوب والنظم وتغيره ، وأحكام التجويد حيث تشارك في رسم الجوانب النفسية ، والموضوع ، ورسم الآيات ، وفواصلها الروي والإيقاع ، وإيقاعها ونفحاتها .

بمثل هذه النظرة يمكننا حلّ كثير من الإشكاليات التي أوردها المغرضون على هذا القرآن ، فعلى سبيل المثال : أولئك الذين أخذوا على طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة ، بعضهم ينظر بنظرته السطحية ، فلا يراه إلا أشتاتاً من الأفكار المتنوعة . وبعضهم يرى أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة إلى تخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب ، وبعضهم يرده إلى خطأ الصحابة في جمعه ، والحق أنه ـ كما قيل ـ عندما نريد أن نقدّر جمال لوحة مرسومة لا ينبغي أن نحصر نظرتنا في جزء ضيق منها ، حيث لا نجد إلا ألواناً متنوعة تتجاوز أو تتنافر أحياناً ، بل يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، ليتسع لنا مجال الرؤية ، وتحيط بالكل

---

(١) صحيح أنه وجد فئة قليلة من العلماء ممن أنكر ما يسمى بعلم المناسبات إلا أن المؤيدين له من العلماء والمتحدثين عنه والمصنفين فيه من الكثرة بحيث يجعله قد تجاوز مرحلة الحديث عن وجوده وعدمه .

في نظرة شاملة ، تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب. . بمثل هذه النظرة ينبغي دراسة كل سورة من سور القرآن الكريم لنقدّر أبعادها الحقيقة(١) .

على أن الباحث لا يدّعي أن نردّ الأمر كله في هذا النوع إلى الجانب النفسي ، وإنما ينبغي ملاحظة هذا الجانب النفسي ، وعدم إهماله في هذا الميدان ، إذ لعله يطلعنا على أشياء مفيدة في ميدان الدراسات القرآنية ، فهو جانب تبدو أهميته من أكثر من جهة ، من كونه ملحوظاً لا يحتاج إلى جهد كبير ، ثم من كون هذا الإنسان هو المحور الذي تدور حوله نصوص القرآن الكريم(٢) . ثم من كون الذي خلق الإنسان هو الذي أنزل عليه القرآن ، فلا بد من تلمس جوانب الانسجام بين هذا الإنسان وهذا القرآن الكريم .

ثمة أمر آخر ، وهو أنه ، على الرغم من أن هذه السور كانت أجزاءاً مبعثرة قد اتبعت في نزولها ترتيبا آخر مختلفاً تماماً عن الترتيب الذي استقرت عليه ، فأول السورة نزولاً نجدها في الجزء الأخير من القرآن ، وأواخر السور نجدها في أوائل القرآن ، نجد ذلك الانسجام والارتباط الذي لا تفاوت فيه(٣) . بل هو متسلسل متدرج مع تلك المعاني النفسية لهذا القارىء الذي لا يجد عناءً أو تكلفا من قراءته للسور والتنقل بينها .

هل بعد هذا يمكننا تلمس الأجواء النفسية التي تهيؤها كل سورة لقارئها ؟ إنها محاولة تنتظر! على أن الباحث لا يدّعي أنه ينطلق من مبدأ آمن به من قبل ، ثم هو يبحث في نصوص القرآن عما يدعّمه ، بل حضور الأجواء النفسية أمر لا مجال للشك

---

(١) دراز ، محمد عبد الله : مدخل إلى القرآن الكريم ، (الكويت : دار القلم ، د . ط . ت) ، ص ١١٩ .

(٢) ولا أدل على هذا من أن عنصر الإنسانية كان قد برز في أول مقطع ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ ﴾ ، ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ ، وآخر آية منه تتحدث عن الناس ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾ ، فتنزل القرآن كان على وفق النفس الإنسانية ، وظل عنصر النفس البشرية مصاحبا لنصوصها من أول لحظة وسيبقى إلى آخر لحظة .

(٣) للمزيد انظر : دراز ، محمد عبد الله : مدخل إلى القرآن الكريم ، ص ١٢٢ ، والنبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص ١٣٢ .

فيه ، كل ما في الأمر أن هذه الأجواء تحتاج إلى من يكشف عنها ويترجمها إلى الواقع .

لا بد من ملاحظة أن بعض السور تشترك في جوانبها النفسية ، والسور التي مطلعها واحد أو ختامها واحد مثل « آل حواميم » ، أو السور المفتتحة ب(ألم) ، أو (ألر) ، أو حتى السور التي افتتحت بـ(الحمد لله) ، وهكذا . . ميدان فسيح للدراسة والتدبر .

هكذا إذن نجد هذه السور بمثابة البيئة التي تحتضن تلك الحالات النفسية ، فما من حالة نفسية إلاّ وهي مرتبطة بالبيئة والأحوال ولا يمكن تصورها إلا بذلك ، بمثل هذا يمكن تعليل بعض الأسرار التي تكمن وراء ترتيب آيات القرآن وسوره ، وتوزيعها بالطريقة التي أستقرّ عليها .

انظر تجد الآية وحدة ترتيلية فنّية يرتلها القارىء ويستريح بعدها قليلاً ، وتقسيم الكلام القرآني إلى آيات هو غير تقسيم الكلام إلى جمل ، فمرة نجد الآية عبارة عن كلمة واحدة مثل : ﴿وَٱلطُّورِ﴾ ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ، ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ، ومرة كلمتين مثل : ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ ، ومرة تزيد حتى تصل إلى مجموعة جمل وتراكيب[1] ولا شك أن

---

(١) يذكر هنا أن التراكيب في القرآن الكريم متنوعة في الآيات ، ويمكن إجمالها في الآتي :
الجمل البسيطة القصيرة كما في آيات سورة الشعراء ، وسورة النجم .
جمل بسيطة طويلة كأن تصل بينها لام التعليل أو فعل شرط وجوابه .
جمل طويلة مسلسلة ، مثل آيات الأحكام .
جمل طويلة متشابكة لا ينفصل أولها عن آخرها ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ ، سورة البقرة ، الآية ١٦٤ ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ، سورة التوبة ، الآية ٢٤ .
للمزيد انظر المبارك ، محمد : النظم القرآني تركيب الآية والجملة في القرآن ، (دمشق : مجلة مجمع اللغة العربية ، ع ١و٢ ، مج ٤٤ ، شوال/ ١٣٨٨هـ ـ كانون الثاني/ ١٩٦٩م) ، ص ١٤٠ـ١٤٧ .

هذا التنوع في تراكيب الآيات القرآنية له مدلولاته من الناحية النفسية فهو يعدّ منبعاً خصباً للجمال الفني ، ذلك أنه يقدم ألواناً معنوية وإيقاعات موسيقية متلائمة مع الفكرة والموضوع .

خصائص أسلوب القرآن فيما يخصّ تقسيم الآيات والسور وترتيبها

المعروف من أسلوب القرآن أنه يجمع في الآية الواحدة بين المسائل العقدية والأخلاقية وجوانب السيرة ، وجوانب العبرة . . وهذه الأمور على الرغم من أنها تبدو لأول وهلة موضوعات شتى ، إلا أنها في حقيقة الأمر مرتبطة بموضوع القرآن الرئيسي وبحثه الأساسي ، « فالإنسان» هو موضوع القرآن[١] ، ودعوة الإنسان إلى منهج هو جو هذا القرآن .

والأسلوب القرآني في الآيات يتنوع بتنوع الحاجة : فمرة يأتي بأسلوب الخطاب المجلجل الرنان المتأجج بنار المشاعر ، ومرة يأتي بأسلوب الأوامر والمراسيم الملكية ، ومرة بأسلوب دروس المعلم ، وأخرى بأسلوب تذكير المصلح الناصح[٢] .

والأسلوب القرآني يأتي في الآية الواحدة بما يتناسب وموضوعها والفكرة الرئيسية ، يشترك في ذلك حروف الألفاظ وجرس الكلمات ، إذ تختلف شدة ولينا وسرعة وبطءاً .

فإذا كانت حديثاً عن أهوال القيامة : قصرت الآيات ، وكثرت الحروف ذات الشدة والصليل ، وقلّت المدود[٣] ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ . . ﴾[٤] .

وإذا كانت دعاء جاءت المدود التي تكسب النغمة هدوءاً وطولاً ، وهكذا . . يلتقي الجانب النفسي والزماني والمكاني والموضوع والأشخاص والمشاهد والجرس والإيقاع .

---

(١) انظر : المودودي ، أبو الأعلى : المبادىء الأساسية لفهم القرآن ، (الدمام : الدار السعودية ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ، ص ١٩ .

(٢) المودودي : المبادىء الأساسية ، ص ٢٨ .

(٣) انظر : المبارك ، النظم القرآني ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ص ١٥٢ .

(٤) سورة القيامة ، الآيات ٧ـ٨ـ٩ .

حتى إنه يلاحظ أن كل آية تكتسب بعدين زمانيين وآخرين مكانيين ، الأول : زمان ومكان الغرض الذي من أجله جاء النص ، والثاني : زمان ومكان التواصل في التاريخ وقيمته وامتداده في المستقبل .

وقد شاء الله أن يجعل تالي القرآن متنقلاً بين شتى الموضوعات ، لتسلم له المشاعر النفسية ، وتتحقق له الإنسانية ، حين يعلم أنه جزء من هذا العالم المترامي الأطراف ، وأنه ليس غريباً عنه ، كلٌ يؤدي وظيفة ، فيكون الدافع النفسي لديه : أنه صاحب رسالة ودعوة ، وأن له وظيفة لا بد وأن ينهض بها ، فإذا كانت الجمادات تقوم بدورها في هذا العالم وفق أمر الله ، فما أحرى هذه النفس وقد أعطيت عقلاً أن تسخّره لحمل هذه الرسالة .

كما أن في تنوع الشخصيات التي عرض لها القرآن الكريم من خلال قصصه إشباعاً لحاجات النفس الإنسانية ، إذ المؤمن يواجه نفوساً شتى وأصنافاً من الناس تختلف طبائعهم ، يحار المرء في الطريقة الأنسب للتعامل معهم ، لكن حين يقبل المرء على القرآن يجد النماذج لتلك النفوس مصحوبة بتوجيهات ربانية تصوّب ما كان خطأ في سلوكها وترشد إلى الصواب ، نعم. . حين يعود المرء من كدّ الحياة وعنتها في آخر يومه ، وقد حمل معه هموماً شتى وصوراً عدة ألقت نفوس الآخرين عليها بظلالها لا يجد إلا كتاب الله له مسلياً ومرشدا. . يجد تلك الآيات تمسح عنه دمعة الحزن التي ربما لقيها من جافٍ تعامل معه في يومه. . تركت أثرها في نفسه ، وهو لا يقوي على أن يفصح عما في نفسه ، تارة لسطوة ظالم ، وتارة لغلبة شهوة أو ذلا لحاجة ، أو سيطرة لهمّ. . يجد في آيات الله ما يمسح عنه تلك الأثقال ، حين يقرأ آيات تحكي له سيرة حامل الرسالة وما كان يجده من قومه. . فتمسح آثار تلك السحب التي خيمت على نفسه ، أو يقرأ سورة يوسف فيتجدد فيه الأمل. . أو سورة الفتح فتتنزل عليه السكينة ويشعر بالأمن. . وهكذا .

نعم حين يرى أنّ الهدهد يحمل هم الدعوة. . والنملة تكدّ في العمل ، كلٌّ له وظيفته﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾[1] ، لا يجد أمام ناظريه إلا أن يقوم بتلك الوظيفة

---

(١) سورة النور ، الآية ٤١ .

التي أنيطت به ، حين يرى مصارع قوم ذُكّروا فلم يتذكروا ، ووُعِظوا فلم يتعظوا ، وأرشِدوا فلم يهتدوا ، وأنذِروا فلم يعتبروا ، ورأوا العذاب فلم يرتعدوا . . حينئذ يجد أن لديه فسحة ينجو بها إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . يطّلع على خريطة الحياة ومسرحها ، ويتأمل مواطن النجاة فيها ويرى نماذجها ، وفي المقابل يرى مصارع قوم كانت أمامهم فسحة فلم يستثمروها . . كل هذا قبل دخوله معترك الحياة . . فتكون له زاداً وروحاً ونوراً يشبه في حاله من استيقظ من نومه وقد رأى في المنام أمراً يخشى تحققه ، يبقى يترقب تلك اللحظات التي تترجم تلك الرؤى إلى واقع ، فيحرص على تجنّب أماكن ربما تسلمه إلى نهاية المشهد . . أملاً في صرفها عن ناظريه . . ويبقى صاحب القرآن هكذا . . مسترشداً بنور الآيات ، مستضيئاً . . حتى ينام قرير العين . . هادىء النفس . . مطمئن القلب بالإيمان . . أظلته سكينة الإيمان . . فلم يعد يخشى مجهولاً . . لأن القرآن أطلعه على كل مجهول ، وأرشده أين يسير حين يجد الظلمة . . حتى تصبح صفحة هذا الكون المترامية الأطراف بما فيه من جماد ونبات وكائنات ، ماثلة أمام عينيه ، فيحس أنه المستيقظ ، وأن عليه أن يوقظ غيره ، حتى لا يحيط بهم ما يخشونه من مخاطر . . هذه بعض أسرار ذلك التنوع والترتيب الذي يجده القارىء في آيات القرآن الكريم وسوره .

ومرة نجد أن سور القرآن تحشد من المناظر وجمال الألوان والأصباغ المختلفة الظلال الموجودة في الأرض ، تحشدها بطريقة تهزّ المشاعر وتوقظ الضمائر . . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[١] ، يحشد هذه اللوحات الفنية لتستعذب النفس ، ذاك الجمال ، ويلتقي وقع الحروف وجرسها مع هذا الهدف ، وتأتي أحكام التجويد لتضع اللمسات الفنية على جمال تلك اللوحة ، لتكون لوحة لا يسع النفس إلا أن تتملاها .

فحين تلفت آيات القرآن أنظارنا إلى إحكام الصنعة بين الفينة والفينة[٢] ، تريدنا أن نعيش تلك اللحظات التي تستريح إليها النفس وتتملاها العيون ، « فإتقان الصنعة يجعل

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٧ .

(٢) وهذا أمر ملموس إذ لا تكاد تخلو سورة من لفت أنظارنا إلى ما حولنا من الوجود .

كمال الوظيفة في كل شيء يصل إلى حد الجمال ، وكمال التكوين يتجلى في صورة جميلة في كل عضو. . وفي كل خلق »[1] ، نعم هذه المشاهد تشعر النفس بمتعة الرحلة .

وهكذا نلمس في هذا التنوع بين آيات القرآن وسوره ، ولهذا الترتيب المقصود لتلك السور القرآنية ، وظيفة نفسية ، فتارة نجد المشاعر ملتهبة ، ونبضات القلب مرتفعة ، والفرائص مرتعدة من أثر تلك المشاهد التي صورتها لنا الآيات ، نجد السورة التي تلي تؤدي دورها العجيب في تخفيض تلك المشاعر ، وتلقي بالسكينة والهدوء على النفس لتعود نبضات القلوب إلى طبيعتها ، وتسترخي عضلات الجسم بعد طول شدّ ، وتسكن جوارح النفس بعد حراك مضطرب. . وقد يحصل هذا في السورة الواحدة. . فتبقى النفس متنقلة بين ذبذبات المشاعر ارتفاعاً وانخفاضاً ، انظر مثلا : سورة القارعة .

ومن أسلوب القرآن ذلك الصوت الجرسي الذي يكمن في الحروف المقطعة في أوائل السور . « إذ هي تحتوي على ألحان مختلفة تشبه صلصلة الجرس . تختلف حدة وليناً وطولاً وقصراً »[2] ، فمثلاً (ألم) تنطق ثلاثية حسب الهجاء فيها الموجات الصوتية ، إن الترجمة الغيبية لهذه الوحدات الصوتية المنبعثة من هذه الحروف المبهمة ، والتي سمعها الرسول هي القرآن ، وتبدو هذه الصلصلة هي أحد أسرار القرآن ، ولهذا جاء لفظ القرآن بعدها ، ولعل هذا هو الذي يترجم لنا (صلصلة الجرس) التي وردت في صفة تنزل الوحي على قلب الرسول ـ وهي أشد الحالات عليه ﷺ كان الرسول يعبّر عنها ، وأفصح عنها في أحاديث بدء الوحي ـ .

ويصف بعضهم اتساق النظام القرآني الصوتي الرافع المتمثل في حركاته وسكناته ، ومداته وغنّاته ، واتصالاته وسكتاته ، يشكل اتساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع ، ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور ، وبيان ذلك « أن من ألقي إلى سمعه مجموعة القرآن الصوتية الساذجة المؤلفة

---

(١) قطب ، سيد : الظلال ، ٢٨٠٩/٥ .

(٢) عبد الله ، محمد محمود : حصر الفوائد في القرآن الكريم ، (الرياض : الدار الوطنية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١١٤١٢هـ ـ١٩٩٢م) ،ص ٥٦ .

من تلك المدات والغنات ، يشعر من نفسه حتى لو كان أعجمياً لا يعرف العربية بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر ، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها ، فلا يفتأ السمع أن يملّها ، ولأن الشعر تتحد منه الأوزان ، وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالباً ، وإذا ما طالت على نمط يورث سامعه السأم والملل ، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يملّ لأنه يتنقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة وأنغام متجددة »[1] .

ثمة أمر آخر وهو ذلك التناسب الذي يلمسه القارىء بين مطلع السورة وخاتمتها ، على الرغم من كثرة الموضوعات التي تعرض لها الآيات ، أو بمعنى آخر تلك الوحدة الموضوعية التي تتشكل في ضوئها الوحدة النفسية ، وبعض السور أشبه بالنشيد الحربي كما في السور الآتية : (آل عمران ، النساء ، الأنفال ، التوبة ، الصف) ، « سورة الضحى موسيقاها رتيبة ، تثير عاطفة الحزن وتهيج الخواطر والخيال في ظل التأمل ، لكن أحزان هذه السورة وتذكير الرسول بأنه كان يتيماً وضالاً وعائلاً ، ربما قرأ هذه السورة يتيم ، فهدته موسيقاها ، ومسحت من دمعه »[2] .

* * *

(١) الزرقاني : مناهل العرفان ، ٢/ ٢٢٣

(٢) المحاسني ، زكي : الأدب الديني ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٩٧٠م) ، ص ٤١ ، لمزيد من الاطلاع على هذا اللون من الدراسة ، يحسن الرجوع إلى سلسلة : من منهل الأدب الخالد ، المبارك : دراسة أدبية لنصوص من القرآن ، حيث تناول السور الآتية : سورة العاديات من ص١٣ـ٢٤ ، سورة الحاقة من ص ٢٥ـ٤٧ ، سورة النحل من ص ٤٨ـ٧٨ ، سورة يوسف من ص ٧٩ـ٩٠ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثالث

البنية الداخلية
للتعبير القرآني والجوانب النفسية

ويتضمن الفصول الآتية

الفصل الأول : الحرف والكلمة القرآنية والجوانب النفسية
الفصل الثاني : النظم القرآني والجوانب النفسية
الفصل الثالث : الصورة البيانية والجوانب النفسية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

الحرف والكلمة القرآنية والجوانب النفسية

المبحث الأول

الحرف القرآني ورسالته النفسية(١)

قد لا يكون ضربا من المبالغة إن قيل : كل حرف من كتاب الله له رسالة يؤديها ، سواء أكان هذا الحرف منفرداً غير منتظم في جملة كالحروف المقطعة في بدايات السور ، أم كان منتظماً كحروف أي كلمة من كلماته ، أم كان من الحروف الاصطلاحية التي أطلق عليها علماء اللغة : حروف المعاني(٢) .

الجدير بالذكر أنّ رسم المصحف هو الذي حفظ لنا رسالة الحرف القرآني ، ونقلها إلينا :

فتارة يؤدي الرسم القرآني رسالة الحرف بالحذف ، إذ حينما نرى كلمة في القرآن حذف منها أحد حروفها فإن هذا له رسالته ، وأمثلته في القرآن كثيرة ، منها حذف حرف الياء في مثل المواضع التالية وأمثالها : ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾(٣) ، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾(٤) ومنه حذف الألف من ياء النداء نحو : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ و﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ ، وغير ذلك كثير .

---

(١) تناولت الدراسة في الباب الثاني بعض الحديث عما يتعلق بالحرف ، لكن من ناحية الشكل والجرس ، أما في هذا الباب فالحديث عنه سيكون من حيث المضمون .

(٢) يشار هنا إلى وجود كتاب ذي قيمة علمية ، حيث تركّز الحديث فيه على الحرف القرآني منطلقا من فكرة أن كل حرف من القرآن له رسالة ، يحسن للمزيد الرجوع إليه : عباس : لطائف المنان وروائع البيان ، (بيروت : دار النور ، ط ١ ، ١٩٨٩م) .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٩٧ .

(٤) سورة الفجر ، الآية ٤ .

وتارة بثبوت الحرف في الوقت الذي حقه الطبيعي أن يحذف ، كثبوت الهاء في ﴿ يَتَسَنَّهْ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾[1] ، ومثله : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴾[2] ، ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[3] ، أو الياء في لفظ ﴿ الْمُهْتَدِي ﴾ من قوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾[4] ، في موضع واحد دون بقية المواضع .

وتارة نجد الحرف مكتوباً لكن بطريقة غير معهودة كالتاء المربوطة في بعض المواضع كتبت تاء مفتوحة كما في الكلمات الآتية : و﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[5] ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . . ﴾[6] ، ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[7] ، ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . ﴾[8] وغيرها ، في حين نجد مواضع أخرى كتبت التاء فيها على هيئتها المعروفة : سنة[9] ، ورحمة[10] ، ونعمة[11] ، (بالتاء المربوطة)[12] ، فهذا

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

(٢) سورة الحاقة ، الآية ٢٨

(٣) سورة الحاقة ، الآية ٢٩

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٧٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٣١ ، وانظر : سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ ، سورة المائدة ، الآية ١١ ، سورة إبراهيم ، الآية ٢٨ و٣٤ ، سورة النحل ، الآية ٨٣ و١١٤ ، سورة فاطر ، الآية ٣ .

(٦) سورة الروم ، الآية ٣٠ .

(٧) سورة فاطر ، الآية ٤٣ ، وانظر : سورة الأنفال ، الآية ٣٨ ، سورة غافر ، الآية ٨٥ .

(٨) سورة الزخرف ، الآية ٣٢ ، وانظر : سورة البقرة ، الآية ٢١٨ ، سورة الأعراف ، الآية ٥٦ ، سورة هود ، الآية ٧٣ ، سورة مريم ، الآية ٢ .

(٩) كما في المواضع الآتية : سورة الحجر ، الآية ١٣ ، سورة الإسراء ، الآية ٧٧ ، سورة الكهف ، الآية ٥٥ ، سورة الأحزاب ، الآية ٣٦ و٦٢ ، سورة الفتح ، الآية ٢٣ .

(١٠) كما في المواضع الآتية : سورة آل عمران ، الآية ٨ و١٠٧ ، سورة الإسراء ، الآية ٨٧ ، وغيرها .

(١١) كما في : سورة البقرة ، الآية ٢١١ ، سورة المائدة ، الآية ٧ و٢٠ ، سورة إبراهيم ، الآية ٦ ، سورة النحل ، الآية ١٨ ، وغيرها .

(١٢) يذكر أنّ هناك كلمات أخرى كثيرة بالتاء المفتوحة تارة وبالمربوطة تارة أخرى ، مثل : (جنة ، كلمة ، لعنة ، امرأة ، . .) . =

مما يلفت الأنظار إلى وجود أسرار في هذه المواضع ، فقد لوحظ أن السورة الواحدة ترد فيها اللفظة مرة تاءً مربوطة ، ومرة تاءً مفتوحة ، كما هو الحال في لفظة : « نعمة » ، فقد وردت في كل من السور الآتية : (البقرة ، المائدة ، إبراهيم ، النحل) تارة بالتاء المفتوحة وتارة بالتاء المربوطة[(١)] ، بل لقد لوحظ ورود آيتين متشابهتين مرة بالتاء المفتوحة ومرة بالتاء المربوطة في موضعين : سورة إبراهيم بالتاء المفتوحة[(٢)] ، وسورة النحل بالتاء المربوطة[(٣)] ، كل هذا يؤكد وجود رسالة للحرف القرآني وأنه مقصود .

أحياناً نلحظ ما يشبه زيادة بعض الحروف على الكلمة ـ حسب الرسم العثماني ـ لكن لفائدة قد ندركها ، وقد تخفى علينا أحيانا ، مثال ذلك : الألف كما في الموضع التالي : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . . ﴾[(٤)] ، والألف بعد واو الجماعة : ﴿ ءَامَنُوا ﴾ ، والواو في مثل : ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[(٥)] ، والياء : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[(٦)] ، و﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾[(٧)] ، فتارة يكتب الحرف ولا ينطق مثل :

﴿ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٨)] ، ﴿ وَلَأَاْوۡضَعُواْ ﴾[(٩)] ، ﴿ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ ﴾[(١٠)] ، وتارة يثبت وقفاً ويسقط وصلاً ، مثل الألف المتطرفة في : ﴿ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[(١١)] ، ﴿ سَلَٰسِلَاْ ﴾[(١٢)] ، وتارة

---

(١) انظر بالتاء المفتوحة : سورة البقرة ، الآية ٢٣١ ، بالمربوطة : الآية ٢١١ ، سورة المائدة ، بالمفتوحة : الآية ١١ ، وبالمربوطة : الآيتان ٧ـ ٨ ، سورة إبراهيم ، بالمفتوحة : الآية ٢٨و ٣٤ ، وبالمربوطة : الآية ٦ ، سورة النحل ، بالمفتوحة : الآية ٨٣ و١١٤ ، وبالمربوطة ١٨ .

(٢) ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ، الآية ٣٤ .

(٣) ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، الآية ١٨ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٢٣ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية ١٤٥ .

(٦) سورة الذاريات ، الآية ٤٧ .

(٧) سورة القلم ، الآية ٦ .

(٨) سورة المائدة ، الآية ٢٩ .

(٩) سورة التوبة ، الآية ٤٧ .

(١٠) سورة النمل ، الآية ٢١ .

(١١) سورة الأحزاب ، الآية ١٠ .

(١٢) سورة الإنسان ، الآية ١٨ ، ومثلها : ﴿ قَوَارِيرَاْ ﴾ ، ﴿ ٱلرَّسُولَاْ ﴾ ، ﴿ ءَاتَنِ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ فَمَا=

ينطق الحرف ولا يكتب ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ مَلَكٌ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ، ﴿ يَدْعُ ﴾ . ومنه حذف اللام في مثل : ﴿ ٱلَّيْلَ ﴾ ، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ، ومن ذلك لفظ ﴿ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ، إذ قد يقال في توجيه الزيادة في لفظ ﴿ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ، زيادة الواو دلالة على الزيادة الحقيقية في رأس المال[1] .

هناك بعض الألفاظ تكتب على هيئتين ، تارة نجدها موصولة ، وأخرى مفصولة عن بعضها ، كما هو الشأن في : ﴿ أَن لَّآ ﴾[2] و﴿ عَن مَّا ﴾[3] و﴿ كُلَّ مَا ﴾[4] و﴿ أَم مَّنْ ﴾[5] و﴿ إِنَّ مَا ﴾[6] ، نجدها هكذا في مواضع أخرى : ﴿ إِلَّآ ﴾[7] و﴿ عَمَّآ ﴾[8] و﴿ كُلَّمَآ ﴾[9] و﴿ مِن ﴾[10] و﴿ إِنَّمَآ ﴾ ، وغير ذلك .

هناك بعض الألفاظ التي نجدها مكتوبة على إحدى القراءتين في الآية ، مثل : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ باللام دون الألف ، ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ بالصاد وليس بالسين ، ﴿ يُخَٰدِعُونَ ﴾ بلا ألف بعد الخاء ﴿ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ ، ﴿ بمصيطر ﴾ بالصاد دون السين .

كل ما تقدم يجعلنا نقرر الحقائق الآتية المتصلة بالحرف :

* أنه لا وجود لحروف زائدة في القرآن الكريم ، كما أنه لا نقص في حروف القرآن الكريم ، وما يدل ظاهره على زيادة أو نقص فإنما له غرض وملمح بلاغي فضلاً عن

= ءاتَانِ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ ، سورة النمل ، الآية ٣٦ ، تقرأ على حفص ﴿ ءَاتَىٰنِۦَ ﴾ .

(١) يذكر أن الموضع الوحيد الذي جاءت فيه اللفظة بلا واو أي : الربا ، هي الآية ٣٩ من سورة الروم : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، وهو الموضع الوحيد الذي جيء فيه اللفظ منكرا .

(٢) كما في : سورة هود ، الآية ٢٦ .

(٣) انظر : سورة الأعراف ، الآية ٦٦ .

(٤) انظر : سورة النساء ، الآية ٩١ .

(٥) انظر : سورة النساء ، الآية ١٠٩ ، وسورة التوبة ، الآية ١٠٩ ، وسورة الشورى ، الآية ٤٠ .

(٦) انظر : سورة الأنعام ، الآية ١٣٤ .

(٧) انظر مثلا : سورة آل عمران ، الآيات : ٤١ ، ٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٨٣ .

(٨) انظر : سورة المائدة ، الآية ٧٣ .

(٩) انظر : سورة الأعراف ، الآية ٣٨ .

(١٠) انظر : سورة النمل ، الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

الملمح النفسي ، وكل حرف له عمل يؤديه .

* مسألة تناوب الحروف بعضها عن بعض مسألة ينبغي أن نجلّ كلام الله عنها ، وذلك أنها لا معنى لها كقولهم : ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[١] ، فسّر بعضهم الحرف (في) هنا بمعنى (عند) ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢] ، قال بعضهم عن بمعنى « في » ، لكن مثل هذا الكلام يذهب بجلال الحرف القرآني ووظيفته فليس معنى كونه جائزا في اللغة العربية أن يكون كذلك في القرآن فكل حرف من هذا الباب له رسالة ويؤدي في موقعه وظيفة .

* مسألة التضمين ـ على اختلاف بين أهل اللغة في اشتمال القرآن الكريم عليها ـ ينبغي ألا يلجأ إليها إلا عند الضرورة ، إذ هي راجعة إلى مبحث دلالة الألفاظ ، إذ كل فعل في اللغة له حرف جر يناسبه ، فإن وجد في القرآن غير هذا فهو عائد إلى مبحث جليل هو الذي يطلق عليه علماء اللغة (التضمين)[٣] ، وقد يكون من المناسب أن يمثّل له بمثال مما يستدل به على التضمين ، قوله تعالى عن سيدنا نوح عليه السلام : ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤] ، يلاحظ هنا كيف جيء بالحرف من مع نصرناه مع أن الظاهر مجيء الحرف على ، قالوا : لكن في عدول النظم هذا ما يفيد معنى زائدا على معنى النصر ، فقد تضمن معنى فنجيناه من القوم ، فقوم نوح لم يقاتلوا نوحا عليه السلام بالسلاح ، بل كان باللسان ، وهددوه بالرجم[٥] ، لكن يمكن أن يستغنى في هذا المثال عن القول بالتضمين فيقال غير هذا

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٥ .
(٢) سورة الماعون ، الآية ٥ .
(٣) هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه ، وهو على وجهين : ما كان يدل عليه الكلام دلالة الإخبار ، وما يدل عليه دلالة القياس ، أي العبارة تتضمن المعنى من غير إشارة صريحة إليه . قاله الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٩٤ ، للمزيد انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢٦٢ . وانظر عباس : لطائف المنان ، ص ٥١ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٧٧ .
(٥) للمزيد انظر : الحمصي ، هشام عبد الرزاق : نظرات في كتاب الله ، (دمشق : دار الكلم الطيب ، ط ٤ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م) ، ص٥٣ ، ومثاله للتوضيح أيضا قوله تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ ، سورة المائدة ، الآية ٨ ، فقد قال القائلون =

في توجيه الآية ، ذلك أن لفظ (نجيناه) قد ذكرت صراحة في الآية التي قبل .

* كما أنه لا تقدير لحروف محذوفة ـ كما يدعيه بعض أهل اللغة ـ في النص الكريم ، كتقدير (لا) في قوله : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ . . ﴾[1] ، ومثلها ما ورد في قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2] ، وغيرها من أمثالها ، فالأسلوب القرآني مع التسليم بأنه جاء على نسق أساليب العربية ، إلا أن له ميزاته التي جعلت العرب يعجزون عن مجاراته ، ومن هذه الميزات اختيار اللفظة ودقتها من حيث ما تؤديه ، فليس كون أسلوب القرآن عربيا يلزم منه أن القرآن الكريم ينبغي أن يشتمل على كل ما جاء في العربية من أساليب مقبولة وغير مقبولة[3] . ما يهم الباحث من ذلك كله هو أن يشير إلى الحقائق الآتية :

* إنه ما من حرف في كتاب الله إلا وله رسالة يؤديها ووظيفة يقوم بها ، تختلف هذه الوظيفة ، ففي حين نجدها تشير إلى ملمح نفسي ، نجدها في حين آخر تشير إلى حقيقة تاريخية أو ملحظ تربوي أو غير ذلك من الأمور التي تحتاج منا إلى مزيد إمعان وتدبّر في كتاب الله تعالى ،كما أن الملحظ النفسي قد يكون له دور كبير في حلّ كثير من الإشكاليات التي كانت محطّ أنظار أولئك الذين طعنوا في الأسلوب القرآني ، مع يقين الباحث بأنه لا يمكن أن يأتي على ذلك كله إلا أنه يود الإشارة إلى أن إيراد بعض الأمثلة في هذا المقام تغني عن كثير منها في بابها .

* الحرف حين يتشكل في الكلمة يكون له الأثر المعنوي الذي ينبىء عنه ، وقد تقدم الحديث عن طرف من هذا عندما تحدث الباحث عن تشكل الحروف والتلاؤم .

تقدمت الإشارة إلى أن من الحروف ما هو لين ، هادىء الجرس يكون دوره النفسي مبعث الارتياح ، ومنها ما هو قوي يناسب مواقف الزجر والتعنيف ، ومنها ممدودة مناسبة مواطن النصح والإرشاد .

ولما كان لا معنى لمثل هذه الحروف منفردة ، ولا مزية لها إلا مجتمعة في

= بالتضمين بأن كلمة يجرمنّكم عدّيت بـ« على » « التضمين معنى : « يحملنّكم » .

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٧٦ .

(٣) انظر عباس : لطائف المنان : ص ٨٥ .

الكلمة ، كان ضرب الأمثلة عن الكلمات أنسب ، ولهذا فإن الباحث يترك أمثلة هذا النوع إلى موضعها .

ولا يعني من اجتماع الحروف أنه يحدث تلاؤما في الأحوال جميعها ، فقد يحصل ـ في بعض الأحيان ـ تنافر من اجتماع بعض الحروف ، وهو ما لم يقع في كلام الله ـ عز وجل ـ ، هذا التنافر معدود في غير الفصيح عند أهل اللغة ، وقد ضربوا له أمثلة : (كاجتماع الصاد مع الجيم في الكلمة) ، حيث قالوا بأنه يشير إلى أن أصل الكلمة غير عربي ـ مثل صولجان ـ ومن ذلك تقارب حروف الصفير (الصاد ، والسين) وتتابعهما . أو اجتماع (العين ، والحاء) أو (الغين ، والخاء) أو (التاء ، والطاء) أو (الكاف ، والقاف) وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب البلاغة[١] .

الحروف القرآنية نوعان :

١ـ حروف المباني : وهي الحروف التي تبنى وتؤلف وتكوّن منها الكلمات .

٢ـ حروف المعاني : الحروف الدالة على معنى من المعاني ، ولها عمل في الإعراب .

ويعدّ من حروف المباني « الحروف المقطعة في أوائل السور » ، وهي في حقيقة الأمر تؤدي رسالة ، إذ هي تدل على التحدي والإعجاز وإثبات مصدر القرآن ، ولها وظيفة نفسية وهي الإيقاظ والتنبيه ، وبهذا يتبن لنا أن الأحرف المقطعة في بداية السور تدل على ملاحظ نفسية من جهتين :

الجرس والإيقاع المتوازن ، وقد تقدم الحديث عنه (وهذا للعربي وغير العربي) .

الإيقاظ وتنبيه الفكر (وهي مختصة بمن يتكلم العربية أو يفهمها) ، إذ السامع لهذه الأحرف التي لا يفهم معناها على الرغم من أنها الحروف التي يستخدمها يسأل

---

(١) القزويني ، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن : التلخيص في علوم البلاغة ، شرح : محمد هاشم دويدري ، (بيروت : دار الجيل ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م) ، ص ١١ وما بعدها ، للمزيد انظر : عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ٢٤٠ وما بعدها . وانظر : أنيس : موسيقى الشعر ، ص٢٣ وما بعدها .

نفسه ما معناها ؟ فيتنبه حسه إلى ما بعدها ، ويبقى متيقظ الحس يتلمس معانيها ، فهي بمثابة طرْق الباب توقظ الذهن[1] .

أما بقية حروف المباني فعلى الرغم من أنها هي التي يشكل منها كلامنا المعتاد ، إلا أن مزيتها تبرز عند اجتماع هذه الأحرف معاً بحيث تثبت لها صفة التلاؤم ، وينفي عنها صفة التنافر ، فهي تؤدي دوراً نفسياً في كلام الله ، وقد أشبع علماء البلاغة ومن تحدث عن الإعجاز هذا الميدان أمثلة ، وضربوا أمثلة لأحرف يحسن اجتماعها وأحرف يقبح اجتماعها[2] ، بل ضربوا أمثلة لحروف حسن اجتماعها في القرآن ، وقبح اجتماعها في الكلام العادي ، كاجتماع الأحرف المتماثلة في الأمثلة الآتية :

* الحاء مع الحاء : ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾[3] ، وقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[4] .

---

(١) يشار هنا إلى أن المفسرين اختلفوا في تحديد المقصود بهذا التنبيه ، فبينما يرى بعضهم أنها تنبيه للمشركين إلزاماً لهم بالحجة ، وبالتالي تكون موضع استغراب ، فيفتحوا لها أسماعهم فتجب عليهم الحجة » . قال به : أبو حيان الأندلسي ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف : البحر المحيط ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م) ، ١/ ٣٤ ، ويرى بعضهم أنها تنبيه للنبي ﷺ ، لا إلى المشركين من باب أن : « الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة ، ومن يكون مشغول البال بشغل من الأشغال ، يقدّم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع في المقصود » . ذهب إليه الفخر الرازي ، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن : التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١١هـ ـ١٩٩٠م) ، ٦/ ٤٥٦ . واستحسن الإمام الجويني هذا القول (التنبيه) قائلاً : القول بأنها تنبيهات جيد ، لأن القرآن كلام عزيز وفوائده عزيزة ، فينبغي أن يرد على سمعٍ متنبه ، فكان من الجائز أن يكون قد علم في بعض الأوقات كون النبي ﷺ في عالم البشر مشغولاً ، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله : ﴿ألم ، ألر ، حم﴾ ، ليسمع النبي ﷺ صوت جبريل ، فيقبل عليه ويصغي إليه . . » انظر : السيوطي : الإتقان ، ٢/ ١١ .

(٢) لعل أول من تكلم عن هذا من علماء العربية هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ونقل عنه الرماني (ت ٣٨٦هـ) مشيراً إلى أن البعد الشديد في المخرج أو القرب الشديد في المخرج من دواعي التنافر . انظر الرماني : ثلاث رسائل « النكت » ، ص ٩٦ . ابن جني : الخصائص ، ٢/ ٢٢٧ . للمزيد : انظر : لاشين : من أسرار التعبير القرآني ، ص ٢٨ـ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٣٥ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٦٠ .

* الحاء مع الهاء : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾[1] ، وقوله : ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾[2] .

* الكاف مع الكاف : ﴿مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾[3] ، ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[4] ، ﴿مَا سَلَكَكُمۡ﴾[5] ، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾[6] .

* القاف مع الكاف : ﴿فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ﴾[7] ، ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾[8] .

* القاف مع القاف : ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾[9] .

وهكذا نلمس أن هذه الأحرف تؤدي دورها مجتمعة في كتاب الله ، وإلاّ فلا مزية لها منفردة ـ كما يقول إمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجاني[10] ـ فالقرآن الكريم يتخير حروف الكلمة ، وينتقي أصواتها في مخارجهان فيتشكل منها تناسقاً عجيباً ، ويؤلف اجتماعها بعضها إلى بعض نغماً مطرباً ، فالحروف بجرسها ترسم المعاني ، أما أمثلة ذلك فهي كثيرة في كتاب الله[11] ، وقد أدرك علماء العربية ورجال البلاغة أثر البنية الصوتية في الكلام ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

كلمة ﴿شُوَاظٞ﴾[12]، انظر إلى الشين والظاء وظلهما ، ومثلها : ﴿نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾[13] ،

---

(١) سورة الطور ، الآية ٤٩ .
(٢) سورة الإنسان ، الآية ٢٦ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٠٠ .
(٤) سورة طه ، الآية ٣٤ .
(٥) سورة المدثر ، الآية ٤٢ .
(٦) سورة الانشقاق ، الآية ٦ .
(٧) سورة الشعراء ، الآية ٦٣ .
(٨) سورة الجمعة ، الآية ١١ .
(٩) سورة الأعراف ، الآية ١٤٣ .
(١٠) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٣٠١ ،
(١١) يذكر أن صاحب الظلال قد أكثر من أمثلة هذا النوع وإبراز نواحي الجمال فيه ، نلمس ذلك في الظلال ، والتصوير الفني في القرآن ، ومشاهد القيامة في القرآن .
(١٢) سورة الرحمن ، الآية ٣٥ .
(١٣) سورة الليل ، الآية ١٤ .

فهذه الحروف تنقل إلى السامع صورة النار مغتاظة مهتاجة غاضبة .

* حرف الخاء ﴿ مَوَاخِرَ ﴾[1] ، يحمل صورة البواخر ، وهي تمخر عباب البحر ، وتشق الأمواج .

* الهمز ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾[2] ، بمعنى تهزهم ، تزعجهم ، تقلقهم . . فالهمزة أقوى من الهاء والهمز يكون أحياناً للشيء الصغير ، أما الأزّ فيقال لما عظم من النفوس[3] .

هنالك كثير من الكلمات يرتبط صوتها بحروفها مثل قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ﴾[4]، و﴿ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾[5] ، و﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾[6] ، و﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾[7] ، و﴿ فَكُبْكِبُوا ﴾[8] ، كل ذلك وأمثاله من اللفظ يصوِّر بثقله وتشديده البطء الشديد والتثاقل في الاستعداد ، والمبالغة في الإلزام بالحجة ، والمبالغة في التحقير ، والتعالي في الأصوات ، يضاف إلى هذا أن لواحق الكلمات تزيد في المعنى مثل زيادة : (ا س ت) استفعال ، والتاء في مثل : (اكتسب) ، وغيرها مما هو معروف عند أهل الصرف .

أما حروف المعاني[9]

من المعروف أن وجود حروف المعاني هو الذي يضفي جمالاً على التراكيب اللغوية ، إذ تشكل الحروف العاملة القسم الأعظم من دراسات اللغويين ، فقد بيّنوا

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٤ ، سورة فاطر ، الآية ١٢ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٨٣ .

(٣) انظر إلى شيء من هذا قاله : ابن جني : الخصائص ، ٢/١٤٦ ، ١٥٧ـ١٥٨ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٣٧ .

(٥) سورة النساء ، الآية ٧٢ .

(٦) سورة التوبة ، الآية ٣٨ .

(٧) سورة هود ، الآية ٢٨ .

(٨) سورة الشعراء ، الآية ٩٤ .

(٩) هذه الحروف منها ما هو مفرد يلصق بالكلمات فيؤدي دوره : مثل « اللام ، الكاف ، الباء » ومنها ما هو مستقل : مثل « عن ، إلى ، في » . ومنها مشبهة بالفعل : (إنّ ، أنّ ، كأنّ ، لعل ، لكن ، ليت) حيث يطلق عليها حروف اصطلاحية وليس حقيقة . ومنها عاملة للجر في الأسماء (الباء ، في ، اللام ، من ، على ، الكاف) . ومنها عاملة بالأفعال : الفاء « فيكون » ، اللام : « لتكن » ، أن لن إذن كي ، لمّا .

وظيفة كل أداة وشروط إعمالها ، وأشاروا إلى سبب إهمالها ، إلى غير ذلك مما له صلة بها ، فمن حروف المعاني التي يبرز في استخدامها بعض المعاني النفسية :

استخدام لفظ « على » و« في » من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] . نلحظ كيف خولف في الآية بين موقعي هذين الحرفين ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى ﴾ أَوْ ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ، فإدخال حرف « على » على لفظ « الهدى » إشارة إلى ملحظ نفسي : فهو ينبيء عن الثقة التي يتمتع بها صاحب الحق ، فكأنه لقوة حجته ويقين صدقه ممتطٍ صهوة جواد ، يصرفه كيف يشاء ، مستعلٍ ، تحت نظره كل صغيرة وكبيرة ، وهو إشارة إلى تمكنه في الحجة ، بخلاف الباطل حيث عبِّر عنه : ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ، كأنه لفشل صاحبه وفرط قلقه وضعف حجته منغمس في ظلام ، تائه . . حائر . . لا يدري أين يتوجه ، غارق في ضلال مبين . لا يدري ماذا يفعل »[2] ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[3] .

استخدام « مِنْ » أحياناً يؤدي ملحظاً نفسياً ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾[4] ، حيث لم يأت : ﴿ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ ، إذ المعنى على هذا : أن حجاباً حاصلٌ بين الجهتين ، فوجود « مِن » تعني أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك »[5] ، أما الملحظ النفسي في ذلك فهو أن هذا الحجاب قد سدّ كل فراغ بينهما يمكن أن يكون وسيلة للسماع ، حيث في القلوب أكنة تحول دون التدبر فيما يصل إليها والآذان فيها من الثقل ما يحول دون سماع قول الحق ، وأما الأبصار فهناك من الحجب ما يمنعها من رؤية الحق ، فوسائل العلم والإدراك لديهم معطلة .

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٢٤ .
(٢) للمزيد انظر : لاشين : من أسرار التعبير القرآني ، ص ١٠٠ بتصرف .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٩٥ .
(٤) سورة فصلت ، الآية ٥ .
(٥) أشار إليه الزمخشري : الكشاف ، تح : محمد الصادق قمحاوي ، (القاهرة : البابي الحلبي وأولاده ، د . ط ، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م) ، ٣/ ٤٤٢ .

ومن الحروف التي تؤدي معنى نفسياً دخول حرف اللام في الجملة تارة واختفاؤه تارة ، مثال ذلك قوله تعالى على لسان لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[2] ، فالجملة : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، كما هو ملاحظ دخل عليها حرف اللام في الموضع الثاني بخلاف الأول ، ولو أمعنّا النظر في ذلك لوجدنا أن حضور اللام في الثانية يرشد إلى معنى نفسي ، توضيح ذلك : أن السياق الذي وردت فيه آية الشورى والتي دخلها حرف اللام كان يتحدث عن صفات المؤمنين ، ومنها خلق الحلم وردّ السيئة بمثلها دون تجوّز ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾[4] ، ثم ترقى الأمر الرباني بالمسلم ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾[5] ، أي أن يقابل الإساءة من الآخرين بالإحسان منه ما لم يصل الإيذاء الواقع عليه منهم إلى حدّ الظلم والبغي ، فحينها يرخّص له بالانتصار ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[6] ، و﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾[7] ، لكن الأوامر الربانية تترقى بالنفس . فقد حدثتنا عن مقابلة الإيذاء الواصل إليه من الخصم والمعتدي بالعفو والإحسان والحث على الصبر ، وهذا رقيّ ما بعده رقيّ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[8] ، في ضوء ذلك ندرك الرسالة النفسية التي يقوم بها حرف اللام الذي دخل على الحرف من ، فهو يعبّر عن مدى مشقة ذلك على النفس ؛ إذ الصبر على الإيذاء الواصل من الخصم والغريم أشق على النفس من الإيذاء الواصل مع جهالة مصدره ، وهكذا ندرك سرّ خلو الموضع الآخر من اللام ، فهي حديث عن الإيذاء الواصل إلى النفس من جهالة

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١٧ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٣ .
(٣) الآية ٣٧ .
(٤) الآية ٤٠ .
(٥) الآية ٤٠ .
(٦) الآية ٣٩ .
(٧) الآية ٤١ .
(٨) الآية ٤٣ .

المصدر ، فزيادة المبني تفيد زيادة في المعنى[1] .

من ذلك الحرف « في » ، من قوله تعالى على لسان فرعون مهددا سحرته الذين آمنوا : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾[2] ، إذ المعروف أنّ التصليب يتمّ على جذع النخل وليس فيه ، لكن هذا الحرف « في » ينقلنا إلى الجو النفسي الذي كان يعيشه الطاغوت فرعون تلك اللحظة ، فالحرف يكاد ينطق بمدى الحنق والغضب الذي ألمّ بفرعون تلك اللحظة ، ففي نيّته تضعيف العذاب وتشديده عليهم حتى لو كان بوسعه أن يعتصرهم ، فينتقل أثر التصليب من على الجذوع إلى حيزها ، والله أعلم .

من هذا الباب ـ أيضا ـ دخول اللام على لفظ « بئس » في مثل قوله تعالى : ﴿ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[3] . وقد اختفت اللام في آيات أخر مثل المواضع الآتية : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[5] .

---

(١) يذكر أن محمد متولي الشعراوي كان قد تحدث عن الآيتين حديثا لطيفا ، هو في مضمونه قريب من المذكور ، هذه عبارته : « عندما يتحدث القرآن عن الصبر على شيء ليس لي فيه غريم يقول : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، وعندما يتحدث عن الصبر الذي لي فيه غريم بحيث أستطيع أن أنتقم وأكون منفعلاً إذا لم أنتقم يقول ، قال ﴿ عز وجل إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ ، هنا اللام للتأكيد في نوع الصبر وما يحتاج إليه من جلد وضبط للنفس ، ففي الحالة الأولى حينما لا تستطيع أن تعاقب بمثل ما عوقبت به يكون الصبر من عزم الأمور ، ولكن في الحالة الثانية فإنك تستطيع أن تنتقم من غريمك . . ولذا قال عز وجل : ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ، فتأتي اللام للتأكيد ، وتؤكد الفرق بين عزم الأمور في الحالة الأولى وعزم الأمور في الحالة الثانية » الشعراوي ، محمد متولي : معجزة القرآن ، (القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨٨م) ، ١/٤٨ .

(٢) سورة طه ، الآية ٧١ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٢٩ .

(٤) سورة الزمر ، الآية ٧٢ .

(٥) سورة غافر ، الآية ٧٦ .

والجواب عن هذا أن دخول اللام على بئس في الآية الأولى يحمل رسالة نفسية ، إذ الآية تتحدث عن قوم ضلوا وأضلوا ، ولهذا فهم سيحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم ، فيكون لزمهم بذلك وزران ، ولهذا يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، ومن هذا الفهم نستطيع أن ندرك حسن وجمال دخول اللام ، ولو تأملنا في السياق الذي وردت فيه آية النحل[1] ، لوجدنا أنه كثر استخدام ألفاظ التأكيد ،كما هو مبيّن في الهامش .

والأوضح من هذا أن مسألة التقابل بارزة (أموات ـ غير أحياء) ، (يخلق ـ لا يخلق) ، (يسرون ـ يعلنون) ، (تعُدّوا ـ تحصوها) ، (لا يخلقون ـ يخلقون) ، ولهذا نلحظ أن وصفهم ـ كذلك ـ جاء بذكر طرفين على النحو الآتي : (قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون) ، (خر عليهم السقف ، وأتاهم العذاب) ، (الخزي ، والسوء) .

وكذلك الأمر بالنسبة لبقية حروف القرآن ولعل ما تقدم من الأمثلة يفي بالإشارة إلى المراد[2] .

---

(١) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ، سورة النحل ، الآيات ٢٣ـ٢٩ .

(٢) يذكر وجود كتابات عنيت بالحرف القرآني غير الذي تقدم الإشارة إليها في البحث وهي جهود قيمة ، من ذلك : جهود عبد الرحمن تاج ، حيث كانت له سلسلة من المقالات في مجلة الأزهر عام ١٣٧٦هـ ، جمعت فيما بعد بمؤلف تحت عنوان : الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ، جمع أبو بكر عبد الرزاق ، (القاهرة : المكتب الثقافي للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٠م) . ومنها : عضيمة ، د . عبد الخالق : دراسات لأسلوب القرآن ، (القاهرة : دار الحديث ، د . ط . ت) ، حيث إنه يعدّ من أوسع من استقرأ الحرف القرآني ، وهذا نلمسه في أغلب مادة الكتاب . ومنها ما كتبه علي العماري ، حيث كتب عدة مقالات منها في مجلة التضامن الإسلامي ، (ج ١٠ ، س ٣٧ ، شباط/ ١٩٨٣م) ، ص ٤٧ـ٥٣ . تحت عنوان : =

المبحث الثاني

الكلمة القرآنية ودورها النفسي

إذا كان للحرف نصيبه في أداء الدور النفسي في كتاب الله فإن حظ الكلمة أوفر في إجلاء المعاني النفسية ـ بلا شك ـ فالكلمة القرآنية أحد أسرار الإعجاز البياني من حيث دقّتُها ، وكونُها مقصودة منتقاة[1] دون غيرها ، وكونها معبرة عن :

* دقتها في الوضع ، فهي في موضعها من الجملة أجمل وأدق ما تكون ، لا تنبو عن موضعها ، ولا يستغني عنها ، واضحة جلية لا زيادة فيها ولا نقصان .

* ودقتها في الاختيار ، بحيث لا يستبدل بها لفظة أخرى مختارة من بين مجموعة من الألفاظ من حيث الصيغة والجرس والإيحاء .

* دقتها في الوصف ، بحيث تقرب المعاني القرآنية إلى مداركنا البشرية بأوصاف حسية ، وتقف بنا على المعاني النفسية .

* دقتها في أداء المعنى .

= على هامش الدراسات القرآنية ، وبعنوان : إعجاز القرآن : (المدينة المنورة : مجلة الجامعة الإسلامية ، ع ٤ ، س ٦) ، ومنها في (مجلة الأزهر من العدد ٧٦٠ وما بعده ، عام ١٣٨٦هـ) ، ولا يخفى ما كتبه محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم حول حرف الكاف من قوله تعالى في الآية : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ، سورة الشورى ، الآية ١١ ، فعلى قلة الكلام المكتوب إلا أنه كان ذا قيمة علمية ، انظر : دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص ١٦٢ـ١٧٣ ، ويبقى أجمع المذكور وأقربه صلة بموضوع الدراسة كتاب عباس : لطائف المنان وروائع البيان .

(١) المفردات القرآنية إذن مفردات مختارة منتقاة ، ويدل على ذلك أن معاجمنا اللغوية زاخرة بالألفاظ الكثيرة ، إلا أن ألفاظ القرآن قليلة ـ نسبيا ـ إذا قيست بتلك المفردات التي ذكرتها المعاجم . . فهي أشبه بفرائد ودرر ، وقد تعاقب عليها علماء التفسير واللغة والبيان ليكتشفوا عما ترشد إليه من معنى ، وهذه مهمة المفسرين ، وليبينوا صيغتها واشتقاقها والفصيلة اللغوية التي تنتمي إليها ، وهي مهمة اللغويين ، وليظهروا جمال موقعها وأصالتها في موضعها وما لها من حلاوة جرس وما تحدثه من إرهاف الحسّ ، وهذه مهمة البيانيين ، للمزيد انظر عباس ، فضل حسن : الكلمة القرآنية ، (الكويت : مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، س ٢ ، ع ٤ ، ١٩٨٥م) ، ص ٢٠ .

* دقتها في التناسق ، وهذا ناشىء عن اجتماعها مع بقية المفردات في العبارة القرآنية « تتداعى عليها المعاني بتسلسل منطقي ، ويحصل هذا التداعي عند التروي والتحليل »[١] ، وهي - إلى جانب هذا كله - مصوِّرة ومشخِّصة للمعنى بحروفها وجرسها وظلِّها وإيقاعها ، وهي بالإضافة إلى ذلك كله معبرة عن المعاني النفسية .

لأهمية الكلمة ومكانتها نجد أن الذين تحدثوا عن الإعجاز من علمائنا قد أولوها اهتماما كبيرا باعتبار أنها عمدة في الإعجاز[٢] ، وقد كان للرافعي عناية خاصة بذلك ، فهو يشير إلى أن : « هذه الألفاظ في حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ، فيهيىء بعضها لبعض ، ويساند بعضها بعضا ، ولن نجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مساوقة لها في النظم ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان ، فلا تعذب ولا تساغ ، وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة ، فإذا هي استعملت في القرآن ، رأيت لها شأنا عجيبا ، ورأيت أصوات الحروف والحركات قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان ، واكتنفتها بضروب من النغم ، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه ، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة »[٣] ، لكن لو تساءلنا عن سرِّ اهتمام علمائنا بالمفردة عند حديثهم عن الإعجاز في نظم القرآن فقد كان البحث عن روعة المفردة القرآنية جزءاً من حديثهم عن الاعجاز . إلا أن هذا الاهتمام لم يصل إلى حد اكتشاف موقع هذه الألفاظ من النفس ، وأغلب اهتمامهم كان بالمفردة على حساب الترابط الفكري والترابط في عبارة القرآن .

والحق الذي يجب أن يُتنبه إليه هو أن المفردة القرآنية لها من الأهمية فوق الذي تحدث عنه أصحاب نظرية النظم ، فالمفردة القرآنية تنفرد بصفات عدّة : كالشمول ، الثبات ، التفصيل . . ، وقد تحدّث بعض المحدثين عن قيمة الكلمة القرآنية ، وربما

---

(١) للمزيد انظر : السلامي ، الإعجاز الفني في نظم القرآن ص ٨٥ .
(٢) للمزيد حول معرفة جهود العلماء السابقين في هذا الميدان انظر : ياسوف ، أحمد : جماليات المفردة القرآنية ، (دمشق : دار المكتبي ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م) ، ص ٧٥-٩٧ .
(٣) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٢٧ .

بالغ بعضهم فيما توصل إليه مثل قولهم : إن مفردات القرآن الكريم تُثبت العلاقات بين مسيرة الإنسان ومسيرة الوجود من حوله[1] . أو « إنّ مفردات القرآن الكريم حقائق ثابتة تخضع لها حركة الحياة ، وإن حقائق مفردات القرآن متعددة بتعدد حاجات مخلوقاته ، وحركة الحياة خاضعة لمفردات القرآن الكريم توصيلاً وتفصيلاً وحقيقة »[2] ، هذه الأحكام التي توصل إليها بعض الباحثين ، بعضها ظني لا يستند إلى حقائق فضلا عن كونها ثابتة ، بل ربما يكون فيها نوع من تحميل المفردات القرآنية فوق ما تحتمل .

لا ينبغي أن يقف فهمنا للمفردة القرآنية عند الظاهرة اللغوية ، بل لابد من ربطها بسياقها والظروف التي أحاطت بها زمانياً ومكانياً ونفسياً ، فاختيار الكلمة القرآنية أمر لا يمكن إغفاله . والألفاظ المشتركة تعدّ من أبرز مظاهر الجمال في التعبير القرآني ، حينما ننظر في الكلمات المتعددة التي يعبر بها عن معنى من المعاني نلمس الدقة في هذا التعبير ، بحيث لا يمكن أن يسد مسدّها أيٌّ من الألفاظ المتقاربة في المعنى ، فعلى سبيل المثال لفظ (خوف) نجد أن الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم لتعبّر عن الخوف كثيرة منها : « الخشية ، الوجل ، الإشفاق ، الفزع ، الهلع ، الرعب ، الوجس ،.. » فهل يا ترى يمكننا أن نستبدل أحد هذه الألفاظ بآخر في مواقع ورودها ؟ لا يمكن أبدا ، وهكذا يمكن القول في أمثالها من المفردات .

كل شيء متصل بالمفردة القرآنية مقصود ، سواء أكان متعلقا بتشكيل الحروف واجتماعها ، أم من حركاتها ، أم من معناها ، أم من جرسها وظلها ، أم من موقعها ، أم حتى من رسمها ، والذي يهمنا من ذلك كله في هذا المقام أن يشار إلى أنها مقصودة

---

(١) انظر : أبو عزب ، سليمان عبد الله موسى : الإبداع اللفظي في القرآن الكريم ، (لندن : مجلة الجامعة الإسلامية ، ١٤١٥هـ ـ١٩٩٥م) ، ص ١١٢ ، ص ١١٢و ١٢٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال : محمد العفيفي فقد حاول في كتابه إثبات أن حقائق مفردات القرآن متعددة. . « وحاول أن يضرب لذلك أمثلة ، ومع يقيننا بقيمة العمل والجهد الذي بذله الباحث في كتابه المتقدم الذكر ، إلا أنه بدا فيه التكلف عندما حاول تطبيق نظرته على مجموعة من الأمثلة ، أو على الأقل لا نجدها تنساق وراء ما ذهب إليه إلا بشيء من التكلف . العفيفي ، محمد : القرآن القول الفصل بين كلام البشر وكلام رب العالمين ، (الكويت : ذات السلاسل ، د . ط ، ١٩٧٧م) .

من حيث بعدها النفسي ودلالتها على المعاني النفسية ، وهو ما يأمل الباحث أن يقف عليه في هذا المبحث .

المطلب الأول : البعد النفسي والكلمة القرآنية :

ظلال الكلمات من الناحية النفسية أمر قد مرّ بيانه من قبل في الباب الثاني ، وكون الألفاظ التي تصدر من الإنسان تعبّر عما في داخله من معان نفسية سبق ذكره ـ أيضاً ـ في الباب الأول ، وأشير إلى أنه حتى الكلمات غير المقصودة التي تصدر من الإنسان في بعض الأحيان تعبّر عن حالات نفسية كالتي تصدر عن الإنسان في حالة اللاوعي : كالتكلم في لحظات غياب الوعي أو أثناء النوم . . إلى غير ذلك من الأمثلة .

أقول حتى هذه تعبّر عن معان نفسية ، فإذا كان هذا في كلام البشر ؛ فما بالنا بكلام رب العالمين الذي ينقله لنا بجميع أبعاده ، هل نظن أن الألفاظ التي أخبرنا الله بها ستكون مجردة عن تلك الجوانب النفسية المتعلقة بالمخاطبين ؟ »[1] .

لكن هذه المعاني النفسية المتصلة بالكلمات بعضها يمكن تلمسه من خلال الألفاظ دون حاجة إلى سياقها وذلك أنها بمعانيها تشير إلى هذا ، وبعضها الآخر يمكن تلمسه من خلال اجتماعها في العبارة ، فيكون النظم أحد ضوابط هذه المعاني النفسية ، وأحياناً يكون السياق الذي جاءت فيه هذه اللفظة أحد هذه الضوابط في استنباط تلك المعاني النفسية .

المطلب الثاني : أمثلة ونماذج

أولا : هناك كلمات تؤدي دورها النفسي دون حاجة إلى سياقها ، من ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ :

١ـ (آنس) : وردت مادة الأنس ثلاث مرات في سياق قصة موسى عليه السلام « آنست ، آنس »[2] ، كما وردت في آيات الاستئذان « حتى تستأنسوا . . » ،

---

(١) يأمل الباحث أن لا يفهم من هذا الكلام أن المقصود بالمعاني النفسية هنا ما يتعلق بجلال الله عز وجل إذ تقدم الحديث عن هذا بما يغني عن الإعادة ، فالمقصود تلك المتعلقة بالمخاطبين .

(٢) استأنس : فيها معنى الأنس النفسي « حتى تستأنسوا . . » والكلمة فيها معنى الأنس النفسي الشعوري ، وهو يسبق الاستئذان ، فالاستئناس حركة مادية عملية . وهو مطلوب من الزائر=

« والاستئناس حركة نفسية شعورية ذاتية »[١] ، إذ هي تعبير شعوري .

٢ـ العام والسنة : المتتبع للاستخدام القرآني يلحظ أن هنالك فرقا بين لفظي سنة وعام ، هذا التفريق لو دققنا النظر فيه سوف نجد أن العامل النفسي هو أحد أهم ما يمكن تلمسه في إدراك هذا الفرق ، يؤكد وجود هذا الفرق كون اللفظين وردا معا في سياق واحد : قال عز وجل : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾[٣] ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ . . ﴾[٥] ، ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٦] ،

تنبه لهذا الفرق الإمام الراغب ، فقال :« السنة : عِبارَةٌ عَنِ الجَدْبِ ، وأَكْثَرُ ما تُسْتَعْمَلُ السَّنَةُ في الحَوْلِ الذي فيه الجَدْبُ ، يُقالُ أَسْنَتَ القومُ : أَصابَتْهُمُ السَّنَةُ ، قال الشاعرُ : (لَهَا أَرَجٌ مَا حَوْلَهَا غَيْرُ مُسْنِتِ) ، وقال آخر : (فليست بسنهاء ولا رجبية) فمِن الهَاءِ كما ترى وقول الآخر : (مَا كَانَ أَزْمانُ الهُزَالِ وَالسِّنى)[٧] ، وفي معنى العام قال الراغب : « العام كالسنة ، لكن كثيرا ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه

= الخارجي الذي ليس من أهل البيت .

(١) الخالدي ، صلاح عبد الفتاح : لطائف قرآنية ، (دمشق : دار القلم ، ط ١ ، ١٩٩٢م) ، ص ٩٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات ٤٧ـ٤٩ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٢٥ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية ١٤ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٣٠ .

(٧) الراغب : المفردات ، ص ٢٤٤ .

الشدة والجدب ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام بما فيه الرخاء والخصب ، قال : ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾[1] ، وقال : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ، ففي كون المستثنى منه بالسنة والمستثنى بالعام لطيفة . . »[2] .

يلحظ مما تقدم أن الفرق الحقيقي بين اللفظين عائد إلى المعنى النفسي ، وإلا فالمدّة الزمنية واحدة ، لكن الذي يميز بينهما هو الأمر النفسي ، فحين تكون المدة انقضت بالرخاء والاستقرار ـ وهو تابع لما في النفس ـ فهو العام ، وإن كان بالقحط والجدب فهي سنة ، فالأمر النفسي لا غير هو المميز .

٣ـ من الألفاظ التي يستخدمها التعبير القرآني ، وفيها ما فيها من الظلال النفسية ، لفظ « الذوق » ، إذ من المعروف أن العرب تستخدم هذه الكلمة للتعبير عن الإحساس بالتمتع واللذة ، إلا أن القرآن الكريم قد استخدم هذه اللفظة لتعبّر في كثير من مواضعها عن أصناف العذاب ، ودور هذه اللفظة يبرز في أنها تنقل إلى أسماعنا ذلك العذاب النفسي الذي يكون مصاحباً للعذاب الحسي ، فهي أدل على العذاب النفسي الذي يلقاه العصاة يوم القيامة ، ولدى استعراض هذه اللفظة لوحظ أنها قد وردت قرابة الثلاثة وستين موضعا في القرآن الكريم ، فقط ثمانية مواضع منها كانت في موارد الرحمة والنعمة ، أما بقية المواضع فقد كان ورود اللفظ في مورد التبكيت والتقريع والعذاب وأصنافه ، يلحظ هذا من اللفظ الذي أسند لفظ الذوق إليه (العذاب ، الموت ، البأس ، الوبال ، السوء ، لباس الجوع والخوف . .) فهي كثيرا ما تدل على العذاب والتقريع النفسي : كقوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[4] ، فالآية تؤكد على مسألة العذاب النفسي الذي يصحبهمن وهو مقصود .

وموضوع اقتران العذاب النفسي بالعذاب الحسي أمر ملحوظ بشكل كبير في آيات

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٤٩ .
(٢) الراغب : المفردات ، ص ٣٥٤ .
(٣) سورة الدخان ، الآية ٤٩ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٥٦ . ومن ذلك الآيات : سورة الأنفال ، الآية ٥٠ ، سورة التوبة ، الآية ٣٥، سورة يونس، الآية ٧٠ ، سورة النحل ، الأية ٩٤ ، سورة الإسراء ، الآية ٧٥ ، وغيرها .

العذاب يوم القيامة ، إذ كثيرا ما تقرن الآيات بين نوعي العذاب وتشير إليهما ، من ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾[1] ، « انظر كيف يقال لهم بأن يلتمسوا النور من خلفهم ، فيرجعون فلا يجدون إلا الظلام ، ثم يجدون الجدار الذي فيه العذاب لهم ، فتعذب نفوسهم بتلك الأحوال النفسية كما تعذب أبدانهم »[2] ، وهكذا نلحظ أنّ استخدام لفظ الذوق فيه إشارة إلى أن تعذيب الأبدان يرافقه تعذيب النفوس وإيلامها .

٤ـ الألفاظ التي يعبّر بها عن الخوف ـ كما تقدم ـ كثيرة ، لنأخذ مثلاً آية ورد فيها لفظ خوف ، قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾[3] ، و﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[4] ، وأخرى وردت فيها لفظة خشية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾[5] ، وأدق من ذلك ما نلمسه من اقترانهما معا في آية واحدة : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[6] .

نلحظ أن الآيات المتقدمة فيها استخدام للألفاظ « خوف ، خشية ، إشفاق » .

ولو رجعنا إلى معاجم اللغة لندرك الفرق بين هذه الألفاظ لوجدنا أن :

الخوف[7] : لفظ يستخدم ليعبّر عن حالة نفسية يمر بها الإنسان ، فالبعد النفسي للفظ « الخوف » غير الذي في لفظ الإشفاق[8] ، فالإشفاق فيه (عناية ورقة وعطف

---

(١) سورة الحديد ، الآية ١٣ .

(٢) للمزيد انظر : ضيف ، شوقي : سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة ، (مصر : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٨٠م) ص ١٠٧ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٣٣ .

(٤) سورة طه ، الآية ٦٧ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية ٥٧ .

(٦) سورة الرعد ، الآية ٢١ .

(٧) قال الراغب : الْخَوْفُ تَوَقُّعُ مكرُوهٍ عنْ أَمَارَةٍ مَظنُونةٍ اَو مَعْلومَةٍ . . وَيُسْتَعْمَلُ ذلكَ في الأُمُورِ الدنْيَويةِ والأَخرَوِية » المفردات ص١٦١ .

(٨) قال الراغب : الشّفَقُ اخْتِلاطُ ضَوْءِ النّهار بسوادِ اللّيل عندَ غُرُوبِ الشمس قال (فَلاَ أُقسِمُ=

وحنو) كل ذلك من العمليات النفسية التي تنطوي عليها نفس الإنسان ، وهي غير الخشية[1] التي تنشأ من عظم المخشيِّ منه ، بخلاف الخوف الذي هو ناشىء عن ضعف الخائف في الغالب ، وهذا فيه تفاوت بين بني الإنسان ، في ضوء المعاني المتقدمة ندرك دقة المفردة القرآنية في التعبير عن المعنى .

٥ـ بعض الكلمات يشير استخدامها إلى أبعاد نفسية أينما كانت ، فمثلاً كلمة « راغ » أغلب ورودها في القرآن كان في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام ، هذه الكلمة تفيد إلى جانب الذهاب معنى الرغبة في التخفي ، وهي عملية نفسية ورغبة في سرعة الأداء وهي سلوك عملي ، فالآيات التي ورد فيها هذا اللفظ يفيد إلى جانب معنى الذهاب السرعة والخفية وهما متعلقان بالجانب النفسي ، فإبراهيم عليه السلام حينما أراد تكريم أضيافه ذهب خفية عنهم ، وأحضر الطعام في أسرع وقت ممكن وهذا من تمام الكرم ، كل هذا يبرز لنا ما في نفس سيدنا إبراهيم عليه السلام .

فانظر إلى هذه المعاني تجد أن الذي هدى إليها هو لفظة« راغ » ، ومثل هذه اللفظة كثير في كتاب الله تعالى مما له ظلال نفسية ، ويصور الحالات النفسية لدى الإنسان .

ولعل أبرز ما يمكن استيحاؤه من معاني نفسية للألفاظ هو مع الألفاظ التي صحبت التشريعات المتعلقة بالأسرة والعلاقات الأسرية ، وهذا أمر طبيعي غير مستغرب ، إذ مع اجتماع الأشخاص تزداد الجوانب النفسية وتتحرك المشاعر، والدوافع والرغبات. . وغير ذلك .

وقد يكون من المناسب أن يضرب الباحث مثلاً لآيات من هذا النوع :

لفظ« يتربصن » : من قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[2] .

= بالشَّفَقِ) والإشْفَاقُ عِنايةٌ مُخْتَلِطَةٌ بخَوْفٍ لأنَّ المُشْفِقَ يُحِبُّ المُشْفَقَ عليه ويخَافُ مَا يَلْحَقُهُ ، المفردات ، ص ٢٦٣ـ٢٦٤ .

(١) قال الراغب : الخَشْيَةُ خَوْفٌ يَشُوبُهُ تعظِيمٌ ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عنْ عِلْمٍ بِمَا يُخْشى منه ، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قولِهِ : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَمَاءُ) ، المفردات ، ص ١٤٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣٤ .

انظر تجد هذا « التربص » ينبىء عن حالات وجوانب نفسية ، فالتربص هو الانتظار بالشيء[1] وهو من الأمور المتعلقة بالنفس ، ففي هذا التعبير تهييج للنساء على التربص ، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال[2] ، فجاء الأمر في ذلك بمثابة كبح جماح النفس في هذا الخصوص .

لفظ « الوصية » : لو عدنا إلى قواميس اللغة لوجدنا أن الكلمة تعني :

التَّقَدُّمُ إِلَى الغَيْرِ بِمَا يَعْمَلُ به مُقْتَرِناً بِوَعْظٍ ، يقال أوصى إليه : عهد إليه[3] ، والمعنى النفسي الذي يفهم من هذه اللفظة بارز ، فهو تخصيص رغبة وزيادة محبة ، ولهذا لو نظرنا في الآيات التي استخدمت فيها هذه اللفظة سوف نجد هذا البعد النفسي : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4] ، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[5] ، ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾[6] .

كلمة « زرتم» من قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾[7] ، من الزيارة : إذ في اللفظ إيحاء إلى أن الإقامة في القبر ليست إقامة دائمة ، كالزائر[8] غير مقيم ، وهذا فيه تهيئة نفسية إلى اللبث في هذا المكان ، فالذي يأتي لزيارة مكان ما ، ثم الذهاب إلى غيره ، يكون قد هيأ نفسه لذلك ، غير الذي عرف أنه مقيم فيها .

ثانيا : هناك كلمات تضفي ظلالها النفسية باجتماعها مع غيرها من الكلمات إذ لا تعطي ذلك البعد النفسي منفردة ، فإذا ما أضيفت إلى كلمة أخرى بدت تلك الظلال النفسية ، من ذلك :

---

(١) قاله الراغب : المفردات ، ص ١٨٥ .

(٢) عباس : لطائف المنان وروائع البيان ، ص ١٠٥ .

(٣) الراغب : المفردات ، ص ٥٢٥ ، وانظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة وصى .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٨٠ . وانظر الآية ٢٤٠ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ ، وانظر سورة النساء ١١ ، ١٢ ، ١٣١ .

(٥) سورة المائدة ، الآية ١٠٦ .

(٦) وردت في سورة العنكبوت ، الآية ٨ ، لقمان ، الآية ١٤ ، سورة الأحقاف ، الآية ١٥ .

(٧) سورة التكاثر ، الآية ١-٢ .

(٨) بنت الشاطىء : التفسير البياني ، ١/ ٢٠٠ .

* **الربط** : إذا أضيف إلى القلب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، أصل الربط : الشدّ بالحبل ونحوه ، أما إضافته إلى القلب فتعني : التثبيت ، يقال : فلان رابط الجأش : إذا قوي قلبه[2] ، بهذه الإضافة نجد أن اللفظ أضاف للكلمة بعدا نفسيا ، وهو الثبات والاستقرار الناشئان من طمأنينة النفس وسكينتها .

* **البخع** : إذا أضيف إلى النفس ، وقد استعمل اللفظ في السياق القرآني مرتين : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[3] ، و﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[4] ، أصل البخع : الجهد ، يقال بخعت لك نفسي : أجهدتها[5] ، قال الراغب : البخع : « قتل النفس غمّا »[6] ، ويقال : بخع الرجل نفسه : أي قتلها غيظا من شدة وجده بالشيء ، وبهذا نلمس البعد النفسي للفظة .

* **القر** : إذا أضيف إلى العين ، يقال : قرة عين ، وقد ورد اللفظ في القرآن مضافا إلى العين في ستة مواضع ، قال تعالى : ﴿ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾[7] ، وقال عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[8] ، وقال عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[9] ، وقال عز وجل : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ

---

(١) سورة القصص ، الآية ١٠ ، وانظر سورة الأنفال ، الآية ١١ ، وسورة الكهف ١٤ .
(٢) للمزيد حول هذه اللفظة معناها وآثارها انظر ، المدني ، محمد محمد : القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف ، (القاهرة : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، د . ط ، ١٩٦٤م) ، ص ٧١ـ٨٠ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ٦ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية ٣ .
(٥) المدني : القصص الهادف ، ص ٥٤ .
(٦) الراغب ، المفردات ، ص ٣٨ .
(٧) سورة طه ، الآية ٤٠ .
(٨) سورة الفرقان ، الآية ٧٤ .
(٩) سورة القصص ، الآية ٩ .

أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقال عز وجل : ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾[3] ، أصل القرّ : هو البرد وهو يقتضي السكون[4] ، والذي يهمنا من ذلك أن إضافة هذا اللفظ إلى لفظ عين ، يبرز لنا معنى نفسيا ينبىء عن الاطمئنان والاستقرار ، وهو نوع من الفرح والسرور ، إذ أصل قرة العين هو دمعها إذا كان باردا ، والعين ـ كما هو معروف ـ لها نوعان من الدمع : دمع بارد ، ويكون ذلك في حالة السرور ، ودمع حار ويكون ذلك في حالة الحزن ، ومن هنا ندرك وجه الصلة بين الأصل اللغوي للفظ القرّ ، وبين قرّة العين ، وهذا يرشدنا إلى المعنى النفسي الذي يفيده هذا اللفظ[5] .

لعل فيما سبق ما يرشد إلى هذا النمط من اللفظ ، فالملاحظ أن دقة الاستخدام القرآني للمفردة تجعلنا نجزم بأنها مقصودة لذاتها في موقعها ، لتضيف إلى جانب المعنى والظل والجرس بعداً نفسياً ، لا تؤديه كلمة أخرى .

ثالثا : ـ كلمات تؤدي معناها النفسي في سياقها :

هذا النمط هو الغالب في التعبير القرآني ، إذ كثيرا ما يكون السياق مرشدا وهاديا للبعد النفسي للفظ :

لفظ : « أنلزمكموها » في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[6] ، يكاد ينبىء من وروده في هذا السياق بالجو النفسي الذي كان يعيشه سيدنا نوح عليه السلام ، فاللفظ مثقل

---

(١) سورة القصص ، الآية ١٣ .

(٢) سورة السجدة ، الآية ١٧ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٥١ .

(٤) الراغب : المفردات ، ص ٣٩٧ .

(٥) وكثير من هذا النوع نجد في كتاب الله ، من مثل : ﴿ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ ، ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ ، ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ ، ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ، ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ، وغيرها .

(٦) سورة هود ، الآية ٢٨ .

بالضمائر لينقل لنا ما تشعر به النفس من ثقل تصور إلزام القوم بالحجة مع عدم رغبتهم في ذلك .

« ليبطئن » من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾[1] ، ألا ترى أن في حرف « الطاء » ما يصور بثقله وتشديده البطء الشديد ، والتثاقل في الاستعداد والخروج للجهاد ، إضافة إلى ما تؤديه نون التوكيد من تأكيد ، فاللفظة نقلت لنا الصورة النفسية لأولئك القوم[2] .

« يصطرخون » : أبلغ من يصرخون ، من قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[3] ، إشارة إلى أنه صراخ عنيف منكر خارج عن حد الاعتدال[4] ، وهو من أنواع الانفعال النفسي ، وعلامة على ما في النفس من الحسرة والألم .

لفظ « فكبكبوا » من قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾[5] ، هذا اللفظ أبلغ في تصوير العذاب مما لو قيل (فكبّوا) ، إذ فيه عنف وفظاعة فقد جعل التكرير في اللفظ والزيادة فيه دليلاً على قوة أثره النفسي .

لفظ « اثاقلتم » من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[6] ، يقول سيد ـ بعد أن يصف انتظام الحروف وأدائها الصوتي ـ : « ألا تجد نظام هذه الحروف وترتيبها وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت إليك بالمعنى ، قبل أن يرد إليك المعنى من جهة المعاجم ؟ ألا تلحظ في خيالك ذلك

---

(١) سورة النساء ، الآية ٧٢ .

(٢) قال سيد قطب عند تفسيره للآية : « ولفظ (ليبطئن) مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر ؛ وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها ، حتى يأتي على آخرها ، وهو يشدها شدا ؛ وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر والتثاقل في جرسها . وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن ، الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة » ، قطب ،سيد : الظلال ، ١/ ٧٠٥ ، وانظر التصوير الفني في القرآن .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٣٧ .

(٤) لاشين : من أسرار التعبير القرآني ، ص ٥٠ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية ٩٤ .

(٦) سورة التوبة ، الآية ٣٨ .

الجسم المتثاقل ، يرفعه الرافعون في جهدن فيسقط في أيديهم في ثقل ؟. . »[١] .

وهكذا نلحظ مدى أهمية ودور المفردة القرآنية في إبراز الجانب النفسي ، إذ هي أحد أهم وأبرز الأعمدة التي يعتمد عليها في استنباط المعاني النفسية .

ولا يمكن إنكار الدور الذي تلعبه المفردة القرآنية في إبراز الجوانب النفسية ، إلا أن الحقيقة التي لا ينبغي أن يغالى فيها هي أنه : ليست كل لفظة قرآنية يمكننا أن نتلمس من خلالها تلك المعاني النفسية ، أن جميع ألفاظها مشحونة بالمعاني النفسية ، إذ القول بهذا لا يخلو من التكلف ، وتحميل للنصوص ما لا تحتمل ، وضرب من التعسف ، فبعض الألفاظ تبدو فيها هذه المعاني أوضح من بعض ، والأصوب أن نقول بأن « المفردة القرآنية» كما هي عمدة في أركان الإعجاز القرآني هي كذلك عمدة في إبراز المعاني النفسية ، ولا يخفى ما بذله أسلافنا من جهود في إبراز قيمة المفردة القرآنية ، وذلك في معرض حديثهم عن جوانب الإعجاز القرآني .

فعلى حين نجد بعضهم جعل الإعجاز يكمن فيها ، وأنها سرّ الإعجاز كالجاحظ ، والرماني ، والباقلاني ، والخطابي[٢] ، والراغب الأصفهاني[٣] ، نجد بعضهم قد قلل من قيمة المفردة القرآنية من حيث دورها في إعجاز القرآن ، إذ هؤلاء لم يعتبروا للكلمة منفردة كبير ميزة من حيث الفصاحة والبلاغة ، واعتبروا قيمتها تكمن في اجتماعها بالنظم ، كالجرجاني ، والزمخشري ، والرازي .

---

(١) قطب ، سيد : التصوير الفني .

(٢) يقول الخطابي : اعلم أن عمود البلاغة. . هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما : تبدل المعنى الذي يكون نه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب. . » بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل) ، ص ٢٦ .

(٣) ومن المحدثين من أولى الكلمة القرآنية اهتماما : كالرافعي ، أبو زهرة ، بنت الشاطىء ، فضل عباس ، ومحمد العفيفي ، وغيرهم ، للمزيد انظر : البوطي ، محمد سعيد رمضان : الكلمة القرآنية وسرّ الإعجاز فيها ، (الكويت : مجلة العربي ، ع ١٤٤ ، ١٩٧٠م) ، ص ١٩ ، وانظر : عوضين ، إبراهيم : الكلمة في البيان القرآني ، (السعودية : التضامن الإسلامي ، ع ١٠+١١ ، السنة ٣٦ ، ١٤٠٢هـ) ، ص ١٥ .

بما تقدم من الأمثلة يمكننا أن نلمس الدور الذي تؤديه اللفظة القرآنية لإبراز المعاني النفسية ، وكلما ضمّت الكلمة إلى أختها ازدادت تلك المعاني النفسية من الكلمات مجتمعة في نظمها وسياقها ، فكلما ضممت إليها نظماً أعطت معنى نفسياً أوضح وأبرز مما سبق ، وكلما استخدمتها في قالب من قوالب اللغة والبلاغة المعروفة أعطت معنى يختلف ، فالأساليب البلاغية يختلف في ضوئها ظهور تلك الجوانب النفسية .

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

النظم القرآني والجوانب النفسية

تمهيد

طبيعة هذا الفصل تقتضي الطول في تناول مباحثه وموضوعاته ، بخلاف الفصول الماضية ، فهي محدودة الإطار ، أما الحديث عن النظم فهو في حقيقة الأمر حديث عن الأبواب التي تندرج تحت علوم البلاغة جميعها ، بمعنى أنها تشمل أبواب العلوم الثلاثة المعروفة : (البيان والمعاني والبديع) ، ولهذا فإن الباحث سوف يسجل بعض الأمور التي اضطر إليها في هذا الفصل ، وهي قد تكون خارجة في ظاهرها عن المنهجية التي اتبعها في بقية فصول الدراسة :

١ـ طريقة تناول موضوعات هذا الفصل ، كانت من الأمور المحيِّرة ، ما المنهج الأمثل الذي ينبغي اتباعه ؟ ساعد في ذلك اتساع الموضوعات التي تندرج تحته .

٢ـ تداخل موضوعات هذا الفصل ، خاصة عند إيراد الأمثلة ، حيث تشكل نوعا من الصعوبة في بعض الأحيان ، ما المكان الأنسب للمثال ؟ والحال أنه يصلح لأكثر من مبحث ، فعلى سبيل المثال حينما نريد أن نتحدث عن الحذف والذكر ، فإننا بذلك نلتقي في الحديث مع موضوع الإيجاز والإطناب ، وحين نتحدث عن الفصل والوصل نلتقي بالحديث مع الحرف القرآني ، وحين نتحدث عن التكرار نلتقي بالحديث مع التوكيد . . وهكذا .

٣ـ كثرة الأمثلة من جهة ، وتفاوتها في الدلالة على المراد من جهة أخرى ، كانت تشكِّل صعوبة أخرى أمام الباحث ، ما حجم الأمثلة الواردة في القرآن ؟ وما تحتاج الفكرة إليه من الأمثلة لتنجلي ؟

لا يخفى أن بعضها قد يكون أوضح من بعض ، ولذلك كان الضابط الأكبر في هذا

مراعاة حجم الأمثلة الواردة في القرآن ، وما كانت نسبة وروده في الأسلوب القرآني أكثر كان حقه في الاستدلال به أكثر ، أما بالنسبة لاختيار الأمثلة فقد كانت تذكر ، لا على أنها دائما أنسب الأمثلة للاستشهاد بها ، بل ما كان يحضر الباحث من أمثلة لحظة الكتابة كان نصيبه في الاستشهاد .

هذا الفصل مرتب على الأبواب التي تندرج تحت علم البلاغة وإبراز جوانبها النفسية ، سواء منها ما تعلق بعلم : « البيان » أم « المعاني » أم « البديع » وقد روعي في الحديث ما كان أكثر حضوراً من غيره .

بين البلاغة وعلم النفس صلة وثيقة ـ كما تقدّمت الإشارة ـ وأساليب البلاغة جارية على ما في النفس الإنسانية ، والقرآن حين يخاطبنا ينقل لنا تلك المعاني النفسية في هذه القوالب اللغوية ، وحسب الباحث في هذا المقام أن يذكر بعض أبواب البلاغة ، ثم يمثّل لها بأمثلة تبرز تلك المعاني النفسية .

كان الحديث في الفصل الماضي عن المفردة القرآنية حيث أشير إلى أنه لا غنى لها عن أخواتها في الحديث ، ولا كبير قيمة لها منفردة ، فهي إضافة إلى كونها فقيرة إلى غيرها من المفردات بحاجة إلى ما يربطها بغيرها من الكلمات ، حتى يتم الكلام ويكون مفهوما .

هذا مما امتازت به اللغات على وجه العموم ، والعربية على وجه الخصوص ، فالألفاظ لا يمكن أن تجتمع فتعطي معنى مفيداً ، إلا إذا أضيف بعضها إلى بعض إضافة مخصوصة ، أو ضمّ إليها من أدوات الربط ، فمثلاً لفظة « باب » ولفظة « مفتاح » على الرغم مما بينهما من صلة ، إلا أننا لا يمكننا أن نكوّن منهما جملة مفيدة تفهم ، إلا إذا أضيف إليهما لفظ آخر مما يتم به الكلام من لواحق الجملة ، أو أداة من أدوات الربط ، فنحن لو قلنا ـ مثلا ـ : (باب مفتاح) حصل التخصيص ، لكن لو أضيف إليهما (ال) التعريف فقط لوضح المعنى قليلاً فنقول : (مفتاح الباب) ، لكن تبقى الجملة في حاجة إلى مزيد بيان فنضيف ـ مثلاً ـ لفظ : (كبير) أو أي صفة من الصفات[1] .

---

(١) للجرجاني كلام حول هذا يقول مشيراً إلى قول الذين فضلوا الألفاظ على المعاني : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات ، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة ، فقولهم بالضم لا يصح=

والكلام لا يمكن أن يطلق عليه « بيانٌ » إلا إذا أفهم المعنى ، والبيان منحة منحها الله للإنسان وامتدحه بها[1] . قال عز وجل : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[2] .

وقد أشار علماؤنا إلى دور النظم في بيان المعاني ، قال الجرجاني : « اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخصّ وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل ، وإذا كان الشيء متعلقاً بغيره ومقيساً على ما سواه كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الأفهام وتقريره في النفوس . . »[3] .

وبهذا ندرك أنّ العبارة القرآنية تجمع إلى سرّ الحرف وسرّ الكلمة سرّ انتظامهما معا ، فيظهر جمال الألفاظ بالقدر الذي يظهر فيه وضوح المعاني ، فيتشكل من النظم جمال فوق الجمال ، وإحكام ما بعده إحكام .

المبحث الأول

الاسم والفعل وما يتعلق بهما أو بأحدهما

المطلب الأول : الجملة الاسمية والجملة الفعلية في العربية :

معروف أن الجملة الاسمية في العربية تدل على الثبوت والاستقرار والاستمرار ، أما الفعلية فهي تدل في الأصل على التجدد والحدوث ، معنى التجدد في الماضي : حصوله فيه ، وفي المضارع : تكراره فيه ، يستخدم القرآن هذا الأسلوب ليبرز لنا

= أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما ، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل « ضحك خرج » أن يحدث من ضم « خرج » إلى « ضحك » فصاحة ، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توخي معنى من معاني النحو فيما بينهما » . الجرجاني ، عبد القاهر : ثلاث رسائل (الرسالة الشافية) ، ص ١٨٦ .

(١) الرماني : ثلاث رسائل (النكت والعيون) ص ٩٨ .

(٢) سورة الرحمن ، الآية ٤ .

(٣) الجرجاني ، عبد القاهر : ثلاث رسائل (الرسالة الشافية) ، ص ٥٧٥ .

بعض المعاني النفسية ، فيتغير اتجاه الجملة من الاسمية إلى الفعلية ، أو العكس تبعاً لتغير الاتجاه النفسي ، والأسلوب هذا كما يلاحظ على مستوى الجملة الواحدة ، فهو يلاحظ أيضا على مستوى السورة ، من ذلك ما في سورة الفاتحة حيث نجدها قد تلّون الحديث فيها ، وتغير اتجاه الجمل فيها ، وهذا يشير إلى معنى نفسي ، فحين يكون الحديث عن مسائل العقيدة تأتي الجملة الإسمية ، لتدل على ثبوت هذه المسائل قال تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1] ، وتأتي الجملة الفعلية إذا كان المقام مقام عبادة واستعانة وهو أمر متجدد[2] ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[3] ، وكذلك الأمر في سائر السور التي تتحدث عن مسائل العقيدة ، كالسور الآتية : (الكافرون ، الإخلاص ، الفلق ، الناس ، . .) .

أمثلة على الجمل الاسمية والفعلية :

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[4] . انظر كيف جيء بالجملة الفعلية في الحديث عن فعل المنافقين ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ ، وبالجملة الاسمية عند الحديث عن فعل الله بهم ﴿خَٰدِعُهُمْ﴾ ، فالجملة الفعلية في وصف المنافقين تكشف لنا عن طبيعة المنافق ونفسيته ، إذ هو متلون مخادع يتغير من حال إلى حال ، ولا يستقر على حاله ، فالمنافقون إذا كانوا مع أمثالهم ظهروا على سجيّتهم وطبيعتهم ، أما إذا كانوا مع الرسول ﷺ أو مع المؤمنين فإنهم يضمرون الخداع[5] ، فانظر كيف دلت الجملة الفعلية على هذه الطبيعة فيهم .

ومنه : قوله تعالى عن الملائكة ـ ضيف إبراهيم عليه السلام ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾[6] ، فقد جاءت تحية الضيف في جملة فعلية على تقدير محذوف : (نسلم سلاماً) ، في حين جاءت تحية إبراهيم عليه السلام في جملة اسمية

---

(١) سورة الفاتحة ، الآيات ٢ ـ ٤ .

(٢) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١٠٨ .

(٣) سورة الفاتحة ، الآيتان ٥ ـ ٦ .

(٤) سورة النساء ، الآية ١٤٢ .

(٥) عباس ، فضل : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ٩٤ .

(٦) سورة الذاريات ، الآية ٢٥ .

﴿سَلَٰمٌ﴾ ، وهذا الرفع يدل على أدب أبي الأنبياء وكرمه الذي يظهر حتى في سلامه ، فقد دلنا على ما في نفسه من حب الإكرام والحرص عليه ، تلك الاسمية التي هي أقوى من الفعلية ، وبهذا نجد أن استخدام الاسمية دلالة على الثبوت والاستقرار والدوام ، وهو بلا شك أفضل من الجملة الفعلية التي تشير إلى الحدوث والتجدد[1] .

ومنه قوله تعالى في وصف المشركين : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾[2] ، أي أحدثتم دعاءهم ، أم استمر صمتكم عنهم ، فإنه كانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعائهم ، فقيل : لم يفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم[3] .

ومنه قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم لإبراهيم عليه السلام : ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾[4] ، حيث الفعلية في قولهم : ﴿أَجِئْتَنَا﴾ ، تبرز استغرابهم فهو أمر حادث ، والاسمية تحكي كون الصفة اللازمة له في أذهانهم كونه من اللاعبين .

من ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[5] ، فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإنّ المشددة لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط ، فكان ذلك متقبلا منهم ورائجا عند إخوانهم ، وأما الذي خاطبوا به المؤمنين فإنما قالوا تكلفا وإظهارا للإيمان خوفا ومجادلة ، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجا ظاهرا لا باطنا ، ولأنهم

---

(١) قال القزويني في الإيضاح : كأن إبراهيم عليه السلام قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذا بأدب الله تعالى في قوله تعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها » ، القزويني ، جلال الدين : الإيضاح في علوم البلاغة ، (بيروت : دار إحياء العلوم ، ط ٤ ، ١٩٩٨م) ، ٩٩/١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٩٣ .

(٣) القزويني : الإيضاح ، ١٠٠/١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٥٥ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٤ .

ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ، فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين : آمنا ، وفي خطاب إخوانهم : إنا معكم ، وهذه نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة(١) .

المطلب الثاني : الالتفات :

يشير علماء اللغة إلى أن الالتفات ، وهو أحد الأساليب العربية المشهورة في الكلام ، يؤدي دوراً كبيراً في الكلام ، الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم ، الخطاب ، والغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها ، ويقصد به تحول الخطاب من الغيبة إلى الحضور ، أو العكس ، ويسمى أيضاً شجاعة العربية ، وإنما سمي بذلك لأن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ، ويتورد عليه ما لا يتورده سواه(٢) ، فالالتفات يحدث في النفس حركة الانتباه قصداً ليتقرر فيها ما تلتفت إليه ، وهو في الكلام كما هو في الأجسام من تحويل الوجه من جهة إلى جهة أخرى غير ما ينتظر المخاطب ، وقد خصته البلاغة بالعدول عن مقام من المقامات(٣) .

هذا الأسلوب كثيراً ما يرشدنا إلى معان نفسية ، ونحن لو تتبعناه في القرآن سوف نقف على كثير من المعاني النفسية للألفاظ القرآنية وأسلوبها ، وسوف نكتفي بذكر بعض الأمثلة للتدليل على ذلك :

صور الالتفات وأمثلته :

١ـ **الانتقال من التكلم إلى الخطاب** : كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾(٤) ، ظاهر الآية يقتضي وإليه أرجع ، هذا الالتفات يدل على

---

(١) ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين : المثل السائر ، ٢/ ٥١ .

(٢) أبو موسى ، محمد محمد : دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، (القاهرة : مكتبة وهبه ، ط ٤ ، ١٩٩٦م) ، ص ٢٤٩ . القزويني : الإيضاح ، ١/ ٩٩ .

(٣) الثلاثة التي يعبر عنها بالضمير (التكلم والخطاب والغيبة) فهو مثير للنشاط النفسي في أماكن يطلب فيها التقرير واسترعاء الانتباه » . انظر : عز الدين ، كمال : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ، (بيروت : دار اقرأ ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) ، ص ٣٤٦ .

(٤) سورة يس ، الآية ٢٢ .

كمال الأدب ، فالتعبير يوحي بأن هذا الرجل المؤمن لا يريد لقومه غير ما يريده لنفسه ، فهو أسرع إلى قبول النصح وأشد إظهاراً للإخلاص .

٢ـ **من التكلم إلى الغيبة** : كما في مطلع سورة الدخان : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١] ، فاختيار النظم الكريم فيه إلفات إلى عناية الله بنبيه ورعايته له .

٣ـ **من الخطاب إلى التكلم** : كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[٢] ، في الالتفات هنا ما يشير إلى أن المولى عز وجل سيتولى عقاب المشركين ، وهذا فيه من الوقع في النفوس ما فيه ، فكان الانتقال إلى الحضور عند ذكر العذاب إشارة إلى قربه منهم وحضوره ، والله أعلم .

٤ـ **من الخطاب إلى الغيبة** : ﴿ أَنجَىٰنَا ﴾ ، من قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٦٣ ﴾[٣] ، الالتفات من الحضور ﴿ تَدْعُونَهُۥ ﴾ إلى الغيبة في قوله : ﴿ أَنجَىٰنَا ﴾[٤] ، إذ كان الطبيعي أن يقال : أنجيتنا ، ولعل الالتفات في النظم يشير إلى البعد النفسي لهؤلاء الذين يشهد ماضيهم بمعاصيهم وإغراقهم بها ، وتوقظهم المواقف الصعبة ، فكأنّ حالهم المتقدّم جعلهم يستحون من خطاب خالقهم بطريق الخطاب المباشر فكان الالتفات ﴿ أَنجَىٰنَا ﴾ ، وليس « أنجيتنا »[٥] . وفي السياق التفات آخر : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى

---

(١) سورة الدخان ، الآيات ٣ـ٦ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ١٢ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٦٣ .

(٤) يذكر أن عاصما وحمزة والكسائي هم الذين قرأوا بالالتفات دون بقية القراء ، للمزيد انظر : أبو زرعة ، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة : حجة القراءات ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٨٢م) ، ١/ ٢٥٥ .

(٥) يذكر أن آية سورة يونس جاءت على الوضع الطبيعي « أنجيتنا » : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ ، سورة يونس ، الآية ٢٢ . والآيات التي فيها هذا الأسلوب كثيرة جداً منها : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ ، سورة النساء ، الآية ٦٤ .

ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(1) ، فقد كان السياق يقتضي أن تسير الآية على الخطاب أي فلما « أنجاكم » ، لكنه التفت لينقل قصة هؤلاء الذين لا يذكرون الله إلا عند شدة تنزل بهم ، ففي هذا الأسلوب تعجيب من أمرهم ، وإيحاء للمخاطبين بألاّ يفعلوا هذا الفعل المستنكر ، وفي الآية التفات آخر : (كنتم ، بهم) ففي الانتقال من الخطاب إلى الغيبة معنى التشهير بهم ، كأنه يروي قصتهم لغيرهم ، كأن هذه الطبائع العجيبة جديرة بأن تذاع وتروى ، وهناك توجيه آخر هو : أنهم كانوا في مقام الشهود والوجود ، ثم لما جرت بهم الريح ذهبوا بعيداً عن مقام الخطاب ، فلاءم هذه الحال طريق الغيبة(2) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾(3) ، قال الزمخشري : « كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ، ويقبح عندهم فعلهم »(4) . كما أن فيها لفتة أخرى : وهي أن الله ينصرف عن هذه الأمة حين يتقطع أمرها بينها ، كما أنها تغيب عن مشاهد الحياة ، وتصبح في هامش التاريخ حين تنحرف عن منهج القرآن .

٥ـ **من الغيبة إلى التكلم : كما في قوله تعالى :** ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾(5) ، بعد أن كانت الآية تنقل لنا بعض صفات المشركين ، ينتقل الخطاب إلى الحضور ، ليشير إلى حضور العذاب الذي يستحقون ، وفي هذا الأسلوب ما فيه من إلقاء الرهبة في النفوس .

٦ـ **من الغيبة إلى الخطاب** : كما في قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ

---

(1) سورة يونس ، الآيتان ٢٢ـ٢٣ .
(2) أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٢٥٥ .
(3) سورة الأنبياء ، الآيتان ٩٢ـ٩٣ .
(4) الزمخشري : الكشاف ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ت) ، ٢/ ٥٨٣ .
(5) سورة الأنفال ، الآية ٣٥ .

﴿نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[1] سرّ هذا الالتفات حث النفوس على الإقبال تجاه الحق ، حتى تخلص النفس في مراحل عروجها من طبيعتها الأرضية .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾[2] ، فائدة الالتفات تنبيه وإيقاظ وتهيئة القلوب ، فهذه فرية عظيمة يجب إنكارها ، وقد تنبه الزمخشري إلى أهمية أسلوب الالتفات عموماً حيث قال : « إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن ، تطريةً لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه ، من إجرائه على أسلوب واحد »[3] .

ومن هذا الباب :

استعمال أحد الفعلين (الماضي والمضارع) مكان الآخر ، فقد يستعمل المضارع مكان الماضي ، وقد يستعمل الماضي مكان المضارع ، ويكون وراء هذا الاستعمال ملاحظ نفسية .

أمثلة :

قوله تعالى : ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ۝٨٧﴾[4] ، فقد جيء في هذه الآية بالمضارع مكان الماضي ، وذلك لتصوير شناعة فعل اليهود بأنبيائهم ، فتتملى النفس هذه الصورة وتتخيلها متكررة ، فيكون ذلك أفظع في النفس . انظر إلى التعبير كيف صوّر جريمتهم كأنهم يرتكبونها[5] .

واستخدام الماضي مكان المضارع فيما يستعظم من الأمور : ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ۝٤٧﴾[6] ، و﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾[7] ، فانظر إلى هذه الآيات وأمثالها تجد أن

---

(١) سورة الفاتحة ، الآيتان ، ٤ـ٥ .
(٢) سورة مريم : الآيتان ، ٨٨ـ٨٩ .
(٣) أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٤٦٠ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٨٧ .
(٥) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١١١ .
(٦) سورة الكهف ، الآية ٤٧ .
(٧) سورة إبراهيم : الآية ٢١ .

الإتيان بالماضي فيه من إيقاع الرهبة في النفوس ما فيه لأن الفعل كأنه قد تم[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[2] ، عبّر عما نسبه لنفسه بالماضي ووصفه بالإجرام ، وعبّر عما نسبه إلى قومه بالمضارع الذي لا يدل إلا على العمل المجرد ، وهذا أسلوب غاية في الكسب النفسي للخصم إلى جانب المتحدث ، وطريق بارع في التغاضي عن هفوات الخصم ، ووسيلة لتحريك دوافع التفكير في المقول ، مما يشير إلى وعي الداعية إلى الله في الأسلوب الذي يدعو به الناس . ومما يتبع مبحث الالتفات :

مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر

يقصد به أن يكون نظم الكلام سائرا على نمط معين كالمضارع ، ثم يتحوّل النظم إلى نمط آخر كالماضي ، أو العكس .

أمثلة :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[3] ، لم يجىء وأشهدكم : لأن في أمرهم أن يشهدوا ببراءته من دينهم ضرباً من التحدي والغيظ كما قال الزمخشري . هذه المخالفة تفيد الفرق بين نوعين من الشهادة[4] .

ومنه : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[5] ،

---

(١) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١١١ـ١١٢ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٢٥ . قال الآلوسي : « هذا أبلغ في الإنصاف ، حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن ، بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس ، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات وأسند للمخاطبين ، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق ، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك ، وذكر أن في الآية تعريضا ، وأنه لا يضر بما ذكر » انظر : الآلوسي : روح المعاني ، ٢٢/ ١٤١ .

(٣) سورة هود ، الآية ٥٤ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ، ٢/ ٢٧٦ .

(٥) سورة النمل ، الآية ٨٧ . ، وفي القرآن من ذلك كثير ، منه : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ ، سورة الكهف ، الآيتان ٤٧ـ٤٨ .

مقتضى الظاهر أن يقال فيفزع ، إذ الكلام على المستقبل ، والحدث لم يقع بعد ، لكن جيء بالماضي للتعبير عن تحقق وقوعه ـ كما يعبر عنه أهل البلاغة ـ إلا أن ثمة ملحظاً آخر وراء هذا الأسلوب ، فهو فوق تحققه وتأكد وقوعه قد استحضرت صورته في الذهن ، ينقل النفس الإنسانية إلى ذلك الحدث ، وكأنها تفاعلت معه ، وهو تصوير للهول « ففزع » ، وجيء بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب . والله أعلم .

ومنه : ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾[1] ، التفات إلى الحاضر ليحدث إيقاظاً ولفتاً عند هذا المقطع ، وهذا فيه ما فيه من إيقاظ الذهن .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾[2] ، فيه تهديد بالغ ، والبناء للمجهول يدل على الحركة الخاطفة السريعة التي فاجأتهم ، فلم يدروا من أين أتت . ومنه الآيات : ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا . .﴾[3] ، مثل هذه الأحداث كلها تدع المستمع يفكّر في الأحداث والمواقف نفسها ، ليتأمل ما فيها من رهبة أو رغبة ، أما مسألة الوقوع وعدمها فقد ألغاها الفعل الماضي حين صارت واقعاً يروى ، أقول وهذا قد ورد في مبادىء علم النفس الحديث ، وهو أن المتهم إذا صدمته الحقائق ، وتجاوز النقاش تلك المراحل الأولية إلى ما بعدها ، لم يعد هناك شك في صحة تلك الأحداث ، وهو أسلوب نفسي كأنه يصدم المرء فيجعله يسلم بتلك الحقائق ، ويطلب منه ما يترتب عليها من أحداث وغير ذلك .

ومن هذا الأسلوب الذي يكون فيه التحويل لأغراض نفسية : الخطاب في بداية

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٩ .

(٢) سورة النمل ، الآية ٩٠ .

(٣) سورة الزمر ، الآيات ٦٩ـ٧١ ، وانظر آيات السورة من ٦٨ـ٧٣ وهي على التفصيل : ﴿ونفخ ، فصعق ، ثم نفخ ، وأشرقت ، ووضع ، وجيء ، وقضي ، ووفيت ، وسيق ، فتحت ، قيل ، صدقنا ، وأورثنا ، وترى ، وقضي ، وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ ، ومثلها ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ، سورة ق ، الآيات ١٩ـ ٢٢ .

سورة البقرة ، على التفصيل الآتي : نلاحظ أن القرآن الكريم تحدث عن الطوائف الثلاث : المؤمنون ، والكفار ، والمنافقون . وقد كان الوصف لكل فئة ، والخطاب بصيغة الغائب ، ثم نجد الخطاب يتحول إلى الحضور ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(١) ، فهذا الأسلوب قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال ، إذ بعد أن كانوا غُيّباً في مبدأ الحديث عنهم أصبحوا الآن ـ بعد ذلك الوصف الشافي ـ حاضرين في خيال السامع كأنهم رأي العين ، وفي مكان ينادون منه ، فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم كما يوجه إلى الحاضرين في الحس والمشاهدة .

ومن ناحية ثانية ، فإن هذه الأمثال البليغة التي ضربت في شأن المعرضين خاصة ، قد أبرزتهم أمام السامع في صورة محزنة ، تبعث في نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم ، حتى إنه لا يشفى صدرهم إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم : أن افتحوا أعينكم أيها القوم ، وتعالوا إلى طريق النجاة ، وهكذا تستعد النفس أتمّ استعداد لسماع هذا النداء : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾(٢) .

المطلب الثالث : التذكير والتأنيث :

لم يخرج الأسلوب القرآني في استخدامه لتذكير الألفاظ وتأنيثها عن القاعدة العامة المعروفة عند أهل اللغة من العرب ، لكن الذي يعنينا هنا أن نشير إلى وجود بعض اللفتات فيما يخص مبحث التذكير والتأنيث من خلال الاستخدام القرآني ، هذه اللفتات كان لها دور في إبراز المعاني النفسية ، إذ الأصل استخدام اللفظ الدال على التذكير مع ما حقه التذكير ، واللفظ الدال على التأنيث مع ما حقه التأنيث ، لكن قد يستخدم اللفظ الدال على التذكير مع المؤنث أو العكس ، وذلك للطائف ومعان نفسية ، من أمثلة ذلك :

١ ـ قال تعالى : ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾(٣) ، على

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١ .

(٢) انظر دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، ص ١٧٣ـ١٧٤ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٢ .

الرغم من كون لفظ « مرضع » يستخدم للدلالة على المؤنث ، دون حاجة إلى « تاء » التأنيث ، إلا أن الاستخدام القرآني أثبت تاء التأنيث ، وقد التفت مفسرونا إلى ذلك ، وذكروا توجيهات لطيفة لهذا الاستخدام ، فقد قال الزمخشري : فإن قلت : لم قيل مرضعة ، دون مرضع ؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع : التي شأنها الإرضاع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به »[1] .

وبهذا نلحظ أن حضور « تاء التأنيث » في اللفظة مع أن اللفظ يدل على التأنيث في حال عدمها ، يرشدنا إلى ملحظ نفسي ، إذ هي تصور حالة نفسيّة مفزِعة ، حالة ذهول الأمّ لحظة الإرضاع حيث اعتراها من الذهول ما يمنعها من استمرار إرضاع طفلها .

٢ـ مثال آخر : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾[2] ، انظر كيف جيء بالفعل ﴿ جَآءَكُمُ ﴾ مذكراً مع النسوة ، وهذا على الرغم من أنه منسجم مع ما يقوله النحاة من جواز التذكير مع الجموع لأنها مؤنثة تأنيثاً مجازياً ، لكن لنا أن نتساءل عن حكمة العدول إلى الفعل المذكر .

إنها تصف حالة نفسية عظيمة « إن النفسية التي حملت هذه النسوة على الهجرة لا يستطيعها إلا الرجال ، فهذه الأعمال من مهام الرجال ، ذلك أن طبيعة النساء تجنب مثل هذه المشاق . فلما كان ذلك انتصاراً لدينهن جيء بالفعل مذكراً ليعكس جو الرجولة »[3] ، والله أعلم .

واللفظ القرآني يغظ بالأمثلة التي خرج فيها الاستعمال عن المعهود[4] ، ومما هو

---

(١) الزمخشري : الكشاف ، تح : القمحاوي ، ٣/ ٤ ، كما أشار الخليل بن أحمد إلى قريب من هذا قبل الزمخشري فقال : « يقولون : مرضع إذا أردت ذات إرضاع ، ومرضعة إذا أجريتها على الفعل » . نقله عنه سيبويه : الكتاب ، ٣/ ٣٨٣ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية ١٠ .

(٣) انظر : الخالدي : لطائف قرآنية ، ص ١٤٨ .

(٤) أحياناً يستخدم القرآن لفظي التذكير والتأنيث مع اللفظ نفسه مثل :
النخل : تارة بالتذكير : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، سورة القمر ، الآية ٢٠ ، وتارة « بالتأنيث : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ ، سورة الحاقة ، الآية ٧ ، وقوله : ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ، سورة ق ، الآية ١٠ .
=

جدير بالملاحظة أن العرب يلحقون تاء التأنيث ببعض الألفاظ كنوع من تعظيمهنّ وتبجيلهنّ ، أو الخوف منهنّ ، وهذا ـ بلا شك ـ تابع لمعنى نفسي ، ولعل من ذلك « تأنيث العربي لأسماء ألهيته قبل الإسلام (اللات ، العزّى ، مناة) »[1] ، وقد يكون في استخدام القرآن لهن وهن كذلك ، إشارةُ إلى إزدرائهن وحط من قيمتهن » ، وعلى هذا الفهم يكون ما ورد على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام في وصف الأصنام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾[2] ، فنون النسوة للحطّ من شأنهن .

٣ـ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3] .

هنا نلحظ أنه على الرغم من أن المبشر به أنثى ، إلا أنه استخدم معه ضمير المذكر « أَيُمْسِكُهُ » ، ولعل في ذلك إشارة إلى ملحظ نفسي ، فهو يحكي واقع هذه النفوس ، ومكان هذا المبشَّر به من نفوسهم ، فهو لا يعدو كونه شيئاً أو متاعاً لا قيمة له ، ولأجل هذا فهو يفكر في وضعه في التراب ، ففي النص ما يكشف عما في نفس ما في نفس الوائد .

وهكذا نلحظ عند التأمل ، كيف أن القرآن يستثمر مثل هذا الأسلوب لإبراز بعض المعاني النفسية ، ولعل فيما تقدّم غناء عن بقية الأمثلة[4] .

= الريح : تارة بالتذكير ، كما في قوله تعالى : ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ، سورة يونس ، الآية ٢٢ ، وتارة بالتأنيث ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ ، سورة الأنبياء ، الآية ٨١ .

سبيل : تارة بالتذكير كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ، سورة الأعراف ، الآية ١٤٦ ، وتارة بالتأنيث ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ ، سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .

(١) نور الدين ، عصام : مصطلح التذكير والتأنيث « المذكر والمؤنث الحقيقيان » ، (بيروت : دار الكتاب العالمي ، د . ط ، ١٩٩٩٠م) ، ص ٢٣ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية٣٦ .

(٣) سورة النحل ، الآيتان ٥٨ـ٥٩ .

(٤) للمزيد من الأمثلة حول لطائف التذكير والتأنيث عموما ، يحسن الرجوع إلى الكتاب الآتي : =

المطلب الرابع : الجمع والإفراد والتثنية

نجد أن بعض الألفاظ استعملها القرآن تارة بالإفراد وتارة أخرى بالجمع ، وعند التأمل نلحظ أن بعض المعاني النفسية تنطوي وراء هذا الاستخدام ، فنجد مثلا : « السماء ، السماوات » ، « البصر ، الأبصار » ، « نفس ، نفوس ، أنفس » ، وبعض الألفاظ لم ترد إلا بصيغة الإفراد ، مثل « الأرض » وبعضها لم يرد إلا بصيغة الجمع ، مثل : « الأفئدة » ، « الألباب » ، وبعضها الغالب في الاستعمال بالإفراد وقليل بالجمع مثل : « السمع والأسماع » .

قد يجاء بالجمع فيما حقه الإفراد ، أو العكس لأغراض وأبعاد نفسية .

فمن الأول قوله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[(1)] ، على الرغم أن المذكور أمنية واحدة ، وهي (وهمهم بأن الجنة لا تكون لغير هذين الصنفين) ، « عاشوا وهمهم هذا ليل نهار ، فكبر في عقولهم الجوفاء حتى صار أمانيّ ، وهو ما عبّر عنه النص الكريم »[(2)] ، والله أعلم .

ومن الثاني : الإفراد حيث يكون الجمع ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾[(3)] ، هكذا ﴿ النَّعْمَةِ ﴾ بفتح النون وتشديدها ، وهي ـ على ما قال الراغب ـ[(4)] : اسم مرة من الفعل ، فالمعنى أن النعمة لم تصب صاحبها إلا مرة ، وهذا له بعد نفسي يشير إلى قصر مدتها وسرعة زوالها ، فالآية تتحدث عن عذاب الكافرين المكذبين بيوم القيامة المترفين في الدنيا ، وتعرض من خلال قيمة تنّعمهم بالنعم الكثيرة في الدنيا ، ذلك التنعم الذي استمر عشرات السنين ، فماذا يساوي إذا

= ابن قيم الجوزية : بدائع الفوائد ، ١/ ١٣٢ وما بعدها .

(١) سورة البقرة ، الآية ١١١ .

(٢) انظر للمزيد : الخضري ، محمد الأمين : الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ (دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن) ، (القاهرة : مطبعة الحسين الإسلامية ، ط ١ ، ١٩٩٣م) ، ص ١٢٢ .

(٣) سورة المزمل ، الآية ١١ .

(٤) الراغب : المفردات ، ص ٤٩٩ .

ما قيس بالعذاب الأبدي ، تجيء النَّعمة بالفتح لتدل على معنى المرة الواحدة ، يشير كأنهم لم يتنعموا في حياتهم الدنيوية إلا بنعمة واحدة ، مرة واحدة.. للحظة واحدة[١] ، ويصدّق ذلك حديث الرسول ﷺحين أشار إلى أن الكافر يغمس غمسة في النار ، ثم يسأل ، هل ذقت نعيماً قط ، فيقول لا والله يا رب[٢] .

قد تخاطب المرأة بخطاب الجمع ـ جمع الذكور ، أو يكنى عنها بضمير جمع المذكر ـ وذلك مبالغة في سترها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[٤] .

* كثيراً ما ترد اللفظة في القرآن تارة مفردة ، وتارة مجموعة ، من ذلك « الريح ، الرياح »[٥] ، وقد يكون وراء هذا التعبير تصوير للإحساس النفسي ، فمثلاً أغلب[٦]

---

(١) انظر : الخالدي : لطائف قرآنية ، ص ١٨٠ .

(٢) عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب.. » ، وفي رواية : « يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب » ، أخرجه مسلم : صحيح مسلم ، ٤/ ٢١٦٢ ، الحديث رقم ٢٠٨٧ . وأحمد في : المسند ، ٣/ ٢٠٣ ، وابن ماجه في : السنن ، رقم ٤٣٢١ .

(٣) سورة النمل ، الآية ٧ .

(٤) سورة القصص ، الآية ٢٩ .

(٥) قال الراغب : « والريح معروفٌ ، وهي فيما قيل الهواء المتحرك ، وعامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب ، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارةٌ عن الرحمة ، فمن الريح : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ ، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ، ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ ، ﴿ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ ، وقال في الجمع : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ ، ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ ، ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا﴾ ، وأمّا قولُه : ﴿ يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ ، فالأظهر فيه الرحمة ، وقرىء بلفظ الجمع وهو أصحّ ، انظر : المفردات ، ص٢٠٦ .

(٦) قلت : أغلب ، لأن بعض القراءات الصحيحة قد جمعت ما ورد مفردا من لفظ الرياح في بعض المواطن ، وهذا للخروج من الخلاف ، فلو وصف الأمر كما ذهب إليه الراغب الأصفهاني ، واستشهد به ابن القيم في بدائع الفوائد ، لكان مثال واحد كافيا لنقض القاعدة ، ولذلك فإن=

ما جاء في القرآن من الريح المفردة جاء في جانب الشرّ ، أما في جانب الخير فكان أغلب الاستعمال القرآني لها بالجمع « رياح » ، يعلل العلامة ابن القيم سرّ إفراد لفظ « الريح » في جانب العذاب ، وجمعها « الرياح » في سياق الرحمة بالآتي : الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح ، أنشأ لها ما يقابلها ما يكسر سورتها ويصدم حدتها ، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكل ريح منها في مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها ، فكانت في الرحمة ريحا ، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد وحمام واحد ، لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها ، حتى تنتهي إلى حيث أمرت ، لا يرد سورتها ولا يكسر شرتها ، فتمتثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم فقال سبحانه : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾[1] ، وهي التي لا تلقح ولا خير فيها ، والتي تعقِم ما مرت عليه ، ثم تأمل كيف اطّرد هذا إلا في قوله في سورة يونس : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[2] ، فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، إذا اختلفت عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك ، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح ، وأكدّ هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعا لتوهم أن تكون ريحا عاصفة ، بل هي مما يفرح بها لطيبها »[3] .

وخلاصة الأمر في ذلك أن يقال : إن ريح الشرّ تهب مدمّرة عاصفة ، لا تهدأ ولا تدع الناس يهدؤون ، فهي تبدو لاستمرارها ريحا واحدة لا يشعر الناس فيها بتحول ولا تغيّر ، وهذا مصدر رهبة وفزع ، فكأنها تصور الجو النفسي المفزع ، بخلاف الرياح التي تحمل الخير ، فتهب حيناً ، وتهدأ حيناً ، ويشعر المرء فيها بفترات سكون[4] .

= الباحث لا يوافق الإمام الراغب في قوله السابق : « وقرىء بلفظ الجمع وهو أصحّ » ، وذلك أن القراءات المتواترة كلها صحيحة ، والقراءة التي عناها هي قراءة متواترة .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٤١ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٢ .

(٣) ابن قيم الجوزية : بدائع الفوائد ، ١/ ١٢٦ .

(٤) للمزيد انظر : بدوي : من بلاغة القرآن ، ١٣٩ .

والقرآن فيه الكثير من المواضع التي تدخل تحت هذا الباب ، وتحتاج إلى بسط ومزيد تأمل ، فمما يدخل في هذا الباب : جمع الظلمات وإفراد النور ، وجمع سبل الباطل وإفراد سبيل الحق ، وجمع الشمائل وإفراد اليمين ، ومن هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين ، وتارة مثنيين ، وتارة مفردين ، لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك ، ومن المواضع التي تحتاج لتأمل إفراد لفظ السمع وجمع لفظ أبصار في أغلب المواضع ، والباحث إذ يدرك قيمة التأمل في مثل هذه المواضع فالملحظ النفسي أحد هذه الأسرار ، إلا أنّ محدودية البحث تلزمه بالاكتفاء بما تقدم[1] .

المطلب الخامس : التنكير والتعريف :

باب من أبواب اللغة يستثمره القرآن في ألفاظه ، ليبرز بعض المعاني النفسية ، وأبرز ما يكون ذلك مع الألفاظ التي استخدمت في القرآن (تارة منكرة ، وتارة معرفةٍ) ، فتنكير الأسماء يكون لفائدة وغاية ، إذ يكون أحياناً عندما لا يراد تعيين الفرد ، ويكون تارة عندما يراد إهمال المنكّر أو التقليل من قيمته . . إلى غير ذلك من الأسباب التي ذكرها علماء اللغة ، مثاله :

حديث القرآن عن رغبة الآباء والأمهات في الذكور دون الإناث ، وميلهم الفطري نحو الذكور ، وهذا يلاحظ بصفة غالبة عند الحديث عن الذرية ، فانظر مثلاً قوله

---

(١) إتماما للفائدة فإن الباحث يحيل القارىء إلى كتاب ابن القيم : بدائع الفوائد ، ١/ ١٢٦ـ١٣٣ . وانظر : السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت (٥٨١هـ) : نتائج الفكر في النحو ، تح : محمد إبراهيم البنا ، (مكة المكرمة : دار الاعتصام ، د . ط ، ١٩٨٤م) ، ص ١٥٩ـ١٦٣ ، وانظر : ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين : المثل السائر ، ٢/ ٢٨٠ وما بعدها ، كما ينبغي التلفت إلى كثير من المواضع التي أبرزها الزمخشري في هذا الباب حيث كان يرشدنا إلى ذلك ، يكتفي الباحث بإيراد أحد هذه المواضع : عند تفسيره للآية : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ سورة الشعراء ، الآيتان ١٠٠ـ١٠١ ، قال الزمخشري : فإن قلت : لم جمع الشافعين ووحّد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلدته لشفاعته ، رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك ، فأعز من بيض الأنوق . . » الزمخشري : الكشاف ، تح : القمحاوي ، ٣/ ١١٩ .

تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1] ، انظر كيف جيء بلفظ « إناثاً » مجرداً من أل التعريف لتتناسب مع تنكيرها في الذهن ، وانظر لحاق التنوين بآخرها لتتناسب مع التقليل من شأنها ، وانظر كيف جاءت لفظة « الذكور » معرّفة لتتناسب مع حضورها في أذهانهم وميلهم نحوها ، إذ الألف واللام في « الذكور » للعهد الذهني : أي الذكور الحاضرون في أذهانهم المرغوب فيهم بخلاف الإناث ، والله أعلم .

أولا : التنكير :

القرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب ، يعنينا منه ما اشتمل على ملاحظ نفسية ، فالمقام الذي وردت فيه هذه النكرة هي الضابط الذي يمكننا من ملاحظة الجانب النفسي فيها ، إذ السياق نفسه هو الذي يدل على كون المقصود من التنكير والتنوين الذي يلحقه التحقير والإزدراء ، أم التعظيم والتكثير ، فعلى سبيل المثال : تنكير لفظة « رسلٌ » وتنوينها من قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾[2] ، تدل على عظم هؤلاء الرسل من جهة ، ثم كثرتهم من جهة أخرى .

وتنكير لفظة « حرب » وتنوينها من قوله تعالى ـ مثلاً ـ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[3] ، يدل على التهويل ، إذ تنوين التنكير دلنا على أنها مجهولة الكيف والمعالم ، وهذا أوقع في النفس الإنسانية لأنها تذهب فيه كل مذهب ، لأن حرباً يثيرها الله جديرة أن تبعث في النفس أشدّ ألوان الفزع والرعب[4] .

ومنه تنكير « جنات » في كثير من الآيات ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[5] ، هذا التنكير للتكثير ، وفي السياق نفسه نجد لفظة

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٩ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٧٩ .
(٤) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١٢٩ .
(٥) سورة التوبة ، الآية ٧٢ .

« رضوان » منكرة فكأنها تشير إلى أن قليل رضوان الله أكبر من الجنات والمساكن العلية .

أحيانا يدلّ التنكير على التقليل ، فمن الألفاظ التي دل فيها نظام التنكير على التقليل لفظة « ظناً » من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] ، فجحدهم للساعة لا يؤذن إلا بظن ضئيل في وجودها يتردد في رؤوسهم .

ومن الألفاظ التي تنكر للدلالة على احتقار محتواها في النفس الكلمات : « تراب ، نطفة » من الآية : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾[2] ، ومنه : « نطفة » في قوله : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ﴾[3] .

ومن هذا الباب تنكير لفظ « رجل » من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾[4] .

ثانيا : التعريف :

تارة تستخدم الكنية دون الاسم للدلالة على التعريف ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾[5] ، حيث إن في اختيار هذه الكنية من الذم ما ليس في الاسم ، وهذا أحد الملاحظ النفسية .

وتارة باستخدام اسم الإشارة ، فقد يستخدم اسم الإشارة للقريب تنبيها على ضعة المشار إليه واحتقاره ، من ذلك قوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾[6] ، ومنه قوله

---

(١) سورة الجاثية ، الآية ٣٢ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٣٧ .
(٣) سورة عبس ، الآيات ١٧-١٩ .
(٤) سورة سبأ ، الآية ٤٣ .
(٥) سورة المسد ، الآية ١ .
(٦) سورة الأنبياء ، الآية ٣٦ .

تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾[1] ، و﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾[2] ، . . فانظر كيف دلّ هذا على معنى في النفس وهو احتقاره وازدراؤه .

أما استخدام اسم الإشارة للقريب ليدل على مكانة المشار إليه وامتلاء النفوس به ، فكما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[3] ، و﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾[4] ، فهو أوقع في النفس كما يشير إلى علوّ مكانته .

ويستخدم اسم الإشارة للبعيد تارة لدلالة على احتقار النفس له وازدرائه وهو الغالب ، ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[5] .

وقد يدل على معنى من الرفعة وبعد المكانة والمنزلة وسمو النفس به ، كما في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[6] ، و﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[7] ، وغير ذلك كثير ، إذ معنى البعد والقرب الكامن في (أسماء الإشارة) معنى طيّع خاضع لسياق الكلام ، أما البعد في الأشياء المعنوية يفيد أن هذه الأشياء المشار إليها مع وضوحها إلا أن النفس لا تهتدي إليها بسهولة ولا تعرج إليها إلا النفوس المتفكرة .

ويؤتى بالاسم الموصول تارة ـ وهو داخل في باب المعرفة ـ فيؤدي دوره النفسي ، إذ من شأن الاسم الموصول أن يثير في النفس شوقا إلى معرفة الخبر ، وقد تكون الصلة نفسها ممهّدة لهذا الخبر ودالة عليه ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[8] ، « فكأنّ هذه الصلة

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤١ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٦٣ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٩ .
(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٥٢ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٧٥ .
(٦) سورة البقرة ، الآية ٢ .
(٧) سورة يونس ، الآية ٣ .
(٨) سورة التوبة ، الآية ٢٠ .

تتحدّث عما قد أعده الله للمذكورين من خير عظيم يناسب إيمانهم وهجرتهم وجهادهم بأموالهم وأنفسهم »[1] .

وقد يأتي التعريف بقصد التحقير خاصة إذا اقترن بالهمز ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[2] .

ومن الوظائف النفسية التي يؤديها الاسم الموصول : إخفاء اسم المذنب ، ووجه البعد النفسي في ذلك ، أن عدم ذكره صراحة طريق إلى كسبه في صف الهداية وإيثار عدم ذكر اسمه نوع من الستر على فضيحته ، وبالتالي ربما يكون ذلك أدعى للمعنيّ بالتفكر في حاله فيرجع عن فعله .

وبهذا نجد في هذا الأسلوب طريقة نفسية تربوية لمعالجة المنحرفين ، وعلى هذا الباب تجري الآيات التي وردت في شأن المنافقين : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾[3] ، ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[4] ، وكذلك الآيات التي تخص فئة من الناس[5] ، إذ كما هو ملاحظ أنه علاوة على أن في هذا الأسلوب نوعا من الذم لهذه الفئات ، فيه دعوة خفية إلى الإقلاع والكف عن هذه الأمور .

وقد يسهم اسم الموصول في رسم الجو النفسي للحدث ، بحيث يتخيل المرء ذلك الحدث ويعيش الجو النفسي ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن

---

(١) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية ٦١ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٧٥ .

(٥) كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ ، سورة الحج ، الآية ٨ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ، سورة العنكبوت ، الآية ١٠ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ ، سورة لقمان ، الآية ٦ .

نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾[1] فانظر كيف عُدل عن ذكر الاسم الصريح ، وجيء بالاسم الموصول ليصور لنا ذلك الجو النفسي الذي توافرت فيه جوانب الإغراء ، مع قوة السلطان وتهيئة الظروف ، إلا أن هذه الظروف المهيأة لم تزدِ سيدنا يوسف عليه السلام إلا عفة ، « فانظر كيف دلّت هذه الآية على نزاهة سيدنا يوسف عليه السلام ، كما أن في ذكر الصلة هنا استهجانا لعدم التصريح بالاسم المنسوب إليه هذا الفعل »[2] .

وقد تفيد الصلة معنى التفخيم والتهويل لما فيها من إبهام وغموض ، كقوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾[3] ، فهو مبهم أمره في الهول والشدة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[4] .

ويود الباحث أن يشير إلى أهمية هذا الأسلوب من الناحية النفسية ، وهو أنّ هذا الأسلوب يجعل لسامع في حيرة من هذا المبهم وتصوره ، مما يدفعه إلى إعمال النظر للوقوف على المراد ، وهذا له دور نفسي بديع ، « فالنفس إذا وقفت على كلام غير مذكور تمام المقصود منه تشوقت إلى كماله ، فلو وقعت على تمام المقصود منه لم يبق لها هناك تشوق أصلاً لأنّ تحصيل الحاصل محال ، وإن لم تقف على شيء منه فلا شوق لها هناك ، فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون بعض فإن القدر المعلوم يحدث شوقاً إلى ما ليس بمعلوم »[5] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البلاغيين قد تنبهوا لقيمة هذه الأساليب التي يكون فيها

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٣ ، ومن ذلك الآيات : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، سورة يوسف ، الآية ٤٢ ، و﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ ، سورة القصص ، الآية ١٨ ، ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ ، سورة القصص ، الآية ٨٢ ،

(٢) أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ١٩٤ بتصرف .

(٣) سورة طه ، الآية ٧٨ .

(٤) سورة النجم ، الآية ١٦ ، قال الزمخشري : « لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف » ، الزمخشري : الكشاف ، ٤/ ٢٩ .

(٥) العلوي ، يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم اليمني : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط ، ١٩٨٢م) ، ٢/ ٨٠ .

الجواب مبهما ، وقد وصف بعض الكتّاب تلك المعاني التي تأتي من هذا الأسلوب بأنها : « تراءى لنا هاربة في غيم شفيف »[1] .

ومما يلحق بهذا الباب دخول أل التعريف على الأسماء لتفيد تارة الجنس ، وتارة العهد ، ولا يخلو هذا من ملاحظ نفسية .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴾[2] ، فقد دخلت ال التعريف وهي العهدية ـ كما يسميها أهل اللغة ـ وكأنّه جيء بالتعريف ليصوِّر شناعة وقبح النتيجة التي انتهى إليها فرعون بعدما قدمت له الشواهد ، والأثر النفسي يظهر أكثر من حيث إن سامع القصة يتوقع أن تكون النتائج التي سيتوصل إليها قوم فرعون هي الإيمان ، إذ هي النتيجة الطبيعية ، لكن قوبلت بالرفض والعصيان من قبل فرعون ، وهذا أمر فظيع غير ما كانت تتوقعه النفس الإنسانية .

والإضافة : من أبواب التعريف ، فقد يكون الاسم نكرة ، إلا أنه يصبح معرفة بإضافته إلى اسم آخر ، من ذلك : عذاب السعير ، دار البوار ، حج البيت ، أصحاب الجحيم ، كتاب الله ، المسجد الحرام ، وغير ذلك . .

هذه الإضافة قد تشكل أحياناً صورة في الذهن حيث تتأملها النفس ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾[3] .

وقد يعدل عن الإضافة ، فيفصل بين الاسمين بحرف لعدم التجانس بينهما ، كما فصل بين لفظة « عذاب » ولفظ « الرحمن » بالحرف « من » في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾[4] ، انظر كيف فصل بينهما لأن العذاب يناسبه لفظ الجبار أو المنتقم ، أما لفظ الرحمن فقد جيء بها لتؤدي دوراً نفسياً وهو المفارقة ، إذ من شأن الرحمن أن يرحم ، والرحمن مصدر النعم ، فالكفر بالرحمن هو كفر بمصدر النعمة وكان الأجدر القيام بشكر النعمة ، هكذا : ﴿ عَذَابٞ مِّنَ

---

(١) أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ١٩٩ .
(٢) سورة المزمل ، الآيتان ١٥ـ١٦ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٤٤ .
(٤) سورة مريم ، الآية ٤٥ .

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ، لأن عذاب الحليم قد يكون أنكى ، وغضبته قد تكون أعتى ، وهذه تشبه في بابها ما في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[1] ، فقد جيء بلفظ « الكريم » هنا ليشير إلى تلك المفارقة ، إذ السمع يمجّ أن يقابَل الكريم بهذا العصيان ، وقد كان الأجدر أن يكون دافعاً إلى الطاعة ، والله أعلم .

يؤتى بهذا النوع لأنه أقصر الطرق لإيصال المقصود إلى ذهن السامع ، أي يقصد إليه رغبة في الإيجاز[2] ، فقد تكون الإضافة فيها حثّاً على فعل الشيء كقوله تعالى : ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[3] ، ومن ذلك إضافة الولد لأمه استعطافاً لها وحثا على عدم المضارة ، كما أنّ في إضافة المولود لأبيه ما يبعث على هذا الاستعطاف .

ومما يلحظ أن لفظة « سلام » إذا وردت في القرآن مضافة إلى الله فإنها ترد منكّرة ـ في الغالب ـ كقوله تعالى : ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾[4] ، بخلاف التي وردت على لسان عيسى عليه السلام : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[5] ، وهذا التنكير يدل على التعظيم والتكثير[6] .

وقد يكون التنكير للإبهام كما في قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾[7] ، فالآية حديث عن اليهود ، إذ هي تحدثنا عن حرصهم على البقاء أحياء بغض النظر عن صفة هذه الحياة ، وقد يكون للتحقير كما في قوله تعالى : ﴿فِي

---

(١) سورة الانفطار ، الآية ٦ .

(٢) أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٢١١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ .

(٤) سورة يس ، الآية ٥٨ . وانظر : ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ ، سورة هود ، الآية ٤٨ ، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾ ، سورة مريم ، الآية ١٥ ، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾ ، سورة الصافات ، الآية ٧٩ ، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ ، سورة الصافات ، الآية ١٣٠ .

(٥) سورة مريم ، الآية ٣٣ .

(٦) انظر : السهيلي : نتائج الفكر ، ص ٤١٥ . وانظر : العلوي : الطراز ، ١٧/٢ ، قال العلوي : « ولو كانت « لفظة سلام » معرفة لكان لا فائدة في تعريفها » .

(٧) سورة البقرة ، الآية ٩٦ .

﴿قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾(١) .

وقد يحمل التنوين الذي يلحق الاسم المنكر رسالة نفسية تغني عن كثير من الكلام كما في قوله تعالى : ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٢) ، انظر إلى لفظة« نفحة » كيف أن في « التنكير والتنوين » تصويرا لفظاعة ذلك المشهد ، وترويعا للنفس أيما ترويع ، حينما تسمع النفس هذا الحديث ، حيث إن في اختيار لفظة المسّ دون اللمس ما يشير إلى تلك الفظاعة ، فالمسّ أقل تمكنا من الإصابة ، واجتماع التنوين والتنكير في لفظة « نفحة » ، صوّر لنا فظاعة وهول ذلك الصنف من العذاب ، فتتملى النفس هذه الصورة ، وهذا المشهد ليكون أوقع في النفوس وأردع ، كما أن اختيار لفظة « نفحة » وهي اسم (مرة) إضافة إلى فظاعة المشهد ، فـ« النفح » يستخدم في كلام العرب للخير فيقولون : « نفح الطيب » ، « نفح الريح الناعمة » ، واستعمالها هنا في جانب الشرّ على طريق التهكم والله أعلم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾(٣) ، انظر إلى تنكير لفظة « أرضاً » فكأنّه يشير إلى ما نفوس أخوة يوسف عليه السلام من التدبير والتخطيط : أرض مجهولة لا يهتدي إليها أبوه .

يخلص الباحث مما تقدّم إلى أن التعريف والتنكير أسلوب من أساليب العربية ، في دقة استعماله مهارة وبراعة وإشباع للمعاني النفسية ، إذ قد يستعمل الاسم في الجملة مرتين نكرة ، فيكون في واحد منها دالاً على التحقير ، وفي الثاني دالاً على التعظيم ، ومنه قول أبي السمط من الطويل :

له حاجب في كل أمر يشينه   وليس له عن طالب العرف حاجب

انظر كيف كان تنكير لفظة حاجب في الشطر الأول دالة على التعظيم ، بينما في الشطر الثاني كانت دالة على التحقير ، والمعنى : أدنى حاجب ، أو أي حاجب(٤) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٤٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٩ .

(٤) للمزيد انظر : القزويني : الإيضاح ، ج١ ص ٤٩ . ولم أجد البيت المذكور أعلاه ، لكن=

المبحث الثاني

التوكيد

يطلق لفظ التأكيد ويقصد به : تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره[1] ، وأسلوب التأكيد من الأساليب التي لها فوائد كثيرة في الكلام ، أبرزها إزالة الشكوك وتوضيح المقصود من الكلام ، يستخدم التوكيد في القرآن ـ كما هو الحال في كلام العرب ـ كوسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه وإقراره في أفئدتهم ، وهو من بديع أساليب العرب ، ولا يعدّ حشوا ، وإنما يؤتى به لأغراض متعدّدة في الكلام[2]

للتوكيد في القرآن أساليب كثيرة منها :

التوكيد المعنوي بكل وأجمع ، كقوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[3] .

التوكيد بالضمير المنفصل ، ومنه قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[4] .

التوكيد اللفظي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[5] .

= هنالك بيت قريب منه من الطويل أيضا ، لابن حيوس ت(٤٧٣)هـ من شعراء الفاطميين ولد ونشأ في دمشق :

وما دونه للطالبي العرف حاجب   إذا ما أتوا من دون بابك حجابا

(١) العلوي : الطراز ، ٢/١٧٦ .

(٢) روي عن ابن الأنباري أنه قال : ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له : إني لأجد في كلام العرب جشوا ، فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم . ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد ، فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم : عبد الله قائم إخبار عن قيامه وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه ، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني ، قال : فما أحار المتفلسف جوابا ، انظر : ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين : المثل السائر ، ١/٢٤٢ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٣٠ .

(٤) سورة الحديد ، الآية٢٤ .

(٥) سورة الفجر ، الآيتان٢١ـ٢٢ .

تأكيد الفعل بمصدره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ ﴾[1] .

توكيد الجملة بأداة من أدوات التوكيد مثل : (إنّ ، ولام الابتداء ، وهاء التنبيه ، والقسم ، وألا الاستفتاحية ، وكأن في التشبيه ، ضمير الشأن ، ضمير الفصل ، قد ، السين ، سوف ، النونان في توكيد الفعل ، اللام الموطئة للقسم ، الأحرف الزائدة) ، وفي القرآن من هذا نماذج كثيرة جدا ، سيأتي منها في الأمثلة القادمة .

المطلب الأول : قيمة التوكيد من الناحية النفسية :

أشار علماؤنا إلى أهمية أسلوب التوكيد ، وتحدثوا عن قيمته في الكلام ، وقد أشار الجرجاني إلى بعض الجوانب النفسية في هذا الأسلوب ، فقد قال : « وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، ومن هاهنا قالوا : إنّ الشيء إذا أُضمِر ثم فسِّر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار ، ويدل على صحة ما قالوه أنا نعلم ضرورة في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾[2] ، فخامة وشرفا وروعة لا نجد منها شيئا في قولنا : فإن الأبصار لا تعمى ، وكذلك السبيل أبدا في كل كلام كان فيه ضمير قصة أو ضمير شأن ، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[3] ، يفيد من القوة في نفي الفلاح عن الكافرين ما لم يفد ذلك القول : « إن الكافرين لا يفلحون لم يفد ذلك ، ولم يكن كذلك إلا لأنك تعلمه إياه من بعد تقدمة وتنبيه ، أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطد ، ثم بين ولوح ثم صرح ، ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق »[4] .

مراعاة أحوال المخاطبين الذين نتحدث إليهم باستخدام أسلوب التوكيد هو الذي يبرز لنا تلك المعاني النفسية ، فالخبر له أغراض يلقي من أجلها ، وعلم المعاني من شأنه أن يدلنا كيف يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، وهو ما تتحدث عنه مراعاة المقامات ، فمقام المنكر يختلف عن مقام الشاك المتردد ، وهذا يختلف عن خالي

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٦٤ .

(٢) سورة الحج ، الآية ٤٦ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ١١٧ .

(٤) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ١/ ١١٣ .

الذهن الذي لا شك ولا تردد عنده ، فالمتكلم ينبغي أن يراعي هذه الأحوال .

فما كان موجها إلى خالي الذهن لا إنكار لديه ، ولا شك في نفسه أو تردد ، يلقي الخبر إليه في العادة خالياً من التأكيد .

وما كان موجهاً إلى من كان في نفسه شك أو تردد ، حسن تأكيد الخبر له ، لإزالة ما في نفسه من الشك .

« وما كان موجها إلى منكر كان التأكيد واجباً له في الكلام ، وهذا المنكر درجات ، فمنهم من يكتفي بأداة التأكيد ، ومنهم من يؤكد له الكلام بمؤكدين أو بثلاث فأكثر ومنهم من يحتاج إلى قسم ، حسب حال الملقى عليه الخبر من الشك أو التردد أو الإنكار »[١] .

والتوكيد ، يكون تارة مع وجود أدوات ، وقد يكون بغير أداة ، وهذا الأخير يعرف من تركيب الجملة .

أمثلة لبعض أدوات التأكيد من التنزيل وأسرارهما لنفسية :

قوله تعالى على لسان فرعون : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾[٢] . هذه الآيات تكشف لنا عن نفسية فرعون إذ تغلي حقداً ويتقطع غيظاً ، وتصور لنا ما في نفوس أهل مصر من كراهية الخروج وعدم رغبة فيه[٣] .

﴿ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ ﴾[٤] ، فالآية جاءت في سياق غزوة الأحزاب وهي حديث عن المنافقين ، حيث إن أعمالهم تنبىء عن شك في أنفسهم ، وهذا هو أحد الأسرار التي يكمن فيها اشتمال العبارة على التأكيدات[٥] .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٦] ، فالآية تأكيد للمنافقين الذين كانوا

(١) للمزيد انظر : عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ١١٣ .
(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٥٤ـ٥٦ .
(٣) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ١٢٤ .
(٤) سورة الأحزاب ، الآية ١٨ .
(٥) للمزيد انظر : عباس ، البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ١٢٣ .
(٦) سورة النور ، الآية ٦٣ .

يتسللون من مجلس الرسول ﷺ خفية بأن الله عالم بما يدور في ساحتهم وبما تكنه صدورهم وبما تنطق به ألسنتهم .

ومما يجري هذا المجرى ورود لام التوكيد في الكلام ، وقد تكلم ابن الأثير عن هذا فقال : « ولا يجيء ذلك إلا لضرب من المبالغة ، وفائدته أنه إذا عبّر عن أمر يعزّ وجوده ، أو فعل يكثر وقوعه ، جيء باللام تحقيقا لذلك » وذكر أمثلة من القرآن على ذلك ، منها قوله تعالى في أول سورة المنافقون : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾[1] ، فانظر إلى هذه اللامات الثلاثة الواردة في خبر إنّ ، الأولى وردت في قول المنافقين ، وإنما وردت مؤكدة لأنهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبي ، وتملقوا وبالغوا في التملق وفي باطنهم خلافه ، وأما ما ورد في الثانية والثالثة فصحيح لا ريب فيه ، واللام في الثانية لتصديق رسالته ، وفي الثالثة لتكذيب المنافقين في شهاداتهم التي لا تعبر عن حقيقة ما في قلوبهم من التكذيب برسالة محمد ﷺ ، كما أورد ابن الأثير مثالا آخر هو قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] ، فإنه إنما جيء باللام لزيادة التوكيد في إظهار المحبة ليوسف عليه السلام والإشفاق عليه ، ليبلغوا الغرض من أبيهم في السماحة بإرساله معهم »[3] .

ومن ذلك أيضاً : ما نجده من أدوات التأكيد في كلام السحرة مع فرعون ، كقوله تعالى ، على ألسنتهم : ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[4] ، ومثله ما في رده عليهم : ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾[5] ، فهذه المؤكدات تشير إلى فقدان الثقة وانعدامها بين الطرفين[6] ، إذ لو كانت بينهم ثقة لما وجدت هذه التأكيدات .

---

(١) سورة المنافقون ، الآية ١ .
(٢) سورة يوسف ، الآيتان ١١ـ١٢ .
(٣) ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين : المثل السائر ، ٢/ ٥٢ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية ٤١ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية ٤٢ ، ومثلها ما ورد في سورة الأعراف لكن دون ورود لفظ إذا ، سورة الأعراف ، الآيتان ١١٣ـ ١١٤ .
(٦) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١٤٣ .

تجدر الإشارة إلى أن بعض الفواصل فيها ملاحظ نفسية متعلقة بالتوكيد ، فتارة نجد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، وتارة أخرى ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، إذ الملاحظ أنه عندما يكون المقام مقام تهديد ووعيد يؤتى بصيغة ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ ، أما حينما يكون المقام مقام توكيد المغفرة فيقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ، مثاله قول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] في الآية تهديد للذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة وتوعّد ، ومثله قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] ، فهو سياق إقامة الحد .

أما توكيد المغفرة : ففي مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6] ، المقام مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم ، وهذا المقام يستحق توكيد المغفرة[7] ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٣ و١٨٢ و١٩٩ ، سورة المائدة ، الآية ٣٩ وقد ورد بحرف (أنَّ) في الآية ٣٤ و٩٨ ، سورة الأنفال ، الآية ٦٩ ، سورة التوبة ، الآية ٥ و٩٩ و١٠٢ ، سورة النور ، الآية ٦٢ ، سورة الحجرات ، الآية ١٤ ، سورة الممتحنة ، الآية ١٢ ، سورة المزمل ، الآية ٢٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٨ ، سورة آل عمران ، الآية ٣١ و١٢٩ ، سورة النساء ، الآية ٢٥ ، سورة المائدة ، الآية ٧٤ ، سورة الأنفال ، الآية ٧٠ ، سورة التوبة ، الآية ٢٧ و٩١ ، سورة النور ، الآية ٢٢ ، سورة الحجرات ، الآية ٥ ، سورة الحديد ، الآية ٢٨ ، سورة الممتحنة ، الآية ٧ ، سورة التحريم ، الآية ١ .

(٣) سورة المائدة ، الآيتان ٧٣ـ ٧٤ .

(٤) سورة النساء ، الآية ٢٥ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٨٢ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ١٩٩ .

(٧) السامرائي ، فاضل : التعبير القرآني ، (عمان : دار عمّار ، ط ١ ، ١٩٨٨م) ، ص ١٣٦ .

وتارة يأتي بضمير الفصل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] والمقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موضعه ، ومنه ما في قوله تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[3] ، انظر كيف جيء بضمير الفصل في الأولى والتأكيد فيها أشدّ ، وهذا مناسب للمقام إذ الآية طلبت مقابلة السيئة بالحسنة ، وهو أمر شاق على النفس الإنسانية ، ذلك أنّ من عادة الإنسان مقابلة السيئة بمثلها ، والشيطان يدفع المرء بالانتصار للنفس ولهذا كان قوله : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[4] ، بخلاف التي في سورة الأعراف فهي في سياق الأمر بالإعراض عن الجاهلين ، وهو أيسر من الإحسان إلى من أساء إليك[5] .

ومن هذا الباب استخدام إنْ المخففة للتعبير عن المعنى النفسي ، ومثال ذلك : قول إخوة يوسف لأخيهم يوسف : ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[6] ،

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦١ ، سورة يوسف ، الآية ٣٤ ، سورة الشعراء ، الآية ٢٢٠ ، سورة فصلت ، الآية ٣٦ ، سورة الدخان ، الآية ٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٠ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٣٦ . وفي القرآن من هذا الباب كثير : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ ، سورة الحج ، الآية ٦٢ ، سورة لقمان ، الآية ٣٠ ، ومنه في مسألة الرزق : ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ، سورة الحج ، الآية ٥٨ ، ومنه : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ ، سورة التوبة ، الآية ٧٢ و١١١ (بالواو وذلك) ، سورة يونس ، الآية ٦٤ ، سورة غافر ، الآية ٩ (بالواو وذلك) ، سورة الدخان ، الآية ٥٧ ، سورة الحديد ، الآية ١٢ ، وقوله : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ ، سورة النساء ، الآية ١٣ (بالواو كذلك) ، سورة المائدة ، الآية ١١٩ ، سورة التوبة ، الآية ٨٩ و١٠٠ ، سورة الصف ، الآية ١٢ ، سورة التغابن ، الآية ٩ .

(٤) سورة فصلت ، الآية ٣٥ .

(٥) انظر الخطيب الاسكافي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت (٤٢٠هـ) : درة التنزيل وغرة التأويل « في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله » ، (بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ط ٤ ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، ص ٤١٩ـ٤٢٠ ، وللمزيد انظر السامرائي : التعبير القرآني ، ص ١٤٢ .

(٦) سورة يوسف ، الآيتان ٩١ـ ٩٢ .

انظر كيف جيء بلفظ (إنْ) المخففة ، بينما نجدهم عند اعترافهم أمام أبيهم أكدّوا بـ (إنّ) المشددة : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] ، مع أن المتبادر إلى الذهن أن يكون العكس ، أي التأكيد بأنّ المشددة لأخيهم لأن الإساءة إليه مباشرة ، إلا أن هذا يشير إلى معان نفسية أدق ، فأخوة يوسف لما رأوا حال أبيهم وما حلّ به من جراء فعلتهم من الوهن واللوعة وحرقة الفؤاد ، وذهاب البصر من أثر الحزن ، كان ذلك أدعى لهم إلى توكيد الاعتذار والاعتراف بالخطيئة ، أما بالنسبة لأخيهم فإن الله أكرمه بعدهم وبوأه مكانة عالية ومكّن له في الأرض ، كأنّ مكرهم به وكيدهم له عاد عليه بالخير والرفعة بعكس ما جرت على أبيهم ، ولعل هذا هو السرّ في أن يوسف بادر بسؤال المغفرة لأخوانه ، بينما أبوهم كان وعد بالمستقبل « سوف » مما يشير إلى عمق الأثر في نفسه عليه السلام[2] .

ومن ذلك تأكيد الخضر لموسى عليه السلام : ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾[3] ، فقد كان هذا في المرة الثانية ، أما في المرة الأولى ، فقد قال : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾[4] هكذا خالية من لفظ « لك » ، وفي هذا من الدلالة على حال بعد تذكيره غير مرة ، فهو تعبير عما في النفس .

ومن هذا الباب اللام الموطئة للقسم حيث هي ـ كذلك ـ رسالة للكشف عن جوانب نفسية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[5] ، حيث يلاحظ خلو الجملة : ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ من اللام الموطئة للقسم بخلاف الجمل المجاورة لها ، وهذا يشير إلى ملحظ نفسي يتعلق

---

(١) سورة يوسف ، الآيتان ٩٧ـ٩٨ .

(٢) السامرائي : التعبير القرآني ، ص ١٦٠ بتصرف . ومثل هذه الآية كثير في كتاب الله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ، سورة الأعراف ، الآية ٦٦ ، ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ ، سورة الشعراء ، الآية ١٨٦ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٧٥ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٧٢ .

(٥) سورة الحشر ، الآيتان ١١ـ١٢ .

بطبيعة المنافقين ، ففي النظم دلالة على أنّ المنافقين ليس عندهم أصل النية التي تحملهم على النصرة ، إذ تحتاج منهم إلى بذل وتضحية ربما بالنفس ، بخلاف الخروج فهو لا يكلّفهم ثمنا كبيرا ، فكان التأكيد على الخروج دون النصرة ، مما يشير إلى جبنهم من جهة ، وخداعهم من جهة أخرى .

ومن ذلك : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾[1] ، و﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، دخول اللام على لفظ « لسريع » في آية الأعراف فيها ملحظ نفسي ، ذلك أنها تتحدث عن العقوبات العاجلة في الدنيا فكان مجيء اللام يشير إلى سرعة وقوعها وقربها منهم ، بينما التي في سورة الأنعام « سريع العقاب » هي في الحديث عن العقوبات الآجلة (الأخروية) ، فغياب اللام في الآية دليل على الإمهال ، والله أعلم .

المطلب الثاني : خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في باب التوكيد

الأصل في الكلام التأكيدي ، وهو الظاهر : (تأكيد الكلام وجوباً للمنكرين ، واستحساناً للسائلين والشاكين والمترددين) ، أي أن يكون مؤكداً للمنكر بأكثر من تأكيد أو بالقسم ، وخالياً من التأكيد للمصدق . ومؤكدا بأدوات التوكيد للشاك والمتردد . لكن قد يخاطب المنكر بغير مؤكدات ، كما قد يخاطب المصدق أحياناً بأنواع التأكيد ، وهو ما يطلق عليه : الخروج عن مقتضى الظاهر ، ويكون وراء ذلك جوانب نفسية ، فقد ينزّل :

غير السائل منزلة السائل ؛ فيحسن تأكيد الكلام له في هذا المقام .

أو ينزّل غير المنكر منزلة المنكر ؛ فيؤكد له الكلام بأكثر من تأكيد .

أو ينزّل المنكر منزلة غير المنكر فلا يؤكد له الكلام[3] ؛ فيكون بذلك خروجاً عن مقتضى الظاهر ، والأسلوب القرآني يستخدم هذا الأسلوب في بعض آياته لملاحظ نفسية ، لولا هذا الأسلوب لما اهتدينا إليها .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٥ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٦٧ ، ومنه : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، سورة لقمان ، الآية ١٧ ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ، سورة الشورى ، الآية ٤٣ ، وقد تقدم الحديث عنه .

(٣) للمزيد انظر : عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ١٢٩ .

أمثلة :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1] ، فعلى الرغم من كون الآية تتحدث عن أمر لا ينكره أحد وهو الموت ، إلا أنها جاءت بالتأكيد ، وفي ذلك ملحظ نفسي هو : التنبيه إلى غفلة الناس عنه وعدم تذكره ، إذ حالهم وواقعهم لا ينسجم مع ما يؤمنون به من كون الموت أمرا مؤكدا لا محالة ، فنُزِّل غير المنكر منزلة المنكر ، وبمثل هذه الآية يمكن أن يقال في مسألة « الرزق » ، إذ هما مسألتان « الأجل ، الرزق » لا ينكرهما إنسان مسلم ، إلا أن القرآن في حديثه عن هاتين المسألتين خرج عن مقتضى الظاهر ، فقوله تعالى ـ حديثاً عن الرزق ـ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[2] ، انظر كيف جيء بالقسم والمؤكدات على هذه الحقيقة التي لا يشك فيها مسلم ، وإن السرّ وراء ذلك هو التنبيه على حال الناس ، كيف تتعامل النفس الإنسانية مع مسألة الرزق ؟ إنها مع علمها أنه بيد الله حريصة على جمعه ، خائفة من فواته أو فوات بعضه ، ولذلك فهي تقاتل الآخرين ، وتبغضهم من أجله وتحسن وتسيء بسببه ، هذه المؤكدات ـ إذن ـ رسالة نفسية تريد أن تصور لنا تلك المفارقة بين واقع الناس وما يؤمنون به في هذه الحقيقة ، فانظر كيف كشفت هذه التأكيدات عن نفسية الناس وأبرزت حقيقتهم .

ومثل هذا يمكن أن يقال في الآيات التي تتحدث عن الساعة وعلاماتها ومجيء يوم القيامة .

قوله تعالى على لسان امرأة عمران : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[3] ، نتساءل عن معنى التأكيد هنا وهي تخاطب ربها ؟ إنها تحكي لنا ما في نفسها ، فهي تريد أن تبرز ما كان يدور في خاطرها ، فهي نذرت ما في بطنها خالصا لخدمة المعابد ، « فأم مريم كان الأمل يملأ قلبها في أن تلد ذكراً نذرته لله ، ولطول ما شغلها

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان ١٥ـ١٦ .

(٢) سورة الذاريات ، الآيتان ٢٢ـ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية٣٦ .

هذا الأمل تجسّم في خيالها ، حتى صار كأنه حقيقة واقعة »[1] ، ولم يكن في ذهنها غير أن يكون ذكراً لأنه الذي يصلح لهذه المهمة ، فلما كانت قد وضعت مولودها ، وكانت أنثى على غير ما كانت تتوقع ، أخذت تحكي لنا حالها مستغربة معبرة عما في نفسها ، فجيء بالتوكيدات ، وكأنّ هذه الأحرف تريد أن تمحو ما استقر في نفسها[2] .

ومنه قول نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾[3] ، فلم يكن نوح عليه السلام يتوقع أن يكذبه قومه وقد جاءهم من ربهم بالنور والهدى ، فكان تكذيبهم صدمة له يريد أن يوطّن نفسه عليها . والتأكيد هنا من أجل المتكلم نفسه لا من أجل المخاطب[4] . ومثل هذا النمط من التعبير نلمسه في كثير من المواطن كما في مطلع سورة نوح عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[5] .

وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر لملاحظ نفسية أيضاً ، فيكون بذلك قد خرج الكلام عن مقتضاه ، ويقصد به تنبيه المتكلم إلى وضوح المتكلَّم عنه ، بحيث لا يخفى على أحد ، فيكون هذا الأسلوب حثا على إعمال الفكر ، كما أن فيه ـ أحياناً ـ استخفافا بعقول المخاطبين الذين تغيب عنهم مثل هذه الأمور ، ومن هذا الأسلوب في كتاب الله ما كان خطاباً لأهل مكة فيما يخص الوحدانية ، فقد جيء به في كثير من المواطن بلا مؤكدات مثل قوله : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[7] .

---

(١) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ١٣٣ وما بعدها .
(٢) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١٥٠ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية ١١٧ .
(٤) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ١٣٤ .
(٥) سورة نوح ، الآيات ٥ ـ ٩ .
(٦) سورة النحل ، الآية ٢٢ . للمزيد انظر : عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ١٣٥ .
(٧) سورة الإخلاص ، الآية ١ .

المبحث الثالث
التقديم والتأخير

المطلب الأول : أهمية أسلوب التقديم والتأخير

من أوسع أبواب البلاغة ، إلا أن الحديث عنه في هذا المبحث سيكون من الوجهة النفسية ، فقد تقدم أن النظم وترتيب الألفاظ في الجملة العربية يكون تابعاً لترتيب معانيها في النفوس ، إذ الترتيب هو الذي يدلنا على ما في النفوس ، وعليه فقد نجد عبارات متشابهة في حروفها وكلماتها ، إلا أن بينها اختلافاً في الترتيب ، وهذا الاختلاف يظهر من متكلم لآخر ، فعلى حين نجد بعض الكلام يتقدم في إحدى الجمل نجده يتأخر في كلام آخر ، وهكذا . ويبقى الضابط في هذا كله هو اختلاف المعنى في نفس المتكلم ، وقد يشير إلى ملحظ نفسي متعلق بالمتلقي ، قال السهيلي : « ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان »[١] .

القرآن الكريم يرشدنا من خلال هذا الأسلوب إلى كثير من المعاني النفسية ، وهذا الباب باب عظيم ، يمكن من خلاله استنتاج الكثير من المعاني النفسية التي أرادها المتكلم ، يقول عنه إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني : « هو باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، ولا يزال يفترّ[٢] لك عن بديعه ، ويفضي[٣] بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعراً يروقك[٤] مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان »[٥] .

الخطاب القرآني حينما يستخدم هذا الأسلوب ، فيقدّم لفظا في موقع ، ثم يؤخره في موقع آخر ، فهو في هذا يرشدنا إلى معان نفسية متعلقة بالمتكلم والسامع .

---

(١) السهيلي : نتائج الفكر ، ص ٢٦٧ .

(٢) يظهر .

(٣) يرشدك .

(٤) يحلو عندك .

(٥) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٩٦ .

ذكر علماء البلاغة للتقديم والتأخير أسبابا[1] وأغراضا كثيرة ، أغلبها يرجع إلى أغراض نفسية ، فترتيب وتركيب الجمل القرآنية صورة لتلك المعاني كما هي في النفس الإنسانية ، كاشفة لأحوال النفس وما يثار فيها ، أو ما يمكن أن يثار فيها من معان وصور ، « فإذا كانت ـ مثلاً ـ كلمة البحر تثير في النفس الماء لا النقع وجب أن تسبق في الترتيب كلمة الماء ، استجابة لهذه الإثارة التي نهضت بها كلمة البحر . . فإذا قلت : نقعه ماؤه كنت قد أخرت في اللفظ ما هو مقدم في النفس ، وتلك مجافاة تنبو بها الكلمات[2] .

---

(١) من هذه الأسباب : الترتيب الزماني : كما في قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ ، ومنه تقدّم إبراهيم على إسماعيل ـ عليهما السلام ـ مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ١٢٧ ، ومنه تقدّم عاد على ثمود مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ ، سورة فصلت ، الآية ١٣ ، وتقدّم الظلمات على النور لأن الظلمة أسبق في الوجود من النور ، ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ، سورة الطلاق ، الآية ١١ ، ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ، سورة الحديد ، الآية ٩ ، متقدّم بالطبع ـ كما هو الشأن في الأعداد ـ قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، سورة الكهف ، الآية ٢٢ ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ، سورة المجادلة ، الآية ٧ ، فالتقدم بالرتبة ، وأما تقدّم همّاز على مشاء بنميم في قوله : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ ، سورة القلم ، الآية ١١ ، فبالرتبة لأن المشي مرتب على القعود في المكان والهماز هو العياب ، وذلك لا يفتقر إلي حركة وانتقال من موضعه بخلاف النميمة ، وأما تقدّم مناع للخير على معتد ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ ، سورة القلم ، الآية ١٢ ، فبالرتبة أيضا لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره ، ومن المقدم بالرتبة : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، سورة الحج ، الآية ٢٧ ، لأن الذي يأتي راجلا يأتي من المكان القريب والذي يأتي على الضامر يأتي من المكان البعيد ، وله توجيه آخر : ومن الناس من يقول قدمهم جبرا لهم لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم ، وتقول إن الله تعالى لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم فبدأ به جبرا لهم ورحمة ، تقديم السبب على المسبب ، كتقديم النساء على البنين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية ١٤ ، تقديم بالفضل والرتبة ، كتقديم النبيين على الصديقين في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ ، سورة النساء ، الآية ٦٩ ، انظر : ابن القيم : بدائع الفوائد ، ١/ ٦٢ـ٧٣ .

(٢) أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٣١٢ .

من الأغراض النفسية للتقديم والتأخير[١] ، التشويق : فقد يتقدم بعض الكلام على بعض لغرض تشويق النفس إلى معرفة (الخبر) التالي ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[٣] ، كأنّ قوم شعيب أحبّوا أن يثبتوا العزة لرهطه وقومه في الوقت الذي ينفوهما عنه ، كأنه قيل أنت لست العزيز ، وإنما هم قومك . فانظر إلى الملحظ النفسي الذي كان يهدف إليه قوم شعيب من هذا الكلام ، إذ لولا هذا التقديم لما وقفنا عليه . لا شك أن مجيء الخبر بعد الاشتياق إليه ألذّ وأوقع في النفس ، وأمكن في ذهن السامع .

ومن الأغراض النفسية للتقديم والتأخير : الشك في الفاعل ،كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾[٤] ، وقد يكون غرضهم الحصول على اعتراف الفاعل لإثبات الفعل عليه لان قوم إبراهيم كان عندهم من القرائن والأحوال ما جعلهم عارفين أن إبراهيم عليه السلام هو الفاعل ، ومنها : العناية بالمتقدم والاهتمام به ، كما في قوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾[٥] ، ومنه التقديم لغرض التبكيت والتعجب من حال المذكور كما في

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾[٦] ، قيل : قدِّم لأن المقصود التوبيخ ، وتقديم الشركاء أبلغ في حصوله[٧] ، ومنه التقديم لبيان أهمية المتقدم والحث عليه : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾[٨] ، إذ وفاء الدين سابق على الوصية ، لكن قدم الوصية لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها بخلاف الدين[٩] .

---

(١) من أغراض التقديم والتأخير : تعجيل المسرة أو المساءة ، التبرك ، التلذذ ، التفاؤل .
(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .
(٣) سورة هود ، الآية ٩١ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٦٢ .
(٥) سورة الضحى ، الآية ٩ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية ١٠٠ .
(٧) الزركشي : البرهان ، ٣/٢٣٦ .
(٨) سورة النساء ، الآية ١١ .
(٩) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/٢٤٢ .

المطلب الثاني : مظاهر التقديم والتأخير في كتاب الله

في الحرف : (ألم ، أفلم ، أولم) ، كما في قوله تعالى : ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ . . ﴾(١) ، و﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾(٢) ، تقديم الواو والفاء إذ التقدير أقعدوا ولم يسيروا .

في الكلمة : حيث تتقدم كلمة على أخرى ، وأغلب ما في هذا المبحث من هذا النوع ، كما في كلمة « النفع والضر » و« الجن والإنس » و« السماء والأرض » .

في النظم : كتقديم المفعول وتأخير الفاعل أو العكس ، وكذلك في المسند والمسند إليه ، والحال وغير ذلك من المباحث المعروفة عند أهل البيان .

تقدم جملة في موقع وتأخرها في موقع آخر ، كما في جملة : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾(٤) .

التقديم والتأخير في الفاصلة وهو كثير جدا ، كما في تقدم أسماء الله الحسنى وتأخر بعضها ، من ذلك : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ و﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ ، ومن ذلك : ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ و﴿ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ وغير ذلك . .

قد تتقدم آية أحياناً على آية أخرى ، كما هو الشأن في الآيتين التالين : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٥) من سورة الشعراء(٦) ، نجد أن الغالب في ترتيب القصص هو التسلسل الزمني ، لكن أحيانا يتأخر ذكر بعض

---

(١) سورة غافر ، الآية ٢١ .

(٢) انظر : سورة يوسف ، الآية ١٠٩ ، سورة غافر ، الآية ٨٢ ، وسورة محمد ، الآية ١٠ ، وانظر : سورة الروم ، الآية ٩ ، سورة فاطر ، الآية ٤٤ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٠٢ .

(٤) سورة غافر ، الآية ٦٢ .

(٥) سور الشعراء ، الآيتان ٩ـ١٠ ، و٦٧ـ٦٨ ، و١٠٣ـ١٠٤ ، و١٢١ـ١٢٢ ، و١٣٩ـ١٤٠ ، و١٥٨ـ١٥٩ .

(٦) ومن ذلك الآيتان ٣١ـ٣٢ من سورة التوبة ، والآيتان ٩ـ١٠ من سورة الصف .

القصص ، كتأخير ذكر قصة نوح على غيرها من القصص في السور (الأنبياء ، الشعراء ، الذاريات ، النجم)[1] . هذه بعض مظاهر التقديم والتأخير ، علما أنه قد يلاحظ وجود غيرها ، لكن هذه هي المظاهر الغالبة في التعبير القرآني .

المطلب الثالث : أمثلة لتقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم والأسرار النفسية

المثال الأول : يلاحظ القارىء لكتاب الله أن الآيات التي تتحدث عن الموت يأتي لفظ الموت فيها « فاعلاً مؤخراً » و« الميت » مفعولاً به مقدماً ، وهذا مطرّد في كتاب الله ، ولعل الباحث يكتفي بذكر بعض هذه الآيات لتكون شاهدة على بعضها الآخر كقوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[3] ، يلاحظ في الآيات المتقدمة تأخر ذكر الموت ، وهذا قد يشير إلى بعد نفسي « فالإنسان يرغب في تأخر الموت ، ويتمنى أن لا يأتيه أبداً ليستمتع بحياته ، وإذا كان لا بد من قدومه فليتأخر ، فانظر كيف راعى السياق هذه الرغبة النفسية البشرية ، فأخرّه في الجملة القرآنية لأنه مؤخر عن شعور الإنسان وتفكيره »[4] .

المثال الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[5] ، انظر كيف أن تقديم شاخصة يصوِّر لنا كأنّ كل صفة أخرى لها قد انمحت ، ولم يبق للأعين سوى الانفتاح الذي يؤذن بالخوف والذهول معاً ، فتقديم لفظة شاخصة يرسم المشهد ويبرزه[6] .

---

(١) سيأتي تفصيله عند الحديث عن القصة في القرآن .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣٣ ، وانظر : قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ . . ﴾ سورة النساء ، الآية ١٨ ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾سورة الأنعام ، الآية ٦١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٠ .

(٤) انظر : الخالدي : لطائف قرآنية ، ص ١١٥ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٩٧ .

(٦) قطب ، سيد : الظلال ، ٤/٢٣٩٨ . =

المثال الثالث : سبقت الإشارة إلى أن من الأسباب التي تكون وراء تقديم بعض الألفاظ على بعض ، الترقي من القليل إلى الكثير ، إلا أن التعبير القرآني قد يخالف هذا الترتيب أحيانا لأغراض ، قد يكون بعضها نفسيا ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[1] ، فانظر كيف جيء بالكثير « مثنى » ثم القليل « وفرادى » ، وكأنّ وراء ذلك ملحظا نفسيا ، وهو أن الآية سيقت في مقام دعوة المشركين إلى التفكير في شأن سيدنا محمد ﷺ ورسالته ، وقد يكون هذا التفكير باجتماعهم مثنى أسرع في وصولهم إلى الحق من كونهم فرادى ، إذ قد تعترض أحدهم شبهة فيردها صاحبه[2] .

المثال الرابع : من الآيات التي قد يكون الترتيب فيها مشيراً إلى ملاحظ نفسية تقديم ذكر عداوة الأزواج على عداوة الأولاد في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾[3] ، إذ النفس تكون أكثر عداءً للأزواج من الأولاد ، حيث المعاشرة الزوجية المستمرة وتدخل الحقوق والواجبات يجعل العلاقة أكثر عرضة للخلافات الزوجية ، وقد يصل بالمرء إلى التخلي تماماً عن الأزواج ولهذا كان الطلاق ، وليس كذلك في الأولاد إذ مهما بلغت النفس في بغض الأولاد وعداوتهم فإنها لن تصل إلى حدّ الفراق الحاصل مع الأزواج ، والله أعلم .

ومن ذلك : تقديم المال على الولد : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[5] ، وذلك أن المال أشد فتنة من الولد ، فقد جبلت النفس على حب المال : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾[6] . وطبعت النفس على حب اقتنائه ، قال عز

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٤٦ .

(٢) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١١٥ .

(٣) سورة التغابن ، الآية ١٤ .

(٤) سورة الكهف ، الآية٤٦ .

(٥) سورة التغابن ، الآية ١٥

(٦) سورة الفجر ، الآية ٢٠ .

وجل : ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾[1] ، وقد يصل بالمرء أن يتخلى عن أقرب الناس إليه بسببه ، فيبغض أمه وأباه وابنه وزوجه ، ذلك أن المال أعمق في النفس الإنسانية المجبولة على الشح ، ولأن الإنسان يحصل على مصالحه بالمال أكثر من حصوله عليها بالأولاد ، وقد يكون سبيلاً إلى الفتنة والضلال ، بينما نجد الأمر يختلف عند تعداد الشهوات ، إذ التقديم كان للنساء والأولاد على الأموال ، قال عز وجل : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾[2] ، قال العلوي : لما كانت الآية مسوقة من أجل تزيين المشتهيات في أفئدة بني آدم واستيلائها عليهم قدّم ما هو الأدخل في ذلك ، فصدّرها بذكر النساء تنبيها على أنه لا مشتهى يغلب على العقول مثلهن ، ثم عقّب بذكر البنين مما يلي النساء في الرقة والرحمة والشفقة والحنو مع المشاكلة في الخلقة والصورة ، ثم أردف بالأموال الذهبية والفضية لما يحصل فيها من اللذة والسرور والاطمئنان وانشراح الصدور »[3] . أما البعد النفسي لتقدم ذكر المال على الولد في كثير من الآي فقد أشار إليه السهيلي بقوله « لأن الولد بعد وجود المال نعمة ومسّرة ، وعند الفقر وسوء الحال هم ومضرة[4] .

المثال الخامس : ومما يلحظ فيه الجانب النفسي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[5] انظر كيف سارع تقديم ضمير الأولاد على ضمير الآباء في إيقافنا على ذلك البعد النفسي لهم ، إذ هم ليسوا فقراء وإنما يخشون الفقر في المستقبل ، فكان تقديم ضمير الأولاد على ضمير الآباء في الوعد بالرزق ، زيادة في طمأنتهم ، وطريقاً إلى تبديد القلق من نفوسهم ، بخلاف التي في سورة الأنعام ، حيث ذكر ضمير الآباء أولا : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[6] .

---

(١) سورة الهمزة ، الآية ٢ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤ .
(٣) العلوي : الطراز ، ٢/٣١٣ .
(٤) السهيلي : نتائج الفكر ، ص ٢٧١ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية ٣١ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية ١٥١ .

المثال السادس : من المواضع التي تحتاج إلى تأمل لبيان سر التقديم والتأخير تلك المواضع المتشابهة ، كما في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾[1] وقوله : ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[2] ، إذ السؤال هنا عن السرّ في تقديم الأخ على الأم والأب في الآية الأولى ، بينما تقديم الابن في الآية الثانية ، لا شك أن فهم النصين لا بد له من الرجوع إلى السياق ، وسوف نجد أن الملحظ النفسي هو أحد الأسرار التي جعلت النظم على هذا الترتيب في الموضع الذي اختصت به ، إذ المقام الأول مقام فرار من الأحبة انشغالاً بالنفس يوم الفزع الأكبر فكان الترقي في بيان الفرار ، وهذا الترقي جيء به من البعيد إلى القريب فالأقرب ، ولو كان العكس لما احتيج بعد ذلك إلى ذكر ما بعده ، وهو على ما قيل[3] : وصف لما ينتاب المرء من الذاتية المطلقة والاستغراق المطلق بالقلق الشخصي على المصير ، بخلاف الموضع الثاني الذي كان المقام فيه مقام البحث عن المنقذ والمعين والمفتدي ، فكان الابتداء بالأقرب كما تعوّل عليه النفس ، فالابن أولاً ثم الزوجة .

وبهذا نلمس أن هذا التعبير يناسب من حيث تدرّجُه حركة الكافر النفسية في ذلك اليوم ، وهو تعبير عن اشتغال الحيرة واتساعها بقلب الكافر ، وتفاقم التشتت الذي يعتريه وهو ما يرمز إليه الانتقال من الأدنى إلى الأبعد عاطفياً ومكانياً ، والاضطراب في التماسه اضطراباً شديداً باتساع دائرة البحث عنه درجة بعد درجة ، ويمكن أن يضاف لما تقدم أنه يصور اضطراب النفس في ذلك اليوم ، فلا تدري أيها أقرب إليه ، والله أعلم . وهذا يختلف عن الترتيب الذي ورد في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4] فإن ذاك الترتيب يعكس ويحكي لنا الواقع النفسي

---

(١) سورة عبس ، الآية ٣٤ـ٣٦ .

(٢) سورة المعارج ، الآية ١١ـ١٤ .

(٣) انظر : الشرقاوي ، عفت : بلاغة العطف في القرآن « دراسة أسلوبية » ، (بيروت : دار النهضة العربية ، د . ط ، ١٩٨١م) ، ص ١٠٨ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٢٤ .

للداخلين في الدين ، فقد كان أكثر الناس معارضة للدين الجديد هم الآباء. .[1] ، وليس في القرآن تقديم للفظ على لفظ من أجل رعاية الفاصلة أو الجرس الموسيقي فحسب ، إذ ينبغي أن يجلّ كتاب الله عن هذا ، وقد ذهب كثير من الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن وبلاغته إلى أن التعبير القرآني قد يكون فيه التقديم والتأخير أحيانا رعاية للفاصلة فقط ، وقد مرّ بيان ذلك .

المثال السابع : من المواطن التي تبرز الجوانب النفسية في التقديم والتأخير قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[2] ، فتقديم لفظ رسوله على موقعها إذ الأصل والله أحق أن يرضوه ورسوله لذلك . هذا التقديم يشير إلى أهمية إرضاء الرسول ﷺ ، وخشية أن تنصرف النفوس إلى إرضاء الله تعالى ، وتتوانى في شيء من إرضاء رسوله ، فالتقديم دلالة على مكانة الرسول عند الله ، والله أعلم[3] .

المثال الثامن : في بعض المواطن نلاحظ أن الترتيب يرشد إلى مواطن تهذيب النفس الإنسانية متمشياً مع أحوالها ، فنجد تارة الأوامر تتصاعد حسب الأحوال والشؤون ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[4] إلى قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[5] ، لو تأملنا هذا الترتيب سوف نجد أنه هدف إلى أن يعصم النفس الإنسانية من الفتنة ، والأخذ بها بعيداً عن مواقع المعصية ، وذلك بتدرج مناسب للحال ، وهو : غض البصر ، ثم النكاح الذي يقع به حفظ الفرج ، ثم حمل النفس الأمارة بالسوء على الصبر عن الشهوة في حالة العجز عن النكاح إلى أن يكون قادراً »[6] ، ومنه التدرّج الوارد في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ

(١) الشرقاوي : بلاغة العطف ، ص ١١٣ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٦٢
(٣) أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٢٧٥ .
(٤) سورة النور ، الآية ٣٠ .
(٥) سورة النور ، الآيات : ٣٣
(٦) الجدير بالذكر أن الزمخشري كان قد أشار بألمعيته إلى هذا المعنى ، للمزيد انظر : الكشاف ٣/ ٦٥ .

بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1] الآية ، حيث سيأتي الحديث عنها .

ومن المواضع التي يظهر فيها المعنى النفسي : تقديم ذكر السارق على السارقة في قوله تعالى من سورة المائدة : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[2] بينما تقدّم ذكر الزانية على الزاني في آية النور في الآية : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[3] يدل على أن التقديم روعي فيه مسألة الاستعداد النفسي . فاستعداد الرجل النفسي للسرقة أوضح ، أما في الزنى فالمرأة هي التي تطمع الرجل فهي الأصل .

تقديم الأسرع وروداً إلى النفس ، منه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[4] ، قدم الشكر على الإيمان ، قال الزمخشري : « وقدم الشكر هنا على الإيمان ، لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع ، فيشكر شكراً مبهجاً ، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ، ثم شكر شكراً مفصلاً ، فكان الشكر متقدماً على الإيمان ، وكأنه أصل التكليف ومداره »[5] .

ونلحظ أن التعبير القرآني يعمد في بعض الأحيان إلى ترك ترتيب الجمل ، وذلك بقصد تصوير اضطراب النفس ، فيكون عدم الترتيب هذا منبئاً عن اضطراب النفس المحكي عنها ، أو مصوراً حالة الفوضى التي تعيشها ، وهي حالة عدم الاستقرار ، وبالتالي تكون هذه الجمل معبرة عن تلك الحالة ، من ذلك ما في قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[6] ، فكان الإحساس بالتفريط أولا ، ثم طلب الهداية ، ثم تمني العودة .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية١٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٣٨ .

(٣) سورة النور ، الآية٢ .

(٤) سورة النساء ، الآية١٤٧ .

(٥) الزمخشري : الكشاف ، ١/ ٥٧٥ .

(٦) سورة الزمر ، الآية ٥٦ـ٥٨ .

إذ هذا الاضطراب يحكي لنا التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعليل بفقد الهداية ثم تمني الرجعة[1] .

مما تقدم نلمس أن هذا الأسلوب يقف بنا على كثير من الأبعاد النفسية التي تكمن وراء الألفاظ القرآنية . بل أحياناً نجد أن هذه المعاني النفسية لا غير هي السبيل الوحيد لحل المشكلات عند المفسرين .

المبحث الرابع
الحذف والذكر وجوانبهما النفسية

يعتبر الحذف والذكر من أدقّ مسالك البلاغة وأساليبها ، وهو أسلوب من أساليب البلاغة نحتاج إليه كلما كنا في غنى عن الكلمة ، ولدقته وتداخل مسائله فسوف يكثر الباحث من أمثلته ، عساها تغطي أغلب جوانبه[2] .

قال الجرجاني في الحذف والذكر : « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن »[3] .

والتعبير القرآني يستخدم هذا بأسلوب بديع ، إذ بالحذف يزداد جمالاً ، وهذا الحذف تراعى فيه أحوال وأوضاع المخاطبين ، وتظهر فيه معان نفسية كثيرة ، فمثلاً قد يقال لشخص ما (ألا تجلس معنا) فيقول : (مشغول) ، فكأنّ هذه اللفظة عبّرت عن ضيق المقام[4] .

---

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف ، تح : القمحاوي ، ٣/ ٤٠٤ ، وسيأتي تفصيل الآية في باب الفصل والوصل .

(٢) ينبغي التنبه إلى ما بين الإيجاز والحذف من اشتراك في الحديث ، خاصة في هذه الدراسة ، إذ كل منهما يعني : اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل ، انظر : العلوي : الطراز ، ٢/ ٨٨ .

(٣) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ١٢١ .

(٤) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ٢٦١ .

اختلاف المقام قد يقتضي أحد الأمرين الذكر أو الحذف ، وأمثلته في كتاب الله كثيرة ، والحديث سيشمل جانبيه : الحذف والذكر ، على النحو الآتي :

المطلب الأول : الحذف أشكاله وأمثلته :

للحذف أشكال كثيرة : أحياناً يحذف المسند إليه ، وأحياناً المسند ، وأحياناً الفاعل ، وأحيانا المفعول به ، وتارة يحذف الفعل ،وتارة يحذف جواب القسم ، وتارة يحذف جواب لو ، وأحيانا يحذف ما يأتي بعد فاء الفصيحة ، و. . ، وكل ذلك فيه أسرار بلاغية ومعان نفسية[١] .

أمثلة :

قوله تعالى : ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[٢] . أي : أنا عجوز عقيم ، ، فسّرتها الآيات في مواضع أخرى : ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾[٣] .

وقد يحذف الحرف ، وقد يحذف الفعل ، وقد يحذف الاسم ، فمن حذف الحرف قوله تعالى على لسان العبد الصالح عليه السلام : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[٤]، فحذف حرف التاء من لفظ « تسطع » يشير إلى ملحظ نفسي : إذ بعد أن فسّر لموسى عليه السلام أسباب ما فعله في رحلته ، بدت واضحة في ذهنه بعد أن كان فهمها ثقيلا عليه فناسب حذف ذلك الحرف خفة .

---

(١) ربما يكون من أجود من حاول تصنيف الأبواب التي تندرج تحت هذا المطلب هو العلوي ، حيث سيوجز الباحث عناوين تلك التقسيمات في الآتي : الحذف نوعان : أولا : في الجمل ،وهو على أضرب : حذف الأسئلة المقدرة ، الحذف من جهة السبب ، الحذف الوارد على شريطة التفسير ، وما ليس من قبيل الاستئناف ، ثانيا : حذف المفردات : حذف الفعل ، الفاعل ، المفعول به ، حذف بالإضافة ، حذف الموصوف ، حذف الحروف ، حذف الأجوبة ، حذف ما يكون معتمدا للجزءين كالقسم والشرط ، حذف المبتدأ وخبره ، العلوي : الطراز ، ٢/ ٩٣-١١٩ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة هود ،الآية٧٢ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٨٢ .

ومن ذلك : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1] و﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2] . فكأنّ حذف النون من لفظ « تك » في آية النحل تشير إلى ضرورة إزالة وحذف الضيق من النفس ، وذلك منسجم مع الآية في سياقها ، إذ تخفيف الفعل بالحذف فيه إشارة إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النفس ، بخلاف الثانية فقد جاءت على الأصل ، ومن المواقع التي يؤدي فيها حذف الحرف من الكلمة دوراً نفسياً بديعاً قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾[3] ، قد يكون من معاني حذف النون التنبيه على مبدأ الشيء وحقارته وصغر قدره ، فهي بهذا تضيف بعداً نفسياً يجعل السامع يتحلى بهذه الصورة . فعلى الأغلب أن حذف النون من مضارع (كان) المجزوم يأتي لغرض بلاغي ، فقد يقال في الموقع المتقدم : إنه يدل على أن الشيء وإن كان صغيراً حقيراً إلا أن له دوراً في حياة الإنسان ، ومثله قوله تعالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾[4] فهي تدل على القليل والتناهي في الصغر ، وكذا يمكن أن يقال في بقية المواضع التي حذف فيها النون من تكن .

ومن ذلك حذف ياء المتكلم في مواطن ، وذكرها في مواطن أخرى ، أما المواطن التي حذفت فيها الياء واجتزئت فهي إشارة إلى الوجازة في الكلام ، وأما المواطن التي ذكرت فيها الياء فهو مقام إطالة وتفصيل[5] ، مثاله ما بين الآيتين الآتيتين : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[6] وقوله تعالى ﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[7] ، انظر كيف حذفت الياء من لفظ : « كيدون » في آية الأعراف ، أما الآية التي في سورة هود فالمقام فيها مقام تحدّ كبير ومواجهة ، فكان في الحرف إشارة إلى أن هودا عليه السلام أظهر نفسه زيادة في التحدي ، إذ المتحدي لا بد أن يظهر نفسه ، بخلاف التي في الأعراف إذ ليس فيها تحد ، كما أنّ الملاحظ أنّ الآية التي في سورة هود كثر فيها

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٧ .
(٢) سورة النمل ، الآية ٧٠ .
(٣) سورة القيامة ، الآية ٣٧ .
(٤) سورة لقمان ، الآية ١٦ .
(٥) السامرائي : التعبير القرآني ، ص ٨٠ .
(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٩٥ .
(٧) سورة هود ، الآية٥٥ .

المؤكدات ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[1] فقومه لم يكتفوا بردّ دعوته وعدم التصديق بها ، ولذلك جيء بلفظ (جميعا) زيادة في التحدي فجاءت الياء زيادة في التحدي[2] ، وناسب طول الياء طول التحدي ، كما أن الياء في الآية ذكرت كثيراً ﴿ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾[3] .

أمر آخر وهو متعلق بمبحث الفصل والوصل لكن يشار إليه هنا لكونه ضروريا في فهم المغزى من الحذف : وهو أن الفاء في سورة الأعراف دخلت على نفي الإنظار ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ بخلاف التي في هود﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ والفاء تفيد التعقيب وهي ناسبت الجو النفسي السريع وغير ذلك ، أما في سورة الأعراف فالسياق يتحدّث عن تعجيل العقوبات الدنيوية . . »[4] ، والتي في هود فسياقها الإمهال في إيقاع العقوبات[5] ، ومن هذا الباب : ﴿ أَخَّرْتَنِ ﴾ و﴿ أَخَّرْتَنِيٓ ﴾[6] ، ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي ﴾[7] و﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾[8] ، توضيحه : أن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي ﴾[9] بينما في القصص ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾[10] ، المقام في آية القصص يعبِّر عن فرار موسى عليه السلام وخوفه من بطش فرعون ، والتجائه إلى ربه ، وهذا كله جو

---

(١) سورة هود ، الآية ٥٤ .

(٢) السامرائي : التعبير القرآني ، ص ٨١ .

(٣) سورة هو ، الآيات ٥٤-٥٦ .

(٤) انظر الآيات ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ، سورة الأعراف ، الآية ٤ ، ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ، سورة الأعراف ، الآية ٩٥ حتى القصص منها في سورة هود ﴿ يُمَتِّعْكُم ﴾ ، ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا ﴾ .

(٥) للمزيد انظر : السامرائي : التعبير القرآني ، ص ٨١ .

(٦) دون الياء سورة الإسراء ، الآية ٦٢ ، وبالياء سورة المنافقون ، الآية ١٠ .

(٧) سورة الكهف ، الآية ٢٤ .

(٨) سورة القصص ، الآية ٢٢ .

(٩) سورة الكهف ، الآية ٢٤ .

(١٠) سورة القصص ، الآية ٢٢ .

يحتاج إلى بسط في الدعاء من جهة ، ثم اللجوء إلى من ينصره بكل أحاسيسه ومشاعره ، فكان إظهار الياء دلالة على كمال الالتجاء وإلقاء النفس كلها أمام خالقها[1] ، أما التي في الكهف فالمقام يختلف ، والحذف ملحوظ في آيات سورة الكهف (« المهتد » ، « ترن » ، « انا » ، « لكنّا » ، « يؤتينِ » ، « تعلمن » ، « نبغ ») ، فكأنّ في ذلك إثارة نفسية ، وهي أن الآيات ليس فيها بسط وإنما الإيجاز ، ومن ذلك : ﴿ نَبْغِي ﴾[2] ، ﴿ نَبْغِ ﴾[3] .

ثمة أمر آخر وهو أن آية القصص تقدّم فيها ذكر لفظة رب على الهداية لأن التعلق كله بالله فهو يفيد الاختصاص .

ومن ذلك : قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[4] ، وقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[6] ، فآية سورة البقرة وردت في سياق الخصومة والمحاجة والمحاربة وهذا يستدعي قدراً كبيراً من الخشية ، فهو متناسب مع جو الطول والبسط ، بخلاف آيات سورة المائدة .

م ن ذلك : قوله تعالى في سورة الصافات : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾[7] ، وفي موضع آخر من السورة نفسها : ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾[8] ، فانظر كيف أتي بضمير الجمع للمبصرين في الآية الأولى وحذفه من الثانية وهذا وراءه ملحظ نفسي لمن تأمّل .

أحياناً قد يكون الغرض من حذف المسند إليه[9] تعجيل مسرّة أو إخفاء أمر ما عن

---

(١) للمزيد انظر : السامرائي : التعبير القرآني ، ص ٨٤ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٦٤ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ٦٤ .
(٤) الآية ١٥٠ .
(٥) الآية ٣ .
(٦) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .
(٧) الآية ١٧٥ .
(٨) الآية ١٧٩ .
(٩) كحذف الخبر في الجملة الاسمية ، والفعل في الجملة الفعلية .

بعض السامعين أو مفاجأة لهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾[1] ، وقوله : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[2] ، إذ التقدير : هي النار ، ولا يخفى ما في التعبير من مفاجأة السامع .

ومن باب الحذف : حذف الفاعل ، وأكثر ما نجد هذا النوع في مشاهد يوم القيامة ، ويطلق عليه المبني للمجهول ، كما في الألفاظ : ﴿وَسِيقَ﴾ و﴿وَجِا۟ىٓءَ﴾ و﴿وَوُضِعَ﴾ و﴿وَنُفِخَ﴾ ، تأمل أواخر سورة الزمر ، ومن باب حذف الفاعل ما جاء في الآية : ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] ، فحذف الفاعل في هذه الآيات لعدم تعلّق الضرّ من ذكره ، فهي تصور حالة فزع نفسية يمرّ بها الإنسان ، إذ لا يهمه من يقوم بهذا الفعل ، والله أعلم .

ومنه ما ورد في الأنعام : ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4] ، و﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾[5] و﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[6] ، وفي سورة يونس : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[7] ، ففي الأنعام جمع بين علاقتي خطاب « التاء ، والكاف » ، قال أبو جعفر بن الزبير في توجيه ذلك : « الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المفيد لذلك تأكيد باستحكام الغفلة ، كما تحرك النائم باليد ، والمفرط الغفلة باليد واللسان ، وحذف الكاف من الآية في سورة يونس لأنه لم يتقدمها ذكر صم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب »[8] ، أحياناً نجد السياق

---

(١) سورة الحج ، الآية ٧٢ .
(٢) سورة غافر ، الآية ٤٦ .
(٣) سورة هود ، الآية٤٤ .
(٤) الآية ٤٠ .
(٥) الآية ٤٦ .
(٦) الآية ٤٧ .
(٧) الآية ٥٠ .
(٨) نقله الزركشي : البرهان ، ٤/ ص ١٥١ـ١٥٢ .

ينفي ذكر الفاعل عمن لا يستحقه ، كقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٤١﴾[1] ، الظالمين ، الكافرين ، مختال فخور ، ختار كفور . . .

أحياناً بقصد البيان بعد الإبهام (يحذف المفعول بعد فعل المشيئة بعد لو ، وبعد حروف الجزاء) كما في قوله تعالى : ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] و﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3] و﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[4] ، فمفعول المشيئة محذوف لدلالة ما بعده عليه ، كأنه قيل : (ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين ، ولو نشاء القول لقلنا ، ولو شاء ربك عدم فعله ما فعلوه) ، وقد يذكر مفعول المشيئة والإرادة وذلك في الأمور التي تكون مستغربة[5] ، مثل : ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾[6] فهو أمر مستغرب على الله عز وجل ، ومثله : ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧﴾[7] ، فانظر كيف كان الحذف مشيراً إلى تلك الأبعاد النفسية .

ومن أمثلة حذف المفعول : ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[8] . انظر كم مفعولا حذف؟! لم يقل يخشاني ، يتذكرني ، لا تخافا فرعون ، أسمع ما يقوله لكم وأرى ما يفعل ، هذا الحذف يملأ النفوس طمأنينة وثقة : « أسمع وأرى » إذن النفوس سوف تطمئن إلى شمولية هذا السماع وهذه الرؤية . وفي بعض المحذوف في الآية ما يعبّر عن الرهبة : « لا تخافا » ، فهو إشارة إلى أنه لا ينبغي أن

---

(١) كما في : سورة الأنعام ، ١٤١ ، الأعراف ، ٣١ وغيرها . ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ ، انظر : سورة آل عمران ، ٥٧ ، ١٤٠ ، وسورة الشورى ، الآية ٤٠ ، و﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ ، انظر : سورة آل عمران ، ٣٢ ، سورة الروم ، الآية ٤٥ ، وغيرها

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٤٩ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية٣١ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

(٥) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ٢٨٦ .

(٦) سورة الزمر ، الآية ٤ .

(٧) سورة الأنبياء ، الآية ١٧ .

(٨) سورة طه ، الآيات ٤٣-٤٦ .

يكون منهما خوف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[1] لم يقل أضحك قوماً ، وأبكى قوماً ، ولم يقل أمات قوما وأحيا آخرين ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ﴾[2] ، فكل ما يحذف جوابه يؤدي غرضاً نفسياً عظيماً إذ تذهب فيه النفس كل مذهب ، والنفس مجبولة على الخوف من المجهول .

قد يكون الغرض من الحذف كون المحذوف معلوماً لا يتصور غيره ويكون حذفه بغرض توجيه النفوس لإثبات الفعل للفاعل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[3] فقد حذف المفعول هنا في أربعة مواضع : « يسقون » « تذودان » « لا نسقي » « فسقى لهما »[4] ، فمعرفة السقي والذود خارج عن الغرض ، والغرض النفسي الذي يؤديه الحذف في هذا الموضع هو توجيه النفس إلى المقصود وإيقاظ الفكر ، وتنبيهها إلى حيث ينبغي من القصة ، ومن ذلك : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[5] ، ولم يقل قلاك ، قيل : حذف كراهة أن يقع القلي والبغض صراحة على ضمير النبي ﷺ[6] .

ومما حذف مفعولاه : ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[7] أي غشاها إياه وقد حذف المفعولان للتهويل والتفخيم ، حيث تذهب فيه النفس كل مذهب .

حذف الهاء من اسم الإشارة تارة واثباته تارة : كما في اللفظين : (هؤلاء) و(أولاء) ، واللفظين (هذا) و(ذا) ، فحيث قصد التنبيه جيء بالهاء وهذا ملحظ

---

(١) سورة النجم ، الآيتان ٤٣-٤٤ .
(٢) سورة فصلت ، الآية ٤١ .
(٣) سورة القصص ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ١٣٢ ، وانظر : الزمخشري : الكشاف ، تح : القمحاوي ، ٣/ ١٧٠ .
(٥) سورة الضحى ، الآية٣ .
(٦) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ٢٨٤ .
(٧) سورة النجم ، الآية ٥٤ .

نفسي ، فالهاء فيها زيادة تقريع وتنبيه ولوم من أجل الموعظة ، من ذلك : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾(1) ، و﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾(2) ، أما قوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾(3) ، فالموقف لا يحتاج إلى مزيد تنبيه ولوم وإدانة خطاب للمؤمنين ، وقد يحذف لغيابهم كقوله : ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾(4) ، ومن ذلك : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ ﴾(5) فالمقام مقام رحمة ، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾(6) ، مقام السياق ، وقد يقتضي زيادة التنبيه كما في سورة الملك : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾(7) .

ومن أبواب الحذف : حذف جواب القسم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾(8) و﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾(9) و﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾(10) ليس في المقاطع المتقدمة جوابٌ للقسم فهو محذوف ، هذا الحذف يبعث النفس على التفكير لتهتدي إلى الجواب ، وتظل النفس تتبع هذه الآيات يتلو بعضها بعضا تستوحي منه الجواب . كما أن فيه دلالة على مثوله في الذهن لشدة ما شغل النفس واستأثر بعميق تفكيرها ، فمن وظائف هذا النوع

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ٦٦ .

(2) سورة النساء ، الآية ١٠٩ .

(3) سورة آل عمران ، الآية ١١٩ .

(4) سورة طه ، الآية ٨٤ .

(5) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠ .

(6) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .

(7) سورة الملك ، الآية ٢٠ .

(8) سورة الفجر ، الآيات ١-٤ .

(9) سورة ق ، الآيتان ١-٢ .

(10) سورة النازعات ، الآيات ١-٥ .

فتح باب الترقي للخيال والتصور لتذهب النفس فيه كل مذهب .

ومن ذلك حذف جواب (لو ، لما ، لولا ، أما ، إذا) ، كما في الأمثلة الآتية : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] وقوله تعالى على لسان لوط عليه السلام : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[2] ، فانظر إلى إخفاء الجواب هنا حيث يشير إلى إخفاء أمنيّة تجول في نفس لوط عليه السلام ، حيث لا يستطيع أن يبديها لهم ، فانظر كيف كان الحذف مشيرا إلى هذا البعد النفسي ، فهو حريص على كتمانها ، ومنه : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[3] ، و﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾[4] ، و﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[5] .

ومن حذف جواب لولا ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[6] ، هذا الحذف يثير في نفوس الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، يثير في نفوسهم الرهبة من عذاب الله ، ومن ذلك حذف جواب لولا من قوله تعالى : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾[7] ، أي لولا تصفونني بالخرف وضعف الذاكرة لأخبرتكم عن شعوري بوجوده ، فحذف الجواب هنا كشف لنا عن حالة سيدنا يعقوب عليه السلام النفسية حيث كان راغباً في إخفائها حتى لا يتهم .

ومنه حذف بعض الحروف العاملة ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[8] ، والتقدير سنعيدها إلى سيرتها الأولى ، وهذا الحذف يدل على بعد

---

(١) سورة الأنعام ، الآية٢٧ .

(٢) سورة هود ، الآية٨٠ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٣٩ .

(٤) سورة سبأ ، الآية ٥١ .

(٥) سورة الرعد ، الآية ٣١ .

(٦) سورة النور ، الآية ٢٠ ، وانظر الآية رقم ١٠ من السورة نفسها .

(٧) سورة يوسف ، الآية ٩٤ .

(٨) سورة طه ، الآية٢١ ، ومنه ما في الآيات : ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ في سورة التوبة ، الآية ١٠٠ و« ما في السماوات والأرض » وغيرها كثير . =

نفسي وهو ضيق المقام فموسى عليه السلام خائف والمقام يقتضي الوصول مباشرة إلى ما يطمئنه .

ومنه حذف أحد التائين من الفعل : ﴿ تَظَٰهَرُونَ ﴾[1] ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾[2] ، ﴿ تَوَفَّىٰهُمُ ﴾[3] ﴿ تَعَاوَنُواْ ﴾[4] ﴿ فَتَفَرَّقَ ﴾[5] ، ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾[6] ، ﴿ تَنَٰزَعُواْ ﴾[7] ، ﴿ تَرَبَّصُونَ ﴾[8] ، ﴿ تَبَرَّجْنَ ﴾[9] ، ﴿ تَنَاصَرُونَ ﴾[10] ، ﴿ تَمَيَّزُ ﴾[11] .

ومن باب الحذف ما يسمّى بـ « الاحتباك »[12] ، وهو من ألطف أنواع الحذف « مأخوذ من الحبك « الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب » ، ومثاله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾[13] ، حيث تقديره : إن افتريته فعليّ إجرامي وأنتم براء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون ، ومثاله أيضاً : ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾[14] أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت .

ومن أمثلة الحذف ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾[15] والتقدير ذلك متاع

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٥ .
(٢) سورة الواقعة ، الآية ٦٢ .
(٣) سورة النساء ، الآية ٩٧ .
(٤) سورة المائدة ، الآية ٢ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .
(٦) سورة الأنفال ، الآية ٢٠ .
(٧) سورة الأنفال ، الآية ٤٦ .
(٨) سورة التوبة ، الآية ٥٢ .
(٩) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .
(١٠) سورة الصافات ، الآية ٢٥ .
(١١) سورة الملك ، الآية ٨ .
(١٢) ويقصد به : أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ويحذف من الثاني ما أثبت نظيره في الأول .
(١٣) سورة هود ، الآية ٣٥ .
(١٤) سورة آل عمران ، الآية ١٣ .
(١٥) سورة آل عمران ، الآية ١٩٦ .

قليل ، أما فائدة الحذف من الجانب النفسي فهي أن في هذا الحذف تحقيراً لهذا المتاع ، وصرفا للنفوس عن تمني مثل ما أوتي بعض الكافرين .

ومن صور الحذف ما يأتي بعد ما تسمى فاء الفصيحة[1] ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[2] و﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾[3] و﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾[4] أي فاضربوا الرقاب ضرباً ، وهذا الحذف يصوّر سرعة ذلك المشهد ، فجاء الحذف ملائماً ليعبّر عن تلك السرعة ، وأغلب أمثلة هذا النوع نجده في سياق القصة القرآنية ، وهو ما تم الحديث عنه بشيء من التفصيل في موضعه من الباب الرابع .

وظائف الحذف النفسية :

من وظائف الحذف : الإشارة إلى حجم الذيوع والانتشار (التفخيم والإعظام) كقوله : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[5] ، أي أهلها . وهذا يدل على مدى انتشار الخبر وذيوعه .

وقد يكون من وظائف الحذف التلطف في لوم النفس والترفق في تأديبها وتأنيبها كما في قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾[6] ، حيث أعاد الضمير مؤنثاً على التجارة ، ولم يعده على اللهو : « انفضوا إليه » ، وذلك ترفقاً في تأديبهم وتلطفاً في تقريعهم وتخفيفاً من وخزات تأنيبهم ، فالحقيقة أنهم لم يقصدوا الانفضاض عن رسول الله ، بل ما جبلت عليه النفس من غريزة حب المال وحب البقاء وهذا علاج نفسي[7] .

---

(١) وهي التي تفصح عن وجود كلام محذوف في الجملة .
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٦٠ .
(٤) سورة محمد ، الآية ٤ .
(٥) سورة يوسف ، الآية ٨٢ .
(٦) سورة الجمعة ، الآية ١١ .
(٧) جعرابه ، عبد الحميد محمد ندا : المدخل إلى التفسير ، (القاهرة : مكتبة الزهراء ، ط ١ ، ١٩٩٦م) ، ص ٤٨٦ .

قد يكون من وظائف الحذف مراعاة حال النفس في محنتها وشدتها ، إذ النفس مجبولة على اختصار الكلام والحديث عندما تصاب بكرب ، إذ من طبعها أنها تعاف طول الكلام في هذه اللحظات ، ولا تقوى على بسط الكلام ، فكأنّ السياق القرآني يحذف من الكلام مراعاة لحال النفس[1] . انظر كيف أن الحذف في المقطع الآتي يصور لنا حال يعقوب عليه السلام حيث تفجّعت نفسه على يوسف فحذف أكثر من جملة : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[2] إذ أصل الكلام : تولى عنهم وانصرف بعيداً وراح يبكي ويشكو إلى ربه . .

أما عندما تكون النفس في حالة استئناس فيبسط لها الكلام[3] ، من ذلك قوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[4] ، انظر كيف دخلت النونان وما دورهما!

أحياناً يعبّر الحذف عن مدى المسرّة والابتهاج فيكون رسالة نفسية تؤدي هذا الدور ، من ذلك : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5] ، كأنّ اللفظ لا يستطيع وصف ما أصاب إبراهيم وابنه ـ عليهما السلام ـ من المسرة فكان الحذف معبّرا عن ذلك ، وقد يؤتى بالحذف ليعتمد على ذكاء القارىء فيستنتج من الجمل ما سكت عن ذكره ، وهذا قد يدخل في الإيجاز .

ومن وظائف الحذف تصوير سرعة الاستجابة ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾[6] إذ حذف الواو في الآية(سندعو) يدل على سرعة الفعل وإجابة المدعو وقسوة البطش ، ومثله : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾[7] يدل على سرعة محو الباطل ، والآية التالية تصور نفسية الإنسان

---

(١) كما تقدم في سورة النحل ، الآية ١٢٧ . وسورة مريم ، الآية ٢٠ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٨٤ .
(٣) جعرابة : المدخل إلى التفسير ، ص ٤٨٧ .
(٤) سورة يونس ، الآية ٩٤ .
(٥) سورة الصافات ، الآيات ١٠٣ـ١٠٥ .
(٦) سورة العلق ، الآية ١٨ .
(٧) سورة الشورى ، الآية ٢٤ .

في تعجله العذاب : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾[1] ، حيث حذف الواو .

أحياناً يحذف الشيء من الكلام دفعا للسآمة ، لأن ذكره يبعث في النفس السآمة والملل لشدة وضوحه ، ومن ذلك حذف ضمير الوصل (هو) أو (هي) ، كما في : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾[2] ، و﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾[3] ، إذ المعنى : (هو لا ريب فيه) ، و(هي نار حامية) ، وكثير في القرآن من هذا الباب .

ولعل أبرز الملاحظ النفسية يمكن تلمسها عدم استساغة النفس وجه المقارنة ، وهو ما نلمسه في الآيات التي تحدث نوعاً من المقارنة بين فريقين : فتأتي بوصف أحد الفريقين ، ثم تحذف ذكر الفريق الآخر ، وذلك أن النفس الإنسانية لا تستسيغ وجه المقارنة لما بينهما من بون ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[4] ، انظر كيف أنه عدل عن ذكر الفريق الثاني عند عقد الموازنة بين من هو على نور من ربه ومن هو قاس القلب ، وذلك أن النفس لا تستسيغ ذكره حتى في معرض الإنكار[5] ، ومنه : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ ﴾[6] ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ ﴾[7] ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[8] .

وقد يؤدي الحذف دوراً نفسياً فيصوِّر لنا بهذا الحذف مدى إهمال المحذوف وعدم

(١) سورة الإسراء ، الآية ١١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢ .
(٣) سورة القارعة ، الآيتان ١٠-١١ .
(٤) سورة الزمر ، الآية ٢٢ .
(٥) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ١٢١ .
(٦) سورة الرعد ، الآية ٣٣ .
(٧) سورة الزمر ، الآية ٩ .
(٨) سورة الزمر ، الآية ٢٥٤ ، ومن ذلك أيضاً ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ سورة فاطر ، الآية ٨ . =

الاهتمام به من قبل من ألقي إليه ، فيأتي الحذف ليصوِّر أنه كما كان القول مضمراً في واقع المرء هذا ؛ فكذلك قد أضمر في الجملة التي تعبّر عنه ، من ذلك : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾[1] ، أي قيل لهم : لقد جئتمونا . فنرى أن لفظة قيل لهم قد اضمرت في الحديث ، فهي تصور لنا أنهم ـ أيضاً ـ أهملوا هذا القول وأضمروه في أنفسهم ، ولم يكن له على واقعهم أي أثر فكأنهم سمعوا وما سمعوا . . ، ومثل ذلك يمكن أن يقال في الآيات : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[2] ، هم عرضوا فسمعوا .

ومن وظائف الحذف تلهف المدعو ، ومثاله حذف يا الإضافة في لفظ « رب » ، حيث وردت قرابة سبعين مرة في القرآن دون الياء ، فكأن التخفيف يشير إلى هذا البعد النفسي ، فهو يعبر عن تلهف المدعو على تحقق ما يدعو به[3] .

ومما يدخل في باب الحذف ما يعرف بالترخيم[4] حيث يسمى بـ« حذف الاقتطاع » ، وليس في القرآن منه إلا ما ورد في بعض القراءات الشاذة : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[5] قرىء : « يا مالُ »[6] ، ولعله يقال في توجيه القراءة أنه تعبير عن مدى التفجّع الذي أحلّ بهم ، فأهل النار لشدة ما هم فيه عجزوا عن إتمام الكلمة فخرجت معبرة عن الضيق الذي يواجههم حيث يصعب عليهم النطق كاملاً[7] .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٤٨ .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٢٠ .

(٣) للمزيد انظر : طبق ، عبد الجواد محمد : دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية ، (القاهرة : دار الأرقم ، ط ١ ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م) ، ص ٢١٦ .

(٤) وهو حذف بعض المنادى لأغراض عدة .

(٥) سورة الزخرف ، الآية ٧٧

(٦) نقل القرطبي عن مجاهد قوله ، وجدناه في قراءة عبد الله (يعني ابن مسعود) . القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١١٦/١٦-١١٧ . وذكر الشوكاني : أن الترخيم قراءة علي وابن مسعود ويحي بن وثاب والأعمش ، الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٣ ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م) ، ٥٦٥/٤ .

(٧) بتصرف أبو شادي ، مصطفى عبد السلام : الحذف البلاغي في القرآن الكريم (القاهرة : مكتبة القرآن ، د . ط ، ١٩٩٢م) ص ٨٤ .

الأهداف التربوية والنفسية للحذف

بعد الذي تقدّم من الأمثلة يمكن تلمّس الجوانب النفسية ، لهذا والبحث عن الأهداف التربوية والنفسية للحذف :

بمثابة الأسئلة التي يلقيها المعلم مع تلاميذه أثناء الدرس لتجدد نشاطهم ولينبههم إن كانوا غافلين » ولعل هذا هو سرّ كثرة ورود هذا الأسلوب في القرآن الكريم .

والحذف أسلوب يحقق أهدافاً نفسية وأخرى تربوية :

أما الهدف النفسي : أن الذي يقرأ القرآن ، أو من يستمع إليه ، كلما مر بموضع من مواضع الحذف تضاعفت يقظته إن كان يقظاً ، وتنبه إن كان غافلاً . بحيث تقوم هذه المواضع بمثابة تجديد النشاط كلما فتر[1] ، وأما الهدف التربوي ـ وقد أشار إليه الزركشي[2] ـ بقوله : « زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف ، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد وأحسن » ، جعل المتلقي إيجابيا مع ما يقرأ أو يستمع إليه ، فالمرء حين يبحث بنفسه عن الجواب يكتسب المعنى في ذهنه ثباتاً واستقراراً فلا يتطرق إليه النسيان ، وهو أصل من أصول التربية الحديثة[3] ، قد يدخل في هذا الباب » الحذف في القصة القرآنية » ، لكن سيكون الحديث عنه في الباب الرابع عند الحديث عن القصة من الناحية النفسية .

المطلب الثاني : الذكر أسبابه وأمثلته

الذكر هو الأصل ، قد يخطر في الذهن أن عدم الذكر (الحذف) أبلغ من الذكر بسبب وضوح المذكور ، إلا أن القرآن يذكر المعاني المعلومة في الذهن ، وقد يكون وراءها ملاحظ نفسية ، نذكر بعضها ثم نشير إلى ما يصلح أمثلة لذلك ، فمن الأسباب النفسية للذكر : إزالة اللبس والإبهام ، تأكيد الشيء في الذهن ، تعظيمه ، التهويل ، التحقير .

---

(١) أبو شادي : الحذف البلاغي في القرآن الكريم ، ص ١٥٢ .
(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ٣/ ص١٠٥ .
(٣) أبو شادي : الحذف البلاغي في القرآن الكريم ، ص ١٥٦ .

لعل أهم الأسباب التي تكون وراء ذكر المعلوم هو إزالة اللبس والإبهام عن المتحدث عنه ، وتأكيده من جهة أخرى ، هذا ملحظ مرتبط بالجانب النفسي ـ كما هو ملاحظ ـ فعندما يؤكد عليه يكون ذلك أدعى عند النفس ، مثاله : قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾[1] ، يستقر في النفس مرتبطا بخبره ، وقد يكون للتعظيم كما في بعض ما تقدم من الأمثلة ، وأحياناً للتهويل ، كما في قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ، بينما يكون أحياناً للتحقير والازدراء ، كما في : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[2] .

ولعل أبرز ملحظ نفسي نجده في ذكر المعلوم ، الآية التالية : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾[3] ، وهذا يفسر ما كان يشعر به موسى عليه السلام في نفسه عندما وجدها فرصة للحديث مع ربه ، إذ المقام يطيب فيه الحديث[4] ، ويحلو فيه التفصيل ، وإلا فموسى عليه السلام يعلم علم اليقين أن الله عالم بكل ما قال ، فتحسن الإطالة مع ذوي الفضل والله أعلم . ومنه : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[5] ، انظر اللطيفة وراء ذكر لفظ الجلالة الله بعد الوعد إذ فيه ضمان لتنفيذه ، كما يذكر للتصوير الباعث على الرهبة . ومنه ما بين الآيتين : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[6] المقصود به التأخير بالمؤاخذة لا التأخير الجسمي ، ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[7] لأن هذا تأخير جسمي في الدنيا الظاهرة[8] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٥ ، ومثلها : و﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، سورة القدر ، الآيتان ٢ـ٣ و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .

(٢) سورة البقرة ، الآية١٣ .

(٣) سورة طه ، الآية ١٨ .

(٤) عباس : البلاغة فنونها وأفنانها ، ١/ ٢٥٢ .

(٥) سورة النساء ، الآية٩٥ .

(٦) سورة الإسراء ، الآية ٦٢ .

(٧) سورة المنافقون ، الآية ١٠ .

(٨) الزركشي : البرهان ، ، انظر : عبد الجواد : دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية ، ص٢١٦ .

وقد يكون للذكر زيادة تثبيت للمعنى في النفس ، من ذلك : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾[1] ، فانظر إلى لفظة « لهم » وقد ذكرت مرتين كيف أنها تثبت معنى في النفس قوياً وهو كمال الجزاءين .

ومن المواقع التي يكون الذكر فيها معبراً عن معنى نفسي ، قوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[2] إذ قد يُظنّ أن مجرد ذكر ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ كان يكفي للتعبير عن ذلك ، إلا أن لفظ ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ ﴾ أطلعنا على ذلك الجهاد النفسي الذي كان يعيشه من أجل الكتمان ، وهو أمر شاق ، فكانت جملة ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ ﴾ جاءت لتؤدي رسالة نفسية ، وهي أنه مع مشقتها على النفس إلا أنه لم يبدها لهم ، والله أعلم .

وقد يشير المذكور إلى غباوة من يحاورهم ، كما هو الشأن مع قوم إبراهيم عليه السلام في حواره معهم : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[3] ، فلو كان الجواب « بل هذا » لكان يكفي ، لكن ذكره دلّ على غبائهم ، ففي التعبير زيادة تقريع عساهم أن يفكروا بشيء من العمق في المسألة ، وهو ملحظ نفسي ، إذ في الحذف تعويل على ذكاء المخاطب ، ولهذا كما قيل : إن الله إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً »[4] .

ومن ذلك : ذكر لفظ « أنْ » المخففة بعد « لما » ، تأتي لتعبّر عن بعد نفسي مثل : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[5] ، دخول أنْ بعد لما في هذا الموضع يشير إلى طول الزمن وتباعد المدة لأن (أن) يفيد التراخي ، ومنه : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾[6] دخول أن هنا تشير إلى أن موسى عليه السلام لم يكن

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤١ .

(٢) سورة يوسف ، الآية٧٧ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٦٣ .

(٤) قاله أبو هلال العسكري .

(٥) سورة يوسف ، الآية ٩٦ .

(٦) سورة القصص ، الآية ١٩ .

مندفعاً هذه المرة للبطش بالقبطي كالمرة الأولى التي وقعت له فجأة ، فهي تصور لنا حالة التريث والتمهل الذي عاشه موسى عليه السلام في هذه اللحظات ، وكأنها تشير إلى الفاصل الزمني ، ويدل على ذلك قوله لصاحبه قبلها ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾[1] .

ومن لطائف الباب ما بين الآيتين ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[2] . أما بعدها ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[3] الأولى لم يذكر فيها المؤمنون لأنها عن المنافقين ، ولا يطلع على ما في ضمائرهم إلا الله ، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليهم .

ومنه ذكر لفظة القلب في قوله : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾[4] ، إذ لم يكتف بلفظة آثم لأن الشهادة محلها القلب ، وكتمانها هو أن يبقيها في قلبهن فنسب الإثم إلى القلب[5] .

المطلب الثالث : وضع المظهر موضع المضمر في باب الحذف والذكر

ويطلق عليه : خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر .

قال أهل اللغة : الأصل ألا يذكر الضمير إلا سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحاً ، لكن قد يبنى من الأساليب على خلافه ، فيذكر الضمير ليفسر بمتأخر عنه في بعض صور الكلام ، إما لوضوح المعنى أو اعتماداً على فهم السامع ، وقد يفسر الضمير بمتأخر عنه ، (يذكر الضمير ويفسر) ومثل هذا الأسلوب له مذاق حسن ووقع جميل ، لأن الضمير حين يطرق النفس من غير أن يكون له عائد يعود عليه يصيّرها إلى حالة من الغموض والإبهام ، مما يجعل النفس تتشرف للتعرف على ما غمض ، فإذا جاءت الجملة مفسّرة تمكن كمعناها ووقع في القلب موقع القبول ،

---

(١) سورة القصص ، الآية ١٨ . السامرائي : التعبير القرآني ، ص ١٠٧ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٩٤ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٥ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٨٣ .
(٥) انظر : الزمخشري : الكشاف ، ١/ ٣٠٧ .

ومثل هذا الأسلوب يستخدم مع المعاني المهمة التي تهيأ النفوس لتلقيها[1] .

أمثلة : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[2] ، ضمير الشأن والقصة هيأت النفس لتلقي هذا المعنى الجليل الذي يفسّر موقف العقول المنكرة من الأدلة البينة . ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[3] .

ومن باب وضع الظاهر مكان المضمر ، قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[4] ، انظر كيف أعيد ذكر (الذين ظلموا) ، وقد كان يمكن أن يقال (عليهم) ، هذا الأسلوب أصل من أصول البلاغة العربية ، من ذلك : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[5] ، أعاد ذكر لفظ الجلالة ليربى في النفوس المهابة ، ويتمكن في النفوس ، والكلمة أكبر أثراً ووقعاً في النفوس من الضمير العائد إليها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[6] ، فإعادة اللفظة لها قدرة على إثارة الخواطر والنهوض بالضمائر .

المبحث الخامس
الفصل والوصل

المطلب الأول : توضيحه وبيان وجه الأهمية فيه وجوانبه النفسية

عني البلاغيون بمبحث الفصل والوصل عناية خاصة لما له من أهمية ، « وقد سئل بعض البلاغيين عن البلاغة فحدّها بمعرفة الفصل والوصل ، وجعل ما سواه تبعا له ومفتقرا إليه »[7] فهو لا يعنى فقط بالربط بين المفردات ، وإنما يبحث عن الجمل بعضها مع بعض ، وأهمية هذا المبحث تظهر من حيث إنه أمر يتعلق بالمعنى ،

---

(١) انظر : أبو موسى : دلالات التراكيب ، ص ٢٤٢ بتصرف .
(٢) سورة الحج ، الآية ٤٦ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٤٥ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٥٦ .
(٥) سورة الإخلاص ، الآية ٢ .
(٦) سورة الإسراء ، الآية ١٠٥ .
(٧) العلوي : الطراز ، ٢/ ٣٢ .

والمعنى تابع لما في النفس ، فهو مبحث دقيق يعين على إبراز الكثير من الجوانب النفسية من خلال هذا الأسلوب .

وربما نسوق هذه الحادثة لتشير إلى أهمية الفصل والوصل ، فقد روي أن رجلاً قال لأبي بكر : « لا ، عافاك الله » فقوّم له ذلك ، وقال : قل : لا وعافاك الله »[(١)] ، فهذه الحادثة تبرز أهمية الفصل وضرورة العلم بمواضع الفصل والوصل ، من أهم موضوعات البلاغة العربية اهتماماً بالأسلوب وترتيبه وتمثيله للأداء النفسي ، فالوصل : اشتراك الجمل المتعاطفة في الحكم العام والمعنى المراد ، والفصل : عدم الاشتراك في الحكم العام .

فالفصل والوصل : هو العلم بالمواضع التي تقتضي العطف أو تركه عند عدم الحاجة إليه ، فالفصل : قطع معنى عن معنى بأداة لغرض بلاغي ، والوصل : ربط معنى بمعنى بأداة لغرض بلاغي[(٢)] .

نلحظ أن الغرض البلاغي هو الذي يفصل في مسألة الفصل والوصل ، ولما كان الغرض البلاغي تابعاً للمعنى النفسي كان هذا الأسلوب تابعاً للمعنى النفسي للمتحدث ، إذ تتحقق البلاغة في (الفصل والوصل) في أسمى درجاتها لارتباطه بالأداء النفسي[(٣)] .

الجانب النفسي في الفصل والوصل

تكلم علماء البلاغة عن الدور النفسي الذي يلعبه أسلوب الفصل والوصل ، مشيرين بذلك إلى أنه يستخدم ليعبِّر به المرء عن مكنونات النفس ، ففي الفصل مثلاً

---

(١) « سأل أبو بكر الصديق رجلاً : أتبيع هذا الثوب ؟ قال : لا عافاك الله ، فقال أبو بكر : لقد علمتم لو كنتم تعلمون قل لا : وعافاك الله » . انظر : الجاحظ : البيان والتبين ، ١/ ١٤٢ . ولم أعثر عليه في كتب الآثار ، لكن استشهد به شارح عون المعبود ، انظر : العظيم الآبادي ، محمد شمس الحق أبو الطيب : عون المعبود في شرح سنن بي داود ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، ١٤١٥هـ) ، ١٣/ ٩٣ .

(٢) سلطان ، منير : الفصل والوصل في القرآن الكريم ، (مصر : دار المعارف ، د . ط ، ١٩٨٣م) ص ٣٧ .

(٣) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ١٧٥ .

تقطّع الجمل بما يلائم الشعور النفسي أو الخفي لدى المتكلم ، بحيث يسمح للقارىء أو السامع بالارتياح النفسي تجاه هذا التقطيع ، وقد فصّل علماء اللغة مواطنه ، وما يهمنا من ذلك هو أن بين هذه الجمل علاقات نفسية خفية[١] . وفي الوصل مثلاً : نجد أن المشاركة الإعرابية هي جزء من الدلالة النفسية ، فالعطف وعدمه ظاهرة لغوية لنشاط نفسيّ وفعالية عميقة عند المتكلم ، وهذا هو السرّ في اعتبار الفصل والوصل من أهم مقومات البلاغة العربية ، إذ بهذا الأسلوب تتحقق حيوية الأسلوب وحقيقة العلاقة بين المفهوم والمنطوق والأداء النفسي للجمل والتعبيرات ، إذ هذا الاستخدام يرشدنا إلى الموقع النفسي لتلك الأساليب التي ينبغي الوقوف عندها[٢] ، بما تقدّم يتبيّن لنا أنّ الفصل والوصل صورة تعبيرية نفسية نستدل عليها من خلال هذا الأسلوب ، فتتلون الأساليب بألوان نفسية تجسّدها مناهج الجمال اللغوي ووسائله من استفهام وأمر وتعجب وألفاظ عموم وخصوص وجمل . .

ومن هنا نجد أنّ بعض الذين تكلموا عن هذا الأسلوب أشاروا إلى أنّ (الفصل والوصل) : « باب يتسع للدراسات البلاغية النفسية والجمالية اللغوية والمعنوية الفكرية »[٣] .

روي أن رجلا قال للحسن : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال : لا تقل هكذا بل قل : « لله ثم لوجوهكم » وآجرك الله[٤] .

القرآن الكريم في استخدامه لهذا الأسلوب يطلعنا على كثير من الجوانب النفسية التي يمكن لنا أن نتلمسها فقط من خلال دقة الاستخدام القرآني لهذا الأسلوب الدقيق ، وإن مبحث الفصل والوصل كثير التشعبات والتفصيلات مثل : (بيان مواضع الفصل ومواضع الوصل وبيان شروط العطف وعدمه ، وتتبع أحرف العطف ، وأدوات العطف ووظيفة كل أداة ، وغير ذلك . .) ، ولذلك فإن هذا البحث سوف يقتصر على ما يبرز الجوانب النفسية التي تظهر من خلال استعراض هذا الأسلوب ووروده في القرآن الكريم .

---

(١) للمزيد انظر : أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٤٢١ .
(٢) للمزيد انظر : أبو السعد : الأداء النفسي ،ص ٤٢٢ .
(٣) للمزيد انظر : أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٤٢٢ .
(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ، ١/ ١٤٢ .

فنحن في قراءتنا لآيات القرآن قد نقرأ مقطعا من الآيات دون وصل ، فنشعر أنها منفصلة ، وأحيانا قد نجدها موصولة بلا فصل ، تارة يحدثنا القرآن عن طائفة من المعاني ، ثم نجده ينتقل بنا إلى طائفة أخرى مقابلها ، فيكون الحسن من الناحيتين ، وملاك ذلك الأمر هو : « النظر إلى النظام المجموعي للسورة ، لو سئل المرء أين موقع الوصل ؟ لصعب عليه تحديده بقاعدة علميّة ، على أنه لو خلى نفسه ووجدانها ، واتصل بهذا الموضع تلاوة ، لأحسّ بروح الاتصال وحلاوة الانتقال قبل أن يهتدي لعلّة معينة »[1] .

وهكذا نجد أن القرآن في استخدام هذا الأسلوب : لا يثير فينا الجانب العقلي فحسب ، بل يثير فينا إضافة لذلك الجانب العاطفي ، فأسلوب الفصل والوصل يؤدي دورا كبيرا في الفهم ، وهذا كما ينطبق على الكلمة وعلاقتها مع أختها ، نجده ينطبق على الجملة مع أختها ، وعلى الآية مع أختها ثم القصة أو مجموعة من الآيات مع أختها ، إلى أن تكتمل فينتقل مجال بحثنا عن هذا الأسلوب ما بين السورة وأختها ، إلى أن نتلمس ذلك في القرآن كله ، انظر تجد أن هذا الأسلوب بمراحله جميعها يبرز تلك الجوانب النفسية ، فالفصل والوصل هذا في حقيقة الأمر أوسع وأشمل من المتعارف عليه عند أهل اللغة (مواضع العطف ومواضع تركها) ، إذ الفصل والوصل يعنى بالعلاقة بين السور والقصة وموضوعات السورة ، إضافة إلى تتبع حروف العطف وتلمسها في الاستخدام القرآني ، حرصاً من الباحث على جمع شتات الموضوع وإبراز جوانبه النفسية فإنه يجمله في النقاط الآتية :

* أسلوب الفصل والوصل يراعى فيه مقتضى حال المخاطب من الناحية النفسية والعلمية والذوقية .

* أحرف العطف جاءت في القرآن موزعة ، مرصّعة ، متلألئة الجمال في مواقعها ، بحيث نجدها تلعب في تعاقبها في ثنايا الجملة دوراً بارزاً في إظهار المعاني النفسية والمواقف المتصلة بها .

---

(١) أي الفصل والوصل ، انظر : دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، تح : الدخاخيني ، ص ١٩٥ـ١٩٧ .

* الاستخدام القرآني لأحرف العطف يؤكد لنا أن هذه المغايرة في استخدام الأحرف مقصودة ، وتحمل رسالة ، لعل من أبرزها الدلالة النفسية ، ولو لم يكن سوى أنها تقوم بوظيفة إيقاظ الذهن والتنبيه للسامع ، لكان ذلك كافيا في أداء هذه الوظيفة النفسية التربوية ، إذ النفس لا تملّ ، وتبقى مشدودة إلى أن هذه الأحرف لها أغراضها في إبراز المعاني .

* إن أكثر ما يمكن أن يتلمس فيه جمال المواقع النفسية لتعاقب حروف العطف في الجملة القرآنية هي الآيات المتشابهة ، إذ كثيراً ما نجد لهذا التغاير في الاستخدام القرآني لحروف العطف ما يدعو للتأمل ، بحيث يجعلنا نجزم بوجود سرّ ، قد يكون السرّ النفسي أبرز أسرار تلك المغايرة .

المطلب الثاني : أمثلة ونماذج قرآنية للفصل والوصل

يأتي حرف العطف تارة ليحمل لنا رسالة نفسية تهدف إلى ضرورة إبقاء العطف والحنان لدى فئة من الناس ، وأهمية وصلها وبقاء العلاقة موصولة بها ، وذلك من خلال أن هذه الفئات أينما ذكرت في القرآن فثمّ حروف العطف إذ لا تغيب عنها ، وقد تتبع الباحث بعض هذه الألفاظ التي تشكل الفئات المستضعفة في المجتمع وذلك مثل :

« اليتامى ، المساكين ، النساء » ، حيث وجد أنّ حروف العطف غالباً ما تحيط بالعبارات التي وردت فيها ذكر هذه الفئات ، ولعل في ذلك إشارة إلى حاجة هذه الفئات إلى العطف والحنان ، ومن ثم إلى إبقاء العلاقة موصولة بهم ، وقد يكون من المناسب هنا أن يشير الباحث إلى أن جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾[(1)] ، فقد وردت كثيرا في سورة البقرة ، ثلاثة مواضع منها اقترنت بالواو ، أي ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ، وهي على النحو الآتي : ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[(2)] و ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[(3)] و ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾[(4)] ، فالآية الأولى فيها ذكر لليتامى ، وتتحدث عن وجوب اعتزال اليتامى في

---

(١) وردت في القرآن أربع عشرة مرة ، منها سبع مرات في سورة البقرة .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢١٩

مسألة المال ، والثانية فيها حديث عن وجوب اعتزال النساء خلال فترة الحيض ، والثالثة جاءت عطفا على جملة يسألونك في الآية نفسها ، كأنّ حضور حرف العطف يحمل لنا رسالة نفسية واجتماعية في آن واحد ، فالآيات ـ وهي تحدثنا عن وجوب العزلة في شأن الفئات المستضعفة ـ كأنها تذكرنا بضرورة إبقاء العلاقات موصولة : فاليتامى ضعاف ، والنساء ضعاف ، والعزلة مخصوصة ينبغي أن تبقى محصورة في النطاق الضيق الذي بينته الآية الكريمة ، والله تعالى أعلم .

معروف أن حروف العطف التي كان لها استخدام في النسق القرآني كثيرة ، ومعلوم أن لكل حرف منها وظيفة ، فعلى حين نجد بعضها يستخدم مع المفردات دون الجمل ، نجد بعضها يأتي للربط بين الجمل والمفردات على حد سواء ، ولعل أدق هذه المسالك هو حرف الواو الذي كان أكثر حروف العطف ذكراً في القرآن الكريم ، يليه الفاء ، يليه ثم . .[١] ، إنّ ما يجعلنا نجزم بوجود سرّ في هذا الاستخدام هو ظهور بعض هذه الأحرف تارة واختفاؤه تارة ، إذ لا تستطيع أن تتلمس قاعدة منضبطة للاستخدام القرآني لهذه الحروف .

فتارة نجدها بين كل صفة[٢] ، وتارة تغيب[٣] ، وتارة تذكر وتحذف ، وقد يتوارد على الجملة القرآنية ثلاثة أو أربعة من أحرف العطف ، فهذه المواضع تحتاج إلى وقفة تأمل ، ويعنينا من ذلك ما كان فيه المدلول النفسي بارزاً ، فالله عز وجل قد صاغها لنا

---

(١) ورد حرف الواو في القرآن قرابة (٩٤٦٤) مرة ، بينما الفاء (٢٩٨٧) مرة ، أما ثم ف (٣٣٨) مرة ، أما أو فقد ورد (٢٨٠) مرة .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة الأحزاب ، الآية ٣٥ وقوله : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية ١٥ .

(٣) كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ، سورة التوبة ، الآية ١١٢ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ ، سورة التحريم ، الآية ٥ .

لندرك من خلالها تلك المعاني النفسية ، يبقى الكلام نظرياً يحتاج إلى أمثلة تدعّمه ، ولعل الباحث يوفق في اختيار الأمثلة التي تبرز جمال هذا الأسلوب النفسي .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾[1] ، لو تأملنا الآية الكريمة : الآية تصور لنا حال من يعرض عن آيات الله من خلال هذا الفصل : انظر كيف ركبت فيها الجمل بلا عاطف ، كأنها تصور لنا بهذا الفصل عدم تأثر النضر بهذه الآيات وعدم انتفاعه بها كأنها لم تصل سمعه ، وقد تكون أداة السمع لديه سليمة صحيحة إلا أن الآية ترقّت في النفس : ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ فكان عدم سماعه كمن لا يستطيع السماع مع إرادته ، وبهذا نلحظ أن المعاني هذه تتلاقى ـ كما يقال ـ عن طريق اللزوم والتداعي[2] .

وما دام السياق في معرض الحديث عن إعراض المشركين عن سماع الحق فمن الخير أن نسوق مثالاً آخر في هذا الباب ، يصور لنا ذلك المعنى النفسي الذي يعيشه الكافر في تلك اللحظات ، إذ نجد أحياناً أن القرآن يستثمر حرف العطف ويحشده في الآية ليعبّر عن تلك الحالة النفسية ، قال تعالى ـ على لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾[3] .

تأمل في حرف العطف الذي توارد على هذه الآية كيف حُشِدت ليصوِّر لنا المشهد النفسي لهؤلاء الكفرة ، وهم يستجمعون أقصى ما أوتوا من الطاقات والأدوات لعدم سماع دعوة نبيهم ، حتى إن شدة حرصهم على ذلك يصوِّرها لنا التعبير في أنهم لو كان بإمكانهم وضع أصابعهم في آذانهم والآذان يكفي في إغلاقها جزء من الإصبع ، فهذا حشد نفسي ، تجيء « الواو »[4] لتستجمع كل ما لديهم من طاقات في سبيل الحيلولة دون سماع الحق ، ولعل في اختيار حرف الواو دون غيره من حروف العطف ، ليصور

---

(١) سورة لقمان ، الآية ٧ .

(٢) دراز ، صباح عبيد : في البلاغة العربية « من أسرار الفصل والوصل » ، (القاهرة : مطبعة الأمانة ، د . ط ، ١٩٨٦م) ، ص ١٠٥ .

(٣) سورة نوح ، الآية ٧ .

(٤) ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ﴾ ، ﴿ وَأَصَرُّوا۟ ﴾ ، ﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ .

لنا أن هذه الصفات لا يترتب بعضها على بعض ، إذ كأنها تداخل بعضها في بعض ، وطويت في زمن واحد ، بل لحظة واحدة ، والله أعلم .

وقد يؤتى بحرف العطف (الواو) فيتقدم على لام التعليل ، وفي القرآن من هذا النوع كثير ، فيكون على إضمار فعل قبله ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ﴾[1] فكأنّ حرف العطف « الواو » دلنا على محذوف قبله ، وهذا له أثر نفسيّ ، إذ يمكن تقديره ، ويمكن تركه لتبقى النفس مشتاقة إليه ، فيكون الفهم في الآية المتقدمة كالآتي : (أذِن الله في قطع النخيل ليسرّ المؤمنين وليخزيِ الفاسقين) فانظر كيف كان الجزاء للمؤمنين من جهتين ، أنه أدخل السرور عليهم ثم ليخزي الفاسقين[2] ، وفي القرآن من هذا الأسلوب كثير[3] .

هناك موطن من مواطن الفصل ذكره علماء البلاغة ، وأطلقوا عليه « شبه كمال الاتصال » ، وهو ما يسمى بالاستئناف البياني ، هذا النمط يظهر فيه البعد النفسي واضحاً ، فالجملة الثانية فيه تكون بمنزلة المتصلة بالجملة الأولى ، وذلك أنها تأتي كأنها جواب لسؤال اقتضته الجملة الأولى ، والبديع في ذلك أن الالتحام بينهما واضح على الرغم من عدم وجود عاطف بينهما ، أما البعد النفسي في ذلك فيظهر من خلال أن هذا الأسلوب يجعل المخاطب مترقباً متلهفاً ، لمعرفة الغموض الذي أحدثته الجملة الأولى ، فهي غير واضحة تماماً ، بل إنها تحدث تساؤلات واستفسارات في نفس المتلقي ، وبذلك فهي تجذبه وتشركه في الصياغة حتى تأتي الجملة الثانية لتجيب عن السؤال ، وتكون بذلك أطفأت أشواق النفس وأشبعت تطلعه العاطفي إلى المجهول ، وبهذا تتحقق المتعة النفسية[4] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٥ .

(٢) السمين الحلبي ، شهاب الدين أبو العباس بن يوسف بن محمد : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، تح : علي محمد عوض ورفاقه ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، ٦/ ٢٩٤ .

(٣) للمزيد انظر : عضيمة : دراسات لأسلوب القرآن ، القسم الأول ، ٢/ ٤٩٠ وما بعدها . كما في الآيات في سورة البقرة ، الآيات ١٨٥ ، ٢٥٩ ، وسورة الأنفال ، الآية ١٧ .

(٤) دراز ، صباح : في البلاغة العربية ، ص ١١٦ بتصرف .

كما أن في هذا الأسلوب ملحظاً نفسياً آخر ، وهو افتراض أن يكون المخاطب هنا سريع الحركة ، كامل اليقظة ، فكان غياب الفاء وبقيّة أحرف العطف عن هذا الأسلوب بمثابة رسالة بين المخاطب والمتكلم ، طوى فيها حديث النفس ، وبقي أثر ذلك دالاً عليه في الفصل بين أقوال المتحاورين(١) .

أمثلة ذلك : المقاطع التي تشتمل على حوار ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٢) انظر كيف جاءت الآية التالية كأنها جواب عن سؤال نشأ في الذهن ، وانظر كيف التطلع إلى الجواب ، فنحن حين نسمع فرعون يقول : « وما رب العالمين » ، تتطلع نفوسنا لمعرفة الرد الذي كان من موسى عليه السلام على ذلك فيأتي قوله : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ فينشأ في الذهن سؤال آخر وتتطلع النفس إلى معرفة ما كان من فرعون بعده فيأتي قوله : ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ وهكذا ، حتى يكون في هذا إشباع لتطلع النفس وتشوقها لما يأتي فتنطفىء بذلك أشواق النفس وتتحقق المتعة النفسية ، وفي الباب من هذا آيات كثيرة(٣) ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ

---

(١) الخضري : من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم « الفاء وثم » ، (عابدين : مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٩٩٣م) ، ص ١٠٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٢٣-٣١ .

(٣) من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٦ ، وقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ ، سورة النور ، الآية ٥٥ . وقوله : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ ﴾ ، سورة النور ، الآية ٣٠ . وقوله : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ . . ﴾ ، سورة يوسف ، الآية ٥٣ . وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ . . ﴾ ، سورة النور ، الآيات ٣٦-٣٧ . وقوله : ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ ، سورة لقمان ، الآية ١٧ . =

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾[1] . تأمل موقع كلمة (النار) وكيف أنها جاءت جوابا عن استفهام حاد ، فيكون الإشباع النفسي قد تم بمجيء لفظ « النار »[2] .

وكقوله تعالى : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾[3] ، فقد خوطب الناس بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه[4] .

ومن باب الفصل والوصل ما نجده أحياناً في مطلع القصص القرآني ، فعلى حين نجد أن بعض القصص في السورة الواحدة يتخذ نسقاً ، نجد بعض القصص يخالف هذا النسق ، فتارة نجد مطالع القصص يكون بالواو : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾[5] ، بينما نجد أن حرف الواو هذا يختفي من المطالع في مواقع أخرى ، فنجد مثلاً : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾[6] .

كما أننا نجد أن التسلسل القصصي يتخذ نمطاً معيناً بلا فواصل ـ كما هو الحال في سورة (هود) ـ في حين نجده أحياناً يتبع بفاصل طويل كما هو الشأن في قصة موسى عليه السلام في سورة (الأعراف) ، إذ فصل بينها وبين قصص الأنبياء قبلها (نوح ، هود ، صالح ، وشعيب) ـ عليهم السلام ـ بفاصل[7] .

والتأمل في هذا يوصلنا إلى أن المعنى النفسي كان من أبرز هذه الأسرار لذلك التنوع في الفصل والوصل ، وقد يكون من الصعب تتبع مثل هذا الأسلوب في مثل هذا الموطن ، حيث يكتفى بالإشارة إلى هذا اللون ، لكن لعل في المثال التالي غناءً عن طول الحديث وكثرة الأمثلة :

= للمزيد انظر : الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٢٥٤ـ٢٥٥ .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٢ .

(٢) دراز ، صباح : في البلاغة ، ص ١٢٢ .

(٣) سورة الذاريات ، الآيات ٢٤ـ٢٨ .

(٤) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٢٥٤ـ٢٥٥ .

(٥) سورة هود ، الآية ٢٥ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ٥٩ .

(٧) يبتدىء من الآية ٩٥ وحتى الآية ١٠٢ .

تأمل الحديث عن الطوائف الثلاثة (المتقون ، الكافرون ، المخادعون) الذين ورد ذكرهم في مطلع سورة البقرة ، انظر كيف تم الانتقال من الحديث عن الطائفة الأولى (المتقون) إلى الحديث عن الطائفة الثانية (الكافرون) دون عاطف بينهما ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1] ولم يقل وإن الذين ، وقد يكون الملحظ في هذا من الوضوح إلى درجة لا يحتاج إلى بيان ، إذ ليس بين الفريقين أدنى نقاط للالتقاء ، فالفصل بينهما في العلاقة والولاء والاعتقاد ، وجاء الفصل ليعبر عن ذلك .

أما حينما انتقلت الآيات لتحدثنا عن الطائفة الثالثة (المنافقون) نجد أنه قد جيء بحرف العطف ليثبت دوره ، انظر كيف جيء بحرف العطف : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾[2] فهذا العاطف يؤدي دوراً نفسياً عميقاً ، فهو يرشدنا من جهة إلى أن المنافقين يشتركون مع الكافرين في كثير من الطباع ، ثم من جهة ثانية يرشدنا إلى أن الولاء بينهما موصول ، فالنفسية واحدة والهمّ واحد ، ثم من جهة ثالثة يحمل لنا هذا الحرف رسالة مؤداها أن المنافقين جبناء ، إذ هم لا يستحقون أن يفردوا بالقصة ، فهم يظهرون خلاف ما يبطنون ، فكان عطفهم على من تقدمهم ، ولولا حرف العطف لما اهتدينا إلى هذا البعد النفسي ، ورحم الله الشيخ دراز الذي أدرك بألمعيته هذا المعنى حين قال : « وبهذا يكون قد انضم الشكل إلى شكله ، وعطفت الطائفة الثانية على أختها لأنهم في التجافي عن الهدى مشتركون ، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم »[3] .

قد يكون في إغفال الترتيب في أحداث القصة القرآنية تلميحاً إلى أبعاد نفسية ، إذ كثيراً ما نجد أن القرآن يسرد لنا قصة من قصص الأقوام فيذكر لنا أحداثها ، في حين لا نجد تسلسلاً منطقياً ظاهرا لتلك الأحداث لأن العقل يحكم أحياناً بأن بعض الأحداث كانت متأخرة عن بعضها الآخر ، إلا أن السياق القرآني يأتي أحياناً بالأحداث المتأخرة فيحدثنا عنها أولاً ، ثم الأحداث التي سبقتها في الحدوث .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٨ .

(٣) دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، ص ١٦٦ .

ولعل أكثر ما نلمس هذا النمط في سورة البقرة وهي تحدثنا عن جنايات اليهود ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾(١) هذه الآية على الرغم من أنها جاءت عقب قصة بقرة بني إسرائيل إلا أن قصة البقرة كانت مترتبة على هذا القتل ، فانظر كيف قص لنا القرآن قصة البقرة ، ثم ذكر لنا ما يتصوره الذهن أنه ينبغي أن يكون أولاً .

وحين نتلمس جواباً لذلك عند المفسرين نجد أن الزمخشري(٢) بألمعيته يرشدنا إلى بعد نفسي وملحظ دقيق كان وراء هذا الإغفال في الترتيب لأحداث القصة ، فهو يشير إلى أن ذلك أصدق تصويرا للنفس غير السوية التي لا قرار لها ولا إيمان ، يصور لنا بهذا الإغفال ذلك الاضطراب في نفسية بني إسرائيل ويصور لنا سوء طويتهم(٣) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٧٢ .

(٢) الزمخشري : الكشاف ، ١/ ٢٩٠ وعبارة الزمخشري هي في الآتي : قال الزمخشري : « فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال : وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، قلت : كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما نص تعداداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها ، ولما جدد فيهم من الآيات العظام ، وهاتان قصتان ، كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين ، فالأولى : لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية : للتقريع على قتال النفس المحرمة وما يتبعه من الآية العظيمة ، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض من التقريع » . ص ٢٩٠ .

(٣) بينما نجد سيد قطب يرشدنا إلى بعد آخر (نفسي وتربوي) ، فهو يقول : « هذه قصة قصيرة نبدؤها ، فإذا نحن أمام مجهول لا يعرف ما وراءه ، نحن لا نعرف في مبدأ القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا ، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة » ، والملحظ النفسي نلمسه في قول سيد حين قال : « ثم تنتهي (أحداث القصة)إلى المباغتة في الخاتمة ـ كما بوغت بها بنو إسرائيل ـ انتفاض الميت مبعوثاً ـ ناطقاً » ، قطب ، سيد : الظلال ، ١/ ٨٠ . وذكر الشعراوي قريبا مما قاله سيد : « المفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته ، بخلاف هذه الآية . . فلم يأت بالعلة أو السبب ، وفي ذلك اختبار للإيمان ، لأن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعاً . بتصرف انظر : الشعراوي ، محمد متولي : تفسير الشعراوي ، (القاهرة : أخبار اليوم ، د . ط ، ١٩٩١م) ١/ ٣٨٨ـ٣٨٩ . وانظر للمزيد حول الفكرة : سلطان : الفصل والوصل ، ص ١٣٣ .

يعني أن عرض القصة بهذه الطريقة كان الغرض منه إحداث هذه المباغتة النفسية ، « إذ حينما نقرأ القصة » وإذ قتلتم نفساً . . « ما نلبث أن نبدأها إلا ونحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه ، فهذا أسلوب تربوي نفسي » إعطاء الأمر أولاً اختباراً لقوة الإيمان ومدى التنفيذ . وبالتالي تكون الآيات قد صورت لنا نفسيتهم في ذلك ، فهم مماطلون متلكئون لا ينفذون أوامر الله كما ينبغي ، ثم انظر كيف أن سياق القصة انتهى إلى سكوت ، وهو اللائق بعظمة الله . . التي لا يجوز أن تكون على طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل »[1] .

ومما أغفل فيه ترتيب الجمل بقصد تصوير اضطراب النفس ، المقطع الآتي : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] .

وقد ألمح الزمخشري ـ أيضاً ـ إلى هذه النكتة حيث جاءت جواباً للسؤال التالي : فإن قلت : هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله : « لو أن الله هداني » ولم يفصل بينهما بآية ، ويجيب بأن النظم حكى أقوال النفس على ترتيبها وتنظيمها ، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب »[3] وزاد الألوسي[4] نقلاً عن الطيبي ت (٧٤٣هـ)[5] قوله : إن الإنسان عند رؤية أهوال يوم القيامة يرى الناس مجزيين بأعمالهم ، فيتحسر على تفويت الأعمال فيها ، ثم قد يتعلل بأن التقصير لم يكن مِنّي ،

---

(١) الظلال ، ٢/ ٨٠ .

(٢) سورة الزمر ، الآيات ٥٦ـ٥٩ .

(٣) الزمخشري : الكشاف ، ٣/ ٤٠٥ .

(٤) الآلوسي : روح المعاني ، ٢٤/ ١٨ .

(٥) هو حسن بن محمد بن عبد الله شرف الدين الطيبي الأصل ، إمام مشهور فهام ، علامة في المعقولات والمعاني والبيان ، له مؤلفات كثيرة منها التفسير للقرآن العظيم ، والحاشية على تفسير الكشاف ، وكتاب التبيان في المعاني ، وشرح المشكاة ، وحاشيته المذكورة على تفسير الكشاف هي من أجلّ الحواشي ، حتى قال بعض الفضلاء : لا ينبغي أن يقرأ الكشاف إلا مع حاشية الطيبي . انظر : السيوطي : طبقات المفسرين ، تح : علي محمد عمر ، (القاهرة : مكتبة وهبه ، ط ١ ، ١٣٩٦هـ) ، ١/ ٢٧٧ .

فإذا نظر وعلم أن التقصير كان منه تمنى الرجوع .

أقول ولعل في توسط حرف العطف (أو) هنا ما يلمح إلى معنى نفسي آخر غير الذي ذهب إليه المفسرون ، فهذا الحرف ـ كما هو معروف عند أهل اللغة ـ يؤتى به للتخيير كما يؤتى به لغرض التسوية .

وإذا تأملنا نحن الموقف يوم القيامة نجد أن النفس تكون مزدحمة بالحسرات والندامة على ما فاتها في حياتها الدنيا ، فهي تريد الرجوع إلى الدنيا واستدراك ما فات ، فيأتي حرف العطف (أو) ليعبر عن هذا الازدحام النفسي الذي تعيشه النفس في تلك الحظة ، وعلى هذا فلا داعي لاعتبار أن الآية قد أغفل فيها الترتيب ، وإنما جيء بـ(أو)[1] للتسوية في الأهمية .

على أن ما تقدم ليس هو الفهم الوحيد الذي يمكن أن تفهم في ضوئه الآية ، إذ يمكننا أيضاً أن ندرك ملحظاً نفسياً آخر في الآية الكريمة وذلك في ضوء ما يمكن أن تفسر فيه الآيات ، وهذا في حقيقة الأمر يشير إلى ثراء اللفظ القرآني ، هذا الملحظ يمكن إدراكه في حالة اعتبار حرف العطف (أو) للتقسيم .

وعليه فتكون الآية وصفاً لأكثر من نفس ، فهي تتحدث عن نفوس مفرطة ، فقد يقول بعضها : « يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » ، وقد تقول أخرى : « لو أن الله هداني لكنت من المتقين » ، وقد تقول ثالثة : « لو أن لي كرة فأكون من المؤمنين » .

فتكون الآية قد عرضت لنا ألواناً ونماذج لنفوس مفرطة ، وما تحدث به في الموقف ذاته . وهذا ملحظ نفسي ما كنا لندركه لولا توسط حرف العطف(أو) ، على أن ما تقدم قد يكون أقوى في الاستدلال ، وبذلك نكون قد لحظنا في الآية الواحدة أكثر من ملحظ نفسي ، وذلك تبعاً لما يحتمله اللفظ من معنى ، على أن الباحث لا يجزم بواحد منها دون الآخر ما دام اللفظ محتملاً لها ، ولم يكن غرض الباحث في

(١) أقول إن فيما ذكره الطيبي ما يصلح دليلاً ومرشداً لذلك حين قال : « إن النفوس جمعت بين (الواو) و(أو) لمنع الخلو ، وجيء بها تنبيها على أن كل واحد يكفي صارفاً عن إيثار الكفر وداعياً إلى الإنابة واتباع أحسن ما أنزل » . انظر الألوسي : روح المعاني ، ١٨/٢٤ .

هذا كله سوى إظهار هذا اللون من ألوان التفسير ، والتأكيد على وجوده وحضوره ، وأنه يسير جنباً إلى جنب مع السياق واللفظ القرآني .

وهنا يتلمس الباحث فرصة لبيان أن ما ذهب إليه من فهم فيما تقدم من الآيات ، أو ما سيميل إليه فيما يأتي لا يقصد منه الباحث أنه هو الفهم الذي ينبغي أن يفهم ، وأن لا فهم أفضل وأنسب منه وإنما غرضه أن يبرز هذا اللون من ألوان التفسير ، ويؤكد على حضوره فلعله يرشد قارئاً إلى أفضل منه فهما وأحسن منه تفسيراً .

وقد يرشدنا أسلوب الفصل والوصل في القرآن إلى ما ينبغي أن تكون عليه النفس ، فيأتي الترتيب في جمل القرآن بقصد تهذيب النفس الإنسانية ، وإرشادها إلى أفضل السبل وأقومها ، وأبعدها عن مواطن الرذيلة ، وقد يكون الترتيب ملائماً لطبيعة النفس السوية ومنسقاً في أحوالها ، ولو تأملنا في الأوامر التي وردت في المقطع المشار إليه[١] في الهامش لوجدنا أنها قد تدرجت فيها تدرجاً مقصودا ، تدرجاً وفق ما يريده القرآن من النفس الإنسانية أن تكون ، فقد جاء الأمر أولاً بما يعصم من الفتنة ، ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ، ثم الأمر بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ، ثم حمل النفس في حالة العجز عن النكاح بالعزوف عن الشهوة إلى أن يرزقها الله القدرة على النكاح[٢] ، ولم يقف التدرج بالنفس عند هذا الحد بل نجد أن القرآن فيه وعد للفئة التي تقصد العفة بالغنى ، وجاء هذا التعزيز

---

(١) ومن ذلك قوله تعالى في سورة النور : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة النور ، الآيات ٣٠-٣٣ .

(٢) للمزيد انظر : الزمخشري : الكشاف ، ٣/ ٦٥ .

الرباني موافقاً للنفس الإنسانية ، إذ النفس تميل إلى مثل هذا اللون من الجزاء ، عدا كونه أسلوبا تربويا قويما يرغب النفس في تنفيذ الأوامر ، ويلحّ عليها ويخفف عنها ما تجده من معاناة حين تدرك أن جزاءً ينتظر النفس ، إن هي نفذت الأمر « حتى يغنيهم الله من فضله » ، خاصة إذا ما نظرنا في ورود هذه الجملة في القرآن في غير هذا الموضع ، نجدها مقرونة بالمشيئة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] ، نلحظ أن الوعد بالغنى في هذه الآية جاء مقروناً بالمشيئة بخلاف ما جاء في سورة النور ، إذ الخطاب في سورة النور لأفراد في المجتمع تطلب منهم التضحية ، فهم بحاجة إلى وجود بديل في مقابل هذه التضحية ، فيأتي الوعد بالغنى غير المقرون بالمشيئة ، أما في سورة التوبة فهي خطاب للجماعة المسلمة ، إذ عليها تنفيذ أوامر الله حتى لو لم يكن بديلا[2] . هذا بالنسبة لتدرج الأوامر لتكون موافقة للنفس السوية . وقد نجد القرآن أحياناً يرتب لنا النواهي على وفق ما تأتي عليه الطبيعة الإنسانية ، وفي ضوء ما هي مجبولة عليه ، فيكون التدرج في النواهي هذا موافقاً لما هو متدرج في النفس الإنسانية ، ويؤدي العطف هنا دوره في العلاج التدريجي الملائم لطبيعة النفس الإنسانية ، ومن ذلك المقطع التالي من سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3] .

نلحظ كيف تم التدرج في النهي الوارد في هذه الآيات ، إذ جاء على وفق ما جبلت عليه النفس الإنسانية ، فجاء النهي أولاً عن « الظن » وهو أولى الخطوات التي تحمل الإنسان المجبول على حب الفضول والاستطلاع ، فالطبيعي أن هذا الظن يسلم المرء

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٨ .

(٢) انظر عباس : إعجاز القرآن ، (عمان : دار الفرقان ، د . ط ، ١٩٩١م)

(٣) سورة الحجرات ، الآيتان ١٢-١٣ .

بواقع حب الاستطلاع على التجسس على من يظن فيه أمراً ، حتى تنطفىء أشواق النفس بتحقيق مطلبها ، إلا أن القرآن يرشدنا أن النفس لا تقف عند هذا الحد ، فإن من يتجسس لا بد وأن يطلع على أسرار الآخرين ، فتكون الخطوة التي تلي ، وهي أن يحدث بها الآخرين مظهراً عيوبهم ، فيكون قد وقع في شباك الغيبة ، فانظر كيف تدرجت النواهي هذا التدرج الذي يبرز الملحظ النفسي ، « فالظن ، أولاً ثم التجسس ، ثم الغيبة » ، والأجمل من هذا أن نجد التدرج القرآني في علاج هذه المسألة ، ذلك العلاج النفسي ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ، انظر كيف اختار القرآن هذه الصورة المنفرة المقززة لتكون أردع للمرء من الإقبال على هذا الفعل ، صورة تتقزز منها النفس وتنفر منها ، ولذلك كانت فاء العطف في قوله « فكرهتموه » أسرع في الإجابة عن النفس الإنسانية ، فهي تحكي جواب النفس أي نفس لأن ذلك مستقبح في الشرع وفي العقل ، أي نفس سوية تستقبح ذلك ، فيكون للفاء دور في تولي الإجابة السريعة عن النفس الإنسانية ، ويزيد من ذلك تسريعاً مجيء الفعل بصيغة الماضي « فكرهتموه » ، ولم يكن للحاضر أو المستقبل ، فهو أمر تنفر منه الطباع قبل وبعد تصوره . ثم تأتي الآية التي تلي لتعالج الأمر من جذوره ، فهو رجوع بالنفس إلى الأصل ، وخير ما تخاطب به النفس ذلك الخطاب الواقعي ، وخير ما يواجه النفس بالحقائق ، فهي لا تستطيع مهما تملقت وتزلفت أن تنكر أصلها ، أو تنكر حدّها وموقعها .

المطلب الثالث : توارد حروف العطف ودلالاتها النفسية

في القرآن كثير من المقاطع التي يتوارد فيها حرف العطف (ثم) ليضيف هذا المعنى ، ولعل أكثر ما يبرز هذه الحقيقة أن يتوارد في الآية الواحدة أكثر من حرف عطف ، فكون الآية مشتملة مثلاً على حرفي العطف « الفاء » و « ثم » ، فإن هذا يعني أن أغراضاً عدة وراء هذا التعبير ، وقد يكون الاعتبار النفسي أحد أهم هذه الأغراض .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً وربما يكون بعضها أوضح في الدلالة من بعض ، لكن يختار الباحث بعض هذه الأمثلة مؤكداً ـ كما أكدّ من قبل ـ أنه قد يشتمل القرآن على أمثلة أكثر وضوحاً ودلالة على ما أراد مما اختاره للدلالة .

مثال : قال تعالى في وصف الوليد بن المغيرة ، بعد أن أوفده قومه إلى

رسول الله ﷺ بقصد التفاوض في شأن الدين الجديد[١] ، وأسمعه الرسول ﷺ ، وعاد إلى قومه ، وقال ما قال في شأن القرآن ، نزل قوله تعالى في وصف حاله : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[٢] تأمل هذا التطويل في وصف المشهد على الرغم من أنه لحظات ، إلا أن القرآن الكريم صوره في قرابة تسع آيات من القرآن ، هذا التطويل كان مقصوداً ـ كما لا يخفى ـ كأنما جيء بعدسة تصوير ، فأخذت تصوّر المشهد تصويراً بطيئاً .

ومما ساعد في تبطؤ المشهد حرف العطف (ثم) الذي ورد أربع مرات في المقطع ، جيء به ليصور تتابع الحركات وتصاعدها ، كأنما صورت لنا ذلك الصراع النفسي الذي احتدم في نفس الوليد بن المغيرة بعد سماعه القرآن وتأثره به ، « كأنما زلزال هز أركان نفسه العنيدة ما بين تشبث بالزعامة أو اعتراف بالحق . . صراع عبرت عنه حركات الجوارح وملامح الوجه . . »[٣] .

أما عن حرف (الفاء) في قوله : ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[٤] فهي تحمل لنا رسالة نفسية جديرة بالتسجيل ، كأنما تصور لنا أن ما توصل إليه الوليد من نتيجة في شأن القرآن بعد طول فكر كان كأنه خاطر خطر في ذهنه ، فألقاه دون وعي أو تفكير ، فهي توقفنا على تسرعه في الحكم على القرآن ، وأنه لم يخضع لفكر ، ولم يصدر عن قناعة ويقين ، حتى لكأنه يسرع الهرب بعد أن ألقاها ، وبهذا يتضح لنا دور حرفي العطف (ثم) و(ف) في تصوير الهزيمة النفسية التي كان يعيشها الوليد بن المغيرة .

ومنه : قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾[٥] انظر كيف جيء بالفاء عند الجمع ، لتعبّر عن الإسراع في هذا الجمع ، وبـ (ثم) عند المجيء لتعبّر عن التراخي والتثاقل النفسي من المواجهة ، ففي الحرف (ثم) التراخي إيماء إلى أنه

---

(١) القصة معروفة وقد تقدم ذكرها .
(٢) سورة المدثر ، الآيات ١٨ـ٢٥ .
(٣) انظر الخضري : من أسرار حروف العطف ، ص ١٦٠ـ١٦١ بتصرف .
(٤) سورة المدثرة ، الآية ٢٤ .
(٥) سورة طه ، الآية ٦٠ .

لم يسارع إليه ، بل أتاه بعد لأي ، وتلعثم »[1] ، ومثله يمكن أن يقال عن السحرة في قوله تعالى عن فرعون : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ ﴾[2] .

ومنه : قول موسى عليه السلام للسامري : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾[3] ، انظر كيف جيء بـ(ثم) لتنقل لنا إحساس موسى عليه السلام النفسي ورغبته في التشفي والتي تبرز من خلال معاودة الفعل مرة بعد مرة ـ كما يشير إلى ذلك التشديد في لفظة ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾[4] .

ومثله يمكن أن يقال في مقولة فرعون للسحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام وتوعدهم قائلاً : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[5] ، فـ(ثم) هذه تصور لنا شدة حنق فرعون ، وما تنطوي عليه نفسه من إرادة التشفي والانتقام ، وإنه انتقام يجسّد لنا مقدار التعذيب الذي يشعرون به قبل تصليبهم ، وغير ذلك كثير من النصوص القرآنية التي تدخل في هذا الإطار مما لا يسع بسطه هنا[6] .

مواضع تلفت النظر في مسألة العطف :

كثيرا ما يرشدنا العطف في الآيات من حيث الترتيب إلى الأسرع وروداً إلى النفس ، ومعبّرا عن مسألة الإحساس بطول الزمن وقصره ، وهو أمر تابع لأحوال النفس الإنسانية ، فللعطف فيه دور كبير ، فمن حروف العطف ما يستعمل ليرشدنا إلى قصر المدة « الفاء للتعقيب » ، وبعضها يرشدنا إلى طول المدة أو وجود فاصل زمني بين الحديث « ثم للتراخي » .

---

(١) أبو السعود ، محمد بن محمد العمادي : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) ، ٦/ ٢٤ .

(٢) سورة طه ، الآية ٦٤ .

(٣) سورة طه ، الآية ٩٧ .

(٤) انظر للمزيد الخضري : من أسرار حروف العطف ، ص ١٦٨ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية ١٢٤ .

(٦) كما في الآيات التالية : ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ ، سورة نوح ، الآية ٨ـ٩ . ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ، سورة الأعراف ، الآية ١٩٥ . ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ ، سورة يونس ، الآية ٧١ .

ونظراً لوجود هذا التفاوت بين الناس في مسألة الإحساس بالزمن نجد أن توارد حروف العطف هو الذي يرشدنا إلى المسألة .

توضيح ذلك أن النفس الإنسانية إن مرت بلحظات سعادة وفرح وسرور تحس بأن الزمن يطوى طياً ، وأن الساعات ـ وإن طالت ـ تمر كلمح البصر ، بينما تمر على النفس أحياناً بضع لحظات ، فيشعر بها المرء لطولها كأنها سنوات ، وقديماً عبّر الشعراءا عن ذلك ، ومنها قول أبي الطيب المتنبي :

إن الليـــالــي لــلأنـــام منـــاهـــل تطـــوى وتنشـــر بينهـــا الأعمـــار
فقصـــارهـــن مـــن الهمـــوم طـــويلـــة وطـــوالهـــن مـــن الســـرور قصـــار[1]

فمسألة الإحساس بالمدة الزمنية طولاً وقصراً مسألة نسبية ومتفاوتة بتفاوت الأشخاص تارة ، وبتفاوت الحالة النفسية تارة أخرى ، وبهذا يكون مختلفا عن الزمن الفيزيائي المرتبط بالمكان[2] .

لننظر في ضوء هذه المسألة إلى التعبير القرآني ، وكيف أنه بحروف العطف كان يرشدنا إلى تلك الحالات النفسية التي يعيشها صاحب الحدث ، (الفاء) للتعبير عن قصر المدة و(ثم) للتعبير عن المهلة وطول المدة .

كثيراً ما يصور لنا القرآن حياتنا الدنيا على أنها لحظات مرت وكأنها أحلام ، من ذلك : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] انظر

---

(١) انظر : الحموي : خزانة الأدب ، ١/ ٣٥٥ . ومن ذلك :
مـــرت سنيـــن بـــالـــوصـــال وبـــالهنـــا فكـــأنهـــا مـــن قصـــرهـــا أيـــام
ثـــم انثنـــت أيـــام هجـــر بعـــدهـــا فكـــأنهـــا مـــن طـــولهـــا أعـــوام
ثـــم انثنـــت تلـــك السنـــون وأهلهـــا فكـــأنهـــا وكـــأنهـــم أحـــلام

(٢) للمزيد انظر : حسب النبي ، منصور محمد : إعجاز القرآن في آفاق الزمان والمكان ، (القاهرة : دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٤١٧هـ ـ١٩٩٦م) ، ص ٢٢٥ وما بعدها ، حيث تحدث عن انواع الزمن ، وذكر منها الزمن النفسي .

(٣) سورة يونس ، الآية ٢٤ .

كيف يصور لنا حرف الفاء مسألة طي الزمن ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[1] .

وقد يكون التعبير عن طي الزمن هذا واضحاً أكثر في تعبير الكافرين يوم القيامة عن حياتهم الدنيا : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾[2] ، انظر كيف أن هذا الزمن الطويل تطويه الفاء في مقام التهويل من شأن عذاب الآخرة[3] . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[4] انظر الفاء الداخلة على قوله« فأزلهما » و« فأخرجهما » .

على الرغم من أنه معروف أن بين نهي الله لآدم وزوجه عن قرب الشجرة ، وبين الازلال والإخراج زمنا طويلا يرشدنا إلى طوله ، كون آدم نسي العهد ، ونسيان العهد لا يكون إلا بعد مضي زمن » ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[5] ، فما هو سر العطف بالفاء ؟

إن الزمن الطويل الذي قضاه آدم في الجنة ، وهي قمة السعادة ، طوي كأنه في لحظة ، ثم إنه بالنسبة لما كان يتمناه من طول الإقامة في الجنة مر كأنه لحظة ، فالتعقيب على هذا نُزّل فيه الفاصل الطويل من الزمن منزلة المدة القصيرة ، تبعاً للحظات النفسية التي كانت تحس بها نفس الإنسان في لحظات السعادة .

ومثل هذا الباب كثير ، فقد تطوي الفاء زماناً طويلاً يمتد من آخر لحظة في الحياة الدنيا إلى آخر ما يستقر به مصير المرء في الآخرة ، كالفاء في لفظة « فادخلوا » من قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾[6] فالزمن الذي

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٤٥ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ١١٢ .

(٣) الخضري ، محمد الأمين : من أسرار حروف العطف ، ص ٥٢ـ٥٣ بتصرف .

(٤) سورة البقرة ، الآيات ٣٥ـ٣٦ .

(٥) سورة طه ، الآية ١١٥ .

(٦) سورة نوح ، الآية ٢٥ .

طوى لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بما ينتظرهم ، فيكون في طي الزمن هذا ، بيان لما أعقبه[1] ، وقد أحس بهذا الملحظ بعض المفسرين كالألوسي حين قال : « وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال ، فكأنه شبّه تخلل ما لا يعتد به بعدم تخلل شيء أصلاً »[2] ولعل مما اجتمع فيه الفاء وثم ليدل أحدهما على تراخي الزمن والثاني على طوله ، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[3] .

نلحظ مجيء حرف العطف (ف) مع أمليت ، وحرف (ثم) مع الأخذ ، مع أن المتبادر للذهن أن يكون العكس ، لأن مدة الإمهال في العادة تكون أطول من مدة الإهلاك ، لكن لعل في ذلك ملحظاً نفسياً نحسن استخراجه من هذا الاستخدام ، فالإمهال في العادة يكون فيه إغراق في النعم بقصد الاستدراج ـ كما أوضح القرآن في غير موضع ـ وهذا الإمهال لا شك بأنه سيكون مدة ليست بالقصيرة ، حتى إنه لينسى المرء أنه في استدراج ، إلا أن القرآن أراد أن يعبر عن قصر هذه المدة الزمنية من حيث الإحساس النفسي ، فالمرء حين يعيش لحظات الرخاء تمرّ به كلمح البصر ، فكان التعبير(بالفاء) هو المشير إلى هذا ، أما عن سر مجيء ثم مع الأخذ فهو على الرغم من أن مدة العذاب والإهلاك كانت سريعة إلا أنها تصوير لطول الزمن النفسي الذي أحس به القوم في لحظات العذاب التي مروا بها ، كما أن ثم تفيد معنى تراخي الهلاك عن زمن إمهالهم ـ والله أعلم .

وزيادة على ما تقدم فإننا نرى أحياناً أن حرف الفاء يؤتى به لتصوير استمرارية الحالة التي وصفت بها حتى تأتي المرحلة التي تليها ، فهي ليست بالقصيرة وإنما كانت مستمرة ، ملتقيه بالمرحلة الموصوفة بعدها[4] ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) الخضري : من أسرار حروف العطف ، ص ٥٤ .
(٢) الآلوسي : روح المعاني ، ٢٩/٧٩ .
(٣) سورة الرعد ، الآية ٣٢ .
(٤) ألمح إلى هذا المعنى محمد الأمين الخضري مسترشداً بكلام محمود شاكر على أبيات من الشعر ، وقد ذكر الشيخ محمد الأمين نماذج وأمثلة كثيرة على هذا النمط من القرآن الكريم ، انظر : الخضري : من أسرار حروف العطف في القرآن (الفاء وثم) ، ص ٦٢ـ٦٩ .

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1] ، انظر إلى الفاء كيف دلتنا على استمرارية الكدح من الإنسان وامتداده حتى لقاء ربه ، فهو أمر طويل زمنا إلا أنه قصير حينما يلتقي بما بعده ، فعلى الرغم من أن الفاء يؤتى بها للتعقيب والإشارة إلى قصر الزمن ، إلا أنها في هذا الموضع تعبر عن طول الزمن واستمراريته حتى ملاقاة الإنسان ربه ، فالحياة كلها كدح .

أما عن (ثم) ودلالته على الامتداد الزمني (الإحساس بطول الزمن) فمأخوذ من كون هذا الحرف يدل على التراخي ـ كما يقول علماء اللغة عنه ـ إلا أن معنى التراخي هذا يخضع لاعتبارات نفسية وعقلية وأحوال يقتضيها المقام ، يهمنا من ذلك كله القيمة النفسية لاستعمال هذا الحرف ، فهي تكمن في كون هذا الحرف قادراً على نقل تلك الأحاسيس والمشاعر النفسية وتصوير أحوال النفس ، وذلك من خلال تحريك زمن الأحداث ، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الزمخشري ، ومن الأمثلة على ذلك كلامه على ثم من قوله تعالى : ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2] حين قال : « فإن قلت : ما معنى التراخي في قوله « ثم انظر » ؟ قلت : معناه ، بعد ما بين العجبين ، يعني أنه بيّن لهم الآيات بياناً عجيباً وإن إعراضهم أعجب منه »[3] ، كما قد تنبه لدور هذا الحرف من هذا الجانب « محمود شاكر »[4] ، حيث قال : أما (ثم) فهي بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع بلا نظر إلى الزمن المقيّد »[5] إذ كما أن (ثم) تستخدم للتعبير عن التراخي في الأوقات فهي أيضاً تستخدم للتعبير عن التراخي في الأحوال .

---

(١) سورة الانشقاق ، الآية ٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٥ .

(٣) انظر : الزمخشري : الكشاف ، ١/ ٣٥٦ . وانظر : ابن حيان : البحر المحيط ٣٠/ ٥٣٨.

(٤) علامة محقق ومصحح كبير من مواليد الاسكندرية ، كان عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة له مصنفات ومقالات عديدة أغلبها في الأدب العربي ، للمزيد انظر : مجلة الأزهر ، ج٧ ، ١٩٩٥ ، ص ١٦٩٤ .

(٥) شاكر ، محمود : « نمط صعب ونمط مخيف » ، (د . م : مجلة المجلة ، حلقة ٥ ، ع ١٥٥ ، نوفمبر/١٩٦٩م) ، ص ٩ .

ومنه : قوله تعالى في الحديث عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[1] : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾[2] .

فقد صور لنا حرف العطف (ثم) تلك اللحظات النفسية التي عاشها الصحابة الذين نزلت فيهم الآيات ، وتصور لنا مرارة الانتظار الطويل التي سبقت نزول توبة الله عليهم ، فـ (ثم) تصور طول الحالة النفسية التي مروا بها ، وكأنها تنقل القارىء ليعيش ويتصور طولها من خلال حرف العطف (ثم) .

ومنه قوله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[3] . فـ(ثم) هنا للدلالة على أن مدخولها مما يستبعده المخاطبون لتقارب الناس في الأحوال ، واشتراكهم في الميل إلى الحال ، وقد جيء بـ(ثم) الذي فصل بينهما ليصور لنا اختلاف القوم المستبدلين في أحوالهم ونفسياتهم تجاه المال[4] .

ومن المواضع التي تلفت الأنظار اختلاف أوجه النظم في الآيات المتشابهة ، حيث نجد في بعض المواطن آيات متشابهة من حيث اللفظ ، إلا أن بينها اختلافاً يسيراً يكون قد أبرزه حرف العطف ، مثل ذلك كثير وقد يكون الغرض النفسي أحد أسباب المغايرة بين النصين :

مثال : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[5] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾[6] ، انظر كيف جيء (بالفاء) في الآية الأولى وبـ(ثم) في الثانية ، ولعل أقوى ضابط يمكن الاعتماد عليه في تعليل هذا التغاير هو سياق كل

---

(١) وهم : هلال بن أمية ، مرارة بن الربيع ، كعب بن مالك .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٨ .
(٣) سورة محمد ، الآية ٣٨ .
(٤) الجمل ، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، (بيروت : دار إحياء التراث ، د . ط . ت) ، ٤/ ١٥٢ـ١٥٥ .
(٥) سورة الكهف ، الآية ٥٧ .
(٦) سورة السجدة ، الآية ٢٢ .

من النصين . ﴿ وَعُرِضُواْ ﴾[1] ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾[2] ، ثم كثر في السياق ورود لفظ (الفاء) ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾[3] ﴿ فَظَنُّوٓاْ ﴾[4] وتأتي الآية لتصور سرعة مضي المدة ومسألة الإحساس النفسي بالزمن ـ كما تقدم ذكرها ـ فهي لحظات ولهذا عقبها قوله تعالى : ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[5] .

وأما الآية التي في سورة السجدة فهي في سياق إقامة الحجة على الكافرين واستحقاقهم العذاب ، فكان حرف العطف (ثم) مشيراً إلى طول تلك المدة التي أعطيها هؤلاء إلا أنهم لم يستثمروها ؛ ولذلك استحقوا العذاب ، فعلى الرغم من طول المدة إلا أنهم نسوا هذا اللقاء ، ويعين على هذا الفهم كون السياق يتحدث عن هذا النسيان ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[6] ، والله أعلم .

ومن ذلك : أنه في جميع المواضع التي ورد فيها الأمر بالسير في الأرض كان يعقبها(الفاء)[7] إلا موضعاً واحداً عقبه (ثم) هو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[8] ، وفي القرآن كثير من هذا النوع[9] .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٤٨ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ٥٢ .
(٤) سورة الكهف ، الآية ٥٣ .
(٥) سورة الكهف ، الآية ٥٧ .
(٦) سورة السجدة ، الآية ١٤ . .
(٧) بيانها كالآتي : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ ، سورة النمل ، الآية ٦٩ ، سورة العنكبوت ، الآية ٢٠ ، سورة الروم ، الآية ٤٢ .
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ ، سورة يوسف ، الآية ١٠٩ ، سورة غافر ، الآية ٨٢ ، سورة محمد ، الآية ١٠ ، ﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية ١٣٧ ، سورة النحل ، الآية ٣٦ ، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ ، سورة الروم ، الآية ٩ ، سورة فاطر ، الآية ٤٤ ، سورة غافر ، الآية ٢١ .
(٨) سورة الأنعام ، الآية ١١ .
(٩) كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ سورة الأحقاف ، الآية ١٠ ، و﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ ، سورة فصلت ، الآية ٥٢ ، ومن ذلك=

ولعل السرّ في مجيء (ثم) بموضع سورة الأنعام ما تقدمها من سوق الأدلة وضرب الأمثلة ونماذج المكذبين وما حلّ بهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾[1] ، فكأن فيها حثا على النظر المتمهل والفكر المتأمل فاتسعت زماناً لتشمل طول المدة التي ينبغي أن يقضيها العاقل في التفكر في حال تلك الأقوام التي مرّ ذكرها وما حلّ بها ، أي كأنها دعوة لتكون نظرة متأنية طويلة تتسع لكثرة القرون الهالكة وهو ما لا تعطيه (الفاء) لو كانت في هذا المقام ، ولعل في عبارة الإسكافي ما يرشد إلى هذا الملحظ حين قال : قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾ ، لم يجعل النظر منه واقعاً عقيب السير ، متعلقاً بوجوده ، لأنه بعث على سير بعد سير ، لما تقدم من الآية التي تدل على أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثراً بعد أثر ، في ديار بعد ديار ، قد عمّ أهلها بدمار »[2] .

وكثيراً ما يتوارد حرفا العطف(الفاء) و(الواو) في المواضع المتشابهة ، خاصة في القصص القرآني : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾[3] ، و﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾[4] ، ومثلها : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾[5] ، و﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾[6] ، إذ لا يخلو النظر في هذه المواضع من الملاحظ النفسية البديعة التي لا يسمح المقام ببسطها ، فهي بحاجة إلى مزيد تأمل : بعض الآيات يبتدىء بـ ﴿الم ①﴾ وبعضها بـ ﴿أَفَلَمْ﴾ وبعضها بـ ﴿أَوَلَمْ﴾ . ما سِرّ هذه المغايرة في صيغة الاستفهام هذه؟!

= (ما) في قوله : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ ، سورة التوبة ، الآية ٥٥ ، وقوله : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ ، سورة التوبة ، الآية ٨٥ ، وقوله : ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ، سورة الأنعام ، الآية ١٣٥ .وقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ، سورة هود ، الآية ٩٣ . فالأغلب في مثل هذه المواضع أن التغاير يكون تابعاً لمقتضى الحال ومراعاة للحالة النفسية .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦ .
(٢) الخطيب الاسكافي : درة التنزيل وغرة التأويل ، ص ١١٢ .
(٣) سورة هود ، الآيات ٥٨ ، ٩٤ .
(٤) سورة هود ، الآيات ٦٦ ، ٨٢ .
(٥) سورة يوسف ، الآية ٥٩ .
(٦) سورة يوسف ، الآية ٧٠ .

ومن المواضع التي تحتاج إلى تأمل ما ورد في الآيتين : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾[1] ، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾[2] ، الثانية بالواو والأولى بلا واو ، والتأمل في الموضعين يرشد إلى ملاحظ نفسية اقتضت اختصاص كل فريق بما كان عليه النظم ، فالوصل مناسب للمؤمنين ، والفصل مناسب للكافرين ، فحضور (الواو) في سياق المؤمنين يضيف ملحظاً نفسياً لهم ، كأن أهل الجنة حين يأتونها يجدونها مفتوحة ، أي قد أعدت من قبل ،

وهذا الإعداد المسبق يعضده ما جاء في موضع آخر ، وهو قوله تعالى﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾[3] ، هو بمثابة التهيئة النفسية لهذا الفريق .

بخلاف الآية التي تحدثت عن الذين كفروا ، والتي خلت من حرف العطف (واو) ، التي تصور لنا مشهد الكافرين وهم قادمون إلى جهنم ، حيث يشاهدون أبوابها مغلقة ، فيكون العذاب النفسي من الانتظار حتى تفتح لهم الأبواب ، ثم على أي شيء تفتح هذه الأبواب ؟ وأي مصير هذا الذي ينتظرون؟! فيزداد العذاب النفسي الذي يحل بهم[4] ، ثم تأمل في ذلك الشعور النفسي الذي سيصاحبهم حين يعرفون أن هذه الأبواب تنتظر قدومهم .

ومن جمال أسلوب الفصل ودوره في إبراز المعاني النفسية نشير إلى بعض الأمثلة :

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[5] ، تأمل هذه الصفات الثمانية التي وصفت بها هذه الشخصية[6] ، تجد أنها

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٧١ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .
(٣) سورة ص ، الآية ٥٠ .
(٤) عباس : لطائف المنان ، ص ١٩٧ .
(٥) سورة القلم ، الآيات ١٠-١٣ .
(٦) قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وهو الأغلب في أقوال المفسرين ، انظر : الآلوسي : روح المعاني ، ٢٧/٢٩ ، وقيل : إنها نزلت في الأخنس بن شريق ، انظر : الشوكاني : فتح =

بدائل له ، وكأنها صور متعددة لشخصيته ، وهذا فيه ما فيه من الجمال النفسي ، حين نتأمل خلو هذه الصفات من حروف العطف ندرك أنه مع كل صفة يذهب العقل في تصورها وتمثلها ، ثم ينتقل إلى الصورة التي تلي وقد تزوّد من الوليد بصفة من صفاته ، وتظل النفس تنتقل من صفة إلى صفة حتى تصل إلى درجة التشبع مع اكتمال الصورة ، وفي هذا الأسلوب إعطاء المخاطب فرصة الانتقال من تصور إلى تصور ومن حال إلى حال »[1] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[2] .

انظر كيف كان الفصل في وصف الظالمين معبراً عن تلك الحالة النفسية ، إنه لتصوير مطول أربعة مشاهد لصورة واحدة وهي ـ كما يقول سيد قطب رحمه الله : « لوحة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام. . مشهد كامل لا تنقصه سمة من السمات. . يلقي ظله على النفوس »[3] .

كما أن القرآن مليء بالمواضع التي تحتاج إلى تأمل ، خاصة تلك التي ذكرت فيها حروف العطف الثلاثة(ثم ، ف ، و) كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[4] .

= القدير ، ٥/ ٢٧٠. .

(١) سلطان : الفصل والوصل ، ص ٢٠٨ بتصرف .

(٢) سورة إبراهيم ،الآيات ٤٢ـ٤٣ .

(٣) قطب ، سيد : مشاهد القيامة في القرآن ، ص ١٦٦ .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات ٧٩ـ٨١ . ومثلها : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ سورة عبس ، الآيات ١٩ـ٢٢ ، و﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ سورة النازعات ، الآيات ١٩ـ٢٥ ، ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ، سورة المدثر ، الآيات٢٠ـ٢٤ ، ومنها : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، سورة فاطر ، الآية ٣٢ .

المبحث السادس
التكرار وأسراره النفسية

الحديث عن التكرار ونسبته إلى القرآن أمر في غاية الحساسية ، والمتكلمون في موضوع التكرار ـ على كثرتهم ـ قديماً وحديثاً ، كانت نتيجة كتاباتهم في الغالب الأعم نحو طابع التبرير ، ونفي الاتهامات عن القرآن الكريم في هذا الشأن ، في حين نجد على الجانب الآخر بعض الكتابات تنفي أصلاً وجود التكرار في القرآن الكريم ، ومع يقين الباحث بأن الباعث لكل من تحدث عن موضوع التكرار كان هدفه أولاً وآخراً بيان سمو الأسلوب القرآني وانسجامه مع الإعجاز البياني .

إلا أن الذي يقرأ ما كتب في هذا ويدقق ، يجد أن ما يمكن أن يسمى باختلاف وجهة النظر بين الفريقين يقترب أكثر فأكثر حتى تكاد تتلاشى في بعض المواقف ، ويرى الباحث أن مرد هذا التفاوت كان عائداً إلى الاختلاف في تحديد مفهوم التكرار ، فما الذي يعنيه هذا المفهوم ؟ إذ تحديده هو الذي يزيل كثيراً من هذا التباعد .

المطلب الأول : مفهومه وأشكاله

مفهوم التكرار : مأخوذ من الكر بمعنى العود ، والتكرير من باب التفعيل : إعادة الشيء مراراً ، ولدى التأمل نجد أن بين التكرار والتكرير فرقا دقيقا ، فالتكرير قصد الإعادة ، وهو يفيد التكثير ، والتكرار هو الاسم فهو يشبه العموم من حيث التعدد .

يعنينا من ذلك معرفة ما إذا كان التكرار يعني تكرار اللفظ ، أو تكرر المعنى ، أو هو تكرارهما معاً ؟ جواب هذا السؤال يغنينا عن كثير من الكلام .

لنأخذ تقسيم ابن رشيق[1] للتكرار ، حيث يقسم التكرار إلى أقسام ثلاثة :

١) تكرار اللفظ دون المعنى وهو الأكثر .

---

(١) ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي : من بلغاء القيروان ولد ٣٩٠ هـ ، وله مصنفات كثيرة في الأدب والنقد ، منها « في شذوذ اللغة ، العمدة » وهو شاعر ، للمزيد انظر : السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) ، ٥٧٦/١ .

٢) تكرار المعنى دون اللفظ وهو الأقل .

٣) تكرار اللفظ والمعنى ، وحكم عليه الخذلان بعينه[١] .

في ضوء هذا التقسيم المتقدم الذي قدمه لنا ابن رشيق نلحظ أن التكرار لا يعدو من حيث القسمة العقلية أن يكون أحد هذه الأقسام الثلاثة :

١ـ تكرار اللفظ . ٢ـ تكرار المعنى . ٣ـ تكرار اللفظ والمعنى .

أما الأول فلا يخلو منه كلام ولا يستغني عنه متكلم ، ووجوده في الكلام أسلوب من أساليب البلاغة .

وأما الثاني : فهو أمر طبيعي إذ قد يخبر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ ، لكن لا يكون تكراراً بالمعنى الحقيقي ، إذ لا بد وأن يختص كل لفظ بمعنى ، فإذا ما ورد بأكثر من أسلوب كان في كل أسلوب زيادة لا نجدها في غيره .

وأما الثالث : وهو تكرار اللفظ والمعنى ، أي بمعنى المطابقة التامة دون زيادة أو نقصان ، وهو ما حكم عليه ابن رشيق بالخذلان ، فهو إن وجد في الكلام كان عيباً .

لكن هل في القرآن من هذا النوع ؟ الحق أنه لا وجود لهذا النوع في كتاب الله ، بل يجب أن يجلّ كتاب الله وينزّه عن هذا النوع ، ولا يظن أن ما في سورة الرحمن من قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ ، أو في المرسلات ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ أو أو . . هو من هذا القبيل ، فإن في كل موضع من المواضع التي اختصت بها هذه النماذج معايير جديدة أضافها سياق الآيات والموضوع المتحدث عنه ـ كما سيأتي ـ فالكلام لا يخلو من أن تضاف إليه معاني مصاحبة للحديث عنها نفسية واجتماعية . .

حتى أن الباحث يريد أن يسجل تحفظه في هذا المقام من إطلاق لفظة (تكرار) على الأنواع المتقدمة جميعها .

فما كان من النوع الأول « تكرار اللفظ دون المعنى » يطلق عليه ـ في حقيقة الأمر ـ تكرار من باب شيوع الإطلاق في التسمية حيث الإطلاق اللفظي ، يمكن أن يكون

---

(١) ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي ت (٤٥٦هـ) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : دار الجيل ، ط ٥ ، ١٩٨١م) ، ٢/ ٧٣ .

مقبولاً ، وما دام أضاف معنىً جديداً فهو زاد على معنى التكرار .

أما الثاني : فهو في حقيقة الأمر يمكن أن يطلق عليه : « ذكر لأكثر من مرة » .

وأما الثالث : وهو « تكرار اللفظ والمعنى » ، وقد تقرر أن ليس له من كتاب الله شاهد . فلا داعي للتحدث عنه . وهو الذي يطلق عليه (تكرار)[1] بالمعنى الحقيقي .

وعليه فما يمكن أن يطلق عليه تكرار فهو إطلاق من باب التجوز ؛ إذ من باب استخدام اللفظ الشائع ، وأينما يكون إطلاق هذا اللفظ في كلام الباحث فإنه يعني ما تقدمت الإشارة إليه[2] ، أما الذين طعنوا في القرآن مشيرين إلى أن القرآن فيه تكرار فكثير منهم متوهمون ، قد يكون هناك اهتمام بنظرة فيعاد ذكرها . إذ أنهم يظنون بأنه تكرار باللفظ والمعنى ، وهو ما تقدمت الإشارة إلى نفيه من أن يكون له وجود في كتاب الله تعالى .

أما ما يسمى بـ التكرار اللفظي : فأسلوب عرفه العرب ، ويستخدمونه في حديثهم لأغراض متعددة ، وهو كما يكون للفظة الواحدة قد يكون للجملة . إلا أن الذي ينبغي أن يؤخذ بالاعتبار في هذا النوع هو أن تكرار اللفظ هذا لا يعني تكرار المعنى ، فاللفظ المكرر يضيف معنى جديداً قد يفهم من سياق الحديث ، وقد يفهم من طريقة الأداء ، وقد يفهم من مقتضى المقام ، ولا يخلو ذلك من فائدة (نفسية أو اجتماعية أو تربوية أو غير ذلك) ، والذي يعنينا من هذا النوع ما كان التكرار فيه لغرض نفسي .

وأما التكرار للمعنى فهو في حقيقة الأمر تكرار للفكرة ، فالفكرة واحدة ، وفي كل تعبير يكون إضافة جديدة ومثال هذا النوع ما كان من شأن القصص القرآني ، حيث نلحظ أن القرآن الكريم يذكر الحدث الواحد أكثر من مرة ، ويعرضه بأكثر من

---

(١) أشار الخطابي إلى أن التكرار على ضربين : الضرب الأول : مذموم وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع ، والضرب الثاني : ما كان بخلاف هذه الصفة . الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٤٧ـ٤٨ .

(٢) لو كان النوع الثالث موجوداً فما معنى وجود كتب المتشابهات كـ : درة التنزيل ، وملاك التأويل ، وغيرها .

أسلوب ، وسوف يلحظ القارىء أن هذا النوع لا يمكن أن يعدّ نوعاً من التكرار ، بل سوف يلمس أن الأغراض والدواعي لذلك هي أكثر من النوع الأول ، وكثير منها ما هو عائد إلى الجانب النفسي .

المطلب الثاني : العلاقة بين التكْرار وطبيعة النفس الإنسانية

المتأمل في طبيعة اللغة التي يتكلمها الإنسان يجد أن التكرار أمر يحيط بكلماتها وحروفها ، فاللغة ـ أي لغة ـ تتشكل من عدد محدود من الأحرف ، إلا أن هذه الحروف المحدودة هي التي تعطي تلك المرونة والسعة ، لتشكل الكلمات التي تتكون منها اللغة ، فيستخدم المرء عشرات الآلاف من الكلمات في يومه ، وهي في حقيقتها لا تعدو هذه الحروف المحدودة ، وهذا يعني أن الأحرف تتكرر في الكلمات بل في الكلمة الواحدة أحياناً ، وهذا نوع من التكرار لا تمله النفس .

أمر آخر يتعلق بطبيعة النفس الإنسانية ، وهو أنها كثيراً ما تطرب إذا رد الصدى صوتها ، كما أن الإنسان ـ كما يقول أهل الفن والأدب[1] ـ يزداد طرباً للكلمة ذاتها يعيدها إلى سمعه من يحب أن يسمعها من فمه ، وذلك لما طبعت عليه نفس الإنسان من طبيعة التكرار. . فالإنسان والتكرار صديقان منذ الطفولة المبكرة التي يبدأ فيها بسماع دقات الأم جنيناً ووليداً. . وتكرار حركة الفم في الرضاع ، ولذلك كانت أول كلمات الطفل ثنائية التركيب « بابا » « ماما ». . هذا الإيقاع المنتظم يثير في نفوس الأطفال السرور والبهجة .

ثم إن الذين تحدثوا عن علم النفس أشاروا إلى أنه متى كثر تكرار أمر تولّد تيار فكري وعاطفي ، يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات وهو العدوى ، إذ لا يكفي لتحول الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة ، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه ، فالتكرار هو السبيل الوحيد لربط الانفعال به وتركزه حوله ، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيبه[2] .

---

(١) انظر : شحاته ، مصطفى أحمد : لغة الهمس ، (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، د . ط ، ١٩٧٢م) ، ص ٥٧ .

(٢) انظر : فهمي ، مصطفى : الدوافع النفسية ، (القاهرة : مكتبة مصر ، د . ط ، ١٩٨٧م) ، =

والتكرار موائم للفطرة ، وله وظيفة مزدوجة الأداء تجمل من التوثيق للمعنى قيمة صوتية وفنية تزيد القلب له قبولاً والوجدان به تعلقا[١] .

والذين تحدثوا عن التكرار من الوجهة النفسية أشاروا إلى أهميته في النفس الإنسانية ، وفيما يأتي محاولة لاستجماع ما كتبه العلماء قديماً وحديثاً من أهداف التكرار من الناحية النفسية .

الأغراض النفسية لأسلوب التكرار

١) هو أسلوب تعبيري يصور انفعال النفس بمثير ، واللفظ المكرر فيه هو المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان ، فاللفظ المكرر هدفه الإثارة النفسية ، والتكرار مرتبط بقانون التردد[٢] من قوانين تداعي المعاني .

٢) يعد أحد الوسائل التربوية ، إذ يرجع أثر التكرار إلى أنه يزيد الشيء المكرر تميزاً من غيره ، فكما أن الأشخاص الذين يقع عليهم النظر أكثر من مرة يزدادون وضوحاً في الإدراك والذاكرة ، كذلك الشأن بالنسبة للفظ المكرر يزداد استقراراً في الأذهان ، ويكفي أن يكون التكرار هو الركن الأساسي الذي يقوم عليه فن الدعاية[٣] ، فهو وسيلة لتثبيت ما نتعلمه ، وهو المسؤول عن تثبيت المهارات التعليمية[٤] ، إضافة لذلك يعد من أهم وسائل ترسيخ المعلومات في الذاكرة التي أشار علماء النفس إليها ، حيث قالوا بأن الذاكرة فيها أربع عمليات عقلية أساسية ، إحدى هذه العمليات ما يطلق عليه اسم إرساخ الانطباعات[٥] (Fixation) التي تقوم بتكوين روابط عصبية في المخ ،

= ص ١٠١ .

(١) التكرير بين المثير والتأثير ، ص ٨٨ .

(٢) قانون التردد : ويقصد به كلما كان ترداد الذكريات إلى ساحة الشعور أكثر كان استحضارها أسهل ، مراد ، يوسف : مبادىء علم النفس العام ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٤م ، ط ٢) ، ص ٢٢٤ـ٢٢٦ .

(٣) للمزيد انظر : مراد ، يوسف : مبادىء علم النفس العام ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٥٤م) ، ص ٢٢١ـ٢٢٥) .

(٤) عبد الغفار ، عبد السلام : مقدمة في علم النفس العام ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ط ٢ ، د . ت) ، ص ٢٨٢ .

(٥) وتعني تعلم المعلومات والخبرات ، وتكوين انطباعات عنها في شكل تصورات ذهنة تعرف بـ =

حيث إنها تدعم هذه الارتباطات كلما تكررت هذه العملية ، فكأن وظيفة التكرار استدراك ما يفوت ذاكرة الإنسان نتيجة عدم الانتباه أو عدم التركيز[1] ، وبهذا تكون وسيلة من وسائل ترسيخ المعلومة ، فالقرآن يؤكد على تلك الحقائق الكبرى والمسائل المهمة مرة بعد مرة حتى ترسخ في الذهن ، وهنا نستذكر معاً فطنة مفسرينا إلى هذا الملحظ ، فالزمخشري قال في تفسيره : « إن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور »[2] .

٣) كثيراً ما تكون ظاهرة تكرار الألفاظ المترددة على الألسنة معبرة عن وجدان الإنسان في حالاته المختلفة ، إذ من المعروف أن طبيعة الإنسان تميل إلى تكرار اللفظ في بعض حالاتها مثل « الخوف ، أو مواقف الاعتذار ، أو التنصل التي هي منبعثة في الغالب من وجدان المعتذر تأكيداً للبراءة من الذنب ، أو التوبة من موجب المؤاخذة أو حتى رد الاتهام عن نفسه ، ويلحق به ما كان التكرار ناشئاً فيه عن تحقيق مشتهى النفس من الممدوح والمادح ، ولهذا نجد أن علماء البلاغة قد أشاروا إلى أن من أغراض التكرار أحياناً المدح ، وأحياناً التلطف والاستمالة[3] .

٤) والتكرار مطلب نفسي أيضاً تلجأ إليه حين تخشى النفس من وقوعها في الخطأ أو النسيان ، وقد نبه إلى هذا الوجه الإمام الخطابي حين قال : « وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها »[4] .

٥) ويؤدي التكرار وظيفة نفسية بارزة ، وذلك حين تتداخل المشاعر ، وتزدحم العواطف المثارة ، ويحتد المقام ، لا يكون سوى التكرار دليلاً على ذلك ، فيكون معينا على توزيع الانفعال ، ويكون دليلاً على هذا الازدحام ، وهو ما لا يفهم لو حذف

= آثار الذاكرة (memory traces). أما بقية هذه العمليات فهي : ٢ـ الاستبقاء (Vetention) ٣ـ الاستدعاء (Recai) ٤ـ التعرف (Recognition) .

(١) منصور : أسس علم النفس العام ، ص ٢١٦ـ٢١٧ .

(٢) الزمخشري : الكشاف ، ٣/ ٣٨٥ .

(٣) انظر مثلا : الزركشي : البرهان ، ١/ ١٠ وما بعدها .

(٤) الخطابي : ثلاث رسائل ، ص ٤٨ .

المكرر ، ولكان التعبير مبتوراً ، كصيحة لم تتم ، أو جملة لم تكتمل .

٦) وقد لا يفهم التكرار من اللفظ فحسب ، بل من تكرار صورته ، وتصورها في الذهن ، وهو ما تلمسه النفس من استخدام لفظة (كلما) الدالة على تكرار حدوث الفعل ، وبهذا يمكن فهم تلك الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة (كلما) في القرآن ، إذ كثيراً ما يكون الغرض منها ذلك الملحظ النفسي الذي يكون القصد منه التطويل ، ولعل المثال الآتي يوضح الفكرة : قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[1] . يقول سيد[2] : فلفظ « كلما » هنا يدع الخيال يستعرض المشهد المروع ويكرر العملية المفزعة وكلما زاد فزعاً وارتياعاً زاد إقبالا على التكرار ، والهول المروع يشد الحس إلى المنظر المتخيل شداً ، ويقف به أمام المشهد لا يريم » .

٧) المعنى الواحد يتردد في أسلوب القرآن الكريم بصورتين أو أكثر ، كل منها غير الأخرى وجهاً أو عبارة . . والتكرار دليل على مجاوزة العرب مقدار العجز النفسي إلى العجز الفطري[3] .

٨) التكرار فيه مراعاة لمقتضى الحال ، والأسلوب القرآني واضح فيه هذه المراعاة ، فقد أشار الجاحظ إلى هذا السرّ حين قال : « بسبب أن بني إسرائيل أهل عناد احتيج إلى التكرار » ، فالجاحظ بهذا يرشدنا إلى ملحظ نفسي كان وراء تكرار الحديث الموجه إلى بني إسرائيل[4] . أما « الأعراب فلاعتمادهم على ذاكرتهم لأنهم أميون يناسبهم الكلام الموجز »[5] .

٩) يهدف هذا الأسلوب في القرآن إلى بيان حقائق هذا الدين ، وتثبيت تلك القضايا الكبرى لتقريرها في النفوس[6] . وهو ملحظ نفسي ـ أيضاً ـ .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٥٦ .

(٢) قطب ، سيد : مشاهد القيامة في القرآن ، ص ٢٠٦ .

(٣) الرافعي : إعجاز القرآن ، ص ٢٢٠ .

(٤) الجاحظ : الحيوان .

(٥) أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ١٤٧ .

(٦) قنيبي ، حامد صادق : المشاهد في القرآن الكريم ، (الزرقاء : مكتبة المنار ، د . ط ، =

١٠) كما أن من طبيعة جسم الإنسان حاجته المستمرة إلى الأشياء ، وهذه الحاجة متفاوتة ، فكذلك حاجات النفس المعنوية ، فهي محتاجة في كل لحظة إلى خالقها ، ومثال ذلك : جملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ آية واحدة تتكرر (١١٤) مرة لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياءً فهي حاجة نحتاجها في كل لحظة كالهواء والضياء[1] .

يقول بديع الزمان النورسي ـ وقد أرشدنا إلى ملحظ لطيف ولمعة جديدة لأسرار التكرار ـ :

« كما أن الحاجات الجسمانية مختلفة في الأوقات ، فإلى بعضٍ في كل آن كالهواء ، وإلى قسم في كل وقت حرارة المعدة كالماء ، وإلى صنف في كل يوم كالغذاء ، وإلى نوع في كل أسبوع كالضياء ، وإلى طائفة في كل شهر . . وإلى بعض في كل سنة كالدواء . . كذلك الحاجات المعنوية الإنسانية مختلفة . . فهي محتاجة في كل آن إلى خالقها « الله » ، وقسم في كل عمل « بسم الله » ، وقسم في كل لحظة « لا إله إلا الله » . . فتكرار الآيات والكلمات للدلالة على تكرر الاحتياج ، وللإشارة إلى شدة الاحتياج إليها ، ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه وتشويقه على الاحتياج ، ولتحريك اشتهاء الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية »[2] ، كما أشار إلى لمعة أخرى بقوله : « اعلم أن ما اقتضى تكرار بعض أجزاء القرآن ما اقتضى الذكر والدعاء ، إذ القرآن كما أنه كتاب حقيقة وشريعة وكتاب معرفة وحكمة ، كذلك هو كتاب ذكر ودعاء ودعوة ، والذكر يردد ، والدعاء يكرر ، والدعوة تؤكد . . فيكون تكراره أحسن وأبلغ . . بل ألزم »[3] .

« ثم إن القرآن يظهر نوعاً من إعجازه البديع في تكراره البليغ لجملة واحدة أو لقصة واحدة ، وذلك عند إشارة طبقات متباينة من المخاطبين إلى معان عدة وعبر كثيرة ،

= ١٩٨٤م) ، ص ٢٩٣ .

(١) النورسي ، بديع الزمان : المعجزات القرآنية (كليات رسائل النور) ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، (استانبول : د . ن . ط ، ١٩٩٠م) ، ص ١٨٦ .

(٢) النورسي : كليات رسائل النور ، ص ٧١ .

(٣) النورسي : كليات رسائل النور ، ص ٤١٠ ، وانظر : ص ٧٠ .

فهو كتاب دعاء ودعوة كما أنه كتاب ذكر وتوحيد ».. إن تكرار الحاجة يستلزم التكرار ، فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة ، فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين ، فهو يكرر جملاً تملك ألوف النتائج ويكرر إرشادات هي نتيجة لأدلة لا حدّ لها[1] ، فيكون التكرار بلاغة في غاية العلو والرفعة ، وجزالة ـ بل فصاحة ـ مطابقة تطابقاً تاماً لمقتضى الحال .

١١) ثم إن القرآن لما كان خطاباً للناس جميعاً ، والناس ليسوا سواء ، فمنهم من لا يكفيه الوجيز والخلاصة من الحديث ، بل يحتاج إلى الأمر مفصلاً مطنباً . ومنهم من تكفيه الخلاصة ويقنعه الإيجاز ، فاقتضى الأمر أن تصرف المعاني القرآنية في طرائق مختلفة من التعبير والبيان »[2] ـ والله أعلم ـ .

١٢) التكرار مهم جداً إذ هو الذي يدل على النفس المبدعة ، قد كشفت عن مخزونها من المشاعر والأحاسيس.. وليست البلاغة إلا تعبيراً عن الإنسان ومواقفه النفسية.. والتكرار هو الذي ينبع من النفس[3] .

١٣) لا بد لفهم قضية التكرار من الأخذ بعين الاعتبار تلك الظروف النفسية التي كان يعيشها أصحاب الدعوات مع أقوامهم ، فقد تكون الإحاطة بالظروف النفسية لصاحب الرسالة وأتباعه أكثر الوسائل المعينة على فهم الأسلوب القرآني ، إذ ربما تبرز مقدار المقاومة التي كان أتباع الرسالة يحتاجونها لمواجهة الذين يقفون في وجه الدعوات .

وخلاصة ما يمكن أن يقال في باب التكرار بأنه أسلوب متناسب مع تفاوت طبقات الناس في قدراتهم الفكرية والذهنية ووسائل الإدراك ، وبالتالي يستفيد الناس من تلك التعاليم الإلهية بحيث لا يحرم منها أحد ، وهو الأسلوب التعليمي الناجح المتبع قديما وحديثاً .

---

(١) النورسي : المعجزات القرآنية (كليات رسائل النور) ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، (استانبول ، ١٩٩٠م) ، ص ١٨٥١٨٤ .

(٢) قنيبي : المشاهد في القرآن الكريم ، ص ٢٩٨ .

(٣) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٤٤٥ .

المطلب الثالث : صور التكرار في القرآن وأمثلته

تارة يكون بتكرار الأداة ، حيث تؤدي وظيفتها في الجملة بعد أن تستوفي ركنيه .

تكرار كلمة مع أختها لداع ما مثل « هم » من قوله تعالى ﴿وهم بالآخرة هم الأخسرون﴾ . ومنه ما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾[1] ، وتارة يكون بتكرار الكلمة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾[2] .

أحياناً نجد شكل التكرار في الفاصلة القرآنية يمشي على نمط واحد كما في قوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾[3] .

تكرار الأوامر والنواهي والإشارات والنصح وهذا اللون نجده في القرآن الكريم ليقرر حكما شرعيا ما ، فالنداء يكرر لتقرير الأحكام الشرعية وتثبيتها في نفس المخاطبين .

ذكر القصص والأخبار أكثر من مرة ، وهو ما يسمونه التكرار في القصص القرآني ، إلا أن الذي يجب ملاحظته في هذا المقام أن القصص القرآني يتعدد ذكره في القرآن لتعدد مواطن العبرة فيه تارة ، وهذا الذكر لا يكون تكراراً لأنا نلحظ بشكل واضح أن كل موضع يضيف معنى جديداً[4] ، والقرآن يتناول الحدث من جوانب متعددة فمرة يأتي به من جانب المكان ومرة من جانب الزمان ، ومرة من جانب الأشخاص . وهناك غرض آخر وراء هذا الذكر لأكثر من مرة وهو أن فيه تسلية لقلب النبي ﷺ .

وتارة يكون بتكرار الفاصلة ، وهذا على أشكال متعددة فبينما نجد بعضها في سور

---

(١) سورة النحل ، الآية ١١٩ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ٥ .

(٣) من سورة الرحمن .

(٤) يمكن لمزيد من التفصيل حول هذا الرجوع إلى الكتب الآتية : عباس : القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ، وانظر : الزلط : قضية التكرار في القصص القرآني ، الخطيب : القصص القرآني مفهومه ومنطوقه .

مختلفة ، نجد بعضها في السورة الواحدة تأخذ شكلاً واحداً ، وقد يكون من أبرز هذا النمط تلك الفواصل المنتهية بأسماء الله الحسنى « غفور رحيم » ، وتارة يكون بتكرار آية معينة .

ومن أغراض التكرار غير ما تقدم حث السامع على المشاركة الوجدانية ، ومنها قصد تكرار المبالغة ، ومنها بقصد تكرار القسم ، والتحذير ، والإغراء والتعليل ، ومنها التنبيه على ما ينفي التهمة ، ومنها الإيقاظ من سنة الغفلة ، ومنها تذكر ما قد بعد بسبب طول الكلام ، ومنها زيادة المدح ، ومنها التعظيم ، ومنها التلذذ بذكر المكرر ، ومنها التنويه بشأن المذكور »[1] .

قراءة نفسية لنماذج من أسلوب التكرار

قال تعالى على لسان لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه : ﴿يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ . . يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ . . يَابُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ . .﴾[2] ، يلاحظ في هذا السياق كيف تكررت اللفظة (يا بني) وهو أسلوب قصد منه استدراج المخاطب والتلطف في استمالته بالتحبب إليه ، فيناديه المتكلم بنداء المشفق المتودد ، ويكرر النداء . ومثله لفظة (يا قوم) من المقطع الآتي على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿يَاقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . . . يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . . . وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي . . . يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ(٣٨)يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . . وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[3] ، نجد هذه العبارة تتكرر في كلامه ، والتي قصد منها استدراج المخاطب ، وإشعال شعور المخاطب إن كان خافتاً ، وإيقاظ عاطفته من الغفلة ، فالبعد النفسي في هذه العبارة ملحوظ وبارز ، بل مقصود ، ومثله يمكن أن يقال في تكرار لفظ (يا أبت) على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكذلك تكرار لفظة (يا قوم) على لسان الأنبياء عليهم السلام .

---

(١) للمزيد انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، وانظر : ابن معصوم ، علي صدر الدين : أنوار الربيع ، (النجف : د . ن . ط ، ١٩٦٩م) ، ٣٤٥/٥ .
(٢) سورة لقمان ، الآيات ١٣ـ١٧ .
(٣) سورة غافر ، الآيات ٢٧ـ٤١ .

نموذج آخر وهو يضم أمثاله ، تلك المقاطع التي تتكرر في بعض السور ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾[4] .

هذه المقاطع زاخرة بالمعاني النفسية التي تكتسبها من سياق الآيات ، وهي منسجمة مع الجوانب التربوية في تعليم الإنسان ، فعلى سبيل المثال نجد أن أهم الأغراض من تكرار المقطع ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ من سورة الرحمن ، هو لفت الأنظار إلى استقلالية هذه النعم والإشارة إلى أن كل نعمة من هذه النعم هي نعمة مستقلة ، وحتى لا تتوهم النفس أن المذكور كله نعمة واحدة ، نجد أن هذا التكرار قد لفت الأنظار إلى ذلك ، أما الملحظ النفسي فهو ناشىء من أن طبيعة النفس الإنسانية : الفجور وكفران النعمة ونسيانها ، فيكون في ذكر النعمة وتكرارها نوعٌ من حمل النفس الإنسانية على تذكر هذه النعمة ، هذا من حيث النظرة الإجمالية أما من حيث النظرة التفصيلية فإن كل إنسان يسعى ويتحرك ، وله غاية ومقصد من الانتفاع بهذه النعمة ، فيكون هذا التكرار نوعاً من تعداد حركة الإنسان في التعامل مع هذه النعم »[5] ، ويلفت النورسي أنظارنا إلى سرّ هذا التكرار ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ و﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ فهو يقول : « هذه الآيات المكررة تصرخ في كل منهما في وجه العصور قاطبة ، وتعلن إعلاناً صريحاً في أقطار السماوات والأرض أن كفر الجن والإنس وجحودهم بالنعم الإلهية ومظالمهم الشنيعة ، يثير غضب الكائنات ، ويجعل الأرض والسماوات في حنق وغيظ عليهم . . ويخل بحكمة العالم والقصد منه . . ويتجاوز حقوق المخلوقات كافة ويتعدى عليها . . . ويستخف بعظمة الألوهية وينكرها »[6] ، أما الشأن في تكرار آيات الوعد والوعيد كقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾[7]

---

(١) من سورة الرحمن .

(٢) من سورة القمر .

(٣) من سورة المرسلات .

(٤) من سورة النمل ، انظر الآيات ٦٠_٦٥ .

(٥) جعرابة : المدخل إلى التفسير ، ص ٥١٢ .

(٦) النورسي : المعجزات القرآنية ، ص ١٨٧ .

(٧) من سورة القمر .

وقوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[1] . فالملحظ النفسي يكمن في أنه أسلوب لمتابعة النفس وتجديد التذكر لها ، وقد لفت الزمخشري أنظارنا لذلك بقوله : « فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ومرات ، ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولي عليهم الغفلة »[2] ، ومثل الذي تقدم يمكن أن يقال في بقية المواضع التي يتوهم القارىء أن فيها تكراراً كالذي في سورة « الكافرون » وفي سورة « التكاثر » وغيرها[3] .

نخلص مما تقدم إلى أن هذا الأسلوب في كتاب الله زاخر بالمعاني النفسية ، ما على الناظر في كتاب الله والمتمعن فيه إلا أن يجيل النظر غير مرة ليقف على أسراره النفسية .

* * *

---

(١) من سورة المرسلات .

(٢) الزمخشري : الكشاف ، ٤/ ٤٠ .

(٣) يحسن بالباحث أن يحيل القارىء في توجيه أمثال هذه المقاطع إلى بحث بعنوان : « قضية التكرار في كتاب الله » ، لفضل عباس ، ويمكن النظر أيضاً في كتاب إعجاز القرآن للمؤلف نفسه ، ص ٣٣٢ـ٣٣٩ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

الصورة البيانية والجوانب النفسية

تمهيد

تعدّ الصورة البيانية إحدى أهم وأبرز خصائص الأسلوب القرآني ، فهي الأسلوب المفضل في التعبير القرآني[1] ، والصورة البيانية التي يقصدها الباحث هي : « كل ما يتجه في الكلام إلى إخراج الكلمة أو الجملة من قالبها اللفظي المجرد إلى إثارة الوجدان ، وتحريك المشاعر والأحاسيس ، ومن لفظة جامدة إلى صورة حية للمعنى ، ومن مخاطبة للعقل وحده إلى إشراك الوجدان والعاطفة معاً في إدراك المعنى » .

إذ ليست ألفاظ القرآن مجموعة حروف تدل على المعنى فحسب ، بل هي : « ينبوع يفيض بالصور والأحاسيس والألوان ، وليست المعاني في القرآن مجردات اعتبارية يدركها العقل ، وإنما هي صورة حية تمرّ بخيال القارىء أو السامع ، ويلمسها إحساسه ، وتكاد تراها عينه »[2] .

يذكر أن علماء العربية يقسمون الكلام إلى ضربين خبر وإنشاء ، فالخبر : ما كان حديثاً عن معنى قد وقع بقصد الإطلاع عليه لمن كان جاهلاً ، أو التذكير به لمن كان ناسياً . والإنشاء : تحصيل معنى عن طريق استفهام أو طلب .

فالكلام بهذا مرتبط بالمعنى بجميع أحواله ، ولما كان المعنى يشمل كل ما يدركه العقل فإننا بهذا ندرك تلك الصلة ما بين الكلام والعقل . فإذا ما أدرك العقل هذا المعنى واستوعبه نقله إلى مكامن الإحساس والوجدان من ذلك المعنى ما يلائمه من التأثيرات المختلفة ، هذا في الكلام المعتاد . أما الخطاب في القرآن فلا يتجه إلى

---

(١) كما يعبر عنها سيد قطب ، انظر : التصوير الفني في القرآن ، ص ٣٣ .
(٢) البوطي : من روائع القرآن ، ص ١٦٩ .

خطاب العقل وحده ، بل يخاطب كلاً من العقل والخيال والشعور. . . يحمل إلى العقل معنى يخاطبه به ، وينفث في المشاعر والخيال إحساساً بصورة ذلك وينبهنا إلى ما فيه من حركة وحياة(١) .

وقد كان غرض الباحث من اختيار هذا العنوان أن يجمع فيه أكبر قدر من الأساليب المعروفة عند أهل العربية من : « تشبيه ، أو تمثيل ، أو استعارة ، أو كناية ، أو مجاز مرسل » أو غير ذلك مما هو معروف في أساليب العربية .

والجامع المشترك بين هذه الأساليب أنها تحمل إلى الخيال صورة المعنى ، وتبث فيه الحركة والحياة ، وهذا ما يمكن أن نلمسه في اللفظة والجملة على حد سواء ، إذ كثيراً ما نجد اللفظة تؤدي هذه المهمة(٢) .

أما إذا كان السؤال عن أمثلة هذا النمط في التعبير القرآني فإن الجواب عليه يكون هو القرآن كله(٣) ، حيثما تعرض لغرض من الأغراض ، وحيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد ، أو حالة نفسية ، أو صفة معنوية ، أو نموذج إنساني ، أو حادثة واقعة ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ، أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً في جدل محاجة ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقاً ، واعتمد فيه على الواقع المحسوس والمتخيل المنظور .

وبهذا ندرك أن التصوير القرآني له آفاق وطرق متعددة ، وكثيراً ما نجدها مجتمعة في نص واحد ، أما الوسائل التي تحقق مظاهر التصوير ، سواء أكانت استعارة أو مجازاً مرسلاً أو تشبيهاً أو تمثيلاً ، فهي عبارة عن قواعد استخلصت واستنبطت من الأسلوب القرآني ، إذ القرآن هو الأساس لهذه القواعد .

هذا الأسلوب القرآني غني بالمعاني والآثار النفسية التي تسري إلى القلوب ، إذ هو يخرج المعنى المجرد في مظهر المحس الملموس ليبث فيه الروح والحركة .

ومن هنا ندرك الحكمة من كون القرآن عربياً ، فقد خاطب القوم بما يعرفون في هذا المجال إلا أنه فاقهم في حسن الصوغ ولطف المعنى وروعة الأسلوب .

---

(١) للمزيد انظر : البوطي ، من روائع القرآن ، ص ١٦٨ .

(٢) وقد تقدم ضرب الأمثلة على ذلك في بابها المخصص .

(٣) كما يقول قطب ، سيد : التصوير الفني في القرآن ، ص ٣٤ .

وأما إذا كان السؤال عن السرّ في كثرة هذا النمط في الأسلوب القرآني ، حتى إنه السمة الغالبة في أسلوبه ، فإن جوابه يكمن في كون التعبير بالتصوير لا يقل درجة عن التعبير بالحقيقة فالمجاز : على سبيل المثال ضرب من الارتقاء بالتصوير البشري فوق الواقع المعاش ، لذلك كان أبرع في رسم الصورة وأروع في التأثير الفني .

والاستعارة : أصدق أداة تجعل القارىء يحس بالمعنى أكمل إحساس وأدناه ، وتصوّر المنظر للعين وتنقل الصوت للأذن وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسوساً .

والكناية في التعبير القرآني : تقوم بنصيبها كاملاً في أداء المعاني ، وتصويرها خير أداء وتصوير ، بما لا تستطيع الحقيقة أن تؤدي المعنى الذي أدته .

والتشبيه في القرآن : ينزع من كنز الحقيقة الشاخصة أمام البصائر الثابتة ، ويجمع بين متعة العقل والقلب والروح ، تمتزج فيه الحقيقة بالجمال ، وحقائق العلم بدقائق الأدب[١] .

وقد يكون التعبير في القرآن خالياً من الخيال ، إلا أن الصورة المشعة منه هي التي تثير الجمال في بعض صور القرآن ، فقد لا نجد في التعبير استعارة ولا كناية ولا تشبيهاً إلا أن الألفاظ تعبر عن معنى المستحيل غيباً بصورة المستحيل حساً ومشاهدة[٢] كما هو الحال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٣] .

تلك الظلال والألوان التي تتركها الصياغة على الأفكار والمشاعر ، هي التي تبقى حية ماثلة بجملتها في الفكر والوجدان ، حتى بعد انقضاء الصورة وانتهاء التعبير ، لا تزال تهيم بها النفوس[٤] ، فالصورة البلاغية « امتداد للصورة المرسومة في النفس »[٥] .

---

(١) سعيد ، عبد الباري طه : أثر التشبيه في تصوير المعنى « قراءة في صحيح مسلم » ، (القاهرة : د . ن . ط ١ ، ١٩٩٢م) ، ص ١٢ .

(٢) انظر : قطب ، سيد : التصوير الفني في القرآن ، مشاهد القيامة في القرآن .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٤٠ .

(٤) عبد التواب ، صلاح الدين : الصورة الأدبية ، ص ١١ .

(٥) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢١٩ .

تلك المعاني النفسية هي التي يقصدها الباحث من حديثه عن ألوان التعبير التي تقدم ذكرها . وإلا فمسألة المجاز وغيرها من ضروب الكلام التي تخرج التعبير عن معناه الحقيقي المباشر ، خاض فيها العلماء قديماً وحديثاً ، ولا يظن الباحث أنها تنتهي في يوم من الأيام إلى قرار ، ذلك أنها معركة كان الثائر لغبارها تلك التصورات العقدية التي أصبغتها المذاهب الفكرية على الأسلوب اللغوي مسقطة إياها على الأسلوب القرآني .

ما أحسن وأجمل أن ننظر إلى الأسلوب القرآني بعيداً عن تلك الملابسات الفكرية والمصطلحات العقلية التي قد توقع في إشكالات عقدية متنوعة ، بعيداً عن تلك التصورات الفكرية. . أن ننظر إليه من وجهة أدبية جمالية ، بعيداً عن تعقيدات أهل المنطق والكلام .

وما أسلم أن يكون فهمنا للألفاظ مطابقاً لما نجده في نفوسنا بغض النظر عن اختلاف تلك المسميات التي يجب أن نطلقها .

وعلى الرغم من يقين الباحث في أن المتحدث في هذا الميدان لا يسلم بحال من النقد ، إلا أن أمله في أن يقلل من حجم هذا النقد ، وذلك ما لا يتأتى إلا عندما يقرأ القارىء هذا المبحث وغيره مما يشبهه قراءة متجردة من الملابسات التي أحاطت بهذا المبحث وضروبه ، يقرؤه بالنظرة التي كتبها الباحث ، لا بالإشكاليات التي دخلت مع القارى ، آن لنا أن نقف وقفة صريحة أمام هذه الأسباب ، ونحررها من ملابساتها التاريخية والأفكار المذهبية .

آن لنا أن ننظر إليها كما تحس بها نفوسنا عند سماعها للمرة الأولى ، لا كما نريد لها أن تكون على وفق معطياتنا ، كما تتفاعل معها نفوسنا ، لا كما نفسرها على الفهم. . كما توحي بها الألفاظ ، لا كما تمليها التصورات. . بتلك الشفافية نتمكن من إدراك الجمال النفسي لهذه التعبيرات. . تلك الشفافية التي أثمرت وأينعت نظرية التصوير الفني في القرآن ، وأخرجت لنا كنوزاً لا تنفد ، وينابيع لا تنضب ما بقي القرآن يتلى[(١)] .

---

(١) يقول سيد قطب : « ثم أخذ التفسير ينمو ويتضخم ابتداءً من أواخر القرن الثاني ، ولكن بدلاً من أن يبحث عن الجمال الفني في القرآن أخذ يغرق في مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية =

أي منا لا يدرك حقيقة معنى « الأعمى » الوارد في قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾[1] ؟ وأي منا لا يفرق بين قولنا : « أسد في الغابة » ، وقولنا « أسد في ساحات الوغى » .

وهكذا ندرك أن : « التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، والكناية ، والمجاز » ، كلها تشكيلات فنية في الكلام تصدر عن العالم النفسي ، كلها طرق مختلفة للتعبير تبعا لأسلوب النفس ، كلها تسهم في رسم صور[2] وإيحاءات للألفاظ ، فيما يلي عرض لبعض صور البيان القرآني : التشبيه ـ الاستعارة ـ الكناية ـ المجاز .

المبحث الأول
بلاغة التشبيه ودلالاته النفسية

المطلب الأول : تعريفه وتقسيماته

التشبيه : إحدى صور البيان الرائعة التي تكشف لنا عما تدركه الوجدانات ، أو تتفاعل معه المشاعر والأحاسيس ، ذلك أنه يشرك السامع بما أحس به المتكلم في نفسه من المعاني .

المقصود بالتشبيه :

يذكر هنا أن تعريفات التشبيه قد تعددت منذ أن وضع البيانيون أيديهم عليه كصورة من صور التعبير البياني ، إلا أنها في أغلبها تشترك وتتقارب في المضمون ، سواء كان تعريفه : الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى »[3] ، أو « وصف الشيء بما يقاربه

= وخلقية وفلسفية وتاريخية وأسطورية ، وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مهيأة للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفني في القرآن » . التصوير الفني في القرآن ، ص ٢٦ .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٢ .

(٢) هناك أربعة أنواع من الصور تنشأ في نفس السامع أو القارىء بسبب من الألفاظ :

(٣) ١ـ صور لفظية : ناشئة عن الإدراك الحسي (السمعي أو البصري) عند السماع أو القراءة ، هي في الغالب ناشئة عن جرس الكلم وموسيقاه .

٢ـ صور معنوية صريحة : وهي الصور الذهنية التي بعثها في النفس معاني الألفاظ والعبارات ، وهي وسيلة فاعلة للتأثير في الفكر والوجدان .

٣ـ صور معنوية ضمنية : مجموعة من الصور الذهنية التي تستنبط استنباطاً . =

ويشاكله »[1] ، أو « مشاركة أمر لآخر في معنى »[2] ، أو « العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل »[3] ، إذ يلاحظ في التعريفات أن فيها طرفين ، حيث يقسم علماء البلاغة[4] التشبيه باعتبار هذين الطرفين إلى : تشبيه محسوس بمحسوس ، تشبيه معقول بمعقول ، تشبيه معقول بمحسوس ، تشبيه محسوس بمعقول ، وبهذا يتبين لنا أركان التشبيه : المشبه ، المشبه به ، أداة التشبيه ، قدر مشترك بينهما .

من هذه الأطراف تتشكل الصورة التي بدورها تبرز لنا تلك الملامح النفسية ، وهذا ما يعنينا من البحث في هذا الأسلوب ، وهو ما غفل عنه بعض القدماء حين اعتمدوا العقل وحده رابطا بين الأمرين ، مغفلين في كثير من الأحيان وقع الشيء على النفس وشعورها به ، وهذا ما أخذه بعض المحدثين ، ونبه عليه في مباحث المتقدمين[5] .

المطلب الثاني : التشبيه في القرآن والمعاني النفسية

* الأصل في التشبيه إدراك الصلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسي ، فهو دلالة فنية .

* تشبيه الشيء بغيره يهدف إلى تقرير وصف أو معنى في ذلك الشيء عن طريق التشبيه بمشبه به لكون ذلك الوصف أو المعنى واضح في المشبه به واشتهر به ، والذي يكون دوره إثارة مشاعر الارتياح والاستحسان في النفس الإنسانية ، « ذلك أن هذا النوع من التعبير فيه جدة وطرافة »[6] ، يقول ابن الأثير : « وإنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أوكد

= ٤ـ صور لا هي ضمنية ولا هي صريحة ، وإنما هي معنوية ترابطية (تتوارد على الذهن ، وتسلك سبيلها من منطقة شبه الشعور إلى منطقة الشعور تبعا لقانون تداعي المعاني » . للمزيد انظر : عبد التواب ، صلاح الدين : الصورة الأدبية ، ص ٢٨ـ٢٩ .

(١) انظر : حسين ، عبد القادر : القرآن والصورة البيانية ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٩٨٥م) ، ص ٤٥ .

(٢) ابن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ص ١٩٤ .

(٣) القزويني : الإيضاح ، / ٢١ ، القزويني : التلخيص ، ٢٣٨ .

(٤) الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٧٤ .

(٥) انظر : حسين : القرآن والصورة الأدبية ، ص ٤٦ .

(٦) من هؤلاء أحمد أحمد بدوي انظر : من بلاغة القرآن ، ص ١٨٧ .

في طريق الترغيب فيه أو التنفير منه »[١] .

التشبيهات في القرآن لم تقف عند مجرد تسجيل وجوه الشبه المادية بين الأشياء ، بل تجاوزتها في المماثلة النفسية ، وتعمقتها حتى أضفت عليها حياة شاخصة وحركة متجددة ، فانقلب المعنى الذهني إلى هيئة أو حركة . وتجسمت الحالة النفسية في لوحة أو مشهد[٢] .

التشبيه محاولة لغوية إبداعية لتقريب الأشياء من الصورة التي صورتها النفس ، وامتلأت بهذه الصورة المخيلة الإنسانية. . . . فهو نتاج نفسي حيث تميل النفس إلى التوحيد ، وتخليق الأمثلة الواحدة هياماً باستدعاء البعيد ، وشوقاً إلى معرفة المجهول. . وهو من أهم وسائل تحقيق الذات الإنسانية في التعبير عن حاجاتها[٣] .

التشبيه أسلوب يخاطب النفس ، ذلك لما يحصل لها من الأنس بإخراجها من خفي إلى جلي ، ومن معقول إلى محسوس ، ومما لم نألفه إلى ما نألفه. . . . فالتشبيه تجسيد للصورة النفسية التي ارتسمت للحسن والقبيح في عالم النفس ، ومن ثم كان ارتياح النفوس عند سماعها وتلقيها لأمثال تلك الصور التي يلعب التشبيه دوراً فنياً فيها[٤] ، فالنفس تصنع الصورة المثالية ، واللغة تصنع الحركة المادية التي تصاحبها وترافقها الصورة النفسية ليتحقق النشاط الإبداعي[٥] .

المدقق في العلاقات التي ينشئها التشبيه يدرك أنها دائرة على المعاني النفسية ، تصوير للنفس بما فيها من مشاعر تجاه المشبه والمشبه به. . إذ النفوس أولاً تتصور المراد ، ثم تبدع في تركيب لغوي يصور بدقة الأداء النفسي للتشبيهات. . والتشبيهات تستمد موادها التصويرية من عالم النفس وإحساسها بعالم الطبيعة والمحسوسات[٦] .

التشبيه في القرآن يهدف إلى التأثير في العاطفة (من ترغيب وترهيب) ، وربما

---

(١) للمزيد انظر : عبد التواب ، صلاح الدين : الصورة الأدبية ، ص ٤٤ .
(٢) عبد التواب ، صلاح الدين : الصورة الأدبية ، ص ٤٥ .
(٣) أبو السعد : الأداء النفسي والبلاغة ؛ ص ٢١٣ـ٢١٤ .
(٤) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢١٤ .
(٥) أبو السعد ، لأداء النفسي ، ص ٢٢٠ .
(٦) أبو السعد ، : الأداء النفسي ، ص٢١٥ـ ٢٢١ .

لأجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً[1] . كقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[2] ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾[3] ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾[4] ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[5] ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾[6] وغيره .

يستخدم القرآن أحياناً طريقة التشبيه خاصة عند الموازنة ، ثم يترك النفس تصل إلى النتيجة ، وهذا من الوسائل المؤثرة في النفس ، إذ هذا الأسلوب يقدّم للنفس شبيها ، ثم يتركها تصل إلى النتيجة بسكون وهدوء[7] ، وأمثلة هذا النوع في القرآن كثيرة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[8] ، وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[9] ، يذكر هنا أن القرآن الكريم نظر لأعمال الكافرين من زوايا عدة : تارة يصورها بالزرع أصابته ريح شديدة البرودة ، وتارة برماد ذرته الرياح في يوم عاصف ، وأخرى بسراب يحسبه الظمآن ماء ، ومرة كمن وقف في وسط من الظلام حتى لا يكاد يرى يده . ولعل في هذا الأسلوب تدرجاً في التصوير تهتزّ له المشاعر ، وتتحرك له الوجدانات .

كما أن التشبيه في القرآن يؤتى به ليصوِّر الحالة النفسية للإحساس بالزمن كما في

---

(١) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ٢٠٤ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧١ .
(٣) سورة المدثر ، الآية ٥٠ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٧٦ .
(٥) سورة الجمعة ، الآية ٥ .
(٦) سورة الحشر ، الآية ١٦ .
(٧) بدوي ، ص ٢١١ .
(٨) سورة المزمل ، الآيتان ١٥-١٦ .
(٩) سورة التوبة ، الآيات ٦٨-٦٩ .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[1] وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾[2] وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾[3] انظر كيف صورت لنا جملة « يتعارفون بينهم » تلك الحالة النفسية في الإحساس بقصر الزمن ، كأن أهلها لم يفعلوا شيئاً في حياتهم الدنيا سوى اللقاء والتعارف[4] .

كثر استخدام هذا اللون من التصوير في الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة ، وفي ذلك من المعاني النفسية التي تتحصل من اجتماع التأثير إلى جانب التصوير ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[5] . وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[6] ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[7] ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[8] . وهكذا نجد أن القرآن يستخدم أسلوب التشبيه ليقرب الأمر الغيبي إلى الذهن بمحسوس ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[9] .

إن ما بين المشبه والمشبه به من تباين له دور كبير في التأثير على النفس عندما نجد أن القرآن يؤلف بينهما في صورة رائعة معبّرة ، فالقرآن كثيراً ما يعمد إلى التمثيل في الغائب حتى يصبح حاضراً .

نلحظ أن التشبيه يأتي في القرآن تارة موجزاً ، ويأتي أخرى مفصلاً « فيه اطناب » إذ لم يتخذ شكلاً واحداً ، وفي ذلك ما فيه من تدعيم استقراره في النفس وإحداث أثره

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .
(٢) سورة النازعات ، الآية ٤٦ .
(٣) سورة يونس ، الآية ٤٥ .
(٤) بدوي : من بلاغة القرآن ، ص ٢٠٧ .
(٥) سورة النحل ، الآية ٧٧ .
(٦) سورة الأعراف ، الآية ٢٩ .
(٧) سورة الأعراف ، الآية ٥٧ .
(٨) وغيرها آيات كثيرة مثل : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾ ، سورة المعارج ، الآية ٨ . ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ، سورة الرحمن ، الآية ٣٧ .
(٩) سورة الحديد ، الآية ٢١ .

في القلب ، وأكثر ما نجد هذا اللون في التمثيل بالحياة الدنيا . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾[1] وقوله : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾[2] .

ويستخدم القرآن أسلوب التشبيه كثيراً مع تلك الأمور التي لها تعلق بالنفس ، ليعالج النفس من أمراضها . من ذلك مسألة « المال » ومدى تعلق النفس به ، إذ هي مجبولة على حبه وتجميعه قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾[3] ، ومفطورة على البخل والشح ، قال تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾[4] ، لهذا نجد أن القرآن قد استثمر أسلوب التشبيه في معالجة النفس من هذا المرض ، وحثها على الإنفاق .

ولو أننا استقرأنا الآيات التي تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله لوجدنا أن أغلبها كان قد استخدم فيه أسلوب التشبيه ، خاصة في سورة البقرة إذ جاءت الآيات التي تتحدث عن الإنفاق بهذا التصوير البديع ، وهو ما سيأتي بسطه عند الأمثال[5] ، فدور التشبيه هذا تحريك النفس الجموح وحثها على الإنفاق في سبيل الله ، وتهيئة المناخ المناسب للبرّ بتفاعلها مع الجو الداخلي عند الإنسان ، حين يرى أن الأجر مضاعف بلا حدود فيدفعه نفسياً إلى البذل ، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من دور في حث النفوس على الإنفاق في سبيل الله ، والتخلص من تلك المثلبة التي جبلت النفوس عليها ، ولهذا أيضاً كانت بعض الآيات تركز على الباعث النفسي لهذا الإنفاق ، فإن كان رياءً جاء

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ٢٠ .

(٣) سورة الهمزة ، الآية ٢ .

(٤) سورة النساء ، الآية ١٢٨ .

(٥) من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٢٦١ ، وقوله : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ . . ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٢٦٥ .

التشبيه ليصوّر قبحه[1] . ومثل ذلك يمكن أن يقال في مسألتي الرزق والأجل ، إذ تتعلق نفس الإنسان بهما تعلقاً واضحاً ، ويصعب عليها أن تتخلص منه ، فهي على الرغم من أن كليهما بيد الله ، إلا أن النفس يخالف واقعها ما تعتقد به ، فيأتي التشبيه ليصور حقيقة الأمر ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[2] .

* كما يلاحظ في أسلوب التشبيه في القرآن أنه تارة يجمع بين أمرين أو أكثر في التشبيه ، وذلك لملحظ نفسي ، إذ لا يخفى من دور هذا النوع من تثبيت الفكرة في النفوس ، إذ يأتي بصورتين لفكرة واحدة ، من ذلك قوله تعالى في وصف حيرة المنافقين واضطراب أمرهم :

قال تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[3] ، وقال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾[4] التشبيه في المثالين السابقين هو تمثيلي ـ كما يقول عنه علماء البلاغة ـ حيث يصف لنا ضعف نفوسهم واضطراب أحوالهم ، وفي الثاني تصوير لفزعهم وعدم انتفاعهم بما في أيديهم من الهدى والنور .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ . . ﴾[5] ، انظر كيف اختير لفظ « الظمآن » ، ولم يقل : يحسبه الرائي ، وذلك أن الظمآن أشد حرصاً فنفسه تطلبه[6] ، فالتشبيه الأول يصور حالهم كمن يتوهم في عمله خيراً ، فيكون « كالظمآن يحسب السراب ماءً لحيرتهم

---

(١) انظر إلى قوله تعالى : ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ . للمزيد انظر : الصغير ، محمد حسين علي : الصورة الفنية في المثل القرآني ، (بيروت : دار الهادي ، ط ١ ، ١٩٩٢م) ، ص ٣٨٠ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩ .

(٥) سورة النور ، الآيات ٣٩ـ٤٠ .

(٦) أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٢٢٧ . قاله الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٧٥ .

اضطرابهم وحاجتهم إلى الماء ، أما التشبيه الثاني فيصور حيرتهم ، فهم في ظلام دامس إذ ليست أعمالهم خيراً ، بل هي شر عظيم . . والتشبيه يصور حيرتهم ومحاولتهم الخلوص والبحث عن النجاة ، ثم تأتي أعمالهم السيئة فتزيد الأمور ظلمة . . فلا يجدون بصيصاً من الأمل . . [1] ، وهكذا نلحظ أن التشبيه الثاني كان له دور توضيح الفكرة أكثر وتثبيتها في النفوس .

* التشبيه في القرآن أحد أسرار الإعجاز في القرآن ، ويعدّ من أسباب الإعجاز ، ولا شك أنه صور بيانية تتضح فيه الحقائق الظاهرة والمعاني النفسية ، إذ كثيراً ما يركز القرآن على العناصر الأساسية في حياة الإنسان ليشبه ما يريده بها ، إذ القرآن يستثمر مسألة تعلق النفس ببعض الأساسيات ، فنلحظ أن المشبه به في الغالب يكون مما له تعلق أساسي بالنفس الإنسانية ، ويصعب عليها التخلي عنه ، حيث يستثمر القرآن هذا في بيان الحقائق .

على سبيل المثال نجد أن القرآن حينما يتحدث لنا عن تفاهة الحياة الدنيا ، وضرورة الزهد فيها ، يذكر لنا الماء[2] باعتباره عنصراً أساسياً في حياة الإنسان ، يدور معه حيثما دار ، ويتعلق به حيث وجد ، ولا يستغني عنه بحال ، إلا أنه مع ذلك فالإنسان ينتفع به قدر حاجته[3] . وبالتالي فإنا نلمس ذلك الأثر النفسي لاختيار الماء دون غيره ليضرب به المثل ، فالماء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضرّرت ، وكذلك الدنيا . وفي الثانية« كباسط »[4] يشير إلى أن الماء لو أردت أن تطبق كفيك عليه

---

(١) أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ٢٢٩ .

(٢) من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ ، سورة الكهف ، الآية ٤٥ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ، سورة يونس ، الآية ٢٤ ، و﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾ ، سورة الرعد ، الآية ١٤ ، و﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، سورة النور ، الآية ٣٩ ، و﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ ، سورة الحديد ، الآية ٢٠ .

(٣) للمزيد انظر : الصغير : الصورة الفنية في المثل القرآني ، ص ١٨٦ .

(٤) سورة الرعد ، الآية ١٤ .

لتمسك به ما أمسكت منه شيئا وكذا الدنيا »[1] ، الماء من خصائصه سرعة الانحدار ، السيلان ، الانهمار فجأة ، الاختفاء بغتة ، يؤتى به ليصور سرعة زوال نعيم الدنيا ، والبدوي جل اعتماده على الماء ، فإن فقده لم يعد معنى للحياة بدونه .

* قيمة التشبيه في الأسلوب القرآني أنه ذو حركة دائبة ، يعمل على الاستثارة والتلوين بشكل مستمر .

* أحياناً نجد أن الأسلوب البياني في التشبيه يؤتى به مقلوباً ، فيقدم ما يظن أن حقه التأخر والعكس ، وذلك لغرض نفسي ، ويطلق عليه بعضهم « التشبيه المقلوب أو المعكوس » ، حيث نلمس هذا النوع في الآيات التي فيها مقارنة ومساواة بين شيئين ، ولعل المثال التالي يوضح ذلك : قال تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2] ، إذ الأمر الطبيعي أن يقال : أفنجعل المجرمين كالمسلمين « إلا أن إيثار الأسلوب القرآني لما هو عليه ملفت أنظارنا إلى بعد نفسي ، وهو هنا عدم المساواة بين من يعتقد اعتقاداً صحيحاً ومن يعتقد اعتقاداً فاسداً . وذلك في سوء الحال والمآل .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[3] ، يلاحظ هنا كيف أن التعبير عكس هذه المساواة فلم يقل : أم نجعل الفجار كالمتقين . . وفي هذا مدلول نفسي لطيف ، إذ في ذلك مسايرة لظنّ الكافرين النفسي بأنهم أرفع مكانة من المؤمنين كما يظنونه في الدنيا .

ومثله يمكن أن يقال في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[4] ، إذ المتبادر للذهن أن يقال : وليس الأنثى كالذكر ، إلا أن هذا التعبير مسايرة للنفس الإنسانية ، وذلك عن طريق قلب المعلومة المختزنة في الذهن ، فامرأة عمران طالما حلمت به ذكراً إلا

---

(١) السيوطي ، معترك الأقران ، ١/ ٢٧١ .
(٢) سورة القلم ، الآيتان ٣٤ـ٣٥ .
(٣) سورة ص ، الآيات ٢٧ـ٢٨ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٣٦ .

أن القرآن يؤكد أنها امرأة ، تنفرد بين النساء[1] .

وهكذا نجد أن الأسلوب القرآني يطلعنا على بعض الأبعاد النفسية من خلال هذه الصورة البيانية . والجدير بالذكر أن أسلوب القلب هذا كان قد تحدث عنه البلاغيون المحدثون عندما كانوا يحاولون ربطه بما في النفوس إلى وجود عدة ملاحظ نفسية ، مشيرين إلى أن الصورة التشبيهية تقوم على الأبعاد النفسية الآتية :

١) أنها صورة تخيلية موحية .

٢) التفاعل بين المشبه والمشبه به ، إذ المراد من التشبيه أن يعبّر تعبيراً صادقاً عما في النفس ، ومرآة صادقة تعكس أبعاد المرء النفسية ، وتبرز حركاته الانفعالية .

٣) القلب والإحلال بين طرفي الصورة ، إذ النفس بحاجة أحياناً إلى أن تخرج عن المألوف في طبيعة الأشياء إشباعاً لها بما تحسه وتستشعره النفس المبدعة ، وعليه فالتشبيه يصبح في هذه الحالة أكثر مما عليه في النفوس ، وأقدر على إثارة النفس[2] .

أحياناً نجد أن التشبيه القرآني يؤدي دوره النفسي من خلال إيجاد علاقات نفسية يطلق عليها بعضهم : « الاستطراف » مقياس الطرافة : أي إيجاد علاقة بين أمور متباعدة لكن النفس تستطرفها وتستميلها ، حيث وردت ضمن ما يناسبها نفسياً ، وبهذا تكون النفس قد تمكنت من استدعاء هذا المناسب الذي جعل البعيد قريباً والمستحيل جائزا[3] .

العلاقة بين المشبه والمشبه به علاقة نفسية لأن المشبه معروف على مستوى المتكلم

---

(١) ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ، سورة الفرقان ، الآية ٤٣ ، ولم يقل « هواه إلهه » وقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، سورة النحل ، الآية ١٧ . للمزيد انظر أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢٤٦ـ٢٤٨ . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ . فالأصل القول « الربا مثل البيع » ، وفي ذلك إشارة إلى تجرؤهم ، فجعلوا الربا كأنه الأصل ، والبيع ملحق به . قال الرازي : « إنه لما تساوى عندهم البيع والربا كان البيع مثل الربا » ، الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، تفسير الآية ، ومنه : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ ، سورة الأحزاب ، الآية ٣٢ .

(٢) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢٣٤ـ٢٤٨ بتصرف .

(٣) أبو السعد ، الأداء النفسي ، ص ٢٢٣ .

والمخاطب ، أما المشبه به فليس معروفاً لدى السامع معرفة واضحة .

تعد الصورة التشبيهية أحد ألوان التشبيه ، حيث يطلق عليها بعضهم اسم : التشبيه التمثيلي[1] ، هذه الصورة التمثيلية في العادة تقوم على عوامل نفسية وخصائص فنية ، كما تقوم بشد انتباه السامع ولفت نظر المتلقي إلى ما فيها من أداء نفسي ولغوي ، وبالتالي فإن الصورة التشبيهية تمثل نقطة التقاء أحاسيس ومشاعر وعواطف ومقومات مختارة اختياراً نفسياً ووجدانياً وذهنياً[2] .

يشار هنا إلى أن القرآن يحرص على أن يكون تنسيق التشبيه في هذا النوع موافقاً لحركة النفس وهيجان القلب ، وذلك عن طريق :

١) الاختيار اللغوي الدقيق .

٢) إبراز العلاقات الخفية بين أطراف المشابهة بما يحدث في النفس لذة ومتعة[3] .

يذكر أن التشبيه في القرآن يعمد من خلال اختيار المشبه به إلى مكانته في النفوس ، وكثيراً ما نجده يعمد إلى الكائنات الحية من الحيوانات ، فيكون لها نصيب المثل القرآني ، وذلك لما بينها وبين موقعها من النفس من ملاءمة :

فتارة يضرب مثلاً بأوهنها ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[4] ، وتارة بأغباها لمن يحمل العلم ولا ينتفع به ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾[5] ، وتارة بأضعفها لمن حالته العجز والاستحالة ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾[6] ، وتارة بأتعبها لمن يشتد لهاثه لا إلى غاية مجدية ﴿ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾[7] ، وتارة بأصغرها لمن يستنكر ضرب الأمثال

---

(١) نظراً لقربه من مبحث الأمثال فإن الباحث سوف يترك أمثلة هذا النوع إلى موضعها . والتشبيه التمثيلي هو ما كان وجه الشبه فيه مركباً أي منتزعاً من أمرين أو أكثر امتزج بعضها ببعض .

(٢) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢٢٣ .

(٣) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢٣٤ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية ٤١ .

(٥) سورة الجمعة ، الآية ٥ .

(٦) سورة الحج ، الآية ٧٣ .

(٧) سورة الأعراف ، الآية ١٧٦ .

بالمخلوقات الضعيفة ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . ﴾[1] ، وهكذا نجد أنّ لاختيار هذا النوع بعدا نفسيا ، إذ النفس السوية تربأ بنفسها أن تكون مساوية لتلك المخلوقات الضعيفة ، وفي هذا ما فيه من دفع النفس إلى اجتناب موارد الندم فيها .

المبحث الثاني

المجاز والمعاني النفسية

لا بد لدارس المجاز في العصر الحديث من إدراك الصلة بين تلك الأسس النظرية التي قام عليها بحث المجاز قديماً وبين الأسس الحديثة المعروفة في علم الدلالة ، فكل منهما يهتم بمعنى آخر صاحَب المعنى (الأصلين) أو ما يمكن أن نطلق عليه « المعاني الثانية » ، وهو ما نال حظه من الحديث في هذه الدراسة بما يغني عن الإعادة .

لكن الذي يهمنا في هذا المقام هو تتبع المعنى النفسي الذي ينشأ من مثل هذا اللون من التعبير ، أيا كانت التسميات التي أطلقها عليه علماء اللغة ، ويهمنا ـ أيضاً ـ الإشارة إلى أن هذا الأسلوب يخرج اللفظة من قالبها اللغوي المجرد إلى إثارة الوجدان. . ، من لفظة جامدة إلى صورة حية للمعنى ، سواء أكانت العلاقة محلية أم حالية أم سببية أم غير ذلك من التقسيمات[2] التي أشار إليها علماء البلاغة ، وسواء أكان بدءوها من الحقيقة وصولاً إلى المجاز ، أم من المجاز وصولاً إلى الحقيقة .

إذ من الصعب الفصل بين الألفاظ وظلالها التي توحي بها من خلال اجتماعها في سياقها ، فما كان منها له دور في إطلاعنا على تلك الجوانب النفسية التي تصحب اللفظ كان اهتمامنا به في هذا البحث ، علماً أن هذه الملاحظ تتفاوت وضوحاً وخفاءاً من لفظ إلى لفظ ، ومن سياق إلى آخر .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦ .

(٢) قسم الجرجاني المجاز إلى نوعين رئيسيين حيث قال : « اعلم أن المجاز على ضربين : مجاز عن طريق اللغة ، ومجاز عن طريق المعنى والمعقول . انظر : الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تح : الفاضلي : ص ٣٠٠ .

خلاصة ما يريده الباحث من هذه المباحث هو : الإشارة إلى أن تلك الألفاظ التي تبدو دالة على معان مجردة إذا هي اقترنت بالمطالب النفسية نجدها قد تحولت إلى صور جديدة ، وعليه فلا بأس لو أطلقنا عليه مجازاً أو استعارة أو كناية ، فهو يمثّل صورا نفسية أصيلة ، وبهذا ندرك دور النفس الذي يتمثل في الربط بين المعاني ، ومن ثم اختيار المناسب مما تتخيله النفس الإنسانية وتتفاعل معه ، وبهذا نجد أن الألفاظ تزداد قيمة أخرى أكسبتها إياها تلك المجازية ، وذلك أنها تعبير عن حركة النفس ، فيكون ذلك بمثابة الانتقال باللفظة من معناها اللغوي المجرد إلى ظلالها النفسية[١] .

المجاز ومدى الحاجة إليه في الكشف عن البعد النفسي

المجاز عالم نفسي تتداعى من خلاله التعبيرات محملة بالأبعاد النفسية ، وذلك في إطار لغوي ، سواء أكان ذلك : « استعارة أم تشبيهاً أم كناية أم . . » إذ المجاز تعبير عن ذلك الشيء الذي تتخيله النفس الإنسانية ثم يُتَرجم على قالب تلك الألفاظ .

لغة المجاز هذه ضرورية للكشف عن المشاعر الدقيقة والعواطف المعقدة ، إذ هي التي تساعد العالم الداخلي بمعنوياته وعواطفه ومشاعره الوقوف على حقائق الأشياء ، كما أن التعبير بصور المجاز عبارة عن إثارة للكوامن النفسية ، واستجابة للمشاعر الدفينة ، ومن هنا يكون الأداء النفسي متوافقاً ومرافقاً ، بل وممتزجاً بالأداء اللغوي التعبيري[٢] .

أمر آخر نلمسه في الأسلوب القرآني فيما يخص هذه المسألة ، وهو أن هذا اللون من التعبير كان يراعى فيه بشكل واضح طبيعة المخاطبين وظروفهم المحيطة بهم ، فنحن نلمس أن هذا اللون من التعبير في الآيات المكية أكثر منه في الآيات المدنية ، فالصور البيانية والمشاهد الغيبية ، وتجسيم المعاني الذهنية المجردة أغلبها جاءت في الآيات المكية في حين كانت تقل في الآيات المدنية[٣] ، وذلك عائد في الغالب إلى ملاحظ نفسية :

---

(١) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢٨١ـ٢٨٣ بتصرف .

(٢) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢٨٨ـ٢٨٩ .

(٣) يذكر هنا أنّ أكثر الصور البيانية نجدها متركزة في الموضوعات الغيبية والمتعلقة بمسائل العقيدة ، ولهذا كانت أغلب المشاهد التي عرضتها لنا الآيات القرآنية غيبية وهي موضوع الآيات المكية ، انظر : قطب ، سيد : مشاهد القيامة في القرآن الكريم ، وانظر : قنيبي ، =

إذ الآيات المكية تخاطب أقواماً كانت تكفيهم اللمحة ، ولهذا كانت الوجازة في العبارة والقصر في الجملة ، إلا أن الجدير بالملاحظة أن هذه الألفاظ على وجازتها كانت غنية بالصور البيانية والظلال الفنية ، بخلاف الآيات المدنية التي كانت في أغلبها أحكاما تشريعية يناسبها البيان والتفصيل والبسط والتوضيح ، ثم إن طبيعة الموضوعات التي تحدث عنها القسم المكي من القرآن اقتضت استخدام هذا الأسلوب ، فجانب العقيدة يتناول الغيبيات ، والغيبيات تحتاج إلى إيضاح وبيان عن طريق الصور المجازية التي تجعل الغائب كالحاضر ، والمعقول كالمحسوس المشاهد ، شيء آخر فوق هذا أنه لما كانت الموضوعات التي تعرضت لها الآية المكية جاءت منسجمة مع طبيعة المخاطبين في تلك الفترة ، فكذلك اختير لها من الأسلوب ما يحقق تلك الملاحظ النفسية التي روعي فيها حال المخاطبين ، وكذا الحال بالنسبة للآيات المدنية التي جاءت موضوعاتها منسجمة مع أحوال المخاطبين ، فقد جيء بالأساليب التي تراعي أحوال المخاطبين . وبهذا نجد أن ملاحظ نفسية كانت وراء بروز هذه الصور البيانية بكثرة في الآيات المكية بخلاف الآيات المدنية ، ويبقى بعدها أن نحدد بدقة تلك الملاحظ النفسية لهذه التعبيرات .

الاستعارة

هي إحدى صور المجاز ، وهي من أحفل صور المجاز بالصور المتداعية والمعاني الثانوية المتولدة ، وأكثرها زخماً وتخييلاً وأداءً نفسياً ، فهي تفترق عن التشبيه في أنها خيالية ، يتوحد منها طرفا التشبيه ، فهي تصور الشيئين وكأنهما شيء واحد ، كأنّ المشبه قد حلّ في المشبه به[1] ، فقد قال الجرجاني في تعريفها : « فالاستعارة أن تريد تشبيه الشي بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه تريد أن تقول رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول رأيت أسدا »[2] ، ويكمن البعد النفسي لهذا النمط من الأسلوب في

= حامد صادق : المشاهد في القرآن الكريم .

(١) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص٢٩٠ بتصرف ، وانظر : عتيق : في النقد الأدبي ، ص ٧٩ـ٨٣ .

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ١/ ١٦٧ .

أن هذا اللون من التعبير مما ترتاح إليه النفس ، إذ يتدرج بالنفس من إحساسها بالفكرة صورة مبهمة ، إلى أن تصبح صورة لغوية تفيض بكل المثاليات المختزنة في النفس عن المشبه . كما أنها تدل على ذات صاحبها موضحة نزوعه النفسي والذهني . وقد تنبه لذلك علماؤنا القدماء عند حديثهم عن الاستعارة ، فقد قال بعضهم : « وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعله الحقيقة » ، وإنما يعتبر ذلك بما تقبله النفس أو ترده ، وتعلق به أو تنبو عنه[1] ، وقال بعضهم : « بفضل الصور الاستعارية ترى الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية »[2] .

هذا التفاعل بين الصور الاستعارية والمعاني النفسية هو الذي يبرز ما في مشاعرنا الداخلية بصور فنية بديعة ، أما الأمثلة على ذلك فكثيرة جداً ، ولعلنا نكتفي ببعضها ، مشيرين إلى ما تنطوي عليه من معان نفسية ، دون دخول في تفصيلات وتقسيمات هذا النوع من الأساليب .

أمثلة على الاستعارة

مثال : قال تعالى في وصف جهنم : ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴾[3] ، يلاحظ في الآية الألفاظ الآتية« شهيقاً ، تميّز » وهما من صفات الحي ، فالاستعارة هنا أبلغ في التعبير ، وترشدنا إلى معان نفسية كثيرة أيضاً ، أما جمال الصورة فيصفه بعضهم بالآتي : « جهنم في هذا المشهد حية متحركة ، تكتم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وهي تفور ، ويملأ جوانحها الغيظ ، فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم ، وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين »[4] . . هذا التصوير القرآني

---

(١) العسكري ، أبو هلال : الصناعتين « الكتابة والشعر » ، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، (بيروت : المكتبة العصرية ، د . ط ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) ، ص ٤١ ، ص ٢٠٦ .

(٢) الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص ١٣٧ .

(٣) سورة الملك ، الآيتان ٧-٨ .

(٤) قطب ، سيد : الظلال ، ٦/ ٣٦٣٤ . وانظر : مشاهد القيامة في القرآن ، ص ٢٠٨ .

يقرر حقيقة ، وهي أن جهنم وهي خليقة من خلائق الله تعرف ربها ، وتسبح بحمده ، وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتتغيظ لهذا الجمود الفكري الذي تنكره فطرتها ، وتنفر منه روحها »[1] .

أما الأبعاد النفسية التي ينطوي عليها هذا التعبير فواضحة من كون القرآن يخاطب الغرائز الإنسانية ، فالغيظ والغضب حين أضافهما التعبير إلى النار استثار في النفوس تلك المعاني النفسية المترتبة عليها ، سواء أكان ذلك مما له علاقة بالحقد ، أم التهيؤ للانتقام ، فيكفل هذا التعبير بتشخيص الصورة . أما النفس التي مرت بتجارب نفسية مماثلة نشأت عن الغضب والغيظ ، وفي ذلك ما فيه من كون اللفظ أوقع في النفس ، وأشد تمكنا في النفوس ، وأزجر لها من أن يكون مصيرها كالذي تحدثت عنه الآية الكريمة ، وقد يفهم من التعبير معنى آخر : وهو الإشعار بشدة ما جناه الكفار ، حتى لقد شعر به واغتاظ منه هذا الذي لا يحس ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[2] .

مثال آخر : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[3] ، هذه اللفظة « سكت » ترشدنا إلى تلك المعاني النفسية التي كانت مسيطرة على نفس سيدنا موسى عليه السلام إذ كأنها لسيطرتها على نفسه قوة خارجة عنه كانت تحثه وتدفعه للغضب ، فمجيء هذه اللفظة تصوير لانطفاء جذوة الغضب عنده ، وبهذا تتخيل النفس أن الغضب كأنه إنسان يدفع بموسى عليه السلام ويحثه على الانفعال ، ثم سكت عنه وكفّ عن دفعه وتحريضه ، فلفظ « سكت » أوحت بتلك الظلال النفسية التي كانت مسيطرة عليه ، وهذا هو الذي دفع به أن يلقي الألواح « ألواح التوراة » .

مثال آخر : قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[4] ، فالصدع

(١) بتصرف : الظلال ، ص ٣٦٣٥ .
(٢) سورة المعارج ، الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .
(٣) سورة الأعراف ، ١٥٤ .
(٤) سورة الحجر ، الآية ٩٤ .

بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة[1] ، وهذا فيه إشارة إلى أن هذا التبليغ المطلوب من النبي الكريم ﷺ أن يقوم به يصحبه هذا التأثير كتأثير الزجاجة ، فالإيصال بهذه الصفة أبلغ في النفس الإنسانية .

مثال آخر : قوله تعالى : ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾[2] ، فلفظة « أفرغ » هذه التي استعيرت هنا تثير في النفس من الطمأنينة والراحة النفسية الناشئة عنها ما تثير ، كما أن هذه اللفظة توحي باللين والرفق[3] ، بخلاف « صبّ » التي استخدمها القرآن في العذاب ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣﴾[4] ، وهكذا نلمس أن البعد النفسي يختلف في لفظة « أفرغ » عنه في لفظة « صب » .

ومن ذلك كلمة « زلزلوا » في قوله تعالى : ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾[5] ، فهي تصور لنا ذلك الاضطراب النفسي العنيف الذي تعرض له الدعاة إلى الله تعالى ، إذ النفس عند سماع هذه اللفظة تبدأ برسم هذه الصورة الخيالية في الأذهان ، وبالتالي تدرك تلك الظلال النفسية التي كانت مصاحبة لها في تلك اللحظات .

الفرق بين الصور البيانية من الجانب النفسي

هنالك الفرق بين الصور البيانية المعروفة في العربية ، يمكن ذكرها فيما يأتي ، أما الفرق بين الكناية والاستعارة من حيث التعبير النفسي فيظهر من أن :

الاستعارة : تتحدث من خلال صورها إلى نفوسنا موحية ومجسدة المعنى النفسي المقصود .

أما الكناية : فيجمع تركيبها بين المعنى الأصلي ، ويوحي بالمعاني المترتبة عما

---

(١) الرماني : ثلاث رسائل ، ص ٨٠ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٢٦ .
(٣) بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص ٢٢٠ .
(٤) سورة الفجر ، الآية ١٣ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢١٤ .

يلزم هذا المعنى الأصلي في الكناية[1] . وبعبارة أخرى : الاستعارة : ما يوحي به العالم النفسي للمتكلم ، والكناية : تترك للقارى والسامع استنتاج ما تريد في العالم النفسي ، إذ يراد المعنى ولازمه ، ويبقى دور المتلقي أن يستنتج المعنى الذي ينسجم مع توازنه النفسي .

وأما الفرق بين الكناية والمجاز[2] : أن الكناية تطلب المعنى من أقرب وسائله وهو لفظ المذكور ، أما لوازم المعنى فتطلبه من وسائطه .

وفي المجاز : ليس أمامنا سوى المعنى المجازي ، وبهذا نرى أن إرادة المعنى لازمة في حال الكناية فتجوز إرادة المعنى الكنائي إلى جانب المعنى الحقيقي بخلاف المجاز ، وبهذا نلحظ أن أسلوب الكناية هذا تكمن فيه معان نفسية :

فأولاً : نلاحظ أن المعنى يصل إلى المخاطب بعد أن يكون مبهماً ، فيكون تمكنه في النفس بعد أن يكون قد تمكن في العقل .

وثانياً : نجد أن الكناية تثير مجموعة من الصور النفسية ، وتركز من بين هذه الصور على ما يراد تثبيته في الذهن وتوكيده في النفس .

وثالثاً : الكناية تأتي بالفكرة مصحوبة بدليلها وبرهانها ، ومن المعروف أن ذكر الشيء مصحوباً ببرهانه أوقع في النفس وآكدّ لإثباته .

وبهذا نجد أن مثل هذا الأسلوب يلجأ إليه عندما تكون النفس غير راغبة في الإفصاح مباشرة عن مرادها ، حيث تستخدم هذا الأسلوب الذي تتستر النفس خلفه فيصل المعنى إلى المخاطب ، فالكناية ـ على ما قيل ـ « طريق معبّدة للخروج من مأزق التعبير الصريح المباشر إلى التعبير الخفي غير المباشر » . . كما أن الكناية تمكّن النفس من أن تخفي ما تراه من آراء سلبية أو نقائص في الآخرين ، كما أن الأسلوب الكنائي يقوم على أساس التلازم الذي هو أحد عوامل تداعي المعاني ، إذ نحن باستعماله نستخدم اللازم ونريد الملزوم[3] .

---

(١) هي اللفظ الدال على الشيء على غير الوضع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه ، قاله ابن الأثير : المثل السائر ، ٢/ ١٨١ .

(٢) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٣) عتيق : في النقد الأدبي ، ص ٨٣ .

وعلى هذا فإننا نلمس أن في الكناية نوعا من التعريض بالكلام ، وتكون أحياناً أبلغ من التصر يح ـ كما يقول أهل اللغة ـ : « إنّ التعريض الخفي يكون أبلغ في معناه من التصريح الظاهر الذي لا ستر دونه ، ويقع من المتلقي عند الفهم موقع البشرى من صاحبها »[(١)] ، ولهذا نجد أن في القرآن الكريم من هذا اللون من ألوان التعبير ، وميزة التعبير القرآني في هذا اللون أنه يمنح « المتلقي حالة نفسية ووجدانية وعقلية تجعله أكثر توازناً وتكيفاً وانسجاماً بما يحقق له الجمال الفني والصدق النفسي »[(٢)] . . وبفضل التعبيرات القرآنية تتلقى النفوس الطمأنينة .

فمن التعبيرات الكنائية ما ورد في القرآن تأدباً ، كالألفاظ الآتية :

الرفث : في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾[(٣)] .

الشغل : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[(٤)] .

أفضى : في قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾[(٥)] .

الغائط : في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾[(٦)] .

وغير ذلك كثير . وهكذا نجد أن هذا اللون من ألوان التعبير يعدّ بمثابة البرهان المادي لتلك الحقائق النفسية التي يتحدث عنها النص الكريم .

أمثلة :

المثال الأول : قال تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾[(٧)] ، فلفظة « يقلب كفيه » تصوير للحالة النفسية التي يعيشها صاحب الجنتين ، إذ تكفلت هذه اللفظة بإيصال رسالة الندم والحسرة التي

---

(١) العلوي ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طاطبا : عيّار الشعر ، تح : عبد العزيز بن ناصر المانع ، (الرياض : دار العلوم ، د . ط ، ١٩٨٥م) ص ٢٤ .

(٢) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٣٠٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٧ .

(٤) سورة يس ، الآية ٥٥ .

(٥) سورة النساء ، الآية ٢١ .

(٦) سورة النساء ، الآية ٤٣ .

(٧) سورة الكهف ، الآية ٤٢ .

عاشها صاحب الجنتين ، عندما شاهد ما شاهد مما حدث لجنتيه ، فالإنسان عند الصدمة النفسية تتكفل جوارحه بالتعبير عما في نفسه ، وكأنّ اللسان يعقد ويتوقف عن التعبير فينتقل إلى التعبير الخارجي الذي هو أبلغ في التصوير والتعبير في هذه اللحظات من التعبير باللسان ، وقد يقال بأن اجتماع التعبيرين (تعبير بحركة الكفين وتعبير باللسان) أكثر دلالة على الحسرة والندامة اللذين أصاباه .

المثال الثاني : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[١] .

هكذا نجد أن هذا النص مليء بالتعبيرات النفسية ، إنه أشبه بالتصوير الدقيق لحركات الجسم التي صحبت ذلك الموقف ، والتي كانت معبّرة فيه عن حالة المؤمنين النفسية التي مروا بها تلك اللحظات ، أحست النفوس أن الهزيمة قد حلّت بهم ، وأن الأعداء حولهم من كل مكان ، تأمل حركة العيون « زاغت » ، وتأمل مكمن المشاعر « وبلغت القلوب الحناجر » ، وتأمل شدهان التفكير « وتظنون بالله الظنونا » .

ومثله يمكن أن يقال في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[٢] حديثاً عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك .

المثال الثالث : وهو من الأمثلة على ما قيل : فيه مجاز ، قوله تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾[٣] إذ المعروف أن لفظة الإثابة تكون في العادة في جانب الخير ، لكن ظاهر استعمالها في الآية أنه خرج عن المعهود ، وقد قيل إن فيها مجازاً ، إلا أن الباحث يرى أن هذه اللفظة باقية على أصلها في الاستخدام ، لكن جيء بها هنا لتعبر لنا عن معان نفسية عاشها جند المسلمين في تلك اللحظات .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٩ ـ ١٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٣ .

وفهم هذه الظلال النفسية لا يتأتي إلا بفهم الأحداث والظروف التي تتحدث عنها الآيات الكريمة ، تتحدث لنا الآية عن أحد المواقف العصيبة التي مرت بالمسلمين يوم أحد بعد أن نزل الرماة عن الجبل ، واشتد الكرب على المسلمين ، وكثرت فيهم الجراحات ، وتحولت آمال النصر إلى هزيمة ، وتزعزعت النفوس ، في هذه الأثناء يزداد كرب المسلمين بوصول خبر مقتل رسول الله ﷺ إلى أسماع المسلمين إذ أشيع هذا الخبر في المسلمين ، فعاش المسلمون حين ذلك لحظات نفسية عصيبة لا يعبّر عنها إلا هذه اللفظة القرآنية﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ ، فعلى الرغم من شدة الغم الذي مروا به يصل إلى أسماعهم غم آخر ، ولعل هذا غاية ما يحلّ بالمسلمين من الغم ، وهو ما عبّرت عنه ردود فعل بعض الصحابة بعد هذا الخبر[1] ، فيكون كشف هذا الغم عن المسلمين حين علموا أن رسول الله ﷺ ما زال على قيد الحياة ، هو عين الثواب الذي جوزي به المسلمون ، ليمسح عنهم تلك الآثار النفسية العصيبة التي يمرون بها وينسيهم تلك الجراح ، فانظر تجد أن هذا الثواب كان ثواباً نفسياً ، وهو في حقيقة الأمر منسجم تماماً مع ما يتحدث عنه علم النفس ، وهذا المعنى كثيراً ما نعيشه في حياتنا اليومية ونحس به ، ولا نتذوق لذة الإحساس النفسي فيه إلا إذا عشنا موقفاً مماثلاً ، فنحن لو أخبرنا أن أعز الناس إلينا قد مات فإن اللحظات النفسية التي نمرّ بها تكون شديدة وعصيبة ، فإذا ما تبين بعد حين أنه لم يمت بعد ، ولم يزل على قيد الحياة ، حينها ندرك أن هذا كان نوعاً من الثواب لنا ، وكأنه إحياء من جديد ، وكذا الحال بالنسبة للمواقف النفسية الأخرى التي نعيشها .

المثال الرابع : قال تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[2] ، في الآية مجاز مرسل حيث ذكر الكل وأراد الجزء ، فالآية تصور لنا بهذا التعبير تلك الحالة النفسية التي يمرون بها حالة الفزع ، فهم لشدة ذهولهم وحرصهم ، ولمبالغتهم في إغلاق آذانهم ، كأنهم سيجعلون أصابعهم كاملة في آذانهم ، مع أن انسداد الأذن يكون بأطراف الأصابع .

المثال الخامس : قول إخوة يوسف لأبيهم حين عادوا وقد أُخذَ أخوهم بتهمة

---

(١) ماذا أنتم صانعون بعده ، ومنع السلاح .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩ .

السرقة : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1] ، والقرية ـ كما هو معلوم ـ لا تُسأل ، لكنه تعبير يكشف لنا عن معان نفسية ، فإخوة يوسف هذه المرة ـ وكانوا صادقين ـ أرادوا أن يبرهنوا لأبيهم بأنهم صادقون فيما أخبروه ، لكنّ ماضيهم يقف عقبة أمام هذا الإثبات ، فكيف إذن لهم أن يعبّروا عن صدقهم النفسي هذا التعبير « واسأل القرية » تكفّل لنا بكشف تلك المعاني النفسية التي أرادوا إيصالها إلى أبيهم ، إذ كأن الخبر لشهرته وشيوعه قد علمت به القرية بكاملها بحجارتها وتربتها وأهلها ، ولم يعد أدنى شك فيها ، فهي في الوضوح بحيث لو سأل الجمادات لنطقت بالحقيقة ، وهذا بلا شك يكشف عن البعد النفسي الحقيقي للمتهم ، فهو يستثمر كل وسيلة ممكنة ، ويوظفها للتعبير والإفصاح عن براءته .

بعد هذا الذي تقدم من ذكر بعض الأمثلة على هذا النمط من التعبير القرآني نلحظ أنه أسلوب غني بالمعاني النفسية ، وعلى يقين من وجود أمثلة أخرى كثيرة قد تكون أكثر تعبيراً عن الفكرة التي أراد من تلك الأمثلة التي أختارها ، وحسب الباحث أن يكون غرضه الإشارة إلى الفكرة الرئيسية في هذا النمط ، فوراء كل مثال عشرات الأمثلة مما يصعب الإحاطة بها في دراسة كهذه ، إلا أنه يوصي من أراد الاستزادة من هذا النمط من أنماط التعبير بالرجوع إلى بعض الكتب[2] .

وهكذا نلحظ أن ما يسمى بالمجاز بشتى ضروبه يرسم لنا صورة تنهض بالدلالة على ما لم يرد في التعبير ، وأن هذا النمط في موضعه أبلغ من التعبير الصريح المباشر.

فلغة المجاز ـ على ما يقول أهل اللغة ـ « ضرورية للكشف عن المشاعر الدقيقة والعواطف المعقدة ، فهي التي تساعد العالم الخارجي بمعنوياته وعواطفه ومشاعره الوقوف على حقائق الأشياء ، وهو الذي يساعد على إثارة الكوامن النفسية وإبراز المشاعر الدفينة[3] .

* * *

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٢ .

(٢) من أبرزها : التصوير الفني ، مشاهد القيامة في القرآن ، وكما يحسن الرجوع إلى تفسير الظلال يغظ بالأمثلة والشواهد من هذا النوع .

(٣) أبو السعد : الأداء النفسي ، ص ٢٨٨ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الرابع

مواقف وملامح نفسية
في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول : مواقف وملامح نفسية

الفصل الثاني : القصة القرآنية ملامح نفسية ورسم للشخصية

الفصل الثالث : المنهج النفسي في تفسير القرآن الكريم
معالم وضوابط

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

مواقف وملامح نفسية

المبحث الأول

المواقف النفسية

المطلب الأول : بيان المقصود بالموقف

بداية لا بد من تحديد المقصود بـ « الموقف » ليتم التعامل معه في ضوء ما سيتم تحديده .

الموقف : مأخوذ من الثلاثي : (وقف) يقف وقوفاً ووقفا ، وأصل الوقف : « خلاف الجلوس ، ويطلق على السوار من العاج : وقف ، و(الوقوف والتوقف) في الشيء كالتلوُّم فيه ، والتوقيف : كالنص ، والموقف : موضع الوقوف حيث كان[(١)] ، ويقال : موقف المرأة : يداها وعيناها وما لا بد لها من إظهاره ، وموقف الدابة : ما أشرف من صلبه على خاصرته »[(٢)] ، قال الراغب : « وموقف الإنسان : حيث يقف »[(٣)] .

يلاحظ مما تقدم أن الموقف لا يمكن تحديده إلا باعتبارات عدة : الوصف (الحدث) ، زمان الحدث ، مكان الحدث ، شخصية الحدث ، وعليه فلا يمكن أن يتم موقف إلا بالاعتبارات المذكورة .

الموقف النفسي : عبارة عن مجموعة من العوامل الانفعالية إيجابية أم سلبية تصاحب شخصية أو أكثر من الشخصيات التي تدور حولها أحداث معينه تتركز حول

---

(١) الرازي : مختار الصحاح ، ٣٠٥ .
(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ٩/٣٥٩ـ٣٦١ .
(٣) الراغب : المفردات ، ص ٥٣٠ .

سلوك معين ، وهكذا نلحظ أن الموقف النفسي يتشكل بوجود ثلاثة عوامل هي كالآتي :

١ـ وجود شخصية أو اكثر بأبعادها التكوينية التي تصاحبها .

٢ـ وجود نمط سلوكي (سلبي أو إيجابي) يثير مجموعة من الانفعالات والدوافع تتركز حوله .

٣ـ وجود مناخ (زماني ومكاني) لتلك الأحداث يتشكل فيه الجانب النفسي .

لكن الملاحظ في هذه العوامل أن عنصر الإنسان هو المكوّن الأساسي لهذه المواقف النفسية ، إذ لا يُتصوّر أن يتشكل مثل هذا النمط من المواقف إلا بوجود عنصر الإنسان بأبعاده التكوينية ، ولهذا نجد أن العنصر البشري لم يغب عن نصوص القرآن في لفظة من ألفاظه ، وقد سبقت الإشارة إلى أن القرآن صيغت نصوصه وأحكامه وتشكلت بما يتناسب ومتطلبات النفس الإنسانية .

والنمط السلوكي ، وهو عامل ناشىء عن العنصر البشري ، هو المحرك لخط الأحداث التي يتشكل منها هذا الموقف ، ويبقى المحيط البيئي ، وهو أحد العوامل التي تؤثر في خط سير هذا السلوك وتوجيهه صعوداً نحو الجانب الإيجابي ، أو هبوطاً نحو الجانب السلبي ، ويكون له دور في التحكم بالمثيرات الخارجية التي تنشأ عنها تلك الانفعالات .

المطلب الثاني : أساليب عرض المواقف النفسية

تعرض النصوص القرآنية المواقف النفسية بأساليب وأنماط مختلفة :

١ـ أحيانا يتجسد الموقف النفسي من خلال القصة ، وهو أغنى المواقف بالأبعاد النفسية ، سواء أكانت القصة دائرة من التقاء حول شخصية من الشخصيات ، أم حول سلوك معين .

٢ـ أحيانا يتشكل من الحوار الناشىء من التقاء مجموعة من الشخصيات والنماذج البشرية .

٣ـ وأحيانا من خلال المثل الذي يتركز فيه الموقف النفسي في كلمات موجزة ، لكنها غنية بأبعادها النفسية .

٤ـ وأحيانا من خلال استعراض بعض العمليات النفسية لشخص ما تجاه أمر ما ، وهو ما سيتضح من خلال النماذج البشرية[١] .

مما تقدم يمكن القول بأن الموقف النفسي يختلف طولاً وقصراً ، فعلى حين نجده يعرض لنا الأحداث التي تركزت في لحظة من أقصر حقب الزمان ، نجده أحيانا أخرى يعرض الموقف الذي تشكل في عشرات السنين ، ويبقى الضابط في هذا وذاك هو البعد النفسي الذي تشكل من الموقف .

فالموقف النفسي الذي يعرضه لنا القرآن يمثل مرحلة مهمة وحاسمة ، تتفاعل معها الشخصيات التي تدور حولها الأحداث ، وبعبارة أخرى يمكننا القول بأن الموقف عبارة عن مشهد نفسي مكثف مشحون بالانفعالات المتنوعة[٢] لا تقيِّده فترة زمنية معينة ، ولا مرحلة من مراحل التكوين الإنساني دون أخرى ، ولا بيئة معينة دون غيرها ، وقد يكون جزءاً من القصة ، والقصة تتعدد فيها المواقف النفسية ، ولهذا نجد القرآن يعرضها في مواقع شتى ، فالقرآن الكريم غني بالمواقف الإنسانية التي قصها علينا ، وهو من خلال قصّها علينا يهدف إلى تحقيق أغراض معينة .

المطلب الثالث : مزايا المواقف الإنسانية في القرآن

يستثمر الأسلوب القرآني تلك المواقف الإنسانية التي مرت بها النماذج البشرية على مدار التاريخ لخدمة الحقيقة التي يعرضها رابطاً إياها بواقع الحياة ومبرزاً جوانب العبرة فيها ، وقد امتازت هذه المواقف البشرية بمزايا عدة ، منها :

أولاً : مواقف واقعية صادقة

المواقف التي يعرضها القرآن الكريم هي عبارة عن أحداث واقعية لنماذج بشرية حية ، لها وجود في التاريخ الإنساني ، تمثل مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية ، لا من نسج الخيال أو أسطورة من الأساطير التاريخية ، فما من موقف عرض له القرآن الكريم إلا وله وجود في التاريخ الإنساني ، لا كما قرره بعض الكتّاب من أبناء المسلمين من أنه لا وجود حقيقي لهذه الأحداث .

---

(١) ولهذا فإن الباحث آثر أن تكون الفصول القادمة مطابقة لهذا التقسيم .

(٢) للمزيد انظر : الهاشمي : لمحات نفسية ، ص ١٣٠ .

أما القيمة التي يمكننا أن نلمسها لهذه المزية (واقعية الموقف القرآني) فتكمن في أنها تعتبر وثيقة علمية في تاريخ السلوك الإنساني للنفس ، يمكن الاستناد إليها في الدراسة ، على أنها يقين وحقيقة ، كما تزداد هذه القيمة حين ندرك أن الحياة الإنسانية عبر رحلتها الطويلة الممتدة من خلق سيدنا آدم عليه السلام ، وإلى قيام الساعة ، تجمعها علاقة واحدة هي « علاقة الإنسانية » ، فما من مرحلة إلا وتضيف لبنة في بناء السلوك الإنساني ، وتكون رصيداً في التجارب الإنسانية ، تستفيد منه النماذج البشرية المتعاقبة ، كل موقف من المواقف التي يعرضها القرآن يضيف للإنسانية عبر مسيرتها التاريخية الطويلة قيمة معينة تتصل بالسلوك الإنساني .

مما يؤكد واقعية النماذج والمواقف القرآنية كون القرآن ـ في كثير من الأحيان ـ يحدد مسرحي الزمان والمكان اللذين صحبا هذا الموقف ، إذ الحياة كلها بأزمنتها وأمكنتها وأشخاصها وأحداثها حاضرة بين يدي الله ، الذي لا تخفى عليه خافية ، والأحداث التي يقتطعها القرآن من شريط الحياة الإنسانية حقائق واقعية وصادقة ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[1] ، ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2] ، ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾[3] ، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[4] .

قيمة أخرى تنبثق عن هذه الصفة وهي : أن هذه المواقف النفسية قابلة للوقوع في كل جيل ، مهما تغيرت الظروف أو تبدلت الأزمنة ، فالإنسان هو الإنسان ، سواء في مشاعره ، أم في دوافعه ، أم حتى في ميوله ، يفرح ويحزن ، يرضى ويغضب ، أما الذي تغيّر على الإنسان فهو شيء خارج عن هذا الإطار الداخلي ، إنه متعلق بالوسائل التي تصحب هذه الأنواع من السلوكيات ، فالغاضب الذي يريد الانتقام قد يقتل خصمه قديماً بحجر أو عصا ، بينما اليوم فقد يقتله بغاز أو مسدس أو غير ذلك ، والكريم قديماً قد يعبّر عن كرمه بإهداء ناقة أو عجل ، بينما اليوم ربما يكون بإهداء بيت أو

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٦ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ١٠٥ .
(٤) سورة فصلت ، الآية ٤٢ .

مركبة أو غير ذلك ، أما فيما يخص صدق هذه الأحداث ، وكونها تعبيرا صادقا عمّا في النفوس فيكفي في التدليل عليه أن الذي يتحدث عن النفس الإنسانية هو خالقها العالم بما تخفيه النفوس وتظهره ، قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾[2] .

فالموقف النفسي الذي يسوقه لنا القرآن بأبعاده وأشخاصه ، هو صورة صادقة طبق الأصل من الحياة الإنسانية في تعدد الدوافع وتفاعل العوامل الإنسانية .

ثانياً : مواقف تربوية هادفة

المواقف التي يعرضها لنا القرآن الكريم لها هدف وغاية بعيدة عن العبث ، لعل أبرز هذه الأهداف ما جاء في صريح اللفظ القرآني من قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[3] .

يسوقها القرآن لنأخذ منها العبرة ، ونفيد منها في حياتنا اليومية ، تزيد من رصيد فهمنا للحياة الإنسانية كاملة في أبعادها .

ـ والموقف النفسي يقدم نماذج واقعية للمربين والمرشدين ، تعينهم على دراسة الجوانب النفسية وتقويمها ، فهي تقدم درساً متجدداً ، وأنموذجاً حياً لنوع سلوكي ، أو منحى نفسي يمكن أن يحدث في أي جيل .

ـ مما يشير إلى كون هذه المواقف هادفة : أن القرآن كثيرا ما يربط هذه المواقف بعوامل الثواب والعقاب أو ما يعرف عند المربين بـ« التعزير » ، وهذا له دور في مسألة الوقاية والعلاج .

ـ كما يمكن التعرف من خلال هذه المواقف على مواطن العنف والقوة في السلوك الإنساني ، يمكن الوقوف ـ أيضا ـ على الانفعالات المتمركزة حول محور عاطفي ، وتظهر فيه دوافع معينة .

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٤ .
(٢) سورة غافر ، الآية ١٩ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

ـ والمواقف التي يعرضها لنا القرآن بما يصحبها من تعقيبات ، تؤكد كونها هادفة ؛ إذ هي تجعل من الإيمان والعقيدة محوراً رئيساً لهذه الأحداث ، وبقدر قرب السلوك المتحدث عنه من هذا الأساس أو بعده عنه ، يكون حظ المواقف من الحديث والتوجيه ، وقد ضرب القرآن نماذج وأمثلة لذلك كله .

وكثيرا ما يركّز القرآن على ما للإيمان من دور في التحكّم بالمشاعر الإنسانية ، وتوجيه سلوك الشخصية نحو الأفضل ، (فأغلب المواقف القرآنية عقدية تسوق قيمة إيمانية ويتشكل الموقف حولها) .

والقرآن في عرضه لهذه المواقف يوضّح أسباب رقيّ الإنسان وسموّه من جانب ، وأسباب سقوطه وترديه من جانب آخر ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾(١) .

والمواقف الإيمانية التي يعرضها القرآن تحوّل تعاليم هذا الدين إلى سلوك عملي وأنموذج تطبيقي نعيشه في حياتنا اليومية .

حين يعرض القرآن لموقف من المواقف يحطم كل المعوقات التي قد تعترضه ، ويتغلب على أمراض النفوس .

يهدف القرآن من خلال عرض هذه المواقف إلى أن البقاء دائما للأصح ، قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾(٢) ، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾(٣) .

مما يؤكد كون المواقف القرآنية مواقف هادفة أنها تُذكر أكثر من مرة ، ويعرض الموقف في أكثر من صورة ومشهد ، وما ذلك إلا لوظيفة نفسية وغاية تربوية ، ففي كل مرة يسلّط الضوء على جانب من جوانب السلوك ، أو على شخصية من الشخصيات ، حتى ينتهي إلى تشكيل موقف نفسي متكامل .

---

(١) سورة التين ، الآيتان ٤ـ٥ .
(٢) سورة الرعد ، الآية ١٧ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٨ .

ثالثاً : مواقف شاملة

المواقف التي يعرضها القرآن مواقف إنسانية تشمل جميع العصور ومختلف البيئات ، فهي مواقف شاملة تستوعب مختلف الأصناف البشرية متجاوزة في ذلك قضية الزمان والمكان ، ففي مختلف حقب الزمان ذكر القرآن لنا نماذج ، وفي مختلف الأماكن نجد ذكراً لهذه النماذج أيضاً ، وهذا بدوره يطمئننا على قيمة التحليل الذي يقدمه القرآن ، إذ لا يحدّه زمان أو مكان ، هذا بالإضافة إلى أن النماذج البشرية التي عرضها لنا القرآن كانت متنوعة تنوعاً يستوعب مختلف المراحل العمرية ، إذ تجد في القرآن نماذج للطفولة والفتوّة والكهولة والشيخوخة . . كل ذلك يُعرض في سياق المواقف التي تسوقها لنا القصة القرآنية لتستوعب مختلف مجالات الحياة الإنسانية من فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية . . وذلك على المستويين : « الفردي والجماعي » ، حيث لا يكتفي بالوقوف على أبعاد الشخصية الفردية وتحليلاتها فحسب ، بل فيه تحليلات تستوعب أمماً وجماعات بشرية على مر العصور ، فهو يطلعنا من خلال ذلك على نظرية العقل الجمعي ، كل ذلك من خلال القصة القرآنية التي يسوقها عبر آيات الكتاب الخالد .

مما يؤكد شمولية المواقف التي يعرضها القرآن كفاية وتنوع النماذج التي يقدمها القرآن فلو أخذنا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ محيط الأسرة ، ويقاس عليه : فالطفل يجد له أمثلته ونماذجه ، والفتى الشاب يجد له أمثلته ونماذجه ، والأب يجد له أمثلته ونماذجه ، والأم تجد لها أمثلتها ونماذجها ، والزوج يجد له أمثلته ونماذجه ، والزوجة تجد لها أمثلتها ونماذجها ، والأخ يجد له أمثلته ونماذجه ، والأخت تجد لها أمثلتها ونماذجها .

وهكذا في الميادين جميعها ، إذ لا يخفى على ذي لبّ قيمة هذا التنوع في النماذج البشرية التي يعرضها لنا القرآن ، إذ من فضول القول إن مشاعر النفس الإنسانية تختلف من حال إلى حال ، ومن موقف لآخر ، وقيمة هذا التنوع أنه يستوعب النفس الإنسانية في جميع أحوالها وظروفها .

رابعاً : مواقف دقيقة وصفا وتصويرا

المواقف التي يعرض لها القرآن دقيقة تطلعنا على صغائر الأمور فضلا عن كبارها ، وتبرز خفايا النفوس فضلا عما تظهره ، إذ المواقف تعرض للأذهان بصور حية متحركة حتى يخيل للقارىء أنه شاهد عيان لتلك الأحداث ، يصورها للأذهان كما وقعت ، حتى ترتسم في الذاكرة صورة كل شخصية شاركت في هذا الحدث ، وتبرز كل المشاعر التي أثيرت في هذا الموقف النفسي ، فيجد القارىء من دقتها أن مشاعر مماثلة تصدر عنه لتتفاعل مع مجريات تلك الأحداث ، مواقف تشخص الأحداث ، وتصف ما يحيط بها ، مما يمكّن القارىء أو السامع من أن يعيش تلك الأحداث بعواطفه وأحاسيسه .

ومن دقته أنه ينقل لنا الأحداث ولو كانت لمحة ، ويصوِّر المشاعر ولو كانت عبرة ، ويكشف عن السرائر ولو كانت خاطراً ، وهذا ما يبرز قيمة ودقة المواقف النفسية التي عرضها لنا القرآن الكريم ، حتى لتحس النفس وهي تقرأ أن عدسة التصوير الحديثة تصحب هذا الحدث لتنقل كل ما يحيط بالحدث . ولعل في الأمثلة القادمة ما يشير إلى جانب من هذا .

المطلب الرابع : تنوع المواقف النفسية أمثلة ونماذج

تتنوع النماذج والمواقف النفسية التي يعرضها لنا القرآن ، سواء من حيث طريقة العرض ، أم من حيث المدة التي يعرض فيها الموقف ، أم من حيث عدد المرات التي يعرض فيها المشهد ، أم من حيث اختيار أجزاء الحدث :

١ـ تارة يُعرض المشهد مطوّلاً ، ويؤتى بالألفاظ التي تؤدي دورها في التعبير عن تطويل المشهد ، مما يشارك في رسم الموقف النفسي ـ كما هو الحال في مشاهد العذاب ووصفها ـ ولعل أبرز هذه الأمثلة قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾[١] .

إذ التطويل في هذا المشهد أمر مقصود وملحوظ ، تصوير بطيء لمشهد يعرض لنا المجرم وقد أُخذ ، ومشهد وقد وضعت الأغلال في عنقه ، وقد جيء بالسلسلة والعدد

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٣٠ـ٣٢ .

سبعون ليصور بعدا نفسيا في التطويل ، ثم مشهد وهو يساق إلى الجحيم[1] .

وهكذا نلمس أن الموقف النفسي هذا مطول مقصود ، ومثل هذا المشهد في القرآن كثير يكفي أن نشير إلى بعضه[2] .

وقد يختلف الغرض من التطويل والتصوير البطيء في المشهد ، لا ليصور العذاب النفسي ، وإنما لينقل لنا مراحل وتدرجات الأحاسيس التي يحس بها صاحب المشهد .

ومن التطويل في تصوير المشهد لترجمة كل حركة وعاطفة وإحساس في المشهد ما حكاه القرآن عن الوليد بن المغيرة ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[3] ، ثمان آيات تصوّر تقلبات المشاعر وتصارعها في نفس الوليد بن المغيرة ، فأي تصوير بطيء أكثر من هذا الذي يعرض المشاهد؟!! وأي صورة تلك التي ترتسم في الذهن

---

(١) لسيد قطب كلام لطيف حول هذا ننقله للفائدة : ذلك الذي أوتي كتابه بشماله ، لقد أدركته الحسرة ، وركبته الندامة ، فلنسمعه يتوجع توجعاً طويلاً ، وقد ثبت المشهد كأنه يتحرك : ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ . . ﴾ ، ولكن ما باله هكذا لا ينوي مغادرة الموقف ، ولا ينوي السكوت عن التفجع لقد طال استعراضه ليتحقق التأثير الوجداني بتأوه الدم وتفجع الحسرة فإذا تم هذا الغرض فهنا نسمع الأمر العلوي الذي لا يرد ، فلنكتم أنفاسنا من خشية ولنستمع في رهبة : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ ، هنا كل شيء مفصل ومطوّل ، فمن الجمال الفني ومن التأثير الوجداني ، ومن الغرض الديني ما يجعل لطول الموقف غايته المقصودة . وهنا يشترك جرس الكلمات وإيقاع العبارات مع السلسلة التي ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ ـ وذراع واحدة تكفي ـ يشترك هذا كله في إطالة الموقف أمام النظارة وفي حسّهم أيضا ليتم التناسق بين المشهد المعروض والتأثير المطلوب » ، قطب ، سيد : مشاهد القيامة في القرآن ، ص ١٨٣ـ١٨٤ .

(٢) كقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ سورة الحج ، الآية ١٥ .
﴿ . . وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ ، سورة التوبة ، الآيتان ٣٤ـ٣٥ .

(٣) سورة المدثر ، الآيات ١٨ـ٢٥ .

حين تسمعه الآذان ، وفي هذا المقام أترك الوصف لصاحب الظلال إذ يقول[(١)] : « لمحة لمحة . . وخطرة خطرة . . وحركة حركة . . يرسمها التعبير ، كما لو كانت ريشة تصوِّر ، لا كلمات تعبّر ، بل كما لو كانت فيلماً متحركاً يلتقط المشهد لمحة لمحة؟!! » .

لقطة وهو يفكر ويدبّر ومعها دعوة هي قضاء (فقُتِل؟!) واستنكار كله استهزاء (كيف قدر ؟) ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار . . ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جدٍّ مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء . . ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً ، ويقبض ملامح وجهه باسراً ، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة؟! . . وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحذق كله ؟ لا يفتح عليه بشيء . . إنما يُدبر عن النور ويستكبر عن الحق . . فيقول : ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾! . . إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآني في المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة في اللوحة ، وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وتثبت صورته الرزية في صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال » .

ومن الأمثلة التي نلمس فيها جانب التطويل غير ما تقدّم ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[(٢)] ، إذ لفظة « تقلّب » تصوّر تلك الحركة المتكررة والمشهد المتجدد لرسول الله ﷺوهو ينظر في السماء يرتقب وحيا .

٢ـ تارة يُعرض المشهد الذي ربما كانت بدايته في الحياة الدنيا ، وإذ به في لمحة بصر يلتقي بأحد مراحل الآخرة فيكون ذلك الموقف مشاركاً للنفس في إلقاء جو الرهبة والفزع على هذا المشهد ، ومن ذلك كثير كقوله تعالى : ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[(٣)] ، هذا المشهد الذي يحكي لنا قول الكفار : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، سرعان ما ينتقل بنا المشهد في الآخرة حيث

(١) قطب ، سيد : الظلال ، ٦/ ٣٧٥٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٤ .
(٣) سورة الرعد ، الآية ٥ .

الأغلال في أعناقهم ، انظر كيف جيء بذلك اليوم ، ومزجه بالموقف الحاضر ، حتى إن النفس لتتخيل أن الأغلال وضعت في أعناقهم لحظة قولهم ، وفي هذا ما فيه من الملحظ النفسي .

بل ربما يعرض لنا الموقف النفسي الذي بدأ رحلته قبل خلق الإنسان ، وينتهي به في الجنة والنار ، مستعرضا في ثناياه بعض ما يخص الحياة الدنيا ، حتى تحس النفس أنها قطعت الرحلة الطويلة في لحظات ، كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[1] .

ومرة يرينا مشهد الدنيا والآخرة حاضرتين معاً ، فهؤلاء جماعة يستعجلون النبي بالعذاب بينما هم في حوزة جهنم : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] .

ومرة يذكر لنا مشهداً يبدأ في الدنيا ، ثم نتابع بقيته فإذا نحن في الآخرة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾[3] .

ومرة يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة كأنما هما حاضرتان في الزمان ، تتبادلان التقديم والتأخير : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ . . ﴾[4] .

ومرة يتحدث عن مواقف الحياة الدنيا بصيغة الماضي وعن الآخرة ، وكأنها حاضرة الآن كما في المقطع الآتي : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ

---

(١) سورة الإنسان ، الآيات ١ـ٦ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٥٤ .

(٣) سورة هود ، الآيات ٩٦ـ٩٨ .

(٤) سورة المرسلات ، الآيات ١٦ـ٢٣ .

﴿يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1] .

كل هذا التلوين في عرض المواقف له أبعاده النفسية وآثاره فيها ، ولعل النتيجة التي يمكن أن تستنبط من هذا : أن الشيء الغالب الذي تقاس فيه المسافات الزمنية والأبعاد المصاحبة للمواقف إنما هي المشاعر النفسية والأحاسيس والوجدانات ، فهي التي تتحكم في رسم المواقف القرآنية ، والله اعلم .

٣ـ بعض المواقف تبدو مكررة في السياق القرآني ، وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه النماذج في حقيقة الأمر تسلّط ضوءاً على جانب من جوانب الحدث في كل مرة ، ومن مجموع تلك المواطن يتشكل موقف نفسي متكامل ، عدا ما في ذلك من تثبيت الفكرة العامة للموقف النفسي .

ولعل من ابرز الأمثلة على مثل هذا النوع تلك المواقف المتعلقة ببني إسرائيل ، إذ هي من أكثر المواقف وأبرزها وروداً ، وهي تهدف في مجموعها إلى إبراز مآسيهم الأخلاقية ، والتركيز على نوع من السلوك صحب مواقفهم جميعاً يتمثل في مواقفهم المخزية من الرسل ودعواتهم ، ويتمثل في ذلك الصدود والعناد في مواجهة رسلهم وتكذيبهم ، فتارة يعبرون عن موقفهم بتهديد الرسول ، وتارة بإعناته من حيث طلب المعجزات الحسية ، وتارة بقتلهم أو تهديدهم بالقتل إلى غير ذلك .

ومن المواقف التي عرض لها القرآن في مواضع كثيرة ، وبسط لها نماذج من كل جيل ، موقف الإنسان من تغيّر نعمة الله عليه ، وكيف أن الإنسان يقابل النعمة بالكفران ، ويقابل زوالها بالجزع كقوله : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[2] ، ومثلها بقية الآيات في هذا الباب ، وكأنّ الإنسان يتصور بقاء النعمة عليه ، ونسي أنّ تقلّب الأحوال هو أحد أبرز صفات الحياة الدنيا .

هذه المشاهد وأمثالها جيء بها لإبراز الطبيعة التي جبلت عليها النفس الإنسانية من جهة ، ثم إبراز ما ينبغي أن يكون موقف الإنسان النفسي من هذا الجانب ، ويشبه هذا

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٧١ .

(٢) سورة يونس ، الآية ١٢ .

الموقف موقف استعجال الإنسان العذاب الذي هدد به : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾[1] ، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2] ، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[3] .

كل هذا يتركز حول سلوك في النفس المعاندة المستكبرة ، فعلى الرغم من تباعد الزمان نجد أن هذه النفوس تلتقي في الطلب والموقف ، بل حتى في العبارات ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، ومن المواقف التي ذكرت كثيراً موقف الأتباع والمتبوعين عند الحساب كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[4] ، ومثل هذا المشهد كثير .

والموقف هذا يتركز حول سلوك معين ، وهو محو الشخصية ، وذوبانها في الغير ، ثم موقف التنصل من المسؤولية عند الفزع ، وهو سلوك متأصل في النفس الإنسانية ، إنها تنزع إلى الهرب من المسؤولية عن نتائج الأحداث التي قد تكون سبباً فيها ، والموقف نفسه نجده يصوّر الشيطان وهو يتبرأ من الإنسان : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾[5] ، وكقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6] ، ولعل أكثر من يتمثل هذا

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ١١ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٤٨ ، سورة الأنبياء ، الآية ٣٨ ، سورة النمل ، الآية ٧١ ، سورة سبأ ، الآية ٢٩ ، سورة يس ، الآية ٤٨ ، سورة الملك ، الآية ٢٥ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٤٧ . وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، سورة العنكبوت ، الآيتان ٥٣-٥٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآيتان ١٦٦-١٦٧ .

(٥) سورة إبراهيم ، الآية ٢٢ .

(٦) سورة الحشر ، الآية ١٦ .

السلوك من الفئات التي بينّها القرآن فئة المنافقين : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1] .

وهكذا نجد أن القرآن حيث يذكر بعض المواقف أكثر من مرة ، إنما يذكرها من جوانب متعددة وللإشارة إلى سلوك معين ، أو لإبراز موقف نفسي ثابت جبلت عليه النفس الإنسانية ، ويلحق بذلك موقف الإنسان من قضيتي الرزق والأجل ، وموقف الإنسان تجاه المال .

٤ـ المواقف التي يعرضها القرآن متنوعة الجوانب فقد تكون مواقف عقدية خالصة ، ارتباطها أولاً وآخرا بمسائل العقيدة ، لكن لا يمنع هذا من كونها تضيف قيمة اجتماعية ، أو تعالج مسألة فكرية ، أو قضية أخلاقية ، وهي في هذا كله فيها جوانب نفسية ، والذي يمكن أن يقال في هذا المقام :

أن بعض المواقف يكون فيها الجانب العقدي أبرز من بقية الجوانب ، وبعضها يكون فيها الجانب الاجتماعي أبرز الجوانب ، وبعضها الجانب الأخلاقي وهو أخص من الجانب الاجتماعي أبرز الجوانب ، وبعضها الجانب السياسي أبرز الجوانب. . وهكذا ، ففي الجانب العقدي :

نجد أن القرآن قد ذكر لنا مواقف ونماذج لكل مسألة من مسائل العقيدة :

كموقف سحرة فرعون من تهديده بعد إعلانهم الإيمان ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾[2]

أو موقف اليقين الذي ينشده إبراهيم عندما طلب منه أن يريه كيف يحيي الموتى .

أو موقف الشك في قدر الله .

أو موقف التكذيب بأنبياء الله ورسله .

أو غير ذلك من المواقف الكثيرة التي قصتها علينا ، لكن في المواقف المذكورة وغيرها مما هو داخل في إطارها لا تنفصل بحال عن الجانب النفسي .

وكذا الشأن في المواقف الاجتماعية ، سواء منها ما تعلق بالأسرة ومعاملة أفرادها

(١) سورة الحشر ، الآية ١١ .

(٢) سورة طه ، الآية ٧٢ .

بعضهم ببعض ، أم ما تعلق منها بطريقة التعامل مع أفراد المجتمع . . أو غير ذلك كلها يبرز فيها الجانب النفسي باعتباره المحرّك الرئيسي للأحداث .

وكذا الأمر بالنسبة للأمراض الاجتماعية ، فقد ضرب الله لنا مثلا لكل مرض قد يصيب مجتمعاتنا ، ولعل هذا ما يشير إليه النص القرآني الآتي : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾[1] .

فلو رمنا موقفا يحدثنا عن الحسد أو الغيرة بين أفراد الأسرة الواحدة فإنا سنجد[2] ، ولو رمنا موقفا يحدثنا عن الكيد والمكر[3] لوجدنا ، ولو رمنا موقفا يحدثنا عن الخداع والمراوغة لوجدنا[4] ، ولو رمنا موقفا يحثنا عن الاستغلال لوجدنا ، وكذا الأمر بالنسبة للفقر ، أو فيما يخص التعامل مع الآخرين .

وعلى الصعيد السياسي نجد أن المواقف تتركّز على جوانب سياسية ، كمسألة المحافظة على الأسرار وعدم إفشائها للأعداء[5] ، ومسألة الطاعة والتسليم والضعف والتخاذل[6] ، وغير ذلك .

وعلى الصعيد الأخلاقي مسألة الحقد والغضب والقتل[7] ، مسألة الصدق والكذب ، موقف يدل على الطهر والعفة[8] ، وغيرها مما يتصل بالأخلاق على المستوى الفردي ، كل ذلك يُعرض مصحوباً بالخيط النفسي الذي صيغ الموقف في ضوئه .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٥٤ .

(٢) موقف أخوة يوسف .

(٣) موقف امرأة العزيز .

(٤) ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية ٧٢ .

(٥) كموقف حاطب بن أبي بلتعة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ ، سورة الممتحنة ، الآية ١ .

(٦) مثل مواقف بني إسرائيل المتكررة ، أو مواقف المنافقين والتخلف عن الغزوات .

(٧) مثل ابني آدم : ﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ، سورة المائدة ، الآية ٢٧ .

(٨) موقف سيدنا يوسف عليه السلام . .

وكثيرا ما يعرض القرآن لموقفين متقابلين فيجعل القارىء يقارن بينهما ويتلمس غرض كل منهما كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾[2] ، وغيرها من مثل هذه المواقف كثير .

المطلب الخامس : مواقف نفسية في عصر التنزيل

يعدّ القرآن الكريم أحد أهم وأبرز وأدق مصادر السيرة النبوية في نقل الأحداث التي حدثت في عصر النبوة ، وقد نقل القرآن الكريم لنا كثيراً من المواقف التي حدثت في عهد النبوة ، وهي مواقف متنوعة وكثيرة جداً[3] ، ولعل أبرز ما في هذه المواقف تلك المعاني التربوية والنفسية التي صحبت نقل الأحداث ، سوف يكتفي الباحث بالحديث عن مثالين من أبرز المواقف التي نقلها لنا السياق القرآني لمشاهد حدثت في عصر التنزيل : الأول :حديث الإفك ، الثاني :حديث المخلفين عن غزوة تبوك ، سوف يلمس القارىء غنى هذين الموقفين بالجوانب النفسية ، إضافة إلى القيمة التربوية التي تبرزها الآيات من خلال هذه المواقف النفسية .

الأول : حديث الإفك

على الرغم من عدم تناول القرآن الكريم لتفصيلات هذا الحدث من أحداث السيرة ، إلا أن الآيات العشر التي جاءت تعقيبا على هذا الحديث كانت مشتملة على جوانب « نفسية ، وتربوية ، واجتماعية ، وعقدية . . » ولعل أبرز هذه الجوانب هو الجانب النفسي التربوي .

نقلت لنا كتب الحديث الصحيحة وكتب السيرة أحداث ما يعرف بحديث الإفك[4] ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٢ .

(٣) على سبيل المثال لا الحصر : موقف الغيرة بين نساء النبي ﷺ ، موقف الإيثار بين المهاجرين والأنصار ، مواقف المنافقين المتنوعة ، مواقف تتعلق بالخروج للجهاد .

(٤) الحديث رواه البخاري ٢/ ٩٣٢-٩٤٤ ، ٤/ ١٥٢٠ ، ١٧٧٦ ،رقم الحديث : (٢٤٦٧) ، =

= ونصه كالتالي : ». . أن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فأقرع بيننا في غزاة غزاها ، فخرج سهمي ، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ، فأقبل الذين يرحلون لي ، فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ، ولم يغشهن اللحم ، وإنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج ، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأممت منزلي الذي كنت بهن فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي ، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك وكان الذي تولى الإفك عبدا لله بن أبي ابن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت بها شهرا ، والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك ، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض ، إنما يدخل فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكم ؟ لا أشعر بشيء من ذلك ، حتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا ، لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه ، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي ، فعثرت في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت : يا هنتاه ألم تسمعي ما قالوا ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا على مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : ائذن لي إلى أبوي ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ ، فأتيت أبويّ فقلت لأمي : ما يتحدث به الناس ؟ فقالت : يا بنية هوّني على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، فقلت : سبحان الله! ولقد يتحدث الناس بهذا ، قالت : فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي ، يستشيرهما في فراق أهله ، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم ، فقال أسامة : أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم والله إلا خيرا ، وأما علي بن أبي طالب فقال :

= يا رسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : يا بريرة ، هل رأيت فيها شيئا يريبك ؟ فقالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق ، إن رأيت منها أمرا أغمصه عليها ، قط أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبدالله بن أبي ابن سلول ، فقال رسول الله ﷺ : من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله ، أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ، ففعلنا فيه أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية فقال : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على ذلك ، فقام أسيد بن حضير فقال : كذبت لعمر الله والله لنقتلنه ، فإنك منافق ، تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا ورسول الله ﷺ على المنبر فنزل ، فخفضهم حتى سكتوا ، وسكت وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، فأصبح عندي أبواي ، وقد بكيت ليلتين ويوما ، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي قالت : فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي ، إذ استأذنت امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينا نحن كذلك ، إذ دخل رسول الله ﷺ فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فيّ ما قيل قبلها ، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني شيء ، قالت : فتشهد ثم قال : يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه ، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، وقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال ، قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن فقلت : إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم إني لبريئة ـ لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني بريئة ـ لتصدقني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ، ثم تحولت على فراشي ، وأنا أرجو أن يبرئني الله ، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيا ، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله ، فو الله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات ، فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي :

يهمنا منه فقط أن نتصور الجو النفسي الذي صاحب هذا الحديث بالنقاط الآتية :

١ـ كان هذا الموقف من أشد المواقف حساسية ، واجهت الصف المؤمن بكامله من الجانب النفسي ، ذلك أنه موقف يمس قيادة الصف المؤمن في أحرج جوانبها .

٢ـ كان الغرض منه اختبار مدى الصلابة النفسية فيما يتعلق بالتماسك الاجتماعي .

٣ـ زامن هذا الحدث فترة فرح المسلمين بانتصارهم على بني المصطلق ، فهو حدث عكّر الجو النفسي للذة هذا الفرح .

٤ـ كان السبب في قلب الجو النفسي هذا ، هو بعد نفسي آخر لازم فئة المنافقين ، حيث لم يستطيعوا التغلب على نفوسهم ، حين شاهدوا احتفاء المسلمين بالنصر الذي أحرزوه ، حقد وغيظ وحنق ، وعلى رأس تلك الفئة لا بد من ملاحظة خاصة لمشعل فتيل الفتنة ومدبرها عبد الله بن أبيّ بن سلول ، قال عز وجل : ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1] ، الذي دفعه لذلك انتقام نفسي ، ورد فعل طبيعي لنفوس مريضة ، أرادت أن تنتقم بعد أن افتضح أمرها ، وبان سرّها ، خاصة وأن قومه جميعاً علموا به .

٥ـ شارك في رسم الجو النفسي هذا طول المدة الزمنية التي استمرت بعد تناقل هذه الحادثة وحتى نزول البراءة ، هذه المدة رسمت جوا نفسياً عصيباً على كل فرد من أفراد المجتمع بشكل عام ، وعلى من له علاقة بهذا الحديث بشكل خاص .

أما بالنسبة للرسول ﷺ : فهو صاحب الرسالة وهو الزوج ، ومثل هذه الشائعة كفيلة بأن تجعله يعيش لحظات نفسية عصيبة ، لكن مع كل هذا وجدناه النبي الصابر

= يا عائشة احمدي الله فقد برأك الله ، فقالت لي أمي : قومي إلى رسول الله ﷺ فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات فلما أنزل الله هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصديق ـ (وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه ـ : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه ، وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري ، فقال : يا زينب ما علمت ما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت عليها إلا خيرا ، قالت : وهي التي كانت تساميني فعصمها الله بالورع .

(١) سورة النور ، الآية ١١ .

رابط الجأش الذي لا يمنعه ذلك كله من القيام بواجب الرسالة تجاه زوجته ، ثم تجاه دعوته إلى الله .

وأما بالنسبة لصفوان بن المعطل وهو المتهم : فموقف الصابر والمتهم البريء .

أما أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي المتهمة ـ أيضا ـ فهي لا يقرّ لها دمع .

وموقف المجتمع المسلم وكيف قابل هذه الشائعة ؟ وما موقفه النفسي منها ؟ وهل يكتمها أو يحدّث بها ؟ فيتخلص من ذلك الصراع النفسي الداخلي .

وموقف والدها (أبو بكر الصديق) (الذي يعلم ببراءة ابنته ، ويتصرف بناءً على ذلك الضغط النفسي ، فيقسم ألاّ ينفق على مسطح الذي أشاع الخبر ، في ظل هذه الأجواء النفسية تتنزل الآيات التي فيها براءة أم المؤمنين مما اتهمت به ، وفيها وصف وعلاج نفسي لما صاحبه من أحداث : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، وقد برز فيه ذلك الجانب التربوي لمعالجة هذه النفوس ، حيث يمكن تلخيصه بالآتي :

---

(١) سورة النور ، الآيات ١١ـ ٢٢ .

أما المؤمن فما كان ينبغي أن يتناقل مثل هذا الحدث إلا بعد التثبت ، وقد كان الأولى أن يظن بالمؤمن خيراً ، وفي هذا ما فيه من العلاج النفسي للشخصية المؤمنة ، وصقلها بمشاعر ضبط النفس ، وعدم انجرارها وراء الأخبار التي تتلقفها الألسنة ، دون أن تمرر على العقول : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[1] ، إنه درس نفسي تربوي .

وأما المنافق فقد كان دافعه لذلك نفسي ناشىء عن حب إشاعة الفاحشة في الصف المؤمن .

وأما ردود الفعل حول هذا الحدث فلا بد أن تكون منسجمة مع سمو التشريع الرباني ، إنه تشريع للمجتمع لا للفرد فحسب ، وإن المبدأ فيه يجب أن تذوب حظوظ النفوس الشخصية في سبيل ذلك السمو التشريعي ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] .

وأما العلاج للنفوس المؤمنة من بقايا تلك الآثار النفسية تجاه من يمسّها في أعراضها ، فقد تدرج بها ، حتى طلب منها إزالة أي أثر نفسي ولو كان بسيطا ، قال عز وجل : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾[3] ، ذلك التسامي في هذا العلاج لما جبلت عليه النفوس ، فهو توجيه يهدف إلى مسح كل الآثار السلبية لهذه الحادثة ، حتى لا تتذكرها النفوس فيتعكر صفوها .

أما التشريعات الوقائية التي صحبت الآيات فقد كانت استجابة للنفوس العفيفة الطاهرة ، إذ كرامتها تأبى مثل هذه الشائعات ، وإذاً فلا بد من عقاب على من يسلك طريقا كهذا للاتهام دون دليل ، إنه تشريع فيه استجابة نفسية ووقاية سلوكية .

وهكذا ظلت سورة النور بتمامها تلقي ضوءاً على كل ما يتصل بمثل هذه القضية الاجتماعية ، وتبرز جوانبها النفسية ، حتى العقوبات التي شرعت وقاية ، هي في حد

---

(١) سورة النور ، الآية ١٥ .
(٢) سورة النور ، الآية ٢٢ .
(٣) سورة النور ، الآية ٢٢ .

ذاتها فيها علاج لمرض النفوس ، وسبيل للحفاظ على صفاء هذه النفوس ونقائها كشعاع النور ، وهكذا ندرك ما في هذه الحادثة من جوانب نفسية ، لا يمكن إدراكها إلا إذا كنا على علم بظروفها وتفصيلاتها التي تكفل الحديث المتقدم ذكره ببيانها ، فضلا عما في الآيات من إسهام في هذا الجانب .

الثاني : حديث المخلفين عن غزوة تبوك

قال تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1] .

آية واحدة تتناول موقفاً تربوياً غنياً بالمعاني النفسية ، إنها ألفاظ مركّزة تنطلق منها المشاعر والأحاسيس والمعاني النفسية ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ ، كيف تضيق الأرض بالمرء على سعتها ؟ ثم كيف تضيق نفس المرء ؟ إنه موقف نفسي لا يتصوره إلا من عاش نظيره .

هذه الآية تحدثنا عن موقف مقتطع من أحداث السيرة ، تناقلته لنا كتب الحديث والسيرة، والدراسة الحقيقية لأبعاد هذا الموقف لا يمكن أن تتحقق إلا بمعرفة الظروف والأحوال التي أحاطت بهذا الحدث ، ولأن الروايات التي تناقلت هذا الحدث طويلة فإن الباحث ينقلها جاعلاً إياها في الهامش، حتى تمكّن القارىء من الاطلاع على تفصيلاتها[2]،

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١١٨ .

(٢) حديث كعب بن مالك رواه الشيخان : « أن عبدالله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ـ قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها ، كان من خبري : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا=

= ومفازا وعدوا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان ، قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئا فأقول في نفسي : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئا ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئا ، ثم غدوت ، ثم رجعت ولم أقض شيْ ، فلم يزل بي ، حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليتني فعلت ـ فلم يقدر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب ؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ، فسكت رسول ﷺ ، قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلا ، حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك ، جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهمن وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمت . وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ؟ قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : =

= نعم رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض ، فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج ، فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ـ فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ، فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته ، فسكت فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار ، قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا نبطي من أنباط أهل الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه ، بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان ، فإذا فيه : « أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها : وهذا ـ أيضا ـ من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسينن إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها؟! أم ماذا أفعل؟! قال : لا ، بل اعتزلها ، ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك ، قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة ، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ؟ أبشر . قال : فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله =

أما الأبعاد النفسية التي يمكن استخلاصها من هذا الحدث فهي على كثرتها إلا أنه يمكن إجمالها في الآتي :

١) تشكل الحياة الاجتماعية بالنسبة للمرء عاملاً مهماً في حياته ، فهو إن شعر أن له ارتباطاً بالحياة الاجتماعية كان ذلك إشباعاً لجانب كبير متعلق بالنفس الإنسانية ، إذ في هذا الارتباط إشباعٌ لرغبات الفرد في الراحة والفرح والسعادة والاعتزاز والتمنع ،

= علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ـ وكان الصوت أسرع من الفرس ـ فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنؤني بالتوبة يقولون : لتهنئك توبة الله عليك ، قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر ، فقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما نجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فو الله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت ، وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ ، فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي ، شر ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ، قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ ، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه » ، البخاري : صحيح البخاري ، ٤/١٦٠٧ .

فهي بلا شك مصدر لطمأنينة الفرد وتحقيق الأمن النفسي له ، وهذا ناشىء من تحقيق الأمن الجماعي الذي يحميه ويدافع عنه(١) . والموقف الذي تتحدث عنه الآيات موقف مقاطعة اجتماعية ، بمعنى قطع وبتر وجود الفرد ، ورفض فاعليته في هذه الجماعة ، وهذا ـ بلا شك ـ له ارتباط نفسي ، إذ سلوك الإنسان هو السبيل العملي لإبقاء التواصل بين الفرد وبين بقية الأفراد ، وهذا هو الشعور النفسي .

٢) الآية تحكي لنا موقفاً تربوياً نفسياً تستخدمه الجماعة الواعية ضد أفراد انحرفوا عن السلوك السليم ، أسلوب نفسي للتربية يهدف إلى تعديل السلوك وتقويته ، كما يهدف إلى تربية بقية أفراد المجتمع .

٣) محور هذا الموقف النفسي يتركز حول الشخصيات الثلاث : « كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية » إذ تخلفوا عن غزوة تبوك وما بهم نفاق ، إذن لابد وأن عوامل نفسية لاحقتهم ، حتى أقعدتهم عن الخروج ، وبما أن الروايات التي بين أيدينا وردت على لسان كعب بن مالك فإن البحث سيتركز في تحليل هذه الشخصية قبل الحدث ، وأثناء الحدث ، وبعده ، وأظن أن هذا التحليل نفسه سينطبق على أخويه « هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع » نظراً لاتحادهما في المواقف والنفسيات :

أ ـ مواقف نفسية قبل الحدث :

أما كعب بن مالك فقد كان مؤمناً صادقاً شهد الغزوات إلا بدراً ـ وأما صاحباه فقد شهدا بدراً ـ وبايعا الرسول في بيعة العقبة الثانية ، أما من حيث الاستطاعة البدنية فقد كان صحيح الجسم ، وأما الاستطاعة المادية فقد كان غنياً ـ كما تشير إليه الرواية ـ إذن ما الذي أقعده عن الخروج ، وقد استنفر الرسول أصحابه للخروج؟! إنه بلا شك أمر نفسي ، موقف تصارعت فيه مشاعره وأحاسيسه ما بين موقفين :

* موقف الإيمان الصادق يأمره بالخروج .

* وموقف من داخل النفس يخذله ويثبطه .

---

(١) للمزيد حول هذا انظر الهاشمي : الرسول العربي المربي (الرياض : دار الهدى للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٥م) ، ص ٣٠٥ـ٣٢٨ .

وكثيراً ما يقع المرء فريسة هذا الصراع النفسي ، وأغلب الأسلحة وأكثرها فتكاً بالمرء ما كان مدخله الشهوة ، أيا كانت ، سواء أكانت متعلقة بالشبع أم بالراحة أم بغير ذلك .

فما هي الأسلحة التي عرضتها النفس على كعب بن مالك (حتى قعدت به عن اللحاق بصحبه!! إنها في مجموعها تشكل قوة : فحرارة الجو من جهة ، وبعد المكان من جهة ، وكثرة المشاركين في الجهاد من المسلمين من جهة ، وبدوّ ثمار المدينة ونضجها ، وفي المقابل كثرة المتخلفين من المنافقين ، كل هذا ، وربما غيره شكّل في ذلك قوة للتفكير في عدم الخروج أو التردد فيه ، والتردد بلا شك أحد الأمراض التي تصاب بها النفوس فتضعفها ، ذلك التردد أو المماطلة في عدم الخروج هو أول سهام التنازل أمام النفس ، وأنى للنفس أن تقف عند هذا الحد ؟

في عبارات كعب ما يصلح دليلا لما تقدم ذكره ، حيث يقول واصفاً هذا الموقف[1] : « وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئا وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت . . فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدّ . . » .

ب ـ الموقف النفسي بعد الخروج

ماذا عساه يكون موقف المؤمن الصادق الذي تخلف عن الجيش ولا عذر له ، إنه موقف الندم والتحسر ، موقف العذاب النفسي الذي ستعيشه نفس المؤمن ـ النفس اللوامة التي أقسم الله بها ـ يصفه كعب : « وطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أنى لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق (منافقاً خالصاً) ـ كما في بعض الروايات ـ أو رجلا فيمن عذر الله من الضعفاء . . » .

أيّ عذاب نفسي أشدّ على الحرّ من هذا المشهد ؟ يمشي في شوارع المدينة فلا يرى سوى : النساء والصبيان وأصحاب الأعذار!! أو منافقا خالص النفاق ، إنه عذاب نفسي ثقيل على النفوس .

---

(١) المقاطع المستشهد بها هنا هي المقاطع التي تحتها خط في الحديث المشار إليه بالهامش المتقدم .

ج ـ الموقف النفسي بعد الرجوع من غزوة تبوك :

ظل الصراع النفسي يلاحق كعبا (في كل لحظة ، أما هذه اللحظة فإن الصراع النفسي يتجه إلى طرفين آخرين غير طرفي الصراع اللذين عاشهما قبل الخروج ، عاش الصراع النفسي الجديد ، ونفسه تحدثه بين الكذب والاعتذار للرسول ﷺ وحينها يسلم من الملام ، وبين الندم ومواجهة النفس بالصدق والصراحة ، فهو يقول : « فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني همّي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا » ؟ إذن هو الآن بين الندم والتوبة وبين اختلاق الأعذار والكذب ، لكنه صراع ينتصر فيه هذه المرة ، فالمعهود على كعب الصدق وعدم اختلاق الأعذار ، ينتهي هذا الصراع إلى أن يأتي كعبٌ رسولَ الله ﷺ ، ويعترف له ويصدقه القول : « لا والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك » ، ويكون جواب الرسول ﷺ له : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك » .

وينتهي الصراع النفسي إلى الراحة النفسية المؤقتة ، فهو لا يعرف ما الله قاضٍ فيه ، وما موقع صدقه هذا من النجاة ؟ فيدخل في موقف نفسي جديد ، وصراع نفسي من نوع آخر ، إنه الآن بتدخل خارجي ، إذ يحاول نفر من بني سلمه يقومون بتأنيب مالك على موقفه وتحزينه على أنه لم يعتذر كما اعتذر المنافقون ، فيسلم كما سلموا ، ويُقبل عذره كما قُبِل عذرهم ، وقد أثّر ذلك في نفسيته حتى عاوده التردد مرة أخرى؟! ولحقه الصراع مرة أخرى ، لكنه وقد تعلم دروسا في الصراع النفسي لن يستسلم هذه المرة يقول : « فوالله ما زالوا يؤنبونني ، حتى أردت أن ارجع إلى رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي » ، إلا أنه الآن ينشد الراحة النفسية راحة الضمير والوجدان ، فما أصعب وأشق أن تعيش النفس حياة التناقض بين معتقدها وسلوكها ، إنه ينشد الراحة النفسية .

كما عاش كعب وأصحابه تلك المراحل في صراع نفسي ، فإن العلاج سيكون من النوع نفسه سيكون نفسيا ـ أيضاً ـ ، الطريقة التربوية السليمة وهي « الجزاء من جنس العمل » .

العلاج التربوي النفسي :

إنه أسلوب المقاطعة الاجتماعية حيث نهى الرسول ﷺ المسلمين عن تكليمهم ، مقاطعة نفسية تلاحقهم في كل مكان في أسواقهم ، وفي المسجد وفي البيت وفي كل مكان .

ويستمر العلاج هكذا أربعين ليلة ، ثم ينتقل بهم العلاج إلى ما هو أشدّ ، فبعد الأربعين ليلة تمنع زوجاتهم من الحديث معهم أو الالتقاء بهم ، إنه جو نفسي تضيق به النفوس على سعتها وتضيق به الدنيا رغم سعتها .

الكلام ، وهو أحد أبرز سمات التعامل الاجتماعي يمنعون منه ، ويزداد الألم حين يحاول المرء التكلم مع غيره دون مجيب[1] ، ولا يكاد يسمعه يرد السلام ، حينها يصور كعب لنا نفسه : « فاجتنبنا الناس . . وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة » . نعم يصف نفسه بذلك ، ومما يدل على فداحة الموقف وعمقه أن الرجل في العادة عصي الدمع . . في مواجهة المواقف لا يبكي إلا لفضاعة الموقف ، إلا أنه يصف لنا نفسه يبكي ، وهذا دليل على ما في النفس ، دليل يجسد المعنى الذي وصفته لنا الآية الكريمة : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ ، والإنسان إذا ضاقت به نفسه لم يجد إلا البكاء مفرّجاً كربته ، ومعبراً حقيقياً عما في نفسه .

أما ضيق الأرض عليه ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ فبقدر رحابتها وسعتها ، إلا أنه كان يحسّها ضيقه لا تسعه ، وكذا الموقف النفسي يصنع بالمرء ، فالسعة ليست سعة المكان وإنما سعة النفوس ، والضيق إذن ليس ضيق المكان وإنما ضيق النفوس ، وإلاّ ففي هذه اللحظات العصيبة يأتيه عرض خارجي يمنحه حق اللجوء السياسي ـ في عرفنا الحاضر ـ يقول : « فبينما أنا أمشي في سوق المدينة ، فإذا نبطي من نبط أهل الشام فيمن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ يقول كعب : فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني ، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان . وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة . . فالحق بنا نواسك » .

---

(١) يحدثنا كعب عن نفسه : كنت آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا ؟ ويقول : « مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فوالله ما ردّ عليّ السلام . . » وفي موقفه يقول : « يا أبا قتادة أنشدتك بالله ، هل تعلمن أني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي . . » .

وهكذا نستطيع أن نفهم الآية : ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ ، والآن ما الموقف النفسي وهذا الإغراء الذي يشق على النفس مقاومته لو كان من طرف مماثل ، فما شأنه لو كان من ملك غسان بحاله ؟ إلا أن كعباً الآن يدرك أنه نوع من البلاء ، فهو يقول : « وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجّرتها به » .

هكذا بهذه السرعة يتخذ الموقف النفسي ليحسم الأمر ، لأن مجرد إعطاء النفس المؤمنة فرصة التفكير هو نوع من الهزيمة . . وقد مرّ بامتحان مماثل وكان سبباً في الذي حلّ فيه .

موقف الانتصار على النفس : والآن وبعد هذا الانتصار على النفس يتغلب عليها فقبول هذه المقاطعة على أنها تربية له هو علاج للنفس ، إلى أن تنزل توبة الله عليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ ، وهنا ندرك بعد الذي مضى سرّ الإعجاز في الحرف الدال على التراخي(ثم) ، إنها تصوير للمراحل التي مرّ بها قبل التوبة بجميع أبعادها .

وحين نزلت التوبة سيعبرّ عن موقفه النفسي الآن ، إنه الآن يعبّر عنه بالسجود لله ، وهكذا يعبّر المؤمن عن فرحه ، يقول : « فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج » ، هذه اللحظة انتصار آخر على النفس ، وتزكية لها بعد تلك التربية الشاقة ، يعبّر عن فرحه بأن ينخلع من جميع ماله صدقة لله ورسوله .

هذا هو الجو الذي يفهم فيه الموقف النفسي الذي حدثتنا عنه الآية الكريمة : ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ، وقد كان كعب يعدّ توبة الله هذه عليه أعظم نعمة أنعمها الله عليه بعد أن هداه الله للإسلام .

من الموقِفَين اللذين تم بسطهما في السطور الماضية ، يمكننا إدراك تلك الخصائص التي تشتمل عليها المواقف القرآنية ، ويمكن إجمالها في الآتي :

* أنه قد برز إلى جانب الموقف النفسي موقف اجتماعي .

* تشكل الموقف حول سلوك معين ، ودار الحديث حوله لمعالجته ، وتجلّت فيه دوافع محددة .

* المحور الذي يحرّك الموقف هو محور الإيمان لهادف .

* الوصف الدقيق للأحداث التي زامنت الموقف .

* إنّ فهم بيئة النزول القرآني أهم وأبرز الضوابط التي تعين على فهم النص .

* غنى هذه المواقف بالجوانب النفسية ، مما يعين المربين والمرشدين على دراسة جوانب السلوك الإنساني ، وتقديم فهم متكامل للنفس الإنسانية في مواقف مماثلة .

كما أطلعتنا هذه المواقف على مواطن الضعف التي تتعرض لها النفس الإنسانية على المستويين الفردي والجماعي .

أحيانا نجد أن تتمة المشاهد في المواقف القرآنية تتكفل بها السنة النبوية ، ولهذا كان من المحال أن نتمكن من الوقوف على حقيقة مثل هذه المواقف دون الرجوع إلى السنة الشريفة لتعرض لنا الظروف المحيطة ، فالسنّة هي التي تحفظ لنا الموقف التاريخي الذي يحمل الموقف النفسي .

المبحث الثاني

الحوار

يعتبر الحوار أهم وأبرز عناصر القصة في القرآن الكريم ، ولا يخفى ما لهذا العنصر من دور في إبراز ورسم الشخصيات التي تدور حولها أحداث القصة من جهة ، ثم إبراز المعاني النفسية التي يشتمل عليها الموقف الدائر حوله الحوار ، وبهذا المفهوم نلحظ أن هنالك التقاء بين القصة والحوار من جهة ، ثم بين الحوار والموقف من جهة أخرى ، إذ العلاقة بينهما متشابهة ، ويصعب الفصل بينها أحياناً ، وما هدف الباحث في هذا المبحث إلا إبراز المعاني النفسية التي يشتمل عليها كل جانب يتعلق بالقصة القرآنية ، أو بالأحداث الدائرة حول الشخصية الإنسانية .

المطلب الأول : الحوار مفهومه ودوره في رسم الشخصية

أصل مادة « حور » يدل على معنى الرجوع ، إما إلى الشيء أو عن الشيء ، والمحاورة : الرجوع والمراودة في الكلام ، أو مراجعة المنطق في المخاطبة[١] ، قال الراغب : « الحور : التردد ، إما بالذات وإما بالفكر »[٢] ، يشار إلى أن المراجعة في

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، ٤/ ٢١٩ . وانظر : الزمخشري : أساس البلاغة ، (القاهرة : كتاب الشعب ، د . ط ، ١٩٦٠) ، ص٢٠٥ .

(٢) الراغب : المفردات ، ص ١٣٤ .

الكلام تكون عادة بين طرفين ، وقد وردت المادة في القرآن : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾[١] ، و﴿ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾[٢] .

ومن الألفاظ التي تتصل بلفظ الحوار : لفظ الجدل : وهو في اللغة بمعنى : اللدد في الخصومة[٣] ، ومن هنا نستطيع التمييز بين الجدل والحوار ، إذ الحوار : تقوم المراجعة فيه على اللين واللطف ، أما الجدال فالمراجعة في الكلام يصحبها خصومة ونزاع ، وقد وردا في سياق واحد ، قال تعالى : ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾[٤] .

في هذه السطور سيتركز الحديث حول الحوار باعتباره أسلوباً عملياً يستخدمه المرء في حالة التعبير عن أفكاره مقابل أفكار الآخرين ، وسوف يكون محور الحديث حول تلك الجوانب النفسية التي ينطوي عليها هذا الأسلوب ، ثم استعراض نماذج حوارية ، وإبراز أهم ما فيها من جوانب نفسية ، أو بعبارة أخرى القيام بتحليلها من الجانب النفسي .

والحوار أهم وأنجح الوسائل التي يستخدمها المرء لتحقيق أهدافه والتعبير عن أفكاره ، ولذلك نجد أن القرآن الكريم اعتمد كثيراً على هذا الأسلوب في عرض الأحداث قصيرها وطويلها ، فالقرآن ـ بلا شك ـ يرسم منهجاً متكاملاً للحوار ، وقد تميّز القرآن بهذا الأسلوب فقد أتى لنا بنماذج وأمثلة تشمل كل أنماط الحوار المعروفة أو المقصورة في الذهن ، حتى قال بعضهم : « القرآن كتاب حوار »[٥] .

غني عن القول بأن الأحداث التي تدور حول شخصية معينة من الشخصيات قد تأتي سرداً وحديثاً عن الشخصية ، وليس على لسان الشخصية ، وقد تعرض من خلال كلام

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٣٧ .
(٢) سورة المجادلة ، الآية ١ .
(٣) للمزيد انظر : العاني ، عبد القهار : دراسات في علوم القرآن ، ص ١٧٩ـ١٨١ ، حيث تحدث عن الجدل وأنواعه وأوجهه .
(٤) سورة المجادلة ، الآية ١ .
(٥) فضل الله ، محمد حسين : الحوار في القرآن الكريم ، (بيروت : دار التعارف ، ط ٥ ، ١٩٨٧م) ، المقدمة .

الأشخاص الذين يشتركون في حدث ما ، فما تم فيه الحديث على لسان الشخصيات المتحدثة ، وحصل فيه تبادل الحديث فهو الحوار ، وقد أشار بعض من كتب حول القصة في القرآن(١) إلى أنها تسير في اتجاهين :

* في طريق الحوار : يظهر فيه أكثر من طرف ، حيث يقوم كل طرف بالتعبير عن نفسه .

* في طريق الحكاية : عرض الأحداث بشكل تقريري تنتقل فيه الحكاية من مرحلة إلى مرحلة حتى تبلغ نهايتها .

قيمة الحوار من الناحية النفسية(٢) .

يلعب الحوار دوراً بارزاً في الكشف عن الأبعاد النفسية للإنسان باعتباره أحد الوسائل التي يتم بها رسم الشخصية الإنسانية ، وإبراز الملامح الأصلية للنماذج البشرية ، حيث يمكن إجمال هذا الدور في النقاط الآتية :

يعتبر « الحوار والجدال » أحد الطبائع المتجسّدة في النفس الإنسانية ، ومن الصفات الملازمة للإنسان في طبيعة خلقه وتكوينه ، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾(٣) . وهذه الطبيعة شأنها شأن سائر الصفات الفطرية التي تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات ، ويدل على أنها من الطبائع المتجسدة في النفس كون الإنسان يستخدم هذه الوسيلة للدفاع عن نفسه حتى أمام خالقه ، قال عز وجل : ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾(٤) ، والإنسان يستخدم هذا الأسلوب للإقناع تارة ،

---

(١) انظر للمزيد : فضل الله : الحوار ، ص ٢٣٧ـ٢٤٠ .

(٢) يود الباحث أن يشير إلى بعض المصادر التي كان رجع إليها في هذا المبحث ، حيث إن بعضها لم يتم الاقتباس المباشر منها ، لكن أفاد الباحث منها كثيرا في هذا المبحث ، فاقتضت الإشارة ، من هذه المراجع غير المشار إليه : حفني : أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ، (القاهرة : الهيئة العامة المصرية للكتب ، ط ٢ ، ١٩٨٥م) ، زكريا : الحوار ورسم الشخصية . والرفاعي ، قاسم : حوار موسى والعبد الصالح ، (لبنان : مجلة الفكر الإسلامي ، ع ٨ ، س ١٦ ، ١٩٨٧م) ، ص ٨٥ وما بعدها ، القطان ، مناع : مباحث في علوم القرآن ، والسيوطي : الإتقان ، ٢/ ١٣٥ وما بعدها .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٥٤ .

(٤) سورة النحل ، الآية ١١١ .

وللتبرير والدفاع تارة أخرى ، كما نجده أحياناً يستخدمه للتلاعب بالألفاظ ، وذلك عندما يكون غرضه قمع الخصم ، أو إرهاقه من ناحية الفكر ، لا بقصد إمداده بالمعلومات ، وهذه الأمور كلها ترجمة للجوانب النفسية ، وناشئة عن أمور نفسية .

* يسهم الحوار في تبريد الأجواء النفسية لدى المتخاصمين ، فقد ينقلهم من ساحة الخصام إلى ساحة الحوار الهادى ، الذي قد يؤدي إلى تضييق الفجوة بينهم ، والوصول إلى نقاط الالتقاء والاتفاق بين الأطراف المتحاورة(١) .

* يلجأ المرء إلى الحوار كوسيلة من وسائل التنفيس عما في النفس من أمور داخلية ، ولذلك فإن المرء إذا قوبل بقمع الأفكار ومنع من طرحها فإن ذلك يكون نوعاً من الكبت النفسي .

* غالباً ما تسيطر على الحوار أجواء من التوتر الفكري والنفسي والكلامي من أجل الوصول إلى الغلبة ، إذ الغلبة رغبة نفسية مجبولة عليها النفس .

* الحوار يهيىء الجو النفسي لشعور الآخرين بالمعاني والأفكار القوية المستندة إلى أدلة .

* من شأن الحوار أن يقوم بتجسيد المعاني في صور محسوسة ، وهذا بدوره يثير اهتمام السامع بصورة أشد ، كما أن له دوراً في ترسيخ المعاني ، وتثبيتها في النفوس ، إذ من طبيعة النفوس ألا تقف طويلاً مع المعاني المجردة .

* من خلال الحوار يستطيع المحاور أن يستفيد من كل المؤثرات النفسية الممكنة عند الطرف الآخر ، كما أن الحوار يعتبر طريقاً للتمهيد النفسي ، ولذلك كان الأنبياء يستثمرون ذلك لهداية أقوامهم ، فيكون في حديثهم ما يشبه التمهيد النفسي .

* أسلوب الحوار والقصص بشكل عام أسلوب يثير في المرء جوانب عدة ، كجانب التفكير وجانب المشاعر والانفعالات المتنوعة ، يخاطب غريزة من أسمى غرائز الإنسان ، وهي حب الاستطلاع(٢) ، كما أن هناك جانباً ثالثاً في الإنسان يخاطبه الحوار ، وهو جانب المشاعر والانفعالات ، فتارة يثير في الإنسان انفعالات الطرافة

---

(١) فضل الله : الحوار ، المقدمة . وحفني : أسلوب المحاورة ، ص ٥٠ وما بعدها ،
(٢) حفني : أسلوب المحاورة ، ص ٥١ .

والمرح، وتارة انفعالات الإعجاب والاستطراف، وأخرى انفعالات التعجب ، وانفعالات الرحمة والإشفاق ، وغير ذلك من الانفعالات التي تنطوي عليها نفس الإنسان .

* يستخدم الحوار كوسيلة لمعرفة ما عند الآخرين ، وذلك ضمن ما يعرف بمبدأ جسّ النبض أو اختبار الخصم ، حيث يتم في ضوء النتائج الأولية معرفة ردود فعل الآخرين ، وبالتالي توظيفها في مواصلة الحوار وطرح الأفكار ، فهو بهذا يكون وسيلة لاختبار نفسية الآخرين والتعامل معهم في ضوء معطياتهم الأولية ، ولعل الباحث يستطيع إيضاح ذلك في المثال الآتي مما قصّه علينا القرآن الكريم :

فرعون الطاغية المتجبر تعامل مع قومه في ضوء هذا المبدأ حيث كان يرى ردود الفعل ، ثم يطرح ما يتبع من أفكار . استطاع أن يتدرج فيهم من خلال الحوار ، حتى يتقبلوا فكرة أن يكون هو إلههم الذي لا بد أن يُعبد دون سواه .

من خلال المواضع المتعددة للمواقف التي خاطب فيها فرعون قومه ، نلمس أنه اعتمد على مبدأ الاستخفاف بالقوم ، فقد نادى في قومه : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1] .

ونظراً لأن قومه لم يبدوا أي اعتراض على ذلك ، فقد كان هذا منهم بمثابة القبول ، ويسجل لنا القرآن هذا الاستخفاف الذي تسلق فرعون من خلاله على إرغامهم أن يعبدوه ، ففي السياق نفسه نجد قوله : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[2] ، ثم ألقى قولته الثانية ، وهي الأكثر تطوراً في هذا الاتجاه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[3] . بهذا الأسلوب الذي تبدو فيه النبرة أعلى من سابقتها ، فهو يطرح هذه الفكرة لتجد لها رواجاً وقبولاً ، ثم كانت قولته الأخيرة : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ نلاحظ الآية في سياقها ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[4] . فلا يخفى أن الاعتماد على الحوار له دور كبير في كشف نفسيات

(١) سورة الزخرف ، الآية ٥١ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية ٥٤ .
(٣) سورة القصص ، الآية ٣٨ .
(٤) سورة النازعات ، الآيات ٢٢ـ٢٤ .

الآخرين ، ومدى تقبّلهم لما يطرح من أفكار .

ولعله يتفرع عن هذه النقطة فكرة أخرى ، وهي أن هذه الأفكار الناشئة عن الحوار تترك لها أثراً في النفوس مهما كانت ، حتى لو كانت كلمة تمضي ، فإن عامل الزمن هو الذي يجعل لها مكانا في النفس ، وهذا ما نلمسه من خلال دعوات الرسل وأتباعهم مع خصومهم ، إذ تشير كثير من الآيات إلى أن هذا الحوار الذي يبدو لأول وهلة أنه قد انتهى إلى غير ثمرة ، نجد أن بقية الحوار أو تمام القصة يبرز لنا بعض الثمار التي كانت نتائج طبيعية لحوار الدعاة إلى الله تعالى مع أقوامهم ، وأمثلة هذا النوع في كتاب الله كثيرة جداً .

فنحن نلاحظ مثلاً أن موسى عليه السلام حين كان يدعو فرعون وملأه إلى الله ، ويكون من صدود فرعون ما يكون ، كنا نظن أن لا ثمار لهذا القول ، حتى كان مشهد السحرة والحوار الذي دار بين موسى وسحرة فرعون ، ثم انتهى إلى ما انتهى إليه الحوار الأول من حيث الظاهر ، لكن لما حدثنا القرآن عن إيمان السحرة لمسنا في كلامهم بعض هذه الثمار ، قال تعالى : ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[1] ، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[2] ، فهذه الألفاظ نحس أنها صادرة من أناس ، هم أصحاب رسالة آمنوا بها ، ودعوا إليها آمادا طويلة ، ولا نتخيل أنها صدرت من قوم آمنوا لتوهم ، والمقاطع الأخرى للمشهد نفسه ربما تبرز أكثر من ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[3] ، بل إنّا لنجد أكثر من هذا ؛ إذ نجد أن فرعون نفسه كان قد تأثر بهذه الدعوة ، ولهذا كان نطقه عند الغرق ينمّ عن ذلك ، حين قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[4] .

وهكذا الشأن يمكن أن يقال في المواضع التي حصل فيها حوار الدعاة إلى الله مع

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ١٢٠ـ١٢٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٢٥ـ١٢٦ .

(٣) سورة طه ، الآيات ٧٢ـ٧٣ .

(٤) سورة يونس ، الآية ٩٠ .

أقوامهم ، ففي قصة يوسف عليه السلام شيء من هذا ، فمثلا نجد تداول الألفاظ : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾[1] ، هذه العبارات التي فيها حسّ إيماني ما كانت لتصدر إلا ثمرة من ثمرات الدعوة التي كان يدعو بها يوسف عليه السلام[2] ، وبهذا نلحظ أن الحوار يسهم في تكوين القناعات بشكل تدريجي ، ويسهم في تهيئة الأجواء النفسية لتقبل الأفكار وهو ما يعتمد عليه المربون في هذا الزمان .

تؤثر الانعكاسات النفسية على أسلوب الحوار قوة وضعفاً ، فكثيراً ما يدلنا السياق على حالة المحاور النفسية والاجتماعية في الوقت نفسه ، إذ المعروف ـ مثلا ـ أن الذي يتكلم مع الآخرين وخلفه قوة ما « سواء أكانت بشرية أم غير ذلك » ، يكون أسلوبه في الخطاب مختلفا عن شخص آخر يخاطب أناساً ولا يعتمد على أي مصدر قوة ، فالأول تظهر في ألفاظه نبرة الصوت العالي ، وتحريك الأيدي ، وتفاعل بقية الأعضاء التي تشعر المخاطب بنوع من التحدي ، بينما الثاني فألفاظه لا تكاد تفصح عن مراده ، وصاحبها لا يعدو في خطابه أسلوب الاستلطاف ، واختيار الألفاظ الحسنة ، وربما يكون من أوضح الأمثلة على ذلك من كتاب الله :

موقف شعيب عليه السلام مع قومه من جهة .

موقف لوط عليه السلام مع قومه من جهة أخرى .

أما شعيب عليه السلام فقد بدا واضحاً من حواره مع قومه أنه في منعة من قومه :
﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ
أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ
أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ
ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥١ .

(٢) أقول : وإن أعداءنا يستخدمون في هذا الزمان ذات الأسلوب في التعامل معنا نحن المسلمين ، لكنهم في جانب الهدم ، فكم من أفكار غريبة دخلت علينا بهذه الطريقة! وكم من مكر حلّ بأمتنا بهذه الوسيلة! وكم من ألفاظ غريبة دخلت علينا وأصبحت من ألفاظنا بهذه الطريقة!

إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[1] .

وأما لوط عليه السلام فقد كان في حديثه يلمح إلى عدم وجود القوة من قومه التي تمنحه صلابة في الحديث أو في الموقف : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾[2] . لكنه ـ بلا شك ـ كان يستند إلى قوة هي قوى من قوى البشر ، هي قوة الله ، فهي الركن الشديد الذي كان يأوي إليه كما أثر عن الرسول ﷺ[3] .

ومما يدل على كون هذا الحوار مغروسا في النفوس ، تطلبه وتميل إليه ، أن الناس عمدوا في كل زمان وبيئة إلى اختلاق صنوف شتى من الصراع والمبارزات ، من هذه المبارزات الحوار ـ كما هو واضح في (المباريات الكلامية) ـ وذلك أن هذه المبارزات تقوم بدور تغذية ، وإمتاع المشاعر ، والتفاعل معها ، فالتصارع والتباري يثيران مشاعر الناس وانفعالهم ، ولا يخفى أن المحاورة من أنواع التباري هذا ، فهو في النهاية أسلوب في كسب انفعال السامعين[4] .

المطلب الثاني : نماذج حوارية في القرآن الكريم

تقدمت الإشارة ـ فيما مضى بما يغني عن الإعادة ـ إلى أن القرآن الكريم اشتمل على نماذج كثيرة من أسلوب الحوار باعتباره جزءا من القصة والمشاهد والمواقف التي عرضها القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم يعتبر وثيقة صادقة من وثائق الحوار العقدي فيما يتعلق بقضايا العقيدة الكبرى[5] .

---

(١) سورة هود ، الآيات ٨٤ـ٩١ .

(٢) سورة هود ، الآية ٨٠ .

(٣) قال رسول الله ﷺ : (ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد) ، الحديث متفق عليه ، انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ٤/١٨٣٩ ، مسلم : صحيح مسلم ، رقم ١٥١ ، ١/١٣٣ .

(٤) حفني : أسلوب المحاورة ، ص ٥٥ .

(٥) فضل الله ، الحوار ، ص ١٠ .

عرض القرآن الكريم من خلال الحوار نماذج للنفوس بحسب تعددها ، وبحسب استعدادها للحوار ، إذ نجد ألوانا من الحوار تشمل أصناف البشرية على اختلاف مذاهبها ، والحديث عن الحوار لا ينفصل عن الحديث عن المواقف أو عن القصة القرآنية ، فما قيل في جانب المواقف النفسية يمكن أن يقال في الحوار ، فالذي ينشد لوناً من ألوان الحوار ، ثم يلتمس له أنموذجا في القرآن ، فلسوف يجد أمثلة ونماذج ، سواء أكان ذلك بالنظر إلى أصناف المحاورين والمتحاورين (كالمعاند ، والمستكبر ، والمؤمن. .) ، أم كان بالنظر إلى صفة الحوار جوه وطبيعته (كالعنيف ، وغير العنيف) ، أم من حيث الغرض (الإقناع ، التبرير ، قمع الخصم ، . .) .

وهكذا نجد أن القرآن قد ضرب لنا أمثلة ونماذج على كل لون ، ولا يخفى أن استيعاب هذا اللون بالحديث هنا أمر متعذر ، ولذلك فان الباحث سيستعرض في السطور القادمة بعض الملامح التي يمكن استخلاصها من خلال أسلوب الحوار إضافة إلى ما تقدم ذكره مع ضرب أمثلة ونماذج لها .

نماذج حوارية

أولا : ذكر لنا القرآن نماذج لأناس وقفوا ضد الرسالة دون أن يكون لهم أدنى إحاطة أو معرفة فيما يتخاصمون فيه ، كما هو الشأن مع أقوام الأنبياء ، وقد سجل القرآن لنا ذلك ، قال تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1] ، وقال عز وجل في شأن هذا الفريق من الناس : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾[2] ، فهذا يشير إلى وجود عقدة نفسية تتحكم بهم فتدفعهم إلى التكذيب دون مبررات وهذا ما نلمسه في حوار الأنبياء مع أقوامهم حين يواجه الأنبياء أقوامهم بالحجة فلا يجدون حجة لكفرهم وعصيانهم فيلجأون حينها إلى التهديد والوعيد أو طلب العذاب ، وأمثلة ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[3] ، ومنها قول قوم عاد

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٦ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٣٩ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية ١١٦ .

لنبيهم : ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾[1] ، وقول ثمود لنبيهم : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾[2] ، أو قول قوم لوط له : ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾[3] .

ومن الآيات التي يظهر فيها طلبهم العذاب قول قوم شعيب له : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[4] ، ومثلها قول صناديد قريش لسيدنا محمد ﷺ : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[5] .

ثانيا : من الأساليب النفسية التي يمكن ملاحظتها من خلال المواقف الحوارية التي عرضها القرآن الكريم ، الأسلوب العملي الذي يعتمد على تفريغ الموقف من الأفكار المسبقة التي تحوّل الموقف إلى عقدة تفرض نفسها على كل مواطن الحوار ، وهي مسألة التشكيك في الفكرة بين الطرفين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[6] ، ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[7] .

ومن هذا اللون مواجهة الخصم بالقناعات المستندة إلى الأدلة والبراهين ، فهو أسلوب يعين على تجريد الموقف من حالات التعصب وتحجر الفكرة[8] ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[9] ، هذا اللون وسابقه كفيلان بخلق الأجواء النفسية للحوار .

ثالثاً : يعلّمنا القرآن أنه في بعض الأحيان عندما يكون الحوار سائراً نحو جوانب

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٣٦ .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ١٥٣ ، ومثلها قول قوم شعيب له في السورة نفسها ، الآية ١٨٥ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية ١٦٧ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية ١٨٧ .
(٥) سورة الأنفال ، الآية ٣٢ .
(٦) سورة سبأ ، الآية ٢٤ .
(٧) سورة سبأ ، الآية ٢٥ .
(٨) للمزيد انظر فضل الله : الحوار ، ص ٥٦ ، وحفني : أسلوب المحاورة ، ص ٥٥ وما بعدها .
(٩) سورة القصص ، الآية ٤٩ .

شديدة الحساسية ، والتي تثير انفعالات معينة ، يعلمنا كيف يمكن احتواؤها أو امتصاصها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1] .

الآية تتحدث عن بعض الجوانب الحساسة التي أراد فرعون إثارتها أمام موسى عليه السلام ، وذلك بقصد تعبئة الجو ضده بإثارة الانفعالات العاطفية المضادة ، إذ من الواضح في المقطع المتقدم أن فرعون كان يريد أن يقود موسى إلى الجواب الذي تفرضه معطيات الواقع ، إلا أن موسى عليه السلام فوّت الفرصة عليه بإغلاق باب الحوار[2] .

رابعاً : ذكر القرآن لنا نماذج كثيرة من الحوار التي تكشف لنا عن طبيعة المتحاورين ونفسيتهم ، فتارة يكون جو الحوار مشحوناً بالانفعالات النفسية التي تغلب على أسلوب العقل ، كما هو الشأن مع الذين يواجهون الدعوات الجديدة ، حيث يحشدون الأجواء الانفعالية حول دعاة التوحيد ، وبالتالي تؤدي إلى ممارسة الاضطهاد والتعذيب ضدهم ، فكثيراً ما تطلعنا الآيات على الحالة النفسية التي يواجه بها المشركون فكرة التوحيد ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾[3] .

فالموقف في ـ نظرهم ـ يبعث على العجب ، ويصيبهم بما يشبه الذعر المفاجىء الذي يقتضي فيه الصمود والصبر ، « وبهذا نلحظ أن الشرك يتحرك من موقع العادة المرتبطة بالجانب العاطفي من تراث الآباء والأجداد »[4] .

وتارة يطلعنا الحوار على حقيقة ما عليه نفوس المتحدث عنهم ، حيث تخالف ما يتلفظون به ، ومثال ذلك ما حكاه الله عن اليهود ، وقد كانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم أولياؤه ، فينزل قول الله تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ

---

(١) سورة طه ، الآيات ٥١ـ٥٢ .
(٢) للمزيد انظر : فضل الله : الحوار ، ص ١٨٥ بتصرف .
(٣) سورة ص ، الآيات ٥ـ٧ .
(٤) فضل الله : الحوار ، ص ٧٠ .

أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] ، فهذا الحوار يكشف لنا عن حقيقة عقيدتهم ، وأن أقوالهم لا تعدو مجرد أمنيات تعيش في صدورهم ، ولأنهم حقيقة لا يستطيعون هذا الطلب لعلمهم أنهم لو طلبوه سيفتقدون الحياة ، وهم في حال أشد ما يكونون حرصاً على الدنيا : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٩٦ ﴾[2] .

خامساً : يعلمنا القرآن كيف يمكن التحكم بالمشاعر عند الحوار ، فالجو النفسي الذي يسيطر على كيان المسلم الداخلي في الحوار جو صبغه الإيمان وتحكّم فيه ، بعيدا عن التشنج والتوتر العصبي .

إذ لا تحدث عند المحاور المسلم ردود فعل نفسية ينجرّ وراءها ، فتكون بذلك تلبية لرغبات الخصم ، وتحقيقاً لأمنياته ، ولعل أبرز ما في هذا النوع ، ما نلمسه من خلال حديث الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مع أقوامهم ، فالقرآن يريد أن يكون منطلق المشاعر لدى المسلم من قاعدة الرسالة ، وفي ذلك من الجوانب التربوية ما فيه ، إذ يصبح التحكم في هذه المشاعر أولاً وآخراً هو المنطلق النبوي ، وهو المحرك الرئيسي لها تجاه مبدأ الرسالة .

فالحوار يجسد الفرق بين أسلوب الرسل في الدعوة وبين أسلوب الكفار في الردّ ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك : قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾[3] ، في الوقت الذي يكون ردّ الكفار على درجة من السخافة ، كما في ردّ قوم نوح عليه السلام : ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4] ، ومن أقوال الأنبياء في حوارهم مع أنبيائهم ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ

---

(١) سورة الجمعة ، الآيات ٦ـ٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٩٦ .
(٣) سورة هود ، الآية ٣٥ .
(٤) سورة هود ، الآية ٣٢ .

سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[1] ، ومنه : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] .

فهذه المواضع وأمثالها في القرآن تطلعنا على حقيقة الخصم ، وغرضه من خلال هذا الحوار ، فهو يريد أن يجلب المحاور ، ويضطره إلى السباب والشتائم ، يريد أن يقود المسلم للموقف الخاطى ، إلا أن القرآن يعلمنا كيف أن المسلم لا ينجرّ وراء ذلك ، بل إن مثل هذه الأمور تزيده ثباتاً وتمسكاً بمبادئه ، وقد لوحظ كيف جاء ردّ النبي ﷺ حيث كان صادراً من العقل الهادىء الواعي .

أما قيمة هذا اللون في الأسلوب من الوجهة النفسية فتظهر من كون المسلم في هذا الأسلوب يقود المحاورين معه إلى موقع المسؤولية ، حتى يتحركوا في إطار هذه المسؤولية التي رسمها لهم ، وهذا جانب نفسي مهم يشعر الخصم بقوة موقف المسلم ، كما يشعر بضعف موقفهم أمام موقف المسلم .

وقد لوحظ حضور هذا الأسلوب بكثرة في حوار الأنبياء مع أقوامهم ، فكأن مواقف الأنبياء جميعها تهدف إلى أن يكون همّ المسلم ، ومنطلقه في الحوار هو الرسالة ، ومحور المشاعر التيَ تظهر تتحرك في إطار الرسالة ومبادئها .

فسيدنا محمد ﷺ على الرغم من كثرة الحملات الإعلامية التي أشهرها المشركون ضده ، إلا أننا لا نكاد نلمس صدور أية ردود فعل تجاه هذه الحملات ، فما يرد إلا بقدر حاجة الرسالة ، فقد وصف بـ« شاعر » و« كاهن » و« ساحر » و« مجنون » ، فلم نلمس من خلال حواره مع قومه أي حركات تشنجية أو مواقف انفعالية لأن القضية قضية رسالة ، والخط الإسلامي العريض في هذا هو ضبط النفس والحسنى في التعامل ، بل لقد وجدنا تصريح القرآن بعدم الانجرار وراء الشتائم والسباب والرد على الخصم بالمثل ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3] و﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[4] .

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٥٠ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٤١ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨ .

وقد كان الأنبياء أشدّ حرصاً على احتواء كل حالة نفسية تصدر من أقوامهم ، ولهذا كان يغلب على أسلوبهم في الخطاب الجانب الوعظي إضافة إلى الجانب العقلي ، والذي يجمع بين اللين والشدة ، موعظة وتذكير ، فهذا الأسلوب كفيل باحتواء كل حالة نفسية شاذة أو معقدة .

وفي هذا الإطار النفسي في جانب الحوار مع الخصوم يمكن تلمس وإدراك الدافع النفسي الذي يهدف إليه خصوم الدعاة إلى الله ، هم حريصون على تحطيم جدار الثقة الذي يستند إليه الدعاة في الدعوة إلى مبادئهم ، ثقتهم بمبادئهم من جهة وثقتهم بأنفسهم وبالآخرين من جهة أخرى ، ولهذا لوحظ أن الحوار الذي يعرضه لنا القرآن على ألسنة الأنبياء مع أقوامهم يلفت الأنظار إلى ضرورة الإبقاء على العامل النفسي للداعية ، وحرصه على أن يكون المنطلق هو الرسالة ، كما يلفت الأنظار إلى ضرورة إدراك أي انحراف في مسار الحوار ، ليجعل الثقة خاضعة لمقاييس الباطل واعتباراته ، بدلاً من كونه خاضعاً لموازين الحق وقيمه ، فالثقة بالرسالة هي الأساس الذي ينبغي أن تملأ النفس ، والكافر يستهدف هذه الثقة ليزعزعها في نفوس أهل الحق ، ومثال ذلك ما جاء على لسان المستكبرين من قوم ثمود : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1] ، إذ الواضح من هذا كيف كان الخصوم يهدفون إلى زعزعة ثقة أهل الإيمان بإيمانهم ، ومن ذلك ـ أيضاً ـ قول قوم شعيب عليه السلام له : ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[2] ، وقول فرعون عن موسى عليه السلام : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[3] .

من المواقف التي تؤكد كون صاحب الرسالة ينصبغ بمشاعر الرسالة ، ولا يخضع لضغوط فكرية فرضها عليه الحوار ، ما نلمسه في موقف سيدنا لوط عليه السلام حين قالوا له : ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[4] ، فهو عليه السلام لم

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٧٥ـ٧٦ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ١٨٦ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٣٨ .

(٤) سورة هود ، الآية ٧٩ .

يفقد صوابه ، أو يخضع لردة فعل معاكسة ، فليس هدفه أن يفجّر غيظه ضدهم ، وإنما كان رده : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1] .

حتى سيدنا نوح عليه السلام حينما دعا على قومه : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[2] ، فهذا الموقف منه عليه السلام لم يكن من خلال الموقف الانفعالي أو رد فعل ، وإنما كان الدعاء عليهم منسجماً مع موقع الرسالة ، فقد جاء هذا الدعاء بعد أن استنفد أمامهم جميع وسائل الإقناع : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[3] ، فبعد أن أوحى الله إليه أنّه لن يؤمن إلا من قد آمن ، بعد هذا الاستنفاد يأتي الدعاء عليهم ، وذلك من باب كونهم يشكلون قوة ضاغطة لمبدأ الكفر[4] ، وهكذا لاحظنا أن ردود الفعل كانت منسجمة مع مبدأ الرسالة ، فهو لم يلجأ إلى هذا الأسلوب إلا بعد أن لمس اليأس من إيمانهم ، وقد بدا هذا التدرج النفسي واضحاً ، إذ كان خطابه لقومه مصحوباً بلفظ ﴿يا قوم﴾ ، لكن لما جاء على لسانهم طلب العذاب ، وفهم منهم أنهم لن يغيروا موقفهم ، كما نلمس ذلك في المقطع الذي ورد في سورة هود ، قال تعالى : ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[5] ، بعد هذا الإعلان منهم نجد أن سيدنا نوح عليه السلام بدأ يظهر من كلامه أنه يريد أن ينسلخ منهم من الناحية النفسية ، فقد كان كلامه بعد هذا الإعلان خالياً من لفظة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ التي لمسناها قبل هذا الإعلان ، هكذا جاءت ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[6] ، فالظاهر أنه بعد أن لمس عليه السلام من حديثهم اليأس بدأ ينسلخ منهم تدريجياً ،

---

(١) سورة هود ، الآية ٨٠ .
(٢) سورة نوح ، الآيتان ٢٦ـ٢٧ .
(٣) سورة نوح ، الآيات ٥ـ٩ .
(٤) للمزيد انظر : فضل الله : الحوار ، ص ٢٢٨ .
(٥) الآية ٣٢ .
(٦) الآيات ٣٣ـ٣٤ .

وبذلك يمكن أن يعلل سبب خلو هذا الأسلوب من استمالتهم ، ويطمئننا إلى هذا الرأي قوله بعدها : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(١) ، فما كان لمسه نوح عليه السلام من حديثهم أخبره الله به صريحاً ، وهكذا نلحظ أن الحوار يطلعنا على المراحل النفسية التي يمرّ بها المحاور مع خصومه ، والله أعلم بالصواب .

وهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام ينطلق من مبدأ الرسالة في حواره مع أبيه ، فهو حريص على أن يكون منطلق العاطفة ومرتكزها منسجماً مع الرسالة ومبادئها ، فالأب وإن كان كافراً إلا أنه لا بد من الإبقاء على شيء من الاحترام والتقدير في حواره ، وهذا ما كان يفعله إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وقيمة هذا من الناحية النفسية تبرز من كون هذا الإبقاء يحافظ على جو الحوار مشحوناً بالعاطفة ، ولعل هذا يبرز في المقطع الآتي : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾(٢) ، فهذا المقطع ـ كما هو ملاحظ ـ مشحون بجو العاطفة ، فقد ذكرت لفظة ﴿ياأَبَتِ﴾ في هذا المقطع على لسان إبراهيم عليه السلام عدة مرات ، لتبقي على الجو جانب العاطفة والحرص على أبيه ولو كان كافراً ، فهذه اللفظة تشعر أنه يخاطب إنساناً عزيزاً عليه ، كما نلمس في المقطع حرص سيدنا إبراهيم عليه السلام على جانب التأثير النفسي ليكون ضاغطاً على أبيه ، وذلك أنه يستخدم أسلوب تلمس الدعاء له ، فيكون ضاغطاً نفسياً على أبيه ، لينشغل بهذا الدعاء وما يحمله من معان ، وهكذا نجد أن الأنبياء جميعاً التزموا بمبدأ الرسالة محوراً ومرتكزاً ، يحركهم في حوارهم مع أقوامهم ، وفي هذا المبدأ ملحظ نفسي آخر غير الذي تقدم يمكن لنا أن نشير إليه ، ذلكم هو : ضرورة الإبقاء والحرص على أن تكون الشخصية واحدة ثابتة لا تنفصم ، والبعد بها عن الازدواجية ، فازدواجية الشخصية أمر خطير ، ومن شأنه إن وجد في صاحب المبدأ والرسالة أن يكون صارفاً للآخرين عن التمسك بالرسالة ومبادئها .

وهذا ما لمسناه في شخصية الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذ لم يعيشوا ازدواجية

---

(١) الآية ٣٦ .

(٢) سورة مريم ، الآيتان ٤١ـ ٤٢ .

الشخصية ، فشخصيتهم واحدة منسجمة ، تلتقي مع جميع الشخصيات التي تحاورها في سبيل الدعوة ، وهي حريصة على كسب جميع الفئات إلى صف الدعوة ، والتعامل مع غير المؤمنين بها منطلقه من مبدأ واحد هو مبدأ الرسالة سواء أكان أباً ـ كما هو الحال مع إبراهيم عليه السلام وأبيه ـ ، أم كان ابناً ـ كما هو الحال مع نوح عليه السلام وابنه ـ ، أم كان زوجاً ـ كما هو الحال مع نوح ولوط عليهما السلام ـ ، وتعامل صاحب الرسالة مع الأوامر منسجم كذلك مع انسجام الشخصية ، فموقف إبراهيم عليه السلام من ذبح ابنه إسماعيل ـ كما يعرضه لنا النص القرآني ـ موقف منسجم مع هذه الشخصية : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ، فهذا الحوار القصير يبرز لنا الحالة النفسية التي استقبل بها كل من الأب والابن أمر الله عز وجل ، وهي التسليم والطاعة ، والتي تنسجم تماماً مع الهدوء في أمر الرسالة .

ومما يؤكد التزام الأنبياء بهذا المسار ما نجده من موسى عليه السلام في حواره مع قومه ، فعلى الرغم من حدة المزاج التي يتصف بها موسى عليه السلام ـ كما يمكن أن نلمس ذلك من بعض النصوص ـ[2] إلا أنه لم يكن يخرج في حواره عن خط الرسالة ومبادئها ، على الرغم من أن كثيراً من المواقف كانت تهدف إلى جلبه لأغراضهم في الحوار ، واستفزازه ليفقد صوابه ، من ذلك قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام بعد رؤيتهم ما رأوا من الآيات ﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3] . فواضح أن هذا الموقف منهم من شأنه أن يثير في نفس نبيهم جوانب الانفعال الشديد الذي ربما يؤدي إلى فقد الصواب والهدوء كردّ الفعل ، لكن سيدنا موسى عليه السلام على الرغم من كل ذلك يأتي جوابه منسجماً مع رسالته ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، فمزاج الرسالة هو مزاجه .

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٠٢ـ١٠٥ .

(٢) كما يفهم من النصوص الآتية : ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ، سورة القصص ، الآية ١٥ ، ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ ﴾ سورة الأعراف ، الآية ١٥٠ . .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان ١٣٨ـ١٣٩ .

هذا الموقف الذي أطلق عليه بعض المفكرين المعاصرين : « الطفولة الفكرية »[1] ، أي التفكير بعقلية الأطفال حينما يطلبون من آبائهم شراء لعبة من أقرانهم ، ومثله يمكن أن يقال في قوله تعالى عن بني إسرائيل ـ أيضاً ـ : ﴿ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2] .

سادساً : ذكر القرآن لنا نماذج من الحوار الذي يهدف إلى قمع الخصم ، وإرهاقه من ناحية الفكر ، وذلك من خلال أسلوب السخرية (Mockery) الذي يستخدم للتلاعب بالألفاظ ، وجعلها وسيلة لحرب الخصم من الناحية النفسية ، وليس غرضها الإمداد بالمعلومات ، وهذا اللون من ألوان الحوار هو عبارة عن حرب أعصاب ، تبرز فيه العوامل الانفعالية بشكل واضح ، إلا أن القرآن يعرض لنا من خلال هذه النماذج كيف واجه الدعاة إلى الله في كل زمان مثل هذا النوع من الحوار .

الأصل في موقف الدعاة إلى الله أن يترفعوا عن الوسائل الهابطة في الحوار ، ويحافظوا على إبقاء الحوار في ساحة الجدية وعدم الانتقال به إلى الهزلية ، وهذا ـ بلا شك ـ يتطلب منهم مجهوداً نفسياً عظيماً ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[3] ، لكن إذا انتقل الحوار ليصبح الغرض منه الحطّ من قيمة ما يحمله من مبادىء والاستهزاء بها ، فحينها يندب المسلم لأن ينتصر من عدوّه ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[4] ، وقد عرض لنا القرآن نماذج هذا الأسلوب الذي كان يستخدمه الدعاة إلى الله كردة فعل لسخرية الخصوم في الحوار بعد استنفادهم للوسائل جميعها قبل ذلك ، فأعداء الله يهدفون من هذا الأسلوب إلى تدمير المؤمنين من الناحية المعنوية (تحطيم نفسيتهم) ، حينها لا بد من مواجهتها بخطة مثلها أو أفضل منها ، ولعلنا لا نجد مثالاً على ذلك إلا ما جاء صريحاً على لسان سيدنا نوح عليه السلام حين قال : ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾[5] ، فالسخرية

---

(١) فضل الله : الحوار في القرآن ، ص ٢٧٨ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٥٥ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .
(٤) سورة الشورى ، الآية ٣٩ .
(٥) سورة هود ، الآية ٣٨ .

بلا شك وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ، ينتهي بها الأمر إلى تحطيم الخصم من الناحية المعنوية وإرهاقه من ناحية الفكر ، لكن حاول الباحث أن يستعرض آيات الحوار التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم يتلمس فيها ما يصلح مثلاً على هذا النمط إلا أنه لم يجد ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على ترفع الدعاة إلى الله أن ينزلوا بساحة الحوار إلى هذا الميدان ، أو يجلبوا حركة الحوار إلى هذا الأسلوب ، وقد يكمن ذلك في قوة الأثر النفسي الذي يحدثه هذا الأسلوب ، ولأن هذا الأسلوب يتنافى ولو ظاهراً مع أغراض الرسالة[١] ، فالداعية إلى الله قد لا يحسن استخدامه ، فلو تكفل الداعية بالقيام بهذا الدور ، فلربما بان الفرق بينه وبين خصمه ، وكان ذلك أشق على النفس ، وحتى لا يدخل في نفس الداعية أي حظّ من حظوظ النفس في استخدام هذا الأسلوب ، فقد يكون الانتصار للنفس هو الدافع ، فقد لمسنا من خلال النصوص أن الله عز وجل هو الذي كان يتولى الردّ عن المؤمنين إذا قام خصومهم باستخدام سلاح السخرية ، فقد قال عز وجل : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[٢] .

فلا يخفى إذن قوة تأثير سلاح السخرية والاستهزاء من الناحية المعنوية ، وهذا ما يظهره قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ، كما أن في تكفل الله عز وجل بتولي الذب عن الرسول ﷺ : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ ، ما يشير إلى أن هذا الأسلوب يحتاج إلى قوة ضخمة وأكبر وهي قوة الله تعالى[٣] .

وقد لوحظ من خلال استعراض بعض المواطن التي ظهر فيها سخرية خصوم الدعوة من أصحابها أن القرآن في الغالب يؤكد على أن الرد سيتكفل الله به ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ . . ﴾[٤] ، ﴿ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[٥] ، ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ

---

(١) لعل في مقولة بني إسرائيل لموسى عليه السلام : ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ، ما يشير إلى استبعاد خروج هذا الأسلوب منه ، كما أن في رده عليهم ووصف ذلك من صفات الجاهلين ما يؤكد هذا : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ، سورة البقرة ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة الحجر ، الآيات ٩٥ـ٩٧ .

(٣) حفني : التصوير الساخر في القرآن الكريم ، ص ٣٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٥ .

(٥) سورة التوبة ، الآية ٦٤ .

وَحِيدًا﴾[1] ، ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾[2] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[3] .

بل المطلوب من الدعاة إلى الله تعالى أنهم إذا رأوا أن الحوار والخطاب مع أعدائهم انتقل إلى ساحة الاستهزاء بآيات الله ، فإنه على المؤمن أن يهجر هذه المجالس ويخرج منها : ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾[4] ، وقال عز وجل : ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾[5] ، وإذا كان في هذا من سرّ فإنه يكمن في قوة الأثر النفسي لهذا الأسلوب على الدعاة إلى الله تعالى وأتباعهم ، وقد كان النهي عن حضور هذه المجالس ، حتى لا يكون لهذه المجالس أثر نفسي على الدعاة إلى الله تعالى فشأن المؤمنين : ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾[6] .

هذا الأسلوب إذن أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة[7] ، ولا يستخدمه في العادة إلا من كان بيده زمام الموقف ، ويشعر بأنه الأقوى في طرف الحوار ، وفي قص القرآن علينا من أخبار هؤلاء ما يشير إلى مدى السخافة التي اتصف بها أعداء الرسالة ، حيث لم يجدوا جواباً غيره ، ثم إن فيه إشارة إلى مدى الدهاء والمكر الذي يتصف به الكفار في مواجهة الدعاة إلى الله .

وقد صوّر لنا القرآن الكريم في غير موضع أثر هذا الأسلوب من الناحية المعنوية على النفوس ، وحدثنا عن أنه أبرز أسلحة الكافرين في الحوار ، فهو السلاح المشترك في مقاومة الرسل جميعاً : ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[8] ، وقال عن سيدنا محمد ﷺ : ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن

---

(١) سورة المدثر ، الآية ١١ .
(٢) سورة القلم ، الآية ١٦ .
(٣) سورة فصلت ، الآيات ٢٦ـ٢٧ .
(٤) سورة النساء ، الآية ١٤٠ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية ٦٨ .
(٦) سورة الفرقان ، الآية ٧٢ .
(٧) حفني : أسلوب المحاورة ، ص ١٥ ، وانظر : العدوي ، محمد خير محمود : معالم القصة في القرآن ، (مصر : دار العدوي ، ط ١ ، ١٩٨٨م) ، ص ٧٣ .
(٨) سورة الأنعام ، الآية ١٠ .

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[1] ، وقال أيضاً : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾[2] ، وقال عز وجل : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[3] ، ولهذا نلحظ أن القرآن كثيراً ما يعرض لنا من مشاهد وأحوال الكافرين يوم القيامة التي تدعوا إلى السخرية منهم والاستهزاء بهم كمشاهد مخاطبة معبوداتهم وإلقائها في النار ، ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾[4] ، ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5] ، ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾[6] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾[7] ، فهذه المشاهد وغيرها كثير تحدثنا عن حالهم يوم القيامة .

وقد يستخدم الداعي إلى الله بدلاً من أسلوب السخرية المجرد ، أسلوب المعاريض لبيان بطلان ما هم عليه وهو في نهاية الأمر يدعو إلى السخرية من حالهم ـ كما يظهر ذلك من قول إبراهيم عليه السلام لقومه حين سألوه عمن حطم أصنامهم ـ ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾[8] ، نلحظ كيف أن سيدنا إبراهيم عليه السلام استطاع أن يجعل منهم أضحوكة ليكشف عن زيف عقيدتهم .

بقي أن نشير إلى أن أعداء الدين قد يلجأون إلى هذا الأسلوب « التلاعب بالألفاظ » والتمويه فيها ، فحينها يجب على المحاور المسلم أن ينتقل بهؤلاء إلى الجدية في الحوار ، ومن ذلك ما دار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الذي حاجه في ربه حين

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٣٦ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٤١ .
(٣) سورة الصافات ، الآية ١٢ .
(٤) سورة الفرقان ، الآية ١٧ .
(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٩٩ .
(٦) سورة الشعراء ، الآية ٩٤ـ ٩٥ .
(٧) سورة المطففين ، الآيات من ٢٩ـ٣٤ .
(٨) سورة الأنبياء ، الآيتان ٦٢ـ٦٣ .

قال له : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى ﴾[1] ، فواضح أنه يهدف إلى السذاجة والسخرية والتمويه ، هذا أمام الرأي العام ، أما حقيقة هذا الموقف فناشئة عن جبروته وطغيانه وتماديه في إزهاق الأرواح ، فمثل هذا الموقف يدلّ على نفسيتهم الساذجة التي لا تملك الدليل القوي الحجة لتواجه به الحق ، ولذلك لوحظ كيف أن سيدنا إبراهيم تنبه لهذا الملحظ النفسي ، واستطاع أن ينتقل به إلى الأمور الواضحة التي لا تخفى على أحد ، فكان أن عطّل خطته التمويهية .

سابعاً : عرض لنا القرآن الكريم نماذج متنوعة قامت على الحوار ، وكان كل مقطع منها يهدف إلى إبراز غرض نفسي ، إضافة إلى الفكرة الرئيسية التي سيقت لأجلها الحادثة ، ونظراً لكثرة هذه النماذج وصعوبة الإحاطة بها ، فإن الباحث سوف يذكر أمثلة عامة ، مشيراً بإيجاز شديد إلى أبرز أغراض هذه النماذج من الوجهة النفسية :

* قصة قارون في سورة القصص : تبرز إضافة إلى الفكرة الرئيسية فكرة الضعف النفسي أمام المغريات المادية ، ومدى سطوة المادة على النفس ، إضافة إلى ظهور أنماط من الغرائز الشريرة التي جبلت عليها النفس الإنسانية مثل : الفرح والزهو والغرور والتعالي . .

* حوار موسى عليه السلام مع الخضر في سورة الكهف : مدى قدرة الإنسان على ضبط النفس واستيعاب ما لم تقتنع به النفس .

* حوار مؤمن آل فرعون في سورة غافر : تبرز مسألة كتمان الإيمان الذي لا يكون على أساس الخوف، وإنما من باب الحرص على استمرارية الحوار وإبقاء روح الدعوة

* قصة أصحاب الجنتين في سورة الكهف : استسلام النفس أمام المغريات ، والتعامي عن التفكير في المستقبل .

* قصة أصحاب الجنة في سورة القلم : تبرز مدى الأنانية والشح اللذين جبلت عليهما النفس الإنسانية ، والحرص على جمع المال ، ثم مدى سطوة النفس على الغير عندما يصبح لها مركز نفوذ .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

* مواقف الضعفاء والمستكبرين وعتابهم في أكثر من موضع[١] : تصوّر مشاعر الهروب من المسؤولية ، وتبرز مشاعر الحسرة والندم واليأس ، كما تبرز مشاعر الإنسان عند مواجهة المسؤولية .

* موقف موسى عليه السلام مع ابنتي الرجل الصالح في مدين[٢] : حيث تبرز مشاعر الحياء الطبيعي الذي جبلت عليه المرأة ومشاعر الإعجاب الفطري .

* موقف ابني آدم : ومشاعر الحسد والحقد من الذي طوعت له نفسه قتل أخيه ، أو مبدأ العنف في مواجهة فورة الانفعال وخيبة الأمل[٣] وقيمة هذه القصة تتمثل في ما تخلفه من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم ، والتعاطف الروحي مع الضحية ، موقف نفسي عدواني .

الحوار ـ إذن ـ باعتباره عنصراً من عناصر بناء القصة القرآنية له دور كبير في التأثير على النفس الإنسانية ، وإثارة المشاعر والأحاسيس ، وأخيرا يمكن القول بأن الحوار يثير فينا تارة مشاعر الطرافة والمرح ، وتارة مشاعر الخوف والفزع ، وتارة مشاعر الغبطة والسرور والفرح ، وتارة مشاعر الحنق والغضب ، وتارة مشاعر الرحمة والشفقة ، وتارة مشاعر القلق والاضطراب ، لا يتسع المقام لبسطها .

المبحث الثالث
الأمثال القرآنية وجوانبها النفسية

المطلب الأول : معنى المثل وضربه

معنى المثل : في اللغة : عبارة عن كلمة تسوية ، يقال : هذا مِثْلُهُ ومَثَلُهُ كما يقال شِبْهُهُ وشَبَهُهُ[٤] ، فمثل الشيء يطلق على صفة الشيء ، ويطلق على ما يشبهه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ٣٧ وما بعدها ، سورة العنكبوت ، الآية ١٢ ، سورة الزمر ، الآيات ٣١ـ٣٣ ، سورة الحديد ، الآيات ١٣ـ١٥ وغيرها .

(٢) سورة القصص ، الآيات ٢٣ـ٢٨ .

(٣) فضل الله : الحوار ، ص ٣٣٣ . وللمزيد حول الجوانب النفسية لهذه القصة يمكن الرجوع إلى كتاب : الهاشمي : لمحات نفسية ، ص ١٤٠ـ١٥٠ .

(٤) الرازي : مختار الصحاح ، ص ٢٥٦ .

في الاصطلاح : عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ، ليبين أحدهما الآخر ويصوره ، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من أمثال في القرآن[1] .

يُعدّ ضرب المثل لونا من ألوان التشبيه تارة ، كما يعتبر لونا خاصاً من الاستعارة تارة أخرى ، فحين يكون الممثل له مذكوراً في الكلام فهو تشبيه ، وحين يكون محذوفاً فهو استعارة ، ولما بينهما من تقارب فقد يبدو أن الحديث عنه في مباحث الصور البيانية ، إذ المثل القرآني ينتظمه التصوير البياني ـ كما هو الحال في بقية أساليب القرآن ـ إلا أن الباحث يود الإشارة إلى ضرورة التفريق بين أمرين : « ضرب المثل » و« المثل المضروب » ، فنحن حين نتحدث عن ضرب المثل من الوجهة النفسية فإننا نرمي إلى الدور الذي يقوم به ضرب المثل من الوجهة النفسية[2] ، فهو بمثابة التمهيد للوصول نفسياً إلى المقصود ، أو بمعنى : تهيئة المناخ النفسي للتلقي ، ولذلك لوحظ أن كثيراً من الآيات القرآنية تركز على ضرب المثل ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾[3] ، يجدر بالذكر أنّ الإمام محمد عبده كان قد ألمح إلى لطيفة نفسية في معنى الضرب حين قال : « واختير للمثل لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال ، كأنَّ ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهي إلى أعماق نفسه »[4] ، وحين ننظر في الاستعمال القرآني نجد أن لفظة الضرب اقترنت بالمثل قرابة ثلاثين موضعاً .

أما حين نتحدث عن المثل المضروب من الوجهة النفسية فإننا نتناوله من حيث الدور الذي يقوم به ، بإضافته في جانب النفس الإنسانية ، فالمثل المضروب على هذا

---

(١) قاله الراغب : المفردات ، ص ٤٦٢ .

(٢) يذكر أن الشيخ محمد شلتوت كان قد ألمح إلى الفرق بينهما حين قال : « من سنة الله في القرآن أن يستخدم في البيان ضرب الأمثال تقريباً لما يجب أن تنفعل به النفوس وتؤمن به القلوب » ،شلتوت ، محمود : إلى القرآن الكريم ، (بيروت : دار الشروق ، د . ط ، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م) ، ص ١٨ . وانظر الصغير : الصورة الفنية في المثل القرآني ، ص ٩٢ .

(٣) سورة الروم ، الآية ٥٨ ، سورة الزمر ، الآية ٢٧ .

(٤) رضا : تفسير المنار ، ٢٣٦/١ .

يقوم بمثابة إكمال دور النفس لتتفاعل بمقتضاه ، فكأننا بهذا التفريق نميّز بين الأسلوب والمضمون ، فضرب المثل أسلوب ، ومحتوى المثل هو المضمون ، ولما كانت الأمثال القرآنية تطلق على الأمرين كان إفرادهما بالحديث أنسب .

المطلب الثاني : الجانب النفسي في ضرب المثل :

ضرب المثل أسلوب بارز من الأساليب التي تبرز الجوانب النفسية في الكلام ، وقد تحدث علماؤنا عن الدور الذي يبرزه أسلوب ضرب المثل في كتاب الله ، والمعنى الذي يضيفه ، فالجرجاني ألمح في حديثه عن المثل إلى بعضها حين قال : « التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو أبرزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورتها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها . . ، فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهز للعِطف وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وإن كان اعتذاراً كان إلى القلوب أقرب ، وللقلوب أخلب . . وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأوعى إلى الفكر »(١) ، فواضح من كلام شيخ البلاغة الأثر الذي يحدثه المثل من الوجهة النفسية ، والمثل على هذا فيه فوائد كثيرة ، مبسوطة في الكتب(٢) ، وقد صنفت فيه مؤلفات كثيرة .

فيما يأتي الآيات التي فيها إشارة إلى ضرب المثل ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(٣) ، ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٤) ، ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(٥) ، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾(٦) ، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ

---

(١) الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تح : الفاضلي ، ص ٨٨ .
(٢) للمزيد حول فوائد المثل انظر : العاني ، عبد القهار : دراسات في علوم القرآن ، ص ١٥٨ـ١٥٩ ، حيث جمع قرابة عشرين فائدة للمثل .
(٣) سورة الرعد ، الآية ١٧ .
(٤) سورة إبراهيم ، الآية ٢٥ .
(٥) سورة إبراهيم ، الآية ٤٥ .
(٦) سورة الإسراء ، الآية ٨٩ .

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾[1] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾[2] ،
﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٣٤﴾[3] ،
﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٥﴾[4] ، ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا
تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾[5] ، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣
﴾[6] ، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾[7] ، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧﴾[8] ، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾[9] ، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾[10] .

الجوانب الفنية والنفسية للمثل

فيما يلي إجمال لتلك الخصائص الفنية للمثل من الناحية النفسية :

* يعتبر المثل أكثر تأثيراً في القلوب لأنه تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالشاهد ، فيصير بذلك الحس مطابقاً للعقل[11] ، فالأمثال تصور المعاني تصور الأشخاص ، فهو يغرس القناعة العقلية ، وهو أثر وجداني .

* هذا اللون من التعبير بمثابة اللوحة الفنية ، كأنه يقوم برسم صورة المعنى للذهن ، بحيث ترتاح له النفوس .

* على الرغم من أن المثل لا يشترط فيه أن يكون واقعة تاريخية ثابتة ، وإنما تكفي

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٥٤ .
(٢) سورة الحج ، الآية ٧٣ .
(٣) سورة النور ، الآية ٣٤ .
(٤) سورة النور ، الآية ٣٥ .
(٥) سورة الفرقان ، الآية ٣٩ .
(٦) سورة العنكبوت ، الآية ٤٣ .
(٧) سورة الروم ، الآية ٥٨ .
(٨) سورة الزمر ، الآية ٢٧ .
(٩) سورة محمد ، الآية ٣ .
(١٠) سورة الحشر ، الآية ٣ .
(١١) أشار إليه الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، ١/ ٢٩٣ . والزركشي : البرهان ، ١/ ٤٨٨ .

فيه إمكانية صحة وقوع المثل ، إلا أنه في الأسلوب القرآني كان ملتزماً جانب الصدق وظاهر فيه طابع الحقيقة ، لا كما ألمح بعضهم[1] إلى أن المثل القرآني ليس بالضرورة أن يكون لواقعة تاريخية . أقول : هذه الواقعية التي التزمها القرآن في جانب المثل لها ارتباط كبير في واقع الإنسان النفسي[2] .

* للمثل دور مهم في السيطرة على نوازع الإنسان الداخلية ، وذلك حينما يطلب من الإنسان أن يستفيد من سابق الأحداث ، ويأخذ منها العبرة والتجارب ، وهذا تأثير سلوكي .

* المثل القرآني يشد انتباه السامع ، ويلفت نظره إلى الحديث ، ويحمل السامع على التفاعل مع الحدث ، وهذا بدوره أحد جوانب التفاعل النفسي ، فالمثل يسهم في إبراز عوامل التأثير ومكامنه ، سواء أكانت عواطف زائفة مثل : « الفرح ، الأمل ، الرغبة » ، أم عواطف رادعة « الخوف ، الإشفاق » ، أم ممجدة « إعجاب حب ثقة » .

* يرفع الملل والسآمة عن الكلام ، ذلك أنه يضفي على الكلام لوناً من التعبير والتجديد .

* يعين على حفظ الفكرة ، ويساعد على جعلها مرتبطة بالذهن ، من خلال تصوير الفكرة في الذهن وتقريبها ، ويعمل على تحريك طاقة الذهن الفكرية .

* تعمل هذه الأمثال على توسيع الآفاق النفسية لدى المتلقي ، وذلك بربط المعقول بالمحسوس ، وهذا أكثر ما يبرز مع الآيات التي تتناول قضايا العقيدة .

---

(١) وهو ما يفهم من كلام البوطي ، حيث قال : « فالأمثال لا يشترط صحتها على أنها واقعة تاريخية ثابتة ، وإنما يشترط فقط مكان صحتها . . » ، ثم يقول : « قلما يخلو معنى من المعاني التي يعرضها القرآن من الارتباط بمثل مقّرب ، يكسوه ثوباً يُحس به ، ويتجسد فيه » ، البوطي : من روائع القرآن ، ص ١٨١ . وانظر : جابر ، محمد : الأمثال في القرآن الكريم ، (د . م : المعهد العالمي ، ط ٢ ، ١٩٩٥م) ، ص ٢٣٠ ، وفي كلام الرازي ما يفهم منه ذلك عند تفسيره للآية ١١٢ من سورة النحل حين قال : « المثل يحتمل أن يكون شيئاً مفروضا ويحتمل أن يكون قرينة معينة » ، الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، ٥/٥٢٨ ، ومن كلام الآلوسي : روح المعاني ، ١/١٦٣ .

(٢) للمزيد انظر : الصغير : الصورة الفنية في المثل ، ص ٣٣١ وما بعدها .

* قد يضاف أثر سلوكي من الآثار التي يعملها ضرب المثل في القرآن ، حيث يقوم بتنفير النفس من إتيان الفعل المنهي عنه ، وذلك عن طريق التأثير الوجداني ، ولمس البداهة الفطرية ، وإيقاظ الحس[١] .

خصائص المثل القرآني :

بعد بيان بعض الجوانب النفسية للمثل القرآني ، لا بد من إبراز أهم الخصائص التي يتميز بها المثل القرآني ، وهي أمور ملحوظة بشكل بارز ، يمكن إجمال خصائص المثل القرآني في الآتي[٢] :

* دقة التصوير وإبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية .

* إبراز الأبعاد المكانية والزمانية للمثل ، بحيث يكون تصويراً حياً ناطقاً ، والذي بدوره يبرز مشاعر النفس ، ويوقظ الذهن .

* التنويع في العرض حيث نلحظ أن المثل القرآني يأتي : بالتشبيه تارة ، كما في قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[٣] ، وبالعرض المفاجي ، بالتمثيل البسيط ، بالتمثيل المركب ، كما يأتي على شكل قصة في كثير من الأحيان ، كما في قوله تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾[٤] ، كما يلحظ أن القرآن يعرض القصة الحقيقة أحياناً ، ويسوقها مساق المثل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[٥] .

---

(١) البيانوني ، عبد المجيد : ضرب الأمثال في القرآن ، (دمشق : دار القلم ، ط ١ ، ١٩٩١م) ، ص ٢٠٩ .

(٢) حبنكه الميداني ، عبد الرحمن حسن : أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ، (دمشق : دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٩٢م) ، ص ١١٥ـ١١٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧ .

(٤) سورة يس ، الآية ١٣ ، ومثلها قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف ، الآيات ٣٢ـ٤٤ ، وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم : ١٧ـ٣٣ .

(٥) سورة النحل ، الآية ١١٢ .

* كثيراً ما كان الأسلوب القرآني يتجاوز الحديث عن المثل ، ويحدثنا عن الممثل له ، ويبرز المهم فيه .

* كثيراً ما يحذف من المثل القرآني مقاطع من الصور التمثيلية ، وذلك اعتمادا على ما يتصوره الذهن ، فأحياناً تعرض الصورة التمثيلية من آخرها ، وأحياناً من أوسطها . . وهكذا .

يلحظ في الاستخدام القرآني أن لفظ المثل استعير تارة :

للحال : كما في قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾[١] .

للوصف :كما في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[٢] ، ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ . .﴾[٣] .

للقصة : كما في قوله تعالى : ﴿۞ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[٤] .

الجمع بين الحكم والحكمة ، فاللفظ القرآني ثريّ بالمعاني وغني بالصور على الرغم من قلة ألفاظه ، فهو بعبارة أخرى إيجاز في اللفظ وإيفاء بالمعنى .

المطلب الثالث : نظرة إجمالية في أمثال القرآن وعرض نماذج

يلحظ المتدبر لكتاب الله أن المثل من الأساليب البارزة في آياته ، وإذا ما ضم إليه التشبيه فإن النتيجة التي لا يخالطها شك أن هذا الأسلوب من الأساليب البارزة في التعبير القرآني ، ولما كان من الصعب الإحاطة بالأمثال في موضع كهذا ، خاصة والصعوبة تكمن في تصنيفها وكيفية تناولها ، فإن الباحث سوف يقتصر على تسجيل ملحوظاته على هذا النمط ، مركزاً على الناحية النفسية فيها ، محاولاً قدر الإمكان ضم بعضها إلى بعض في الحديث .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧ .
(٢) سورة النحل ، الآية ٦٠ .
(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .
(٤) سورة الرعد ، الآية ٣٥ ، سورة محمد ، الآية ١٥ ، للمزيد انظر : الزركشي : البرهان ، ٤٨٩/١ .

لوحظ أن أغلب هذه الأمثال كانت تتركز حول دائرتي الإيمان والكفر وما يتفرع عنهما ، ولا عجب فالناس حولهما يصنفون ، ومن دائرتهما ينطلقون في سلوكهم واعتقادهم .

والجدير بالملاحظة أن القرآن الكريم قد حشد الكثير من الوسائل والأمثلة لبيان وإبراز الفرق بين هاتين الدائرتين وأهلها ، فقد كان المشبه به في الغالب مما له مكان بارز في نفس الإنسان ، سواء أكان مما تميل إليه النفس وتحبّه ، أم ما كان مما تكرهه النفس وتبغضه ، فحاصل الأمر أن القرآن كثيراً ما كان يجعل مدار قبول الأمر وبغضه مترتبا على مكان الشيء من النفس ، بيان ذلك في الآتي :

الظلمات والنور : لفظان من الألفاظ التي كثر دوران الأمثال عليها لبيان مسألتي الكفر والإيمان ، فقد كان يُرمز لرسالة الإسلام بـ « النور »[1] ، وللكفر بـ « الظلمات » ، وقد كانت وظيفة الرسول إخراج الناس من الظلمات (الكفر) إلى النور (الإيمان)[2] ، آيات هذا النوع كثيرة جداً منها : قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[4] ، وغيرها كثير[5] .

البصر والعمى : نجد لهما ذكراً وحضوراً في الأمثال ليدل البصر على الإيمان والعلم والمؤمن ، والعمى على الكفر والجهل ، وكثيراً ما نجد الآيات ترشد العقول

---

(١) ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ، سورة الصف ، الآية ٨ ، وانظر : سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ ، وسورة التوبة ، الآية ٣٢ .

(٢) انظر : سورة الأنعام ، الآية ٩١ ، وسورة إبراهيم ، الآية ٥ ،وسورة لقمان ، الآية ٢٠ ، وسورة فاطر ، الآية ٢٥ ، وسورة الزمر ، الآية ٢٢ ، وسورة الشورى ، الآية ٥٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٧ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٤٣ .

(٥) منها قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ ، سورة إبراهيم ، الآية ١ . وانظر : سورة المائدة ، الآية ١٦ ، وسورة الأحزاب ، الآيات ٤٥-٤٦ ، وسورة الحديد ، الآية ٩ ، وسورة الطلاق ، الآية ١١ .

إلى المقارنة بين حالي البصير والأعمى ، قال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . .﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[2] ، وقال : ﴿۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾[3] ، وغيرها آيات كثيرة[4] .

الحياة والموت : يشبه الإيمان بالحياة ، والكفر بالموت ، كما في قوله تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ . .﴾[5] ، وقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[6] ، وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[7] ، وقوله عز وجل : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾[8] .

البيع والشراء وما يتفرع عنهما من ربح وخسارة : كثيراً ما كان يستخدم هذا النوع من المثل لإبراز حقيقة النجاة والربح وإبراز الفائزين وهم المؤمنون ، وفي المقابل الخاسرون وهم الكفار ، ولهذا نجد ذكراً للألفاظ في جانب الربح ، الكسب ، الفوز ، الفلاح ، النجاة ، أما في جانب الكفار فالخسارة ، البوار ، الهلاك . . والإنسان الذي يترك الإيمان ويذهب للكفر كالتاجر يعقد صفقة تجارية : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[9] ، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[10] .

---

(١) سورة فاطر ، الآيات ١٩ـ٢٠ .
(٢) سورة النمل ، الآية ٨١ .
(٣) سورة هود ، الآية ٢٤ .
(٤) انظر : سورة الأنعام ، الآية ٣٩ ، وسورة الأعراف ، الآية ٦٤ ، وسورة يونس ، الآيات ٤٢ـ٤٣ ، وسورة الإسراء ، الآيات ٧٢ ، ٩٧ ، وسورة طه ، الآية ١٢٤ ، سورة النمل ، الآية ٦٦ ، وسورة غافر ، الآية ٥٨ ، وسورة فصلت ، الآيات ١٧ ، ٤٤ وغيرها .
(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢ .
(٦) سورة النمل ، الآية ٨٠ .
(٧) سورة الأنفال ، الآية ٢٤ .
(٨) سورة فاطر ، الآية ٢٢ .
(٩) سورة البقرة ، الآية ١٦ .
(١٠) سورة النحل ، الآية ٩٥ . وانظر : سورة البقرة ، الآيات ٤١ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٠٧ ، سورة آل عمران ، الآيات ٧٧ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، ١٩٩ ، سورة النساء ، الآيات=

وهكذا نلاحظ أن القرآن قد استخدم ما تقدم من الألفاظ لإبراز حقيقة الإيمان ومقارنتها بالكفر ، وهذا الأسلوب من الأساليب التربوية للنفس الإنسانية ، فأما بالنسبة لموقع الظلمات والنور من النفس : فالنفس بطبعها تميل إلى النور ، تنفر من الظلام ، والنفس تشعر بالضيق عند الظلام ، والسعة عند النور ، وقد جعل الله الليل والنهار ، وهما عنوان « الظلام والنور » ، جعلهما آيتين من آيات الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[1] ، والظلام مجهول ، والنفس تفرّ من المجهول ، والظلام سكون ، والنفس تميل إلى الحركة ، فكان النور أبلغ في التعبير عن الإسلام ، وأمكن من النفوس .

كذلك يمكن أن يقال في « العمى والبصر » ، و« الحياة والموت » ، ولا يخفى ما بين هذه الأمور من تقارب ، فالليل ظلام ، والظلام يسلم إلى السكون ، والسكون يسلم إلى النوم ، وهو من الموت ، والنهار نور وبصر ، وهما يسلمان إلى الحركة ، والحركة عنوان الحياة .

وبهذا يلاحظ أنه في الغالب يشير الممثل به إلى مكانه من النفوس ، وأما تشبيه الكفار بالبهائم والحيوانات فهذا مما له بعد نفسي كبير ، حيث إن النفس في الغالب لا ترضى أن توصم بالدونية ، فيكون في هذا الأسلوب ما يشبه الحافز والدافع الذي يدفع الإنسان إلى التفكير ، ففي الأنعام تشبيه المعرض عن آيات الله « تارة بالكلب ، وتارة بحمر مستنفرة » ، كما أن وجه الشبه يظهر من ناحية رضا المرء بعيشة الذلة والهوان .

وأما بالنسبة لما يتعلق بالتجارة ، فسرّ ذلك واضح ، إذ النفس الإنسانية مجبولة على حب المال ، كما قال عز وجل : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[2] ، والمال أكثر الحوافز التي تدفع الإنسان إلى الحركة ، إذ غالباً ما يكون خط سيره وحركته تابعا لهذا المال ، والنفس بسبب حبها المال جبلت على الشح والحرص ، ونفرت من الإنفاق ،

= ٤٤ ، ٧٤ ، سورة التوبة ، الآية ١١١ ، سورة فاطر ، الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، سورة الصف ، الآية ١٠ وغيرها كثير .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الفجر ، الآية ٢٠ .

ومن هنا وجدنا أن كثيراً من الأمثال القرآنية استخدم فيها الألفاظ التجارية للتعبير عن أرفع قيمة في الوجود ، وهي قضية الإيمان .

مثال : قال الله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

تشمل الآية ملاحظ نفسية كثيرة ، فالقرآن حين يصور الإنسان بالبهائم ، بل بأخسّ الحيوانات « الكلب » ، فهو يريد أن يبين للنفس حقيقة الذي ينسلخ من دينه بعد أن عرف الحق حتى تنفر منه الطباع ، فقد وجد في الكلب شبيهاً يبين عن خسته وحقارته ، وقد جيء بالمثل موصوفاً ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ وهو تصوير لاضطراب النفس وعدم استقرارها ، فهو متزعزع العقيدة .

والآية تسلط الضوء على مدى تسلط شهوات الإنسان وغرائزه ، إذ من شأن الغريزة أن لا تنتهي إلى شبع ، كلما ركض المرء وراءها زاد تعلقا بها ، فمثل من يتعلق بأهوائه وشهواته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، أي يلهث في كل حال : إن جاع أو شبع ، وفي ذلك تصوير للنفس الإنسانية ، تلهث وراء شهواتها في كل حال ، لا يقعده عن ذلك شبع ، ولا غنى[2] ، كما أن في التعبير بالانسلاخ إشارة إلى فقدان الرقابة النفسية التي كانت تحيط به إذ الجلد يشكل مركز الحماية للبدن من الأخطار الخارجية ، وزواله يعني فقدان جهاز المناعة هذا ، « فآيات الله بدلالاتها كانت محيطة به كإحاطة جلده »[3] .

وفي النص تصوير لحياة المرتدّ النفسية ﴿ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ، حالة اللهث النفسي والظمأ لمطالب الحياة الدنيا ، وقد كانت علته النفسية أنه أخلد إلى الأرض طلباً

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان ١٧٥ـ ١٧٦ .

(٢) البوطي : من روائع القرآن ، ص ١٨٧ .

(٣) حبنكة الميداني : أمثال القرآن ، ص ٣٤٨ـ٣٥٠ فصّل الكلام ، والآية تحكي لنا قصة نموذج بشري « من علماء اليهود والنصارى خرجوا من أحكام الله بالتحريف والتبديل ، يدل عليه ختام الآية ﴿ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ﴾ .

للطمأنينة فيها والاستمتاع بلذاتها ، والمثل بهذا يتكفل بإبقاء الصورة ماثلة في الذهن متكررة المشهد كلما تكرر النفس الخارج من الكلب في حالتين ، هذه الحركة المتجددة المستمرة تصوير لذلك الظمأ النفسي ، وهكذا تصور حالهم ، فلا هم استراحوا بالغفلة ، ولا هم استراحوا بالمعرفة »[1] .

آيات المثل والحث على الإنفاق

كان دور الأمثال القرآنية في معالجة ما جبلت عليه النفوس من الشح والبخل والحرص على جمع المال بارزاً ، إذ المثل القرآني من أحسن الأساليب في تصوير النفس الإنسانية في هذا الجانب ، وكان أفضل وسيلة لتهذيب النفس الإنسانية ، ففي معرض الحديث عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى لوحظ أن الأوامر والنواهي صيغت على أسلوب المثل ، خاصة ما ورد منها في سورة البقرة[2] : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3] ، ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾[4] ، ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ . . ﴾[5] .

يمكن إجمال الأثر النفسي الذي أحدثه المثل القرآني في هذا الجانب في النقاط الآتية :

أولاً : تدرجت الأمثال في تهذيب النفس الإنسانية ، إذ الآيات القرآنية ـ وهي تطلب من النفس الإنسانية أن تقوم بالإنفاق ـ تنطلق من :

الاعتراف بصعوبة هذا على النفس فهي مسألة تحتاج إلى مجاهدة وتثبيت : قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ

---

(١) قطب ، سيد : التصوير الفني ، ص ٤٠ .
(٢) انظر الآيات ، ٢٦١ـ٢٧٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥ .

﴿جَنَّةِۭ بِرَبْوَةٍ﴾[1] ، وهذه الوسيلة من أبرز الوسائل في معالجة النفس الإنسانية ، وهو الاعتراف بصعوبة ذلك على النفس ، فالعلاج الذي ينطلق من واقع الاعتراف بحدود النفس الإنسانية ونوازعها لا شك سيكون علاجاً أقوم .

إيجاد البديل ، إذ النفس يشق عليها أن يطلب منها التخلي عن شهوة من الشهوات المغروزة في النفوس إلا إذا أعطيت بديلاً ، وهنا يأتي دور المثل في تصوير البديل : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[2] ، فهذا هو البديل : الوعد بالمضاعفة التي لا حدود لها تمثيل بالبذرة ثم إن النفوس بحاجة إلى تطمين وضمان ، لذا كانت الإشارة : ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ، فالعطاء عطاء الله تعالى ، وعطاء الله لا ينفد ، ولأن النفس مادية ، ولا تعترف إلا بالمحسوس ، فقد صورت الآيات القرآنية ما يحقق الضمان للنفوس على مصير هذه الأموال ، فهي بمثابة القرض ، والنفس تطمئن إلى أن القرض سيعود لها ، ولهذا نجد الآيات تصور هذا الإنفاق قرضاً ، قال عز وجل : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾[3] ، وقال : ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[4] ، وقال : ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[5] .

النظر إلى المستقبل : إذ النفس يخيفها المستقبل المجهول ، فهي تخاف الفقر في المستقبل ، فهذا هو الدافع النفسي وراء بخله ، فلولا تخوفها الفقر في المستقبل لما كانت بخيلة ، إذن لا بد من تطمين النفس على المستقبل من جهة ، ثم التحذير من مخاطر الإبقاء على عدم الإنفاق ، قال عز وجل : ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾[6] ويأتي المثل ليؤدي دوره في تنبيه النفس على مخاطر المستقبل ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[7] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٤٥ . وانظر : سورة الحديد ، الآية ١١

(٤) سورة الحديد ، الآية ١٨ .

(٥) سورة التغابن ، الآية ٧٧ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥ .

(٧) سورة البقرة ، الآية ٢٦٦ .

كبح جماح النفس (تهذيب نفوس الأغنياء) : وآيات المثل القرآني - وهي تعرض لمسألة الإنفاق في سبيل الله تعالى - تشير إلى ما جبلت عليه النفس من رغبة المدح والثناء ، ثم المنّ على الآخرين ، فكانت الآيات القرآنية تركّز على ضرورة أن يكون هذا الإنفاق خارجاً من النفس ، ولهذا كان النهي عن الرياء في الإنفاق ﴿ **كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ** ﴾[1] وأما كبح جماح النفس فيظهر في أن الآيات طلبت من النفس أن لا تتبع هذا الإنفاق بِالْمَنِّ وَالأَذَى ، قال عز وجل : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ** ﴾[2] ، وأما المحاربة النفسية للمنفق رياء فتبرز من خلال تصوير أعماله هباءً ﴿ **فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ** ﴾[3] .

تعديل السلوك : وآيات المثل حين تعرض لمسألة الإنفاق ، تترقى بالنفس ، لكي تنتقل بهذا السلوك « الإنفاق » من سلوك طارىء على النفس الإنسانية دافعه السمعة والرياء إلى أن يصبح سلوكاً طبيعياً دافعه مرضاة الله ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ** . . ﴾[4] .

إظهار مكانة المنفق من النفوس : وآيات المثل وهي تتدرج في تهذيب النفوس تعرض لنا طبيعة النفس الإنسانية وأنها إن فكرت في الإنفاق ، فإن هذا سيكون من الشيء الأقل تعلقا بالنفس الإنسانية أو ما ترغب النفس الإنسانية التخلص منه ﴿ **وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ** ﴾[5] ، هذا ما جبلت عليه النفوس ولهذا كان التدرج في آيات المثل لعلاج هذا في النفوس فقد قال عز وجل : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾[6] ، وهذا غاية ما يطلب من النفس الإنسانية من سلوك تجاه قضية المال ، فكم هي المسافة التي قطعتها الأوامر القرآنية في معالجة النفس الإنسانية تجاه قضية الإنفاق ، وكم كان للمثل من دور في تحقيق هذا التدرج في النفوس .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧ .
(٦) سورة الحشر ، الآية ٩ .

ثانياً : وآيات الإنفاق كانت قد أبرزت أصناف الناس تجاه قضية الإنفاق ، وأظهرت دوافعهم ، مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم ، على النحو الآتي :

صنف يضن بالمال فلا يعطيه إلا بالربا ، فهذه النفوس عدا عن كونها تخشى الفقر ، فهي تسعى إلى إيجاد الوسائل التي تؤدي إلى الحقد والبغضاء.. إلى جريمة الربا ، ومن هنا نجد أن الآيات وجهت أوامرها وإرشادها إلى هذا الصنف ، فالحقد والفحش إثم ، والربا طمع في الزيادة ، ولا يزيل الأثم والشعور به إلا الوعد بالمغفرة ، ولا يسكن طمع النفس إلا بزيادة ، لنا هنا أن نتدبر في الآية الكريمة : ﴿ **ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٦٨﴾ ﴾[(١)] . والنفس التي اعتادت على التعامل مع الناس على أساس الربا تمكّن الطمع في جنباتها ، حتى أصبحت النفس تنظر إليه على أنه كالطعام ، ولذا كان التعبير بـ ﴿ **يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا** ﴾[(٢)] ، فهذه اللفظة تبرز تمكنه من نفوسهم ، ومن كان حاله فلا يردعه سوى الإنذار والتهديد والوعيد . أحدهما في العاجل وهو العلاج الأنسب لهذه النفوس الجشعة الطامعة ، وهو التخويف من زوال الأموال ومحقها ﴿ **يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا** ﴾[(٣)] ، لعله يكون رادعاً للنفوس ، ومن هنا كانت الدعوة مناسبة أن توجه لهذه النفوس بعد أن أدركت أن الخطر سيحيط بالأموال ، فتكون الدعوة للارتداع : ﴿ **فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾[(٤)] ، ثم فتح باب التوبة أمام هذه النفوس : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿٢٧٨﴾ ﴾[(٥)] ، ويأتي مع التوبة ما فيه تطمين للنفوس ، فهي مع هذا تبقى خائفة على مصير رؤوس الأموال فهي إلى زوال يأتي التطمين ﴿ **وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ** ﴿٢٧٩﴾ ﴾[(٦)] ، وثانيهما ﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ**

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٧٦ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٧٨ .

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٧٩ .

ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾[1] ، وإعلان الحرب من الله تعالى على آكل الربا هذا ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[2] كل هذا نلمسه يتخلل الآيات التي تحدثنا عن الإنفاق في سبيل الله ، وأما المثل فقد نجد دوره أيضاً في هذه الآيات : ﴿ كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾[3] .

صنف ينفق من ماله رياءً ولا يريد به وجه الله ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾[4] ، وهم المنافقون[5] ، هذا الصنف من الناس قد يكون دافعهم الطمع في تحصيل السمعة وهم المراءون ، قد يكون دافعهم إلى الإنفاق هو الإكراه النفسي والخوف من ملامة المسلمين لهم ، فيكون الدافع النفسي لا غير هو الذي دفع بهم إلى الإنفاق في حاليهم ، سواء أكان لغرض الشهرة والسمعة وهو مطلب نفسي ، أم كان خوفاً من الملام والعتاب وهو أمر متعلق بالنفس أيضاً ، وقد حدثنا الله عن هذا الصنف وأخبرنا عن مصير أموالهم : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[6] ، أما العلاج النفسي لها فأن تخبر هذه النفوس بأن المال الذي تنفقه سيكون مصدر عذاب لها في حياتها الدنيا وفي آخرتها ، وهذا علاج نفسي وجزاء من جنس العمل ، فلا هم أبقوا على أموالهم فاستفادوا منها ، ولا هم أنفقوها على الوجه المطلوب فحصل لهم الأجر ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[7] .

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ .
(2) سورة البقرة ، الآية ٢٧٩ .
(3) سورة البقرة ، الآية ٢٧٥ .
(4) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .
(5) قال الطبري : « وإنما قلنا إنه منافق لأنه المظهر كفره والمعلن شركه ، معلوم أنه لا يكون بشيء من أعماله مرائياً . واحتج لذلك أبو السعود من الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ، وإليه ذهب الزمخشري والفخر الرازي والنيسابوري . انظر : جامع البيان ، ٣/ ٦٤ ، إرشاد العقل السليم ، ٢/ ٥٠٤ ، الكشاف ، ١/ ٣٩٤ ، التفسير الكبير ، ٢/ ٥٠٤ ، غرائب القرآن ، ٣/ ٥٠ .
(6) سورة التوبة ، الآيات ٥٣ـ٥٤ .
(7) سورة التوبة ، الآية ٥٥ .

صنف من الناس ينفق ماله لكنه يتبعه بالمن والأذى ، فهؤلاء يأتي المثل ليبرز دوره في علاج هذه النفوس ، إذ هي ما زالت فيها جوانب خير وقابلة للعلاج ، ومثلها يردعها التذكير ، ولهذا يأتي المثل ليصور لها العاقبة والنتيجة إن تبعت هذه الصدقات مناً أو أذىً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾[(١)] ، وتارة تبرز الآيات أن هذه النفقة مع المنّة لا تزن شيئاً ، فعدم النفقة مع الكلمة الطيبة أفضل منها ﴿ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ ﴾[(٢)] ، وتارة بالعلاج الجذري للدوافع التي تقف وراء هذا الصنف ، وذلك بأن يؤكد لهم حصول الأجر من الله تعالى والتطمين على النتائج : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾[(٣)] ، فالآية الكريمة تعالج نفوس هذا الصنف بالقضاء على الدافع وإيجاد البديل للنفوس ، إذ غالباً ما يكون دافع النفوس إلى هذا السلوك هو الرغبة في حصول المنفعة ، فيكون التطمين ﴿ لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ ، وقد يكون خوفاً من عدم تحصيلها ، فالنفس مترددة بين تحصيل الأجر وبين عدم تحصيله ، ولهذا تجد النفوس كلما تذكرت هذا الفعل تردد تفكيرها بين مصير هذه الأموال ، وتوارد إلى الذهن الخوف من المستقبل ، وهو عدم حصول الأجر ، فتتحدث النفس بالمنّ ، فكان

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ . لاختيار لفظة (صفوان) مع هذا المرائي ـ هذا على اعتبار أنها للمرائي وليس لنفقته ـ ملحظان نفسيان :
١ـ إشارة إلى نفسية المرائي ، ومحاولة إخفائها في نفسه ، والتمويه على الناس ، ويظهر على الناس بغير حقيقته ، من هنا الصفوان الذي تعلوه حفنات من تراب .
٢ـ معنى الصلابة والقسوة التي عليها المرائي مثل قسوة الصفوان ، فهو يظهر الصلاح وينفق لكن قلبه قاس صلب لا ينتفع بالأعمال الصالحة ، إذ لم تنبع أعماله من نفسه . انظر للمزيد : الفياض ، محمد جابر العلواني : الأمثال في القرآن الكريم ، (هيرندن : مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٩٥م) ، ص ٣٣٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٣ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٢ .

التطمين على المستقبل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ وهو الأمن . ويلاحظ هنا ما بين المنّ والأمن من تقارب في اللفظ ، أو بين عتاب النفس على هذا الفعل ، فيأتي التطمين لهذا الجانب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ، والصورة التي عرضها المثل لهم ﴿أَيَوَدُّ﴾ تثير بواعث الرهبة في النفس ، إذ المرء لا يتصورها لعدوّه ، فضلاً عن أن يرضاها لنفسه ، أن يكون الكد والجهد ، ثم لا ينتظر ثمرة ما زرع .

صنف من الناس يقدّم الرديء من ماله ويحتجز الجيد ، إذ الدافع لهذا الإنفاق ليس نقياً خالصاً ، فما زال في النفوس رغبة للتخلص من رديء المال ، فيكون الأطماع بالنفقة لتحصل النفس على منفعتين : أولاهما التخلص من المال الردى ، ثانيتهما تحصيل الأجر ، وهذا الأمر يشير إلى قضية متعلقة بالنفوس ، فهي تلجأ لهذا الفعل ؛ لأن النفس تشعر بأنها هي التي تملك المال ، وأن ما تخرجه هو من مالها ، فيأتي العلاج الرباني لهذا الصنف من النفوس ليذكرها :

بأن تخرج من أطايب ما تملك فالمال مال الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1] .

بأن تنظر في حالها لو كانت الطرف الثاني « المحتاج » هل تتقبله وترضاه ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ﴾ ، فما يأخذه إلا على إغماض وحياء ، وهكذا يكون دور المثل بارزاً في تصوير المسألة لهذا الصنف من الناس .

صنف ينفق ماله خالصاً لله تعالى « يبتغي به وجه الله تعالى » وهو الصنف الرابح ربحاً لا حدود له ، ويأتي المثل ليبرز لنا ذلك : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾[2] ، ويكون للمثل دور بارز في نقل النفوس إلى تصور المعنى الذهني في حقائق وأرقام حسابية ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ﴾ ، وهذا الأمر يشير إلى وجود رغبة في النفوس ، ثم يأتي التطمين ﴿وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ ، وتارة يأتي المثل ليصور مشهد الربح للنفس تصويراً ماثلاً أمام

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦١ .

الأعين ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] .

وتارة يأتي التطمين الصريح : ألا إنها قربة لهم من قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

صنف ينفق من ماله ويكون دافعه الصد عن سبيل الله أي الإنفاق المضاد ، وهم الكفار قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[3] .

أما المثل فقد كان دوره بارزاً في الوقوف على حقيقة هذا الصنف وصورتهم والدافع الذي كان وراء إنفاقهم ، قال عز وجل : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[4] ، فدور المثل يكمن في أنه يسهم في تنفير الطباع والنفوس من أن يكون دافعها للإنفاق هو الصد عن سبيل الله ، لأن النفوس تتطلع إلى مصير أموالها ، فإن كانت تعلم أن مصير أموالها سيصير إلى زوال فإن النفوس ستقف وتفكر ملياً ، والآيات تبرز مصير أموال الكفار هذا فهو كمصير أعمالهم ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾[5]، ﴿ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾[6]، والنفس حين تعلم أن أحب شيء إليها ، وأعزّ شيء عليها ، وهو « المال » سيكون إلى فناء ، فإن هذا سيكون حافزاً للنفس أن تفكر فيما هي مقدمة عليه ، وهو ما يلمس من الآية : ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[7] . فالآية لها وقع كبير على النفوس وحافز كبير للتفكير ، إذ

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٩٩ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٣٦ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١١٧ .

(٥) سورة النور ، الآية ٣٩ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية ١١٧ .

(٧) سورة الأنفال ، الآية ٣٦ .

الكافر الذي ينفق من ماله حين يعلم أنه سيكون نتيجة إخراج المال هذا عدم تحقيق أي غرض من أغراضه ، بل إن عواقب هذا الإنفاق تعود عليه بالحسرة ، ثم فوق هذا يغلب ، فلم يظفر بأي منفعة مما كان يقصده ، فلا المال أبقاه فاستفاد منه ، ولا أرضى نفسه ، وأشفى غليله ، بل عادت عليه بالحسرة ، ولا النصر والفوز حقق ، بل غلب وهزم ، وفوق كل هذا يكون مصيره يوم القيامة أن يحشر في جهنم ، فهذه الأمثال تشكل صفعة في وجه الكافر ، أو من تحدثه نفسه بإخراج ماله ليصد عن سبيل الله ، أو يقف في طريق منهج الله تعالى .

بقي صنف من الناس حدثتنا عنه الآيات ـ فيما يتعلق بالإنفاق ـ وهو الصنف الذي لا ينفق وإنما يكنز ماله ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(1) .

فالآيات تبرز هذا الصنف من الناس ، وتبين موقفه تجاه المال ، وتبرز الحرص على جمع المال واكتنازه ، فيأتي التصوير ليبرز لنا مدى فضاعة الجزاء الذي ينتظرهم ، إضافة إلى كونه جزاءً حسيا هو جزاء نفسي ، وقد صورت الجباه والجنوب والظهور وهي تكوى ، وهي صورة ترتسم في الذهن ، لتتخيل دور هذه الأعضاء في اتخاذ هذا الموقف ، وهو موقف اكتناز المال ، وحبس منفعته عن الآخرين ، وربما كانت الأعضاء ذاتها قد رسمت مشهد الإباء والرفض والتعالي والإعراض عن السائل الذي أتاها يطلب بعض مالها ، وبهذا نجد أن المثل القرآني في آيات الإنفاق كان له دور كبير في إبراز دافع النفس الإنسانية نحو الإنفاق .

ثالثاً : يلاحظ في آيات المثل القرآني أنها كانت تركز على نفسية الطرفين في عملية الإنفاق « المنفِق » و« المنفَق عليه » .

أما نفسية المنفِق فقد عولجت بالنهي عن المنّ والأذى ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾(2) ، وقد تقدم الحديث عن ذلك ، وأما نفسية المنفَق عليه فقد بدا واضحاً

---

(1) سورة التوبة ، الآيتان ٢٤ .
(2) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .

كيف أن الخطاب القرآني كان حريصاً على المراعاة النفسية ، إذ من طبيعة النفوس أن تشعر بالدونية ، أو بشيء من الذلة تجاه الذي يعطيها ، فكانت المعالجة القرآنية لهذا أن صورت لهذه النفوس أنها تأخذ حقها ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾[1] ، فلا مكان للمنّة ، ثم إن المحتاج قد يضطر للسؤال ، والنفوس تنكسر بهذا السؤال ، فإن كان الغني سيعطي ، ثم يتبع هذا العطاء مناً أو أذىً ، فالذي لا يعطي مع حسن التعامل ومراعاة الشعور أفضل منه ﴿ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ۝٢٦٣ ﴾ ، فهذه المراعاة النفسية ضرورية ومقصودة وهي الأهم في مسألة الإنفاق ، إذ النفوس أكثر حساسية في التعامل مع هذه المسألة ، ولهذا كان المثل القرآني يركز على مسألة المراعاة النفسية هذه .

وهكذا نلحظ كيف أن المثل القرآني كان قد لعب دوراً بارزاً في إبراز الجانب النفسي في مسألة الإنفاق ، ولما لم يكن للبذل حد أدنى قد يقوم المرء بالإنفاق شيئاً بسيطاً لا ينبغي أن تشعر النفس بحقارة « المنفَق » ، إذ مجرد الإنفاق هو طريق لتهذيب النفوس ، ولعل آيات سورة التوبة تبرز هذا ، ومن هنا ندرك الوسائل النفسية التي كان يستخدمها المنافقون ضد المنفقين في سبيل الله ، فقد كانوا يلمزون بهم ويحقرون من قيمة المنفق : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] ، هذه الوسيلة النفسية التي كان يستخدمها المنافقون للضغط على النفوس المؤمنة .

رابعاً : يلاحظ إلى جانب كثرة الأمثال الواردة في مسألة الإنفاق أن الإيقاعات كانت قوية ومؤثرة ، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على وجود هذه النماذج على أرض الواقع ، فالقرآن يواجه حياة واقعية ، والأسلوب يشير إلى وجود نفوس شحيحة وأخرى محبة للمال . . ، وابتداء الأسلوب باستجاشة المشاعر والانفعالات الحية في الإنسان ، وهي السمة البارزة في الآيات ، كل ذلك دليل على أنها تعالج واقعاً .

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من دور تربوي تهذيبي للنفوس ، تريد أن ترتقي بالنفوس ، فتحول الصدقة إلى عمل تهذيبي لنفس المعطي ، كما تريد أن ترفع البشرية

---

(١) سورة المعارج ، الآيتان ٢٤ـ٢٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٧٩ .

إلى مستوى يكون الآخذ فيه والمعطي سواء ، تريد أن ترتقي بنفس المعطي ، فينفق إنفاقاً لا يؤذي كرامة ، ولا يخدش شعورا ، تريد أن ترتقي بنفس المعطي لينظر إلى هذا الآخذ المحروم على أنه سبب وأداة ساقه الله إليه ليكون سبباً في حصول الأجر ونوال أضعاف ما أعطى من مال الله .

خامساً : يلاحظ في آيات المثل الواردة في مسألة الإنفاق « في سورة البقرة تحديداً » ، أن المشاهد كلها كانت تعرض في محيط متجانس ، وجو متناسق محيط زراعي ـ كما يسميه سيد قطب[1] ـ فالألفاظ الآتية لا تخرج عن الجو الزراعي : ﴿سبع سنابل ، صفوان عليه تراب ، وابل ، جنة بربوة ، طل ، نخيل ، أعناب ، أنهار ، الثمرات ، إعصار ، ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ ، هذا الجو الذي لا يخرج المشاهد من الطبيعة الترابية يعود بطبيعة النفس الإنسانية إلى أصلها ، ويؤكد حقيقة الصلة بين التربة الأرضية وبين هذه النفس الإنسانية[2] ، فالنفس إن تذكرت أصلها كان ذلك أردع لها من أن تتعالى أو تمنّ ، فضلاً عن أن تبخل بالمال فلا تخرجه ، والنفس إن ذكّرت بالمعطي الحقيقي وهو « الله » عز وجل ، وربطت حصول المال بأسبابه ، ونبهت على أن مالك الأسباب هو الله ، إذ المال عرضة للمخاطر فهناك :﴿وابل ، إعصار ، نار﴾ إذن ستدرك النفس أن المال مال الله وأنه عز وجل وإن سأل العبد أن ينفق فهو الغني الحميد وحينها ستدرك النفس أن هذا المال سبيل إلى تطهير النفس وتزكيتها ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[3] .

سادساً : كان للمثل القرآني دور كبير في تشخيص النفسيات وإبراز المشاعر ، فالمحتاجون ليسوا على درجة ، فقسم منهم يطلب المال ويكسر الحاجز النفسي ، وهذا الصنف يناسبه الإنفاق علانية فهم يطلبون علانية ، وقسم منهم يمنعهم تعففهم ،

---

(١) انظر : قطب ، سيد : الظلال ، ١/ ٣١٠ .
(٢) قطب ، سيد : الظلال ، ١/ ٣١٠ ، بتصرف ، ويشير سيد إلى أن هذا المحيط يؤكد على حقيقة الحياة الثابتة في التربة والنفس ، كما يؤكد حقيقة المحق الذي يصيب النفس والتربة » ١/ ٣١٠ـ٣١١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٧٢ .

ويمنعهم خوفهم من جرح الشعور وانكسار النفس ، لا يلجأون إلى الطلب ، يضبطون مشاعرهم ويكتمون الحاجة ، لكن دقة التعبير القرآني تبرز حتى أدق المشاعر ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾[1] ، فالمشاعر النفسية تبدو على سيماهم ، وهم يدارونها في حياء ، ولا يلحظ ما وراء هذا الكتمان من مشاعر إلا ذو حس مرهف وبصيرة مفتوحة ، فهذه العبارة بمثابة المفتاح بأيدينا تمكننا من تحليل النفسية وتشخيص المشاعر والانفعالات ، كما تبرز لنا أثر الفقر على الملامح النفسية ، هذه النفوس حريصة على كتمان الحاجة وكأنها تستر عورة ، وهذا الصنف لا يناسبهم العطاء إلا سراً أو ليلاً ، فيأتي الأمر بالسر في النفقة : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] ، فيكون العطاء متناسباً مع حال هذا الصنف ، عطاء لا يخدش كرامة ولا يجرح شعورا : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[3] .

وهكذا نلمس أن المثل القرآني كان له الدور الأكبر في إبراز المعاني النفسية ، وإظهار المشاعر والانفعالات ، ومثل هذا يمكن أن يقال في بقية الأمثال ، إذ هي مشخصة مصوِّرة ، محللة للنفس الإنسانية .

وهناك طائفة من الأمثال التي ذكرها القرآن ، لا على أنها أمثال ، لكن العلماء أطلقوا عليها أنها بمثابة المثل ، وقيل عنها : « الأمثال الكامنة »[4] ، تحدث عنها علماء علوم القرآن ، فالأمثال الكامنة هي التي لا يصرّح القرآن بأنها أمثال مثل : ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[5] ، هذا النوع أيضا فيه جوانب نفسية ، لكن يكتفي الباحث بما تقدم للتدليل على دور المثل في إبراز الجانب النفسي .

* * *

---

(١) سورة البقرة ، ٢٧٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧٤ .

(٣) سورة البقرة ، ٢٧٣ .

(٤) انظر : السيوطي : الإتقان ، ٢/ ١٣٢ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية ٥٣ . سورة الروم ، الآية ٣٢ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

القصة القرآنية دراسة في الجوانب النفسية

تمهيد :

تشغل القصة في القرآن الكريم قرابة الثلث من آياته الخالدة ، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على أهمية القصة القرآنية ، والحديث عنها لا يلمّ به فصل في كتاب أو رسالة ، فهو أرحب من ذلك بكثير ، وقد حظيت القصة القرآنية بمكانة كبيرة في كتابات المسلمين ، ولا شك أن هذا يشير إلى تلك الأهمية التي تعطيها القصة القرآنية ، وكما لا يخفى أن جهود الباحثين في هذا الميدان لم يكن مقتصراً على الكتّاب من أبناء المسلمين ، بل تعدّاهم إلى المستشرقين والحاقدين من أعداء هذا الدين ، حيث حرصوا على أن ينفثوا سمومهم إلى القرآن الكريم من خلال قصصه .

والقصص القرآني بلا شك عبارة عن خلاصة لتجارب الأمم السابقة ، وقد تميز القصص القرآني بربانيته وواقعيته ودقته وشموليته ، فهو بهذا من أهم مصادر التربية بالنسبة للمسلم ، ولسنا في هذا الفصل بصدد مناقشة أو عرض سمات القصة القرآنية ، أو موضوعاتها ، أو الحديث عن أغراضها أو إبراز عناصرها أو مزاياها ، وإن كان كل ما ذكر له من الأهمية ما لا يخفى ، لكن لما كان هذا الفصل مقتصراً على الحديث عن الجوانب النفسية للقصة القرآنية ، فلا شك أن الباحث سيكون أسير هذا العنوان ولا يتجاوزه إلى غيره ، إلا فيما لا بد منه لبيان هذا الجانب .

لعل هذا الفصل يتمكن في ثناياه إبراز الجوانب النفسية من الإجابة عن كثير من الشبهات التي عرض لها الحاقدون على الإسلام حول القصة القرآنية ، حيث لوحظ أن الجانب النفسي أحد أبرز جوانب الإجابة عن كثير من الإشكاليات التي أثيرت حول القصة القرآنية .

كما لا يخفى أن القصة ميدان فسيح في الجانب التربوي ، فلعل هذا الفصل أيضاً

يصل مداه إلى تغذية هذا الجانب الذي لا تخفى صلته بعلم النفس المعاصر .

بداية لا بدّ من الإشارة إلى أنّ القصة في القرآن تسير باتجاهين ، أحدهما : بطريق الحوار ، والآخر بطريق الحكاية ، ولما كان الحديث عن الحوار قد تقدم ، كان لا بد من بيان موقع الحوار من القصة ، حيث يمكن إيضاحه بالآتي : من فوائد القصة أنها تلاحق القضايا الصغيرة في التاريخ ، ويكون تأمل الأحداث فيها هو المرشد ، أما الحوار فمن فوائده إضافة لما تقدّم أنه طريق لتنشيط الفكرة في مجالاتها جميعها ، كما أنه تجسيد للموقف ، وإشعار بالحركة والحياة المتجددة ، وانتقال من موقف لموقف ، لهذا وغيره كثر هذا اللون ـ الحوار القصصي ـ في القرآن الكريم .

لعل من أكبر نعم الله على أمة الإسلام أن حفظ القرآن رصيد البشرية من لدن آدم إلى قيام الساعة ، ونقل لنا خلاصة هذه التجارب بين دفتي المصحف ، فالمسلم يطّلع من خلاله على أمم وجماعات وأفراد وشخصيات دفنها التاريخ ، وطوتها صفحات الأيام ، يزيد من قيمة ذلك أنّ القرآن حفظ لنا هذه الأحداث مصحوبة بالدروس والعبر ، وفيها التوجيه السديد للسلوك الإنساني ، فقد لفت القرآن أنظارنا إليها في أكثر من موضع ، مؤكدا على ضرورة أخذ العبرة منها ، قال عز وجل : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[2] ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3] .

لقد قصّ الله علينا من أخبار الأمم والأفراد بما لا تحتاج الأمة معه إلى كبير جهد ، فالسلوك الإنساني مرّ برحلة طويلة في هذا الزمان ـ كما تقدمت الإشارة ـ وقد كان تميز القصص القرآني في هذا الجانب يضيف على السلوك الإنساني تجارب مضت ، حتى يصبح آخر من أنزلت عليه آيات القرآن قد تكاملت لديه صورة هذا السلوك الإنساني

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٩ . سورة الحج ، الآية ٤٦ . سورة غافر ، الآية ٨٢ . سورة محمد ، الآية ١٠ .

(٣) سورة الصافات ، الآية ١٣٧ .

بنوعيه السوي وغير السوي ، يذكر أن أول قصة حدثت على وجه الأرض عرضت لسلوكين أحدهما سوي ، والآخر غير سوي ، وأمة قد حوى قرآنها هذا الموفور العظيم من رصيد التجارب والنماذج البشرية ، حريّة بأن تولي هذا الجانب عناية كبيرة ، لتفيد منه في توجيه سلوك الأفراد والجماعات .

والفصل الذي نحن بصدد الحديث عنه يركز على تلك التجارب متناولاً إياها من الوجهة النفسية التي تعدّ أوفر الوجهات في هذا الميدان . فالقصة أغنى من أي شيء بهذه المعاني النفسية . لأن ما يقصه الله علينا يكون العنصر البشري فيه واضحا وبارزا ، ومدار القصص القرآني متركزاً حول هذا الأنموذج البشري ، والنفس البشرية ـ كما لا يخفى ـ أحد ركني الآيات التي أودعها الله في هذا الكون وطلب منا أن ننعم النظر فيها ، فقد قال عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١) .

ونظراً لما للقصة القرآنية من دور في إبراز السلوك الإنساني ، فإن التركيز في هذا الفصل سيكون أولاً على تلك المعاني النفسية التي تصحب شخصيات القصة القرآنية ، ثم يتبعها الحديث عن القصة كقصة ، ودورها الذي تلعبه من الجانب النفسي ، والجانب التربوي على حدّ سواء ، ثم بعد ذلك ، وهو ما تصبو إليه الدراسة ، تلقي الضوء على بعض النماذج البشرية التي نجد لها حضوراً في آيات الكتاب العزيز ، مع محاولة التركيز على أحد هذه النماذج .

يذكر أن الباحث كان قد تحدث عن المواقف القرآنية ، التي بينها وبين القصة صلة واضحة ، وتحدث عن الحوار الذي هو من أبرز عناصر القصة القرآنية .

سيحاول الباحث ـ ما أمكن ـ تجنب التكرار في حديثه عن القصة التي تشترك مع المواقف والحوار اللذين تمّ الحديث عنهما في بعض الجوانب ، لكن يود الباحث أن يشير إلى أنّ الطريقة التي سلكها في تناول ما يتعلق بالقصة اقتضتها المنهجية أولاً ، ثم محاولة منه للفصل بين ما يظن أنه واحد ، فالمواقف القرآنية ـ كما لا يخفى ـ تشمل القصة وتشمل ما لم يكن قصة ، والحوار يشمل ما فيه قصة وما لم يكن قصة ، والقصة ـ كما لا يخفى ـ لا يغني عنها ما تقدم ، فقد قصّ الله علينا قصة أقوام لم تكن لها

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

مواقف معينة تدخل في ميدان الموقف ، كما لم يكن فيها حوار فتدخل في إطار الحوار ، لذا لم يكن مناص من تناول هذه القصة من الجوانب النفسية ، ولعل القارىء يجد أسباباً أخرى كانت وراء هذا التناول بهذه الطريقة ، يمكنه أن يقف عليها بعد الاطلاع على مادة هذا الفصل ، يذكر أن أغلب الذين تحدثوا عن القصة من الوجهة الأدبية أشاروا إلى ضرورة وجود عناصر ، لا بد أن تشملها أية قصة ، من هذه العناصر : الحدث ، الشخصية ، الحوار .

ولا يخفى أن القصة القرآنية قد تميزت في هذا الميدان ، فقد انكبّ الناس على ما في القصص القرآني لدراسته من الوجهة الأدبية ، لكن أخطر هذه المسالك أن ينظر إلى القصة القرآنية تلك النظرة البشرية القاصرة ، حيث إن هذا الاتجاه أباح لنفسه أن يجعل العنصر الأدبي غرضه أولاً وآخراً هو المتعة النفسية ، بصرف النظر عن كون هذه الأحداث حقيقية أم غير حقيقية ، وهذا خلاف الواقع الحقيقي للقصص القرآني .

ولعل محور الانحراف الذي انطلق منه هؤلاء وانزلقوا فيه ، هو أنهم حين نظروا في القرآن أرادوا أن يطبقوا عليه ما درسوه في ضوء المناهج الحديثة والمعروفة عند الغرب من الوجهة الأدبية ، حيث ينظرون إلى أن للأديب والكاتب كامل الحرية في اختيار ما يحلو له من الأحداث صادقة كانت أم غير ذلك ، وإن كان لهؤلاء القوم العذر فيما ذهبوا إليه ، فليس لصاحب الدين الحق والقول اليقين أن يسلك هذا المسلك ، فلعل موقفهم من دينهم عموماً ، ومن كتبهم المقدسة على وجه الخصوص كان حتماً سينتهي بهم إلى ما وصلوا إليه ، أما وأن يتبنى مثل هذه الأمور من ينتسبون إلى هذا الدين ، فهو العجب وهو الذي يثير الدهشة .

هذا هو مكمن الخطورة في كتابات الذين ينادون بدراسة القصة القرآنية من الوجهة الأدبية ، وإلا فليس هناك أدنى شك في أن القصة القرآنية تعدّ من أبدع وأروع صور الأدب ، وأصدق أنموذج فني وأدبي عرفته الإنسانية ، فإن كانت الدراسة لهذا اللون تنطلق من هذا المنطلق فهي بلا شك ستقف على أروع صورة وأبدع لوحة أدبية وجدت لتنفذ من بين السطور إلى أعماق النفس .

القصة كقصة لها أثر كبير في النفوس ، ووقع كبير على القلوب ، وحظ القلوب فيها عظيم ، ولهذا كانت من أهم أركان تثبيت قلب النبي في بداية الرسالة ،

قال عز وجل : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1] ، وما ذلك إلا للدور الذي تلعبه القصة في النفوس ، والمكان الذي تشغله من القلوب ، ولا يخفى أن حياة الإنسان كلها قصة ، والتركيز على السلوك الإنساني هو العنصر الذي يصحب القصة ، وإنّ المتأمل في سنّة الله التي لا تتخلف يرى الاختلاف الذي ينشأ عن الصراع الذي يدور حول القصة كل هذا يؤدي إلى بروز القصة : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾[2] .

فالاختلاف يقتضي الحوار ، والحوار يفضي إلى الصراع ، والصراع يرسم الأحداث ، والنتائج تتركز حول السلوك الذي لا يخرج في إطاره العام عن أحد نوعين : (سلوك سويّ) يمثّله أهل الإيمان ، و(سلوك غير سويّ) يمثله الذين يقفون في وجه الدعوات .

المبحث الأول

الجوانب النفسية للقصة القرآنية

المطلب الأول : موقع القصة من النفس

ينبغي أن تقوم الدراسات النفسية في إطار الموقف النفسي العام ، لا دراسة الجزئيات فقط ـ كما هو الحال في بعض مجالات علم النفس الحالي ـ ، والقصة تلعب دورا بارزا في الجانب النفسي ، فهي :

تساعد على فهم متكامل للنفس الإنسانية في أبعادها : الجسمية والإدراكية والانفعالية ، إذ هي تارة تركز على الجانب النفسي ، وتارة على الجانب الإدراكي ، وكثيراً ما تسلط الضوء على خفايا النفوس ، وتبرز ما جبلت عليه ، أشبه بالتصوير ، فهي كذلك متناسبة مع غرض القرآن العام .

---

(١) سورة هود ، الآية ١٢٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٣ .

تقدّم نماذج للمربين ، وتعينهم على دراسة جوانب السلوك الإنساني .

والقصة عموماً ـ والقصة القرآنية على وجه الخصوص ـ تلعب دوراً بارزاً فيما يتعلق بعلم النفس الاجتماعي (أمم وحضارات) الذي يمكن تسميته بـ « السلوك الحضاري » ، وهذا وإن كان خارجاً عن إطار النفس إلا أنه داخل في إطار السلوك الجماعي ، والنفس بطبعها تجنح في بعض الأحيان إلى هذا السلوك الجماعي ، حتى تذوب هوية تلك الشخصية في الجماعة ، وهذا أمر ملموس بشكل واضح في الآيات ، سواء منها التي تتحدث عن فئة المؤمنين ، أم التي تتحدث عن المنافقين ، أم تلك التي تتحدث عن الكافرين ، إذ كثيراً ما تعطي الآيات وصفاً عاماً للسلوك الجماعي ، فعلى سبيل المثال لا الحصر عن المؤمنين تقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾[1] ، وعن المنافقين تصفهم الآيات : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[2] . . وهكذا ، فالوصف هذا عبارة عن إبراز لسلوك جماعي لهذه الفئة أو تلك وربما يكون من أبرز وأوضح ألوان السلوك الجماعي ذلك الذي كان حديثاً عن بني إسرائيل .

تلعب القصة دوراً بارزاً في تحريك المشاعر ، وإبراز العواطف ، وتثبيت الأفكار في الأذهان ، فهي لا تحتاج إلى جهد كبير لنقل أفكارها إلى النفس ، ونظراً لما لهذه القصة من دور كبير وأثر عظيم على النفوس ، فقد ألحّ علماء التربية على هذا اللون من ألوان التربية ، وهو أسلوب بارز في القرآن وواضح لتثبيت الأفكار المهمة كمسائل العقيدة .

كما لا يخفى ما للقصة من دور في التأثير على نفوس المخاطبين بها ، إذ لا تنتهي القصة إلا ويكون المستمع أو القارىء أو المشاهد قد عاش في تجربة نفسية ، وقطع رحلة طويلة بحسب طول القصة ، تترك في النفس آثارا وجدانية ونفسية وروحية[3] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٣ .

(٣) الخطيب : إعجاز القرآن ، ٢/ ٣٢٢ .

المطلب الثاني : القصة القرآنية ودورها النفسي :

فيما يلي استعراض لأهم الملاحظ النفسية التي تشتمل عليها القصة عموماً ، والقصة القرآنية على وجه الخصوص :

١) إثارة العواطف الإنسانية ، لأن من شأن النفس الإنسانية إذا مرّت بحدث من الأحداث أن تتفاعل معه ، وهذا لا يخفى أثره في القصة القرآنية ، فحين يقرأ القارىء مثلاً قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، عندما ألقاه أخوته في البئر ، لا شك أن مشاعره تتحرك ، وعواطفه تتأثر بهذا الحدث ، أو حينما ألقي موسى عليه السلام رضيعا في البحر ، أو قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام ، . . وغيرها مما قصه الله علينا .

٢) من أبرز العوامل النفسية في دعوة الرسول ﷺ من تثبيت ، وتسرية عن قلبه ، وتأسّ بالأخبار .

٣) دورها في إبراز عنصر التشويق ، فهي تشد القارىء لمعرفة التفاصيل ، وهذا أثر ملحوظ ، خاصة حينما يعرض حدث من أحداث القصة أولاً ، ثم يعقبها حديث عام ، لا شك أن النفس تتشوف وتتشوق لسماع تمام القصة ، ولعل من ذلك ما كان في مطلع قصة يوسف عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[١] ، إذ تتطلع النفس بعد سماعها لهذه الآية بكل شوق إلى معرفة تأويل هذه القصة وتمامها ، تهيىء النفس ، وتحفز الوجدان والانفعال ، وتملأ الإنسان شوقاً إلى تلقي ما فيها من أخبار[٢] ، دلت التجربة التربوية على أن أشدّ المواعظ الدينية نفاذاً إلى القلوب ما عرض في أسلوب قصصي ، يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص ، والتأثر بالأحداث والانفعال بالموقف ، فالقصة القرآنية تشتمل على تربية دينية لها أثر عميق في النفوس[٣] ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾[٤] فالنفس حين تسمع

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٤ .

(٢) للمزيد انظر : النجلاوي ، عبد الرحمن : التربية بالعبرة ، (بيروت : دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٩٤م) ، ص ٩١ .

(٣) نقره : سيكولوجية القصة ، ٢/ ٥٤٤ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٩ .

هذا الأسلوب تتطلع إلى معرفة : من هم أصحاب الكهف ؟ ويثير في النفس تساؤلاً عنهم . والنفس حين تستعرض قصة من قصص القرآن تشعر بمتعة عجيبة ، قد يصعب وصفها ، فهي مشدودة إليها ، حريصة على معرفة أحداثها ، وهذا ملموس في قصص القرآن كله إذ تبقى النفس مشدودة إليه تحس بمتعة خفية وتعليل ذلك أنها تجد إشباعاً لرغباتها في هذه القصة ، فالقصة القرآنية واقعية ، تحكي قصة النفس ، وهي في شوق إلى معرفة المزيد عن حقيقة هذه النفس .

٤) القصة القرآنية لها دور كبير في إعطاء النفس دروساً عملية في السلوك الإنساني الذي تدعو إليه ، فهي من ناحية تربيّ النفس الإنسانية على الاقتداء بالشخصيات السوية واجتناب الشخصيات غير السوية ، وقد نص القرآن في غير موضع على أن الغرض من القصص هو أخذ العبرة : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١] ، وبهذا فإن النفس تتعلم عن طريق أخذ العبرة أمراً مهماً في الحياة النفسية ، إذ العبرة في حقيقة الأمر عبارة عن : حدوث تغيير نفسي وعقلي وسلوكي نتيجة لتأثير وجداني عقلي بقصة أو حدث من الأحداث[٢] .

٥) كما أن القصة تلعب دوراً مهماً في تحريك الكثير من الجوانب النفسية ، فهي أولاً تساعد على اختزان الخبرات في الذاكرة ، ويمكن استدعاؤها عند الحاجة إليها ، وذلك من أجل الاعتبار بها والاستفادة منها في تعديل السلوك[٣] ، كما أنها تعين على

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

(٢) النحلاوي : التربية بالعبرة ، ص ٨٣

(٣) يذكر أن استدعاء المعاني هذا مرتبط بقانون يطلق عليه عند علماء النفس بـ « تداعي المعاني » تقدمت الإشارة إليه ، لكن يذكر أنه يرتبط به عدة قوانين ، وتفصيلها كالآتي : قانون التردد : ويقصد به كلما كان ترداد الذكريات إلى ساحة الشعور أكثر كان استحضارها أسهل ، قانون الحداثة والذي يعني : أن رجوع الذكرى الحديثة إلى ساحة الشعور أسهل من رجوع الفكرة القديمة ، قانون الشدة : كلما كان تأثير الحوادث في نفوسنا أقوى كان إلى الحضور أميل والصيغ القوية تكون أسهل استدعاء من الصيغ المبهمة ، قانون المدة : كلما كان زمن الاقتران أطول كان إلى التداعي أقرب ، قانون ثبات الملابسات : في حال تغير الظروف الخارجية التي صاحبت اكتساب الذكرى يصبح استدعاؤها أصعب وأشق ، كما يتعذر الاستدعاء أحياناً في الظروف الاستثنائية ، انظر مراد : مبادىء علم النفس العام ، ص ٢٢٤ـ٢٢٦ ، وانظر : صليبا ، جميل : علم النفس ، (دمشق : المكتبة ، د . ط ، ١٩٤٨م) ص ٤١٥ـ٤١٦ ، =

إثارة الانتباه للتأثر بما يستدعيه الإنسان أو بما يعرفه علم النفس بـ « التذكر »[1] ، وتفصيل ذلك أن هذا التذكر يحدث ضمن آليات معينة ، فصّل علماء النفس المحدثون فيها القول ، وأشاروا إليها ، يمكن أن نشير إلى بعضها مبينين بعض الأمثلة من القصة القرآنية التي تساعد على فهم هذه الآليات .

من العوامل التي تعين على التذكر اقتران حالتين نفسيتين معاً في الشعور يولّد بينهما ارتباطاً ، فإذا خطرت إحدى هاتين الحالتين بالبال ذكّرت بالأخرى ، وقد يمر بالمرء حدث ما فيذكره بمثله ، ومما يصلح مثالاً لذلك من القصص القرآني ما حدث مع يوسف عليه السلام حين دخل السجن دخل معه فتيان ، ارتباط الحال هذا ولّد ارتباطا بينهما وذلك لتشابه الحالتين من الناحية النفسية ، لكن الأدقّ من هذا هو أن يوسف عليه السلام كان قد عبّر الرؤيا التي قصّها عليه صاحبا السجن ، وعرف الذي نجا منهما صدق يوسف لمّا وقعت كما أخبر ، وبعدها خرج من السجن ، يحدثنا القرآن أن هذا الناجي تذكّر يوسف عندما مرّت به حادثة مماثلة وهي رؤيا الملك ، فرؤيا الملك ذكّرت بحال يوسف في الرؤيا ، ولذلك كان قوله تعالى معبرا عن ذلك الشعور : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ . . ﴾[2] .

ومن ذلك أن الأحوال المتشابهة يذكّر بعضها بعضاً ، فمثلاً حينما جاء أخوة يوسف يطلبون من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم وأنهم سيحفظونه ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3] ، كان هذا الحدث مذكراً ليعقوب عليه السلام بحدث آخر مشابه له ، وهو أنهم كانوا قد طلبوا منه أخذ يوسف من قبل ، ولذلك قال : ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ

= وانظر : قنديل : معجم علم النفس ، ص ٩٦ ، وانظر : منصور : أسس علم النفس ، ص ٢٦٣ وما بعدها .

(١) للمزيد انظر : منصور : أسس علم النفس ، ص ٢٦٠ وما بعدها . وانظر : مراد : مبادىء علم النفس العام ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) سورة يوسف ، الآيتان ٤٥ـ٤٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٦٣ .

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1] ، ومثله يمكن أن يقال : حينما أخبر أخوة يوسف أباهم بما حلّ بأخيهم ، وقال قولته المشهورة : ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾[2] ، وهنا يكون التذكر للحدث المشابه ، وهو ما حدث ليوسف ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾[3] ، ومن هذه العوامل المعينة على التذكر الأحوال المتضادة ، حيث يدعو بعضها إلى بعض ، والقاعدة معروفة أن الأشياء تتميز بأضدادها ، قد يصلح مثالا لهذا قوله تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[4] .

ومن الأمور المتعلقة بالنفس ، والتي تحركها القصة القرآنية ، ترجمة نتائج التفكير إلى سلوك[5] . إذ من أهم عوامل التأثير بالقصة الحث على التفكير في الأحداث بعد سماعها ، فمن طبيعة النفس أنها إذا سمعت شيئاً فكّرت فيه ، وقد طلبت الآيات منا ذلك في أكثر من موضع كقوله تعالى : ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾[6] ، و﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾[7] ، و﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾[8] ، كل ذلك حث للنفس على التفكير ، وبالتالي يكون من نتائجه أن يترجم إلى سلوك مكتسب من تلك الخبرة ، بحيث نتجنب السلوك السيىء ، والذي يؤدي إلى الهلاك أو دخول النار .

تربية العقل على الاهتمام بالنتائج وعواقب الأمور ، إذ تصبح لدى المستمع ملكة تمكنه من الربط بين المقدمات ونتائجها ، أو بين الأسباب ومسبباتها ، وهذا أمر

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٦٤ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٨و ٨٣ . ومثله : ومثله أيضاً ما قصه الله علينا من شأن موسى عليه السلام مع القبطي ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ ١ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٨٤ .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٩٦ .

(٥) النجلاوي : التربية بالعبرة ، ص ١٢٦ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٨٤ .

(٧) سورة فاطر ، الآية ٤٤ . سورة غافر ، الآية ٢١ .

(٨) سورة طه ، الآية ١٢٨ .

مقصود وواضح من سرد القصة القرآنية : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2] .

المطلب الثالث : الجوانب النفسية في أسلوب عرض القصة القرآنية

في هذا المطلب سوف يسلط الباحث الضوء على الجوانب النفسية والفنية التي قصد إليها الأسلوب القرآني في ثنايا عرض القصة القرآنية ، والطريقة التي كان يعرض القرآن الكريم فيها قصصا ، ولعل ذلك يبرز من خلال النقاط الآتية :

أولا : تنوع القصص

نلمس التنوّع في قصص القرآن الكريم من جوانب عدة ، فتارة نجد فيه قصة شخص وتدور الأحداث حوله من بداية السورة إلى نهايتها كما في سورتي يوسف ونوح عليهما السلام وتارة يعرض من القصة ما ينسجم مع الواقع النفسي للسورة الذي وردت فيها القصة ، وتارة نجد أن القصة تتركز حول فكرة من الأفكار . . وهكذا ، في هذا التنوع ـ بلا شك ـ إشباع للجانب النفسي ، وتلبية لرغبات النفوس التي تميل إلى التنويع وتملّ الرتابة . كما أننا نلمس هذا التنوع في عرض القصة الواحدة ، حيث نجد التركيز تارة على الجانب العاطفي ، وتارة على الجانب الفكري ، وذلك بحسب السياق الواردة فيه ، ولعل أصدق مثال على ذلك قصة موسى عليه السلام حيث كانت من أكثر القصص وروداً لكنها في كل مرة تسلط الضوء على جانب من الجوانب يتناسب وموضوع السورة من جهة ثم والسياق الزمني لمراحل الدعوة التي كان يمرّ بها الرسول ﷺ من جهة أخرى ، وهذا بلا شك له قيمة نفسية .

وقد لوحظ أن أغلب القصص القرآني كان يتركز في الفترة المكية ، ولم يرد منه في الآيات المدنية إلا القليل ، وذلك منسجم مع نفسية الرسول من جهة ، ثم نفسية أتباع الرسول من جهة أخرى ، ثم نفسية المشركين من جهة ثالثة .

أما نفسية الرسول ﷺ فهو في بداية الدعوة ـ وهو يدعو إلى عقيدة ودين جديد ـ بلا

---

(١) سورة القصص ، الآية ٧٨ .

(٢) سورة الصافات ، الآيتان ١٣٧ـ١٣٨ .

شك سيواجه صدوداً شديداً ـ وقد واجه حقاً ـ وكان ذلك يؤثر في نفسيته ، إذ هو حريص على إيمانهم ، وقد سجّل القرآن طرفاً من ذلك في أكثر من موضع ، إذ قال عز وجل : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[1] ، ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[2] . إذن هو بحاجة إلى قصص يسليه وأسوة تسري عنه ، ولهذا جاء بعد الآيات المذكورة من سورة الكهف قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾[3] فالقصص يؤدي وظيفة نفسية في حياة الرسول ﷺ الدعوية ، خاصة في مراحلها الأولى ، ولذلك كان قوله عز وجل : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

وأما بالنسبة لنفسية المؤمنين فلا يخفى ذلك الدور النفسي الذي كان يلعبه القصص القرآني في تثبيت نفسية المؤمنين على الحق ، وتسلية نفوسهم والتسرية عنهم بذكر نماذج من المؤمنين واجهوا في سبيل الدعوة مثلما قاسوا بل ربما يزيد[5] ، فيكون لذلك مكان في نفوس المؤمنين ، وهذا متلائم مع الفترة المكية التي كان المسلمون يواجهون التعذيب والاضطهاد من المشركين بخلاف الفترة المدنية التي استقرت فيها مبادىء الدّعوة ، وظهرت شوكة المسلمين .

وأما مناسبته لنفسية المشركين ، فذلك لما في هذا القصص من جوانب الترغيب والترهيب ، ترغيب لهم في الدخول في صف الإيمان والدعوة الجديدة ، وتكون لهم العاقبة والنجاة كما كان للأقوام التي آمنت برسلها ممن قصّه الله عليهم ، وترهيب لما سيتعرضون له من نتائج ومصائر الأمم التي كذبت برسلها فهي فيها التهديد ، وكثيراً ما كانت الآيات صريحة في الإشارة إلى هذا ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ

(١) سورة الكهف ، الآية ٦ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ٨ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ١٣ .
(٤) سورة هود ، الآية ١٢٠ .
(٥) كما هو واضح من قصة أصحاب الأخدود ،

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[1] ، وكقوله : ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾[2] ، وكقوله : ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[3] ، وغيرها كثير ، فهذه الآيات فيها التحذير الواضح من أن تكون عاقبة المكذبين بالرسول محمد ﷺ كعاقبة المكذبين من قبل ، فيكون لهذا القصص أثر كبير على نفسية المكذبين ، ولعل هذا الشيء هو الذي دعا عتبة بن ربيعة أن يضع يده على فم الرسول ﷺ ويناشده الرحم ألا يستمر عندما وصل إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[4] .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٩ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٦٩ .

(٣) سورة الحشر ، الآية ١٥ .

(٤) سورة فصلت ، الآية ١٣ ، ورد بهذا الخصوص حديث طويل ، ذكره الشوكاني : فتح القدير ، ٤ ص/ ٥٠٤ :

أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : « اجتمع قريش يوما ، فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ، فقالوا : ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ؟ ، فقالوا : ائت يا أبا الوليد ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا ، وأن في قريش كاهنا ، والله ما تنتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجنك عشرا ، فقال رسول الله : فرغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم : «﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ » ، فقال عتبة : حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال : لا ، فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، فقالوا : فهل أجابك ؟ قال : والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا : ويلك يكلمك الرجل بالعربية ، وما تدرى ما قال!! قال : لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة».

انظر : مسند أبي شيبة، ٤/ ٩١ ، ومسند أبي يعلى ، ٣/ ٣٥٠. =

ووجه آخر لمناسبة نفسيتهم أن النفس في العادة لا تسمع للكلام الطويل ، بهذا يمكن تعليل السرّ في كون القصص في البدايات كانت آياته قصيرة ، فهي تحمل رسالة قصيرة .

وبهذا نلمس أن القصص القرآني كان له دوره الأكبر من الناحية النفسية ، ويمكن أن يقال بشكل أوضح إن أسلوب القصة القرآنية كان يراعي المرحلة الزمنية للدعوة ، وتحديداً نفسية الرسول ﷺ وأصحابه ، وهذا التدرج المرحلي الذي مرت به في لدعوة نلمسه من خلال القصص ، توضيح ذلك كالآتي[1] :

لوحظ أن السور التي نزلت أولاً ، والتي ذكر فيها القصص خلت من الحوار ، وهذا ـ بلا شك ـ مناسب للمرحلة السرية للدعوة ، إذ لم تكن مواجهة ولم يكن حاجة للحوار ، ثم بعدها بدأ يبرز عنصر الحوار ، وأخذ يتطور أكثر فأكثر ، تمشياً مع مراحل الدعوة التي مرّ بها المسلمون ، والحوار كان له دوره في صنع الجو النفسي المتلائم مع المرحلة .

لوحظ أن القرآن كان يختار من القصص ما يناسب المرحلة التي تمرّ بها الدعوة فتكون تهيئة للجو النفسي الذي يعيشه المسلمون من جهة ، وتسلية لهم على أمم قبلهم مرّت بما يمرون به من جهة أخرى ، وهذا ملاحظ بشكل ملفت للأنظار .

ففي البدايات كان القصص يأتي عابراً ، أشبه باللمحات ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[2] ، وهي ـ كما لا يخفى ـ تهدف إلى التأثير على نفسية المشركين ، ولما تشتد الخصومة ويقبل بعض الناس على هذه الدعوة الجديدة ، يبرز عنصر الحوار ، ثم لوحظ أن عناصر القصة (الشخصيات ، الزمان ، المكان ، الأحداث) بدت أكثر وضوحاً كلما تقدم زمن الدعوة ، حتى الرنين

---

(١) يشار إلى أن محمد أحمد خلف الله كان قد أشار في كتابه الذي أحدث ضجة كبرى في نهاية الأربعينات من القرن المنصرم ، وكان أشار إلى بعض اللفتات ، لكنه توصل في النهاية إلى نتائج غاية في الغرابة ، فالذي يقرأ هذا يلحظ أنه حريص على أن يثبت أن القرآن كان في ذلك مسايراً لنفسية الرسول ومعاصريه ، ولا يساير نفسية المتحاورين ، وهذا له من الخطورة ما لا يخفى . انظر : الفن القصصي في القرآن ، ص ٣٠٢ وما بعدها .

(٢) سورة الأعلى ، الآيتان ١٨ـ١٩ .

الصوتي وجرس الألفاظ كان مقصوداً في كل مرحلة من المراحل ، ففي الوقت الذي كان (القصص الأولي) الذي نزل في المراحل المبكرة من الدعوة ، نجد أن الرنين الصوتي والإيقاع الجرسي أبرز من غيره ، وهذا متناسب مع عاطفة الرسول ﷺ الجياشة والمندفعة في بداية الأمر ، فكأنّ هذه الإيقاعات تعبير عن نفسية الرسول ، واندفاعه للدعوة ، وتحمسه لها مع استمرار أمره ، ولعل فيما أشار إليه بعض المعاصرين[1] من أن كثرة الانتقالات الفجائية في القصة في المراحل الأولى كانت معبرة عن هذه العاطفة المندفعة)[2] .

ثم بتقدم مراحل الدعوة نجد أن الأسلوب القصصي بدأ يبرز فيه عناصر وأساليب أخرى ، كأسلوب المشاركة الوجدانية والتنفيس التي تسهم في تسلية نفس صاحب الدعوة وأتباعه على حدّ سواء ، ثم أسلوب العنف مع شيء من التقريع والزجر والتعنيف على أولئك المعاندين ، والحث على إعمال العقل كوسيلة للتخلص من هذه العقائد الباطلة .

مما يؤكد التناسب بين القصص المعروض وبين المراحل التي تمرّ بها الدعوة ما نجده مثلاً : في بدايات الدعوة كان أغلب القصص يشتمل على ضمير العظمة : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[3] ، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾[4] ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾[5] ، ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[6] .

---

(١) خلف الله : الفن القصصي في القرآن ، ص ٣٠٣ وما بعدها .

(٢) والباحث إذ يوافق الكاتب فيما ذهب إليه في هذا ، لا يوافقه فيما خلص إليه بعد هذا الحديث وهو : أن القصص القرآني لا يمثل شخصية المتحاورين أو عواطفهم النفسية ، بل إن القصص القرآني يبرز الجوانب النفسية لكل من المتحاورين والمخاطبين ، وهو ما نلمسه بشكل واضح من خلال الآيات الكريمة ، كما لا يوافقه في كون عاطفة الرسول كانت مندفعة في البداية ثم بدأت تتناقص » ، خلف الله : الفن القصصي في القرآن ، ص ٣٠٥ .

(٣) سورة القلم ، الآية ١٧ .

(٤) سورة المزمل ، الآية ١٥ .

(٥) سورة المدثر ، الآية ٣١ .

(٦) سورة المرسلات ، الآيتان ١٦ـ١٧ . ومن ذلك ما نجده في سورة (ق) .

ثم أخذ الأسلوب يتنوع ، فقد لوحظ في الفترات التي كان يلمز المشركون بالرسول ﷺ ويلمحون بأن الله قد قلاه (هجره) وتخلى عنه ، نلمس أن لفظ ﴿ رَبَّكَ ﴾ يبرز في هذه المرحلة والذي يشير إلى أن الله عز وجل معه وناصره ومربيه ، وفيه نوع من التشريف ونلمس هذا في سورة الفجر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾[1] ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[2] ، ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾[3] ، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[4] .

ومن ذلك ما نجده في سورة الفيل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[5] ، وتأتي الأحداث التي تبين كيف أن الله ينتصر لأنبيائه بشيء من التفصيل ، لكنه متناسب مع تلك المرحلة ، ومن ذلك ما نجده في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾[6] ، إذ لا يخفى ما في الصيغ المتقدمة من الإشارة إلى عناية الله برسله وتدخله لنصرتهم .

ثم لما يشتد الأذى ، وينزل الضيق بالرسول ﷺ ، حيث هو حريص على إيمانهم ، ويفكر فيهم كثيراً ، نجد أن الآيات تتنزل للتخفيف النفسي عنه في هذا الجانب ، ولعل خير مثال لذلك سورة هود إذ في مقدمتها : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾[7] ، وتبقى الآيات تتنزل ، والقصص يتوارد في السورة ليكون له الدور الأكبر في تثبيت قلب النبي ﷺ ، ويكون ختام القصص في السورة : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[8] ، والملاحظ أن القصص الذي ورد في سورة هود عليه السلام كان يعكس النفسية التي كانت تحيط بأصحاب الدعوة آنذاك .

فلو دققنا النظر في قصة نوح عليه السلام التي وردت في السورة سوف نجد كثيراً من

---

(١) سورة الفجر ، الآية ٦ .
(٢) سورة الفجر ، الآيتان ١٣ـ١٤ .
(٣) سورة الفجر ، الآيتان ١٥ـ١٦ .
(٤) سورة الفجر ، الآية ٢٢ .
(٥) سورة الفيل ، الآية ١ .
(٦) سورة القمر ، الآية ٩ .
(٧) سورة هود ، الآية ١٢ .
(٨) سورة هود ، الآية ١٢٠ .

أوجه الشبه بين المراحل التي مرّ بها نوح عليه السلام والمراحل التي مرّ بها الرسول ﷺ : اعتراضهم على بشرية الرسول ، ثم اعتراضهم على أن اتباعه من الضعفاء وأرذال الناس : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] ، ثم طلبهم من النبي أن يطرد الضعفاء والفقراء حتى يفكروا في الدخول في هذا الدين : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2] ، وهذا حقاً ما نجده من موقف المشركين من الرسول ، إذ هم تعللوا بما تقدم وطلبوا ما تقدم ، فالموقف متشابه تماماً ، فلو نظرنا في سورة الأنعام فإننا سوف نجد أنها تستعرض أقوال المشركين ، وكأنها عين الذي قالها قوم نوح ، فعن اعتراضهم على بشرية الرسول يحدثنا القرآن : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[3] ، وعن طلبهم طرد المؤمنين نجد ذلك في نهي الرسول عن طردهم : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ ﴾[4] ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[5] ، بل إننا لو قمنا بمقارنة سريعة للموقفين لوجدنا أن الموقف متشابه ، فنوح عليه السلام في سورة هود يقول لقومه : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[6] ، وفي الأنعام يؤمر الرسول ﷺ بالكلام نفسه : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ ﴾[7] .

وفي هود يؤكد سيدنا نوح عليه السلام كونه على بينة من ربه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

---

(١) سورة هود ، الآية ٢٧ .
(٢) سورة هود ، الآية ٣٠ .
(٣) سورة الأنعام ، الآيات ٨ـ٩ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية ٥٢ .
(٥) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .
(٦) سورة هود ، الآية ٣١ .
(٧) سورة الأنعام ، الآية ٥٠ .

كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾[1] وفي الأنعام في السياق نفسه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾[2] وفي هود نجد أن قوم نوح يطلبون العذاب ويستعجلونه : ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3] ، وفي الأنعام يكون الطلب نفسه : ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[4] ، ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5] ، وهكذا حتى نحس أن قصة نوح عليه السلام هي قصة محمد عليه السلام مع قريش ، ولعل هذا هو الذي يمكن به فهم الآية التي توسطت قصة نوح في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[6] ، إذ الغالب أنها تتحدث عن القرآن فكأنّ السياق لشدة التحامه وتشابهه يحكي قصة واحدة ، والله أعلم .

فما في قصة نوح عليه السلام يحكي في الواقع قصة قريش ، وما في الفرقة بينه وابنه يحكي قصة الفرقة الدينية في قريش .

بل إننا نجد أحياناً أن بعض القصص يعيننا على ترجيح الفترة التي نزلت فيها الآيات ، وذلك لمناسبتها للمرحلة التي نزلت فيها ، من ذلك قصة مؤمن آل فرعون في سورة غافر ، كأنها تمثل المرحلة التي كانت قريش تتآمر فيها على قتل النبي ﷺ ، في حين نجد أن بعض الناس كانوا يحاولون صرف المشركين عن قتل النبي ﷺ ، وقصة الرجل المؤمن الذي جاء ليخبر موسى بائتمار القوم على قتله﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[7] ، هذه فيها تلميح واضح بنوايا المشركين ، ومتناسب مع المراحل التي مرّ بها الرسول ﷺ ، بل إنها تكشف عن الائتمار الذي دبره أهل مكة للرسول ، وكأنها تحمل رسالة إلى

(١) سورة هود ، الآية ٢٨ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٧ .
(٣) سورة هود ، الآية ٣٢ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية ٥٧ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية ٥٨ .
(٦) سورة هود ، الآية ٣٥ .
(٧) سورة القصص ، الآية ٢٠ .

النبي ﷺ تعلمه بما يضمرونه له من تبييت القتل[1] .

وفي الفترة التي توفي فيها زوج الرسول ﷺ وعمه أبو طالب ، تأتي حادثة الإسراء ، وتبعث الأمل من خلال ما قصته السورة بشأن هذه الآونة في المستقبل ، وصراعها مع اليهود وقصة موسى عليه السلام ، ولا يخفى ما في سورة يوسف من أثر في التسرية عن النفوس ، خاصة وأنها تماثل في أحداثها المرحلة التي صاحبت النزول .

وفي المراحل التي كان الرسول ﷺ يبحث عن مكان آمن للدعوة وكان التفكير بالهجرة ، نجد أن الآيات تعرض قصصاً مماثلاً .

فسورة الكهف وما اشتملته من قصص تبرز فيها معاني الهجرة والفرار في سبيل الدعوة وحمايتها .

وما ورد في سورة العنكبوت ـ وهي تمثل المراحل التي سبقت الهجرة ومهدت لها ـ نلمس أن ما عرض فيها من قصص كان يلقي الضوء على هذه المعاني ، ولعل ما ذكر صراحة على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ ﴾[2] ، يشير إلى هذه المرحلة ، وهكذا يمكن أن يقال في بقية القصص ، ولعل فيما تقدم الكفاية للتدليل على ذلك .

أما عن القصص في المرحلة المدنية فقد كان الأمر فيه مختلفاً ، إذ كان القصص قد اختلف من حيث كمية الورود ، ثم من حيث الأسلوب ، ثم من حيث موضوعات القصص الوارد ، وكل ذلك كان متناسباً مع المرحلة الجديدة التي كانت مرحلة التأسيس للدولة الجديدة ، ومرحلة الاستقرار وتشريع الأحكام ، فالملاحظ أن ما كان يأتي من قصص في هذه المرحلة كان غرضه متناسباً مع موضوع الآيات ، ومنسجماً مع بيان الأحكام والتشريعات الجديدة ، إذ لوحظ أن القصة تظهر لبيان وكشف صفات العناصر الجديدة التي برزت في الفترة المدنية : « كأهل الكتاب » بحكم كونهم مجاورين لهم في المدينة ، ثم بروز حركة النفاق فأخذت الآيات تبرز عناصر وصفات هذه الحركة .

---

(١) وهو ما ألمح إليه خلف الله ، انظر : الفن القصصي في القرآن ، ص ٣٢٧ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٢٦ .

وقد لوحظ أن القصة المدنية تُعرض بلا مقدمات ولا نتائج ، بل تعرض في سياق الآيات ، فهي بمثابة الدليل تتحدث عنه الآيات .

من ذلك ـ مثلاً ـ قصة « ابني آدم » في سورة المائدة ، جاءت في سياق بيان بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالاعتداء على النفس ، والذي منه القتل ، والسورة كلها في بيان العدل في الحكم والنهي عن العدوان ، وهذا بارز في السورة : إذ فاصلة الآية الأولى إشارة إلى الحكم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾[2] ، وتضرب نماذج من الاعتداء : ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١﴾[3] ، ولذلك كثرت فيها ألفاظ : الأثم ، العدوان ، الجزاء ، الحكم[4] ، العدل ، القسط ، ميثاق ، القول الحق .

إلا أن هاهنا نقطة ينبغي التنبه لها وعدم إغفالها ، وهي أنه مع أن القصص القرآني كان يعرض من الأحداث ما يناسب تلك المرحلة ، فهو في الوقت ذاته حديث عن قصة الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل في كل زمان ، فلا يخلو زمان من وجود نماذج مشابهة لمن تحدث عنه القرآن الكريم كما يسميه بعض المحدثين « شبابية القرآن »[5] .

وقصة البقرة في سورة البقرة جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل وبيان صفاتهم ، وكذا الشأن في باقي القصص الوارد عن بني إسرائيل في السورة .

وقصة سيدنا عيسى عليه السلام ابن مريم وآل عمران في سورة آل عمران جاءت منسجمة مع موضوع السورة الذي يتحدث عن أهل الكتاب ، وتحديداً عن النصارى

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٢ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ١١ .

(٤) سورة المائدة : ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ . . . وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ . . .﴾ الآية ٤٢ ، ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ الآية ٤٣ ، ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ الآية ٤٤ ، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾الآيات ٤٤ـ ٤٥ ، ٤٧ ، ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ﴾الآية ٤٧ ، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية ٤٨ ، ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية ٤٩ ، ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ الآية ٥٠ .

(٥) كما يسميه النورسي في كلياته عند حديثه عن إعجاز القرآن ، انظر : الكليات ، ص٧٠ .

وصلة النصرانية باليهودية ، فكل منهما يدعي أنه على ملة إبراهيم ، ولهذا جاء الحديث عن سيدنا إبراهيم في السورة ليبين وجه الحقيقة فيما هم عليه ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1] .

وهكذا نلمس أن ما ورد من قصص في الفترة المدنية ، إما أن يكون للتدليل على ما تتحدث عنه الآيات من أحكام ، أو يكون من الأحداث التي وردت في تلك الفترة ، أي أحداث عاصرت التنزيل وهي الغالب ، أو تتحدث عنها وتكشف جوانبها كالحديث عن المنافقين ، وشأنهم مع الدعوة الجديدة ، أو أحداث من السيرة ، كغزوة بدر في سورة الأنفال وغزوة أحد في سورة آل عمران ، وبني النضير في سورة الحشر ، والخندق في سورة الأحزاب ، والإفك في سورة النور . وهكذا ، وهي في هذا كله تناسب الجو النفسي لصاحب الدعوة وأتباعه .

ثانيا : تنوعها في أسلوب العرض[2] :

لم تكن طريقة عرض القصة في القرآن واحدة ، بل إنها تنوعت لتشمل الجوانب النفسية كلها ، وفي هذا التنوع ما فيه من التأثير في الناحية النفسية ، هو منسجم مع ما تتطلع إليه النفس الإنسانية ، ويمكن إبراز مظاهر التنوع في أسلوب العرض في النقاط الآتية :

أحياناً يؤتى بالحدث هكذا نقلاً دون تدخل في الرواية ، أو حاجة إلى حكاية ما قيل على ألسنة شخصيات القصة ، حتى لكأنّ القصة في هذا عبارة عن عنوان لمشهد من المشاهد ، يعرض أمام السامع ، وكأنه شاهد هذا الحدث ، ومن ذلك قوله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل في مشهد بناء الكعبة : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[3] .

اعتماد الحكاية والرواية في نقل الأحداث حتى تكون السمة الغالبة على القصة هي

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٥ .

(٢) انظر : عوضين : البيان القصصي في القرآن ، (الرياض : دار الأصالة للثقافة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٩٠م) ، بتوسع ص ١٢٣-١٣٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٢٧ .

الحكاية ، وفي هذا اللون من القصص نجد التزام لفظة ﴿ قَالَ ﴾ في بداية كل مشهد ، من ذلك قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح وقصة موسى عليه السلام في مواجهة سحرة فرعون وقصة صاحب الجنتين .

غالباً ما يعتمد القرآن في ذكر القصص على الجمع بين الأسلوبين المتقدمين ، إذ نجده تارة يعرض بعض مشاهدها بالوصف والتصوير ، وتارة بالحكاية والرواية ، وهذا النمط كثير في القرآن ، من ذلك قصة يوسف عليه السلام ، قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ ، قصة موسى عليه السلام وفرعون ، وغير ذلك كثير . وغاية ما يمكن أن يقال في هذا أن موضوع القصة من جهة ، والغاية أو الغرض من سردها من جهة أخرى ، هما اللذان يتحكمان في أسلوب العرض ليتناسب مع ذلك .

أحياناً يقدّم للقصة ما يشبه التمهيد الذي يكون تارة بمثابة التلخيص لموضوع القصة ، فيكون القارىء على علم بالنتيجة قبل أن يبدأ بها . كما في مطلع سورة القصص : ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1] ، ثم يبتدىء باستعراض أحداث القصة من الميلاد ، ومن ذلك ما في قصة أصحاب الكهف حينما مهّد له بقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾[2] ، هذا الأسلوب الذي فيه عنصر التشويق وإثارة النفس لمعرفة تفاصيل الحدث ، وقد تكون المقدمة موحية بخاتمة القصة ـ كما في سورة يوسف عليه السلام حيث بدايتها : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[3] ، إذ النفس تبقى مشدودة إلى القصة حتى النهاية للوقوف على تأويل الرؤيا هذه وتعبيرها على أرض الواقع . هذا اللون من القصص بلا شك يجعل النفس مشدودة ، حريصة على سماع كامل القصة .

أحياناً تُعرض أحداث القصة وفق ترتيبها الواقعي ، بمعنى أن الحدث يسلّم إلى الحدث الذي يليه ، وهذا في مثل أحداث قصة يوسف عليه السلام وقصة مريم وحملها

---

(١) سورة القصص ، الآيتان ٣ـ٤ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٩ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٤ .

بعيسى عليه السلام في سورة مريم ، وقصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ .

وقيمة هذا اللون من القصص أن المتلقي فيها يصبح مشاركاً لأصحاب القصة في الانتقال مع أحداث القصة ومواقفها ، وهذا ـ كما لا يخفى ـ فيه ما فيه من مراعاة تتابع الشعور النفسي ، إذ كل مشهد يعرض كأنه يجيب عن تطلع النفس لما يلي ، ويشبع جانب الفضول وحب الاستطلاع الذي جبل عليه الإنسان .

وهنا نقطة جديرة بالملاحظة وهي أن التتابع النفسي لأحداث القصة متنوع أيضاً ، فتارة نجد أن المتلقي يستوي هو وشخص القصة في ذلك التتابع النفسي ، إذ لا يعرف عن الحدث الذي يلي إلا بعد سماعه هذا بالنسبة للمتلقي ، وبعد وقوعه هذا بالنسبة لشخص الحدث ، ومن ذلك قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء ، وكيف انتهت به إلى محاولتهم أن يحرّقوه ، فالشعور واحد ، ولما كانت نجاته بتدخل القدرة الإلهية ، كما شعر المستمع بذلك شعر حينها إبراهيم عليه السلام بانفراج شديد وانحلال العقدة .

وتارة نجد أن طريقة عرض أحداث القصة القرآنية تكشف لشخصيات القصة ما هو غامض عن المتلقي ، ثم في نهاية المطاف يدرك المتلقي تعليل تلك الأحداث ، وأمثلة ذلك كثيرة ، فمنها في قصة يوسف عليه السلام ما وصى به يعقوب عليه السلام بنيه من عدم الدخول من باب واحد : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ .. ﴾[1] ، ففي النهاية يقول لهم : ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[2] .

وتارة نجد أن طريقة عرض أحداث القصة تكشف للمتلقي عن الأحداث في الوقت الذي تكون خافية على صاحب الحدث ، كما في قصة إحضار عرش ملكة سبأ وتنكيره ، أو كما في حدث اللقاء الأول بين يوسف عليه السلام وأخوته في مصر ، إذ المتلقي في هذه المشاهد يعرف أنهم أخوته في حين أنهم لا يعرفونه ، وتبقى الأحداث

---

(١) سورة يوسف ، الآيتان ٦٧ـ٦٨ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٩٦ .

تشير بهذه الطريقة حتى تنكشف لهم الحقيقة ، في حين أن المتلقي عارف بذلك من قبل ، لكنه مشدود متابع لما تنتهي إليه أحداث القصة .

ومن ذلك أيضاً ما في قصة أصحاب الجنة في سورة (القلم) ، إذ المتلقي على علم بما بيته القوم ، ثم هو على علم بما حلّ بجنتهم ، لكنه يقرأ أحداث الشخصيات ، وهي تمضي في طريقها إلى تنفيذ ما بيتته في الليل ، ثم تنكشف لها الحقائق .

ومثل هذا اللون في القرآن كثير ، ولا يخفى ما في هذا اللون من أثر ودور نفسي على نفس المتلقي ثم هو ينقل بهذا الأسلوب ذلك التدرج النفسي الذي مرّ به صاحب الحدث ، فيكون المتلقي قد اشترك مع صاحب الحدث في ذلك التتابع النفسي .

وقد يجتمع في القصة الواحدة هذه المفاجآت ، حيث يظهر بعضها للمتلقي ، في الوقت الذي يكون خافياً على صاحب الحدث ، ثم تكون مفاجأة أخرى يشترك فيها المتلقي وصاحب الحدث حين تنكشف لهما في وقت واحد ، وهذا من بديع أسلوب القرآن ، ومثال ذلك مفاجأة الصرح الممرد من قوارير في قصة ملكة سبأ ، حيث ظلت خافية علينا وعلى ملكة سبأ حتى فوجئنا بسرّها معها حينما : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾[1] .

وفي سياق القصة نفسها كان قد أخبرنا السياق بمفاجأة ، مجيء عرش بلقيس وحضوره بين يدي سليمان عليه السلام في حين ظلت ملكة سبأ تجهل ما نحن على علم به سلفاً[2] .

وأحياناً تلقى القصة لا على ترتيبها الزمني ، وإنما وفق تلك المشاعر النفسية ، أو لتصوير بعض المعاني النفسية ، وقد سبق للباحث وأن أشار إلى هذا اللون في مبحث التقديم والتأخير حيث استشهد فيه بقصة ذبح البقرة في السورة .

ومن هذا النمط ما نجده في قصص الأنبياء في سورة الذاريات إذ بعد أن استعرض القرآن الكريم قصص الأنبياء أشار إلى قصة نوح مع أنه في الزمن قبل المذكورين ، قال عز وجل : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[3] ، ومن ذلك قصة آدم في

---

(١) سورة النمل ، الآية ٤٤ .

(٢) للمزيد انظر : قطب ، سيد : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٥٣ .

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٤٦ .

نهاية سورة طه بعد استعراض مجموعة أحداث من قصة موسى ، قال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[1] ، والحديث عن نوح عليه السلام في سورة الأنبياء إذ بعد أن قصّ الله علينا قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ، وحدثنا عن إسحاق ويعقوب عليهما السلام وصلاحهما ، وجعلهما أمة ، ووحيه لهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة[2] ، وبعد الحديث عن لوط عليه السلام[3] يأتي الحديث عن نوح عليه السلام ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾[4] .

ومثلها الحديث عن موسى وهارون ـ في سورة الفرقان ـ حيث كان أولاً ثم جاء الحديث عن قوم نوح ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ ﴾[5] ، ثم عقبه الحديث عن قوم عاد وثمود . .

كل هذا ـ كما هو ملاحظ ـ خولف فيه الترتيب الزمني ، ولعل البعد النفسي هو الأبرز في هذا المقام . وقد حاول الباحث أن ينظر في سرّ ذلك فلم يجد سوى أن في ذلك إشارة إلى أن دعوات الرسل واحدة ، وكأنها حين تعرض علينا تعرض شريطاً واحداً من الحياة . ثم لأن الرسل دعوتهم واحدة ، فكأنّ الزمن واحد ، ودعوات الرسل واحدة ، ولذلك كان التأكيد على هذا البعد في قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ ﴾ ، إذ جيء بالجمع مع أن قوم نوح لم يكذبوا سوى نوح ، لكن لأن دعوة الرسل واحدة فكأنّ التكذيب برسول تكذيب بالرسل جميعاً والله تعالى أعلم .

هذا في الآيات التي كانت حديثاً عن أقوام الأنبياء ، أما الآيات التي كانت حديثا عن الأنبياء أنفسهم فالبعد الزمني فيها واضح ، فهو يشير إلى أن الرسل وإن تباعدت بهم القرون إلا أنهم في سلك واحد ينتظمون وعلى خط واحد يسيرون .

---

(١) سورة طه ، الآية ١١٥ .

(٢) انظر الآيات ٥١ـ ٧٣ .

(٣) انظر سورة الأنبياء ، الآيتان ٧٤ـ ٧٥ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٧٦ .

(٥) سورة الفرقان ، الآية ٣٧ .

٣ـ تنوع طريقة المفاجأة :

من الطرق الفنية في عرض القصة القرآنية الذي يترك أثره في النفوس ، اختلاف مواطن المفاجآت في القصة ، هذه المفاجآت تحدث إثارة في النفس الإنسانية وإلهاباً للمشاعر ، والمقصود بمفاجآت القصة ما يطلق عليه في وقتنا الحاضر بـ« العقدة » أو « الحبكة » ، وهي أحد العناصر الأساسية التي اشترط الأدباء وجودها في القصة ، إذ يستثمر القرآن الكريم الزمان والمكان المناسبين لإبراز الحدث المفاجى ، هذا الحدث المفاجىء له من الدور في النفوس ما لا يخفى ، والذي يحكم الموقع المناسب لإظهار الحدث المفاجىء من دوافع القصة هو الغرض الذي سيقت القصة لأجله ، والسياق النفسي الذي وردت فيه القصة ، إذ الغالب في ذلك هو البعد النفسي .

تارة نجد هذه المفاجآت قد كُشف عنها في بداية القصة ، وتارة في ثنايا القصة وغمرة الأحداث ، وتارة في نهاية القصة .

ولو رحنا نتأمل تلك المفاجآت فإننا سوف نلمس أنه حينما يكون القصد موجهاً إلى النزوات النفسية « كالشح والطمع . . » نلمس المفاجأة في بدايات القصة ـ كما هو الشأن في قصة أصحاب الجنة ـ أما حينما تركز القصة على نزوة منشؤها عقلي ، كما في الاغترار والتكبر والعناد ، تكون المفاجآت في النهاية ، وهذا ما نلمسه في قصص المغترِّين والمتكبرين ـ كما في قصة (صاحب الجنتين ـ نهاية فرعون، قصة قارون) ، وقد نجد المفاجأة في ثنايا الحدث .

والقول الأنسب في هذا المقام أن يقال بأن المذكور سمة غالبة في أسلوب القصص القرآني ، لكن الذي يهمنا من الذي تقدم هو القيمة النفسية لهذا الأسلوب ، حيث تبرز في كون هذا الأسلوب يجعل نفس القارىء مشدودة إلى الحدث يترقب مواطن العقدة ، فيثير في النفس بواعث التيقظ والانتباه ، وتجذبه إلى متابعة الحدث جذباً .

ثالثاً : الجمع بين الأحداث وربط بعضها ببعض رغم التباعد الزمني :

قد يكون الحديث عن هذه الخاصية حديثاً عن أغلب القصص الوارد في القرآن الكريم ، وربما تكون من أهم خصائص القصة القرآنية من الناحية الفنية والتي تؤدي دورها النفسي ، إذ الملاحظ أنه على الرغم من التباعد الزمني للأحداث التي يعرضها

القرآن الكريم ، سواء في القصة الواحدة ، أم في مجموعة القصص الواردة في السورة الواحدة . إلا أن النظم يجمع بينها بطريقة لا تشعر النفس بوجود ما يمكن أن يطلق عليه « فجوة زمنية »[1] .

بل إن النفس تحس بها منسجمة تماماً ، مترابطة لا نبوة فيها ، على الرغم من الجزم واليقين بوجود فترة زمنية ، ليست بالقصيرة بين الحدث والذي يليه ، لكن هذه الفجوة تلعب دوراً نفسياً مهماً ، حيث إنها تتيح « تترك » لخيال المتلقي فرصة ملء ما بين هذه الأحداث من فجوات زمنية ، وهكذا تشرك وجدان السامع في تصور الأحداث ، وتجذبه إلى الأحداث جذباً .

أمثلة توضيحية :

في قصة أصحاب الكهف : على الرغم من أن الآيات تتحدث عن قصتهم ورحلتهم الطويلة ، إلا أننا نلمس ذلك الترابط وهذه المتابعة النفسية لأحداث القصة ، حتى أنه بعد أن ضرب الله على آذانهم ، وأنامهم مئات السنين ، ينقل لنا الأحداث التي مرّت بهم ، ويصف لنا ما يؤدي أغراضه النفسية ، ثم يحدثنا عن بعثهم من نومهم الطويل هذا ، دون أن تشعر النفس بملل أو سآمة لطول المدة . ولعل الباحث يؤثر إيراد الآيات هنا حتى يتملاها القارى ، ويشعر بذلك التتابع النفسي ، قال تعالى : ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾[2] ، يلاحظ أن هذا المقطع عرض لنا المشهد الأخير من

---

(١) يطلق صاحب التصوير الفني في القرآن على هذه القفزات الحاصلة بين أحداث القصة بـ « الفجوات » ويعبّر عنها بصيغة أخرى بأسلوب « قص » المناظر . انظر : قطب ، سيد : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٥٤ .

(٢) سورة الكهف ، الآيات ١٦ـ١٩ .

قصتهم ، ولم يحدثنا عن شأنهم مع قومهم ، وكيف انتهى بهم الأمر ، والملاحظ أنّ هذا المقطع يعرض لنا أحداثاً امتدت مئات السنين ، فقد امتدت من لحظة اعتزالهم الباطل وأهله ، ثم إيوائهم إلى الغار ، ثم نومهم الذي امتد أكثر من ثلاثمائة سنة ، هذه المدة تصفها آيتان فقط ، وتتكفل بتغطية أحداثهما فقط : الأولى منهما تتكفل بنقل صورة المكان ، وتصفه لنا كأننا نعيش الحدث وننظر إليه ، ولهذا اختير ﴿وَتَرَى﴾ والثانية تتكفل بوصف حالهم وهم نائمون في الغار ، ثم ما يحدثه هذا المشهد من الدهشة والرهبة في النفوس ، ثم حدثتنا الآيات التي تلي عن مواصلة الحياة الطبيعية بعد القيام من رقدتهم ، فالآيات تطوي لنا الأزمنة دون أن تشعر النفس بجفوة أو فجوة أو نبوة ، وتدخل الفاء ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ لتطوي أحداثاً ، ولتشير إلى تواصل الزمن في الأحداث .

هذه الخاصية الفنية في نقل الحدث تجعل النفس مشدودة إلى الأحداث ، حتى في اللحظات التي تغيب فيها شخوص القصة وأبطالها عن مسرح الأحداث ، فتروح النفس تتملى المشاهد ، وتتأمل الصورة ، وتتمتع بالنظر إلى مسرح الأحداث ، ثم يشدها السياق إلى مواصلة الحدث مع أبطال القصة وشخوصها ، وليس من وجه للمقارنة بين هذه القصة وبين التي تكون من صنع البشر ، إذ تعجز الريشة عن أن تشد السامع في اللحظات التي تنتقل فيها الأحداث من مشهد إلى مشهد ، أو في اللحظات التي تغيب فيها شخوص القصة .

شيء آخر تنقله لنا الآيات إلى جانب ما تقدم ، ذلكم هو الشعور النفسي بمرور الزمن ، كأن الآيات تريد أن تشرك القارىء بهذا الإحساس السريع بمرور الزمن الذي قضاه أصحاب الكهف في كهفهم ، فعلى الرغم من طول الزمن إلا أنّه مرّ كأنّه يوم أو بعض يوم ، ولو نحن بدورنا عدنا إلى سيكولوجية النوم لأدركنا ذلك الفرق بين « نوم » تسبقه طمأنينة وراحة[1] و« نوم » يسبقه قلق وتفكير ، الأول منهما يمضي على طوله

---

(١) نجد نظير ذلك في سورة الأنفال ، وهي تحدثنا عن نعم الله على أهل بدر ، حيث قال عز وجل : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾سورة الأنفال ، الآية ١١ ، فمصادر السيرة بيّنت لنا تفاصيل هذا الحدث ، حيث كانت السنة من النوم التي غشيت المؤمنين كفيلة ببث الراحة والطمأنينة ، ومثلها ما ورد في قوله=

وكأنه لحظة ، والثاني كأنّ الزمن يتوقف ولا يتحرك[1] ، أما التطمين الذي سبق نومهم فواضح من المقطع[2] ، قال تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[3] ، ومن لطائف المقطع الفنية التي تبرز بعض الجوانب النفسية : إشارة النص إلى فجوة المكان ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، وكأنها تغطي فجوة الزمان ، وفي طلبهم المتمثّل في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ إشارة منهم إلى ضرورة المحافظة على هدوئهم والضبط النفسي .

الملاحظ أن انتهاء المشهد ينتهي بانتهاء الوظيفة الدعوية ، فمثلا قصة أهل الكهف ـ على الرغم من أن الأحداث بعدها نقلت ما كان من قومهم ـ لم تنقل عن أهل الكهف أحداثاً تذكر بعد يقظتهم سوى مزاولة الحياة العادية . والقصد إلى إشراك السامع في هذه الأحداث واضح تماماً فنلحظ الألفاظ : (وترى ، وتحسبهم ، لو اطلعت عليهم) موجه لكل مخاطب ومستمع .

ومثل ذلك التنقل بين الأحداث رغم الفترة الزمنية المتباعدة ، بل والتي تحس النفس في العادة بأنها مملّة ، والفترة التي يقضيها المرء في السجن ، لا شك أن الإحساس بمرور الزمن سيكون بطيئاً ، لكن لو أمعنا النظر إلى قصة يوسف عليه السلام والحق سبحانه ينقل لنا قصته قبل دخوله السجن ، وأثناءه وبعده لأدركنا ذلك الإبداع الفني في الوصف ، بحيث جعل نفس المتلقي مشدودة ، وأشركها في الإحساس النفسي لصاحب الحدث ، فلو دققنا النظر في الآيات التي تتحدث عن هذه المرحلة[4]

= تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ فقد روى البخاري في صحيحه : عن قتادة حدثنا أنس أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه » ، البخاري : صحيح البخاري ، ٤/ ١٦٦٢ .

(١) أقول : وقد عبّر الشعراء عن هذه المعاني ، وقد تقدم ذكر بعضها ، ونذكر هنا بيتاً لامرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

انظر : الجمحي ، محمد بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، (جدة : دار المدني ، د . ط . ت) ، ١/ ٨٥ .

(٢) تثبيت وتقوية وطرد عوامل اليأس والوهن عنه .

(٣) سورة الكهف ، الآية ١٤ .

(٤) انظر : الآيات ٣٢ـ٥٤ من سورة يوسف .

للمسنا أن الأحداث التي غطتها القصة من لحظة دخوله السجن ، وحتى خروجه منه ، هي بضع سنين ، أقول على الرغم من انحصار الأحداث في السجن في المدة هذه إلا أن المتلقي لا يشعر بملل تلك الأحداث ، على الرغم من أن الوضع الطبيعي أن تشعر نفس المتلقي بالملل حين تنحصر أحداث القصة ، وتضيق حتى تغطي أحداثاً في السجن ، لكن الملاحظ أن النفس تبقى مشدودة منجذبة مع هذه الأحداث في شوق لمعرفة ما تنتهي إليه ، فقرابة اثنتين وعشرين آية من السورة التي عدد آياتها (١١١)آية ، أي قرابة الخمس غطت تلك الأحداث .

وكأن السياق يهدف من خلال هذا البسط في الحديث عن أحداث السجن إلى أن ينقل إلينا السعة النفسية التي كان يعيشها صاحب الحدث لحظة لبثه ، فيوسف عليه السلام وإن كان في السجن ، والسجن في العادة يكون سبباً في ضيق النفوس والشعور بانقباضها ، وكونه يجنح بالنظر إلى التفكير المستمر الذي يجلب الهمّ والشعور النفسي ببطء انقضاء الزمن ، على الرغم من ذلك كله فإن سياق الآيات ينقل لنا تلك السعة النفسية التي كان يعيشها يوسف عليه السلام في السجن ، تلك السعة النفسية التي جعلته يفضّل السجن على الخطيئة : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾[1] ، فنفس العفيف تجد رحابتها في السجن ، إذا كان الخروج يقترن بالمعصية ، وهذا يشير إلى أن معيار ضيق النفوس وسعتها مرهون عند المؤمن بمدى قربها من الطاعة وبعدها عن المعصية ، فهو فضل عذاب السجن على عذب العصيان ، ومما يدل على تلك السعة النفسية كون يوسف عليه السلام أخذ يمارس نشاطه الدعوي من أول لحظة دخل فيها السجن ، فهو يحمل رسالة ، وهمّه أن يوصل هذه الرسالة إلى غيره .

وهكذا تلمس تلك الرحابة النفسية التي كان عليها قبل دخوله السجن ، ولهذا كان أحب إليه ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ ، ليس معنى هذا أنه مسرور بدخوله السجن وإنما هو تفويض الأمر إلى الله ، وعلمنا استمرار وبقاء تلك الرحابة النفسية في السجن ، لممارسة حياته الطبيعية ونشاطه الدعوي ، كما قد علمنا استمرار ذلك عندما فتحت نوافذ الأمل بانفراج الأزمة وخروجه من السجن ، فهو لم يكن حريصا على الخروج من السجن بقدر حرصه على تبرئة ساحته من التهمة التي ألصقت به ، دليل ذلك أنه حين

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٣٣ .

جاء رسول من الملك يدعوه قال له : ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1] ، وعدم الحرص على الخروج إلا بعد الإعلان عن براءته ، يشير إلى تلك الرحابة النفسية فهو حريص على نقاء السيرة .

وقد توقف الباحث طويلاً عند دخول الفاء على لفظ ﴿ لَبِثَ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2] ، إذ الفاء تدل على التعقيب ، وتشير إلى طي الزمن ، والوضع الطبيعي أن يكون العطف بـ « ثم » في الفترة التي يقضيها الإنسان في السجن ، التي تفيد التراخي ، لكن جيء بالفاء ، إشارة إلى مسألة الإحساس النفسي بمرور الزمن ، فهو لم يشعر بطول تلك المدة[3] وهذا منسجم مع ما توصل إليه الباحث في مبحث (الفصل والوصل) .

وهكذا نجد أن سياق الآيات يهدف إلى إشراك السامع والمتلقي مع صاحب الحدث في أن يعيش تلك اللحظات ، سعادة الانتصار على النفس والاستعلاء على الباطل وأهله ، وعزة الإيمان التي جعلت الملك يحرص على اللقاء به ويرسل إليه مرة ثم مرة ، فهل تشعر النفس بضيق أو انقباض وهي تتلوا مقاطع هذا الحدث؟ !

ومثلُ هذا الانتقال بين الأحداث ـ على الرغم من طول الأحداث وتباعد الفترة ـ ما نلمسه في قصة موسى عليه السلام في مشهد الاتفاق على الزواج ، الآيات : تحكي قصة الرجل الصالح في مدين حين عرض على موسى عليه السلام الزواج : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا . . ﴾[4] ، نلحظ كيف أن

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٤٢ .

(٣) على الرغم من أن التعبير كان للفظ (سنين) وليس أعوام وفي ذلك ما فيه من الإشارة إلى أن المدة التي قضاها في السجن لا تخلو من شدة ، لا ينفي وجود تلك الرحابة في النفس كون السجن في العموم فيه مشقة على النفوس وشدة على الناحية البدنية أو النفسية .

(٤) سورة القصص ، الآيات ٢٧ـ٢٩ .

النص قد طوى عشر سنوات[1] ما بين هاتين الآيتبن : ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا . . ﴾ ، وقد جيء هنا بالفاء ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ ﴾ ، التي تطوي لنا ذلك الزمن المتباعد والممتد هذه المدة الطويلة ، وكأني بها تنقل لنا ذلك الإحساس والشعور النفسي التي انقضت بهما هذه المدة ، فموسى عليه السلام يقضي هذه المدة في العمل والرعي لقاء السير بأهله .

والنفس الإنسانية حين تكون في مهمة ، وتنتظر ما بعدها ، تشعر بذلك الاندفاع الدؤوب إذ كل آت قريب ، والإحساس بطي الزمن سيكون منسجماً مع ما تطمح إليه النفس بعد هذا الانقضاء ، وهو الزواج وتبعاته ، لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الزمن في وقت الانتظار أطول منه في أي وقت آخر ، لكن مع هذا فالذي نلمسه من وجود حرف (الفاء) كأنه يخبرنا بتلك الرحابة النفسية التي كان يتمتع بها موسى عليه السلام في مدين آمنا .

وهكذا نستطيع أن نتلمس سرعة انقضاء الأجل ، ولنا هنا أن نتخيل كيف أن موسى عليه السلام يفضل شظف العيش المصحوب بالطمأنينة على العيش في أكناف القصور مع وجود عوامل الخوف ، وهو إحساس نفسي ، وربما يجسد تلك الراحة النفسية التي قضاها موسى عليه السلام أن زاد على الأجل المشروط سنتين ، وما ذلك إلا تجسيداً للتعبير عن تلك الراحة النفسية .

وهكذا إذن تطوى أزمان متباعدة في القصة لتنقل لنا ظلالاً نفسية عاشها أصحابها ، وقد آثر الباحث اختيار مواقف ثلاثة : (موقف النوم الطويل ، موقف السجن ، موقف الانتظار) إذ كل موقف منها يشعر المرء في حالاته الطبيعية بطول المدة والملل ، والتلهف والشوق إلى انتهائها .

عود على ذي بدء فيما يخص تلك الفجوات النفسية التي نجدها في سياق القصة

---

(١) وهو ما يفهم من دخول أل التعريف على لفظ « أجل » في قوله : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ حيث تفيد أنه أخذ بتمام الأجل ويؤيده ما أثر عن الرسول ﷺ : « . . قضى أكثرها وأطيبها » ، رواه البخاري انظر : ابن حجر : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ٥/ ٢٩١ ، حديث رقم ٢٥٣٨ .

القرآنية ، هي من الكثرة بمكان ، إذ لهذه الفجوات وظائف نفسية كثيرة ، تساعد الذهن على متابعة تسلسل الوقائع الموصولة إلى الهدف القصصي ، ومن شأن الأحداث المقطوعة بين المشهدين أن تشغل المتلقي عن الهدف الذي سيقت القصة لأجله ، لكن الفجوات التي نجدها في سياق القصة القرآنية تتمشى مع التتابع والتوارد الذهني للحدث ، فالنفس تتوقعه فيأتي منسجماً مع هذا التوقع ، فمثلاً قوله تعالى في سورة يوسف على لسان أخوة يوسف : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1] ، فجأة ينقلنا السياق إلى مشهدهم وقد حضروا عند أبيهم : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾[2] ، إذ في إيثار النظم لذكر الرأي الثاني الذي أشار به أخوهم ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ إلماح إلى أن هذا الرأي الثاني هو الذي علق به الذهن ، وهو الذي استقرّ عليه الأمر ، وحصل اتفاق عليه لذا هم الآن في مرحلة تنفيذ ما كانوا قد خططوا له .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ . . ﴾[3] ، انظر إلى السياق وتأمل كيف أن الفجوة الزمنية التي كانت بين الحدثين لم تشعر بها النفس مطلقاً ، فبينما كان ساقي الملك يعرض رأيه أمام الملك ينتقل بنا النص إلى محاورته مع يوسف عليه السلام ، وهذا يعني أن الملك قد وافق على رأي هذا الساقي ، وأمره بالذهاب إلى يوسف ثم إخباره برؤيا الملك .

كل هذا نجده قد طوي في السياق دون أن تشعر النفس بتلك الفجوة ، وهذه بدورها تنقل لنا وظيفة نفسية ، وهي حرص الساقي على إيجاد الحلّ السريع فالبلاد في محنة محققة ، والملك محزون يفكر في حلّ ، فبدت هذه السرعة حتى في ألفاظ الساقي « أنا » وفي حذف الياء من لفظة : ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ، وحذف جملة القول إذ لم يقل : قال يوسف أيها الصديق . . ، كل ذلك لينقل لنا كيف أن الحروف والألفاظ تنقل جو السرعة النفسي الذي ينشده القوم في تخليص البلاد من محنة محققة والله أعلم ،

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ١١ .
(٣) سورة يوسف ، الآيتان ٤٥ـ٤٦ .

ومشاهد كثيرة من السورة نجدها تطوي هذه الأحداث[١] ومثلها باقي القصص .

ثالثاً : « انتقاء الأحداث واختيارها » وعدم الالتزام بالسرد التاريخي للقصة :

النظم القرآني يختار من القصص والأحداث وشخوصها ما يخدم غرض القصة ، وبالتالي فهو لا يُعني بتفصيلات الأحداث ، أو التركيز على عناصر الزمان ، أو مكان حدوث القصة ، فهو يذكر منها ما يكون كافياً لخدمة أغراض القصة في القرآن ، وما يذكره في هذا المقام فهو الصدق وعين الصواب ومطابق للواقع ، إذ ليس يعني هذا أن القصة القرآنية لا تلتزم المنهجية التاريخية كما أثارها بعض الكتّاب وقد سبقت الإشارة إليهم .

من المعروف أن القصة القرآنية لها عناصرها[٢] ، والقصة القرآنية لا تحرص على أن تدخل عناصر القصة كلها في كل حدث ، بل هي تركز في كل قصة على عنصر من عناصر القصة ، فتارة تكون الأحداث ملاحقة للشخصية ودائرة حولها ، وتارة يكون محور الأحداث متركزاً على الحدث وليس على الشخصية ، ويبرز تارة عنصر الزمان ، وتارة عنصر المكان ، كلٌ بالقدر الذي يخدم هدف القصة وغرضها الأساسي .

يهمنا من ذلك كله أن نشير إلى أن هذا الانتقاء للعناصر ، وهذا التنوع في عرض القصص كان الجانب النفسي من أهم الأغراض من عرض القصة القرآنية ، إضافة إلى الغرض العام الذي سيقت له القصة ، فمثلاً القصص الذي يتركز محور الحديث فيه حول « الأحداث » نجد أنها تسهم في صنع الجو النفسي الملائم لمقاصد القصة ، إذ :

تقوم الأحداث بإثارة الانفعالات الوجدانية فينا ، وتغذي الخيال بالصور .

يختار منها ما يكون أكثر تأثيراً في النفس الإنسانية ، وهذا ما يفسر عرض القرآن لجملة من الأحداث تفصل بينها قرون وبيئات مختلفة .

الأحداث التي تبرز فيها الشخصيات يكون الغرض في الغالب هو : رسم نموذج للتأسي به ، أو الكشف عن مزاج الشخصية المتحدث عنها ، وليس من أغراض القرآن أن يبرز ملامح الشخصية من الناحية الخارجية ، بقدر ما يكون الغرض منها بين سلوكها .

---

(١) كما في الآيتين ٨١ـ٨٢ ، والآيتين ٨٧ـ٨٨ ، وسورة النمل ، الآيتان ٢٨ـ٢٩ ، الآية ٣٩ .

(٢) الأحداث ، الأشخاص ، الزمان ، المكان ، الحوار .

أما التي يبرز فيها عنصر الشخصيات فيلحظ أن الشخصيات التي يعرضها القرآن الكريم في النظم القرآني تكون منسجمة مع ذاتها ومقوماتها تجاه الموقف الذي تتبناه ، أو ما يعرف بمفهوم التربية الحديثة بـ« اتساق شخصية الفرد »[1] ، بحيث نلمس أن السلوك الصادر عن الشخصية منسجم مع الظروف الداخلية والخارجية ، فالقصة القرآنية تطلعنا من خلال شخصيات القصة على كثير من المؤثرات النفسية المتعلقة بالإنسان ، حيث تتحدث عن الإنسان ، وتبين لنا حقيقة هذا الإنسان ، كما تقدم للنفس الإنسانية تحليلاً دقيقاً بأبعاده المختلفة ، إضافة لذلك فإنّه يلاحظ في التنوع الذي يعرضه القرآن الكريم للنماذج البشرية أكبر الأثر في النفوس ، إذ لم يقتصر على نماذج بشرية وإنما فيه حديث عن نماذج أخرى غير بشرية ـ كما سيأتي الحديث عنه .

أما القصص الذي يبرز فيه عنصر الحوار ، والذي يكون الغرض الأول منه إبراز الجوانب المتعلقة بالدعوة وبث الآراء والأفكار فقد نلحظ أن القصة تبتعد عن تحديد معالم الشخصية ، ويكون الحديث عنها عاماً ، وأقرب إلى إبهام الأسماء ، ويكون التركيز فيها على الجانب الذي يحدم الفكرة ، ويلاحظ أن لغة الأسلوب تختلف باختلاف الموضوعات ، إذ أغلب موضوعات الحوار كانت دائرة حول الموضوعات الدينية ، أما القصص الذي يهدف إلى تكوين العواطف الجاشة تكون الألفاظ فيها هادئة .

وأما عنصرا الزمان والمكان : فالسياق القصصي يذكر منهما ما كان يؤدي وظيفة وغاية في القصة ، ولهذا فإن الغالب في القصة القرآنية أن لا تهتم بتحديد عنصر الزمان أو عنصر المكان ، ذلك أن هذين العنصرين بمثابة الوعاء الذي يحمل الحدث ، فإذا ما كان يتعلق بهما أثر نفسي أو غرض ديني كان لهما أو لأحدهما ذكر في القصة ، ولما كانت القصة القرآنية قائمة على إبراز ما في النفوس ، والنفوس هذه لا تختلف طبائعها العامة ـ في الغالب ـ باختلاف الزمان أو المكان فقد كان التركيز في سرد أحداث القصة منصبّاً على الأحداث أو أشخاصها ، فمن المواطن التي ذكر فيها الزمان :

---

(١) العدوي : معالم القصة في القرآن ، ص ٥٥ . وانظر نقرة : سيكولوجية القصة ، ص ٤٦٩ . و فهمي ، مصطفى : الصحة النفسية ، (القاهرة : مكتبة مصر ، د . ط ، ١٩٨٧م) ، ص ٦٦ .

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾[1] ، فلفظ عشاءً هنا كان مقصوداً ، كره ومؤدياً رسالة ووظيفة نفسية إذ يكشف عن سوء طوية هؤلاء الأخوة ، وتبييت النية في التأخر ، حتى يتم حبك الائتمار ، وتكون أقرب إلى الإقناع ، إذ كيف يقدرون على إقناع أبيهم لو أتوه عند الغروب ، فكان في ذكر لفظ العشاء لفت الأنظار إلى أنهم تأخروا إلى هذا الوقت ليكون بمثابة العذر الذي يقدمونه بين يدي أبيهم في أنهم استنفدوا الوسائل والسبل في البحث عنه فلم يجدوه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾[2] ، إذ أشار السياق إلى المدة التي لبثها أصحاب الكهف ، ليلفت أنظارنا إلى طولها ، ويكون أوعى للنفس في أن تتفكر وتتأمل في هذه الآية التي حدثت لهم حين رقدتهم .

ومنه ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾[3] ، وصف مهم وضروري لفهم ما يبيّت لهؤلاء القوم وما يدبّر لهم بليل . وذلك ليباغتهم ،.. وهكذا فعنصر الزمن يدخل القصة حينما يؤدي وظيفة تخدم أهداف القصة . وقد يكمن الزمن ضمنا في بعض الأحداث ـ كما هو الحال مع الصغير حين يكبر ـ من ذلك ما ورد في شأن موسى عليه السلام والرضاع ثم البلوغ . . ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾[4] ، ومرة ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴾[5] ، ففي الأولى إشارة إلى طول مدة العذاب الذي لحق بقوم لوط حيث امتد من وقت الصبح إلى الشروق ، قيل : « والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء ، بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح ، وانتهاؤه عند الشروق »[6] ، أما الثانية ففيها ذكر الوقت الذي نزل فيه العذاب .

وكذا الأمر بالنسبة للمكان ، إذ يؤتى به حينما يؤدي دوراً ، كما في مشهد أصحاب الكهف ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٦ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٢٥ . .
(٣) سورة هود ، الآية ٨١ . وسورة الحجر ، الآية ٦٥ .
(٤) سورة الحجر ، الآية ٧٣ .
(٥) سورة الحجر ، الآية ٨٣ .
(٦) انظر الآلوسي : روح المعاني ، ١٤/ ٧٤ .

﴿ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ﴾[1] ، أو كما في الآية ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[2] ، و﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ . .﴾[3] ، و﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾[4] ، إذ يؤتى بالمكان عندما يؤدي وظيفة تخدم غرض القصة في إبراز أحداث القصة ، فذكر القرية التي كانت حاضرة البحر لاستحضار مشهد الصيد ، والصخرة التي أوى إليها موسى عليه السلام والعبد الصالح لأنها المكان الذي يرجعون إليه للبحث عن الرجل الصالح[5] وهكذا .

وخلاصة الأمر في ذلك أن يقال : إن القصص القرآني يختار من العناصر والمناظر والمشاهد والأشخاص والأحداث التي تدخل في إطار القصة ما يؤدي وظيفة ويكون محلا للفائدة وأخذ العبرة والعظة ، وما كان يخلو من وظيفة فلا يؤتى به أو يركز عليه ، فهل يقال بعد هذا : إن أحداث القصة القرآنية لا يمكن الاعتماد عليها من الناحية التاريخية؟! يجب أن نفرّق بين النظر إلى القرآن الكريم على أنه كتاب من كتب التاريخ بالمفهوم الأكاديمي ، وبين أن نقول بأن ما اشتمل عليه القرآن من أحداث التاريخ يعتبر أصحّ ما يمكن الاعتماد عليه ، وهو الذي يلتزم الدقة من الناحية التاريخية والتزام الصدق في نقل ملابسات الأحداث .

مسألة الانتخاب في الأحداث وجمعها بعضها إلى بعض له دلالته الفنيّة ، ثم إن هناك مسألة لها تعلق بهذه النقطة وهي مسألة تخلل أحداث القصة التعقيبات والإشارة إلى مواطن العظة والعبرة وترصيعها بالنصائح والتوجيهات ، فالقصص القرآني لم يكن

---

(١) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٤٦ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٦٣ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ٦٣ .

(٥) كما يفهم من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري : صحيح البخاري ، كتاب العلم ، حديث رقم ٧٢ ، والشاهد منه :(فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ :﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ ، فَوَجَدَا خَضِرًا ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ) .

غرضه الإثارة الوجدانية فحسب ، بل كان يهدف إلى التأثير العقلي وإقامة الحجة والدليل والبرهان ، بخلاف ما أشار إليه بعضهم من كونه مقتصراً على الجانب الوجداني[1] .

إذ لا يخفى ما لهذا الأسلوب من دور في التركيز على جانب معين من الجوانب النفسية . فكأنّ كل قصة من قصص السورة الواحدة تضيف لبنة نفسية ، وتزيد المسألة وضوحاً أكثر ، وقد لا يكون الكلام ذا قيمة إذا خلا من الشاهد ، والحق أن سور القرآن كلها شواهد لهذا ، فما يرد من قصص في السورة الواحدة يلتقي أولاً مع غرض السورة وموضوعها العام ، ثم يشترك ثانياً معها في رسم الأجواء النفسية التي تقصد السورة لإبرازها .

ولنأخذ على ذلك سورة الكهف : إذ تناولت من القصص خمسة أحداث :

١ـ قصة أصحاب الكهف .

٢ـ قصة صاحب الجنتين .

٣ـ قصة آدم عليه السلام وإبليس .

٤ـ قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح .

٥ـ قصة ذي القرنين .

الأحداث كلها تشترك مع الهدف النفسي الذي تهدف السورة إلى إيجاده ، وهو الصراع النفسي الذي تعيشه كل نفس مع شهواتها ، وطريقة التغلب عليها ، أو بمعنى آخر أسلوب الضبط النفسي وفق مبادىء العقيدة :

فقصة أصحاب الكهف ، وكيف كان الصراع بين أن يعودوا إلى الكفر فيأمنوا من الإيذاء والمكر وبين أن ينتصروا على النفس ويكون الضبط لها بالصبر على ذلك والإيواء إلى الغار . . ثم يظهر الضبط النفسي حتى بعد رقدتهم ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾[2] .

---

(١) خلف الله : الفن القصصي في القرآن ، ص ١١٢ وما بعدها ، وتكرر ذلك في أكثر من موقع انظر مثلا : ص ١٢٢ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٩ .

قصة صاحب الجنتين ومسألة الصراع مع الهوى ، وكيف كان المؤمن يحاول بصاحب الجنتين ويحثه على ضبط النفس ، والبعد عن الغرور ، وعدم الإفراط في القول ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[1] ، والجزم بعدم زوال النعمة ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾[2] ، والشطط في اتباع الهوى وإطلاق الأحكام ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾[3] .

وقصة آدم وإبليس ومسألة الصراع مع النفس ، وكيف أن إبليس لم يتمكن من ضبط نفسه والالتزام بأمر ربه فهو تجاوز ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[4] ، وتبع غروره .

وقصة موسى عليه السلام والعبد الصالح ، وكيف ظهرت مسألة ضبط النفس عن السؤال ، إلا أن موسى لم يتمكن من ذلك ، فكان أن قال له : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[5] .

وقصة ذي القرنين ، ومحاولته إيقاف ذلك التجاوز والفسق الذي كان من يأجوج ومأجوج ، حيث كان الضابط حسياً ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾[6] .

أما اشتراك القصص مع الموضوع العام للسورة فواضح[7] : فالسورة بعمومها ترسم منهجاً للمسلم يسير عليه في حياته ، بحيث يكون في أحواله كلها ثائرا على الباطل وناصراً للحق ، أو بمعنى تربية الشخصية المسلمة على مواجهة الظلم وعدم القبول به ، وهذا واضح من خلال قصة أصحاب الكهف ، وكذا الأمر لا يحتاج إلى بيان فيما يخص قصة ذي القرنين ، وكيف أنه وضع سداً لمنع الظلم وقال قبلها : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا . . ﴾[8] ، وقد يخفى وجه المناسبة بين هذا وبين قصة موسى

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٣٤ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٣٥ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ٣٦ .
(٤) سورة الكهف ، الآية ٥٠ .
(٥) سورة الكهف ، الآية ٧٨ .
(٦) سورة الكهف ، الآية ٩٤ .
(٧) للمزيد يمكن الرجوع إلى المدني : القصص الهادف من سورة الكهف ، وقطب ، سيد : الظلال .
(٨) سورة الكهف ، الآية ٨٧ .

عليه السلام والعبد الصالح ، لكن بشيء من التأمل نجد أن العبد الصالح يعلمنا كيف السبيل إلى تحرير الضعفاء من سلطان الطواغيت : ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾[1] ، وكيف يقف إلى جانب الضعفاء ، وهو ما يبرز من قتل الغلام ، ثم من إقامة جدار اليتيمين .

والسورة بعمومها تحذرنا من الانخداع بالأسباب الظاهرة ، والوقوع في شباك مظاهر الحياة ، والانشغال بها عن الأهم ، وهذا بارز من خلال النهي عن الخوض في عدة أصحاب الكهف أو مدة لبثهم ، ومن خلال قصة صاحب الجنتين ، وكذا في قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح ، فهي أوضح ما تكون ، وفي قصة ذي القرنين ، حتى في المثل الذي ضرب للحياة الدنيا : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾[2] .

هناك أمر آخر اشتركت فيه القصص عموماً في السورة ، هو اشتمالها على أمر عجيب فوق السنن العادية ، كما أنّ القصص كلها فيها معنى هجر ، الظاهرة والباطنة وسبيل التغلب عليها ، فالثورة على الباطل هي في حقيقة الأمر صراع ، والصراع هذا يتطلب تضحية ، والتضحية تتطلب هجرا ، والهجر يتطلب الرحلة ، والرحلة بارزة في القصص بشكل لا يحتاج إلى مزيد تدبر[3] ، وفي العموم يمكن أن يقال : « هي قصة مقاومة أهل الصلاح لأهل الفساد ، والحيلولة بينهم وبين أن ينشروا فسادهم بإقامة السدّ المعنوي في مقابل السدّ الحسي الذي أقامه ذو القرنين » .

شيء آخر نلمسه في عرض القصة ، وهو الأسلوب الذي تعرض به القصة ، والجوانب الفنية في النظم القرآني من تقديم وتأخير كله مقصود ، ويؤدي أدواراً تخدم أغراض القصة ، وإلى جانب ذلك فهي تهدف إلى الإثارة الوجدانية بالطريقة المتناسقة دون أن يطغى جانب العاطفة على الجانب العقلي ، والصدق في أحداث القصة القرآنية ، ولذلك فإن (الحذف والذكر) و(التقديم والتأخير) و(التصميم والبناء)

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٧٩ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٤٥ .

(٣) ففي قصة الكهف رحلوا إلى الكهف ، وفي قصة موسى والعبد الصالح الرحلة في طلب العلم ، وفي قصة ذي القرنين (مطلع الشمس ، مغرب الشمس ، بين السدين) .

واختيار الصور البيانية ، وطريقة العرض والبدء والخاتمة وانتقاء الأحداث الواردة في القصة كلها مقصودة ، تخدم أغراض القصة من جهة وأهداف السورة بشكل عام .

وليس في قولنا : « إن القصة القرآنية إضافة إلى كونها تهدف إلى الجانب العاطفي أنها مقصودة من الناحية العقلية والصدق الواقعي » ، أقول : ليس قولنا هذا يشكل عقبة أمام حلّ ظاهرة التكرار في القصة القرآنية كما يدعيه بعض الكتّاب[1] ، فاختلاف الوظائف النفسية أحياناً كان يؤدي إلى ذكر القصة مرة أخرى ، وما يختاره القرآن من أحداث القصة يكون مشتركاً في رسم الجو النفسي للسورة ، إضافة إلى كونه مقصوداً من حيث تحقيق أغراض السورة وإبراز وتدعيم الموضوعات التي تعالجها السورة القرآنية .

ومثل الذي قيل في سورة الكهف والقصص الوارد فيها يمكن أن يقال في باقي السور القرآنية من اشتراك الجو النفسي الذي ترسمه قصص السورة ، ولو استعرضنا السور (الأعراف ، هود ، يونس ، الحجر ، النمل ، الشعراء ، العنكبوت ، إبراهيم . .) سوف نجد ما يرشدنا إلى هذه المعاني المشتركة ، وما لها من دور في رسم الجو النفسي للسور القرآنية ، إضافة إلى المعاني والأغراض الأخرى التي تهدف إليها السورة القرآنية ، وبسط القول في هذا يحتاج إلى دراسة مفصلة .

رابعاً : ومن الخصائص الفنية للقصة القرآنية تعدد ورودها :

وهو ما يطلق عليه أغلب الكتّاب بـ « تكرار القصة القرآنية » ، لكن وانسجاماً مع ما توصل إليه البحث ، فإنه ليس في القصص القرآني ما يمكن أن يطلق عليه أسم تكرار بمعنى التكرار ، فقد يتناول القرآن الحدث نفسه في أكثر من موضع ، لكنه في كل موضع يسلط الضوء على جانب من جوانب الحدث ، ويضيف جديداً إلى القصة .

الأحرى في هذا أن نوجّه النظر إلى الطريقة التي يذكر بها القرآن القصة ، إن القرآن يذكر القصة من الزاوية التي تحقق أهدافه العامة ، فالقصة داعمة للموضوع الذي يعرض له القرآن وموضحة له ، وكاشفة لأبعاده التي ينقلها القرآن الكريم ، وبالتالي فلا يصح أن يؤخذ على القرآن أنه لا يتناول القصة من جميع أطرافها[2] ، أو أن يقال بأن

---

(١) خلف الله : الفن القصصي ، ص ١٨٥-١٩٧ .

(٢) كما قال به المستشرق الألماني : تيودور نولدكه (١٨٣٦م -١٩٣) في كتابه : قصص القرآن =

القصة في القرآن معقدة ، أو أن يقال بأن أجزاء من القصة قد تكررت كثيراً في السياق القرآني ، لأن ذلك كله تابع للغرض القرآني ، فإذا استدعى المقام تكريراً « ذكر لأكثر من مرة » فإنه يذكر ذلك .

والأمر غاية في السهولة ، إذ المعنى النفسي والهدف القصصي هما الكفيلان بالإجابة عن كل إشكالية في الذهن حول إيراد القصص في القرآن . ومقصد القرآن في كل قصة يختلف ، وإيراده في كل موضع من السورة مقصود ، والجانب الذي تتناوله القصة واختارته من الحدث مقصود .

وجملة القول في ذلك : إن المقاصد التي يرمي إليها القرآن هي التي تملي الأسلوب ، والمقاصد وراء الطريقة التي من أجلها تسرد الأحداث ، ويختار بينها ، ويربط بينها برباط من العاطفة والوجدان ، وقد مرّ في مبحث التكرار من الباب الثالث الحديث عن الجوانب النفسية للتكرار عموماً ، كما تقدمت الإشارة إلى توجيه بعض المظاهر التي يبدو فيها التكرار في نسق القصة القرآنية بما يغني عن الإعادة ، لكن يركز الباحث في هذا الموقع على نماذج من القصص التي قيل فيها التكرار وبيان حقيقة الأمر فيها .

المطلب الرابع : نماذج وحقائق من القصص التي قيل فيها تكرار :

لو ألقينا نظرة في القصص القرآني فإننا ـ بلا شك ـ سنجد أن أكثر القصص وروداً هو القصص المتعلق بسيدنا موسى عليه السلام ، وتحديداً فيما يتعلق بشأنه مع بني إسرائيل ، حيث أخذت نصيباً وافراً من الحديث في القصة القرآنية ، وربما يليها في الكثرة قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام والحق أن وراء الورود بهذه الكثرة أسرارا بديعة ، بعض منها يعود إلى طبيعة الصراع الذي تعيشه الأمة مع أمة بني إسرائيل ، ليس كما يدعي بعض المغرضين بأن ذلك يفسّر دور اليهود في السيطرة الدينية على البيئة العربية(١) ، فيقولون إن سيطرة اليهود الدينية هي أحد أهم أسباب ورود قصة موسى

= الذي كتبه بالألمانية ، وكرره غير مرة:
Noldeke/ T. 1909. Geschichte des Qurans. 2nd Ed. Dieterich scre Verlagsbuch handleng. Leipzig V. 1+2/ p74- 91

(١) انظر خلف الله : الفن القصصي في القرآن ، ص ٢٣٤ .

عليه السلام بهذه الكثرة ، ويلمزون بأن نصوص القرآن جاءت في قصصها ونصوصها مجارية لتلك الثقافة اليهودية .

وتبدو هذه الشبهة في غاية السذاجة ، إذ المعروف أن أغلب القصص القرآني كان قد نزل في الفترة المكية وهي الفترة التي لم يكن فيها احتكاك باليهود ، إذ المعروف أن احتكاك المسلمين باليهود كان بعد الهجرة إلى المدينة ، ثم إن من يردد هذه الشبهة وأمثالها يجهل طبيعة النص القرآني ومنهجيته في عرض ما يتعلق بمعتقدات اليهود ، فما ذكر في قصص القرآن مما يتعلق بقصص موسى عليه السلام وفرعون كان قد جيء به ليصحح ما كان ينشره اليهود من تحريفات للحقائق ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾(١) .

وقد لمسنا في نصوص القرآن الكثير من النصوص التي تؤكد على تحريف اليهود للكلم ، وتعيب عليهم ذلك التحريف ، وكشف عن محاولاتهم كتمان ما يتعلق بالدين الجديد ، فقد قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾(٢) ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾(٣) .

أما عن سرّ كثرة ورود قصص بني إسرائيل في القرآن ، فالذي يعني الباحث منه أن يشير إلى الحكم المتعلق بالجانب النفسي ، ويحيل في الجوانب الأخرى إلى بعض المصادر(٤) فمن الحكم النفسية لإيراد أحداث بني إسرائيل :

---

(١) سورة النمل ، الآية ٧٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨٧ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١١ ، وانظر سورة البقرة ، الآية ١٩و ٩١و ١٠١ ، وسورة النساء ، الآية ١٥٥ ، وسورة المائدة ، الآية ٤١ وغيرها .

(٤) للمزيد يمكن الرجوع إلى الكتب الآتية : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ص ٢٥ وما بعدها ، أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ١٥٦ ، قطب ، محمد : دراسات قرآنية ، (بيروت : دار الشروق ، د . ط ، ١٩٨٠م) ، ص ٢٥٣ ، نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ١٢٤-١٢٩ ، الخطيب : القصص القرآني مفهومه ومنطوقه ، العدوي : معالم=

تسلية المؤمنين من أهل مكة الذي كانوا يواجهون من قريش أشدّ ألوان التعذيب والاضطهاد ، حيث يجدون في قصة بني إسرائيل وما كان من شأنهم مع فرعون مثالاً وأنموذجاً لهذا الاضطهاد الطويل ، فيكون بمثابة العزاء لهم .

تشجيع المؤمنين على احتمال الأذى والصبر على ما يجدون من قريش ، ورسم نماذج القدوة في عزة الإيمان والاستعلاء به على أهل الكفر ـ كما كان من شأن سحرة فرعون .

إن طبيعة الصراع الذي تعيشه الدعوة الجديدة سيكون في أغلبه مع اليهود ، وسيبقى مستمراً إلى يوم الدين ، فكان في الإكثار من قصص بني إسرائيل كشف لحقيقة ما هم عليه ، وبيان نفسيتهم وطريقتهم ، والأساليب التي يستخدمونها في محاربة هذا الدين ، خاصة تلك الأسلحة المعنوية من : إشاعات ، ودسّ شبهات ، وحرب نفسية يستخدمونها ضد أهل الإيمان ، فكان في كثرة القصص الوارد في حقهم إبراز لهذه الجوانب ، وبيان لهذه الطبيعة .

إن في كثرة إيراد هذه القصص إشارة إلى كثرة جرائم بني إسرائيل ومآسيهم ، حيث لا تغطيها بضعة مشاهد ، وإنما تحتاج إلى المشهد تلو المشهد .

عملية البناء للأمة تحتاج إلى رسم قدوات الأمة التي ترث هذا الكتاب ، فلا بد أن تكون على بينة بصفات الأمة الوارثة من جهة ، ثم لا بد أن تكون على علم بمزالق الأمة السابقة ، حتى تستفيد من أخطائها ، ولا تنزلق في المزالق التي وقعت بها الأمة السابقة ، فكانت سبباً في انتقال الوراثة وسحبها منها[1] .

أما عن السرّ في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام بهذه الكثرة فهو أيضاً ناشيء عن كونها اشتملت على جوانب كثيرة من جوانب العبرة ، مثل : « تعدد مواطن العبرة » ، ثم إن إبراهيم عليه السلام أب للعرب ، فقصصه لها مكانة عند العرب[2] .

= القصة في القرآن ، ص ١٢٨ـ١٣٢ .

(١) للمزيد انظر : العدوي : معالم القصة في القرآن ، ص ١٣١ .

(٢) للمزيد انظر : أبو زهرة : المعجزة الكبرى ، ص ١٥٠ .

حقائق تبين ظاهرة التكرار في القصة القرآنية

تكرار القصة « ورودها أكثر من مرة » في القرآن يهدف إلى تمكين السنن التي تتحدث عنها الآيات في نفس الإنسان وتثبيتها في القلب[1] .

ليس في تكرار الأحداث في القصة القرآنية أدنى تعارض أو تضارب ، وما يبدو فيه شيء من هذا فأدنى تفكير يبرز جوانب الإعجاز فيه .

بسبب أن ورود القصة تابع للموضوع الذي تعرضه الآية القرآنية ، وموضوعات القصة في الغالب هي موضوعات العقيدة ، فمن الطبيعي أن يتكرر ذكر بعض القصص كلما كان الحديث عن جانب من جوانب العقيدة . وتعرض أحداث القصة الواحدة أحياناً بعبارات مختلفة .

لقصص القرآن دور كبير في تكوين العواطف وإبرازها ، والجدير بالذكر أن من العوامل التي تساعد على تكوين العواطف وإبرازها عامل « التكرار » ، إذ من شأن قصص القرآن أن يثير فينا انفعال الرغبة والرهبة ، ويعمل على تحويل تلك الانفعالات العابرة إلى عواطف ثابتة بواسطة التكرار هذا .

نماذج لمواقع قيل فيها تكرار :

قد يكون من المناسب بعد الذي تقدم استعراض بعض المواقف التي تبدو للنظرة الأولى أنها تحكي مشهداً واحداً ولا زيادة فيها ، ووردت في أكثر من موضع :

المقطع الأول : موقف موسى وما حدث له أثناء عودته بأهله من مدين إلى مصر (مبدأ الرسالة) .

ورد هذا المشهد في ثلاث سور على النحو الآتي :

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[2] .

---

(١) نقرة ، سيكولوجية القصة ، ص ١٣٠ .

(٢) سورة طه ، الآيات ٩ـ١٢ .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2] .

الناظر في المقاطع الثلاثة المذكورة يجد أنها تتحدث عن موقف واحد ، وتعرض مشهدا واحدا ، لكن يلاحظ أنه على الرغم من كون المشهد واحداً إلا أنه توجد بعض الاختلافات في التعبير في المواطن الثلاثة حيث يمكن إجمالها في الآتي :

لم يذكر في موضع سورة النمل ما يشير إلى رؤية النار ، هذا من جهة ، ونجد تكرار لفظ ﴿ ءَاتِيكُم ﴾ في سورة النمل من جهة أخرى .

ذكر في موضع سورة القصص « قضاء موسى الأجل وسيره بأهله إلى مصر » .

في سورة القصص ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ، وفي سورة النمل ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ ، وفي سورة طه ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ .

في سورتي طه والقصص ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ وفي سورة النمل ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا ﴾ .

نجد التعبير بـ ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ ﴾ الذي يفيد الترجي في موضعين : سورة طه وسورة القصص ، أما سورة النمل فنجد ﴿ سَـَٔاتِيكُم ﴾ بالسين التي تفيد الاستقبال أصلاً .

لسائل أن يسأل عن سرّ هذا التغاير بين التعبيرين على الرغم من كون المواضع الثلاثة تعرض مشهداً واحداً ؟

حين ندقق النظر نجد أن الجو النفسي هو الذي يجيب عن هذه الإشكاليات التي تبدو في ظاهرها متغايرة ، ما هو الجو النفسي الذي يحيط بالموقف ؟ لا بد من إلقاء الضوء عليه في السياق الذي وردت فيه ، موسى عليه السلام كان يعيش لحظات ،

---

(١) سورة النمل ، الآية ٧ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٢٩ .

يمكن أن يطلق عليها لحظات « إزدحام المشاعر » حيث تزاحمت على هذا الموقف مشاعر عدة ، يمكن إجمالها في الآتي :

١ـ مشاعر الشوق إلى الأهل التي تشده إلى العودة إلى مصر بعد غياب طويل .

٢ـ مشاعر القلق الذي يساوره من عدة جوانب :

ماضيه وما حدث معه من شأن قتله القبطي له دور في إبراز جانب القلق خاصة وهو عائد إلى تلك الأرض التي قتل فيها رجلاً من بني فرعون ، إذن هو غير مطمئن على النتائج .

القلق على الأهل ، إذ هم معه ، والمرأة ـ في العادة ـ ذات طبيعة عاطفية ، لذا فهي أكثر انفعالية ، وأسرع إلى جانب الخوف ، كيف إذا كان قد تجمع إلى الموقف وحشة الليل وظلمته ، ثم تيه الصحراء!! ولعل في السياق[١] ما يرشد أيضاً إلى برودة الجو ، وهو بدوره يزيد من مشاعر القلق ، ثم إلى جانب هذا كله هم في تيه ، إذ السياق يرشد إلى أنهم قد ضلوا الطريق : ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ ، والذي ضل الطريق يعيش ـ بلا شك ـ لحظات قلق .

في هذه الأجواء النفسية يرى موسى ناراً فيحصل له الأنس وهو اللفظ المغاير للقلق ، والجدير بالذكر أن هذا اللفظ ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ قد ذكر في المواطن الثلاثة التي ذكرت الحادثة ، ولا شك أنها تعبّر عن مدى ذلك الازدحام النفسي ، أو القلق الذي كان يعيشه موسى عليه السلام ، ولذا قال : ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ ، ثم إن في التعبير ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ما يرشد ـ أيضاً ـ إلى طبيعة النفس الإنسانية ، وهي أنها إذا أخذت تفكر في شيء ، وكان هذا التفكير وليد حاجة ، فإنه يثير في النفس دوافع تجدد الأمل ، حتى يرسخ في مخيلتها فيصبح شغلها الشاغل ، فإن هي شاهدت في الواقع ما يمت إلى ما تفكر به النفس بصلة ، لم يقع في الذهن غير هذا الذي كانت تفكر فيه ، ولعل هذا هو الذي يفسّر سرّ العلاقة بين الظمآن ورؤيته السراب ماءً ، وهذا هو الذي يفسّر ما نشاهده في أحلامنا .

كأنّ التعبير يلمّح إلى حصول هذا عند موسى عليه السلام ، وهو التفكير في

---

(١) قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ .

الحصول على ما يذهب به : (وحشة الليل وظلمته) و(يعينه على الاهتداء على الطريق) ، و(يحصل به الدفء) . وليس من شيء يجمع بين هذه المنافع إلا النار ، والتعبير القرآني : ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ ، يعين على هذا الفهم فلفظ « إذ » كأنه يحكي أنه حضره هذا التفكير من أول لحظة رأى فيها النار ، وقال هذا الذي قال ، ولذلك قال : ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ نسب الأنس لنفسه ، وهاهنا نجد أنه قد تجمّع إلى الجو النفسي مشاعر جديدة :

* مشاعر الأنس التي حصلت له يريد أن ينقلها لأهله .

* طبيعة موسى الانفعالية (الاندفاعية)[1] تحركه نحو التطمين ، إذ المعهود من سيرته أنه لا ترهبه المواقف ، ولا يعجزه بعد المكان من أن يظفر بحاجته .

* مشاعر مواجهة الواقع ، فهو الآن يتحرك من واقع المسؤولية ، بل سيواجه الموقف مع أهله .

* حاجته إلى تطمين الأهل حيث سيتركهم في الظلمة والبرد والوحشة ، إذن لا بد وأن يوفر لهم جو الأمان النفسي ، إذ المرأة مهما تكن فإن طبيعتها تصاحبها ، أسرع إلى الخوف ، أسرع إلى الهواجس والتفكير ، أسرع إلى القلق ، كيف به إذن ؟ ليس أمامه سوى التأكيد ﴿ سَـَٔاتِيكُم ﴾ .

* لكن في الوقت ذاته يفكّر في النتائج ، ولا يريد لأهله أن يصابوا بخيبة أمل إن هو لم يستطع الحصول على ما وعد به أهله ، ومن هنا كان لا بد من وجود الرجاء ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ ﴾ .

وكأنّ التعبير يشير إلى أنه قال هذا الكلام أكثر من مرة ، ولا أظن السياق يمنع من هذا ، إذ من طبيعة المرأة أنها في موقف كهذا تفكر في المخاطر التي ربما تنتظره إن ذهب ، لذا فهي ستسأله عن السبب الذي يدفعه للذهاب ، فيكون أولاً : سآتيكم منها بخبر ، وقد تكون حصلت المراجعة في الحديث ، وكان لفظ « أو » معبراً عن هذا الذكر لأكثر من مرة .

---

(١) وهي طبيعة غير مذمومة ، حيث يصفها بعضهم بأنها « حدة المزاج » ، وقد أرشدتنا إلى هذه النتيجة مشاهد عدة حصلت لموسى عليه السلام بها قتل القبطي ، وبها أخذ برأس أخيه يجره إليه ، وبها ألقى الألواح .

لكن هنا نقطة مهمة ، وهي أنه حتى هذه الآيات التي وردت في سورة النمل ، والتي اقترنت « بالسين » نجد أنها لم ترشدنا إلى أنه قطع في الأمر ، بل عنده احتمالان ، ولذلك أعيد ذكر ﴿ءَاتِيكُم﴾ ، ﴿أوآتيكم﴾ .

وغاية ما يمكن أن يقال : إن موسى عليه السلام ـ وهو يعيش هذه اللحظات ناظرا إلى جانب أهله ـ وما يكتنفهم من مخاطر ، وكونه سيتركهم ، يشعر أنه يتحرك من واقع المسؤولية تجاههم ، ولهذا ينطق بهذا اللفظ ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ ـ وهو ما يفهم من كلام الزمخشري ـ : « عِدةً لأهله » ، والرجل في خطابه لأهله « زوجته » لا بد من مراعاة الجانب العاطفي عندها وتغذيته ، خاصة في مثل هذا الموقف ، إذ هو سيتركهم وحدهم ، وحتى لا يشغلهم التفكير ويزيد من قلقهم أنه بعيد عنهم ، كان منه هذا التطمين[1] . وحين يفكر في مدى قدرته على تحصيل ذلك وكونه مجهولاً ، وأن نتائجه غير مؤكدة ، ويفكّر في مواجهة الواقع يتناقص لديه مقدار الجزم ، فالأمر مجهول ، حينها يأتي هذا التردد ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ﴾ ، فلا بد من أن يترك مجالاً للاحتمال الآخر ، حتى لا تصاب النفس بخيبة الأمل ، وكأنّ موسى يريد أن يوطّن نفسه وأهله على قبول أي الاحتمالين ، لأن النفس إذا تهيأت لقبول النتائج على الأحوال جميعها ، ووطّن المرء نفسه على ذلك لم يصب بإحباط ، أو خيبة أمل في حال ما إذا كانت النتائج مغايرة لما كان يتوقعه .

فالجو النفسي الذي يحيط بالمشهد ، والسياق النفسي الذي عرض فيه المشهد ، هو الكفيل بالإجابة عن التغاير الحاصل بين هذه المقاطع ، سواء منها ما تقدم ذكره ، أم ما سيأتي الحديث عنه في تمام المقاطع المذكورة ، وفي هذا المقام ينبغي التنبه إلى أنه قد تختلف وجهات النظر في تعليل سرّ التغاير هذا بين المقاطع ، لكنها مع ذلك لا تخرج عن الإطار النفسي ، إذ هو الكفيل بحلّ هذا الإشكال عن الأذهان ، وما يذكره الباحث من توجيه لهذا التغاير ليس بالضرورة أن يكون الأحسن ـ وإن كان

---

(١) وهاهنا انقل لطيفة من لطائف أستاذي الدكتور فضل عباس إذ أشار إلى أن موسى عليه السلام كان يعدّ أهله إعداداً نفسياً لتقبل ما يحدث من النتائج ، إذن في هذا الموقف تدريب وتهيئة نفسية للزوجة على قبول النتائج ، مهما كانت ، ما دامت تواجهها مع زوجها ، فليست وحدها تواجه الموقف . انظر : عباس : القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ، ص ٣٠١ .

ينشده ـ لكن حسبه أن يرشد إلى وجوده ، ولعل في تعدد وجهات النظر ما يشير إلى ثراء اللفظ القرآني .

ربما يكون أول من نبه إلى سرّ هذا التغاير من المفسرين هو الزمخشري ، إذ أشار إلى لطيفة من لطائفه التي كثيراً ما نجد أمثالها في تفسيره بأسلوب « الفنقلة »(١) فيما يلي نص كلامه : « فإن قلت : سآتيكم منها بخبر ، ولعلي آتيكم منها بخبر كالمتدافقين ، لأن أحدهما ترجٍ ، والآخر تيقن ، قلت : قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه الخيبة ، فإن قلت : كيف جاء بسين التسويف ؟ قلت : عِدَةً لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة ، فإن قلت : فلم جاء « بأو » دون « الواو » ؟ قلت : بني الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما : إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ثقة بعبادة الله ، أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده »(٢) .

إن ما أشار إليه الزمخشري بألمعيته لا يخرج ـ في حقيقة الأمر ـ عن كونه تعليلاً للجانب النفسي ، أو السياق النفسي الذي وردت فيه المقاطع .

وقد يذهب بعض الناس إلى حمل هذا التغاير إلى اختلاف مواطن الحدث ، يذكرها الباحث فقط من حيث الاحتمالية ، فيكون التوجيه على النحو الآتي : موسى عليه السلام حين شاهد النار ، وقد كان بعيداً عنها قال بالجزم ﴿سَآتِيكُم﴾ . ثم لما قرب من المكان أكثر وأكثر بدأ يضعف لديه احتمالية أن يكون قادراً على الحصول على ما ينشده ، إذ بدت ملامح لا تشير إلى أنها نار حقيقة فكان إطلاقه ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ﴾ فالنص بهذا يكون منسجماً مع الطبيعة الإنسانية ، أو الإنسان حين يرى الشيء من بعيد يكون أمله فيه أكثر ، ويبقى يتلاشى كلما وضحت صفاته وبرزت معالمه ، وهذا الرأي ـ كما يلاحظ ـ لم يخرج عن فهم الإطار والجو النفسي ، وقد يكون مقبولاً نوعاً ما ، لكنه يبقى في حاجة إلى ما يسنده ولهذا يستبعده الباحث .

وهناك احتمال ثالث حيث أشار إليه بعض المحدثين(٣) من أن تعدد هذه العبارات

---

(١) الذي اشتهر به وهو قوله (فإن قلتَ : قلتُ)

(٢) الزمخشري : الكشاف ، تح : القمحاوي ، ٣/ ١٣٧ .

(٣) الخطيب : القصص القرآني مفهومه ومنطوقه .

إشارة إلى ما كان يدور في خلد موسى عليه السلام ، ويجول في خاطره ، فهو تارة يجزم ، وتارة يتردد ، لكن يبعد هذا الاحتمال كون القرآن أشار إلى كون هذا الكلام كان حديثاً لأهله ﴿إِذْ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ ، وهذا ما يبعد كونه حديثاً عما في نفسه[1] . وهذا الرأي كما ترى لم يخرج عن التفسير النفسي الذي سبقت الإشارة إلى أنه أحد أهم دعائم فهم المراد في المواقف المتشابهة .

وهناك قول رابع : قوله تعالى في النمل « سآتيكم » حرف التسويف يفهم الاستقبال»، ولفظ « لعل » أيضاً يعطي ذلك مع زيادة الترجي والطمع ، فيمكن لتقارب معنييهما أن يكون في لسانهم عبارة موضوعة للمعنيين معاً ، فلم يكن بدّ من ورود الحرفين عند الحكاية ، ليحرز ذلك وقوع المعنى وحصوله على ما في لسانهم »[2] ، لكن هذا القول مع أنه بني على الاحتمالية ، إلا أنه ينقص من قيمة اللفظ العربي ، إذ كأنه يشير إلى افتقار اللغة العربية إلى لفظ يؤدي ذلك المعنى ، ثم إنه قد يؤدي إلى جهل بالله عز وجل وهو ما تشعر به عبارة : « فلم يكن بدّ من ورود الحرفين عند الحكاية »[3] .

وهنالك توجيه آخر أنقل خلاصته ، ثم أشير إلى من ذهب إليه : هذا الحدث يحكي لنا عن موسى عليه السلام : الجسم الحي يتكلم ، والإنسان العاطفي يفكر ، والمسؤول عن أهله يتحرك ، يرى ناراً وهو في أشدّ الحاجة إليها دفءً وأنساً ، فمقولته واحدة ، ينطق من غير تفكير﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ ، فينشأ عن هذا القول صراع يفرضه الواقع من داخله ومن خارج أهله . . ويراجع نفسه ويتفكر فيما رجا وفيما عليه حاله ، ويراجعه أهله في خوف من تركهم ، فيكون الرد المطمع ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ ﴾ ، ويتكرر الأخذ والردّ بينه وبين نفسه ، وبينه وبين أهله ، فيتكرر القول المطمع ويتأكد

---

(١) للمزيد انظر : عباس : القصص القرآني ايحاؤه ونفحاته ، ص ٣٠١ .

(٢) الغرناطي ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير : ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، تح : سعيد الفلاّح ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨٣م) ، ٢/ ٨١١ .

(٣) ذكره الغرناطي : ملاك التأويل القاطع بإلحاد ذوي التعطيل ، ٢/ ٨١٢ وما بعدها ، وقد ذهب إلى قريب من هذا : حبنكه الميداني : قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ، (دمشق : دار العلم ، ط ٢ ، ١٩٨٩م) ، ص ١٢٥ ، حيث قال : لفظ : ﴿سَـَٔاتِيكُمْ﴾ عبارته اللفظية ، أما لفظ : ﴿ لَّعَلِّيٓ﴾ : عبارته في نفسه إذ هو يترجى لا يجزم .

لديه أن وراء النار خيراً محققاً إن لم يكن خيراً يفيد فسيحصل - في أقل تقدير - على شهاب قبس﴿ سَآتِيكُم ﴾[1] ، هذا التوجيه - كما هو ملاحظ أيضاً - لم يخرج عن الإطار النفسي ، وإن كان فيه اشتراك بالرأي الذي ذهب إليه « عبد الكريم الخطيب » إذ يقول : بأنه عبارة عن الصراع النفسي ، كما لوحظ أن تفسير المواقف كان قد تدرج من الشك إلى اليقين ، فأولاً كان « لعل » ، وأخيراً كانت « السين » التي تفيد التحقيق « وهو كما ترى ، لكنه رأي يبقى له وجهته .

بعد هذا العرض للاحتمالات التي في ضوئها يمكن أن يفسر الموقف ، نلمس أنها لم تغفل في عمومها الجانب النفسي ، وهذا يؤكد لنا على أن الجانب النفسي هو أبرز ما يمكن أن يستعان به على حلّ مثل هذه الإشكاليات في الظاهر ، ثم إن ما أورده الباحث من احتمالات ليست هي كل ما قاله المفسرون حول الآيات ، وإنما كان حريصاً على نقل ما يتصل منها بالجانب النفسي وأخيراً يسجل الباحث ميله إلى الرأي الأول في هذا المقام .

أما التغاير والاختلاف في المواضع الثلاثة (بذكر النار تارة ، وتكرار لفظ آتيكم وغيره مما تقدمت الإشارة إليه) فعائد إلى اختصاص كل سورة بما يناسب سياقها ، ولعل فيما تقدم من توجيه يجيب عن بعض هذا الاختلاف ، ففي تكرار لفظ ﴿ ءَاتِيكُم ﴾ ما فيه من التأكيد لأهله ، فهو تطمين للأهل من جهة ، ثم تعبير عن عدم الجزم بحصوله على أحدهما دون الآخر .

وأما سرّ اختيار لفظ ﴿ أَتَىٰهَآ ﴾ في موضعي سورتي طه والقصص ، ولفظ ﴿ جَآءَهَا ﴾ في النمل ، فقد أجاب عنه الكرماني[2] : قال لأنّ (أتى) و(جاء) بمعنى واحد ، ولأنه كثر دور الإتيان في طه نحو : ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾[3] و﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ ﴾[4] .

---

(١) ويتردد صاحب القول في مسألة الترتيب هذه مشيراً إلى أن الحاصل من الأمر أنها وقعت نتيجة صراع ، هي الواقع الإنساني . فالصدق في النقل هو الذي اقتضى نقل هذا الصراع » ، عوضين : البيان القصصي في القرآن ، ص ١٥٣ـ١٥٤ بتصرف .

(٢) الكرماني : محمود بن حمزة بن نصر : البرهان في توجيه متشابه القرآن ، تح : عبد القادر عطا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٨٦م) ، ص ١٢٦ .

(٣) سورة طه ، الآية ٤٧ .

(٤) سورة طه ، الآية ٥٨ .

﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾[1] . ﴿ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ ﴾[2] . ﴿ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾[3] .

ولفظ جاء في سورة النمل أكثر ، نحو : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ﴾[4] ، ﴿ وَجِئْتُكَ ﴾[5] ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ ﴾[6] . ثم قال : وألحق سورة القصص بسورة طه لقرب بينهما ، وهذا من لطائف الأسرار ، لكن فيما ذكره الكرماني نقاش إذ كان استقصاؤه يعوزه الدقة فيما أشار إليه بشأن : (أتى) و(جاء) بمعنى واحد . إذ كل منهما يختصّ بجانب معين ، ثم هو لم يشر إلى كثير من المواقع التي فيها لفظ جاء في السورة نفسها[7] ، كما أنه قد ذُكر لفظ ﴿ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ في السورة نفسها سبع مرات[8] .

فلفظ « أتى » يقال للمجيء بسهولة ، ويقال للمجيء بالذات ، وبالأمر ، وبالتدبير[9] .

أما لفظ (جاء) فهو مجيء أعم ، والإتيان به قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول ، والمجيء يقال اعتباراً بالحصول وهو يقال في الأعيان والمعاني[10] .

فكأنّ لفظ الإتيان اختص بالأمور المعنوية ، أما المجيء فاختص بالمحسوس ، وقد يخرج أحد اللفظين في الاستعمال عن ذلك للطيفة ما ، يصعب استقصاؤها في هذا الموطن ، فقد ورد على سبيل المثال في سورة النمل : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ ﴾[11] ولم يقال

---

(١) سورة طه ، الآية ٦٠ .
(٢) سورة طه ، الآية ٦٤ .
(٣) سورة طه ، الآية ٦٩ .
(٤) سورة النمل ، الآية ١٣ ، ولم يشر إلى لفظ ﴿ جَآءَهَا ﴾ الآية ٨ .
(٥) سورة النمل ، الآية ٢٢ .
(٦) سورة النمل ، الآية ٣٦ .
(٧) مثل : ﴿ جَآءَهَا ﴾ الآية ٧ ، ﴿ جَآءَتْ ﴾ الآية ٤٢ ، ﴿ جاءو قال ﴾ الآية ٨٤ ، ﴿ مَن جَآءَ ﴾ الآيتان ٨٨ـ ٨٩ .
(٨) ﴿ أتو ﴾ الآية ١٨ ، ﴿ لَيَأْتِيَنِّى ﴾ الآية ٢١ ، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم ﴾ الآية ٣٧ ، ﴿ وَأْتُونِى ﴾ ١ ، ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾ الآية ٥٤ ، ﴿ لَتَأْتُونَ ﴾ الآية ٥٥ ، ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ الآية ٨٧ .
(٩) الراغب : المفردات ، ص ٨ .
(١٠) الراغب : المفردات ، ص ١٠٣ .
(١١) الآية ١٨ .

جاءوا ، و﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم ﴾ ، ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي ﴾[1] ، لكن يحيل الباحث على من تناول بعض هذه الجوانب[2] .

المقطع الثاني :

وهو الموقف الذي يتحدث عن وصف عصا موسى عليه السلام ، فقد لوحظ أن الحديث عن العصا جاء في خمسة مواضع ، على النحو الآتي :

الموضع الأول : قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾[3] .

الموضع الثاني : قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾[4] .

الموضع الثالث : قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾[5] .

الموضع الرابع : قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾[6] .

الموضع الخامس : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[7] .

الملاحظ أن الحية في المواضع المتقدمة وصفت بأوصاف ثلاثة : ﴿حية تسعى ، رآها تهتز ، كأنها جانّ ، ثعبان مبين﴾ .

وقد تساءل المفسرون عن سرّ هذا التغاير ؟ فقال بعضهم ـ وهو قول أغلب المفسرين ـ[8] :

---

(١) الآيات ٣٧ـ٣٨ .
(٢) انظر عباس : إعجاز القرآن .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٠٧ .
(٤) سورة طه ، الآية ٢٠ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية ٣٢ .
(٦) سورة النمل ، الآية ١٠ .
(٧) سورة القصص ، الآية ٣١ .
(٨) الزمخشري : الكشاف ، تح : القمحاوي ، ٣/ ١٣٨ ، و١٧٥ ، الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ، ٢٤/ ١٣١ ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ١٣/ ١٦٠ ، النسفي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، (بيروت : دار الفكر ، د . =

« وصفت العصا بهذه الأوصاف الثلاثة ، هو وصف لشيء واحد ، حيث يختلف من حيثية الوصف : فمن حيث الضخامة هي ثعبان مبين ، ومن حيث خفة الحركة : هي جان « ويقصدون به صغار الحيات » ، ومن حيث حقيقتها : هي حية تسعى : « الحية اسم جنس ، وهو يطلق على الذكر والأنثى ، والصغير والكبير » .

ابتداء أمرها كان كالجانى « صغار الحيات » ، ثم تعاظم وتزايد إلى أن صار ثعباناً ، ولم يخرج كلام المفسرين في الغالب عن هذا التفسير ، بعد استعراض ما ذهب إليه أغلب المفسرين في توجيه هذا الاختلاف للباحث أن يتساءل :

هل حقاً تتحدث النصوص المتقدمة عن مشهد واحد؟!

هل للسياق دور في توضيح سرّ هذا الاختلاف؟!

ما مدى البعد النفسي في تفسير الآيات وتوجيه هذا الاختلاف؟!

جواب الأول : لدى التدقيق في النصوص يلاحظ أن الآيات تتحدث عن ثلاثة مواقف وليس عن موقف واحد ، توضيح ذلك كالآتي :

موقف لقاء موسى ربه لما طلب منه أن يلق عصاه ، وقد تحدثت عنه آيات سورة طه وسورة النمل وسورة القصص ، حيث جاء وصف العصا في هذه المواضع في سورة طه وصفت بأنها ﴿ حَيَّةٌ ﴾ ، ومرتان شبهت بـ ﴿ ٱلْجَآنَّ ﴾ في سورتي النمل والقصص ، فالمواضع الثلاثة كانت تتحدث عن مشهد واحد ـ كما ترى ـ وصفت الحية بوصفين : ﴿ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ ﴾ و﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ .

الموقف الثاني حين التقى موسى بفرعون ، وأعلمه بأنه رسول من عند الله تعالى ، حيث طلب فرعون من موسى آية فكانت العصا ، حيث وصفت العصا بأنها ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ ﴾[1] .

= ط ، ١٩٨٠م) ، ٢/ ٥١ ، الحلبي : الدر المصون ، ٢/ ٣١٦ ، أبو السعود : إرشاد العقل السليم ، ٦/ ٢٧٤ ، الشوكاني : فتح القدير ، ٤/ ٩٨ ، الآلوسي : روح المعاني ، ٢٦/ ١٧٧ ، الطنطاوي ، محمد سيد ، وكومي ، محمد : التفسير الوسيط ، (القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة ، ط ١ ، ١٩٩٧م) ، ٩/ ٩٧ .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٠٧ .

الموقف الثالث وهو موقف التحدي لسحرة فرعون ، وقد وصفت أيضاً بأنها ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[1] .

خلاصة ما في الأمر أن العصا وصفت في المرة الأولى بوصفين ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ، وفي الثانية ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ ، وعندما تكون مواجهة مع فرعون كان وصفها بأنها ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ .

جواب الثاني : دور السياق في توضيح سرّ هذا التغاير والاختلاف ؟

لما كانت المواقف متعددة فلم تعد حاجة للمقارنة بين هذه المواقف المختلفة ، لكن سيركز الباحث على سرّ اختصاص كل موقع بما وصف به ، خصوصا في المواقع الثلاثة الآتية : من (سورة طه ، سورة النمل ، سورة القصص) . حيث المشهد واحد ، خاصة وأنه مرتبط بالمثال السابق فقد وردت في سياق واحد .

في سورة طه : جاء الحديث عن هذا المشهد في معرض المنّة على موسى عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾[2] ، والسورة تظهر كثيراً من جوانب التربية الإلهية لموسى عليه السلام[3] ، وكانت تركز على جانب التطمين الإلهي للمرسلين ، وأن الرسالة لا تكون مصدر شقاوة بحال[4] ، وأن الرسالة مصدر طمأنينة ، وفي ظل هذا السياق ، يسال موسى عليه السلام ربه أن يشرح صدره ، وتشير الآيات إلى تلك الطمأنينة التي حصلت لموسى عند لقاء ربه ، ولهذا كان الجواب الطويل لربه : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[5] ، ويكون الأمر بإلقاء العصا ، ويأتي الوصف بأنها : ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ فالآيات تتحدث عن الحدث وكونه حقيقة ، وعن منّة الله على رسوله ، وكيف أن الرسالة لا تكون مصدر إرهاب وشقاوة لرسوله ، إذ حينما ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[6] ، كان التطمين : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ

(١) سورة الشعراء ، الآية ٣٢ .

(٢) سورة طه ، الآية ٣٧ .

(٣) كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ الآية ١٢ ، ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ الآية ١٣ ، ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ الآية ٣٩ .

(٤) ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ .

(٥) الآية ١٨ .

(٦) الآية ٦٧ .

أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ ، الجدير بالذكر أنه يتكرر في السياق جانب التطمين والنهي عن الخوف : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾[1] ﴿ لَا تَخَافَآ ﴾[2] ، ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾[3] ، في ضوء السياق المتقدّم يأتي الوصف للعصا بأنها حية وهو الوصف الطبيعي ، إذ لم يكن الغرض إبراز ردود الفعل ، وإنما الحديث عن هذه كآية من آيات الله ، فهي[4] حية تسعى ـ على وجه الحقيقة ـ إذ لم تكن خيالاً أو سحراً ، ولذا جاء قوله تعالى : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[5] ، أي حالتها الطبيعية التي كانت عليها قبل ، ومما يؤكد كون الآيات تتحدث عن الحقائق كما هي ، لا كما تتراءى ، إن هذه السورة لا كما تتراءى أن هذه السورة الوحيدة هي التي أظهرت لنا حقيقة عصي السحرة ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾[6] ، وهذا هو الموقع الذي ورد فيه الأمر بالأخذ ﴿ خُذْهَا ﴾[7] .

في سورتي النمل والقصص : كان المقطع الذي يتحدث عن وصف العصا واحداً : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾[8] ، لكن التعقيب يختلف : ففي النمل : ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[9] ، وذلك منسجم مع السياق ، وفي القصص : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[10] ، منسجم كذلك مع

---

(١) الآية ٢١ .
(٢) الآية ٤٦ .
(٣) الآية ٧٧ .
(٤) يشير بعض المحدثين إلى أن وصف الحية بالسعي في هذه الآية جاء متناسبا مع المقام ، إذ شأن الحيات أن تكبر وتتضخم ، فتصبح كومة من اللحم ، وهذا مما يذهب بكثير من الرهبة والفزع المهول الذي يقع في النفس عند النظر إليها ، ولكنها حين تكون على هذه الجسامة والضخامة ، ثم هي مع ذلك قادرة على الانطلاق والسعي إلى فريستها ، يكون ذلك مما يلقي عليها ألوانا صارخة من الهول والفزع . . فهذا الوصف يخرجها من الركود والهمود الذي توحي به الكلمة ، انظر : الخطيب : إعجاز القرآن ، ٢/ ٢٩٧ .
(٥) الآية ٢١ .
(٦) الآية ٦٦ .
(٧) الآية ٢١ .
(٨) سورة النمل ، الآية ١٠ ، سورة القصص ، الآية ٣١ .
(٩) سورة النمل ، الآية ١٠ .
(١٠) سورة القصص ، الآية ٣١ .

السياق ، يلاحظ في المقطعين : وصف رد فعل موسى عليه السلام ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ من السياق أيضا .

جواب الثالث :

هل للجانب النفسي دور في إبراز سرّ هذا التغاير والاختلاف ؟ الحق أنه نعم ، له الدور الأكبر ، ولعله من المناسب هنا أن يشار إلى أن المقدمة التي انطلق منها صاحب « الفن القصصي في القرآن »[1] كانت في ضوء التفسير النفسي لهذه المقاطع ، إذ نعى على المفسرين انشغالهم بالجانب اللفظي وإعراضهم عما تثيره الألفاظ من انفعالات ومشاعر ، مشيرا إلى أن الجانب النفسي هو الذي تفهم في ضوئه الآيات[2] ، فالذي يميل إليه الباحث في توجيه هذا التغاير يمكن إجماله بالآتي :

المقطع الذي ورد فيه ذكر الحية « أنها تسعى » كان الحديث عنه من حيث هو واقع ، وهو مع ذلك لم يخل من الإشارة إلى الجانب النفسي ، فموسى عليه السلام ، حين شاهد هذه المشاهد ، أوجس في نفسه خيفة ، وهذا فعل نفسي .

والمقطع الذي تحدث به عن الجانب الذي ظهر لموسى من هذه العصا ، يبرز لنا ردة فعله الطبيعية وهي الهرب ، فقد تراءت له كأنها جانّ (من الجن) وليس صغار الحيات »[3] ، ولذلك وصف بـ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ فهي تصور غريزة الخوف ، وسلوك الإنسان النفسي عند الخوف (الهرب) ، فلفظ الجان مثير للخوف ، فكأن هذا المشهد قد عرض مرة من حيث وصفه على وجه الحقيقة ، ومرة من حيث وصف الجانب النفسي لموسى عليه السلام حين شاهد هذا المشهد ولذلك أعقبه ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ .

---

(١) خلف الله ، : الفن القصصي في القرآن ، ص ٥ .

(٢) ومع كون الباحث يوافقه في أن الجانب النفسي له الدور الأكبر في توضيح هذه المقاطع ، إلا أنه لا يوافقه فيما ذهب إليه من تأويل الآيات ، وصرفها عن المعنى اللائق بها ، فقد قال : « إن القرآن يستعمل لفظ الجان حين يقصد الحديث عن موسى لتصوير عاطفة الخوف وغريزة الهرب ، ويستعمل لفظ الثعبان أو الحية حين يقصد إلى تصوير ما حصل بين موسى والسحرة أو فرعون وموسى » ، وهكذا يلاحظ القارىء بكل وضوح أن صاحب هذا الرأي قد جمع بين الحية والثعبان ، وقد تبين لنا أن وصف الحية لم يكن إلا لموسى ، وأن الثعبان لم يأت إلا عند مواجهة فرعون ، أو مواجهة سحرته .

(٣) للمزيد انظر : عباس : القصص القرآني ، ص ٣٠٤ حيث ناقش هذه النقطة وذكر أدلة ترجيح لما ذهب إليه .

والمقطع الذي تحدث لنا عن مواجهة فرعون وصف العصا بأنها ثعبان مبين ، فهو وصف من حيث إنها تراءت لفرعون بهذه الحالة ، وهي أشدّ الحالات من حيث فعلها في النفوس وأكثرها رعباً فقد رآها « ثعباناً مبيناً » ، والمقام مقام رهبة ، وكذلك بالنسبة للسحرة ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ ﴾[1] ، فالتركيز على جانب أثره في الطرف الآخر ، والجدير بالذكر أن الموضعين اللذين وصفت بهما العصا بأنها « ثعبان » جيء بصفة « مبين » فهي واضحة[2] ، وهكذا نلحظ أن الجانب النفسي هو الذي أبرز لنا سرّ هذا التغاير ، وأيا ما كان الأمر فقد يجد آخرون لهذه المقاطع فهماً جديداً ، لكنه في نهاية الأمر لا يمكن أن يغفل الجانب النفسي في هذا التفسير[3] .

وفي القصص القرآني مشاهد كثيرة تبدو لأول وهلة أنها تعرض لمشهد واحد متغاير ، لعل في المثالين المتقدمين ما يشير إلى بقية المواضع ، ويبين مراعاة الجانب النفسي والتنبه إليها عند مقارنة هذه المواقع بعضها ببعض[4] ، إذ لعله يكون هاديا لنا إلى جوانب جديدة من جوانب الإعجاز ، والقصص القرآني بعد هذا كله يرسم لنا الشخصيات ، ويبرز لنا وظائفهم النفسية ، فتتكون لدينا نماذج بشرية متكاملة ، وهذا ما سيركز عليه المبحث القادم بإذن الله تعالى .

المبحث الثاني
نماذج بشرية

هذا المبحث في واقع الأمر عبارة عن نتاج ومحصلة ما تقدمه من مباحث في هذا الباب ، إذ كل ما تقدم من حديث هو في الحقيقة حديث عن نماذج الشخصية

(١) سورة الأعراف ، الآية ١١٦ .
(٢) ولفظ مبين هذا متناسب مع السياق ، فقد سبق في آيات الأعراف قول موسى عليه السلام : ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ﴾ ، الآية ١٠٥ ، وفي الشعراء قال له : ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ ، الآية ٣٠ .
(٣) انظر مثلا : الخطيب : إعجاز القرآن ، ٢/ ٢٩٦-٣٠٠ .
(٤) يشير الباحث إلى أن كتاب القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته - المشار إليه - كان قد بني على نقض فكرة التكرار في القصص القرآني ، فمن أراد المزيد يمكن الرجوع إليه ، وهنالك كتاب آخر وهو : القصبي ، محمود زلط : قضايا التكرار في القصص القرآني ، (القاهرة : دار الأنصار ، ط ١ ، ١٩٧٨م) .

الإنسانية ، وبالتالي لن يكون في هذا الحديث كثير كلام بقدر ما يكون فيه ضرب أمثال .

المقصود بالنماذج : جمع نموذج بفتح النون : « مثال الشيء » ، وهو لفظ معرّب ، والأنموذج بضم الهمزة : ما يدل على صفة الشيء ، وهو معرّب ، وفي لغةٍ : نموذج بفتح النون والذال معجمه مفتوحة مطلقا ، وقال الصغاني : النموذج مثال الشيء الذي يعمل عليه وهو تعريب نموذجه وقال الصواب النموذج لأنه لا تغيير فيه بزيادة[1] .

نعني بالنموذج في هذه الدراسة : مجموعة من المواقف والأحداث التي تدور حول شخصية من الشخصيات بحيث تتكفل برسم ملامحها العامة ، أو إعطاء تصور كلي للشخصية .

سبقت الإشارة إلى أن القرآن يذكر لنا الشخصيات ، ويبرز لنا خصائصها من خلال الحديث الذي ينقله إلينا ، ولعل أبرز مظاهر رسم الشخصيات هذا يكمن في القصة ، فالقصة أبرز وسيلة وأكبر مختبر يطلعنا على حقيقة الشخصية ، ولما كان الحوار أحد أهم عناصر القصة قد لمسنا أنّ الحوار أبرز تلك الجوانب في إبراز ملامح الشخصية : وقد مرّ الحديث عن الحوار بما يغني عن الإعادة .

فالقرآن في عرضه للنماذج البشرية المتنوعة ، لم يكن يقصد تعرية تلك الشخصية على حقيقتها ، بقدر ما كان يقصد إلى توجيه البشرية نحو السلوك الأمثل[2] ، فما من حديث عن سلوك تمثلته شخصية ما إلا وكان التوجيه الأمثل لهذا السلوك قد تخلله ، فالقرآن كتاب هداية وكتاب تربية وكتاب توجيه ، فالنماذج الإنسانية القرآنية نماذج هادفة .

والنماذج التي عرضها القرآن كثيرة ، بحيث لا يغطي الحديث عنها عشرات

---

(١) الفيومي ، أحمد بن محمد : المصباح المنير ، (بيروت : مكتبة لبنان ، د . ط ، ١٩٩٠م) ، ص ٢٣٩ ، وانظر : ابن نجيم ، زين العابدين بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر : البحر الرائق شرح كنز الدقائق ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط . ت) ، ٦/ ٣٢ .

(٢) كما أن القرآن لم يكن يعني برسم الخطوط الشكلية للشخصية وإبراز ملامحها الخارجية كشكل الوجه ولون الشعر و. . انظر : نقرة : سيكولوجية القصة ، ص ٣٦٠ .

الكتب ، فضلاً عن فصل في كتاب ، إذ كل نموذج بل كل شخصية تحتاج إلى كتابة مستقلة وتناول جديد[١] .

والنماذج التي عرضها القرآن متنوعة ، بحيث تستوعب الحياة كلها ، والزمان كله والمكان كله ، والحديث عن النماذج قد يكون حديثاً عن النموذج الإنساني على وجه العموم ، أو ما يمكن أن يطلق عليه « الجنس البشري » ، أو النفس الإنسانية على وجه العموم ، حيث في القرآن الكريم من هذا اللون مئات المواقع التي ترشدنا إلى هذه الطبيعة البشرية .

وقد يكون حديثاً عن أشخاص بأعيانها كالحديث عن الأنبياء كل على حدة ، أو حديثاً عن أشخاص كان لهم دور كبير في الوقوف أمام الدعوات كفرعون وقارون . .

وقد يكون حديثاً عن نموذج تشكل حول موقف ما ، فدخل فيه كل من اتخذ عين الموقف ، كما هو الشأن مع « المؤمن والمنافق والكافر وغيرهم » ، ثم إن في القرآن نموذجا فريدا من البشر ، إنه نموذج « الأنبياء »[٢] .

المطلب الأول : أنواع النماذج البشرية[٣]

لو استعرضنا النماذج البشرية التي تحدث عنها القرآن فإننا نجدها لا تخرج عن التقسيم التالي :

---

(١) يجدر بالذكر أن سيد قطب وهو يحدثنا عن التصوير الفني في القرآن حدثنا في الصفحات الأخيرة عن النماذج الإنسانية بإيجاز ، وأشار إلى أنه سيتناول هذا الموضوع في كتاب مستقل ، لكن عاجلته المنية قبل أن يظهر هذا العمل ، وقد كانت الكلمات المعدودة التي كتبها سيد حول هذا الموضوع بمثابة المفتاح الذي استعان به كثير من الكتاب بعده محاولين متابعة الخطى التي رسمها سيد في تلك السطور ، وقد يكون من المناسب أن يشار إلى أحد هذه الكتابات التي ذكرت ذلك صراحة ، انظر : فارس : النماذج الإنسانية في القرآن ، ص ١٣١ .

(٢) للمزيد انظر : فارس : النماذج الإنسانية في القرآن ، ص ٢٩ـ٣٣ .

(٣) كان تقييد النماذج بـ« البشرية » وذلك أن القرآن تحدث عن نماذج غير بشرية حيث يمكن تقسيم النماذج غير البشرية إلى قسمين : نماذج مشاهدة : وهي من الحيوان كالهدهد والنملة في قصة سليمان ، أو كلب أصحاب الكهف ، أو . . ، وقسم : نماذج غير مشاهدة وهي أيضاً على قسمين : ١ـ نموذج خيّر كالملائكة . ٢ـ نموذج شرّير كالشياطين . ٣ـ نموذج بينهما وهم من الجن .

أولاً : نماذج فردية معينة :

هذا النوع يشمل الذكر والأنثى ، الصغير والكبير ، وفي القرآن من هذه النماذج بنوعيها الصالح كما في أنموذج الأنبياء بدأ بآدم وإنتهى باتباع الرسل والأنبياء ، وغير الصالح : كفرعون ، وهامان ، وقارون . .

ولا يخفى أنه لو أخذت أي شخصية من الشخصيات الخاصة التي عرض لها القرآن ودرستها دراسة متكاملة ، بمواقعها المتفرقة في كتاب الله ، فإنك ستطلع من خلال ذلك على ملامح هذه الشخصية بحيث يمكن الإفادة من دراستها وتوظيفها في واقع الحياة المعاصرة .

ثانياً : نموذج إنساني لفئة معينة تجمعها رابطة واحدة :

قد تكون هذه الرابطة رابطة العصبية والجنس ، كجنس بني إسرائيل ، نماذج تكون معتقدا : كفئة المؤمنين من جهة ، وفئة الكافرين من جهة أخرى ، وقد تكون رابطة سلوك واعتقاد : كالمنافقين ، وقد تكون غير ذلك ، والقرآن إذ يحدثنا عن هذه النماذج يظهر لنا الخصائص المشتركة لدى هذه الفئات ، ولو أمعنّا النظر فإننا سنجد أن هذا النموذج كان له أكبر النصيب في التعبير القرآني ، إذ يمكننا في ضوء المعطيات الحديثة أن نستخرج من القرآن الكريم نماذج لكل فئة تجمعت حول سلوك معين سواء أكان هذا السلوك أخلاقياً بنوعيه : المحمود : (كالإنسان الصادق ، والإنسان الأمين) ، أم المذموم : (كالبخيل ، الجبان ، المخادع) . . ، أم كان بواقع مركزه في المجتمع : كالقائد ، أو التابع ، أو . . ، وعلى مستوى الأسرة : كالأب ، الابن ، والأم والبنت ، الزوج والزوجة .

وغير ذلك من النماذج التي يصلح كل فئة منها لأن تكون أنموذجاً متكاملاً باستعراض بقية المواقع التي حدثتنا عنه ، وهكذا يتشكل النموذج الإنساني لفئة معينة حول فكرة أو سلوك أو غير ذلك .

وكل واحد منها يصلح كدراسة مستقلة ، وتحت هذا التقسيم نجد أننا أمام مئات النماذج البشرية العامة ، تكاملت معالمها واتضحت صورها في السياق القرآني ، فهي صالحة لأن تجري عليها دراسة مستقلة متكاملة ، فيؤخذ مثلاً : نموذج اليهودي ،

نموذج المنافق ، نموذج الصادق أو الكاذب ، نموذج القيادة ، نموذج الزوجية ، نموذج الأبوة. . وهكذا .

كل أنموذج مما تقدم أو ما يمكن أن يدخل في إطاره جدير بدراسة مستقلة وهي بلا شك ستكون مثمرة وسوف تقدم فهماً جديداً وتفسيراً قيّماً للشخصية الإنسانية يمكن توظيفها في الواقع البشري ، كما يمكن في ضوئها التعامل مع النماذج المماثلة لها في أرض الواقع .

مئات النماذج بحيث يشق على الباحث مجرد استقصائها ذكراً فضلاً عن الحديث عنها ، فهي ما زالت تنتظر دراسة دقيقة جادة ، تبرز معالم كل فئة من الفئات .

ثالثاً : نماذج إنسانية عامة :

لقد حوى القرآن الكريم نصوصاً كثيرة تلقي الضوء على الطبيعة الإنسانية وتبرز حقيقتها على وجه العموم ، فالقرآن الكريم يرشدنا إلى الطبيعة التي تتشكل منها الشخصية الإنسانية ، فهي طبيعة واحدة مهما اختلفت الظروف والأحوال أو تعددت الأزمنة والأماكن ، فهي نماذج أصلية ، والآيات التي تتحدث عن هذه الطبيعة كثيرة جداً ، بحيث يتشكل من استقرائها صورة متكاملة للطبيعة الإنسانية بعامة ، ويظهر من خلالها التحليل الرباني لطبيعة النفس الإنسانية .

فقد أوضحت نصوص القرآن الخطوط العريضة للشخصية الإنسانية والطبيعة البشرية ، ليس فقط من حيث الصفات التي تتصف بها بل من حيث الدوافع التي تتشكل في ضوئها الشخصية ، ثم من حيث الغرائز التي تحركها نحو سلوك ما ، ثم من حيث الانفعالات التي تنطوي عليها هذه النفس الإنسانية كل هذا وغيره مما يعين على رسم الخطوط الحقيقية للطبيعة الإنسانية نجده في ثنايا الآيات القرآنية سواء منها ما كان حديثاً عاماً أم ما كان في ثنايا التعقيب على قصص الأشخاص .

ولا يخفى أن حديثاً عن هذا النوع « النوع الإنساني » يحتاج إلى دراسات مستقلة إذ يتعذر على دراسة كهذه أن تقوم بإبراز أهم جوانب الشخصية الإنسانية في صفحات موجزة ، فحسب الباحث أن يشير إلى حضورها بشكل واضح في آيات القرآن .

ويرجو الباحث أن يقدّم لمحة موجزة عن هذه الشخصية الإنسانية كما تتحدث عنها

النصوص القرآنية ، وأن يبرز الخطوط الرئيسية لمعالم الشخصية الإنسانية ، إذ تظهر قيمة هذه المحاولة كونها تحاول أن تبرز « صفات الإنسان » ومعالم شخصيته هكذا عارية كما وصفها خالقها ، فالنصوص القرآنية في حديثها عن الإنسان متكاملة .

حدثنا القرآن عن الطبيعة الإنسانية وأبرز لنا جوانبها وأهم معالمها وذلك في نصوص كثيرة[1] هذا فضلاً عن كثير من المواقع التي كانت تحكي لنا حقائق عن الطبيعة الإنسانية يمكننا أن نفهمها من خلال ما تعرضه لنا عبر القصص القرآني .

والقرآن حين يحدثنا عن الإنسان ، لم يحدثنا عن صفاته الوراثية فحسب ، بل حدثنا عن صفاته الطبيعية (الفسيولوجية) والنفسية والعقلية ، ووقف بنا عند كثير من حقائق النفس الإنسانية ، فقد حدثنا عن أنفسنا ، كل ذلك بوصف واقعي ، يجد المرء صداه ومصداقيته في نفسه فضلاً عن غيره .

كما أن حديث القرآن عن الإنسان لم يكن متركزاً على الجانب السلبي للإنسان دون الجانب الإيجابي ، بل كان حديثاً كاشفاً عن الطبيعة التي تتشكل منها الشخصية الإنسانية ، فبعضها إيجابي وبعضها سلبي ، وإن كان جانب السلبية فيه أبرز من جانب الإيجابية ، ذلك أنه واقعي ، ويهدف إلى تقويم السلوك وتعديله نحو الأمثل ، إذ وصف الإنسان بحسب أبعاده المختلفة : العقلية ، النفسية ، الجسمية ، السلوكية والروحية . . وغير ذلك حتى إنه باستجماع هذه النصوص تتشكل لدينا تلك الشخصية الإنسانية ، واضحة المعالم ، محددة الصفات ، تدرك كيف تفكر وتعرف كيف تقوّم السلوك ، وتحس بواقع المسؤولية والوظيفة التي أنيطت بها ، ومن ثم تلمس القيمة التي تعطيها نصوص القرآن لهذه النفس الإنسانية حين يحدثنا عنها بهذه الكثرة ، وحين ندرك أنها المقصود الأول والأخير من التوجيهات القرآنية .

خاصة وأن هذا السلوك هو المرتكز الذي تدور حوله الأحداث ، فيحس قارىء القرآن أن هذه النصوص قد تشكلت حول هذا السلوك ، فتحدثنا عنه وتشير إلى مدى قربه وبعده عن جانب الهداية الذي يهدف إليه القرآن ، وقد بدأ واضحاً ذلك الأمر من

---

(١) فقد ورد لفظ الإنسان في القرآن الكريم : (٦٥)مرة ، ولفظ إنس (١٨)مرة ، ولفظ أناسي(٤٩) مرة ، ولفظ أناس(٥) مرات ، إنسيا مرة واحدة .

خلال أنه لم يتحدث عن المؤمن إلا وقرنه بالسلوك وهذا بارز كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[1] .

كما حدثنا القرآن عن بقية جوانبه النفسية ، كالجانب الانفعالي ، إذ الإنسان يحب ويكره ، يرضى ويغضب ، يفرح ويحزن ، يحسن ويسيء ، يجزع ويصبر ، يشقى ويسعد ، يكرم ويبخل ، يتذكر وينسى ، يتعلم ويجهل ، يخطىء ويصيب . . وغير ذلك من الصفات التي نجدها مبثوثة في نصوص القرآن ، وقد يكون من أبرز هذه الصفات الجوانب السلبية .

المطلب الثاني : الخطوط العريضة لصفات النفس الإنسانية :

الإنسان محدود القدرات والاستعدادات العقلية والنفسية والجسمية : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2] ، وقال عز وجل : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾[3] .

ضعيف : وهذا الضعف ليس فقط في الجانب التكويني والجسمي ، بل في جوانبه الأخرى العقلية ، والوجدانية والتحكم بغرائزه وشهواته ، قال عز وجل : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[4] ، وقال عز وجل : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ ﴾[5] ، وقال عز وجل : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾[6] .

جحود ، كفور لنعم الله ، يبطر النعمة : قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ ﴾[7] ،

---

(١) يذكر أن لفظ الإيمان اقترن بالعمل الصالح في أكثر من (٨٠) موضعا في نصوص القرآن .
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٣٦ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .
(٤) سورة النساء ، الآية٢٨ .
(٥) سورة الأنفال ، الآية ٦٦ .
(٦) سورة الروم ، الآية٥٤ .
(٧) سورة يونس ، الآية ١٢ .

وقال عز وجل : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1] ، وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾[2] .

محبّ للجدال ، مكابر ، عنيد : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[3] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[4] .

عجول متسرع ، قال عز وجل : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾[5] ، وقال عز وجل : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ ﴾[6] .

كثير النسيان : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ ﴾[7] ، ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[8] .

ظلوم جهول : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[9] .

شحيح بخيل : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ ﴾[10] وقال عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[11] .

فاجر : قال تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[12] .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ .
(٢) سورة العاديات ، الآية ٦ .
(٣) سورة النحل ، الآية ٤ .
(٤) سورة الكهف ، الآية ٥٤ .
(٥) سورة الإسراء ، الآية ١١ .
(٦) سورة الأنبياء ، الآية ٣٧ .
(٧) سورة يونس ، الآية ١٢ .
(٨) سورة طه ، الآية ١١٥ .
(٩) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢ .
(١٠) سورة النساء ، الآية ١٢٨ .
(١١) سورة الإسراء ، الآية ١٠٠ .
(١٢) سورة القيامة ، الآيتان ٥-٦ .

هلوع جزوع : ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[1] .

مغرور : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾[2] .

كثير العصيان والطغيان متقلب : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[3] ، وغير ذلك كثير من الصفات التي أشار إليها القرآن .

أنواع النفوس

كما عرض القرآن لأنواع النفوس البشرية وأبرز خصائصها في إيجاز شديد سيذكر الباحث هذه النفوس حسب التقسيم الآتي :

١ . **النفوس العليا** : ويقصد بها النفوس التي تنفذ أوامر الله ، وتشمل :

* النفس المطمئنة : التي تخاف الله وتؤمن بلقائه وترضى بقضائه : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[4] .

* النفس اللوامة : التي تشعر بالذنب وتلوم صاحبها على فعله وتندم عليه : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾[5] .

* الزكية : النقية الطاهرة من الخبث والدنس﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[6] .

٢ . **النفوس الدنيا** : هي التي استباحت حرمات الله عز وجل واتبعت هواها :

* الحاسدة : ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[7] .

* الآثمة : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[8] ، و﴿ قَالَ

---

(١) سورة المعارج ، الآيات ١٩ـ٢١ .
(٢) سورة الانفطار ، الآية ٦ .
(٣) سورة العلق ، الآيتان٦ـ٧ .
(٤) سورة الفجر ، الآية ٢٧ـ٣٠ .
(٥) سورة القيامة ، الآية ٢ .
(٦) سورة الأعلى ، الآية ١٤ .
(٧) سورة البقرة ، الآية ١٠٩ .
(٨) سورة المائدة ، الآية ٣٠ .

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾(1) .

* أمارة بالسوء : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾(2) .

* الظالمة : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾(3) .

* المخادعة : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾(4) .

* المستكبرة العاتية : ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١﴾(5) .

البخيلة : ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾(6) ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(7) .

وقد حدثنا القرآن عن جملة من الصفات التي جبلت عليها الغالبية العظمى من الناس ، كما نلمس ذلك من النصوص الآتية : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(8) ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(9) ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(10) .

كل هذا وغيره من النصوص الكثيرة نجدها مبثوثة في آيات القرآن الكريم ، تحدثنا عن الطبيعة الإنسانية تهدف إلى إبراز قابلية مثل هذه الصفات للتغيير وتقدّم العلاج المناسب لتلك الأدواء المزمنة في الطبيعة فيكون بذلك سلوك الإنسان قابلاً للتشكيل والتغيير والتعديل وهو ما هدفت إليه نصوص القرآن وتوجيهاته ، خاصة من خلال إيراد تلك الآيات التي تقص على بني الإنسان نماذج البشرية المختلفة والمتنوعة .

---

(1) سورة يوسف ، الآية ١٨ .
(2) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .
(3) سورة يونس ، الآية ٥٤ .
(4) سورة البقرة ، الآية ٩ .
(5) سورة الفرقان ، الآية ٢١ .
(6) سورة محمد ، الآية ٣٨ .
(7) سورة الحشر ، الآية ٩ . للمزيد انظر القذافي : علم النفس الإسلامي ، ص٨ وما بعدها .
(8) انظر مثلا سورة يوسف ، الآية ٤٠ .
(9) سورة غافر ، الآية ٥٩ . ومثلها في سورة يوسف : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ ، الآية ١٠٣ .
(10) سورة يوسف ، الآية ٣٨ .

وقد حدثتنا الآيات عن جوانب من السلوك الإنساني وتنوعه ، فهو على العموم لا يخرج عن نوعين : سلوك سوي ، ويشمل : سلوك الطاعة ، وسلوك غير السوي : حيث يشمل سلوك الكفر ، النفاق ، التهكم والسخرية ، الخداع كما يفهم من قول إخوة يوسف : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ . . ﴾[1] ، العدواني الإجرامي كما في : ﴿ فَقَتَلَهُۥ ﴾[2] و﴿ ٱقۡتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾[3] ، الرفض ، التقليد ، التقاعس كما هو حال بني إسرائيل مع الرسالة : ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[4] .

والحق الذي لا بد من اعتباره هو أن هذه النصوص تشكل في مجموعها قواعد علمية تكشف عن نواميس النفس الإنسانية ، ولو أقيمت دراسات في هذا الميدان فإنها بلا شك ستكشف عن كثير مما خفي من جوانب النفس الإنسانية ، خاصة تلك التي أبرزتها شخصيات القصص القرآني .

وحتى لا يعدم البحث قيمة هذا النمط من الدراسة فإنه سيعرض في ختام هذه الدراسة لأنموذج : يتعلق بالجانب الاجتماعي وهو « المرأة »[5] ، ودور القصص القرآني في الكشف عن بعض ملامحها وجوانب من نفسيتها .

وقد عمد الباحث إلى اختيار المرأة نموذجا محاولة منه إلى لفت الأنظار إلى جانب كبير متعلق بالدراسة وله أهمية كبرى وهو جانب علم النفس الاجتماعي والذي يلعب دوراً واضحاً في حياة الناس .

وعلى الرغم من يقين الباحث بأهمية ذلك من جهة ، ثم سعة وصعوبة تناول مثل هذه الجوانب في صفحات موجزة ، فهو يهدف إلى لفت أنظار الباحثين والدارسين إلى كثرة النماذج التي عرض لها القرن الكريم والتي يمكن أن تفيدنا في واقعنا الذي نعيش .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١١ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٣٠ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٩ .
(٤) سورة المائدة ، الآية ٢٤ .
(٥) أما بالنسبة للمرأة فلأن حضورها في القصص القرآني كان بارزاً لكنه كان فيما يخدم أهداف القصة القرآنية .

المطلب الثالث : جوانب من نفسية المرأة في ضوء القصص القرآني

أخذت المرأة مكانها في القصص القرآني بشكل واضح ، حيث برزت شخصيتها في أكثر من جانب ، وقد كانت النصوص التي عرضت لعنصر المرأة قد أبرزت لنا الكثير من جوانبها النفسية ، إلا أن الجدير بالملاحظة أن المرأة لم تكن تدخل القصص القرآني هذا إلا بالقدر الذي يخدم الهدف العام للقصة ، لا كما هو الشأن في القصص البشري ، تدخل لتزيين أحداث القصة أو من أجل تحقيق مآرب وأغراض بشرية ، بل حيثما ترتب على حضور المرأة دعوة لفضيلة أو نبذ لرذيلة كانت لها حضور ، والملاحظ أن القصص القرآني تناول جوانب مختلفة من حياة المرأة ، فقد حدثنا عن المرأة وهي تأخذ مكانها في المجتمع ، تارة تكدّ وتعمل ، وتارة في قصر منعّمة ومترفة ، وتارة تدير سدّة الحكم من وراء الستار ، وتارة تحكم الناس مباشرة . وفي كل هذا وجدنا أن طبيعتها الأنثوية ملازمة لها ، والباحث على يقين من أن هذه المواضع التي عرضت للمرأة كفيلة برسم الملامح العامة لشخصية المرأة وطبيعتها ، إلا أن حدود البحث تقتضي أن تكون الإشارة إلى هذه الملامح موجزة مقتضبة ، حيث تنبيء عن بعضها النقاط الآتية :

أولاً : لوحظ أن المرأة لم تكن تذكر في القرآن إلا تابعة ، إلا ما كان من شأن مريم ـ عليها السلام ـ ، إذ ذكر اسمها صريحا في النص القرآني[1] ، وذلك أن النصارى كانوا يدّعون أن عيسى ابن الله فكان في ذكر نسب عيسى عليه السلام إبطال لهذا المفهوم عندهم ، وما عدا ذلك فهي تابعة ، فمثلاً حواء لم تذكر مع أنها صورت تابعة للرجل﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[2] ، فالمرأة إن كانت زوجة نسبت لزوجها : ﴿ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ ﴾[3] ، ﴿ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾[4] ، ﴿ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾[5] ، ﴿ ٱمْرَأَتُ

(١) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ..﴾ سورة التحريم ، الآية ١٢ ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ،الآية ٣٤ ، انظر : خلف الله : الفن القصصي في القرآن ، ص٢٨٣

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٩ .

(٣) سورة التحريم ، الآية١٠

(٤) سورة التحريم ، الآية١٠

(٥) سورة القصص ، الآية٩ ، وسورة التحريم ، الآية١١ .

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾[1] ، وقد تنسب لضمير الزوج ـ كما هو الشأن مع امرأة إبراهيم ـ عليه السلام : ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾[2] ، وامرأة أبي لهب : ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾[3] .

ثانياً : والملاحظ أن الرسم العثماني للمواقع التي نسبت فيه المرأة لزوجها كانت بالتاء المفتوحة﴿وَٱمْرَأَتَ﴾ ولعل في ذلك حكمة تتبدى لنا في ثنايا البحث[4] ، أما إن كانت غير متزوجة ذكرت عموما ﴿ٱمْرَأَةً﴾ كما في قوله تعالى : ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[5] وقوله : ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾[6] ، وقوله : ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾[7] وإن كانت أماً ذكرت منسوبة لابنها كما هو الشأن مع أم موسى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾[8] وكأنّ هذا الاستخدام يرشدنا إلى بعد نفسي واجتماعي في آن واحد فالمرأة لا تجد كرامتها أو تشعر بكيانها إلا إذا انتسبت إلى رجل ، وكأنّ السعادة التي تنشدها المرأة لا تجدها إلا إذا شعرت أنها إلى جانب رجل يحميها ويقوم على رعاية مصالحها ، سواء أكان الرجل أباً أم زوجاً أم أخاً أم أبناً ، فهو الذي يوفّر لها الحماية ، وأما البعد الاجتماعي فيظهر أكثر وأكثر حين نعرف أن هذه المخلوقة ضعيفة ، فهي بحاجة إلى من يغطي جانب الضعف لديها .

ثالثاً : جانب اجتماعي آخر نلمسه من خلال الاستخدام القرآني لشخص المرأة ، وهو ما نلمسه من دخول المرأة في عموم الخطاب ، إذ أغلب الخطاب الموجّه للمرأة يذكرها : إما منكرا كما في قوله تعالى : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩﴾[9] ، أو تذكر بصيغة الجمع كقول موسى عليه السلام لزوجه : ﴿قَالَ

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٣٠و ٥١ .
(٢) سورة هود ، الآية ٧١ .
(٣) سورة اللهب ، الآية ٤ .
(٤) لعل في ذلك إشارة إلى كونه لا توجد علاقة مفتوحة بين شخصين كما توجد بين الزوجين ، والله أعلم .
(٥) سورة النمل ، الآية ٢٣ .
(٦) سورة القصص ، الآية ٢٣ .
(٧) سورة الأحزاب ، الآية ٥٠ .
(٨) سورة القصص ، الآية ١٠ .
(٩) سورة الشورى ، الآية ٤٩ . وانظر الآيات التي تقدم الاستشهاد بها : ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ =

﴿لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾[1] ، أو حتى ما يلمس من قوله تعالى على لسان زوج إبراهيم عليه السلام : ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩﴾[2] ، فاختفاء الضمير الدال مباشرة على ذات المرأة ، وكثرة الإشارة إليها بطريقة الضمير[3] ، يوحي ببعد اجتماعي وهو حق المرأة في الستر وكأنه يرشدنا إلى وضع المرأة الطبيعي أن تبقى مستورة ، محفوظة الكرامة لا يشار إليها بالبنان ويعرفها القاصي والداني .

رابعاً : لدى التأمل لوحظ أنّ الخطاب الذي فيه بيان أحكام المرأة ـ في الغالب ـ يخاطب به الرجل ولم تخاطب المرأة مباشرة[4] ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾[5] ، وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩﴾[6] ، بل لقد صرحت بقية الآية بما يفيد إبقاء المرأة مستورة ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ ، وأبعد من هذا : فقد لوحظ أن الخطاب في الغالب يكون موجها للأزواج حتى فيما

= ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ .

(١) الخطاب كما هو معلوم للمرأة وقد جيء بضمير الجمع مبالغة في سترها والله أعلم .

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٢٩ .

(٣) كما هو الحال في كثرة الضمائر العائدة إليها في قوله تعالى : ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ۝٥٥﴾ سورة الأحزاب ، الآية ٥٥ ، والآية ٣٦ من السورة نفسها ، ومثلها الآية ٣١ من سورة النور ، وقد يجاء بالموصول كما في قوله تعالى : ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ الآية ٢٣ ، من سورة يوسف .

(٤) أما بالنسبة للآيات التي تحدثنا عن المطلوب منها فقد لوحظ أنها تخاطب مباشرة ، فهي مكلفة مسؤولة عن أعمالها محاسبة عليها ، كما في قوله تعالى : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ سورة التحريم ، الآية٥ ، وقوله : ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ. . .﴾ سورة الأحزاب ، الآية ٣١ ، ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

(٥) سورة النور ، الآية ٣١ .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية ٥٩ .

يتعلق بحقوق النساء كما في قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾[1] ، ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾[2] ، وكما هو الشأن في آيات الميراث فهذا فضلاً عن أنه يشير إلى قوامة الرجل من جهة وإلى حث الرجال على عدم ظلم النساء فهن ضعيفات في حقوقهن ، إذ هو يرشدنا إلى أنها ضعيفة عن تحصيل حقها ، انظر كيف خوطب الرجل مع أنه هو الذي سيكون ميتا : ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ ﴾[3] ، ففي هذه الآية على الرغم من كون الزوج متوفى والذي يترك زوجة ، لكن الخطاب موجه إليه إذ لم تخاطب المرأة ، لا لأنها لا تستحق ذلك ، وإنما لوحظ أنه في المواطن التي يظهر فيها ضعف المرأة يأتي الخطاب موجها للرجال ، ليشير إلى هذا الجانب الاجتماعي ، وهو الوقوف إلى جانب المرأة وعدم هضم حقوقها ، والله أعلم .

خامساً : لوحظ أن النماذج التي عرض لها القرآن الكريم قد ضمت جميع أحوال المرأة اجتماعياً ، فالمرأة لا تخرج عن أحد احتمالين ، إما أن تكون متزوجة أو غير متزوجة ، وهي إن كانت متزوجة فقد تكون موافقة لزوجها في العقيدة ، وقد تكون مخالفة ، وقد يكون لها ولد وقد لا يكون لها ولد ، فكل هذا قد عرض القرآن الكريم له نماذج حيث نجد ذكرا لـ :

امرأة مؤمنة في حين زوجها كافر : كما هو الشأن مع امرأة فرعون .

وامرأة كافرة في حين زوجها مؤمن : كما هو الشأن مع امرأة نوح وامرأة لوط[4] .

وامرأة مؤمنة في حين زوجها مؤمن : كما هو الشأن مع امرأة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وامرأة كافرة في حين زوجها كافر : كما هو الشأن مع حمالة الحطب « امرأة أبي لهب » .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية١٥ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٢ .

(٤) انظر الآيات ١٠ـ١٢ من سورة التحريم .

وإن كانت غير متزوجة فهي داخلة في العموم كما هو الشأن في ابنتي شيخ مدين : ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾[1] وقد قصّ الله علينا من أخبارها غير متزوجة ولها ولد كمريم ـ عليها السلام ـ وهي خصوصية لها .

هذه النماذج المتعددة التي عرض لها القرآن الكريم تستوعب نفسية المرأة وأحوالها في الظروف كلها ، كما أنها تؤكد حقيقة مهمة متعلقة بجانب المرأة وهي أن لها كامل الحرية في اختيار الدين الذي تؤمن به ، فتارة تؤمن مع توفر جميع دواعي الكفر ، وأحياناً نجد عكس ذلك .

حدثنا القرآن عن بعض طباع المرأة وكشف لنا عن حقائقها النفسية بما يفهم من السياق ، فهي صورة صادقة معبرة عن نفسية المرأة ، وهي كثيرة نوجزها في الآتي :

أنها محبة للمال والجمال والزينة[2] تراعي أصول التعامل مع الآخرين[3] ، وقد سجّل أن هذا مترسخ في طبعها منذ الصغر : ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ۝١٨﴾[4] ، وقد لوحظ أن التشريع القرآني كان قد راعى هذا الجانب في المرأة ففصّل لها حقوقها المالية وضمنها لها سواء أكانت « مهراً أم كانت نفقة واجبة أم كانت ميراثاً » ، ولعل في الصداق تلبية لهذه الرغبة عند الزوجة .

أنها أسرع وسيلة لنشر الأخبار ونقلها ، فهي مجبولة على حب الحديث عن الآخرين ، وربما نلمس هذا من قوله تعالى : ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾[5] ، حيث دلّ اللفظ على سرعة انتشار الخبر وتداوله بين النساء ، وبهذا علّل بعض المفسرين[6] السرّ في عطف النساء على القوم مع أنهن داخلات في

---

(١) سورة القصص ، الآية ٢٣ .
(٢) هناك نصوص كثيرة يفهم منها بمفهوم الفاظها الدلالي هذه الغريزة وأيضاً عن نفسيتها منها قوله عن ملكة سبأ : ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣﴾ ، سورة النمل ، الآية ٢٣ .
(٣) ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا . ﴾ سورة يوسف ، الآية ٣١ ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ سورة النمل ، الآية ٣٥ .
(٤) سورة الزخرف ، الآية ١٨ . المعنى : يتربى في الزينة والنعمة والحلي ، وقد أشار غير واحد من المفسرين إلى أن الآية فيها إشارة إلى إباحة الحلي للنساء .
(٥) سورة يوسف ، الآية ٣٠ .
(٦) انظر ، الشوكاني : فتح القدير ، ج٥ ص٦٤ ، حيث أشار إلى هذا القول : وقيل : أفرد النساء=

مفهوم القوم في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] فقيل إن في عطف النساء على القوم ما يشير إلى مزيد تنبيه لهن ، إذ الحديث عن الناس والسخرية واللمز ديدنهن .

وجود نصوص كثيرة ترشدنا إلى أن المرأة في الغالب عاجزة عن كتمان سرّها ، سريعة البوح بسّرها ولا تقوى على كتمان مشاعرها ، فغالباً ما تظهر مشاعر المرأة من اللحظة الأولى لظهور هذه المشاعر ، سواء أكانت هذه المشاعر في جانب السرور أم في جانب الحزن أم في جانب الدهشة أم في غير ذلك ، فمثلاً نجد أن زوج إبراهيم حين بشرتها الملائكة بإسحاق ، وصف القرآن حالها تارة بالضحك[2] ، وهو نوع من التعبير عن المشاعر فهو تعبير عن الدهشة والعجب ، كما جاء بعدها : ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾[3] وتارة بوضع يديها على الخدين تعبيرا عن الدهشة حين بشرت بالولد : ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾[4] فهذا تعبير عن مشاعرها .

وقد حدثنا القرآن عن أم موسى وأنها كادت تتحدث عن ابنها وتظهر مشاعرها فتحدث الناس لولا أن الله عز وجل ربط على قلبها ﴿ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[5] ، ومن ذلك موقف امرأة العزيز فهي سرعان ما تعترف أمام النسوة : ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[6] ، ولهذا كان التحذير للزوجة من أن تفشي سرّ زوجها ، وقد قصّ علينا القرآن من شأن أزواج النبي ﷺ ما يبرز هذه الطبيعة منهن : قال عز وجل : ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا

= بالذكر لأن السخرية منهن أكثر .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١١ .

(٢) قال تعالى : ﴿ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ ﴾ سورة هود ، الآية ٧١-٧٢ .

(٣) سورة هود ، الآية ٧٢ .

(٤) سورة الذاريات ، الآية ٢٩ .

(٥) سورة القصص ، الآية ١٠ .

(٦) سورة يوسف ، الآية ٥١ .

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ . .[1] وحادثة المجادلة شاهد آخر : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[2] . يشير علماء النفس إلى أن هذه الطبيعة في النساء في حقيقة الأمر ليس ناشئاً عن ضعفها ، وإنما هو ناشىء عن خوفها من الوحدة ، فالسرّ يجعلها تشعر أنها وحيدة مع سرّها[3] .

الغيرة من بنات جنسها من النساء ، ولعل هذا هو الدافع الذي دفع نساء المدينة في مصر للحديث عن امرأة العزيز ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾[4] ، ويبرز هذا الطبع أكثر عندما تكون المرأة زوجة أخرى ، أي في حالة تعدد الزوجات ، فالمرأة في هذه الحالة تكون أشدّ غيرة ، ولعل في سبب نزول الآية الأولى من سورة التحريم ما يشير إلى هذه الطبيعة فيهن وهي قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5] ، وهذه الطبيعة قد تدفعها إلى التعاون مع غيرها والتظاهر على زوجها ، قال عز وجل : ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[6] .

---

(١) سورة التحريم ، الآية ٣ ، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة ، منها ما في صحيح البخاري : (حدثني الحسن بن محمد بن صباح حدثنا حجاج عن ابن جريج قال زعم عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول سمعت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ، ويشرب عندها عسلا فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير ، فدخل على إحداهما فقالت له : ذلك فقال لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له ، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ لعائشة وحفصة ، ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله بل شربت عسلا) ، البخاري : صحيح البخاري ، كتاب الطلاق ، رقم(٤٨٦٢) ، وانظر مسلم : صحيح مسلم ، كتاب الطلاق ، رقم ٢٦٠٩ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية ١ ، حيث يفهم منها أنها تظهر ما كان بينها وبين زوجها من خلافات .

(٣) انظر السبيعي ، عدنان : سيكولوجية الأمومة ومسؤولية الحمل ،(د . م : الشركة المتحدة للتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٥م) ، ص ٧٧ .

(٤) سورة يوسف ، الآية ٣٠ .

(٥) سورة التحريم ، الآية ١ ، وقصة النزول تقدم ذكرها .

(٦) سورة التحريم ، الآية ٤ .

تغلّيبها الجانب العاطفي في الحكم على الأشياء ، كما حدثنا عن قدرتها على تغليف الأشياء بهذه النظرات العاطفية بحيث تجعل منها أداة لاستمالة الرجال إلى رأيها ، فمثلاً نجد امرأة فرعون قد صرخت في جند فرعون عندما أرادوا قتل موسى عليه السلام فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] ، فكان التبرير العاطفي هو الطريق إلى استمالة قلب فرعون حتى يبقيه : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾[2] ، ومن ذلك قول ابنتي شيخ مدين : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾[3] ، حيث وجدت الفرصة سانحة ليقوم رجل بمهمة السقي والرعاية وهي مهمة شاقة لا يقوى عليها إلا الرجال ، وقد حدثنا القرآن عن جانب من عاطفة الأم ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾[4] ، ولهذا وجدنا أن التكليف الموجه للزوجة في بعض المواضع ـ خاصة تلك التي تنشأ عن الخلافات الزوجية ـ يستثمر الموقف العاطفي لاستمالتها إلى أن تتجاوب مع أحكام الشرع ، ولعل أبرز ما يدل على ذلك ما ورد في سورة الطلاق وهو يحدثنا عن امتناع المرأة المطلقة عن إرضاع طفلها : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾[5] ، وقد تكون هذه العاطفة أحد الأسباب الرئيسية في كون المرأة تطلق أحكاماً عامة على الأشياء ، فهي تغلّب جانب العاطفة وتخرج أحكامها على وجه التعميم[6] ، فمن طبعها

---

(١) سورة القصص ، الآية ٩ .

(٢) فهي قالت ﴿ لِّي ﴾ أولاً استعطاف ، للمزيد انظر عباس : القصص القرآني ، ص ٣٤٠ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٢٦ .

(٤) سورة القصص ، الآية ١٣ ،

(٥) سورة الطلاق ، الآية ٦ ، حيث أشار أغلب المفسرين إلى أن في هذا الأسلوب معاتبة للأم ، لأنه كقولك لمن تستقضيه حاجة فتتعذر منه سيقضيها غيرك أي ستقضي وأنت ملوم » انظر : الزمخشري : الكشاف ، ٤/ ١٢٢ ، البيضاوي ، أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، (بيروت ، دار الفكر ، د . ط ، ١٤٠١٦هـ ـ١٩٩٦م) ، ٥/ ٣٥٢ ، أبو السعود : إرشاد العقل السليم ، ٨/٢٦٣ ، النسفي : مدارك التنزيل ، ٤/ ٢٥٧ ، الآلوسي : روح المعاني ، ٢٨/ ١٤٠ .

(٦) كما يفهم من النصوص التالية : ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ ، سورة يوسف ، الآية ٣١ ، وقوله على لسان ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، سورة النمل ، الآية ٣٤ .

أنها سريعة العاطفة ، سريعة الغضب ، سريعة الرضا ، سريعة الحكم على الأشياء ، ولعل حديث الرسول ﷺ في وصف النساء يجسّد هذا المعنى : « يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط »(١) ، ولعل هذا أحد الحِكم التي بها يفهم تشريع المولى - جلّ وعلا - في جعل شهادة المرأة في الأمور القضائية والمتعلقة بالحقوق تعدل نصف شهادة الرجل﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾(٢) .

من طبع المرأة أنها حريصة على تبرير مواقفها ، إذ هي أقدر على التبرير من الرجل وأسرع بديهة منه في هذا الجانب ، ويطلق علماء النفس على هذا الشيء عند المرأة : « التفكير الحدسي المباشر » ، مشيرين إلى أنه يقابل عند الرجل « التفكير الاستدلالي البطيء » ، ويشيرون إلى أن أحدهما مكمّل للآخر(٣) ، فمثلاً نجد امرأة العزيز حين فوجئت بحضور الزوج لحظة همها بالفاحشة لم يعجزها التبرير عن اتخاذ الموقف الذي يبعد عنها التهمة : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾(٤) ثم هي تبرر موقفها أمام النسوة : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٥) ، ومن ذلك تعليل ابنتي شعيب عليه السلام في مدين بسبب الخروج : ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾(٦) ، ومنه : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾(٧) ، حيث بينت سبب الدعوة ، ومنه قول ملكة

---

(١) رواه البخاري ، انظر البخاري : صحيح البخاري ، كتاب الإيمان حديث رقم ٢٨ ، ونص الحديث بتمامه : « عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : « أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء! يكفرن ، قيل : أيكفرن بالله ؟ قال يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط » .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ .

(٣) للمزيد انظر السبيعي : سيكولوجية الأمومة ومسؤولية الحمل ، ص ٧٥ .

(٤) سورة يوسف ، الآية٢٥ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ٣٢ .

(٦) سورة القصص ، الآية ٢٣ .

(٧) سورة القصص ، الآية ٢٥ .

سبأ : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾[1] ، وقول امرأة إبراهيم عليه السلام : ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[2] .

ولهذا وجدنا ما يشير إلى أن المرأة إن عدمت الحجة تمنت الموت كقول مريم ـ عليها السلام ـ : ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[3] فالمرأة حريصة على الشرف والعفاف خائفة من الفضيحة والعار ، ولذلك قالت قبل : ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[4] .

حدثتنا الآيات القرآنية عن بعض الأمور الجبلِّية التي طبعت عليها المرأة أو ما يمكن أن يقال عنها « الفسيولوجية » ، وقد ظهرت ملامحها النفسية من خلال هذه الوظائف الطبيعية الفسيولوجية كوظيفتي « الحمل والرضاع » ، فمن شأن الحمل أن يثقل حركة المرأة ويزيدها ضعفاً ويوهن جسمها ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[5] ، وقال عز وجل : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾[6] ، وقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[7] ، ولا يخفى أن هذه الوظيفة الفسيولوجية يتبعها تغيرات في نفسية المرأة ومزاجها ، فالحمل في ذاته يجعل عضوية المرأة خاضعاً لتحولات يومية ناتجة عن تخلق الجنين ونموه ، وهذا ما يمكن به أن يفهم من قوله تعالى : ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ .

وحدثتنا الآيات عن الرضاع وكونه أحد وظائف المرأة وقد طلب إليها أن ترضع أولادها ، قال تعالى : ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[8] ، وقد تؤثر الحالة النفسية على عملية الإرضاع هذه فينتج عنها تغيّر في

---

(١) سورة النمل ، الآية ٣٥ .
(٢) سورة هود ، الآية ٧٢ .
(٣) سورة مريم ، الآية ٢٣ ، قال الألوسي : « ومن ظن أن تمنيها عليها السلام ذلك كان لشدة الوجع فقد أساء الظن والعياذ بالله ، إذ قالته استحياءاً من الناس وخوفاً من لائمتهم » ، الآلوسي : روح المعاني ، ١٦/ ٨٢ .
(٤) سورة مريم ، الآية ٢٠ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية ١٨٩ .
(٦) سورة الأحقاف ، الآية ١٥ .
(٧) سورة لقمان ، الآية ١٤ .
(٨) سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ .

الحالة النفسية للطفل ، وهذا ما يؤكده علم النفس الحديث ، إذ الطفل في فترة الارتضاع لا يقتصر ارتباطه بها على الجانب الخارجي ، وإنما يربطه بأمه جوانب نفسية أخرى يكتسبها من خلال الرضاع ، فالرضاع كما قيل : « استجابة تكاملية هدفها ضمان النمو الجسدي والنفسي والاجتماعي للطفل »[1] ، قد يكون هذا أحد الأسرار في كون موسى عليه السلام لم يلتقم ثدي امرأة أخرى غير ثدي أمه : ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] ، وعلى الرضاع يترتب بعض الأحكام الشرعية الذي يترك أثره على العلاقات الاجتماعية ، إذ أنه جُعل سبباً من أسباب تحريم بعض النساء على الذكور ، وهو ما يعرف عند الفقهاء بـ« التحريم بالرضاع » إذ من شأنه زيادة الروابط والأواصر وتوسيع دائرة العلاقات الاجتماعية .

وحدثتنا الآيات عن ميل المرأة الفطري نحو الأولاد الذكور ـ وقد تقدم في غير موضع من البحث ما يشير إلى هذا[3] ، حتى الآيات التي فيها البشارة بالحمل كان فيها التصريح بكونه ذكراً ﴿ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾[4] إذ لم يكن التبشير بالأنثى ، وقد حدثتنا الآيات عن الكيفية التي تقابل بها الأنثى المولودة حتى في المواضع التي عرضت لنا موقف العزيز حين قال لزوجته : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾[5] ، وكذا الأمر بالنسبة لامرأة فرعون[6] والتبني كانت الإشارة إلى أنه ذكر ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : (ولدا) .

---

(١) السبيعي : سيكولوجية الأمومة ، ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) سورة القصص ، الآيتان ١٢ ـ ١٣ .

(٣) كما يفهم من النصين التاليين ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ، سورة الشورى ، الآية ٤٩ ، ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية ٣٦ .

(٤) سورة الحجر ، الآية ٥٣ ، وانظر : سورة الذاريات ، الآية ٢٨ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ٢١ .

(٦) بعد نفسي آخر نلمسه من هذين الموضعين وهو أن المرأة التي لا تلد تحاول الاستعاضة عن هذا النقص النفسي لديها بمسألة التبني ، فهي بميلها الفطري ميّالة إلى حصول الأبناء ، وفيه بعد اجتماعي فهي حريصة على التخلص من اللوم الاجتماعي .

ومن الطباع التي جبلت عليها المرأة ، وقد امتدحها القرآن كونها أشدّ حياءً من الرجل : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾[1] ، وهنالك جوانب أخرى كثيرة .

حدثنا القرآن في ثنايا القصص عن بعض الخصائص النفسية والاستعدادات النفسية التي توجد عند المرأة ، إذ من طبيعة المرأة أنها إذا آمنت بفكرة تفانت في سبيلها وضحّت بالغالي والنفيس من أجلها ، وتبذل الوسائل كلها في سبيل تحقيقها ، فإن كانت صالحة كانت هذه الخصلة محمودة فيها ، وإن كانت من الصنف الآخر كانت صفة مذمومة فيها ، فمن النوع الأول نجد أن امرأة فرعون مثلاً لأهل الإيمان فعلى الرغم من كون الظروف كلها مهيأة لتبقى في رغد العيش ونعيم القصور ، وعلى الرغم من كون زوجها قد ضرب مثلاً أعلى للطغيان لكنها آمنت بربها ، وفضّلت ما عند الله على ما عند فرعون : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] . ومن الصنف الثاني وجدنا امرأة العزيز وكيف أنها تفانت في تحقيق بغيتها ، وحاولت بشتى الوسائل ، ولم يمنعها حياؤها من أن تهدد أمام النسوة : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[3] .

ومن الاستعدادات التي تملكها المرأة كونها قادرة على استمالة ذوي الشأن والسلطة والإيمان بفكرتها ، بمعنى أنها عنصر لا يستهان به من حيث التأثير على رأي الحاكم فهي واثقة أحياناً ولهذا تهدد كما في الآية المذكورة آنفا ، كأنها تدير سدّة الحكم من خلف الستار[4] ، وقد علِمنا كيف أثرت امرأة فرعون في استمالة فرعون نحو قبول الرضيع موسى عليه السلام وقد كشفت لنا الآيات كيف أن المرأة تملك شعوباً ﴿ إِنِّى

(١) سورة القصص ، الآية ٢٥، هذا فيما يخص المؤمنة ، أما الكافرة فلا حياء .
(٢) سورة التحريم ، الآية ١١ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٣٢ .
(٤) وقد قيل : (أقود من ظلمة) من القيادة وهي امرأة من هذيل فجرت في شبابها حتى إذا عجزت قادت ثم أقعدت فاتخذت تيسا تطرقه الناس ، انظر : العسكري ، أبو هلال : جمهرة الأمثال ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٨٨م) ، ٢/١٣١ .

﴿ وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[1] ، وكشف لنا التاريخ على مرّ العصور مدى الدور الذي تلعبه المرأة في قرارات الحاكم ، كما ترشدنا بعض المواطن إلى الدور الذي يمكن أن تلعبه المرأة في القضايا المهمة والخطيرة ، فهي عنصر غير مشهود وهذا ما يرشدنا إليه موقف أخت موسى عليه السلام ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[2] .

لفت القرآن أنظارنا في ثنايا القصص القرآني إلى بعض الجوانب الاجتماعية التي تقوم بها المرأة فهي تكدّ وتعمل في حالة الضرورة : ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[3] ، وفي السياق ما يرشد إلى جانب اجتماعي آخر وهو ضرورة العمل لا تلجىء المرأة أن تزاحم الرجال وتختلط بهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ دلالة اجتماعية أخرى إذ مهمة المجتمع خدمة المرأة ومساعدتها في قضاء حوائجها دون مقابل مع الحاجة : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[4] .

ومن الجوانب الاجتماعية التي تقوم بها المرأة بناء الأسرة وتماسكها ، فما من شك في أن الدور الأكبر والأهم في الأسرة هو المنوط بالمرأة إذ من شأنها أن تجعل الأسرة متماسكة مترابطة ، كما أن من شأنها أن تهدم الأسرة ، فهي محل السكن والاستقرار النفسي ، قال عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[5] ، وبهذا تكون الأسرة ملجأ نفسياً يحقق السكينة والاستقرار ويسهم في بناء المجتمع . والمتتبع لمواقف المرأة المتعددة في القصة القرآنية يلمس ما يسمى عند علماء التربية بـ« نموذج لعب الدور »[6] الذي تقوم به ، فهي تارة تكون ابنة ، وتارة أختاً ، وتارة زوجاً وتارة أماً وقد تجمع بين أكثر من وظيفة .

---

(١) سورة النمل ، الآية ٢٣ .
(٢) سورة القصص ، الآية ١١ .
(٣) سورة القصص ، الآية ٢٣ .
(٤) سورة القصص ، الآية ٢٤ . انظر : الشعراوي : المرأة في القصص القرآني ، (القاهرة : مؤسسة أخبار الأيام ، د . ط . ت) ، ص ١٠٥ .
(٥) وقد تعبّر الإضافة بـ« إليها » دون عليها عن معنى الاستقرار والطمأنينة المنشودة .
(٦) أحد نماذج التعلم المعروفة ، وهو يعني : أن الإنسان في وقت واحد يمكن أن يقوم بأكثر من دور ، فمرة يلعب دور الابن ، ومرة يلعب دور الزوج ومرة يلعب دور الأب ، وهكذا .

ترشدنا المواقع المتعددة التي عرضت للمرأة في ثنايا القصص القرآني إلى حقيقة واضحة متعلقة بالمرأة ، وهي أن المرأة أقرب إلى الفطرة من الرجل ، وأميل إلى قبول الحق من الرجل ، وأنها مهما بعدت عن طريق الصواب إلا أن الرجوع إلى ساحة الإيمان لديها أقرب منه عند الرجل ، وهذا ما لمسناه من نهاية قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام إذ هي تائبة نادمة ، وما لمسناه من قصة ملكة سبأ ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1] ، والمرأة متحمسة لعاطفتها الدينية : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾[2] ، وهي في المقابل وسيلة خطيرة يمكن أن يتم بها غواية المجتمع وينسب إليها انحرافه ، وقد نبهتنا نصوص كثيرة إلى ذلك ، فهي مطالبة إذن بما يحقق لها الوظيفة الحقيقية : فهي محتشمة ، لا تخرج من بيتها إلا للضرورة ، عابدة ، قانتة .

وهكذا لمسنا كيف أن عنصر المرأة قد دخل القصة القرآنية ليضيف معنى اجتماعياً ويبرز فضيلة من الفضائل أو يكشف عن رذيلة من رذائل المجتمع ، وأدركنا دور القصة القرآنية في الكشف عن خصائص ونفسية المرأة بجميع مراحلها ، كما لمسنا أن دخول عنصر المرأة في القصة القرآنية كان مرتبطاً بالضرورة ، والهدف الذي ترمي إليه القصة ، فحيث انتفت الضرورة اختفى عنصر المرأة فيه ، ولعل أبرز ما يؤكد هذا أن قصة يوسف عليه السلام وهي أكثر القصص تأثيراً وإبرازاً للجوانب العاطفية خاصة في عواطف الأمومة ، فأغلب المواقف التي عرضت لها القصة تكون عاطفة الأمومة فيها أكثر لكن مع هذا لم نجد أي إشارة إلى أم يوسف عليه السلام إلا ما يفهم دلالة من قوله تعالى في ختام القصة ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[3] ، فغياب عنصر المرأة في هذه المواقف دليل مؤكد على أن بروزها في القصة القرآنية لم يكن غرضه إثارة العواطف وإبراز المشاعر ، وإنما هو تابع لأغراض القصة وأهدافها . والله تعالى أعلم .

* * *

---

(١) سورة النمل ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٠ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

المنهج النفسي معالم وضوابط

المبحث الأول

معالم المنهج النفسي

تهدف الدعوة إلى هذا اللون من ألوان التفسير للوصول إلى حقيقة التجديد التفسيري التي تتمثل في استلهام المفسّر جوانب التوجيه والهداية في شؤون الحياة من واقع آيات القرآن ، تلك الجوانب التي تكشف لنا عن وفاء القرآن الكريم بحاجات البشرية وفاءاً لا يعوزها إلى غيره . ولا يتم هذا إلا بأن نستلهم من آيات القرآن ونصوصه ما يعطينا من قيم ، كما هي دون أن نصبغ هذا الفهم بما تمليه علينا ثقافتنا وعلومنا وآراؤنا .

قد يخطر في الذهن كثير من التساؤلات حول مدى حاجة ومسوغات الدعوة إلى منهج جديد في تفسير القرآن ؟ وهل بعد الجهد الذي بذله أسلافنا الأجلاء في استلهام معاني القرآن واستنباط أحكامه ، هل بعد هذا حاجة إلى دعوات من هذا النوع ؟ خاصة بعد الذي شهدته المكتبة الإسلامية من كثرة الكتابات ودعاوي التجديد في فهم نصوص القرآن وإعادة النظر في نصوص القرآن في ضوء مقتضيات العصر ، ومحاولة صرف النظر أو التقليل من قيمة التفاسير التي قام بها أسلافنا ، ووصمها بالقصور تارة وبالجزئية تارة أخرى ، وإغفال الواقع إلى غير ذلك من المبررات التي يتخذها من يريد أن يكتب في هذا الميدان ، والباحث إذ يضم صوته إلى صوت من يثير مثل هذه التساؤلات التي انطلقت ـ بلا شك ـ من واقع حرصها على كتاب الله يؤكد على خطورة الدعوة إلى منهج جديد في التفسير في ظل ظروف أصبح لكل علم حدّه وضوابطه إلا علم التفسير الذي لا يزال مشاعاً لكل ذي فهم ورأي .

لكن في الوقت نفسه هل نغلق باباً في الفهم نجده في كل آية من كتاب الله ؟ هذا تساؤل يدعونا إلى التفكر أكثر في الحلّ الأنسب والأكثر إبرازا لمكانة القرآن العزيز .

هل هي دعوة إلى لون جديد من ألوان التفسير؟!

نعم هي دعوة لكنها من وراء جدار يشوبها مخاوف ومخاطر تتمثل في الطرق التي يسلكها من يريد هذا اللون ، إن كانت ضوابط هذه الدراسة نصب أعين الذين يتحدثون عن هذا اللون فما أحلاها من دعوة ، وما أروع النتائج التي ستحصل عليها الدراسة .

إن الدعوة إلى المنهج النفسي ينبغي ألا تأخذ بعداً مستقلاً عن المنهج البياني في التفسير ، إذ اطلعتنا هذه الدراسة على صلة القرابة بين الجانب البياني وبين الجانب النفسي ، إن هذه الدراسة ينبغي أن تسير جنباً إلى جنب مع الخط البياني في تفسير كتاب الله ، ولا غرو فالبيان هو القالب الذي يرشدنا إلى تلك المعاني النفسية كما ترشد إليها نصوص القرآن نفسها لا كما نريد لها ، فقد لاحظنا أن هذه المعاني تأتي تبعاً دون أدنى تكلف أو أقل حاجة إلى التأويل .

إن كانت هذه الدعوة ستسير بهذا المسار ، فإن الأسلوب البياني يضمن سلامتها حقاً ، بل إن رصيدنا في هذا الميدان يزداد كلما أمعنا النظر في أقوال أسلافنا ، فاللمحة النفسية كثيراً ما نجدها في عبارات مفسرينا وإن كانوا لم يهدفوا إليها ، وكل الذي نحتاجه أن نعطي هذا اللون أهمية جديدة ونصحبها في أذهاننا عند تدبرنا لكل آية ، ما من شك في أن لوناً جديداً من الفهم سوف يتبدى لدينا ورصيداً زاخراً في ميدان النفس سوف نجده في نصوص القرآن الكريم ، والباحث إذ يؤكد على ضرورة السير بهذا اللون من التفسير في هذا المسار ينطلق من واقع الخطورة التي ربما يقع فيها من أراد أن يكتب في هذا الميدان ، تلك الخطورة التي تكمن في جعل النظريات التي توصل إليها علماء النفس في هذا الميدان هي المنطلق لفهم النصوص فتكون تلك النظريات حاكمة على نصوص القرآن من جهة ، ثم من جعلها هي المقياس والأصل الذي يفهم من خلاله النص .

يؤكد الباحث على أن ألفاظ القرآن على الرغم من ثباتها فإن معانيها متجددة تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان ، كما يؤكد وجود حاجات تتطلبها مقتضيات العصر ومتطلبات الأمة خاصة حينما تتزايد مشكلات الأمة ويزداد تخبط البشرية ولهثها

وراء العلوم التي انطلقت من واقع بشري وأغفلت ذلك التيار الذي ينبغي أن يسري في أوصال هذه العلوم ليدب فيها الحياة .

هل معنى هذا أن نعرض صفحاً عن كل ما أتت به العلوم الحديثة؟! وفي الوقت ذاته هل نسارع إلى نصوص القرآن فنحمِّلها ما توصلت إليه العلوم الحديثة ، أو بمعنى هل نأخذ نتائج تلك العلوم على أنها مسلمات دون تمحيص أو روية! هذا هو مكمن الخطورة الذي يؤكد عليه الباحث ، فإن سارت الدراسة بهذا الاتجاه ووضعت نصب عينيها تلك المخاطر فإن نتائجها حينئذ ستكون مباركه بل أصدق وأصوب بإذن الله ، تكون منطلقة حينها من واقع التجربة التاريخية إضافة إلى التجربة الإنسانية فكان انضمام التجربة التاريخية إلى تجربة البشرية خير ضمان لصواب الفهم .

إن كثيراً مما توصلت إليه العلوم الحديثة أو كشفت عنه خاصة في الميدان النفسي أصبحت من المسلمات التي لا يجادل فيها اثنان ، فهل نترك رصيداً بهذا الزخم الهائل ، ونعرض عنه صفحاً بحجة أنه ظهر على أيدي علماء كان منطلقهم مادياً ، هذا ما لا ينبغي أن يكون بل إننا كثيراً ما نلمس وجود تلك المسلمات التي أشارت إليها هذه العلوم في عبارات أسلافنا فهل نعرض عنها أيضاً ؟

ثم إن علم النفس أصبح صنعة هذا العصر (وديدنه) فهو لاتساعه يكاد يضم العلوم جميعها ، ولا يخفى أن أنواعه تزيد يوماً بعد يوم ، هل عسانا يا ترى نعرض صفحاً عنه حتى ولو وجدنا نصوصاً من القرآن ترشدنا إلى حاجة البشرية إلى دراسة النفوس وضرورة الوقوف على طبيعتها بعقول إسلامية ، وليست بعقول غربيّة ، ومناهج وأفكار دخيلة قام علم النفس الحديث على أساسها!

إن كانت الدعوة إلى هذا اللون كذلك ؛ فالباحث أول من يضم صوته إلى دراسة من هذا النوع تدرك غايات الأمة وحاجاتها ، وتبرز ما تحتاجه البشرية من فهم نصوص القرآن ، وتقدم حلولاً لأمراض البشرية ، وتعين على كشف أدوائها ، وتقدم ما يستلزم من أدوية فكرية وتربوية. . وغير ذلك .

نعم بهذا الفهم نحن في حاجة إلى تفسير يكشف عن مقاصد القرآن ويبرز جوانب هدايته ويزيح عن أعين البشرية ما يحجب رؤية آثاره ، على أن لا يفهم من هذه الدعوة الإنقاص من جهود السابقين في هذا الميدان ، فهو استكمال لمسيرة واستثمار لجهود

الأسلاف فيما يخص حركة التفسير ، كما أن فيه استثمار لجهود أسلافنا خاصة في الجانب اللغوي والبلاغي ، فيتحقق بذلك التكامل المعرفي الذي يجمع بين جهود السلف ووعي الخلف .

نحن في حاجة إلى من يعرض تلك النصوص بالثوب الذي ينبغي التنبه إليه « الثوب النفسي » وإدراك الجانب الهدائي فيه ، لكن من هو الذي يقدّم هذا الفهم؟! وأي طريق يسلك ليبرز هذا الفهم ؟ هذا هو بيت القصيد ، نعم لا بد من شروط وضوابط تقيّد هذا اللون من الدراسة .

والباحث لا يحرص على الدعوة للون جديد من ألوان التفسير بقدر ما يحرص على وضع الضوابط وبيان أهميتها ، فقصد الباحث إبراز فكرة تنبه على وجوب وضع القرآن الكريم في موضعه الأصيل ، ويجب أن يكون وجودنا العلمي منسجماً مع واقعنا الفكري ومتمشياً مع ما يقتضيه خلود القرآن باعتباره كتاب الإنسانية كلها[١] .

كما أن الدعوة إلى هذا اللون ـ بلا شك ـ تكشف عن طبيعة المعجزة القرآنية ، فلا يكتفي بالوقوف عند عباراتها ، بل تكشف عن علاقة تركيبها بنفسية المخاطبين ، وهذا أمر يستوي في فهمه العربي وغير العربي إذا أحسن إيضاحه ، ويرتفع بمباحث الإعجاز إلى مستوى إنساني[٢] ، ولا يخفى ضرورة وأهمية هذا الاتجاه في رسالة عامة أرسلت إلى الناس كافة[٣] .

---

(١) للمزيد انظر : عرجون ، محمد الصادق : نحو منهج لتفسير القرآن ، (جدة : الدار السعودية للنشر ، ط ٢ ، ١٣٩٧ـ١٩٧٧) ، ص ٥ـ١١ .

(٢) شريف ، محمد إبراهيم : اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر ، (القاهرة : دار التراث ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م) ، ص ٥٥٤ .

(٣) قد يميل بعض المتحمسين لدين الله إلى الرأي الذي يفيد صرف النظر عن هذا اللون من ألوان الإعجاز ، بحجة أن جوانب الإعجاز في القرآن كثيرة وتكفي ، إذ لا حاجة لتكثير ألوان الإعجاز ، ولا يخفى صدق النية لدى هؤلاء ، ولكن لا بد من الإشارة في هذا المقام إلى أنه بالمنطق ذاته ردّ هؤلاء ما يعرف بالإعجاز العلمي ، ويرى الباحث قبل أن يجيب عن ذلك ضرورة التمييز بين أمرين : أحدهما : الإعجاز النفسي ، وثانيهما : التفسير النفسي ، إذ ربما يخلط بعض الناس بينهما ، والحق أنّ مجال التفسير النفسي أوسع وأرحب من الإعجاز النفسي ، إذ ليس بالضرورة أن ينسب كل فهم نفسي في الآية إلى أنه لون من ألوان الإعجاز=

مدى الحاجة إلى اللون النفسي في التفسير :

قد نسأل أنفسنا : هل نحن ـ حقاً ـ في حاجة إلى التفسير النفسي ؟ ما وجه الحاجة إليه ؟ وما الذي يمكن أن يقدِّمه لنا هذا اللون من فهم جديد لآيات كتاب الله ؟

والباحث يحيل في جزء من الإجابة عن هذا السؤال إلى ما كان قد كتبه في مقدمة الرسالة تحت عنوان أهمية الكتابة في هذا الموضوع ، ويجيب عن جزء آخر منه بالآتي :

١) إن حاجة أمتنا إلى هذا اللون تزداد يوماً بعد يوم ، فقد كشفت لنا الدراسات عن مدى سعة هذا الميدان ، حتى إنه لا يكاد يستغني عنه حقل من حقول المعرفة ، فالخبرة النفسية هي التي ترشد المسلم إلى الطريق الأسلم في التعامل مع الآخرين أشدّ حاجة من غيره ، فوجود تفسير من هذا اللون يعين الداعية إلى الله تعالى في فهم الطريقة التي بها يخاطب الآخرين ، هذا من جهة ، ثم من جهة أخرى ترشده إلى الطريقة التي يفكر بها أعداء الدين والوسيلة التي يستخدمها هؤلاء في محاربة المسلمين .

٢) يسهم في تقديم تصور صحيح في مفهوم الإعجاز القرآني ، فحين يكشف المفسّر عن القيم النفسية والإنسانية في النص القرآني ؛ فإن ذلك يدني قضية فهم الإعجاز القرآني من مدارك العقل الحديث ، كما يقدم التعليل الصحيح للإعجاز القرآني[1] ، ومعجزة القرآن تتمثل في تحوّل القرآن من الطبيعة الكونية إلى الطبيعة

= النفسي ، ثم إن الباحث لا يميل إلى اعتبار « الإعجاز النفسي » وجهاً مستقلاً بذاته ، بل هو في حقيقة الأمر ما يسمى بـ« إعجاز بياني » ، إذ عند التأمل والتحليل نجد أن ما يسمى بالإعجاز النفسي هو لون من ألوان الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، فهو إعجاز يكمن في الصياغة القرآنية العجيبة للآيات ، فالعبارة القرآنية فيها من المرونة والسعة بحيث يفهمها العقل العربي في عصر نزول القرآن ، كما يفهمها كل قارىء لكتاب الله في كل جيل ، ويجد فيها ما يشبع فكره ووجدانه معاً فهماً فطرياً ميسراً ، وفي الوقت ذاته يجد غير العربي في نفسه من معاني هذه العبارة ما يلمسه في وجدانه باعتبارها لغة إنسانية تخترق حواجز اللغة وعوائقها ، « فالمباحث البيانية الكاشفة عن إعجاز القرآن البياني لا تكون ذات بال إلا إذا اعتمدت على هذا الطريق النفسي فالصلة عميقة بين التعبير الفني في القرآن وطرق أدائه البياني » للمزيد انظر : شريف : اتجاهات التجديد ، ص ٥٥٥ .

(١) شريف : اتجاهات التفسير ، ص ٥٥٨ .

الإنسانية ، فالقرآن يحدث المعجزة في النفس البشرية بحيث تتحول إلى إيمان[1] .

٣) يكشف لنا الشيخ أمين الخولي ـ بوصفه حامل لواء الدعوة إلى هذا المنهج ـ عن بعض جوانب الحاجة إلى هذا اللون ، يقول : نحن أحوج إلى هذا التفسير النفسي للقرآن ، ولو لم ننته إلى اتخاذ الطريق النفسي في فهم الإعجاز ومحاولة دركه لأن هذا الفن القرآني وهذا الموضوع الاعتقادي جانبان من جوانب الحياة الوجدانية لا يفهم وجه القول فيهما إلا على نور الخبرة بالوجدان وحياة الإنسان القلبية العاطفية ، وما ينتبه إليه في تلك الناحية يكون أعود على فهم القرآن وأغراضه من أي جهة أخرى في غير هذا الاتجاه ، فلقد تكون اللمحة النفسية في المعنى القرآني أحسم لخلاف بعيد الغور كثير الشغب بين المفسرين . . »[2] .

٤) حديث القرآن بكثرة عن الجوانب المتعلقة بالنفس الإنسانية أشبه بدعوة إلى أن تعطى الدراسة المتعلقة بالنفس الإنسانية مزيد عناية ، فلو دققنا النظر في القرآن الكريم فإننا سنقف على الكثير من المعلومات المتحدثة عن النفس الإنسانية هذه المعلومات المبثوثة في القرآن يمكن أن تستوحى في استخلاص نظرية شاملة عن النفس الإنسانية ، ويستعان بالمشاهدة والتجربة في توضيحها ووضع تفصيلاتها[3] .

٥) هذا اللون من التفسير فضلاً عن كونه وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز فهو يكشف لنا عن مدى بلاغة نصوص القرآن واتساع معانيه .

٦) قد يكون أحد الوسائل المعينة على استمالة غير المسلمين إلى الاسلام حين يكشف لهم عن كثير من الجوانب التي تخفى عليهم من جهة ، ثم لكونه سابقاً للعلوم في الإشارة إلى جوانب معينة . كما أن فهم القرآن من حيث الكشف عن علاقة تركيبية

---

(١) البنا ، جمال : نحو فقه جديد (القاهرة : دار الفكر الإسلامي ، د . ط ، ١٩٦٦م) ص ١٥٢ .

(٢) الخولي ، أمين : مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب والتفسير ، (القاهرة : دار المعرفة ، د . ط ، ١٩٦١م) ، ص ٢١١ .

(٣) قطب ، محمد : دراسات في النفس الإنسانية ، (بيروت : دار الشروق ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، ص٩ .

بنفسيات المخاطبين يرتفع بمباحث الإعجاز إلى مستوى إنساني[1] .

لعل من المناسب في هذا المقام أن يذكر بأساسيات تجب مراعاتها في المنهج ـ أي منهج ـ فكثيرون أولئك الذين يدعون إلى منهج جديد في تفسير القرآن الكريم ، لكن قليل من هؤلاء من يتنبه للصعوبات التي ربما تعترض صاحب المنهج فيما يدعو إليه ، فما أكثر المزالق التي يكون صاحب الدعوة إلى منهج جديد عرضة لأن يقع بها ، ووجه الخطورة أن لا يدرك صاحب الدعوة إلى هذا المنهج وجه الخطورة فيها ، حينها تكون النتائج خطيرة ، هذا في حقول العلوم البشرية ، فكيف إذا كانت فيما يتعلق بنصوص القرآن ، إنها ـ بلا شك ـ ستكون أكثر خطورة وأعمق زلة ، فهل توجد صعوبات أمام هذا المنهج الذي تدعو إليه الدراسة؟!

صعوبات أمام المنهج

سوف يحاول الباحث توضيح بعض الصعوبات التي على المفسّر النفسي أن يضعها نصب عينيه قبل أن يخطو أية خطوة ، ملخصا إياها في النقاط الآتية :

١) بيان وتوضيح الضوابط اللازمة لدراسة من هذا النوع ، إذ لا يخفى ما لهذه الفكرة من أهمية في جانب الفهم القرآني على هذا الأساس ، كما لا يخفى وجه الصعوبة في تحديد هذه الضوابط أو الالتزام بها ، قد يشعر بعض المتحمسين بأن تحديد هذه الضوابط والسير على المنهجية الدقيقة نوع من كتم الأنفاس أو وضع الحواجز أمام الإبداع في تحليل النص القرآني ، خاصة حينما تكون المطالبة بالتدليل على ما يتوصل إليه من أفكار ، لكن سرعان ما ندرك أهمية وجود هذه الضوابط حينما نعرف أننا مع كوننا نريد أفكاراً جديدة لكن ـ في الوقت ذاته ـ نريدها أن تكون أفكاراً مطابقة للواقع ودقيقة ومنضبطة حتى تكتسب هذه الأفكار قيمة حقيقية واضحة في النصوص .

٢) الفصل بين التأثر الشخصي وبين المعرفة ـ الموضوعية ـ فالخطر يكمن في الحرص على أن تكون الأفكار جديدة ومشوقة على حساب كونها صادقة . والتغلب على هذه الصعوبة يكون :

---

(١) شريف : اتجاهات التجديد ، ص ٥٥٤ .

بتمثل خطورة الخطأ ، والخوف المستمر من الوقوع في الخطأ ، والحذر الدائم فيما نتوصل إليه بآرائنا .

الاستئناس بآراء وتراث من سبقنا من العلماء ، إذ تراث أسلافنا أداة ضرورية إلى تصويب الرأي في الغالب .

تجنب المبالغة في إبراز قيمة ما نتوصل إليه ، والحذر من الإسراف في الثناء والمدح ، حتى ولو كان المجهود الذي بذل في هذا كبيراً ، فكثيراً ما يشعر الباحث بعظم الجهد الذي بذله في جانب ما ، ولذلك فهو حريص على أن يدخل هذا الجهد ولو تبين أنه ليس فيه كبير فائدة لما يتحدث عنه ، فيكون في هذا أشبه بإقحام المعلومات دون النظر إلى صلتها الوثيقة بموضوع الدراسة ، فهذه من الآفات والصعوبات التي تواجه أمثال هذه الدراسة .

٣) عدم الالتفات إلى أخطار وصعوبة مثل هذه الدراسة إذ يمكن التغلب عليها بأمور عدة ، منها :

أ ـ ضرورة تقسيم العمل وتوزيعه على أكثر من فرد ، إذ ما تتمثل فيه صعوبة جهد الفرد يمكن التغلب عليه بتوزيع العمل .

ب ـ ضرورة التعرف والاطلاع على جهود من سبق ومحاولة استكمال العمل من حيث انتهوا .

ج ـ مبادلة الاختصاص ، حيث يستعان بمختصين في علم النفس وآخرين من أهل البلاغة والبيان ، فيضاف جهد المفسر إلى أهل البيان وجهد المختصين بعلم النفس ، وهذا بلا شك سيؤدي إلى ثمار طيبة ومفيدة .

٤) عدم إدراك التصور الكلي للمنهج ، إذ مهما كان المنهج جديداً فإنه ـ بلا شك ـ مرتبط بجذور قديمة وماضٍ سحيق ، ولا يمكن فهمه بمنأى عن جهود السابقين في هذا الميدان ، وفيما يخص المنهج النفسي ، فإنه بلا شك يحتاج إلى جهود كبيرة تكشف عن جهود أسلافنا في هذا الجانب ، والحذر من الوقوع أو الولوع في تخطئة أراء الآخرين أو التقليل من قيمتها العلمية ، فبقدر ما يبهرنا المنهج بما فيه من جديد في الفكر والنظر بقدر ما يثير من جدل ونقاش حول التجاوزات والأخطاء التي قد نقع فيها

دون الالتفات إليها ، وخلاصة القول : أن إغفال أي من الجانبين « الرجوع إلى التراث » أو « الأخذ بالعلوم الحديثة » يوقع في مزلق خطير (عجز وقصر نظر) أو (تبعية ولهث وراء الجديد من الأفكار) ، فلا بد من الالتفات إلى جهود المفسرين في هذا الميدان .

٥) عدم إدراك حدود المنهج ودوره إحدى الصعوبات التي تقف عقبة أمام صاحب الدعوة إلى منهج جديد ، إذ ينبغي إدراك دور المنهج وحدوده فهو لا أكثر من كونه معيناً للباحث على إنجاز الأهداف ، فالأسلم البقاء في الإطار الذي يخدم الهدف والحرص على إبقاء المنهج في مكانه الحقيقي الذي ينبغي له[١] .

٦) القصور في الاستقراء والتعميم في النتائج من الآفات والمزالق التي يقع فيها صاحب المنهج عموماً ، وبالتالي فإن على الذين يقومون بدراسة القرآن من الوجهة النفسية الحذر من إصدار النتائج وتعميمها إذا لم تكن قائمة على استقراء كلي لنصوص القرآن الكريم أو أسلوبه ، إذ لو وجد موقع واحد من المواقع التي تخالف ما توصل إليه الدارس فإنه كفيل بنقض كل ما توصل إليه في هذا الميدان .

٧) الإيغال في التحليلات النظرية والكشف عن كثير من جوانب المعرفة من الناحية النظرية دون الالتفات إلى الجانب العملي وتطبيقاته ، إذ على من يريد أن يسلك هذا الجانب أن يكثر من الجوانب التطبيقية والعملية ، ويكثر من ضرب الأمثلة القرآنية التي بدورها تشكل نوعاً من التثبيت لما كان في الإطار النظري .

٨) التركيز على الجانب الفردي وإغفال الجانب الاجتماعي من المزالق والصعوبات التي تؤدي إلى انحرافات خطيرة في النتائج ، فعلى من يريد أن يسلك هذا الجانب أن يلتفت في نصوص القرآن إلى الجانبين الفردي والجماعي ، ويهتم بالسلوك الاجتماعي في الوقت الذي يهتم فيه بالسلوك الفردي . والتركيز على النفسية الجماعية ، وإبراز معالمها كما هو الحال مع النفس منفردة . لأن الالتفات إلى هذا الجانب الاجتماعي فضلاً عن كونه يطلعنا على كثير من الحلول للمشكلات الاجتماعية التي تعاني منها مجتمعاتنا الإنسانية في الحياة اليومية ، فهي تقدم لنا نماذج لطرق

---

(١) للمزيد انظر بوطيب ، عبد العالي : إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث (الكويت : مجلة عالم الفكر ، م ٢٣ ، ع ١+٢ ، ١٩٩٤م) ص ٤٥٥ وما بعدها .

التفكير لدى أعدائنا بما يعين على معرفة الطريق الأسلم للتعامل معهم .

٩) الانطلاق في فهم النص والتعامل معه من خلال واقع التخلف ، أحد المزالق الخطيرة التي قد يقع فيها صاحب المنهج ، فيقوم بتفسير ميراثنا الثقافي من خلال واقع التخلف الذي نعيش فيه فنصير نلجأ إلى لون من التفسير المتخلف أيضاً[١] .

١٠) الحذر من الوقوع في ضيق الأفق حين تكون الدعوة إلى المنهج النفسي ، فلا يقال بأن العرب وحدهم الذين يدرسون القرآن ويتذوقونه فهو كتاب العربية الأقدس وفنّهم[٢] ، ولعل من أخطر النتائج التي تظهر إن كانت نظرة المفسّر النفسي من هذا الأفق ، صحيح أن من يتذوق العربية يدرك معاني قد تخفى على غير أهل اللغة ، لكن لا ينبغي تجاهل القيم والمعاني الإنسانية العامة التي دعت إليها نصوص القرآن ، بل إن هذه القيم الإنسانية هي التي تحفظ خلود القرآن وشموليته وعالميته وصلاحيته لكل جيل وقبيل ، فالمنهج النفسي بهذا يستوي في فهمه العربي وغير العربي إن صار له علم بالعربية يؤهله لذلك .

المبحث الثاني
ضوابط المنهج النفسي في تفسير القرآن

المطلب الأول : ضوابط ومعايير يجب توافرها في طريقة التفسير

إن أية دراسة تنطلق من فهمها لنصوص القرآن ينبغي أن تكون منضبطة بمجموعة من الضوابط ، ومقيدة بمجموعة من المعايير التي تستلزمها دراسة من هذا النوع ، حتى لا يشط الباحث بالنتائج بعيداً عما ترمي إليه نصوص القرآن ، فهل لهذا اللون من ألوان التفسير ضوابط ومعايير يجب التزامها ؟ أم إنّ ميدان الدراسات القرآنية مورد لكل طالب ، مستباح الحمى ، يكتب فيه الغادي والرائح ، يقبل عليه كل واحد فيأخذ منه

---

(١) الغزالي ، محمد : كيف نتعامل مع القرآن (هيرندن/ فرجينيا : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط٣ ، ١٩٩٤م) ، ص ٥٩ .

(٢) ربما أوحت عبارات أمين الخولي المتكررة في كتاباته إلى هذا الفهم كما نجد ذلك في كتاب مناهج تجديد ، انظر : الخولي ، مناهج تجديد ، ص ٣٠٨ـ٣١١ ، وهذا الكلام كان محل نقد أخذه عليه بعض الكتّاب المحدثين كما هو الشأن في كتاب الفكر الديني في مواجهة العصر ، ص ٣٠٣ ، وشريف : اتجاهات التجديد في مصر ، ص ٥٦٣ .

بالقدر الذي يخدم فيه فكره ويسند رأيه ، لكن قبل ذكر هذه النقاط لا بد من الإشارة إلى أنّ هناك مجموعة من الشروط والضوابط والقواعد التي أشار إليها علماؤنا لمن أراد أن يفسِّر كتاب الله ، تدخل دخولا أوليا في هذا المبحث ، وحسب الباحث أن يقف على ما له صلة مباشرة بهذا اللون ، فما يأتي أبرز هذه الضوابط :

١) التزام الخطاب القرآني منطلقاً ومداراً ، واستقراء النصوص القرآنية في الموضوع المتحدث عنه في المواقع المختلفة ، فما أجمل في مكان قد يكون له تفصيل في مواضع أخرى ، فخير معين على فهم النص هو النص ، إذ ما ورد في مواقع أخرى يكون مرشداً للمعنى المراد . وعلى دارس القرآن أن يجدد ثقته بالنص القرآني من حيث تكامل الموضوعات التي يعرض لها وإيفاؤها بحاجة البشرية .

٢) تتبع ما صح من التفسير المأثور للنص ، والاستعانة به في فهم النص ، إذ كثيراً ما تطلعنا السنة على جوانب تضيء لنا طريقاً واضحاً لفهم النص ، خاصة من الجانب النفسي ، ولعل الباحث يكتفي في هذا بإحالة القارىء إلى الموقف الذي عرضه في الحديث من الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وكيف أن الأحاديث الواردة أوضحت لنا حقيقة معنى قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾[١] ، وذلك بتصوير الحدث وإبراز ذلك الضيق النفسي ثم أدركنا ذلك الشعور النفسي على الرغم من اتساع الأرض ، ووجود منافذ بشرية تمثلت في دعوة ملك الروم لكعب بن مالك . إذ لولا ذلك لما وقفنا على عمق ذلك البعد النفسي الذي عاشه كعب بن مالك (، ومثله يمكن أن يقال في فهم رحلة موسى عليه السلام في طلب العلم مع الخضر ، حيث ورد تفصيلها في صحيح السنة ، وغير ذلك كثير ، ولهذا فإن الوقوف على نصوص من السنة أمر في غاية الأهمية لفهم كتاب الله .

٣) الوقوف على بيئة نزول النص البشرية الزمانية والمكانية والنفسية والفكرية على المستويين الفردي والجماعي ، وهذا يقتضي من المفسّر تصور :

العصر الإسلامي الأول وواقع حال الذين كانت تنزل فيهم الآيات ، إذ لا يخفى ما لهذا من دور في إبراز معاني النصوص وإدراك مراميها .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١١٨ .

الحالة النفسية التي كان عليها الناس حين نزول النص المراد دراسته ، مع ملاحظة الجوانب الفكرية والاجتماعية[١] التي كان يعيشها الذين تنزلت فيهم النصوص ، إذ من شأن هذا أنْ يعين قارىء النص ومفسّره على إدراك كثير من الأسرار المتعلقة بالنص القرآني سواء في الأسلوب الذي كانت تعرضه الآيات أم في الألفاظ التي اختيرت في النص أم في الجوانب التي تعالجها النصوص القرآنية .

الظرفان الزماني والمكاني اللذين أنزلت فيهما الآيات المرادة دراستها إذ من شأن ذلك يرشد إلى معرفة ما يلائم ظرفاً دون ظرف ، وبالتالي فإن تتبع مراحل التنزيل وتصور الجوانب المتقدمة كفيل بكشف صور التلاؤم بين القرآن وبين البيئة التي نزل فيها النص القرآني على اختلافها (بشرية كانت أو مكانية أو زمانية أو نفسية أو فكرية)[٢] فلا بد من التعرف على حال العرب قبيل الإسلام ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم .

٤) الرجوع إلى الأصل اللغوي لألفاظ القرآن واستقراء معانيها اللغوي واستعمالاتها في لسان العربية ، والوقوف على دلالات الكلمة واستعمالاتها الحقيقية والمجازية إضافة إلى استعمالها القرآني ، فيأخذ بعين الاعتبار معانيها الاصطلاحية المستوحاة من الاستعمال القرآني ، ولا يخفى ما للغة من دور في تجلية وإبراز المعاني النفسية والمرامي الخفية للفظة القرآنية ، إذ لا قيمة لفهم إذا لم يكن جارياً على أصل المعنى اللغوي وفي هذا ندرك قيمة ما قاله الشاطبي حول هذا المعنى ، حيث قال : « كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء »[٣] ، وهذا يقتضي دراسة بيئة العرب في الجاهلية والوقوف على مألوف العرب

---

(١) إذ من شأن هذا الضابط أن يبصّر المفسّر بالمناخ الذي نزل فيه النص ، فكم من زلة باحث كان منشؤها تصور حال المجتمع الذي يعيشه هو لا حال البيئة والمجتمع الذي نزل فيه النص ، للمزيد انظر الرفاعي ، عبد الجبار : نحو تفسير اجتماعي للقرآن الكريم ، (قم : مجلة قضايا إسلامية ، ع ٢ ، ١٩٩٥م) ، ص ١٢ .

(٢) للمزيد انظر : حبنكه الميداني : قواعد التدبر الأمثل للقرآن الكريم ، (دمشق : دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٨٩م) ، ص ٥٣ وما بعدها .

(٣) الشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى : الموافقات في أصول الشريعة ، (بيروت : دار المعرفة ،د . ط . ت) ، ٣/ ٣٩١ـ٣٩٤ .

في استعمالاتهم ، ويكون ذلك بالرجوع إلى أمهات المعاجم وكتب الغريب والوقوف على استعمالات الكلمة بحيث يراعى فيها ترتيب الاستعمال فيقدم الاستعمال الحقيقي على المجازي ويقدّم المعنى الذي يفسره النص على المعنى غير المفسر ، وهكذا ، كما ينبغي التنبه إلى دقة الاستعمال اللغوي للفظة خاصة في الألفاظ المتقاربة ويحذر من الوقوع في القول بترادف الألفاظ إذ لكل لفظة معنى لا يمكن أن تقوم لفظة أخرى مقامها ، ولا تعطي عين المعنى الذي تعطيه لفظة أخرى . وفيما يخص الجانب النفسي لا يخفى ما لهذا الضابط من قيمة ، إذ لكل لفظة مراميها النفسية التي لا تقوى لفظة أخرى على أدائها ، وقد لمسنا من خلال الدراسة دقة اللفظة القرآنية ، ودورها في الكشف عن المعاني النفسية . هاهنا نقطة لا بد من التنبه لها ، وهي مهمة جداً في أعمال المفسّرين وهي النظر إلى القرآن دائماً على أنه حاكم على اللغة وحجة لها وليس العكس ، فتفسير القرآن يجب أن يكون تبعاً لروحه ومقاصده وليس تبعاً للقواعد والأصول التي يضعها دارسو القرآن ، فينبغي الحذر من تفسير القرآن وفق المصطلحات المستحدثة والتوسع اللغوي وفق المناهج الغربية .

٥) النظر في ملائمة الأسلوب البياني للهدف منه[١] ، إذ كثيراً ما يكون الأسلوب البياني هو المرشد إلى الدلالة الحقيقية للنص ، فكما هو معلوم أن لكل هدف من أهداف الكلام أساليب تلائمه وتناسبه ، بينما لا تلائمه أساليب أخرى ، ولأن القرآن هو الذروة القصوى في كل كلام بليغ كان لا بد من كون الأسلوب الذي يعرض فيه هذا الكلام ملائماً منسجماً ، حيث يمكن إجمال الملائمة تلك فيما يخدم الجانب النفسي في النقاط الآتية :

ملاءمته للهدف العام من الكلام ، فلكل هدف من أهداف الكلام أسلوب من القول يلائمه ، فما يصلح للترغيب والترهيب لا يصلح للجدل والإقناع وما يصلح للمدح والثناء لا يصلح للهجاء وهكذا .

ملاءمته للوضع العام للمخاطب ، إذ المعروف أنّ الناس أصناف ، فما يصلح من الكلام لخطاب العامة لا يصلح لخطاب الخاصة وما يصلح خطاباً للعالم لا يصلح

(١) للمزيد انظر : حبنكه الميداني : قواعد التدبر الأمثل ، ص ٥٠٠ .

خطاباً للجاهل وما يصلح للأغبياء قد لا يصلح للأذكياء ، وما يصلح لأهل الحلم والأناة لا يصلح لأهل الخفة والطيش وما يصلح للكبار لا يصلح للصغار وهكذا ، فلكل صنف من أصناف الناس أساليب من القول تلائمهم تكون أكثر تأثيراً فيهم من أي أسلوب آخر ، وهذا الأمر يرشدنا إلى الفهم الذي ينبغي أن نراعيه عند تعاملنا مع نصوص القرآن الكريم .

ملاءمته للحال الخاص للمخاطب : إذ من الطبيعي أن يظهر نتيجة لاختلاف أصناف الناس اختلاف أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية ، فما يصلح من الحديث لحالة الرضا قد لا يصلح في حال الغضب ، وما يصلح لخطاب المرء منفرداً قد لا يصلح له أمام الآخرين .

٦) الوقوف على الأغراض البلاغية ، وملاحظة التنوع في النظم والتأمل في سرّ تراكيب الجملة القرآنية ، ومحاولة البحث عن سرّ اختيار النظم لما هو عليه من تقديم وتأخير وفصل ووصل ، وحذف وذكر ، وإيجاز وقصر . . وغير ذلك . وفي نظر الباحث أن هذا الضابط من أهم الضوابط التي ترشد إلى المعاني النفسية في ألفاظ القرآن الكريم ، ولأجل هذا كان أكثر ما في الرسالة مخصصاً لإدراك هذه الأغراض البلاغية واستخراج المدلولات النفسية منها ، ومن الأمور المهمة المتعلقة بهذا الجانب إدراك الصور البيانية والوقوف عند مدلولاتها النفسية ، إذ هي أكثر الأساليب البيانية غنىً بالجانب النفسي ، حيث ينبغي على مفسّر هذا اللون أن يكون حريصاً على ملاحظة هذه الجوانب بحيث تبقى النتائج في مأمن من الوقوع في مخاطر التأويل .

٧) ضرورة ملاحظة قواعد اللغة العربية ومفاهيم الصيغ الصرفية وقواعد الاشتقاق ، إذ من المعروف أن لكل صيغة من الصيغ المعروفة في العربية مدلولا يختص بها مع أنها مرتبطة بجذر واحد ، وهذا ـ بلا شك ـ ينشأ عنه فهم جديد لمعنى الكلمة ، فما تدل عليه ـ مثلاً ـ لفظة « عليم » غير ما تدل عليه لفظة « عالم » وغير ما تدل عليه لفظة« علاّم » و« معلوم ».. وغير ذلك ، إذ حين يدرك المفسّر تلك الفروق بين الصيغ يكون بمقدوره الوقوف على أبعاد الألفاظ ومدلولاتها في جوانبها المختلفة ، وفي جانب اللغة العربية وقواعدها ينبغي ملاحظة ترتيب الجملة ، وإبراز أسرار تقديم المفعول على الفاعل ، وبيان أغراض بناء الفعل للمجهول وإدراك مرامي

استخدام الجملة الاسمية والفعلية واستخدام الفعل الماضي والمضارع وما يتعلق بهما . والكشف عن دور ذلك في الكشف عن المعاني النفسية ، وقد مرّ في الدراسة ما يدل على كثير من ذلك بما يغني عن الإعادة ، ومما تجدر ملاحظته في هذا المقام ما جاء مخالفاً لمقتضى الظاهر في الإعراب إذ يغلب أن يكون وراءه أسرار بديعة كما هو الحال في لفظ : ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] و﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾[2] و﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3] .

٨) الالتفات إلى الأوجه التي يهدف إليها النص جميعها ويحتملها وعدم تقييد الفهم بوجه ما دام النص يحتمل معانٍ أخرى ، إذ من ثراء اللفظ القرآني أنه يدل على أكثر من معنى ، وليس من حق المفسّر أن يقتصر على لون واحد أو فهم واحد ويقطع به دون غيره ، لكن قد يبدو للمفسّر قوة أحد هذه الوجوه فحينها لا حرج لو نبّه إلى قوة أحد هذه الوجوه وترجيحه مع الإشارة إلى احتمالية الوجوه الأخرى ، ومما يتصل بهذا أن النصوص القرآنية قد تكون موجهة لعدة أهداف ، ويظهر هذا حينما يكون الخطاب موجهاً إلى جماعة ذات فئات مختلفة وعناصر متباينة ؛ « إذ يمكن أن يكون في الوقت نفسه خطاباً للمؤمنين وللكافرين ولصاحب الرسالة بحسب الغرض ففي الوقت الذي يكون فيه ـ مثلاً ـ وعداً للمؤمنين نجده يحمل وعيداً للكافرين ، وهو في الوقت ذاته قد يكون تسلية للرسول ﷺ »[4] .

٩) النظر إلى النصوص القرآنية على أنها نصوص متكاملة في الموضوع الواحد ، والاستفادة ما أمكن من الآيات المتشابهة ، إذ هي المرشد في غالب الأحيان إلى مدلولات النصوص ، حيث يمكن لمفسّر القرآن أن يهتدي إلى سرّ من الأسرار النفسية وذلك من خلال جمع الآيات المتشابهة في الموضوع الواحد ، وتدبرها وإبراز جوانب الاختلاف فيها ، والكشف عن أسرار هذا الاختلاف البسيط في عرضها ، وقد يكون أبرز هذا اللون وارداً في القصص القرآني حيث تعرض القصة موجزة تارة ومبسوطة تارة ومطولة تارة ثالثة ، ففي هذه الحالة على المفسّر أن يجمع بين النصوص المتشابهة هذه

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٦٩ .
(٣) سورة النساء ، الآية ١٦٢ .
(٤) حبنكه الميداني : قواعد التدبر الأمثل ، ص ٤٥ .

ويدرسها دراسة متأنية ، إذ كثيراً ما تكشف هذه الدراسة عن أسرار بديعة ولطيفة ، ومن جهة أخرى نجد أن قيمة هذا الضابط تبرز في كونه يستبعد مسألة التكرار في اللفظ القرآني ، ويكشف عن لطائف بديعة ، ومما يتصل بهذا الضابط جمع التفسيرات الجزئية الواردة في المواقع الأخرى وضمها إلى المعنى الكلي والحرص على بقائها مرتبطة بالمدلول الكلي ، والحذر من تخصيص الألفاظ بمعان جزئية أو وقتية . كما تبرز قيمة هذه الملاحظة من كونها تعين المفسّر على إدراك حقيقة التكافؤ في نصوص القرآن الكريم . كما ينبغي التنبه إلى مسألة السنن القرآنية وضرورة فهمها على أنها سنن وقوانين ثابتة ، مطردة ، هي التي تشكل حركة المجتمع وتعين على فهمه فهماً صحيحاً .

١٠) ضرورة إلمام المفسّر بالعلوم المتصلة بالقرآن والتي أطلق عليها العلماء « علوم القرآن » إذ كثيراً ما يتوقف فهم النص على الإلمام بمسائل من علوم القرآن الكريم ، وهذه المسائل ـ على كثرتها ـ ضرورية لا غنى للمفسّر عنها ، من ذلك : إلمام المفسّر بما صحّ من أسباب نزول النص ، إذ كثيراً ما يكون سبب النزول وسيلة معينة للكشف عن جوانب النص النفسية وغيرها . والناسخ والمنسوخ : إذ يستطيع المفسّر من خلال معرفة النص الناسخ من منسوخه أن يدرك تلك الجوانب التربوية والنفسية التي كانت تراعيها نصوص القرآن في مخاطبة النفوس البشرية وتكليفها . ومنه معرفة المكي من المدني : حيث لا يخفى ما للعلم بهذا من دور في إبراز المعاني النفسية للألفاظ القرآنية ، كما أن من شأن هذا العلم أن يكشف للمفسّر عن الجوانب النفسية للمخاطبين بالنصوص القرآنية ، وقد يكون له دور في حَلّ كثير من الإشكاليات التي وقع فيها كثير من المفسرين .

وفوق الذي تقدم نجد أن الإلمام بهذا العلم يعين المفسّر على تتبع مراحل التنزيل ومعرفة المتأخر من المتقدم حيث يعين على إدراك الجوانب النفسية التي كانت تراعيها النصوص التشريعية ومن ثم إدراك طبيعة المنهج القرآني في مراحله الدعوية والفكرية والاجتماعية ، وهذا ما أدركه بعض المحدثين[١] .

---

(١) من هؤلاء سيد قطب في الظلال حيث كان باعتماده على هذا الضابط كثيراً ما يرشدنا إلى طبيعة المنهج الرباني وخطواته الفكرية والنفسية والاجتماعية ، وأمثلة ذلك كثيرة في الظلال لكن =

١١) ضرورة الالتفات إلى ارتباط الآية بالسياق ـ الاهتمام بدلالة السياق ـ الذي وردت فيه وعدم اجتزائها من موقعها دون النظر إلى سياق الآيات وسباقها[١] ، هذا من جهة ثم من جهة أخرى ضرورة الالتفات إلى ارتباط الآيات بموضوع السورة ككل ، إذ لكل سورة موضوعها وجوّهها الذي تعرضه بأسلوبها ، ولا ينبغي للمفسّر أن يغفل ارتباط الآية بذلك ، فالنظر إلى السياق الذي وردت فيه الآيات كثيراً ما يرشد إلى معان نفسية تحملها نصوص القرآن ما كنا لندركها لولا ربطها بالسياق الذي وردت فيه .

ومما ينبغي التنبه إليه في هذا المقام أن ينظر إلى مجموع القصص الوارد في السورة الواحدة والبحث عن الرابط النفسي الذي يجمعها جميعاً ويربطها بالموضوع الكلي للسورة ، ولعل في الدراسة ما يرشد إلى هذا[٢] ، إذ على المفسّر أن يكون شديد الحذر من اقتطاع النصوص القرآنية من سياقها فكم من فهم جزئي أدى بصاحبه إلى الزلل في التأويل ، فمن الأمور الضرورية أن يربط المفسّر الآية بالغرض الذي سيقت له ، ولا يتحصل هذا الغرض إلا بالوقوف على موضوع السورة ، وقد جعل صاحب النبأ العظيم هذا الشرط هو الشرط الأول في خطوات المفسّر حيث قال : « إن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه ، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء وجزء منه ، إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها »[٣] . كما يلفت الشاطبي أنظارنا إلى هذا الأمر حين قال : « لا محيص للمتفهم عن ردّ آخر الكلام على أوله وأوله على آخره ، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق النظر في أجزائه ، فلا يتوصل بذلك إلى مراده »[٤] .

أمر آخر ينبغي التنبه إليه فيما يتعلق بالسياق هو ضرورة الالتزام في فهم الآية وفق

= يحيل الباحث إلى أحد هذه المواقع التي أشار فيها إلى طبيعة المنهج القرآني وكونه كان يراعي الظرف النفسي إلى جانب الاجتماعي والفكري . . انظر : سورة البقرة ، المقدمة .

(١) سباق الآية ما يسبقها من الآيات والسياق يشمل ما كان سابقا للآية وما كان تابعاً للآية .

(٢) انظر : سورة الكهف ، في القصة القرآنية .

(٣) دراز ، محمد عبد الله : النبأ العظيم ، طبعة دار القلم ، ص ١٥٨ .

(٤) الشاطبي : الموافقات ، ٣/٢٧٨ـ٢٢٨١ .

ترتيبها في النظم دون تغيير ، فلا يصار إلى تغيير لفظ الآية تقديماً وتأخيراً ليتناسب مع الفهم ، إذ ما عليه النظم مقصود وما على المفسّر إلا أن يبحث عن السرّ في هذا النظم الذي جاءت عليه الآية ، وكثيراً ما يكون الغرض النفسي وراء هذا الترتيب الذي عليه نظم الآية ، وهذا أمر في غاية الأهمية ، إذ كثيراً ما يبرز لنا النظم القرآني جوانب من الإعجاز البياني والنفسي ويلفت أنظارنا إلى معانٍ بديعة .

١٢) إدراك ارتباط الفاصلة بما قبلها في الآية القرآنية والجزم بكونها مقصودة من حيث لفظها وجرسها ، فكم من معنى أشكل على المفسرين كانت الفاصلة فيه مرشدةً إلى المعنى ، وهنا لا بد من التدبر في فواصل الآيات التي يشكل فهمها ككون الآية تتحدث عن المغفرة والرحمة فتكون فاصلتها بالعزة والحكمة[١] ، إذ ليست فواصل القرآن كلها في درجة واحدة من الظهور ، بعضها ترشد الآية إلى ما ينبغي أن تكون عليه الفاصلة فتكون كذلك ، وبعضها يشكل على النفوس ختم مواقع الآيات بهذه الفاصلة . وهنا لا ينبغي للمفسّر أن يعلل ما عليه النظم بكونه جيء به مراعاة للفاصلة أو ما يسمى « بالرويّ » . فكم من معنى فات المفسرين بسبب إغفالهم كون ما في الفاصلة مقصوداً ، وليس الجرس وحده هو السبب في الفاصلة ، وقد يكون من أبرز الأمثلة على ذلك ما يشبه إجماعاً عند المفسرين من أن تأخير لفظ موسى في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[٢] ، كان مراعاة للفاصلة ، فقد أشار الباحث في هذه الدراسة إلى وجود بعد نفسي وراء هذا الذي عليه النظم .

١٣) ضرورة النظر في لوازم النص ومقتضياته وروابطه وما يتضمنه والبحث عن مواطن الحذف إن وجد ، إذ من المعروف أن بعض المعاني يدل عليها النص دلالة مباشرة ، لكن هناك بعض المعاني تستفاد لزوماً ويقتضيها النص ، إذ على المفسّر أن يبين هذه المقتضيات ويبرزها بما يتفق مع النص وبما يؤيد المعنى الأصلي دون تعطيل للفهم الأول المباشر من النص ، هذا المعنى اللزومي هو في حقيقة الأمر ما يعرف بعلم الدلالة ، وقد كان البحث في (أنواع هذا وبيان ضوابطه عند العلماء) في فصل متكامل

---

(١) كما في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ سورة المائدة ، الآية ١١٨ .

(٢) سورة طه ، الآية ٦٧ .

من هذه الدراسة ، ويلحق بذلك المعنى الحقيقي والمجازي[١] . لكن لا بد من التنبه هنا إلى أن السرّ في ثراء اللفظ القرآني بالمعاني يعود إلى عدة أسباب : كالذي يحذف من النص للإيجاز ويقتضيه معنى النص ، أو كالذي يشير إليه النص من طرف خفي ، أو ما فهم بطريق المفهوم المخالف لمنطوق النص أو ما دلّ قياس النص على مثله أو غير ذلك مما له تعلق بدلالة النص ، وليس اللفظ وحده ثرياً في نص القرآن ، بل إن المعنى الذي يرشد إليه النص ثري أيضاً ولعل هذا الثراء يعود إلى عدة جوانب يذكر الباحث بعضها :

* ما في طبيعة بعض ألفاظ القرآن من مرونة وغنى بحيث نلمس أكثر من معنى للكلمة الواحدة .

* ما في طبيعة بعض تراكيبه من عموم وشمول فيما يحسن فيه العموم والشمول .

* ما في وجوه قراءاته من تباين يختلف معه المعنى ويتعدد ويتكاثر .

* صلاحية ما في جمله من قيود لتعلقها بأكثر من جهة فيتعدد المعنى بتعدد جهات التعلق[٢] .

* دلالة الكلمة على المعنى بالجرس والظل ، إضافة إلى دلالتها بمعنى الكلمة بعض الأسباب التي تثري معاني النص ، إذ في النص طاقات ، وما على المفسّر إلا أن يستغل هذه الطاقات ويلتفت إلى المعاني الثابتة للنص .

* وهنا ينبغي الحذر الشديد من الوقوع في مزالق التأويل ، إذ التأويل الصحيح ـ كما أشار إليه ابن القيم[٣] ـ : « ما كان يتبع قصد المتكلم وإرادته أما التأويل الفاسد فهو الذي يتبع فهم السامع وإدراكه » ، إذ دلالة الألفاظ متعلقة بمقصد الكلام لا بأشكاله .

ثمة أمر آخر له تعلق بهذا الضابط وهو ضرورة الانتباه إلى تلك المعاني التي يهدف

---

(١) للمزيد حول معرفة مذاهب العلماء في مسألة الجمع بين المعنيين وأدلة كل فريق يحسن الرجوع إلى سعد ، محمود توفيق محمد : إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني ، (القاهرة : مطبعة الأمانة ، ط ١ ، ١٩٩٢م) ، ص ٧١ـ١٧٦ .

(٢) للمزيد انظر : المطعني : خصائص التعبير القرآني ، ١/ ٣٦٨ .

(٣) ابن القيم : إعلام الموقعين ، ١/ ٣٥٠ .

النص إليها من خلال ما يعرف بأسلوب التضمين الذي يعدّ أحد سبل الإيجاز ، حيث يدل على معنيين بلفظ واحد ، إذ يحسن الجمع بين المعنيين في هذا »[١] . إذ ينبغي الإلمام بالمصطلحات الأصولية المتعلقة بالسياق كـ(النص ، الظاهر ، المفسر ، المحكم ، من أقسام واضح الدلالة . .) ولا يخفى أن ذلك يقتضي من المفسّر أن يكون حافظاً لكتاب الله أو مكثراً لقراءته متدبراً . . فعلى مفسّر القرآن أن ينتبه إلى تعدد المعاني في اللفظ ، حيث تجدر الإشارة إلى أن بعض الفقهاء والأصوليين[٢] ، قد نصوا على أن الكلام الذي يدل على معنيين فأكثر مع عدم التضاد ، ولا صارف عن أحدهما فالمعاني كلها مراده ومقصودة ويحمل الكلام عليها معاً ، وهذا يعدّ من الفنون البلاغية العالية القائمة على الإيجاز .

١٤) ضرورة التنبه إلى خلود معاني اللفظ القرآني وتجدد فهم معانيها بتجدد الزمن ، إذ لا ينبغي للمفسّر أن يجعلها في حدود الزمان أو المكان ، فنصوص القرآن فوق الزمان والمكان[٣] ، لا تقيدها أزمنة ولا أمكنة ، ولا يمكن حصر معانيها بفترة دون فترة ، فهي معجزة خالدة تصلح لكل جيل وقبيل ، فما ورد من معان على وجه التخصيص أو في حوادث خاصة كان التنبه إلى دخول المتحدث عنه دخولاً أولياً في الفهم والإشارة إلى أن النص لا يمنع من دخول الأحداث المتشابهة للحادثة المتحدث عنها في النص ، كما هو الشأن في حادثة المجادلة ـ على سبيل المثال ـ إذ هذا الصنيع يرشدنا إلى الكثير من جوانب تشابه السلوك الإنساني على مدار التاريخ ، وهذا الضابط ضروري لفهم تجدد النص القرآني وإدراك عالميته ، والحرص دائماً على أن يتجنب تضييق وحصر المعنى في حيز جزئي . ويزداد إدراك المفسّر لقيمة هذا الضابط حين ينظر إلى النص القرآني على أنه نص يخاطب الإنسان كل الإنسان ، في كل زمان وفي

---

(١) للمزيد حول أقوال العلماء في هذه الظاهرة وكلامهم في أي المعنيين أولى بالأخذ يحسن الرجوع إلى سعد ، محمود : اشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني ، ص٥٢ـ٦٣ .

(٢) كالشافعي ، ومالك والباقلاني ، والغزالي والقاضي عبد الجبار وغيرهم .

(٣) على أن لا يفهم عن هذا الضابط أن نصوص القرآن تغفل جانبي الزمان والمكان في النصوص باسم الأسلوب الفني ، كما ذهب إليه اتباع المدرسة الأدبية في التفسير ، وفصّل ذلك محمد أحمد خلف الله في كتابه الفن القصصي في القرآن .

كل مكان ، ويخاطب الإنسان في أحواله كلها ، وحين يدرك أن الإنسان هو المقصود الأول من نصوص القرآن ولهذا لم تخرج نصوص القرآن من الإطار الذي يخاطب هذا الإنسان ويرشده ويربيه . والتنبه إلى أن التفسير عمل بشري ، والقرآن وحي إلهي ، مهما أوتي الإنسان من عمق في فهم النص مزوداً بكل وسائل وأدوات الفهم الصحيح فلا يأتي تفسيره مطابقاً للنص المفسّر .

١٥) ضرورة الالتفات إلى ما تواتر من قراءات في النص ، والتنبه إلى جمعها ، إذ هي في مجموعها تشكل تكاملاً في المعاني المقصودة من أكثر من جهة فتارة نجدها تؤدي تكاملاً في الأداء البياني وتارة تؤدي تكاملاً في الأداء الفني وتارة تؤدي تكاملاً في الجانب الفكري[1] ، وتارة تعرض تكاملاً في الجانب النفسي ، وفي هذا المقام على المفسّر النفسي أن يحاول البحث عن الأغراض النفسية لكل وجه من الأوجه التي وردت فيها القراءة دون حكم بصحة بعض الأوجه دون بعض ما دامت كلها متواترة ، وهذا الضابط بلا شك يرشد إلى كثير من المعاني النفسية وغير النفسية في اللفظ القرآني .

١٦) البحث عن الأسرار التي يخرج فيها النص عن مقتضى الظاهر في الأساليب البيانية المختلفة ، كما هو الشأن في أسلوب التأكيد في خطاب من لا يحتاج إلى تأكيد أو العكس ، وكالتعبير بالماضي عن المستقبل أو وضع الضمير بدلاً من التصريح بالاسم أو غير ذلك من المباحث الكثيرة التي تبحث في أبواب البلاغة ، هذا الخروج عن مقتضى الظاهر ـ بلا شك ـ يكشف الكثير من الأسرار البديعة في النظم القرآني ، ومنها الجانب النفسي فهو أظهر هذه الأسرار وأبرزها ، ولهذا كان على المفسّر النفسي أن يلتفت إلى هذا الأسلوب ويحاول البحث عن الأسرار التي لأجلها كان خروج النظم عن مقتضى الظاهر .

١٧) عدم الخوض فيما أبهمه القرآن ولم يفصّل فيه المقال ، فإن القرآن لحكمة ترك ذكره ، وبالتالي فإن على المفسّر التنبه لذلك وعدم اللهث وراء تبيين المبهم في آيات القرآن ، وينظر على أنها لأغراض كثيرة كان هذا الإبهام ، وما يهم المفسّر النفسي هو البحث في البعد النفسي لهذا الإبهام أو الإجمال وعدم التبيين .

---

(١) للمزيد انظر : حبنكة الميداني : قواعد التدبر الأمثل ، ص ٧٢٢ وما بعدها .

١٨) أنْ لا يعتمد على الذوق وحده في فهم النص : فالإحالة إلى الذوق وحده إحالة إلى مبهم والاعتماد عليه هو اعتماد على الإحساس الفردي المباشر في التفسير . صحيح أن التذوق الفردي جانب أساسي في تلقي النص ، ولكن إذا أطلق العنان لكل قارىء يستبطن ذاته لاستخراج مكنونات النصوص ، فربما ينتهي هذا إلى أن نجد من تفسير النصوص ما يساوي عدد القارئين »(١) ، وفي هذه الحالة سوف نجد خلطاً بين حقيقة النص وبين موقع النص على النفس ويصعب التمييز بينهما ، فيكون ما يقدمه أصحاب هذا الاتجاه لا يخرج عن تجربتهم الشخصية في فهم النص ، لذلك لا بد من التمييز بين الإحساس بالنص وبين النص نفسه ، على أن لا يفهم من هذا المطالبة بإلغاء جانب الشعور بالنص وتذوقه ، وإنما هو الحذر من الاستغراق الصوفي ـ إن صحّ التعبير ـ فالاعتماد الكلي على هذا الإحساس « الذوق » لا يكون كافياً في الكشف عن أسرار النص القرآني من الناحية الفنية والجانب النفسي . بل قد يكون سلاحاً في يد المفسّر يستعمله كلما أعوزه التعليل الجمالي الواضح . . فالمفسّر القدير هو الذي يستطيع أن يعلو على فرديته ليدرك السرّ الجمالي في النص ، ويعلل تحققه فيه رغم اختلاف الأذواق وتعدد الأمزجة الفنية .

وجملة القول إن التعليل الجمالي في تفسير النص القرآني لا ينبغي أن يستقل فيه التذوق بالدور كله ، حتى لا ينتهي الأمر بالآخرين إلى العجز عن فهمه »(٢) . يذكر في هذا المقام أن الاعتماد على الذوق في صياغة العبارات صياغة فنية مع الالتزام بضوابط التفسير لا ينبغي أن يعدّ من هذا اللون المذموم أو داخلاً في منهج الاستلهام ـ كما يسميها بعض المعاصرين(٣) ـ بل هو داخل في الإطار المنضبط .

---

(١) الشرقاوي ، عفت : الفكر الديني في مواجهة العصر ، (بيروت : دار العودة ، ط ٢ ، ١٩٧٩م) ، ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٢) للمزيد انظر : الشرقاوي : الفكر الديني ، ص ٣٦١ وما بعدها .

(٣) جمال البنا فهو يقول : بأن عملية الاستلهام تمرّ عبر نفس المستلهم وتتأثر بها وتتلون بلونها ويعدّ من هذا اللون تفسير الظلال مشيراً إلى أن استلهامه أشبه بالتداعي الحرّ للمعاني التي تثيرها الآية والباحث يخالف الكاتب فيما ذهب إليه ، إذ لو قال تداعي حرّ للعبارات أو الصياغات لكان صواباً فهو لم يأت بمعان للنصوص إلا ما كان منضبطاً بما تدل عليه النصوص ولعل الكاتب لا يشك في مدى التزام صاحب الظلال بالمعاني التي تدل عليها النصوص وحرصه على=

عموما يجب الاعتراف بأن مسألة الذوق هذه تشكل صعوبة أمام هذا المنهج ولا يمكن إغفالها ، بل هي تشكل صعوبة أمام أي منهج كما قرره بعض الذين كتبوا عن المنهج[١] . ومع هذه الصعوبة فإنه لا بد من حضور مسألة التذوق الشخصية هذه ، لكن بالقدر الذي يبقى خارجاً عن إطار التأثير في النص ، ذلك أننا إذا رفضنا ما ينتج من استجاباتنا الخاصة وذوقنا ، فإننا بذلك نقع في شباك ذوق الآخرين واستجاباتهم . فالمهم أن لا نجعل من أذواقنا ومشاعرنا الخاصة محوراً يدور حوله النص ، وعليه فلا بد من المراجعة والتمحيص والنظر في أقوال الآخرين والاستئناس بها ، كما أنه لا ينبغي أن ننشد المعنى بطريق الذوق إلا في حالة استنفادنا للوسائل الأخرى[٢] . فالذوق ظاهرة فردية لا تخضع لمعايير عامة ، يتدخل فيه عوامل كثيرة محيطة بالإنسان ، وكثيراً ما تختلط به الأهواء والنزوات ولا سبيل لإخضاع أحكامه لمنطق واضح ، فيصبح كما يقولون « كل يغني على ليلاه »[٣] . يجدر بالذكر أن الجرجاني اعتمد على عنصر الذوق لدى « القارىء وعملية التأثير فيه » واعتمد على تنبه الحسّ اللغوي لزنة الأساليب ودرك خصائصها[٤] ، ونجد ذلك يبرز أكثر عند حديث الجرجاني عن التشبيه والاستعارة والتمثيل فهو يبرز النزع النفسي في فن البلاغة[٥] ، ويشير إلى أن العمدة في إدراك البلاغة هو الذوق والإحساس الروحاني[٦] . ومن

= الالتزام بالنص وتأكيده على ذلك بل كان يعرض صفحاً عن كثير من الأقوال التي تشكل شبه إجماع عند من تقدّمه من المفسرين فقط لأنها من المباحث التي لا طائل تحتها ولا يدل عليها النص ، وربما كانت في بقية كلام الكاتب المذكور ما يشير إلى هذه الإيجابية فيه فهو « جمال البنا » بعد هذا يعدّ الظلال أفضل التفاسير . انظر : البنا : نحو فقه جديد ، ص١١٥ .

(١) لانسون ومابيه : منهج البحث في الأدب واللغة ، ترجمة : محمد مندور ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٨٢م) ، ص ٣٢ .

(٢) للمزيد حول هذه المسألة انظر : لانسون : منهج البحث في الأدب واللغة ، ص ٣١ـ٤٠ .

(٣) مندور ، محمد : النقد والنقاد المعاصرون ، (القاهرة : دار النهضة بمصر ، د . ط ، ١٩٧٧م) ص ٢١٥ .

(٤) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ١١٥ .

(٥) الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ص ٣٥٢ وما بعدها .

(٦) الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، ص ٣٥٥ وما بعدها . للمزيد انظر : سلطان : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ، (الاسكندرية : منشأة المعارف بمصر ، ط ٣ ، =

المحدثين نجد أن أمين الخولي عند حديثه عن الإعجاز أشار إلى أن الإعجاز لا يعلل فهو يُدرك بالذوق وطول الممارسة[١] .

١٩) توظيف ما استقرت عليه العلوم الحديثة من حقائق في فهم النص ، خاصة في الجانب النفسي ، وهنا ينبغي التنبه إلى ضرورة الالتزام بالنص القرآني دون ليّ النصوص في الفهم أو تأويل بما ينسجم أو يتناسب مع حقيقة من الحقائق العلمية الحديثة[٢] ، وفي هذا يبرز دور المفسّر في جعل نصوص القرآن هي المدار والمحرّك والحاكم ، « فالمعالجة الصحيحة أن تكون آيات الكتاب حاكمة لا محكومة وأن يكون النص صريحاً لا شطط في تأويله وأن يكون كلام الله موضع السيطرة الشاملة والكلمة النافذة في كل اتجاه »[٣] ، وهنا يجب الحذر من أن يكون منطلق المفسّر متجهاً نحو الحقائق العلمية ثم تنزيل النصوص القرآنية عليها ، بمعنى إلباس هذه الحقائق العلمية ثوب الشرعية ثم السير بالنصوص تجاه تفصيلاتها ، فيكون التكلف بارزاً ، فالتكلف في تنزيل الآية إلى النظرية العلمية ينشأ ـ كما يقول سيد قطب ـ عن : الهزيمة الداخلية ، وسوء فهم طبيعة القرآن ، فتؤدي بالتالي إلى التأويل المستمر والتمحل والتكلف[٤] . حيث يجب استخدام هذا الأسلوب النفسي خاصة في البحث البلاغي بلا مغالاة حتى لا تفقد العلوم صفاتها الأساسية وتذوب بعضها في بعض[٥] ، كما ينبغي الحذر من الانخراط أو الاندفاع وراء تيار المصطلحات النفسية ، خاصة تلك التي لا تثبت على حال كنظريات العلم التجريبي وفروضه ، إذ من الضروري التفرقة بين نوعين من الثقافة النفسية[٦] :

= ١٩٨٢م) ، ١٥١ـ١٥٥ .

(١) الخولي ، أمين : البلاغة وعلم النفس ، (القاهرة : مجلة كلية الآداب ، مج ٤ ، ج٢) ، ص ١٦٧ـ١٦٨ .

(٢) إذ من المعروف أن لا تعارض بين الحقائق العلمية وبين النص الشرعي .

(٣) البيومي ، محمد رجب : التفسير القرآني ، (القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة ، د . ط ، ١٩٨٨م) ص ١٠ .

(٤) قطب ، سيد : الظلال ، ٤/١٨٥٨ .

(٥) عباس : إعجاز القرآن ، ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٦) شريف : اتجاهات التجديد في التفسير في مصر ، ص ٥٦٢ .

* أولهما يستوحي الفطرة الإنسانية والذوق العام والنشاط الوجداني على اختلاف صوره .

* والثاني يفرض أفكاراً معينة عن طبيعة النفس البشرية عن طريق دراسة بعض الظواهر المرضية وغيرها .

٢٠) كما ينبغي ضرورة الموازنة بين حقيقة النص وبين موقعه من النفوس ، وغاية ما يمكن أن يقال في هذا المقام إن على المفسّر أن يكون واسع الاطلاع على ما استجد من العلوم الحديثة ويربطها بنصوص القرآن ، ويلفت الأنظار إلى دقة الإعجاز القرآني فيما ثبت واستقر ، وأن لا يكون همه أن يسارع إلى إثبات الشرعية على مذهب واحد بنصوص من القرآن ، والحذر من أن يكون المفسّر قد دخل عالم التفسير بمقررات سابقة فهو ينطلق منها ، ويلوي أعناق النصوص بما يتناسب والأفكار التي يؤمن بها ، فعلى صاحب الفكرة أن يقنع نفسه بأن ما عنده من أفكار واتجاهات ليست كلها معصومة ، بل عليه أن يخضعها لأصح موازين النقد وأدقها ، وأبعدها عن الهوى والقناعات أو الارتباطات المسبقة ، وكل ما هو مطلوب من مفسّر هذا اللون الاستعانة بالمعارف العلمية التي استقر أمرها ، والمتاحة في عصر المفسّر .

٢١) لكي تبقى هذه الدراسة في مأمن من الخطر فإن المنهج الأسلم : أن تسير الدراسة النفسية جنباً إلى جنب مع علوم البلاغة كما كانت هذه المحاولة بارزة في هذه الدراسة ـ لكن في الوقت ذاته فإنه لا بد أن تكون هذه الصلة بحدود حتى لا تتحول البلاغة إلى قواعد نفسية ، أي ينبغي أن تحدث هذه العلاقة بلا مغالاة حتى لا تفقد العلوم صفاتها الأساسية وتذوب في بعضها(١) .

٢٢) ضرورة التعرف على مدلول اللفظة واستخدامها في عصر النزول فإن ذلك كثيراً ما يعين على الظلال التي تنشرها تلك اللفظة ، وعلى المفسّر الحذر من إسقاط الفهم المعاصر للمدلول اللفظي ، فمما لا شك فيه أنه بتقادم الزمن أخذت مدلولات الكلمة تتسع وربما أصبحت المعاني التي تعطيها في هذا الزمان تبعد نوعاً ما عن معناها

---

(١) للمزيد انظر : فريد : بلاغة القرآن في أدب الرافعي ، ص ١٦٧و انظر : مندور : النقد والنقاد المعاصرون ، ص٧٢و ٣٦ .

الأصلي على الأقل في ظلالها ، وهذه نقطة مهمة فعلى سبيل المثال قد يحيط بالكلمة ظروف معينة فيكون النهي عن استخدامها كالحال في لفظ (راعنا) وأمر المسلمين باستبدالها بـ« انظرنا » . وكم يقع المفسّر أسير المصطلحات الحديثة فيسقط فهمه على النصوص من واقع المصطلحات الحديثة ، هذا الضابط عوّل عليه أصحاب المنهج الأدبي كثيراً حتى أنهم يرفضون أي فهم لم يكن منطلقه من المعنى الذي كان معروفاً عند النزول[1] .

٢٣) ضرورة النظر إلى الترتيب النزولي للقرآن إضافة إلى ترتيبه في المصحف فإن كلاً من النظرتين لها أثر ودور كبير في الدراسة ولا غنى لإحداهما عن الأخرى ، لكن لما كان من الصعوبة الجزم بالترتيب النهائي والكامل للسور حسب نزولها فإنه لا يعوّل كثيراً على ما يرتبط بالجزئيات ، إذ المعروف أنه من الأسهل تحديد ترتيب السور ، لكنه يبقى ترتيباً لا يصل إلى حدّ الجزم ، وقيمة هذا الصنيع تظهر في كونها تبرز لنا تلك الجوانب النفسية وتدرجها التي كانت عليها نصوص القرآن وبالتالي تطلعنا على التطور في نفسية الذين تنزلت فيهم الآيات على المستويين الفردي والجماعي ، كما تطلعنا على طريقة التفكير لدى الذين كانوا يقفون في وجه الرسالة من خلال التتبع التاريخي لنفسيتهم ، وهذا بلا شك أمر مهم وضروري لدارس القرآن من الوجهة النفسية .

ولا ينبغي أن يبالغ فيقال : إن نصوص القرآن لا يمكن تفسيرها إلا على هذا الأساس أي الترتيب النزولي ، وإن الترتيب الذي عليه المصحف لا يساير حاجات المفسّر ـ كما نلحظ ذلك في دعوة أصحاب المنهج الأدبي للتفسير ـ[2] ، وهذا لا يعني إغفال الترتيب النزولي وعدم الالتفات إليه فهو بلا شك ضروري لفهم كثير من النصوص ، كما ينبغي الالتفات إلى موضوعات القرآن ومحاولة تفسيرها موضوعاً

(١) حتى أن بعض المحدثين قاموا بنقدهم مشيرين إلى صعوبة ذلك وأنه بمثابة وضع قيود على الكلمة فلا تكتسب الجديد ، فاللفظة عبارة عن نسيج متشعب من صور ومشاعر انتجتها التجربة الإنسانية وثبتت في اللفظة فزادت معناها خصباً وحياة ، انظر : شريف : اتجاهات التفسير ، ص ٥٢٨ ، وانظر الشرقاوي : الفكر الديني ، ص ٣٣٤ .

(٢) فقد أشار أمين الخولي إلى ذلك مناهج تجديد ، ص ٣٠٦ وما بعدها . للمزيد انظر : شريف : اتجاهات التجديد ، ص ٥٠ .

موضوعاً فإن هذا لا يعني إلغاء الطريقة التقليدية في التفسير وهي التتبع للآيات وسور القرآن حسبما هي عليه في المصحف الشريف ، إذ يمكن أن تسيران جنباً إلى جنب ، فيكون التوسع في الموضوع عند أول وروده وهذه المنهجية نجدها عند مفسرينا بشكل بارز ، إذ هم إذا أرادوا أن يقفوا بنا عند أصل المعنى اللغوي للفظة يذكرونها في أول مورد لها في القرآن ، ثم نجد الإحالة على هذا الموضوع في بقية المواضع ، وكذا الأمر بالنسبة للمباحث اللغوية ، والنحوية ، والفقهية والمسائل العقدية وغير ذلك ، وفي التفاسير الحديثة نجد أن هذا اللون قد أخذ يتسع حيث نجد كثيراً من التفاسير تفرد بحثاً مستقلاً عند أول ورود له في آيات القرآن الكريم ، ثم تكون الإحالة على هذا الموضع(١) ، وبهذا يكون قد سلم صاحب المنهج النفسي من الوقوع في خطر الدعوة إلى تفسير القرآن على ترتيب المصحف ، وإنما حسب الموضوع أو حتى سبب النزول .

كما ينبغي التنبه إلى أن الذين يكتبون في موضوعات نفسية عرض لها القرآن الكريم لا على أساس أنها تفسير وإنما من وجهة نظر موضوعية فإنهم في هذه الحالة يمكنهم اتباع طريقة جمع النصوص المتعلقة بالموضوع ذاته حيثما كان وروده ، فتكون الأبحاث من هذا اللون مساندة لأبحاث من يسلكون المنهج النفسي في تفسير القرآن الكريم ، وهنا ينبغي التحذير من الخوض والتوسع في المسائل التي لا طائل تحتها أو إقحام كثير من الموضوعات في التفسير .

المطلب الثاني : ضوابط ومعايير يجب توافرها في المفسّر :

إذا كان ما تقدم يصلح ضابطاً ومعياراً للمنهج الذي يجب السير عليه لتفسير من هذا النوع ، فإن هناك ضوابط ومعايير يجب أن تكون موجودة في مفسّر هذا المنهج ، فليس يصح لكل واحد أن يخوض في تفسير كتاب الله ، وإنما لا بدّ من أن تتوافر فيه شروط عدة تؤهله لأن يسلك هذا الطريق . وقد تحدث العلماء عن شروط المفسّر وأطالوا ، ولا يخفى أن كل واحدة مما ذكره العلماء يحتاج إلى تفصيل(٢) ، وحسب الباحث في

---

(١) كما نلمس ذلك في تفسير المنار ، وتفسير شلتوت ، والمراغي ، والجوهري ، والظلال ، والشعراوي . . وغيرهم .

(٢) أغلب الذين تحدثوا عن علوم القرآن تناولوا ذلك بالتفصيل ، انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ٢/ ١٥٣ـ١٧٧ ، والسيوطي : الإتقان ، ٢/ ١٧٥وما بعدها ، وانظر : =

هذا المقام أن يشير إلى أهم وأبرز الشروط التي ينبغي أن تتوافر في المفسّر ، خاصة وأن حاجة الأمة في هذا الزمان تلحّ على ضرورة توافر هذه الشروط فيمن يريد أن يتكلم في كتاب الله تعالى فهذا العصر (عصر المطبعة)[1] ، يطالعنا في كل يوم من يكتب حول القرآن وليس له في العلم باع فضلاً عن العلم المتعلق بكتاب الله فيكتب فيه من غير دراية ويشعر أنه من الواجب عليه أن يشرح كتاب الإسلام ، وقد شهدت مكتبتنا في العصر الحديث مئات الكتب من هذا اللون ، فلا بد إذن من وضع شروط وإبراز المعايير التي تؤهل الكاتب ليكتب في هذا الميدان ، ولما كانت هذه المعايير كثيرة وبعضها يشترك مع المعايير التي وضعها الباحث لمنهج الدراسة ، فإن الباحث سيقتصر في حديثه هنا على تلك المعايير الأساسية لمفسّر هذا اللون محاولا ـ قدر الاستطاعة ـ أن يأتي ذلك في عبارة موجزة مختصرة وافية بالمعنى :

١) أول ما ينبغي أن يتوافر من شروط في المفسّر أن يكون مؤمناً ، مخلصاً بعيداً عن اتباع الهوى ، والمعصية ، ورعاً ، عارفاً قيمة وقدر الكلام في آيات الله ، مدركاً لخطورة الزلل في الفهم ، يخشى عاقبة قوله ، متأنياً في إبداء رأيه .

٢) على علم بأقوال من سبقه من العلماء ، مسترشداً بما صحّ من أقوالهم ، متجنباً لمواضع الخلاف ، مقدّرا لبحوثهم ، بعيدا عن الولوع في المخالفة أو كونه يهدف إلى تخطئة السابقين فيعمد إلى إبراز المرجوح من أقوالهم مسلطاً الضوء عليه حريصاً على اعتباره دون غيره ، أو كونه يحرص على أن يوصل للقارىء صواب ما اهتدى إليه من الرأي الجديد ، وأما غيره من الآراء فهو خطأ ولا صواب فيه ، وأن يحذر من حصر المعنى القرآني في فهم ضيق .

٣) أن يكون على بصيرة باللغة العربية واستعمالاتها ، عالماً بأسرار البيان ، محيطاً بأسرار التراكيب العربية (نحواً وصرفاً ولغة واشتقاقاً وبلاغة) ، وقد بيّن الزمخشري قيمة هذا الضابط قائلاً : « ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهّل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين

= الزرقاني : مناهل العرفان ، ٢/ ٩ـ٤٢ .

(١) كما يسميه البيومي ، انظر : التفسير القرآني ، ص ٩ .

أمرين ، تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ورُجع إليه ورَدّ ورُدّ عليه ، فارساً في علم الإعراب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة ، مشتعل القريحة ، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر »[1] .

٤) أن يكون ذا علم واطلاع بالعلوم المتصلة بالقرآن الكريم « علوم القرآن » من أسباب للنزول ومكي ومدني وناسخ ومنسوخ . . وغيرها من العلوم المبسوطة في كتب هذا الفن ، فلا تخفى أهميتها .

٥) أن يكون واسع الاطلاع ذا مكانة علمية ذا ثقافة واسعة في تراث المسلمين ومحيطاً بجوانب السيرة مطلعاً على أحداثها ، حريصاً على جمع ما صحّ من التفسيرات السابقة ، وهو في الوقت نفسه مطلعاً على ما استجد من علوم العصر ، دارساً لها دراسة المثقف الواعي ، موظفاً لها بما تقتضي الحاجة ، غير لاهث وراءها ولا حريص على تأييدها بنصوص القرآن . فيتكلف لذلك ويتمحل .

٦) أن يقبل على كتاب الله قراءة وحفظاً وتدبراً يقرؤه مرة بعد مرة دون كلل أو ملل ، فيكون ممن أشربت قلوبهم عظمة الله تعالى ، لا يبتغي شهرة ولا سمعة .

٧) أن لا يخلط بين الوسائل والغايات أو يجعل الوسائل غايات .

٨) أن يدخل عالم التفسير دون مقررات مسبقة ، والحذر من كون المفسّر يضع النتائج قبل المقدمات ثم يأت بمقدمات توصل إلى النتيجة التي وضعها .

٩) ينظر إلى نصوص القرآن نظرة كلية متكاملة ، حريصا على جمع المواطن المتشابهة فيدرسها معاً .

١٠) لا يكون متعصباً لمذهب داعياً لبدعة .

١١) أن يجد في نفسه الكفاية والثقة بالقدرة على القيام بهذه المهمة فكما يشير بعضهم[2] إلى أنه : « لا ينهض لهذا النوع من التفسير « النفسي » إلا إنسان ثقة في الموضوع ، إنسان حاول هو في نفسه أن ينفد إلى أبعاد وجوده ، لأن المرء حين ينظر في كتاب مقدّس يرى فيه ما يراه في أعماق ذاته ، المعنى الذي يستخرجه من النص

---

(١) الزمخشري : الكشاف ، ١/ ١٦ .

(٢) شريف : اتجاهات التفسير ، ص ٥٦٥ .

يعتمد كثيراً على مكانة المرء وشخصيته » .

١٢) ضرورة أن يكون المفسّر النفسي ذا خبرة نفسية في فهم الآيات ، وقد نبه الخولي لذلك ، حين قال : « وليس يحتاج المفسر إلى شيء أكثر من حاجته إلى الخبرة النفسية في فهم الآيات ، وقد ترفع ملاحظة المفسّر النفسية المعنى في الآية إلى أُفق باهر السناء خليق بذلك الإعجاز الذي تحدث به السماء . . »[١] .

١٣) الحذر من اتباع المتشابهات من النصوص وترك المحكمات ، قال السيوطي عند حديثه عن أخطاء المفسرين : إن أكثر ما يقع الخطأ في التفسير من وجهين :

قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

قوم فسّروا القرآن بمجرد ما يسوغ منه في لغة العرب من غير نظر إلى المنزل عليه القرآن وإلى المخاطبين به »[٢] .

١٤) استبعاد المطولات التي قد تحجب نور القرآن .

١٥) الشعور بأن الآية موجهة له فقط .

١٦) تسجيل الخواطر والمعاني لحظة ورودها .

١٧) وهناك الكثير من الضوابط التي ينبغي على المفسر أن يقوم بها منها ما أشار إليه المودودي[٣] : إن أول شيء يجب على الباحث أن يدركه قبل : أن يفزع إلى القرآن تكراراً ومراراً ويقبل عليه إقبالاً لا ملل فيه ولا كلل ، وأن يدرسه كل مرة من جهة جديدة ، وأن يربطه بواقع الحياة وحركتها على المستويين الفردي والجماعي .

هذه أهم الأمور ـ كما يراها الباحث ـ التي يجب على مفسر هذا اللون أن يراعيها ويلتفت إليها ، ولا يدعي الباحث أنه استقصى كل الضوابط التي تدخل ضمن هذا الإطار وإنما حرص على أن يكون ذلك كافيا في الوقوف على حدود وأبعاد هذا اللون ، والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ،ولا فهم لنا إلا ما فهمتنا إنك أنت التواب الرحيم .

---

(١) الخولي ، أمين : البلاغة وعلم النفس ، مجلة كلية الآداب ، ص ١٥٨ .

(٢) السيوطي : الإتقان ، ١٧٨/٢ .

(٣) المودودي : المبادىء الأساسية لفهم القرآن ، ص ٤٤ . .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الخاتمة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ، ويكافىء مزيده ، الحمد لله في الأولى والآخرة ، حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، له الحمد على نعمة التوفيق للعيش في ظلال كتابه الكريم ، والصلاة والسلام على من أنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد .

بعد هذا التطواف في ظلال العنوان ، يرجو الباحث أن يكون قد وفق في عرض الفكرة التي انطلقت منها الدراسة ، تلك التي تعدّ رافدا من روافد الإعجاز القرآني ، ويأمل أن تكون قد تمكنت من الإجابة عن أسئلة الدراسة ، ويمكن القول بأن الدراسة بمجموعة من النتائج والتوصيات ، بيانها على النحو الآتي :

أولاً : نتائج الدراسة

١) تمكنت الدراسة من تحديد معايير وضوابط المنهج النفسي للتفسير ، مبينة في الوقت نفسه مدى الحاجة إلى هذا اللون من ألوان التفسير .

٢) كشفت الجوانب النفسية عن وحدة التعبير القرآني وتماسكه وانسجامه ، وبراءته من التناقض والتضارب ، كما كشفت ـ في الوقت نفسه ـ عن زيف كثير من الشبهات التي أثيرت حول أسلوب القرآن ، وألفاظه وطريقة ترتيبه وغير ذلك .

٣) النماذج التي قدمها القرآن كانت كافية لدراسة جوانب النفس الإنسانية في أحوالها جميعاً .

٤) الإنسان غاية الخطاب القرآني ، وجاء ينظم حياته وجاء ينظم شؤونه وحياته وهو الذي ضمن توزيع الخطاب القرآني .

٥) كشفت عن واقعية المنهج القرآني في معالجة أحوال النفس الإنسانية ، سواء منها ما اتصل بالتشريعات والتكاليف ، أم ما اتصل ببيان الأحوال ، كما برزت الجوانب النفسية لدى الكثير من العلوم المتصلة بالقرآن ، (كأسباب النزول ، تنجيم القرآن ، الناسخ والمنسوخ . . وغير ذلك .

٦) يمكن التنبؤ بالسلوك القادم لبعض الأفراد والجماعات في ضوء المعطيات القرآنية ، فقد ركزت الدراسة في بعض مباحثها على الأبعاد النفسية للمواقف البشرية التي عرض لها القرآن ، محاولة أن تقدم أنموذجاً تحليلياً لبعض أحوال النفس

الإنسانية ، برز هذا في جوانب متعددة من الدراسة .

٧) كشفت هذه الدراسة عن كون الملاحظ النفسية كثيراً ما تكون أنسب طريقة لفهم النص وحل الإشكاليات التي يوردها الخصوم على النص ، أو حتى تلك النصوص التي تشكل نوعا من الصعوبة في الفهم بسبب من مخالفة الظاهر أو غيره ، كما أنها تشكل أقوى دليل يمكن أن يستند إليه في رد بعض ما أثير حول القرآن كالقول بالزيادة ، وهو قول شائع في كتب النحو وعلوم القرآن فضلا عن كتابات المستشرقين ، وكالقول برعاية الفاصلة ، وكالقول بالترادف ، وغير ذلك مما كثرت الإشارة إليه في ثنايا الدراسة .

٨) كشفت الدراسة عن جهود المفسرين القدامى في ميدان الدلالة النفسية ، مع أنه لم يكن همها الأول ، إلا أننا وجدنا له حضورا في ثنايا تفسيراتهم .

٩) كشفت الدراسة عن بعض الجوانب التي يمكن أن تتوجه إليها جهود المربين والدعاة في الميادين التطبيقية كالتربية وعلم النفس .

١٠) أبرزت الدراسة ما يمكن أن يطلق عليه الإعجاز النفسي ، مبينة في الوقت ذاته أنه يسير جنباً إلى جنب مع الإعجاز البياني ، وبالتالي فإن الدراسة كانت قد كشفت عن الوسيلة التي يتجدد فيها وجه الإعجاز الرئيسي وهو الإعجاز البياني ، وبهذا تكون الدراسة قد تمكنت من أن تجعل من أبواب البلاغة سياج حماية ، لكي تبقى في مأمن من الأخطار .

١١) استطاعت الدراسة أن توظف العلوم الحديثة في فهم كثير من النصوص فهما ينسجم مع النص والسياق .

١٢) ركزت الدراسة على الجانب العملي والتطبيقي ، وما قدمته الدراسة من أمثلة كانت أشبه بإضاءات ولا تعدو إشارات ، حيث يكمن خلفها الكثير الكثير من الأمثلة .

١٣) بينت الدراسة دور اللفظ في الكشف عن كثير من الحقائق المتعلقة بالنفس الإنسانية ، كما كشفت عن دور أحكام التجويد في إبراز المعاني النفسية ، وعن دور النبر في إبراز المعاني النفسية .

١٤) الغاية الأسمى من ذكر القصص القرآني توجيه السلوك الإنساني نحو الأفضل ، وهو رصيد كاف للمنهج التجريبي (رصيد التجربة) ، وبهذا تلتقي القصة بالخط القرآني الكبير ، عدا كون القصة من أبرز عناصر التأثير في النفوس .

١٥) كشفت هذه الدراسة عن دور الجوانب الروحية في الحفاظ على الصحة النفسية ومدى حماية الإنسان من الأمراض الخارجية .

١٦) قدمت الدراسة حقائق واقعية نفسية ارتسمت على أشخاص أصحاء ، عاشوا على مسرح الحياة ، وزاولوا الحياة اليومية باختيارهم .

١٧) السياق أهم ركائز النظم القرآني .

١٨) كشفت الدراسة عن أهمية الإلمام والإحاطة بالظروف التي نزلت فيها الآيات ، وعن ضرورة معايشة إيحاءات النص وظلاله .

١٩) من أبرز خصائص التنوع في أسلوب القرآن ، (أسرار التعبير القرآني) أنه يتنوع بما يتلائم وطبيعة المخاطبين .

٢٠) الحوار أهم وأبرز الأساليب التي تكشف عن الشخصية الإنسانية .

٢١) إن إغفال الجانب الثالث في الإنسان هو السبب في ضياع الإنسانية وتخبطها ، فالجانب الروحي هو الذي يمثل التيار الحقيقي في حياة النفس الإنسانية .

٢٢) كشفت الدراسة عن وجود وسائل أخرى يمكن التعبير بها عن ما في النفس الإنسانية كحركات أعضاء الجسم ، وهي لا تقل أهمية عن اللفظ .

٢٣) الصور البيانية من الصور البارزة في الكشف عن الجوانب النفسية ، وميدان فسيح من ميادينه .

٢٤) كل سورة بمثابة لوحة فنية ، وحجرة نفسية ، وتضيف لبنة نفسية إلى ذلك الكيان الإنساني ، ينبغي أن تدرس بتمعن وتركيز وأن يكون لها نصيب خاص من التدبر .

٢٥) كشفت الدراسة عن دور الحرف والكلمة والجملة في الإعجاز القرآني بعامة ، والنفسي بخاصة ، والذي بدوره يكشف عن حقيقة الجدية في هذا الكون ، فما دام كل حرف في القرآن يؤدي رسالة ، فكل شيء في الكون يؤدي وظيفة ، حتى ظل الحرف وجرسه مقصودا ، ومعناه وارتباطه بما بعده ، وبالتالي ينبغي التفكر في هذه الجدية في خلق الله وتنزيهها عن العبثية .

٢٦) ما من أسلوب من أساليب العربية إلا وهو جار على ما في النفس الإنسانية ، والقرآن حين يخاطبنا ينقل لنا هذه المعاني النفسية عبر تلك القوالب اللغوية .

٢٧) كشفت الدراسة عن بعض الجوانب النفسية المتعلقة بطبيعة المرأة .

٢٨) لوحظ أن الموضوعات التي تطرحها السور القرآنية تبدأ بنحو تتنامى أجزاؤها من خلال المرحلة الطويلة التي يقطعها النص .

٢٩) مزاج الأنبياء هو مزاج الرسالة (رأينا كيف يصنع الإيمان بنفسية المؤمن ، فيخلق منها ثوباً جديداً بمشاعر جديدة وهمّ جديد .

٣٠) للأحداث دور كبير في إثارة الانفعالات .

٣١) أكثر أمة عرضت لها القصة هي أمة بني إسرائيل ، وهذا مؤشر إلى دورها في الصرع مع أمة الرسالة .

ثانياً : التوصيات

انطلاقا من واقع الحاجة إلى دراسات تعيد النظر في فهم كتاب الله في ضوء المعاني النفسية ، وإدراكا للوظيفة العملية في واقع الحياة ، فإن الباحث يشير إلى ضرورة أن توجه جهود طلبة العلم من أهل الاختصاص إلى هذا اللون من الدراسات ، ويقترح بعض العناوين التي تحتاج إلى دراسة مستقلة :

١) كشفت الدراسة عن وجود كثير من الجوانب تحتاج لدراسة مماثلة ، وهي متعلقة باللفظ القرآني ، فقد لوحظ بشكل ظاهر للعيان الدلالة الاجتماعية « فما أجمل أن توجه جهود مماثلة لدراسة الدلالة الاجتماعية في التعبير القرآني . ومثلها الدلالة التاريخية والجوانب التاريخية .

٢) ملامح نفسية في تراث المفسرين

٣) الألفاظ المعبرة عن المشاعر والأحاسيس دراسة موضوعية .

٤) دور المثل القرآني في علاج المسألة المالية دراسة نفسية .

٥) دور النبر والتنغيم في أداء المعنى .

٦) أحكام التجويد ودورها في الكشف عن النفس الإنسانية .

٧) الخط النفسي في سورة يوسف ، الكهف ، القصص ، . . أو غيرها من السور .

٨) الفعل المبني للمجهول في القرآن دراسة من وجهة نفسية .

٩) اللغة غير اللفظية ودورها النفسي في اللفظ القرآني .

١٠) المنهج التشريعي وأبعاده النفسية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قائمة المصادر والمراجع

أولا : اللغة العربية :

أـ الكتب :

- الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح : **المستطرف في كل فن مستظرف** ، تح : محمد مفيد قميحة ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، ١٩٨٦م) .
- ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد : **مصنف بن أبي شيبة** ، تح : كمال يوسف الحوت ، (الرياض : مكتبة الرشيد ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ) .
- ابن الأثير : أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد : **المثل السائر** ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : المكتبة العصرية ، د . ط ، ١٩٩٥م) .
- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم : **الكامل في التاريخ** ، (بيروت : دار صادر ، د . ط ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) .
- ابن الأثير ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري : **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، تح : محمود محمد الطناجي وطاهر الزاوي ، (بيروت : دار الفكر ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) .
- ابن تيمية ، تقي الدين أحمد : **مجموع فتاوي ابن تيمية** ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي ، (الرياض : الإدارة العامة للبحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ط ١ ، ١٣٩٨هـ) .
- ابن الجرزي ، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي ت (٨٣٣هـ) : **النشر في القراءات العشر** ، تصحيح ومراجعة : علي محمد الضباع ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط . ت) .
- ابن جني ، أبو الفتح عثمان بن جني النحوي : **الخصائص** ، تح : محمد علي النجار ، (القاهرة : دار الكتب ، د . ط ، ١٩٥٥م) .
- ـــــ ، **المنصف لشرح التصريف** ، (الإمام أبو عثمان بن المازنيي) ، تح : إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين ، (مصر : مطبعة البابي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٥٤م) .
- ابن حبان ، محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي : **صحيح ابن حبان** ، تح : شعيب الأرناؤوط ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٣م) .

- ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني : **فتح الباري في شرح صحيح البخاري** ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ومحبّ الدين الخطيب ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ١٣٧٩هـ)
- ـــــ ، **تهذيب التهذيب** ، (بيروت : دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) .
- ابن خزيمة : محمد بن إسحاق أبو بكر السلمي : **صحيح ابن خزيمة** ، تح : محمد مصطفى الأعظمي ، (بيروت : المكتب الإسلامي ، د . ط ، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) .
- ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي ت (٤٥٦هـ) : **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت : دار الجيل ، ط ٥ ، ١٩٨١م) .
- ابن عاشور ، محمد الطاهر : **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد** ، (تونس : الدار التونسية للنشر ، د . ط ، ١٩٨٤م) .
- ابن فارس ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ت (٣٩٥هـ) : **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** ، تح : السيد أحمد صقر ، (القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، د . ط ، ١٩٧٧م) .
- ـــــ ، **معجم مقاييس اللغة** ، تح : عبد السلام محمد هارون ، (بيروت : دار الجيل ، ط ١ ، ١٩٩١م) .
- ابن قيم الجوزية ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي : **إعلام الموقعين عن رب العالمين** ، تح : طه عبد الرءوف سعد ، (بيروت : دار الجيل ، د . ط ، ١٩٧٣م) .
- ـــــ ، **بدائع الفوائد** ، تح : هشام عبد العزيز عطا وآخرون ، (مكة المكرمة : مكتبة نزار مصطفى الباز ، ط ١ ، ١٩٩٦م) .
- ـــــ ، **التبيان في أقسام القرآن** ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) .
- ـــــ ، **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنام** ، تح : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، (الكويت : دار العروبة ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) .
- ـــــ ، **الفوائد** ، تح : سعيد اللحام ، (بيروت : دار الفكر اللبناني ، ط ١ ، ١٩٩٢م) .
- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي : **تفسير القرآن العظيم** ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط ، ١٤٠٤هـ) .
- ابن ماجة : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني : **سنن ابن ماجة** ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) .

- ابن المبارك ، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي : **الزهد** ، تح : حبيب الرحمن الأعظمي ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط . ت) .
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : **لسان العرب** ، (بيروت : دار صادر ، ط ١ ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م) .
- ابن نجيم ، زين العابدين بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر : **البحر الرائق شرح كنز الدقائق** ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط . ت) .
- ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري : **السيرة النبوية** ، تح : طه عبد الرءوف سعد ، (بيروت : دار الجيل ، ط ١ ، ١٤١١هـ) .
- أبو حاتم ، محمد بن حبان البستي ت (٣٢٢هـ) : **ديوان الحماسة** ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٧٧م) .
- ـــــ ، **روضة العقلاء** ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، د . ت) .
- أبو حيان الأندلسي ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف : **البحر المحيط** ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م) .
- أبو ريان ، محمد علي : **أصول الفلسفة الاستشراقية عند شهاب الدين السهروردي** ، (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ط ٢ ، ١٩٨٧م) .
- أبو زرعة ، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة : **حجة القراءات** ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٨٢م) .
- أبو زهرة ، محمد : **معجزة القرآن الكبرى** ، (بيروت : دار الفكر العربي ، د . ط ، ١٩٧٠م) .
- أبو السعد ، عبد الرءوف : **الأداء النفسي واللغة العربية** ، (القاهرة : دار النمر للطباعة ، د . ط ، ١٩٨٥م) .
- أبو السعود ، محمد بن محمد العمادي : **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) .
- أبو شادي ، مصطفى عبد السلام : **الحذف البلاغي في القرآن الكريم** (القاهرة : مكتبة القرآن ، د . ط ، ١٩٩٢م) .
- أبو عودة ، عودة : **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم** ، (الزرقاء : مكتبة المنار ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) .
- أبو موسى ، محمد محمد : **دلالات التراكيب دراسة بلاغية** ، (القاهرة : مكتبة وهبه ، ط ٤ ، ١٩٩٦م) .

- أحمد : أبو عبد الله الشيباني : **مسند الإمام أحمد** ، (مصر : مؤسسة قرطبة ، د . ط . ت) .
- أدونيس ، على أحمد سعيد : **النص القرآني وآفاق الكتابة** ، (بيروت : دار الآداب ، د . ط ، ١٩٩٣م)
- الأزهري ، أبو منصور محمد : **المستدرك على الأجزاء السابع والثامن والتاسع من التهذيب** ، تح : رشيد عبد الرحمن العبيدي ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ط ، ١٩٧٥م) .
- إستيتيه ، سمير شريف : **الشرط والاستفهام في الأساليب العربية** ، (دبي : دار القلم ، ط ١ ، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م) .
- إسماعيل ، سيوين علي : **لغة الحركة الجسمية في القرآن الكريم** ، (ماليزيا : رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية العالمية ، مايو/ ٢٠٠٠م) .
- إسماعيل ، شعبان محمد : **تهذيب شرح الأسنوي على منهاج الوصول إلى علم الأصول** ، (القاهرة : مكتبة جمهورية مصر ، د . ط ، ١٣٩٦هـ) .
- الأصفهاني ، أبو الفرج : **الأغاني** ، تح : سمير جابر ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، د . ت) .
- الألباني ، محمد ناصر : **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء في الأمة** ، (مكتبة المعارف للنشر والتوزيع) .
- ــــ ، **صحيح الترغيب والترهيب للمنذري** ، (د .م ، مكتبة المعارف ، ط١ ، ١٤٢١هـ) ،
- الآلوسي ، شهاب الدين أبو الفضل محمود بن شكري : **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) .
- الآمدي ، علي بن محمد أبو الحسن ت (٦٣١هـ) : **الإحكام في أصول الأحكام** ، تح : السيد الجميلي ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ) .
- أمين ، أحمد : **فجر الإسلام** ، (بيروت : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٧ ، ١٩٥٩م) .
- أمين ، عثمان : **في اللغة والفكر** ، (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، د . ط ، ١٩٦٧م) .
- الأميني ، محمد تقي الدين : **الأسس الفكرية الإيمانية للدستور القرآني** ، (مصر : دار الصحوة للنشر ، د . ط ، ١٩٨٥م) .

- الأندلسي ، أحمد بن محمد ابن عبد ربه : **العقد الفريد** ، تح : محمد سعيد العريان ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) .
- الأنطاكي ، محمد : **الوجيز في فقه اللغة** ، (حلب : مكتبة الشهباء ، د . ط ، ١٩٦٩م) .
- أنيس ، إبراهيم : **الأصوات اللغوية** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٤ ، ١٩٨٤م) .
- ـــــ ، **دلالة الألفاظ** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٦ ، ١٩٩١م) .
- ـــــ ، **في اللهجات العربية** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٤ ، ١٩٧٣م) .
- ـــــ ، موسيقى الشعر ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٦ ، ١٩٨٨م) .
- بابكر الحسن ، خليفة : **مناهج الأصوليين في طرق دلالات الألفاظ على الأحكام** ، (القاهرة : مكتبة وهبه ، ط ١ ، ١٩٨٩م) .
- بادشاه ، أمير ، **تيسير التحرير** ، (مصر : مطبعة الحلبي ، د . ط ، ١٣٥٠هـ) .
- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ت (٤٠٣هـ) : **إعجاز القرآن** ، تح : السيد أحمد صقر (القاهرة : دار المعارف ، د . ط . ت) .
- بالمر ، ف . ر . : **علم الدلالة** (إطار جديد) ، ترجمة : صبري ابراهيم السيد ، (الدوحة : دار قطري بن الفجاءة ، د . ط ، ١٩٨٦م) .
- البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل : **الجامع الصحيح المسند المتصل من أحاديث الرسول** ، (بيروت : دار ابن كثير ، ط ٣ ، ١٩٨٧م) .
- البخاري ، عبد العزيز : **كشف الأسرار على أصول البزدوي** ، (القاهرة : مطبعة الصنايع ، د . ط ، ١٣٠٧هـ) .
- البدري ، مالك : **التفكر من المشاهدة إلى الشهود** ، (هيرندن : مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨١م) .
- بدوي ، أحمد أحمد : **من بلاغة القرآن** ، (الفجالة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، د . ط ، ١٩٧٨م) .
- برتيل مالميرج : **علم الأصوات** ، تعريب : عبد الصبور شاهين ، (القاهرة : مكتبة الشباب ، د . ط ، ت) .
- بركه ، عبد الغني محمد سعد : **الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره** ، (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٩٨٩م)
- البعلبكي ، منير : **موسوعة المورد** ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١ ، ١٩٨١م) .

- البغدادي ، أبو بكر احمد بن موسى بن عباس ت (٣٢٤هـ) : **السبعة في القراءات العشرة** ، تح : شوقي ضيف ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٤٠٠هـ) .
- البغدادي ، جلال الدين حنفي : **قواعد التجويد والإلقاء الصوتي** ، (العراق : لجنة إحياء التراث الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨٧م) .
- البغوي ، الحسين بن مسعود الفراء أبو محمد : **معالم التنزيل** ، تح : خالد العك ومروان سوار ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م) .
- البنا ، جمال : **نحو فقه جديد** (القاهرة : دار الفكر الإسلامي ، د . ط ، ١٩٦٦م) .
- بنت الشاطىء ، عائشة عبد الرحمن : **التفسير البياني للقرآن الكريم** ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٧ ، ١٩٩٠م) .
- البنداري ، حسن : **تكوين الخطاب النفسي في النقد العربي القديم** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٩٩٢م) .
- بن نبي ، مالك : **الظاهرة القرآنية** ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، (دمشق : دار الفكر ، ط ٤ ، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م) .
- البوطي ، محمد سعيد رمضان : **من روائع القرآن** ، (دمشق : مكتبة الفارابي ، د . ط . ١٩٦٨م) .
- البيانوني ، عبد المجيد : **ضرب الأمثال في القرآن** ، (دمشق : دار القلم ، ط ١ ، ١٩٩١م) .
- البيضاوي ، أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر : **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** ، (بيروت ، دار الفكر ، د . ط ، ١٤٠١٦هـ ـ١٩٩٦م) .
- البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى : **السنن الكبرى** ، تح : محمد عبد القادر عطا ، (مكة : مكتبة دار الباز ، د . ط ، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٤م) .
- ـــــ ، **شعب الإيمان** ، تح : محمد السعيد بسيوني زغلول ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٠هـ) .
- البيومي ، محمد رجب : **التفسير القرآني** ، (القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة ، د . ط ، ١٩٨٨م) .
- الترمذي : محمد بن عيسى أبو عيسى : **سنن الترمذي** ، تح : أحمد محمد شاكر وآخرون ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) .
- التهانوني ، محمد علي : **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم** ، تح : علي دحروج ، وترجمة : جورج زيناتي وعبد الله الخالدي ، (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون ، ط ١ ، ١٩٩٦م) .

- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت (٢٥٥هـ) : **البيان والتبيين** ، (بيروت : دار صعب ، ط ١ ، ١٩٦٨م) .
- الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ت (٤٧١هـ) : **أسرار البلاغة** ، تح : محمد الفاضلي ، (بيروت المكتبة العصرية ، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) . وطبعة أخرى ، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، (القاهرة : مكتبة القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩م) .
- ـــــ ، **دلائل الإعجاز** ، تح : محمد التنجي ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٩٩٥م) .
- الجرجاني ، السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين أبي الحسن الحسيني ت (٨١٦هـ) : **التعريفات** ، تح : عبد الرحمن عميرة ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ١ ، ١٩٨٧م) .
- الجرجاني ، علي بن عبد العزيز : **الوساطة بين المتنبي وخصومه** ، (بيروت : المكتبة العصرية ، د . ط ، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م) .
- جعرابه ، عبد الحميد محمد ندا : **المدخل إلى التفسير** ، (القاهرة : مكتبة الزهراء ، ط ١ ، ١٩٩٦م) .
- الجمل ، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي : **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية** ، (بيروت : دار إحياء التراث ، د . ط . ت) .
- حبنكه الميداني ، عبد الرحمن حسن : **أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع** ، (دمشق : دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٩٢م) .
- ـــــ ، **قواعد التدبر الأمثل للقرآن الكريم** ، (دمشق : دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٨٩م) .
- حسان ، تمام : **البيان في روائع القرآن** « دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني » ، (القاهرة : عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) .
- ـــــ ، **اللغة العربية معناها ومبناها** ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتب ، ط ٣ ، ١٩٨٥م) .
- ـــــ ، **مناهج البحث في اللغة** ، (الدار البيضاء : دار الثقافة ، د . ط ، ١٩٧٩م) .
- حسب النبي ، منصور محمد : **إعجاز القرآن في آفاق الزمان والمكان** ، (القاهرة : دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) .
- الحسناوي ، محمد : **الفاصلة في القرآن** ، (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٨٦م) .

- حسنين ، حسنين محمود : **تفسير النصوص** ، (دبي : دار العلم ، ط ١ ، ١٩٨٦م) .
- حسين ، طه : **في الشعر الجاهلي** ، (الدقي : دار النهر ، ط ٣ ، ١٩٩٦م) .
- حسين ، عبد القادر: **القرآن والصورة البيانية** ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٩٨٥م).
- حفني ، عبد الحليم : **أسلوب المحاورة في القرآن الكريم** ، (القاهرة : الهيئة العامة المصرية للكتب ، ط ٢ ، ١٩٨٥م) .
- ـــــ ، **التصوير الساخر في القرآن الكريم** ، (القاهرة : الهيئة العامة المصرية ، د . ط ، ١٩٩٢م) .
- حماد ، أحمد عبد الرحمن : **العلاقة بين اللغة والفكر** ، (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، ١٩٨٥م) .
- ـــــ ، **علم الدلالة في الكتب العربية** ، (د . م . ن . ط ، ١٩٨٦م) .
- الحمصي ، هشام عبد الرزاق : **نظرات في كتاب الله** ، (دمشق : دار الكلم الطيب ، ط ٤ ، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م) ،
- حمودة ، طاهر سليمان : **دراسة المعنى عند الأصوليين** ، (الاسكندرية : الدار الجامعية للطباعة والنشر ، د . ط ، ١٩٨٣م) .
- حيدر ، فريد عوض : **علم الدلالة** (دراسة نظرية وتطبيقية) ، (القاهرة : مكتبة النهضة ، د . ط ، ١٩٩٨م) .
- الخالدي ، صلاح عبد الفتاح : **لطائف قرآنية** ، (دمشق : دار القلم ، ط ١ ، ١٩٩٢م) .
- ـــ ، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب** ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) .
- الخراشي ، ناهد عبد العال : **أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي** ، (القاهرة : مطابع الأهرام ، ط ١ ، ١٩٨٧م) .
- خرما ، نايف : **أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة** ، (الكويت : عالم المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٧٩م) .
- الخضري ، محمد الأمين : **الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ** (دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن) ، (القاهرة : مطبعة الحسين الإسلامية ، ط ١ ، ١٩٩٣م) .
- ـــــ ، **من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم** « الفاء وثم » ، (عابدين : مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٩٩٣م) .
- الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ت (٣٨٨هـ) : **ثلاث رسائل في الإعجاز** (البيان في إعجاز القرآن) ، تح : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٤ ، د . ت) .

- الخطيب الإسكافي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت (٤٢٠هـ) : **درة التنزيل وغرة التأويل « في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله »** : (بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ط ٤ ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) .
- الخطيب ، عبد الكريم : **إعجاز القرآن** ، (بيروت : دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٩٦٤م)
- ـــــ ، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه** ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط . ت) .
- خلف الله ، محمد أحمد : **الفن القصص في القرآن** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٥م)
- خليفة ، حاجي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني : **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، (بيروت : دار الكتب العلمية ،د . ط ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٩٢م) .
- خليل ، السيد أحمد : **دراسات في القرآن** ، (القاهرة : دار النهضة المصرية ، د . ط ، ١٩٦٩م) .
- ـــــ ، **المدخل إلى دراسة البلاغة العربية** ، (بيروت : دار النهضة العربية ، د . ط ، ١٩٦٨م) .
- الخولي ، أمين ت (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م) : **مادة « تفسير »** ، **دائرة المعارف الإسلامية** ، إعداد وتحرير : إبراهيم زكي خورشيد ورفاقه ، (القاهرة : دار الشعب ، ط ٢ ، ١٩٦٩م) .
- ـــــ ، **مناهج تجديد في النحو والبلاغة والأدب والتفسير** ، (القاهرة : دار المعرفة ، د . ط ، ١٩٦١م) .
- الخولي ، محمد علي : **الأصوات اللغوية** ، (الرياض : مكتبة الخريجي ، ط ١ ، ١٩٨٧م) .
- الدارقطني ، علي بن عمر أبو الحسن البغدادي : **سنن الدارقطني** ، تح : عبد الله هاشم يماني ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م) .
- الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي : **سنن الدارمي** ، تح : فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ) .
- الدالي ، محمد : **الوحدة الفنية في القصة القرآنية** ، (د . م : آمون للطباعة والنشر ، د . ط ، ١٩٩٣م) .
- دراز ، صباح عبيد : **في البلاغة العربية « من أسرار الفصل والوصل »** ، (القاهرة : مطبعة الأمانة ، د . ط ، ١٩٨٦م) .
- دراز ، محمد عبد الله : **مدخل إلى القرآن الكريم** ، (الكويت : دار القلم ، د . ط . ت) ، ص ١١٩ .

- ـــــ ، **النبأ العظيم** ، (الكويت : دار القلم ، ط ٦ ، ١٩٩٣م) ، وطبعة أخرى ، اعتنى بها وخرّج أحاديثها عبد الحميد الدخانيني ، (الرياض : دار طيبة للنشر ، ط ١ ، ١٩٩٧م) .
- الدريني ، فتحي : **المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي** ، (د . م : الشركة المتحدة للتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٥م) .
- الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، **سير أعلام النبلاء** ، تح : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٩ ، ١٤١٣هـ) .
- الذهبي : محمد حسين : **التفسير والمفسرون** ، (عابدين : مكتبة وهبة ، ط ٣ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٩٠م) .
- الراجحي ، عبده : **فقه اللغة في الكتب العربية** ، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، ١٩٩٠م) .
- الرازي ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد ، ت (١٠٦٢هـ) : **فضائل القرآن وتلاوته وخصائص تلاوته وحملته** ، تح : عامر حسين صبري ، (بيروت : دار البشائر الإسلامية ، د . ط ، ١٩٩٤م) .
- الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر : **مختار الصحاح** ، تح : محمود خاطر ، (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون ، د . ط ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م) .
- الراغب ، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني ت (٥٠٢هـ) : **المفردات في غريب القرآن** ، تح : محمد سيد كيلاني ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط . ت) .
- راغب ، نبيل : **شرف الكلمة** ، (د . م : مكتبة المحبة ـ سلسلة آفاق مضيئة ، د . ط ، ١٩٨٩م) .
- الرافعي ، مصطفى صادق ت (١٣٥٦هـ) : **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** ، (القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ط ٧ ، ١٩٦١) .
- ـــــ ، **تاريخ آداب العرب** ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، د . ط . ت) .
- ربيع ، محمد شحاته : **التراث النفسي عند علماء المسلمين** ، (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، ١٩٩٣م) .
- رضا ، محمد رشيد : **تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)** ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م) .
- الرمّاني ، أبو الحسن علي بن عيسى ت (٣٨٦هـ) : **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت في إعجاز القرآن)** ، تح : محمد أحمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، (القاهرة : دار المعارف ، د . ط . ت) .

- رمضان ، محي الدين : **وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن** ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) .
- روزينال ويودين : **الموسوعة الفلسفية** ، ترجمة : سمير كرم ، (بيروت : دار الطليعة ، ط ٦ ، ١٩٨٧م) .
- الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان : **خصائص القرآن الكريم** ، (الرياض : المديرية العامة للمطبوعات ، ط ٥ ، ١٤١٠هـ) .
- الزبيدي ، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي : **تاج العروس** ، (جمالية مصر : المطبعة الخيرية ، ط ١ ، ١٣٠٦هـ) .
- الزرقاني ، عبد العظيم : **مناهل العرفان في علوم القرآن** ، (القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، د . ط ، ١٩٨٠م) .
- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله : **البرهان في علوم القرآن** ، تح : مجمد أبو الفضل إبراهيم ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ١٣٩١هـ) .
- الزركلي ، خير الدين : **الأعلام (قاموس تراجم)** ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٦ ، ١٩٨٦م) .
- زكريا ، عبد المرضي : **الحوار ورسم الشخصيات** ، (القاهرة : مكتبة زهراء الشرق ، د . ط ، ١٩٩٧م) .
- زلط ، عبد الرحيم محمود : **العدة النفسية والمادية في شعر الحروب الجاهلية** ، (دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٩م) .
- الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد ت (٥٣٨هـ) : **أساس البلاغة** ، (القاهرة : كتاب الشعب ، د . ط ، ١٩٦٠) . وطبعة أخرى : تح : محمد باسل عيون السود ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٩٨م) .
- ـــــ ، **الكشاف** ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط ، ت) ، ٢/ ٥٨٣ . وطبعة أخرى ، تح : محمد الصادق قمحاوي ، (القاهرة ، البابي الحلبي وأولاده ، د.. ط ، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م) .
- الزنداني ، عبد المجيد : **آيات الله في الآفاق** ، إعداد : محمد إبراهيم سليم .
- زيدان ، عبد الكريم : **الوجيز في أصول الفقه** ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٦ ، ١٩٩٧م) .
- الزيلعي ، عبد الله بن يوسف أبو محمد الحنفي : **نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية** ، تح : محمد يوسف البنوري ، (مصر : دار الحديث ، د . ط ، ١٣٥٧هـ) .

- السامرائي ، فاضل : **التعبير القرآني** ، (عمان : دار عمّار ، ط ١ ، ١٩٨٨م) .
- السبيعي ، عدنان : **سيكولوجية الأمومة ومسؤولية الحمل** ، (د . م : الشركة المتحدة للتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٥م) .
- سعد ، محمود توفيق محمد : **إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني** ، (القاهرة : مطبعة الأمانة ، ط ١ ، ١٩٩٢م) .
- ــ ، **دلالة الألفاظ عند الأصوليين (دراسة بيانية ناقده)** ، (مصر : الأمانة ، ط ١ ، ١٩٨٧م) .
- السعران ، محمود : **علم اللغة (مقدمة للقارىء العربي)** ، (بيروت : دار النهضة العربية ، د . ط . ١٩٨٠م) .
- سعيد ، عبد الباري طه : **أثر التشبيه في تصوير المعنى « قراءة في صحيح مسلم »** ، (القاهرة : د . ن . ط ١ ، ١٩٩٢م) .
- السعيد ، لبيب : **الجمع الصوتي الأول للقرآن** ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٧٨م)
- السلامي ، عمر : **الإعجاز الفني في القرآن الكريم** ، (تونس : مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، د . ط ، ١٩٨٠م) .
- سلطان ، منير : **إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة** ، (الاسكندرية : منشأة المعارف بمصر ، ط ٣ ، ١٩٨٢م) .
- ـــــ ، **الفصل والوصل في القرآن الكريم** ، (مصر : دار المعارف ، د . ط ، ١٩٨٣م) .
- السمين الحلبي ، شهاب الدين أبو العباس بن يوسف بن محمد : **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** ، تح : علي محمد عوض ورفاقه ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) .
- السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت (٥٨١هـ) : **نتائج الفكر في النحو** ، تح : محمد إبراهيم البنا ، (مكة المكرمة : دار الاعتصام ، د . ط ، ١٩٨٤م) .
- سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : **الكتاب** ، تح : عبد السلام هارون ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ٣ ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) .
- السيوطي ، جلال الدين : **الإتقان في علوم القرآن** ، (بيروت : المكتبة الثقافية ، د . ط ، ١٩٧٣م) .
- ــ ، **أسرار ترتيب القرآن** ، تح : عبد القادر عطا ، (القاهرة : دار الاعتصام ، د . ط . ت) .

- ـــــ ، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) .
- ـــــ ، **الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج** ، تح : أبو إسحاق الأثري ، (الخبر : دار ابن عفان ، د . ط ، هـ١٤١٦-١٩٩٦م) .
- ـــــ ، **طبقات المفسرين** ، تح : علي محمد عمر ، (القاهرة : مكتبة وهبه ، ط ١ ، ١٣٩٦هـ) .
- الشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى : **الموافقات في أصول الشريعة** ، (بيروت : دار المعرفة ،د . ط . ت) .
- شحاته ، مصطفى أحمد : **لغة الهمس** ، (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، د . ط ، ١٩٧٢م) .
- الشرقاوي ، عفت : **بلاغة العطف في القرآن « دراسة أسلوبية »** ، (بيروت : دار النهضة العربية ، د . ط ، ١٩٨١م) .
- ـــــ ، **الفكر الديني في مواجهة العصر** ، (بيروت : دار العودة ، ط ٢ ، ١٩٧٩م) .
- شريف ، محمد إبراهيم : **اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر** ، (القاهرة : دار التراث ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) .
- الشعراوي ، محمد متولي : **تفسير الشعراوي** ، (القاهرة : أخبار اليوم ، د . ط ، ١٩٩١م) .
- ـــــ ، **المرأة في القصص القرآني** ، (القاهرة : مؤسسة أخبار الأيام ، د . ط . ت) .
- ـــــ ، **معجزة القرآن** ، (القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨٨م) .
- شكري ، أحمد خالد : **قراءة الإمام نافع من روايتي قالون وورش** ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م)
- شلتوت ، محمود : **إلى القرآن الكريم** ، (بيروت : دار الشروق ، د . ط ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) .
- الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد : **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية** ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٣ ، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م) .
- الصالح ، صبحي : **مباحث في علوم القرآن** ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١٧ ، ١٩٩٠م) .
- الصالح ، محمد أديب : **تفسير النصوص** ، (بيروت : مكتبة الإسلام ، ط ٣ ، ١٩٨٤م) .

- الصغير ، محمد حسين علي : **الصورة الفنية في المثل القرآني** ، (بيروت : دار الهادي ، ط ١ ، ١٩٩٢م) .
- صفوت ، أحمد زكي : **جمهرة خطب العرب** ، (بيروت : المكتبة العلمية ، د . ط . ت) .
- صليبا ، جميل : **علم النفس** ، (دمشق : المكتبة ، د . ط ، ١٩٤٨م) .
- ضيف ، شوقي : **سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة** ، (مصر : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٨٠م) .
- طبانة ، بدوي : **معجم البلاغة العربية** ، (الرياض : دار العلوم ، د . ط ، ١٩٨٢م) .
- الطبراني ، أبو القاسم سلمان بن أحمد بن أيوب : **المعجم الأوسط** ، تح : طارق بن عوض الله و عبد المحسن الحسيني ، (القاهرة : دار الحرمين ، د . ط ، ١٤١٥هـ) .
- ـــــ ، **المعجم الكبير** ، تح : حمدي عبد المجيد ، (الموصل : مكتبة العلوم والحكم ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م) .
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد : **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط ، ١٤٠٥هـ) .
- طبق ، عبد الجواد محمد : **دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية** ، (القاهرة : دار الأرقم ، ط ١ ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م) .
- الطنطاوي ، محمد سيد ، وكومي ، محمد : **التفسير الوسيط** ، (القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة ، ط ١ ، ١٩٩٧م) .
- ظاظا ، حسن ، **اللسان والإنسان** ، (دمشق : دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٩٠م) .
- عاصي ، حسن : **التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا** ، (الحمراء : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) .
- عامر ، فتحي أحمد : **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ** ، (الإسكندرية : دار المعارف ، د . ط ، ١٩٨٠م)
- العاني ، عبد القهار داود : **دراسات في علوم القرآن** ، (كوالا لامبور : الجامعة الإسلامية العالمية ، ط ٢ ، د . ت) .
- العاني ، نزار : **الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي** ، (عمان : دار الفرقان ، د . ط ، ١٩٨٨م) .
- عباس ، فضل حسن : **إعجاز القرآن** ، (عمان : دار الفرقان ، د . ط ، ١٩٩١م) .
- ـــ ، **البلاغة فنونها وأفنانها** ، (عمان : دار الفرقان ، ط ٣ ، ١٩٩٢م) .

ـــ ، **القصص القرآني ايحاؤه ونفحاته** ، (عمان : دار الفرقان ، ط ١ ، ١٩٨٧م) .
ـ عبد التواب ، رمضان ، **المدخل إلى علم اللغة العربية ومناهج البحث اللغوي** ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) .
ـ عبد التواب ، صلاح الدين محمد : **الصورة الأدبية في القرآن الكريم** ، (القاهرة : دار نوبار للطباعة ، ط ١ ، ١٩٩٥م .
ـ عبد الخالق ، عطيات وناهد أحمد حافظ : **فن تربية الصوت وعلم التجويد** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ ، ١٩٨٤) .
ـ عبد الرحمن ، عبد الهادي : **سلطة النص** ، (بيروت : المركز الثقافي العربي ، ط ١ ، ١٩٩٣م) .
ـ عبد الرزاق ، أبو بكر : **الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية** ، (القاهرة : المكتب الثقافي للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٠م) .
ـ عبد الرزاق ، أبو بكر بن همام الصنعاني : **المصنف** ، تح : حبيب الرحمن الأعظمي ، (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ) .
ـ عبد الغفار ، السيد أحمد : **ظاهرة التأويل وصلتها باللغة** ، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د . ط . ت) .
ـ عبد الغفار ، عبد السلام : **مقدمة في علم النفس العام** ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ط ٢ ، د . ت) .
ـ عبد الله ، محمد محمود : **حصر الفوائد في القرآن الكريم** ، (الرياض : الدار الوطنية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م) .
ـ العبد ، محمد : **المفارقة القرآنية (دراسة في بنية الدلالة)** ، (بيروت : دار الفكر العربي ، د . ط ، ١٩٩٤م) .
ـ عتيق ، عبد العزيز : **في النقد الأدبي** ، (بيروت : دار النهضة العربية ، ط ٢ ، ١٩٧٢م) .
ـ عثمان ، حسني شيخ : **حق التلاوة** ، (الزرقاء : مكتبة المنار ، ط ٩ ، ١٩٩٠م) .
ـ العثمان ، عبد الكريم : **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص** ، (عابدين : مكتبة وهبه ، ط ٢ ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) .
ـ العدناني ، محمد : **معجم الأغلاط اللغوية المعاصر** ، (بيروت : مكتبة لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٩م) .
ـ العدوي ، محمد خير محمود : **معالم القصة في القرآن** ، (مصر : دار العدوي ، ط ١ ، ١٩٨٨م) .

ـ عرجون ، محمد الصادق : **نحو منهج لتفسير القرآن** ، (جدة : الدار السعودية للنشر ، ط ٢ ، ١٣٩٧ـ١٩٧٧) .
ـ عز الدين ، كمال : **الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية** ، (بيروت : دار اقرأ ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) .
ـ العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ت (٣٩٥هـ) : **أخبار المصحفين** ، تح : صبحي البدري السامرائي ، (بيروت : عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ) .
ـ ــــ ، **تصحيفات المحدثين** ، تح : محمود أحمد ميرة ، (القاهرة : المطبعة العربية الحديثة ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ) .
ـ ــــ ، **جمهرة الأمثال** ، تح : محمد أبلو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٨٨م) .
ـ ــــ ، **الصناعتين « الكتابة والشعر »** ، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، (بيروت : المكتبة العصرية ، د . ط ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) .
ـ ــــ ، **الفروق اللغوية** ، تح : أحمد سليم الحمصي ، (بيروت : جروس برس ، ط ١ ، ١٩٩٤م) .
ـ عضيمة ، عبد الخالق : **دراسات لأسلوب القرآن** ، (القاهرة : دار الحديث ، د . ط . ت) .
ـ العظيم الآبادي ، محمد شمس الحق أبو الطيب : **عون المعبود في شرح سنن بي داود** ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، ١٤١٥هـ) .
ـ العفيفي ، محمد : **القرآن القول الفصل بين كلام البشر وكلام رب العالمين** ، (الكويت : ذات السلاسل ، د . ط ، ١٩٧٧م) .
ـ العلوي ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طاطبا : **عيّار الشعر** ، تح : عبد العزيز بن ناصر المانع ، (الرياض : دار العلوم ، د . ط ، ١٩٨٥م) .
ـ العلوي ، يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم اليمني : **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط ، ١٩٨٢م) .
ـ العمري ، أحمد جمال : **مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس هجري** ، (القاهرة : دار المعارف ، د . ط . ت) .
ـ عوضين ، إبراهيم : **البيان القصصي في القرآن** ، (الرياض : دار الأصالة للثقافة والنشر ، ط ٢ ، ١٩٩٠م) .
ـ الغرناطي ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير : **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل** ، تح : سعيد الفلاّح ، (بيروت : دار الغرب الإسلامي ، د . ط ، ١٩٨٣م) .

- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ت (٥٠٥هـ) : **إحياء علوم الدين** ، (بيروت ، دار المعرفة ، د . ط . ت) .
- الغزالي ، محمد : **كيف نتعامل مع القرآن** (هيرندن/ فرجينيا : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط ٣ ، ١٩٩٤م) .
- ـــ ، **نظرات في القرآن** ، (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ط ٥ ، د . ت) .
- الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان ت (٣٣٩هـ) : **الموسيقى الكبير** ، تح : غطاس عبد الملك خشبة ، (القاهرة : دار الكاتب العربي ، د . ط ، ١٩٦٧م) .
- فارس ، أحمد محمد : **النماذج الإنسانية في القرآن الكريم** ، (بيروت : دار الفكر العربي ، ط ٢ ، ١٩٨٩م) .
- الفخر الرازي ، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن : **التفسير الكبير** (مفاتيح الغيب) ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١١هـ-١٩٩٠م) .
- الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : **العين** ، تح : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، (العراق : وزارة الثقافة والإعلام ، د . ط ، ١٩٨٥م) .
- فريد ، فتحي عبد القادر : **بلاغة القرآن في أدب الرافعي** ، (القاهرة : دار المنار ، د . ط ، ١٩٨٥م) .
- فضل الله ، محمد حسين : **الحوار في القرآن الكريم** ، (بيروت : دار التعارف ، ط ٥ ، ١٩٨٧م) .
- فهمي ، مصطفى : **الدوافع النفسية** ، (القاهرة : مكتبة مصر ، د . ط ، ١٩٨٧م) .
- ـــ ، **الصحة النفسية** ، (القاهرة : مكتبة مصر ، د . ط ، ١٩٨٧م) . .
- الفياض ، محمد جابر العلواني : **الأمثال في القرآن الكريم** ، (هيرندن : مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٩٥م) .
- الفيومي ، أحمد بن محمد : **المصباح المنير** ، (بيروت : مكتبة لبنان ، د . ط ، ١٩٩٠م) .
- الفيومي ، أحمد عبد التواب : **أبحاث في علم أصوات اللغة العربية** ، (مصر : دار السعادة ، ط ١ ، ١٤١٢هـ-١٩٩١م) .
- القاضي ، أحمد : « **تأثير القرآن على وظائف الجسم البشري وقياسه بواسطة أجهزة المراقبة الالكترونية** » ، (بناما سيتي فلوريدا : عيادات أكبر ، ١٩٨٤م) .
- قدور ، أحمد محمد : **مبادىء اللسانيات** ، (بيروت : دار الفكر المعاصر ، ط ١ ، ١٩٩٦م) .

- القذافي ، محمد رمضان : **علم النفس الإسلامي** ، (طرابلس : صحيفة الدعوة الإسلامية ، ط ١ ، ١٩٩٠م) .
- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر : **الجامع لأحكام القرآن** ، تح : أحمد عبد العليم البردوني ، (القاهرة : دار الشعب ، ط ٢ ، ١٣٧٢هـ) .
- القزويني ، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن : **الإيضاح في علوم البلاغة** ، (بيروت : دار إحياء العلوم ، ط ٤ ، ١٩٩٨م) .
- ـــــ ، **التلخيص في علوم البلاغة** ، شرح : محمد هاشم دويدري ، (بيروت : دار الجيل ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م) .
- القشيري ، عبد الكريم : **الرسالة القشيرية في علم التصوّف** ، تح : معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي ، (بيروت : دار الجيل ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ ـ١٩٩٠م) .
- القصبي ، محمود زلط : **قضايا التكرار في القصص القرآني** ، (القاهرة : دار الأنصار ، ط ١ ، ١٩٧٨م) .
- قطب ، سيد : **التصوير الفني في القرآن** ، (القاهرة : دار المعارف بمصر ، د . ط . ت) .
- ـــــ ، **في ظلال القرآن** ، (القاهرة : دار الشروق ، ط ١١ ، ١٩٨٥م) .
- ـــــ ، **مشاهد القيامة في القرآن** ، (بيروت : دار الشروق ، د . ط . ت) .
- ـــــ ، **النقد الأدبي أصوله ومناهجه** ، (القاهرة : دار الشروق ، ط ٧ ، ١٩٩٣م) .
- قطب ، محمد : **دراسات في النفس الإنسانية** ، (بيروت : دار الشروق ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م) .
- القلقشندي ، أحمد بن علي : **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** ، تح : يوسف علي الطويل ، (دمشق : دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٧٨م) .
- قنديل ، شاكر ، ومجموعة من المؤلفين : **معجم علم النفس والتحليل النفسي** ، (بيروت : دار النهضة ، ط ١ ، ١٩٩٤م) .
- قنيبي ، حامد صادق : **المشاهد في القرآن الكريم** ، (الزرقاء : مكتبة المنار ، د . ط ، ١٩٨٤م) .
- القيسي ، مكي بن أبي طالب : **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة** ، تح : أحمد فرحات ، (عمان : دار عمار ، ط ٢ ، ١٩٨٤م) .
- الكتاني ، محمد بن جعفر ت(١٣٤٥هـ) : **الرسالة المستطرفة** ، تح : محمد المنتصر محمد الزمزمي ، (بيروت : دار البشائر الإسلامية ، ط ٤ ، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م) .

- الكراعين ، أحمد نعيم : **علم الدلالة بين النظرية والتطبيق** ، (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٣م) .
- الكرماني : محمود بن حمزة بن نصر : **البرهان في توجيه متشابه القرآن** ، تح : عبد القادر عطا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٨٦م) .
- كمال ، يوسف الحاج : **في فلسفة اللغة** ، (بيروت : دار النهار ، د . ط ، ١٩٦٧م) .
- اللاذقي ، محمد بن عبد الحميد ت (٨٨٨هـ) : **الرسالة الفتحية في الموسيقى** ، شرح وتحقيق : هاشم محمد الرجب ، (الكويت : د . ن ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م) .
- لاشين ، عبد الفتاح : **من أسرار التعبير في القرآني** ، (الرياض : دار عكاظ للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) .
- لانسون ومابيه : **منهج البحث في الأدب واللغة** ، ترجمة : محمد مندور ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٨٢م) .
- مؤسسة أعمال الموسوعة : **الموسوعة العربية الميسرة** ، (الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٦م) .
- المبارك ، محمد : **دراسة أدبية لنصوص من القرآن** ، (بيروت : دار الفكر ، ط ٤ ، ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م) .
- ـــــ ، **فقه اللغة وخصائص العربية** ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط . ت) .
- المباركفوري : محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم : **تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي** ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ط . ت) .
- مجاهد ، عبد الكريم : **الدلالة اللغوية عند العرب** ، (عمان : دار الضياء ، د . ط ، ١٩٨٥م) .
- المحاسني ، زكي : **الأدب الديني** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٩٧٠م) .
- محمود ، مصطفى : **القرآن محاولة لفهم عصري** ، (القاهرة : دار المعارف ، ط ٧ ، د . ت)
- محيسن : محمد سالم : **الكشف عن أحكام الوقف والوصل في العربية** ، (بيروت : دار الجيل ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ-١٩٩٢)
- مختار ، عمر أحمد : **دراسة الصوت اللغوي** ، (القاهرة : عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٩٨١م) .
- ـــ ، **علم الدلالة** ، (القاهرة : عالم الكتب ، ط ٤ ، ١٩٩٣م) .

- المدني ، محمد محمد : **القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف** ، (القاهرة : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، د . ط ، ١٩٦٤م) .
- مراد ، يوسف : **مبادىء علم النفس العام** ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٤م ، ط ٢) .
- مسلم ، أبو الحسين القشيري النيسابوري : **صحيح مسلم** ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) .
- مطر ، عبد العزيز : **علم اللغة وفقه اللغة (تحديد وتوضيح)** ، (قطر : دار قطر بن الفجاءة ، د . ط ، ١٩٨٥م) .
- المطعني ، عبد العظيم ابراهيم محمد : **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية** ، (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٩٩٢م) .
- مطلوب ، أحمد : **معجم المصطلحات البلاغية** ، (بغداد : مطبعة المجمع العلمي العراقي ، د . ط ، ١٩٨٦م) .
- المناوي ، محمد عبد الرءوف ت (١٠٣١م) : **التوقيف على مهمات التعاريف** ، تح : محمد رضوان الداية ، (بيروت : دار الفكر المعاصر ، ط ١ ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م) .
- ــــ ، **فيض القدير** ، (مصر : المكتبة التجارية ، د . ط ، ١٣٥٦هـ) .
- منصور ، طلعت ، وأنور الشرقاوي وعادل عز الدين وفاروق أبو عوف : **أسس علم النفس العام** ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٩٨٩م) .
- منصور ، عبد المجيد سيد أحمد : **علم اللغة** ، (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، ط ١ ، ١٩٨٢م) .
- المودودي ، أبو الأعلى : **المبادىء الأساسية لفهم القرآن** ، (الدمام : الدار السعودية ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) .
- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري : **مجمع الأمثال** ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٨٨م) .
- النجلاوي ، عبد الرحمن : **التربية بالعبرة** ، (بيروت : دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٩٤م) .
- النسفي ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود : **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** ، (بيروت : دار الفكر ، د . ط ، ١٩٨٠م) .
- نقرة ، التهامي : **سيكولوجية القصة في القرآن** ، (تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٧م) .
- نور الدين ، عصام : **مصطلح التذكير والتأنيث « المذكر والمؤنث الحقيقيان »** ، (بيروت : دار الكتاب العالمي ، د . ط ، ١٩٩٩٠م) .

ـ النورسي ، بديع الزمان : **كليات رسائل النور** ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، (استانبول : د . ن . ط ، ١٩٩٠م) .
ـ ـــ ، **المعجزات القرآنية (كليات رسائل النور)** ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، (استانبول : د . ن . ط ، ١٩٩٠م) .
ـ النووي ، أبو زكريا يحي بن شرف الدين : **التبيان في آداب حملة القرآن** ، (دمشق : الوكالة العامة للتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) .
ـ النيسابوري ، أبو عبدالله الحاكم : **المستدرك على الصحيحين** ، تح : مصطفى عبد القادر عطا ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١١هـ) .
ـ الهاشمي ، عبد الحميد محمد : **لمحات نفسية في القرآن الكريم** ، (الرباط : إصدارات مجلة دعوة الحق ، س ٢ ، ع ١١ ، صفر/ ١٤٠٢هـ) .
ـ الهيثمي ، علي بن حجر بن أبي بكر : **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، د . ط ، ١٤٠٧هـ) .
ـ وافي ، علي عبد الواحد : **علم اللغة** ، (القاهرة : دار نهضة مصر ، ط ٩ ، د . ت) .
ـ وجدي ، محمد فريد : **دائرة معارف القرن العشرين** ، (بيروت : دار المعرفة ، ط ٣ ، ١٩٧١م) .
ـ وهبة ، مجدي ، والمهندس ، كامل : **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب** ، (بيروت : مكتبة لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٤م) .
ـ ياسوف ، أحمد : **جماليات المفردة القرآنية** ، (دمشق : دار المكتبي ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م)
ـ يعقوب ، أميل بديع وعاصي ، ميشال : **المعجم المفصل في اللغة والأدب** ، (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١ ، ١٩٨٧م) .

ب ـ الدوريات العربية

ـ أبو عزب ، سليمان عبد الله موسى : **الإبداع اللفظي في القرآن الكريم** ، (لندن : مجلة الجامعة الإسلامية ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م) ، ص ١١٢ وما بعدها .
ـ الأشقر ، عمر سليمان : **كيف كان القرآن شفاء لأمراض الإنسان وقاية وعلاجاً** ، (ليدز : مجلة الحكمة ، ع ١٥ ، ١٩١٩م) ، ص ٢١٨ وما بعدها .
ـ الباقوري ، أحمد : **فن التجويد هو موسيقى القرآن** ، (الكويت : مجلة الوعي الإسلامي ، ع ٧٣ ، السنة الثالثة والسبعون ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٤م) ، ص٢٩ـ٣١ .

- البسطامي ، محمد مراد : **اللغة بين اللفظ والإشارة** ، (د . م : مجلة الأدب ، ع ٩ ، السنة ٤ ، فبراير/ ١٩٦٠م) .
- البكر ، عبد الله بن تركي : **اللغة وعلاقتها بالفكر والوجدان** ، (د . م : مجلة رؤى ، د . ن ، ع ٦ ، د . ت)
- بوطيب ، عبد العالي : **إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث** (الكويت : مجلة عالم الفكر ، مج ٢٣٣ ، ع ١+٢ ، ١٩٩٤م) ، ص ٤٥٥ وما بعدها .
- الحمد ، غانم قدوري : **كتاب اختلاف القراء في اللام والنون لأبي الحسن علي بن جعفر** الرازي السعيدي ، (ليدز : مجلة الحكمة ، ع ٨) ، ص ٢٤١-٢٥٣ .
- الخولي ، أمين : **البلاغة وعلم النفس** ، (القاهرة : مجلة كلية الآداب ، مج ٤ ، ج ٢ ، د . ت) ، ص ١٣٥-١٦٧ .
- دين ، عدنان محمد « **تلاوة القرآن الكريم عند النباتات تضاعف انتاجه** » ، (الكويت : مجلة المجتمع ، ع ١٣٤٨ ، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) ، ص ٦٢ .
- الرفاعي ، عبد الجبار : **نحو تفسير اجتماعي للقرآن الكريم** ، (قم : مجلة قضايا إسلامية ، ع ٢ ، ١٩٩٥م) .
- الرفاعي ، قاسم : **حوار موسى والعبد الصالح** ، (لبنان : مجلة الفكر الإسلامي ، ع ٨ ، س ١٦ ، ١٩٨٧م) ، ص ٨٥ وما بعدها .
- الرفاعي ، نجيب : **أثر القرآن على قلوب الأمريكان** ، (الكويت : مجلة المجتمع ، ع ١٢٠٦ ، صفر/ ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م) ص ٥٨ وما بعدها .
- الزرقا ، مصطفى : **العبادة في الإسلام لا يجوز أن تصحبها موسيقى** ، (مصر : مجلة الأزهر ، ج ١ ، السنة ٣٢ ، ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م) ، ص ٩٠ .
- شاكر ، محمود : « **نمط صعب ونمط مخيف** » ، (د . م : مجلة المجلة ، حلقة ٥ ، ع ١٥٥ ، نوفمبر/ ١٩٦٩م) ، ص٩ وما بعدها .
- الضباع ، علي : **مبتدعات القراء في قراءة القرآن** ، (د . م : مجلة كنوز الفرقان ، ربيع الأول/ ١٣٦٨هـ) .
- عباس ، فضل حسن : **الكلمة القرآنية** ، (الكويت : مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، س ٢ ، ع ٤ ، ١٩٨٥م) .
- عكام ، فهد : **نحو تأويل تكاملي للنص القرآني** ، (دمشق : مجلة التراث العربي ، ع ٧٠ ، س ١٨ ، كانون الثاني ، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م) .
- العماري ، علي : **ذعلى هامش الدراسات القرآنية** : (المدينة المنورة : مجلة الجامعة الإسلامية ، ع ٤ ، س ٦) .

- عوضين ، إبراهيم : **الكلمة في البيان القرآني** ، (السعودية : التضامن الإسلامي ، ع ١٠+ ١١ ، السنة ٣٦ ، ١٤٠٢هـ) ، ص ١٥ وما بعدها .
- الغريب ، أحمد أبو اليزيد علي : **التنغيم في إطار النظام النحوي** ، (السعودية : مجلة جامعة أم القرى ، س ١٠ ، ع ١٤ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م)
- قدور ، أحمد محمد : **مقدمة لدراسة التطور الدلالة في العربية الفصحى في العصر الحديث** ، (الكويت : مجلة عالم الفكر ، (الكويت ، م ١٦ ، ع ٣ ، ١٩٨٥م) .
- قطب ، سيد : **دلالة الألفاظ على المعاني** ، (مصر : مجلة الثقافة ، ع ٧٨ ، ١٩٤٠م) .
- ـــــ ، **دلالة الألفاظ على المعاني** ، (مصر : مجلة الثقافة ، ع ٧٨و ٧٩ ، نوفمبر ، ١٩٤٠م) .
- ـــــ ، **دلالة الألفاظ على المعاني** ، (مصر : مجلة الثقافة ، ع ٧٩ ، ١٩٤٠م) .
- ـــــ ، **الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية** ، (مصر : صحيفة دار العلوم ، ع ٣ و٤ ، يناير/ ١٩٣٨م) .
- ـــــ ، **الصور والمعاني (الحس والذهن في الشعر العربي)** ، (مصر : مجلة الكتاب ، السنة الأولى ، ١٩٤٥م) ، ص ٨٥٠ .
- ـــــ ، **المعاني والظلال** ، (مصر : مجلة الرسالة ، ع ٥٨١-٥٨٣ ، أغسطس/ ٩٤٤م) .
- ـــــ ، **النماذج البشرية المهموسة** ، (مصر : مجلة الرسالة ، يوليو ١٩٤٣م) ، ص ٥٢٩-٥٣١ .
- قنديل ، شاكر عطية : **العلاقة بين اللغة والفكر** ، (مكة المكرمة : مجلة معهد اللغة العربية جامعة أم القرى ، ع١ ، ١٩٨٢م-١٩٨٣م) ، ص ١٤٩ وما بعدها .
- المبارك ، محمد : **النظم القرآني تركيب الآية والجملة في القرآن** ، (دمشق : مجلة مجمع اللغة العربية ، ع ١و٢ ، مج٤٤ ، شوال/ ١٣٨٨هـ كانون الثاني/ ١٩٦٩م) ، ص ١٤٠-١٤٧ .
- مخلوف ، عبد الرءوف : **السجع والقرآن والباقلاني** ، (مصر : مجلة الأزهر ، ع ٥ ، س ٣٩ ، أكتوبر/ ١٩٦٧م) ، ص ٤٣٨ وما بعدها .
- مدكور ، إبراهيم : **الفكر واللغة** ، (القاهرة : مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، مج ٩ ، ١٩٥٧م) ، ص ١١وما بعدها .
- المدني ، محمد محمد : **مسايرة القرآن للطبيعة الإنسانية** ، (القاهرة : مجلة الأزهر ، س ٣٠ ، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م) ، ص ٥٩٩ وما بعدها .

- ثانيا : المراجع الأجنبية :

- Arberry L. 3591. The Holy Quran. An Introduction with Selection b First Publishiraby. Geerg Allen & Unwin LTD. London.

- Beebe/ S. J.& Remond/ M. V. 9991 Interpersonal Communication/ Allyn and Bacon London.

- Carnop/ R. 8891./Meaning and necessity/ A Study in Semantics and Modal Logic.The University of Chicago Press/Ltd. London.

- Devito/ J. A.2991. The Interpersonal Communication Book 6th Ed.: Harper Collins. New York.

Faruqi/ L. I 6791. The Nature of the Musical art of Islam/ theoretical and_- Al Arabian Music. Doctoral Dissertation. Syracuse University

- Fazlur Rahman.9891. Bibliotheca Islamica/./2nd Edition. Minneapolis. U.S.A.

dia Britannica./ (Chicago: Chief operating؟ - Jacob/ E. Safra/ The new Encyclop Officier/51th Edition/8991).

- Le Coran. Aux Sources de la parole Oraculaire Pierre Cropon de Caprona. Paris.

- Lyons/ J.5991. Linguistic Semantics. 1st published. Cambridge University Press.U.K.

basit_- Marcin/ J. 0791. Regulative Principles in the Quran Chant of Shaikh Abdul

- Maududi S. Abul A'la/ The Meaning of Qura'n/ Pakistan: islamic Publication(PVT)/0002/ 2nd Edition

Nelson/ K 5891. The Art of Recitating the Qur'an 1st Edition. University of Texas press.U.S.A.

- Noldeke/ T. 9091. Geschichte des Qurans. 2nd Ed. Dieterich scre Verlagsbuch handleng. Leipzig.

- Pierre Cropon de Caprona Le Coran Aux Sources de la parole Oraculaire. Paris

dia Britannica. 51th Edition. Chief operating؟ - Safra J. E. 8991.The new Encyclop Officer Chicago V. 11. & V. 71.

- Samovar/ L.A. P. Richard E./S.& Lisa A8991. Communication Between Cultures/ Wadsworth publishing company.U.S.A

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ملحق رقم (١)

تقسيم المتكلمين للدلالات شكل (أ)

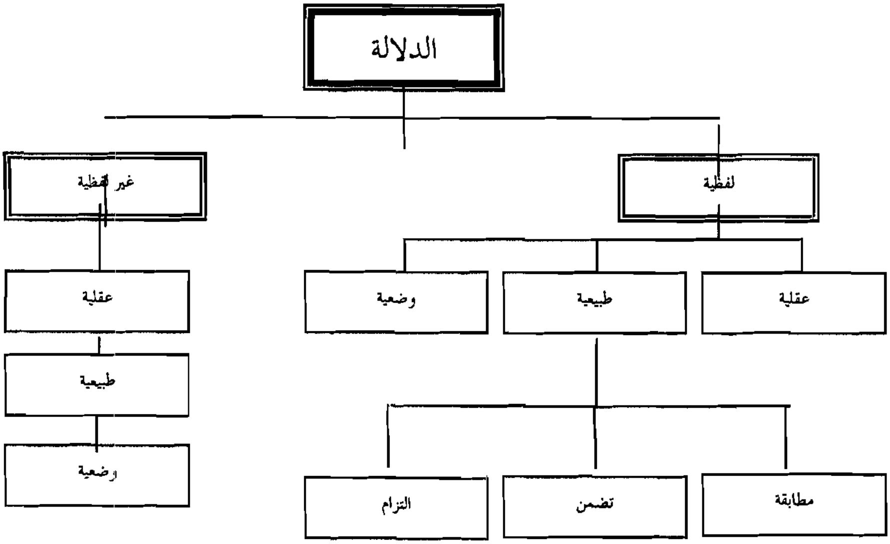

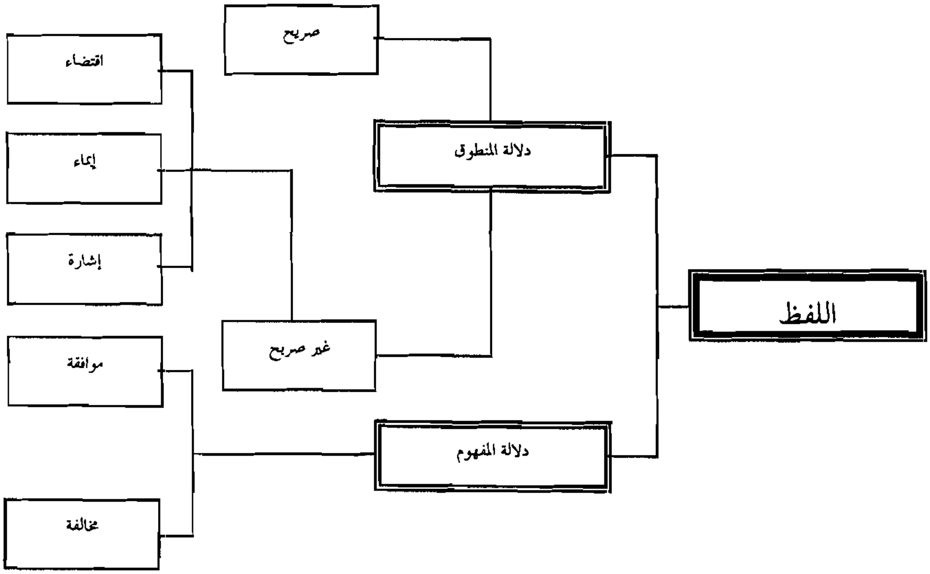

ملحق رقم (٢)
تقسيم الأصوليين للدلالات شكل (أ)

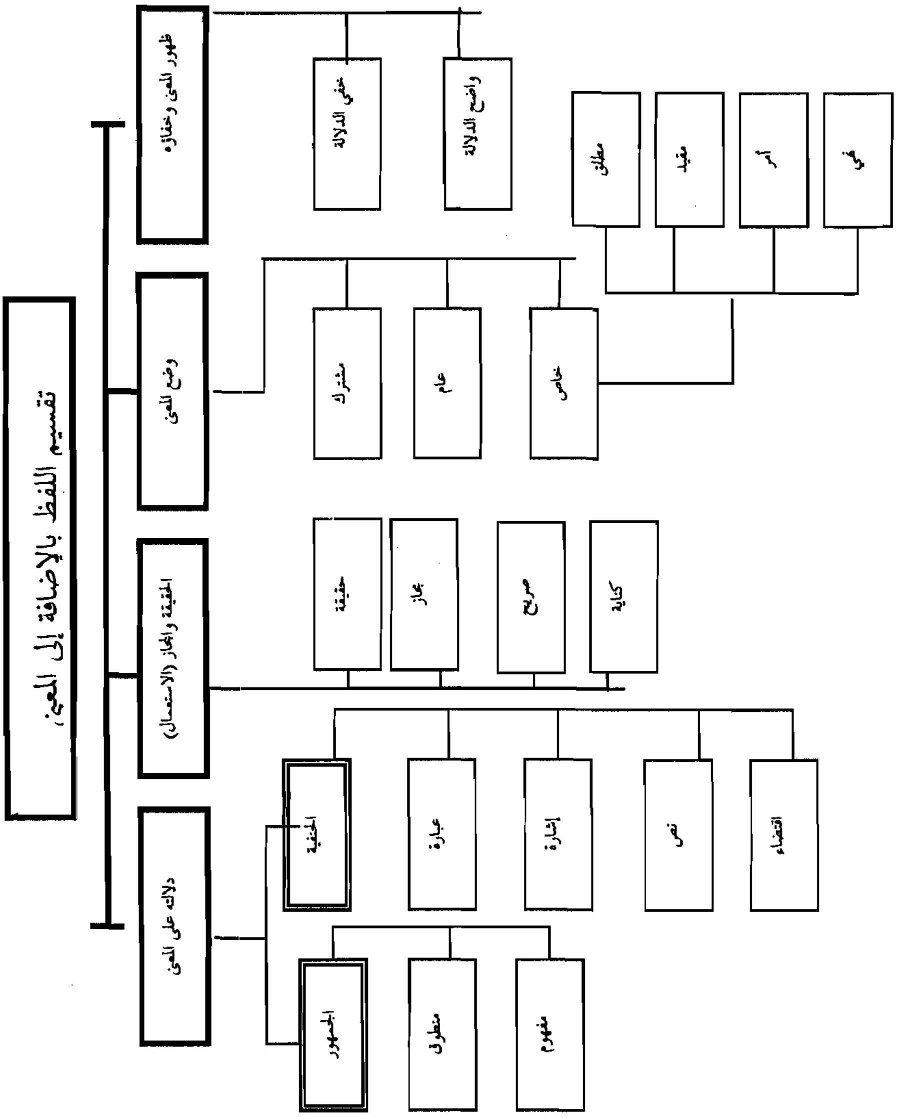

تقسيمات الإصوليين شكل (ب)

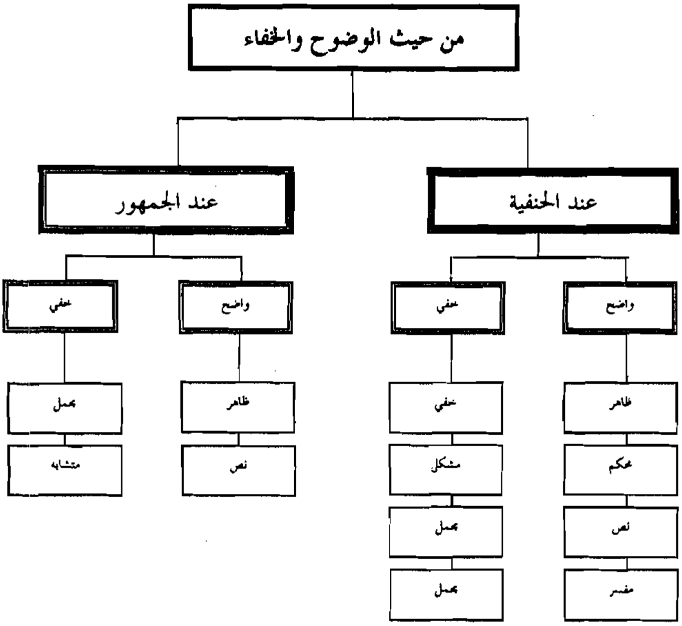

تقسيمات الإصوليين شكل (ج)

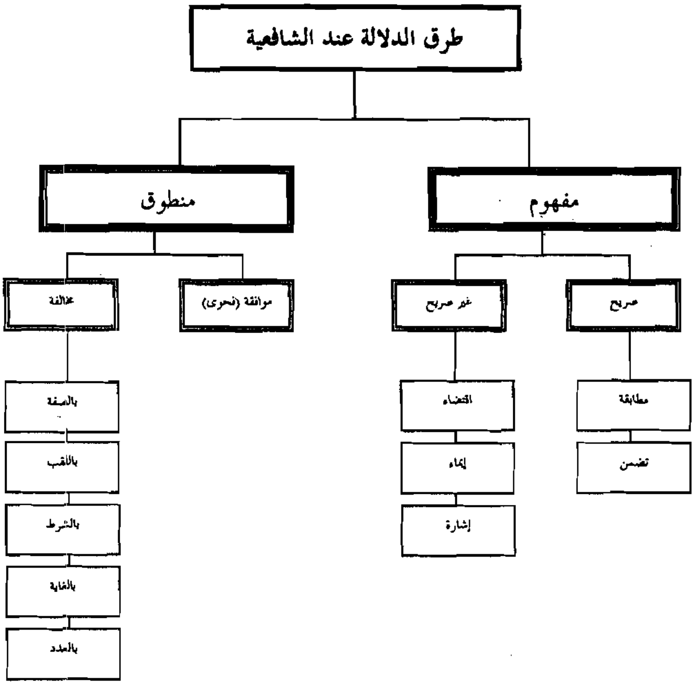

تقسيم الدلالات عند اللغويين شكل (أ)

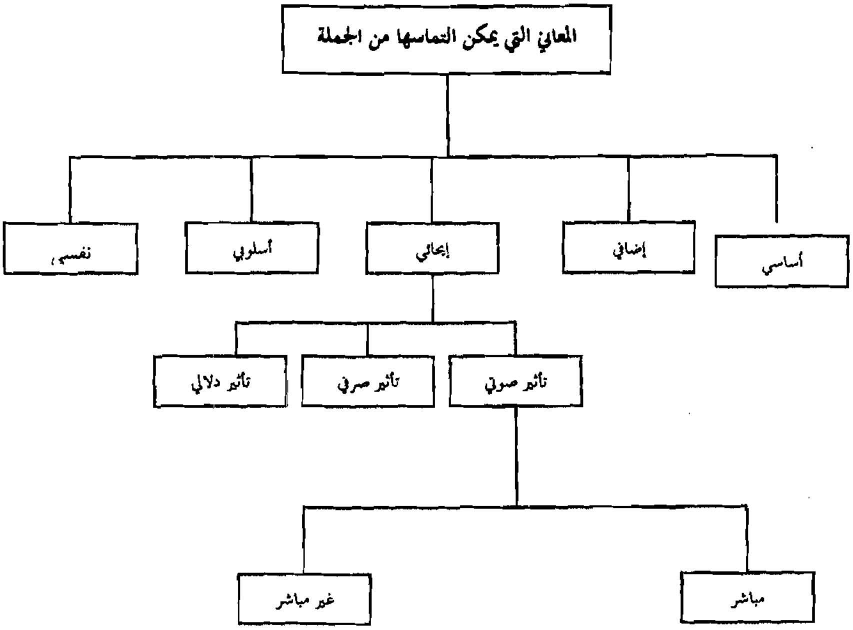

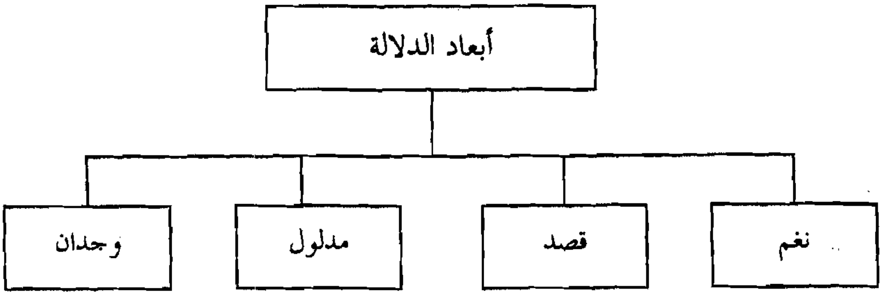

تقسيم الدلالات عند اللغويين شكل (ب)

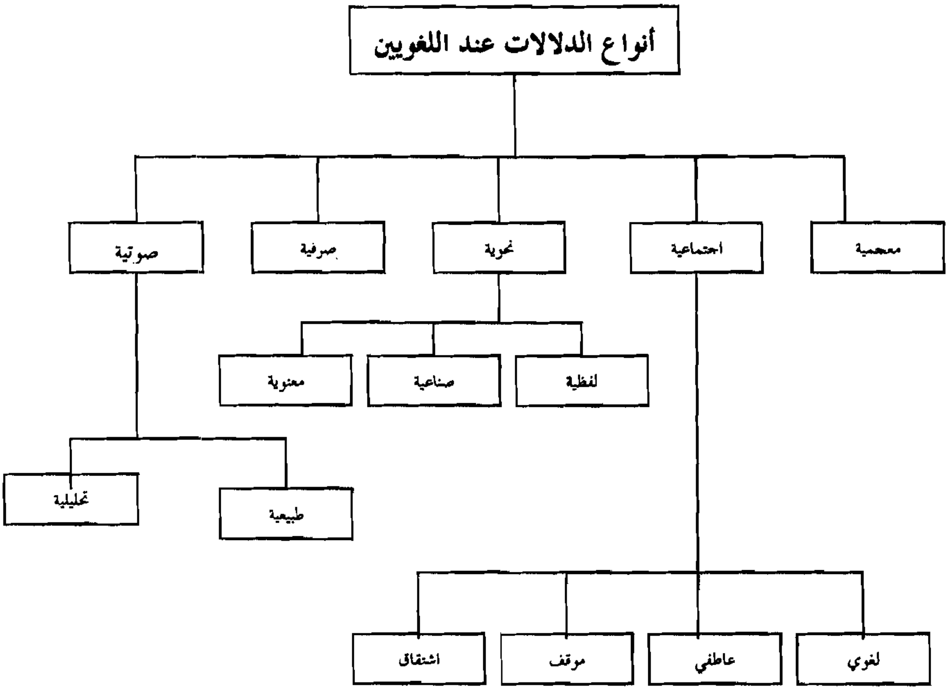

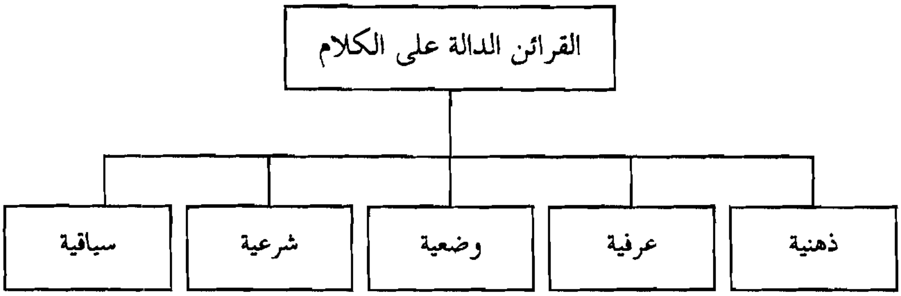

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتوى

الاهداء ٥
شكر وتقدير ٦
الملخص باللغة العربية ٧
الملخص باللغة الإنجليزية ٩
مفتاح الرموز ١٠
صفحة القبول ١٠
توطئة ١١
الباب الأول : مدخل إلى الدراسة ١٥
الفصل التمهيدي مقدمات البحث ١٧
المبحث الأول : محددات الدراسة ١٧
إشكالية البحث ١٧
أسباب اختيار الموضوع ١٧
أهداف البحث ١٨
أهمية الموضوع ١٩
منهجية البحث ٢٠
الدراسات السابقة ٢٠
المبحث الثاني : مصطلحات ومفاهيم عنوان الدراسة ٣٤
الفصل الأول : دلالة الألفاظ ٤٤
تمهيد ٤٤
دلالات الألفاظ وتقسيماتها عند أهل الاختصاص ٤٤
أقسام الدلالات ٤٩
اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما ٥٧
الفصل الثاني : الدلالة النفسية ٥٩
تمهيد ٥٩

المبحث الأول : محددات الدلالة النفسية ٥٩
المبحث الثاني : وسائل التعبير ٦٦
المبحث الثالث : علاقة اللغة بما في النفوس ٧٦
المبحث الرابع : شبهات حول الدلالة النفسية المستنبطة من القرآن وردود عليها . ٨٥
الباب الثاني : البنية الخارجية للتعبير القرآني ١٠٥
الفصل الأول : تأثير القرآن في النفس الإنسانية ١٠٧
المبحث الأول : ماهية الأثر النفسي ومكانه من الإعجاز ١٠٧
المبحث الثاني : أسباب تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية ١٢٧
الفصل الثاني : إيقاع القرآن وأثره النفسي ١٣٨
تمهيد ١٣٨
المبحث الأول : التناغم والتناسق القرآني إسهام في الأداء النفسي ١٤٣
المبحث الثاني : النبر والتنغيم دورهما في الأداء الصوتي للقرآن وأثرهما النفسي ١٤٩
المبحث الثالث : أحكام التجويد وقواعد الإلقاء إسهام في الإيقاع القرآني ١٦٤
المبحث الرابع : الفاصلة القرآنية ١٨٥
الفصل الثالث : آيات وسور القرآن من المنظور النفسي ٢٠٠
تمهيد ٢٠٠
المبحث الأول : قضايا علوم القرآن من الوجهة النفسية ٢٠١
المبحث الثاني : تقسيم وترتيب الآيات والسور والجوانب النفسية ٢٢٠
الباب الثالث : البنية الداخلية التعبيرالقرآني ٢٣٧
الفصل الأول ٢٣٩
المبحث الأول : الحرف القرآني ورسالته النفسية ٢٣٩
المبحث الثاني : الكلمة القرآنية ودورها النفسي ٢٥٣
الفصل الثاني : النظم القرآني والجوانب النفسية ٢٦٧
تمهيد ٢٦٧
المبحث الأول : الاسم والفعل وما يتعلق بهما أو بأحدهما ٢٦٩
المبحث الثاني : التوكيد ٢٩٣
المبحث الثالث : التقديم والتأخير ٣٠٣
المبحث الرابع : الحذف والذكر وجوانبهما النفسية ٣١٣
المبحث الخامس : الفصل والوصل ٣٣٢

المبحث السادس : التكرار وأسراره النفسية ٣٦٠
الفصل الثالث : الصورة البيانية والجوانب النفسية ٣٧٣
تمهيد ٣٧٣
المبحث الأول : بلاغة التشبيه ودلالاته النفسية ٣٧٣
المبحث الثاني : المجاز والمعاني النفسية ٣٨٨
الباب الرابع : مواقف وملامح نفسية في القرآن ٣٩٩
الفصل الأول : مواقف وملامح نفسية ٤٠١
المبحث الأول : المواقف النفسية ٤٠١
المبحث الثاني : الحوار ٤٣١
المبحث الثالث : الأمثال القرآنية وجوانبها النفسية ٤٥٣
الفصل الثاني : القصة القرآنية دراسة في الجوانب النفسية ٤٧٦
تمهيد : ٤٧٦
المبحث الأول : الجوانب النفسية للقصة القرآنية ٤٨٠
المبحث الثاني : نماذج بشرية ٥٣٤
الفصل الثالث : المنهج النفسي معالم وضوابط ٥٩٩
المبحث الأول : معالم المنهج النفسي ٥٩٩
المبحث الثاني : ضوابط المنهج النفسي في تفسير القرآن ....
الخاتمة ٥٨٩
أولاً : نتائج الدراسة ٥٨٩
ثانياً : التوصيات ٥٩٢
النهاية ٥٩٣
قائمة المصادر والمراجع ٥٩٤
ملحق (١) تقسيم المتكلمين للدلالات شكل (أ) ٦١٧
ملحق (٢) تقسيم الأصوليين للدلالات شكل (أ) ٦١٨
تقسيمات الأصوليين شكل (ب ـ ج) ٦١٩
تقسيم الدلالات عند اللغويين شكل (أ) ٦٢٠
تقسيم الدلالات عند اللغويين شكل (ب) ٦٢١
المحتوى ٦٢٥

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com